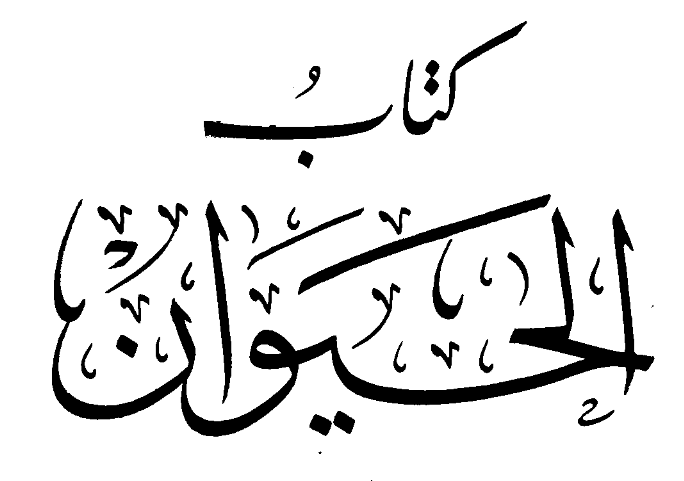


تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٠ هـ

وضع حواشيه

محمد باسل عيون السود

تنبيه:

ألحقنا الفهارس العامة في آخر الكتاب

المجلد الثاني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2243-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسم اللّه الرَّحمن الرحيم

بــاب
ذِكـر الحمـام

وما أودَعَها اللّه عزَّ وجلَّ من ضُروبِ المعرفة، ومِن الخِصال المحمودة، لِتعرفَ بذلك حكمةَ الصَّانِع، وإتقانَ صُنْعِ المدبِّر.

٥٥٧ [استنشاط القارئ ببعض الهزل]

وإن كنَّا قد أمَلْلناك بالجدِّ وبالاحتجاجاتِ الصحيحة والمرَوَّجة؛ لتكثَّر الخواطر، وتشحَذَ العقول - فإنّا سننشِّطُكَ ببعض البَطالات، وبذكر العلل الظَّريفة، والاحتجاجات الغريبة؛ فربَّ شعرٍ يبلُغُ بفَرْط غباوةٍ صاحبه من السرور والضحك والاستطراف، ما لا يبلغه حشدُ أحرِّ النوادر، وأجمَعِ المعاني.

وأنا أستظرفُ أمرَين استظرافاً شديداً: أحدهما استماعُ حديثِ الأعراب. والأمرُ الآخَر احتجاجُ متنازِعَينِ في الكلام، وهما لا يحسنان منه شيئاً؛ فَإِنَّهما يُثيران من غَريبِ الطِّيب ما يُضحِك كلَّ ثَكْلانَ وإن تشدَّد، وكَلَّ غضبانَ وإن أحرقَه لَهَيبُ الغضَب. ولو أنَّ ذلكَ لا يحلّ لكان في باب اللَّهو والضَّحِك والسُّرورِ والبَطالة والتشاغُل، ما يجوز في كلِّ فنّ.

وسنذكر من هذا الشكل عللاً، ونُوردُ عليك من احتجاجات الأغبياء حُجَجاً. فإنْ كنتَ ممَّن يستعمل الملالةَ، وتَعْجَل إليه السآمة، كان هذا البابُ تنشيطاً لقلْبك، وجَماماً لقوَّتك. ولنبتدئ النَّظرَ في باب الحمام وقد ذهب عنك الكَلالُ وحدَثَ النشاط.

وإن كنْتَ صاحبَ علمٍ وجدٍّ، وكنت ممرَّناً موقَّحاً، وكنتَ إلفَ تفكيرٍ وتنقيرٍ، ودراسة كتُب، وحلفَ تبيُّن، وكان ذلك عادة لك لم يضرْكَ مكانه من الكتاب، وتخَطِّيه إلى ما هو أولى بك.

٥٥٨ - [ضرورة التنويع في التأليف]

وعلى أنِّي قد عزمتُ - واللّهُ الموفِّق - أنِّي أوشِّح هذا الكتابَ وأفصِّلُ أبوابَه،

بنوادرَ من ضُروبِ الشِّعر، وضروبِ الأحاديث، ليخرج قارئُ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإنِّي رأيتُ الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطْرِبَة والأغانيَّ الحسنة والأوتارَ الفَصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلاَّ في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.

وإذا كانت الأوائلُ قد سارتْ في صغار الكتب هذه السِّيرةَ، كان هذا التَّدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أصلَحَ، وما غايتنا من ذلك كلّه إلاَّ أن تَستَفيدُوا خيراً.

وقال أبو الدَّرداء: إنِّي لأُجمُّ نفسي ببَعْض الباطل، كراهةَ أنْ أحمِلَ عليها من الحق ما يملُّها[1]!

٥٥٩ - [طائفة من النوادر]

١ - [ادّعاء الكرخيِّ الفقه]

فمن الاحتجاجات الطيِّبة، ومن العلل الملهية، ما حدَّثني به ابن المديني قال[2]: تحوَّل أبو عبد الله الكرْخيُّ اللِّحيانيُّ إلى الحَرْبيَّة[3] فادَّعى أنَّه فقيه، وظنَّ أنَّ ذلك يجوزُ له؛ لمكانِ لحيته وسَمْته.

قال: فألقى على باب داره البواريّ، وجلس وجلس إليه بعضُ الجيران، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبدِ الله! رجلٌ أدخلَ إصبَعَه في أنفه فخرَج عليها دمٌ، أيَّ شيءٍ يصنع؟! قال: يحتجم. قال: قعدتَ طبيباً أو قعدتَ فقيهاً؟

٢ - [جواب المروزيّ]

وحدَّثني شمعون الطبيب قال[4]: كنت يوما عند ذي اليَمينين طاهرِ بن الحسين فدخل عليه أبو عبد الله المروَزيّ فقال طاهر: يا أبا عبدِ الله مذْ كمْ دخلتَ العراق؟ قال: منذ عِشرين سنةً، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة. قال: يا أبا عبدِ الله، سألناك عن مسألةٍ فأجبتَنا عن مسألتين!

---

(١) ورد هذا الخبر في البخلاء ١٨٧، ورسائل الجاحظ ٢ / ٩١، ونثر الدرر ٢ / ١٧٠، وانظر مثل هذا الخبر في أخبار الظراف ٢٦.

(٢) ورد هذا الخبر في البيان والتبيين ٢ / ٣٢١ ـ ٣٢٢، وعيون الأخبار ٢ / ٥٤.

(٣) الحربية: محلة كبيرة مشهورة ببغداد، تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد المنصور. (معجم البلدان ٢ / ٢٣٧).

(٤) ورد هذا الخبر في البيان والتبيين ٢ / ٣١٩، والبخلاء ٢٢، وربيع الأبرار ٢ / ١٠٠.

٣ - [جواب شيخ كندي]

وحدَّثني أبو الجهجاه قال: ادَّعى شيخٌ عندنا أنَّه من كندة، قبلَ أن ينظرَ في شيءٍ من نسبِ كِنْدة، فقلت له يوماً وهو عندي: ممن أنت يا أبا فلان؟ قال: من كندة. قلت: من أيِّهم أنت؟ قال: ليس هذا موضعَ هذا الكلام، عافاك الله!

٤ - [جواب خَتَنِ أبي بكر بن بريرة]

ودخلتُ على خَتَن أبي بكر بن بريرة، وكان شيخاً ينتحل قول الإباضيَّة، فسمعتُه يقول: العجبُ ممن يأخذه النَّومُ وهو لا يزعم أنَّ الاستطاعة مع الفعْل[١]! قلت: ما الدليل على ذلك؟ قال: الأشعار الصحيحة. قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله[٢]: [من الرجز]

* مَا إنْ يقَعْنَ الأَرْضَ إلاّ وفقا *

ومثل قوله: [من الرجز]

* يَهوِين شتَّى ويقعن وفقا[٣] *

ومثل قولهم في المثل: «وقَعَا كعِكْمَيْ عَير»[٤].

وكقوله أيضاً: [من الطويل]

مِكـرّ مِفَـرٍّ مُقبِـلٍ مُدْبـرٍ معـاً ... كَجُلمودِ صَخْر حَطَّه السَّيلُ من علِ[٥]

وكقوله[٦]: [من الطويل]

أكفُّ يدي عن أنْ تمسَّ أكفهم ... إذا نحنُ أهوَينا وحاجتنا مَعَا

ثم أقبل عليَّ فقال: أما في هذا مقنع؟ قلت: بلى، وفي دون هذا!

---

(١) ورد الخبر في عيون الأخبار ٢/٥٦.

(٢) الرجز لرؤبة في عيون الأخبار ٢/٥٦.

(٣) الرجز لرؤبة في ديوانه ١٨٠، واللسان والتاج (عنف)، والتهذيب ٣/٤، وبلا نسبة في اللسان ،التاج وأساس البلاغة (وفق)، والتهذيب ٩/٣٤٢، والعين ٥/٢٢٦.

(٤) العِكْم: العدْل، والمثل في مجمع الأمثال ٢/٣٦٤، وفصل المقال ١٩٨، وجمهرة الأمثال ٢/٣٣٦، ويضرب المثل للمتساويين.

(٥) البيت لامرئ القيس من معلقته في ديوانه ١٩، واللسان (علا)، والجمهرة ١٢٦، والتاج (فرر، علا)، والعين ٧/١٧٤، وإصلاح المنطق ٢٥، والخزانة ٢/٣٩٧، ٣/٢٤٢، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حطط).

(٦) البيت لحاتم الطائي في ديوانه ١٧٤، وأمالي القالي ٢/٣١٨ وشرح شواهد المغني ٢/٧٤٤.

٥ - [جواب هشام بن الحكم]

وذكر محمَّدُ بنُ سلاَّم عن أبانِ بنِ عثمانَ قال: قال رجلٌ من أهل الكوفة لهشامِ ابن الحكم: أتُرَى اللّهَ عزَّ وجلّ في عدْله وفضلِه كلَّفنا ما لا نطيقُ ثمَّ يعذِّبُنا؟! قال: قدْ واللّه فعل، وكنَّا لا نستطيع أنْ نتكلَّم به!

٦ - [مسائل بين ممرور وأبي يوسف]

وحدَّثني محمّد بن الصباح قال: بينا أبو يوسفَ القاضي يسيرُ بظَهْر الكوفة - وذلك بعدَ أن كتبَ كتابَ الحِيَل - إذ عرضَ له ممرورٌ عندنا أطيب الخلْق، فقال له: يا أبا يوسف، قد أحسنتَ في كتاب الحيل، وقد بقيتْ عليكَ مسائلُ في الفطن، فإنْ أذنت لي سألتك عنها. قال: قد أذنتُ لكَ فَسَلْ. قال: أخبرْني عن الحرِ كافرٌ هو أو مؤمن؟ فقال أبو يوسف: دينُ الحرِ دينُ المرأة ودينُ صاحبة الحر: إن كانت كافرةً فهو كافر، وإن كانت مؤمنةً فهو مؤمن. قال: ما صنعت شيئاً. قال: فقل أنت إذَنْ؛ إذْ لم ترض بقولي. فقال: الحرُ كافر. قال: وكيف علمت ذلك؟ قال لأنَّ المرأةَ إذا ركعَتْ أو سجَدَتْ استدبر الحرُ القبلة واستقبلت هي القبلة، ولو كان دينُه دينَ المرأة لصنع كما تصنع. هذه واحدةٌ يا أبا يوسف. قال: صدقت.

قال: فتأذن لي في أخرى؟ قال: نعم. قال: أخبرني عنك إذا أتيتَ صحراءَ فهجمْتَ على بَول وخِراء كيف تعرف أبولُ امرأةٍ هو أم بول رجل؟ قال: واللّه ما أدري! قال أجل واللّه ما تدري! قال: أفتعرف أنت ذاك؟ قال: نعم، إذا رأيت البول قد سال على الخِراء وبين يديه فهو بولُ امرأة، وخِراء امرأة. وإذا رأيت البولَ بعيداً من الخِراء فهو بول رجل وخِراء رجل. قال: صدقت!

قال: وحكى لي جوابَ مسائلَ فنسيت منها مسألة، فعاودته فإذا هو لا يحفظها.

٧ - [التفاف شعر الاست]

وحدَّثني أيُّوب الأعورُ، قال قائل للحجاج العبْسي: ما بال شعر الاسْتِ إذا نبتَ أسرع والتفّ؟ قال: لقربه من السَّماد والماء هطِلٌ عليه! !

٨ - [جواب نوفل عريف الكناسين]

وحدَّثني محمَّد بن حسَّان قال: وقفتُ على نوفلٍ عَريفِ الكنَّاسين، وإذا مُوسْوَس قد وقف عليه، وعندَه كلُّ كنَّاس بالكَرْخ، فقال له الموسوَس: ما بال بنتِ

وردان[1] تدعُ قعرَ البئر وفيه كُرٌّ[2] خراء وهو لها مُسْلمٌ وعليها موفر، وتجيء تطلب اللُّطاخة التي في است أحدنا وهو قاعدٌ على المَقْعَدة، فتلْزم نفسها الكُلفةَ الغليظة، وتتعرَّض للقتل، وإنَّما هذا الذي في أستاهنا قيراط من ذلك الدرهم، وقد دفعنا إليها الدِّرهم وافياً وافراً. قال: فضحك القوم، فحرَّك نوفلٌ رأسَه ثم قال: أتضحكون؟! قدْ واللّه سأل الرجل فأجيبوا ! وأمَّا أنا فقد - واللّه - فكَّرت فيها منذ ستِّينَ سَنَةً، ولكنَّكم لا تنظرون في شيءٍ من أمر صناعتكم. لا جَرَمَ أنَّكم لا ترتَفعُون أبداً! قال له الموسوَس: قلْ - يرحمُك اللّه - فانتَ زعيمُ القوم، فقال نوفل: قد علمنا أنَّ الرُّطَب أطْيبُ من التَّمر، والحديثَ أطرف من العتيق، والشيءَ من مَعْدنه أطيَب، والفاكهةَ من أشجارِها أطرف. قال: فغضب شريكَه مسبِّح الكنَّاس ثم قالَ: واللّه لقد وبَّختنا، وهوَّلتَ علينا، حتى ظنَنَّا أنَّك ستُجيب بجوابٍ لا يحسنُه أحد، ما الأمرُ عندَنَا وعند أصحابنا هكذا. قال: فقال لنا الموسوس: ما الجواب عافاكم اللّه، فإنِّي ما نمتُ البارحةَ من الفكرَة في هذه المسألة؟ قال مسبِّح: لو أنَّ لرجلٍ ألفَ جاريةٍ حسناء ثم عتَقْنَ عندَه لبَرَدَت شهوتُه عنهنَّ وفترت، ثمَّ إن رأى واحدةً دون أخسِّهن في الحسْن صبا إليها وماتَ من شهوتها. فبنت وردانَ تستظرف تلك اللطاخة وقد ملَّت الأولى؛ وبعضُ الناسِ الفطيرُ أحبُّ إليهم من الخمير. وأيضاً إنّ الكثيرَ يمنَع الشَّهوة، ويورث الصُّدود. قال: فقال الموسوس - واستحسَنَ جوابَ مسبِّح، بعدِ أن كان لا يرى جواباً إلاّ جواب نوفل -: لا تعرفُ مقدارَ العالمِ حتَّى تجلسَ إلى غيره! أنتم أعلم أهل هذه المدَرة، ولقد سألتُ علماءَها عَنهُ منذُ عشرينَ سنةً فما تخلّصَ أحدٌ منهم إلى مثلِ ما تخلّصتم إليه. وقدْ واللّه - أنَمْتم عيني، وطابَ بكم عيشي ! وقد علمنا أنّ كلّ شيءٍ يُسْتَلبُ استلاباً أنَّه ألذ وأطيب. ولذلك صارَ الدَّبيبُ إلى الغلمان ونيكهم على جهة القهر ألذ وأطيب، وكلُّ شيءٍ يصيبهُ الرَّجل فهو أعزُّ عليه من المال الذي يرثه أو يوهب له.

٩ - [علة الحجاج بن يوسف]

قال: وحدَّثني أبانُ بن عثمانَ قال: قال الحجَّاجُ بنَ يوسفَ: واللّه لَطَاعتي أوجَبُ مِنْ طاعةِ اللّه؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿ فاتَّقُوا اللّه مَا استَطَعْتُمْ ﴾[3] فجَعَلَ فيهَا

---

(١) بنات وردان: تسمى فالية الأفاعي؛ وهي دويبة تتولد في الأماكن الندية، وأكثر ما تكون في الحمامات. حياة الحيوان ٢ / ٤٢٩.

(٢) الكر: مكيال للعراق، وستة أوقار حمار«الوقر: الحمل الثقيل»، أو هو ستون قفيزاً، أو أربعون إردباً. «القاموس: كرّ».

(٣) ١٦ / التغابن: ٦٤.

مَثْنَوِيَّةً[1]؛ وقال: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[2] ولم يَجْعَلْ فيها مثنويَّة ولو قلتُ لرجل: ادخل مِن هذا الباب، فلم يدخل، لَحَلَّ لي دمُه!

١٠ - [المدني والكوفي]

قال: وأخبرني محمَّد بن سليمانَ بنِ عبد اللّه النوفليُّ قال: قال رجلٌ من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة: نحن أشدُّ حبّاً لرَسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله - منْكُم يا أهلَ المدينة! فقال المدنيّ: فما بَلَغَ منْ حُبِّكَ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلَم وعلى آله؟ قال: وددت أنّي وَقيتُ رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم - وأنَّه لم يكنْ وصَلَ إليه يومَ أُحُد، ولا في غيره من الأيَّام شيءٌ من المكروه يكرهه إلا كان بي دونَه! فقال المدنيُّ: أفَعِنْدَكَ غيرُ هذا؟ قال: وما يكون غيرُ هذا؟ قال: وددْتُ أنَّ أبا طالبٍ كانَ آمَنَ فسُرَّ به النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم وأنّي كافر!

١١ - [جواب رجل من وجوه أهل الشام]

وحدَّثني أبانُ بنُ عثمان قال: قال ابنُ أبي ليلى: إنّي لأُسَايرُ رجلاً من وُجوه أهل الشَّام، إذْ مرَّ بحمَّالٍ معَه رُمَّان، فتناولَ منه رُمَّانَة فجعَلها في كُمِّه. فَعَجبْتُ من ذلك، ثمَّ رجعت إلى نفسي وكذَّبت بصرى، حتَّى مرَّ بسائلٍ فقير، فأخرجها فناوله إيَّاها. قال: فعلمتُ أنِّي رأيتُها فقلتُ له: رأيتُك قَد فعلتَ عجباً. قال: وما هو؟ قلت: رأيتُك أخذْتَ رُمَّانَةً منْ حَمَّال وأعطيتها سائلاً؟ قال: وإنَّك ممَّن يقول هذا القولَ؟ أما علمتَ أنِّي أَخَذْتُها وكانت سيِّئَةً وأعطيتها فكانت عشْرَ حَسَنَات؟ قال: فقال ابن أبي لَيلى: أمَا علمتَ أنكَ أخذْتَها فكانتْ سيِّئةً وأعطيتَها فلم تُقْبَلَ منك؟!

١٢ - [جهل الأعراب بالنحو]

وقال الربيع: قلت لأعرابيٍّ: أتَهْمِزُ إسرائيل؟ قال: إنِّي إذاً لَرَجُلُ سَوْء؟ قلت: أتجرُّ فِلَسطين؟ قال: إنِّي إذاً لَقَويّ[3].

١٣ - [احتجاج رجل من أهل الجاهلية]

قال: وحدَّثنا حمَّادُ بنُ سلَمَة قال: كان رجلٌ في الجاهليَّة معَه محْجَنٌ يتناوَلُ به مَتاعَ الحاجِّ سَرِقة، فإذا قيل له: سرقت! قال: لمْ أسرِق، إنَّما سَرَق مِحْجَني! قال: فقال حماد: لو كانَ هذا اليومَ حَيّاً لكانَ من أصحاب أبي حَنيفة!

---

(١) مثنوية: استثناء، أي قوله تعالى: ﴿ما استطعتم﴾.

(٢) ١٦/ التغابن: ٦٤.

(٣) الخبر في عيون الأخبار ٢/١٥٧، والبيان والتبيين ٢/٢٢٠.

١٤ - [الأعمش وجليسه]

قال[١]: وحدّثني محمَّد بن القاسم قال: قال الأعمشُ لجليسٍ له: أما تَشتَهي بنانيَّ[٢] زُرْقَ العُيونِ نَقيَّة البطون، سُودَ الظُّهور، وأرغفةً حارَّةً ليِّنة، وخَلاًّ حاذقاً؟ قال: بلى! قال: فانهض بنا. قال الرَّجل: فنَهضْتُ مَعه ودخل منزلَه. قل: فأومأَ إِلَيّ: أنْ خُذْ تلك السَّلَّة. قال: فكشَفها فإذا برغيفين يابسين وسُكُرَّجة[٣] كامَخ شِبِث[٤]. قال: فجعل يأكل. قال: فقال لي تَعال كُلْ. فقلت: وأينَ السمك؟ قال: ما عندي، سمك، إنما قلت لك: تشتهي!

١٥ - [رأيٌ في فقه أبي حنيفة]

قال: وسُئِل حفْصُ بن غِياث عن فِقه أبي حنيفة، قال: كانَ أجهَلَ النَّاسِ بما يكون، وأعرفَهم بما لا يكون[٥].

١٦ - [علة خشنام بن هند]

وأما علة خُشْنَامَ بن هند، فإنَّ خشنام بن هند كان شيخاً من الغالية، وكان ممَّن إذا أراد أنْ يسمِّيَ أبا بكر وعُمرَ قال: الجبْتُ والطَّاغُوت، ومُنْكر ونكير، وأُفٌّ وتُفٌّ، وكُسَير وعُوَير. وكان لا يَزال يُدخِل دارَه حمارَ كسَّاح ويضربه مائَةَ عصاً على أنَّ أبا بكر وعمرَ في جوفه. ولم أر قَطُّ أشدَّ احترافاً منه. وكان مع ذلك نبيذيّاً وصاحبَ حمَام. ويُشبه في القَدِّ والخَرْط شُيوخَ الحربيَّة[٦]. وكان من بني غُبَر من صميمهم. وكان له بُنَيٌّ يتبعه، فكان يزنِّي[٧] أمَّه عند كلِّ حقٍّ وباطل، وعِنْدَ كلِّ جدٍّ وهَزْل. قلت له يوماً - ونحن عند بني رِبْعِيّ: ويْحَكَ، بأيِّ شيءٍ تستحلُّ أنْ تقذِفَ أُمَّه

---

(١) الخبر في ديوان المعاني ١ / ٢٩٢.

(٢) البناني: السمك، انظر نهاية هذه الفقرة.

(٣) سكرجة: إناء صغير يوضع فيه الشيء القليل من الأدم وكل ما يوضع من الكوامخ ونحوها على المائدة حول الأطعمة للتشهي والهضم. الوصلة إلى الحبيب ٨٢٤. الكامخ: نوع من اللبن الحليب واللبن الخاثر، انظر السامي ٢٠٠، وفي الوصلة إلى الحبيب ٨٦٨ «الكامخ: إدام يؤتدم به، وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام».

(٤) الشبث: بقلة معروفة. «القاموس: شبث» وفي اللسان (الشبث: نبات. قال أبو منصور: وأما البقلة التي يقال لها الشبث فهي معربة؛ وأصلها بالفارسية شِوذ).

(٥) الخبر في البيان والتبيين ٢ / ٢٥٣، والبرهان ٣ - ٤.

(٦) الحربية: محلة كبيرة ببغداد، تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد المنصور. معجم البلدان ٢ / ٢٣٧.

(٧) يزنّي: يقذفها بالزنى.

بالزِّنا؟ فقال: لو كانَ عليَّ في ذلك حَرَجٌ لما قذَفْتَها: فلمَ تزوَّجتَ امرأةً ليس في قذْفها حرج؟ قال: إنِّي قد احتَلتُ حيلةً حتَّى حلَّ لي من أجلها ما كان يحرم. قلت: وما تلك الحيلة؟ قال: أنا رجلٌ حديدٌ، وهذا غلامٌ عارم، وقد كنت طلَّقت أمَّه فكنتُ إذا افتريتُ عليها أثمت، فقلت في نفسي إن أرَغتها[1] وخدَعتُها حتَّى أنيكَها مَرَّةً واحدةً حلّ لي بعدَ ذلك افترائي عليها، بل لا يكونُ قولي حينئذ فرْية، وعلمتُ أنَّ زَنْيَةً واحدةً لا تَعدل عشرة آلاف فرْية. فأنا اليَوْمَ أصدُقُ ولستُ أكْذب. والصَّادقُ مأجور. إني واللّهِ ما أشكُّ أنَّ اللّهَ إذا علم أنّي لم أزْنِ بها تلك المرَّة إلاَّ من خوف الإثم إذا قذفتها - أنَّهُ سيجعَلُ تلك الزَّنيةَ له طاعة فقلت: أنتَ الآن على يقين أنّ زناكَ طاعةٌ للّه تعالى؟ قال: نعم.

١٧ - [حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة][2]

قال الشَّيخُ الإباضي وقد ذهب عني اسمُه وكنيتُه وهو خَتن أبي بكر بن بَريرة - وجرى يوماً شيءٌ من ذكرِ التشيُّع والشِّيعة، فأنكر ذلك واشتدَّ غضبُه عليهم، فتوهَّمْتُ أنَّ ذلك إنَّما اعتراه للإباضيّة التي فيه، وقلت: وما عليَّ إن سألته؟ فإنَّه يُقال: إنَّ السائل لا يعْدمُه أنْ يسمَعَ في الجواب حُجَّةً أو حِيلةً أو مُلحة - فقلتُ: وما أنكَرت من التشيُّع ومن ذكر الشِّيعة؟ قال: أنكرتُ منه مكان الشِّين التي في أوّل الكلمة؛ لأني لم أجد الشِّين في أوَّل كلمةٍ قطُّ إلاَّ وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشرٌّ، وشيطان، وشغب، وشحّ، وشمال، وشجَن، وشيب، وشين، وشراسة، وشَنَج[3]، وشَكّ، وشوكة، وَشَبث[4]، وشرك، وشارب، وشطير، وشطور، وشِعرة، وشاني[5]، وشتْم، وشتيم[6]، وشِيطَرْج[7]، وشنعة، وشَناعة، وشأمة، وشوصة[8]، وشتر[9]

---

(١) أراغ: أراد وطلب. «القاموس: راغ».

(٢) ورد الخبر في عيون الأخبار ٢/٥٦.

(٣) الشنج: تقبض الجلد. «القاموس: شنج».

(٤) الشَّبث: دويبة كثيرة الأرجل. «القاموس: شبث».

(٥) الشاني: المبغض. «القاموس: شنأ».

(٦) الشتيم: الكريه الوجه. «القاموس: شتم».

(٩) الشيطرج: دواء معروف نافع لوجع المفاصل والبرص والبهق. «القاموس: شيطرج».

(١٠) الشوصة: وجع في البطن، أو ريح تعتقب في الأضلاع، أو ورم في حجابها من داخل. «القاموس: شوص».

(١١) الشتر: الانقطاع وانقلاب الجفن من أعلى وأسفل، وانشقاقه أو استرخاء أسفله. «القاموس: شتر».

وشجوب[1] وشَجَّة، وشطون، وشاطن[2]، وشنّ[3]، وشلَل، وشِيص[4]، وشاطر[5]، وشاطرة، وشاحب.

قلت له: ما سمعتُ متكلِّماً قطُّ يقول هذا ولا يبلُغه، ولا يقومُ لهؤلاء القَوم قائمةٌ بعد هذا!

١٨ - [حيلة أبي كعب القاص]

قال: وتعشَّى أبو كعبٍ القاصُّ بطفشيل[6] كثير اللّوبيا، وأكثَر منه، وشرِب نبيذَ تمر، وغَلَّس إلى بعض المساجد ليقصَّ على أهله، إذ انفتل الإمامُ من الصلاة فصادف زحاماً كثيراً، ومسْجداً مَستوراً بالبَواريّ[7] من البَرْدِ والرِّيح والمَطر، وإذا محرابٌ غائرٌ في الحائط، وإذا الإمامُ شيخٌ ضعيف؛ فلمَّا صلّى استَدْبرَ المحرابَ وجلسَ في زاويَة منه يسبِّح، وقام أبو كعبٍ فجَعل ظهْرَه إلى وجه الإمام ووَجهه إلى وُجوه القوم، وطبَّق وجه المحراب بجسمه وفَروته وعمامته وكسائه، ولَم يكن بين فَقحته وَبين أنف الإمامِ كبيرُ شيء، وَقَصّ وتحرَّك بطنُه، فأَرَاد أنْ يتفرَّج بفَسوةٍ وَخاف أنْ تصير ضراطاً، فقال في قَصصه: قولوا جميعاً: لا إله إلاّ اللّه! وارفَعوا بها أصواتكم. وفَسا فَسوةً في المحراب فدارت فيه وَجَثَمت على أنف الشيخ وَاحتملها، ثمَّ كدَّه بطنُه فاحتاج إلى أخرى فقال: قولوا: لا إله إلاّ اللّه! وَارفعوا بها أصواتكم. فأَرسل فَسوةً أخرى فلم تُخْطِئْ أنْفَ الشيخ، واختَنقَتْ في المحراب. فخمَّر الشَّيخُ أنفَه، فصار لا يدري ما يصنع. إنْ هو تنفَّس قتلَتْه الرائحة، وإنْ هو لم يتنفَّس مات كَرْباً. فما زَالَ يُداري ذلك، وأبو كعب يقصُّ، فلم يلبَثْ أبو كعبٍ أن احتاجَ إلى أخرى. وكلما طالَ لُبْثُه تولَّد في بَطْنه من النَّفخ على حَسَب ذلك. فقال: قولوا جميعاً: لا إله إلا اللّه! وارفَعوا بها أصواتكَم. فقال الشيخ مِنَ المحراب - وأطْلَعَ رأسَه وقال -: لا تقولوا! لا تقولوا قد قَتلني! إنَّما يريد أن يفسوَ! ثم جذب إليه ثوبَ أبي كعبٍ وقال:

---

(١) شجوب: هموم. «القاموس: شجب».

(٢) الشطون: البعيدة. الشاطن: الخبيث والشيطان، وكل عاتٍ متمرد من إنس أو جن أو دابة. «القاموس: شطن».

(٣) الشن: القربة الخلق الصغيرة. «القاموس: شن».

(٤) الشيص: أردأ التمر، ووجع الضرس أو البطن. «القاموس: شيص».

(٥) شاطر: الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثاً، وقد يراد بها اللص. «القاموس: شطر».

(٦) في القاموس «الطَّفَيْشَل: كسَمَيْدَع، نوع من المرق. وفي معجم استينجاس ٣١٣ (الطفشيل: ضرب من اللحم يعالج بالبيض والجزر والعسل).

(٧) البوري: الحصير المنسوج. «القاموس: بور».

جئت إلى ها هنا لتفسوَ أو تقصّ؟ فقال: جئنا لنقص، فإذا نزلت بليَّةٌ فلا بدّ لنا ولكم من الصَّبر! فضحك الناسُ، واختَلَط المجلس.

١٩ - [جواب أبي كعب القاصّ]

وأبو كعب هذا هو الذي كان يقصُّ في مسجد عتَّاب كلَّ أربعا فاحتَبسَ عليهم في بعض الأيام وطال انتظارُهم له. فبينما هُمْ كذلك إذ جاء رسوله فقال: يقول لكم أبو كعب: انصرفوا؛ فإنِّي قد أصبحْت اليوم مخموراً!

٢٠ - [علة عبد العزيز]

وأمّا علة عبد العزيز بشكست فإنَّ عبدَ العزيز كان له مالٌ، وكان إذا جاءَ وقتُ الزَّكاة وجاء القَوّادُ بغلام مؤاجَر[١]، قال: يا غلام ألك أمٌّ؟ ألك خالات؟ فيقول الغلام: نعم. فيقول: خُذْ هذه العشرة الدراهم - أو خُذْ هذه الدَّنانير - من زكاة مالي، فادفَعْها إليهنَّ، وإنْ شئتَ أن تُبْركني بعد ذلك على جهة المكارمة، فافعل، وإنْ شئتَ أنْ تنْصَرِف فانصرف. فيقول ذلك وهو واثقٌ أنَّ الغُلامَ لا يمنَعُه بعد أخْذ الدراهم، وهو يعلم أنه لن يبلغ من صلاح طباع المؤاجَرين أن يؤدُّوا الأمانات. فَغَبر بذلك ثلاثين سنة وليس له زكاةٌ إلاّ عند أمَّهات المؤاجَرين وأخَوَاتهم وخالاتهم.

٢١ - [احتجاج كوفي للتسمية بمحمد]

وحدثني محمَّد بن عبَّاد بن كاسب قال: قال لي الفضل بن مروان شيخ من طِيَاب الكوفيِّين وأغْبيائهم: إنْ وُلِدَ لك مائةُ ذكرٍ فسمهم كلَّهم محمداً، وكنِّهم بمحمد؛ فإنّك سترى فيهم البركة. أوَ تَدْري لأيِّ شيءٍ كثر مالي؟ قلت: لا واللّه ما أدري. قال: إنَّما كثر مالي لأنِّي سمَّيتُ نَفْسي فيما بيني وبَيْنَ اللّهِ محمداً! وإذا كان اسمي عندَ اللّه محمداً فما أُبالي ما قال الناس!

٢٢ - [جواب الجوهري]

وشبه هذا الحديث قول المرْوَزي: قلت: لأحمد بن رياح الجوهري اشتريتَ كساءً أبيضَ طبَرِيّاً بأربعمائَة درهم، وهو عند الناس - فيما ترى عيونهم قُومَسيّ[٢] يساوي مائَةَ درهَم! قال: عَلمَ اللّه أنَّه طبريٌّ فما عليَّ ممَّا قال الناس؟!

---

(١) آجرت المرأةُ: أباحت نفسها بأجر. «القاموس: أجر».

(٢) قومسي: نسبة إلى قومس، وهي كورة كبيرة واسعة في ذيل جبال طبرستان. «معجم البلدان ٤/٤١٤».

٢٣ - [جواب أبي خزيمة الحارس][١]

وكان عندنا حارسٌ يكنى أبا خُزيمة، فقلت يوماً - وقد خطَر على بالي -: كيفَ اكتنَى هذا العلْجُ الألْكَنُ بأبي خزيمة؟ ثمّ رأيتُه فقلت له: خبِّرني عنك، أكان أبوكَ يسمَّى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فجدُّك أو عمك أو خالك؟ قال: لا. قلت: فلك ابنٌ يسمَّى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فكان لك مولًى يسمى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فكان في قريتك رجلٌ صالح أو فقيهٌ يسمى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فلم اكتنيت بأبي خزيمة، وأنتَ علجٌ ألْكَن، وأنتَ فقيرٌ، وأنت حارس؟ قال: هكذا اشتهيت. قلت: فلأَي شيءٍ اشتَهيتَ هذه الكنيةَ من بينِ جميع الكنى؟ قال: ما يُدريني. قلتُ: فتَبيعُها السَّاعَة بدينارٍ، وتَسكتَني بأيِّ كنيةٍ شئت؟ قال: لا وَ اللّه، ولا بالدُّنْيا وما فيها!

٢٤ - [جواب الزياديِّ لمسعدة بن طارق]

وحدثني مَسْعَدةُ بن طارق، قلت للزياديِّ - ومررتُ به وهو جالسٌ في يوم غمق[٢] حارٍّ ومدٍ[٣]، على باب داره في شروع نَهر الجُوبار[٤] بأردية، وإذا ذلك البحر يبخر في أنفه - قال فقلت له بعتَ دارك وحظَّكَ من دارِ جدِّك زيادٍ بن أبي سفيان، وتركتَ مجلسَك في ساباط غَيث[٥]، وإشرافَك على رَحبة بني هاشم، ومجلسَك في الأبواب التي تلي رَحبة بني سليم، وجلستَ على هذا النَّهر في مثل هذا اليوم، ورضيت به جاراً؟ قال. نلتُ أطولَ آمالي في قرب هؤلاء البَزّازين[٦]. قلت له لو كنت بقُرْبِ المقَابر فقلت نزلت هذا الموضع للاتِّعاظ به والاعتبار كان ذلك وجهاً. ولو كنتَ بقُرْب الحدَّادين فقلت لأتَذكَّرَ بهذه النِّيران والكيران[٧] نار جهنَّم، كان ذلك قولاً. ولو كنت اشتريت داراً بقرب العطَّارين فاعتَلَلت بطَلَب رائحة الطِّيب كان ذلك وجهاً فأمَّا قُرْبُ البَزَّازين فقط فهذا ما لا أعرفه. أفَلَكَ فيهم دارُ غَلَّة، أو هلْ لك عليهم دُيُونٌ حالَّةٌ، أو هلْ لكَ فيهم أو عندَهم غلمانٌ يؤدُّون الضَّريبة، أو هلْ لك معَهم شرْكة مُضارَبةٍ؟ قال: لا. قلت: فما ترجو إذاً من قربهم فلم يكن عنده إلاَّ: نلت آمالي بقُرب البزَّازين.

---

(١) ورد الخبر في البيان والتبيين ٤ / ٢٤ - ٢٥.

(٢) يوم غمق: ذو ندى وثقل. «القاموس: غمق».

(٣) الوَمَدُ: ندى يجيء في صميم الحر من قبل البحر. «القاموس: ومد».

(٤) الجوبار: محلة باصبهان، وقرية من قرى هراة، وموضع بجرجان. معجم البدان ٢ / ١٧٥ - ١٧٦.

(٥) الساباط عند العرب: سقيفة بين دارين من تحتها طريق نافذ. معجم البلدان ٣ / ١٦٦.

(٦) البزاز: بائع الثياب. «القاموس: بز».

(٧) الكيران: جمع كير، وهو الزق ينفخ فيه الحداد. «القاموس: كير».

٢٥ - [حكاية عن ممرور]

وحدثني ثمامة بن أشْرس قال: كان رجلٌ ممرور يقوم كلَّ يوم فيأتي داليةً لقوم، ولا يزالُ يَمْشي مع رجال الدالية على ذلك الجذع ذاهباً وجائياً، في شدَّة الحرِّ والبرد. حتَّى إذا أمسى نزل إليهم وتوضَّأ وصلَّى، وقال: اللّهُمَّ اجعلْ لنا مِنْ هذا فَرجاً ومَخْرجاً! ثمَّ انصرف إلى بيته. فكان كذلك حتّى مات.

٢٦ - [بين أعمى وقائده]

وحدَّثني المكّيّ قال[١]: كان رجلٌ يقود أعْمَى بكراء، وكان الأعمى ربَّما عَثَرَ العَثْرَةَ ونُكب النّكبة، فيقول: اللّهمَّ أبْدِل لي به قائداً خيراً منه! قال: فقال القائد: اللّهُمَّ أبْدِلْ لي بهِ أعَمى خيراً لي منه.

٢٧ - [حماقة ممرور]

وحدثني يزيدُ مولى إسحاقَ بن عيسى قال كُنّا في منزل صاحب لنا، إذْ خرج واحدٌ من جماعتنا ليَقِيلَ[٢] في البيت الآخر، فلم يلبث إلاّ ساعةً حتى سمعناه يصيح: أوْه أوه! قال: فنهَضْنا بأجمعنا إليه فَزعين، فقلنا له: ما لك؟ وإذا هو نائم على شقِّه الأيسر، وهو قَابضٌ على خصيته بيده فقلت له: لم صحت؟ قال: إذا غمزت خُصَيْتي اشتكيتها، وإذا اشتكيتُها صحت. قال: فقلنا له: لا تَغْمِزْها بعدُ حتى لا تشتكي! قال: نعم إن شاء اللّه تعالى.

٢٨ - [حماقة مولاة عيسى بن علي]

قال يزيد: وكانت لعيسى بن عليٍّ مَولاةٌ عجوزٌ خُرَاسانيةٌ تصرُخ بالليل من ضَرَبان ضرس لها، فكانت قد أرَّقت الأميرَ إسحاق، فقلت له: إنَّها مع ذلك لا تَدَعُ أكْلَ التمر! قال: فبعث إليها بالغداة فقال لها: أتأكلين التَّمر بالنَّهار وتَصيحينَ باللَّيلِ؟ فقالت: إذا اشتهيتُ أكلت وإذا أوجَعني صِحت!

٢٩ - [حكاية عن ممرور]

وحدثني ثمامةُ قال[٣]: مَررتُ في غبّ مطرٍ والأرضُ نَديَّة، والسَّماءُ متغيِّمة، والرِّيح شَمالٌ، وإذا شَيخٌ أصْفَرُ كأنَّه جَرَادَة، قدْ جلسَ على قَارعة الطَّريق، وحَجّامٌ

---

(١) الخبر في عيون الأخبار ٢ / ٤٨.

(٢) قال يقيل: نام في نصف النهار. «القاموس: قيل».

(٣) عيون الأخبار ٢ / ٥٢.

زِنجيٌّ يَحْجُمُهُ، وقد وضع على كاهله وأخْدَعَيْه مَحاجِم، كل محْجَمة كأنَّها قَعْب، وقدْ مَصَّ دَمَهُ حتَّى كادَ أنْ يَستَفْرِغَه. قال: فوقَفتُ عليه فقلت: يا شيخُ لِمَ تَحْتَجِم في هذا البرد؟ قال لمكانِ هذا الصُّفار[1] الذي بي.

٣٠ - [صنيع ممرور]

وحدثني ثمامة قال[2]: حدَّثَني سعيد بن مسلم قال: كُنا بخُراسانَ في منزل بعض الدَّهاقين ونحن شَبابٌ، وفينا شيخ. قال: فأتَانا رَبُّ المنزل بدُهن طيبٍ فدَهَنَ بعضُنا رأسَه، وبعضنا لحيته، وبعضُنا مَسَح شاربه، وبعضُنا مَسَح يديه وأمَرَّهُما على وجهه، وبعضُنا أخَذَ بطَرَف إصبعه فأدخَلَ في أنفه ومَسَح به شارِبَه. فَعَمَد الشيخُ إلى بقيَّة الدُّهن فصبَّها في أذنه، فقلنا له: ويحك، خالفت أصحابكَ كُلَّهُم! هل رأيْتَ أحداً إذا أتَوْهُ بدُهن طِيبٍ صبَّه في أذنه؟ قال: فإنّه مع هذا يضرُّني؟

٣١ - [أمْر عيصٍ، سيّد بني تميم]

وحدَّثني مَسْعَدَةُ بنُ طارقٍ الذَّرَّاع قال[3]: واللّه إنَّا لَوُقُوفٌ على حدودِ دار فلان للقسمة، ونحنُ في خصومةٍ، إذْ أقْبَل عيصٌ سيِّدُ بني تميمٍ وموسرهم والذي يصلِّي على جنائزهم. فلمَّا رأيناهُ مقبلاً إلينا أمسَكْنا عن الكلام، فأقبل علينا فقال: حدِّثوني عن هذه الدَّار، هَلْ ضمَّ منها بعضها إلى بعض أحد؟! قال مسعدة: فأنا مُنْذُ ستين سنة أفكِّرُ في كلامه ما أدري ما عَنَى به. قال: وقال لي مرّة: ما من شر من ذين! قلت: ولم ذاك؟ قال: من جرا يتعلقون.

وحدّثني الخليلُ بنُ يحيى السَّلُوليُّ قال[4]: نازَع التميميُّ بعضَ بني عمِّه في حائط، فبَعَث إلينا لنَشهد على شَهادته، فأتاه جماعةٌ منهم الحميريُّ والزهريُّ، والزِّياديُّ، والبكراوي. فلمّا صِرْنا إليه وقف بنا على الحائط وقال: أُشْهِدُكم جميعاً أنَّ نِصفَ هذا الحائط لي!

٣٢ - [جواب ممرور]

قال: وقدِم ابنُ عمٍّ له إلى عمر بن حبيب، وادَّعَى عليه ألفَ دِرهم فقال ابنُ

---

(١) الصفار: الماء الأصفر يجتمع في البطن، أو دود فيها. «القاموس: صفر».

(٢) عيون الأخبار ٢/٥٥ - ٥٦.

(٣) عيون الأخبار ٢/٥٤ - ٥٥.

(٤) عيون الأخبار ٢/٥٤، وفيه «نازع التيمي...»

عمِّه: ما أعرفُ ممَّا قالَ قليلاً ولا كثيراً، ولا له عليّ شيء! قال: أصلحك اللّه تعالى! فاكتُبْ بإنكاره. قال: فقال عمر: الإنكار لا يفوتك، متى أردْتَه فهو بَينَ يديك!

٣٣ - [أمنية الجرَّار والغزّال]

قال[١]: وقلت لأبي عتّاب الجرَّار: ألا تَرَى عبدَ العزيزِ الغَزَّال وما يتكلم به في قَصَصه؟ قال: وأيُّ شيء قاله؟ قلت: قال: ليت اللّه تعالى لم يَكُن خلقَني وأنا السَّاعة أعور! قالَ أبو عتّاب: وقد قصَّرَ في القول، وأساءَ في التمني. ولكنِّي أقول: ليتَ اللّه تعالى لم يكُنْ خلقني وأنا الساعة أعمى مقطُوعُ اليدين والرجلين!

٣٤ - [تعزية طريفة لأبي عتَّاب الجرار][٢]

ودخل أبو عتّاب على عمرو بن هدَّاب وقد كُفَّ بَصرُه، والناس يُعزُّونُه، فمثَلَ بينَ يديه، وكان كالجمل المحجُوم[٣]، وله صوتٌ جهير، فقال: يا أبا أسيد، لا يسوءنَّك ذَهابُهما، فلو رأيت ثوابَهما في مِيزانِك تمنّيتَ أنّ اللّه تعالى قد قَطَع يديك ورجليك، ودَقَّ ظَهْرَك، وأدْمى ضِلْعَكَ!.

٣٥ - [داود بن المعتمر وبعض النساء]

وبينما داودُ بن المعتَمر الصُّبَيريّ جالسٌ معي، إذ مرت به امرأةٌ جميلة لها قَوَامٌ وحُسْن، وعينان عجيبتان، وعليها ثيابٌ بيض، فنهَضَ داودُ فلم أشُكّ أنّه قام ليَتْبَعها، فبعثْتُ غلامي ليَعرف ذلك، فلمّا رجع قلت له: قد علمت أنّك إنما قُمتَ لتكلِّمها؛ فليس ينفعُكَ إلا الصِّدق، ولا ينْجِيك منِّي الجُحود، وإنما غايتي أنْ أعرف كيفَ ابتَدأتَ القول، وأي شيءٍ قلتَ لها - وعلمت أنَّه سيأتي بآبدة. وكان مليّاً بالأوابد - قال: ابتدأتُ القول بأنْ قلتُ لها[٤]: لولا ما رأيتُ عليكِ من سيماء الخَيْر لمْ أتبَعْك. قال: فضَحِكتْ حتى استنَدَتْ إلى الحائط، ثمَّ قالت: إنما يمنع مِثلَكَ مِن اتِّباعِ مثلي والطَّمَع فيها، ما يَرَى من سِيماء الخير فأمَّا إذْ قد صار سيماءُ الخير هو الذي يُطمِعُ في النساء فإنا للّهِ وإنا إليه راجعون!

وتبع داودُ بنُ المعتمر امرأة، فلم يزلْ يُطريها حتى أجابت، ودَلَّها على المنزل

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) البرصان ٣٤، وعيون الأخبار ٢ / ٤٨، والعقد الفريد ٣ / ٣٠٩.

(٣) الحجام: شيء يجعل في فم البعير أو خطمه لئلا يعض. «القاموس: حجم».

(٤) عيون الأخبار ٢ / ٥١.

الذي يمكنها فيه ما يريد، فتقدمت الفاجرة وعرض له رجلٌ فشغَلَهُ، وجاء إلى المنزل وقد قضى القَوْمُ حوائجهُمْ وأخَذَتْ حاجتها، فلم تنتظره. فلما أتاهُمْ ولم يَرَها قالَ: أين هي؟ قالوا: واللّه قد فَرَغْنا وذَهَبَت! قال: فأيَّ طريقٍ أخَذَتْ؟ قالوا: لا واللّه ما ندري؟ قال فإنْ عَدَوْتُ في إثْرِها حتَّى أقُومَ على مجامع الطُرق أتُرَوْني الحقها؟ قالوا: لا واللّه ما تَلحقها! قال: فقد فاتَت الآن؟ قالوا: نعم. قال: فعسى أن يكون خيراً! فلم أسمَعْ قَطُّ بإنسانٍ يشكُّ أنَّ السَّلامةَ من الذنوب خير غيره.

٣٦ - [قول الممرور في الجزء الذي لا يتجزأ]

وسأل بعضُ أصحابنا أبا لُقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزَّأ: ما هو؟ قال: الجزء الذي لا يتجزأ هو عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام. فقال له أبو العيناء محمد: أفليس في الأرض جزءٌ لا يتجزأ غيرُه؟ قال: بلى حَمزةُ جزءٌ لا يتجزأ، وجَعْفرٌ جزء لا يتجزأ! قال فما تقول في العباس؟ قال: جزء لا يتجزأ. قال: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزأ، وعمر يتجزأ. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: يتجزَّأ مَرَّتين، والزُّبير يتجزَّأ مرَّتين. قال: فأيَّ شيءٍ تقولُ في معاوية؟ قال: لا يتجزأ ولا لا يتجزأ.

فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الإمام جزْءاً لا يتجزأ إلى أيِّ شيءٍ ذهب، فلم نقع عليه إلاّ أن يكون كان أبو لقمان إذا سمع المتكلِّمين يذكرون الجُزْءَ الذي لا يتجزَّأ، هاله ذلك وكبُر في صدره، وتوهَّمَ أنَّه البابُ الأكبرُ مِن علم الفلسفة، وأن الشيءَ إذا عظُم خَطَرُه سموه بالجزء الذي لا يتجزأ.

وقد تسخَّفْنا في هذه الأحاديث، واستجزْنا ذلك بما تقدَّم من العُذر، وسنَذْكر قَبْلَ ذكرِنا القول في الحمام جملاً من غُرَرٍ ونَوَادرَ وأشْعَارٍ ونُتفٍ وفقَرٍ من قصائدَ قصار وشوارِدَ وأبياتٍ، لنُعطِيَ قارئَ الكِتاب من كلِّ نوعٍ تَذْهَبُ إليه النُّفوسُ نصيباً إن شاء اللّه.

٥٦٠ - [تناسب الألفاظ مع الأغراض]

ولكلِّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ، ولكلِّ نوعٍ مِن المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسَّخيفُ للسخيف، والخَفيفُ للخفيف، والجَزلُ للجَزل، والإفصاحُ في مَوضع الإفصاح، والكِناية في موضع الكَناية، والاسترسال في موضع الاسترسال.

وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْه، وداخلٌ في باب المزاح والطِّيب، فاستعْمَلتَ فيه الإعراب، انقَلَبَ عن جِهَتِه. وإنْ كان في لفظه سُخْف وأبْدَلْتَ

السَّخافَة بالجَزالة، صارَ الحديثُ الذي وَضِع على أنْ يُسرَّ النُّفوسَ يُكْرُ بها، ويَأْخُذُ بأكظامها[1].

٥٦١ - [الورع الزائف][2]

وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكرِ الحرِ والأير والنيك ارتَدَع وأظهر التقَزُّز، واستَعْمَلَ بابَ التَّوَرُّع. وأكثَرُ مَنْ تجدَه كذلكَ فإنَّما هو رجلٌ ليس مَعَه من العَفاف والكَرَم[3]، والنُّبْل والوَقار، إلاَّ بقَدْرِ هذا الشَّكلِ من التَّصنع. ولم يُكْشَفْ قطُّ صاحبُ رياءٍ ونِفاقٍ، إلاَّ عن لؤمٍ مُسْتَعْمَل، ونذالةٍ متمكِّنة.

٥٦٢ - [تسمُّح بعض الأئمة في ذكر ألفاظ]

وقد كان لهم في عبدِ اللّه بن عباسٍ مَقْنَع، حينَ سَمِعه بعضُ الناس[4] يُنشد في المسجد الحرام: [من الرجز]

وهُنَّ يَمشِينَ بنا هَميسَا ... إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لميسَا[5]

فقيل له في ذلك، فقال: إنَّما الرَّفَثُ ما كان عند النساء.

وقال الضَّحَّاك: لو كان ذلك القولُ رَفَثاً لكان قطْعُ لسانه أحبُّ إليه من أن يَقُولَ هُجْراً.

قال شَبيبُ بن يزيد الشيباني، لَيْلَةَ بَيَّتَ عتَّابَ بنَ ورقاء: [من الرجز]

* مَنْ يَنِكِ الْعيْرَ يَنِكْ نَيَّاكا[6] *

وقال عليُّ بنُ أبي طالب - رضي اللّه عنه - حينَ دخَلَ على بعض الأمراء فقال له[7]: مَن في هذه البيوت؟ فلما قيل له: عقائلُ من عقائل العرب، قال عليٌّ: «مَنْ يَطُلْ أَيْرُ أَبيه يَنْتَطق به»[8].

---

(١) الأكظام: جمع كظم، وهي الحلق؛ أو الفم؛ أو مخرج النفس. «القاموس: كظم».

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ٩٢، «مفاخرة الجواري والغلمان».

(٣) في رسائل الجاحظ «من المعرفة والكرم».

(٤) هو أبو العالية كما في المستدرك للحاكم ٢ / ٤٧٦، وعيون الأخبار ١ / ٣٢١.

(٥) الرجز لابن عباس في رسائل الجاحظ ٢ / ٩٢، وعيون الأخبار ١ / ٣٢١، والجمهرة ٤٢٢، واللسان والتاج (رفث، همس)، والتهذيب ٦ / ١٤٣، ١٥ / ٧٨، وعمدة الحفاظ (رفث)، وبلا نسبة في العين ٤ / ١٠، والتاج (لمس) والجمهرة ٨٦٣.

(٦) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (نوك)، وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢ / ٣٠٥، والمستقصى ٢ / ٣٦٤، يضرب مثلاً لمن يغالب الغلاب، وتقدم في الفقرة (٤٤٧).

(٧) رسائل الجاحظ ٢ / ٩٢.

(٨) مجمع الأمثال ٢ / ٣٠٠، والمستقصى ٢ / ٣٦٤، وأمثال ابن سلام ١٩٨، وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٥٣، «يريد: من كثر إخوته اشتد ظهره وعزه بهم».

فعَلَى عليٌّ رضي اللّه تعالى عنه - يعوِّل في تنزيه اللفظ وتشريف المعاني.

وقال أبو بكر - رضي اللّه عنه - حين قال بُدَيل بنُ ورقاء للنبيّ ﷺ: جئتَنا بعجرائك وسودانك، ولو قد مَسَّ هؤلاء وخْزُ السِّلاحِ لَقَدْ أسْلَمُوك! فقال أبو بكر - رضي اللّه عنه -: عَضِضْتَ بِبَظْرِ اللاَّت[1]!

وقد رووْا مرفوعاً قوله: «مَنْ يُعْذِرُني من ابن أمّ سباع مُقطِّعَة البُظور؟»[2].

٥٦٣ - [لكلٍّ مقام مقال]

ولو كان ذلك الموضعُ موضعَ كناية هي المستعملة. وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظِ مواضعُ استعملها أهلُ هذه اللُّغة وكان الرأيُ ألاَّ يُلفَظَ بها، لم يَكُنْ لأوَّل. كونها معنًى إلاّ على وجه الخطإ، ولكان في الحزْم والصَّوْنِ لهذه اللُّغة أنْ تُرْفَعَ هذه الأسماء منها.

وقد أصاب كلَّ الصَّوابِ الذي قال: «لِكُلِّ مَقامٍ مَقال»[3].

٥٦٤ - [الورع الذي يبغضه اللّه تعالى]

ولقد دخل علينا فتًى حَدَثٌ كان قَدْ وقَعَ إلى أصحاب عبد الواحد بن زيد ونحنُ عند مُوسى بن عِمْران، فدارَ الحديثُ إلى أن قال الفتى: أفطرتُ البارحةَ على رغيفٍ وزيتونة ونصف، أو زيتونَة وثلث، أو زيتونَة وثُلُثَي زيتونة، أو ما أشبه ذلك. بل أقولُ: أكلت زيتونَة، وما علم اللّه من أخرى، فقال موسى: إنّ مِن الورع ما يُبغِضُه اللّه، علمَ اللّه؛ وأظُنُّ ورَعَكَ هذا من ذلك الورع.

وكان العُتْبي ربّما قال: فقال لي المأمون كذا وكذا، حينَ صارَ التَّجْمُ على قِمَّة الرأس، أو حينَ جازَني شيئاً، أو قبل أن يوازيَ هامتي. هكذا هو عندي، وفي أغلَبِ ظنِّي، وأكرَهُ أنْ أجزِمَ على شيءٍ وهُوَ كما قلت إن شاء اللّه تعالى، وقريباً ممّا نقلت. فيتوقف في الوقت الذي ليسَ من الحديث في شيء. وذلك الحديث إن كان مَعَ طلوعِ الشمسِ لم يَزِدْه ذلك خيراً، وإن كان مَعَ غرُوبها لم ينقُصه ذلك شيئاً. هذا ولعلَّ الحديثَ في نفسه لم يكُنْ قطُّ ولم يَصلْ هو في تلك الليلة البتّة. وهو مع ذلك زعم أنّه دخَل على أصحابِ الكَهف فَعَرف عَدَدَهم، وكانت عليهم ثيابٌ سَبَنيّة

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/٩٣، والنهاية ١/١٣٨.

(٢) يروى هذا القول لحمزة بن عبد المطلب في رسائل الجاحظ ٢/٩٣، والمعارف ٣١٧.

(٣) رسائل الجاحظ ٢/٩٣، ومجمع الأمثال ٢/١٩٨، والمستقصى ٢/٢٩٣، والفاخر ٣١٤.

وكلبهم مُمَعّط الجلد. وقد قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[1].

٥٦٥ - [جملة من نوادر الشعر]

وسنذكرُ من نوادرِ الشِّعر جملةً، فإن نشطت لحِفظِها فاحفَظها؛ فإنَّها من أشعار المذاكرة. قال الثَّقفي[2]: [من البسيط]

مَنْ كَانَ ذَا عَضُدٍ يُدرِكْ ظُلامَتَهُ ... إن الذَّليلَ الَّذي لَيْسَت لَهُ عضُد
تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَا قَلَّ نَاصِرُهُ ... ويَأنف الضَّيمَ إنْ أثْرى لَهُ عَدَدُ

وقال أبو قيس بن الأسلت[3]: [من السريع]

بزٌّ امرئٍ مُسْتَبْسِلٍ حَاذِرٍ ... للدَّهر، جِلْدٍ غيرِ مِجْزَاعِ
الكَيْسُ والقُوَّةُ خيرٌ مِنَ الـ ... إشْفَاقِ والفهةِ والهَاعِ

وقال عَبْدَهُ بنُ الطَّبيب[4]: [من البسيط]

رَبٌّ حَبَانَا بأمْوَالٍ مُخَوَّلَةٍ ... وكلُّ شيءٍ حَبَاهُ اللّهُ تَخويلُ
والمرءُ ساعٍ لأمرٍ لَيْسَ يُدرِكه ... والعيْشُ شُحٌّ وإشْفَاقٌ وَ تأميلُ

وكان عمرُ بنُ الخطَّاب - رضي اللّه تعالى عنه - يردِّد هذا النصف الآخِرَ، ويَعجَبُ مِنْ جَودَة ما قَسم[5].

وقال المتلمِّس[6]: [من الوافر]

وأعْلَمُ علْمَ حَقٍّ غَيْرَ ظَنٍّ ... وتَقْوَى اللّهِ مِنْ خيرِ العَتَاد
لَحِفْظُ المال أيسر من بُغاهُ ... وضرب في البِلادِ بِغَيْرِ زَادِ

---

(١) ١٨/ الكهف: ١٨.

(٢) البيتان للأجرد الثقفي في الشعر والشعراء ٤٦٠، وللثقفي في البيان والتبيين ١/٦٧، ٣/٣٢٥، وعيون الأخبار ٣/٢، والأول للأجرد في التاج (عضد)، وبلا نسبة في الجمهرة ٦٥٨.

(٣) ديوان أبي قيس بن الأسلت ٧٩، والمفضليات ٢٨٥، وشرح اختيارات المفضل ١٢٣٨، والأول في اللسان والتاج (هيع، فكك)، والجمهرة ١٥٨، ١٦١، ٩٧٠، والتهذيب ٣/٢٣، ٩/٤٦٠، والبيان والتبيين ١/٢٠٤، وبلا نسبة في العين ٢/١٧٠، والتاج (دهن)، والمخصص ٢/١٢٢، ٣/٥٢، ٦٥، ١٤/٦٥، وأمالي القالي ٢/٢١٥.

(٤) ديوان عبدة بن الطبيب ٧٥، والمفضليات ١٤٢، وشرح اختيارات المفضل ٦٧٤.

(٥) انظر البيان والتبيين ١/٢٤١.

(٦) الأبيات في الحماسة البصرية ٢/٦٨، ونهاية الأرب ٣/٦٤، والشعر والشعراء ٨٨.

وإصْلاَحُ القَليلِ يزيدُ فيه   ولا يَبْقَى الكثيرُ مَعَ الفَسادِ

وقال آخر[1]: [من الطويل]

وحِفْظكَ مَالاً قَدْ عُنيتَ بجمعهِ   أَشَدُّ من الجمْع الذي أنت طالبُه

وقال حُميد بن ثَور الهِلاليّ[2]: [من الطويل]

أتشْغَلُ عنَّا يَابْنَ عمٍّ فَلن ترى أخا   البخل إلاَّ[3] سوف يعتلُّ بالشغل

وقال ابن أحمر[4]: [من البسيط]

هذا الثناء وأَجْدِرْ أنْ أصاحبه   وقد يدوِّم رِيقَ الطامعِ الأملُ

وقال ابن مقبل[5]: [من الطويل]

هَلِ الدَّهرُ إلاَّ تَارَتَان، فمنهما   أموت وأُخْرَى أبْتَغِي العَيْشَ أكْدَحُ
وكِلتاهما قد خُطَّ لي في صَحيفة   فلا المَوْتُ أهْوَى لي ولا العيش أروحُ

وقال عمرو بن هند[6]: [من الطويل]

وإن الذي ينْهاكمُ عن طلابها   يُناغي نساءَ الحيِّ في طُرَّةِ البُردِ
يُعَلِّلُ والأيَّامُ تنقُصُ عُمْرَه   كما تنقص النِّيران من طرف الزَّند

وقال أُمَيَّة – إن كان قالها[7] – : [من الخفيف]

رُبَّما تَجْزَعُ النُّفُوس مِنَ الأمْـ   ـرِ لهُ فَرْجَة كَحَلِّ العِقَال

---

(١) البيت بلا نسبة في البخلاء ١٧٠، ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٣٧.

(٢) ديوان حميد بن ثور ١٢٧.

(٣) في ديوانه (لاَء)، وعلق محقق الديوان: («لاء» مهموزة هي «لا» النافية؛ وإنما زيد عليها الهمزة لأنه قصد اسميتها).

(٤) ديوان ابن أحمر ١٣٦، والبيان والتبيين ١ / ١٨١، والبرصان ١٩٥، والسمط ١٢٧، والمعاني الكبير ١٢٥٨، واللسان والتاج (دوم)، والتهذيب ١٤ / ٢١٢، وبلا نسبة في المقاييس ٢ / ٣١٦، والمجمل ٢ / ٣٠٢.

(٥) ديوان ابن مقبل ٣٨ – ٣٩، وحماسة البحتري ١٢٣، والخزانة ٥ / ٥٥.

(٦) البيتان لعمرو بن هند في البيان والتبيين ٣ / ٣٤، ولعبد هند بن زيد التغلبي في الوحشيات ١٩.

(٧) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ٤٤٤، وحماسة البحتري ٢٢٣، والخزانة ٦ / ١٠٨، ١١٣، ١٠ / ٩، واللسان والتاج (فرج)، والكتاب ٢ / ١٠٩، والدرر ١ / ٧٧، وله أو لحنيف بن عمير أو لنهار ابن أخت مسيلمة الكذاب في شرح شواهد المغني ٢ / ٧٠٧، ٧٠٨، والمقاصد النحوية ١ / ٤٨٤، وله أو لأبي قيس صرمة بن أبي أنيس أو لحنيف في الخزانة ٦ / ١١٥، ولعبيد بن الأبرص في ديوانه ١٢٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (فرج)، وأمالي المرتضى ١ / ٤٨٦، والبيان والتبيين ٣ / ٢٦٠، والمقاييس ٤ / ٢٢٣، والجمهرة ٤٦٣، وشرح المفصل ٤ / ٣٥٢، ٨ / ٣٠، ومغني اللبيب ٢ / ٢٩٧.

٥٦٦ - [شعر في الغزل]

وقال آخر[١]: [من الطويل]

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَهَا ... عَشيَّة آرَام الكناس رَمِيمُ
ألاَ رُبَّ يوم لَوْ رَمَتْني رَمَيْتُهَا ... ولكنَّ عَهْدي بالنِّضَالِ قديمُ
رَمِيمُ الَّتِي قالتْ لَجارَات بَيْتِهَا ... ضَمِنْت لَكُمْ أَنْ لاَ يَزَالُ يَهيمُ

وقال آخر[٢]: [من البسيط]

لم أَعْطُهَا بيَدي إِذْ بتُّ أَرْشُفهَا ... إلاَّ تطاوَلَ غُصْنُ الجيد للجيد
كما تَطَاعَمَ في خَضْرَاءَ نَاعمَة ... مطوَّقَان أصَاخَا بعد تغريد
فإنْ سَمِعتَ بهلْكٍ للبَخيلِ فقُلْ ... بُعداً وسُحْقاً له مِنْ هَالكٍ مُودي

٥٦٧ - [شعر في الحِكَم والزهد]

وقال أبو الأسود الدؤلي[٣]: [من الكامل]

المرءُ يَسْعَى ثمَّ يُدْرِكُ مَجْدَهُ ... حَتَّى يُزَيَّنَ بالَّذي لم يَفْعلِ
وتَرَى الشقيَّ إذا تكَامَلَ غَيُّه ... يُرْمى ويقْذَفُ بالَّذِي لم يعْمَلِ

وقال دريد[٤]: [من الطويل]

رئيسُ حروب لا يزال ربيئةً ... مشيحٌ على محقوقف الصُّلب مُلْبَدِ[٥]
صَبور على رزء المصائب حافظٌ ... من اليوم أعقاب الأحاديث في غدِ
وهوَّن وجدي أنني لم أقلْ له ... كذَبتَ ولم أبخَلْ بما ملكتْ يدي

وقال سعيدُ بن عبد الرحمن[٦]: [من الطويل]

وإنَّ امرأً يُمسي ويُصْبِحُ سَالِما ... مِنَ النَّاس إلاَّ ما جنَى لَسَعِيدُ

---

(١) الأبيات لنصيب في ديوانه ١٢٥، وأمالي المرتضى ١ /٤٤٧، ولأبي حية النميري في ديوانه ١٧٢، والبيان والتبيين ٣ /٣٢٤، والسمط ٩٢٤، وبلا نسبة في البيان ١ /٦٨، والأمالي ٢ /٢٨٠.

(٢) البيت الأول والثاني بلا نسبة في اللسان والتاج (طعم)، والثاني في أساس البلاغة (طعم)، والتهذيب ٢ /١٩٢، والثالث في الجمهرة ١٢٥٨، والبخلاء ١٥٥.

(٣) ديوان أبي الأسود الدؤلي ٢٣٨.

(٤) ديوان دريد بن الصمة ٥٠ - ٥١، وترتيب الأبيات فيه (٣٨، ٣١، ٤٣)، والأصمعيات ١٠٨.

(٥) الربيئة: الطليعة؛ وهو الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو. مشيح: جاد. المحقوقف: المعوج. ملبد: الفرس: شُدّ عليه لبد السرج.

(٦) البيت لسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في البيان والتبيين ١ /٣٦٤، ولحسان بن ثابت في ديوانه ١٩٨، وعيون الأخبار ٢ /١٢.

وقال أكثمُ بنُ صيفيّ: [من المتقارب]

نُربِّى ويَهْلِك آباؤنَا ... وبَيْنَا نُربِّي بَنِينَا فَنِينَا

وقَال بعضُ المحدَثين: [من المنسرح]

فالآنَ أَسْمحْتُ للخطوب فَلاَ ... يُلْفَي فُؤادي مِنْ حَادثٍ يَجبُ

قَلَّبني الدَّهرُ في قَوالبه ... وكُلُّ شيءٍ ليومِهِ سَبَبُ

وقال آخر[1]: [من الوافر]

لِدُوا للمَوْت وابْنُوا للخَرَاب ... فَكُلُّكُمُ يَصيرُ إلى ذَهاب

أَلاَ يا موتُ لم أَرَ منْكَ بُدّاً ... أَبيتَ فما تَحيفُ ولا تُحَابي

كأنَّكَ قَدْ هجمت على مَشيبي ... كما هَجَمَ المَشيب عَلَى شبابي

وقال آخر: [من البسيط]

يا نفس خوضي بحَارَ العِلْمِ أو غُوصي ... فالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَعْمومٍ ومَخْصوصِ

لا شيء في هذه الدنيا يُحاط به ... إلاَّ إحَاطَةَ مَنقوص بمنقوصِ

٥٦٨ - [شعر في التشبيه]

وأنشدنا للأحيمر[2]: [من الكامل]

بأقَبَّ منْطَلِقِ اللَّبانِ كأنَّه ... سِيدٌ تَنَصَّل من حُجور سَعالي[3]

وقال الآخر[4]: [من الطويل]

أراقب لمحاً من سهيلٍ كأنَّه ... إذَا ما بَدَا مِنْ دُجْية اللَّيل يطرفُ

وقالوا[5]: قال خلفٌ الأحمر: لم أَرَ أجمَعَ مِن بيتٍ لامرئ القيس، وهو قوله: [من المتقارب]

أفادَ وجَادَ وسَاد وزَادَ ... وقاد وذاد وعادَ وأفضل

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية في ديوانه ٣٣، وهي لأبي نواس في ديوانه ٩٩ (طبعة المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٧).

(٢) البيت في البيان والتبيين ٤ /٥٣.

(٣) الأقب: الضامر البطن. «القاموس: قب». اللبان: الصدر. «القاموس: لبن». السيد: الذئب «القاموس: سيد».

(٤) البيت لجران العود في ديوانه ٥٣، والبيان والتبيين ٤ /٤٠، وأساس البلاغة (لوح)، والمجمل ٤ /٢٥٦، وبلا نسبة في المقاييس ٥ /٢٠٩، ٢٢٠.

(٥) ورد الخبر مع البيت في البيان والتبيين ٤ /٥٣،والوساطة ٣٣٧ - ٣٣٨، والعمدة ٢ /٣١ «باب التقسيم».

ولا أجمعَ مِنْ قوله[1]: [من الطويل]

لهُ أَيْطَلاَ ظَبْيٍ وسَاقَا نَعَامَةٍ ... وإرخاءُ سِرْحَانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وقالوا: ولم نر في التشبيه كقوله، حينَ شبّه شيئين بشيئين في حالَتين مختلفين في بيتٍ واحدٍ، وهو قوله[2]: [من الطويل]

كأن قلوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويَابساً ... لدَى وكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفُ البَالي

٥٦٩ - [قطعة من أشعار النساء]:

وسنذكرُ قطعة من أشعارِ النساء. قالتْ أعرابيَّة[3]: [من الطويل]

رَأَتْ نِضْوَ أَسْفارٍ أُميمَةُ شاحبًا ... على نِضْوِ أسفارٍ فجنَّ جُنُونها

فقالتْ: مِن أيِّ الناس أنتَ، ومَنْ تَكُنْ ... فإِنَّكَ مَوْلى فِرْقَةٍ لا تَزينُها

وقالت امرأة من خثعم: [من الطويل]

فإنْ تسألوني مَنْ أُحبُّ فإِنَّني ... أُحبُّ، وبَيت اللّه، كَعْبَ بْنَ طارقِ

أحبُّ الفتى الجَعْدَ السَّلُوليَّ ناضلا ... على النَّاس مُعتاداً لضَرْبِ المَفارِقِ

وقالت أخرى: [من الطويل]

وما أحسَنَ الدُّنيا وفي الدَّارِ خالدٌ ... وأَقبحَها لمَّا تَجهزَ غاديا

وقالتْ أُمُّ فَروة الغطَفانيَّة[4]: [من الطويل]

فما ماءُ مزْنٍ أيُّ ماءٍ تقولهُ ... تَحدَّرَ مِنْ غُرٍّ طِوَالَ الذَّوائب

بمُنْعَرَجٍ أو بَطْنِ وَادٍ تَحدَّرَتْ ... عليه رياحُ الصَّيفِ من كلِّ جانبِ

نَفَى نَسَمُ الرِّيحِ القَذَا عنْ متونِه ... فما إنْ بِهِ عَيبٌ يَكونُ لعائبِ

---

(١) ديوان امرئ القيس ٢١، والعمدة ٢/٢٤، واللسان (غور، تفل، رخا)، والتاج (أطل، تفل)، والتهذيب ٨/١٨١، ١٤/٢٨٥، والمقاييس ١/١١٢، وبلا نسبة في اللسان (سرح، أطل)، والتهذيب ٤/٣٠١، ٧/٥٤٢، وشرح المفصل ٦/١١٢.

(٢) ديوان امرئ القيس ٣٨، وعيار الشعر ٢٥ - ٢٦، والمقاصد النحوية ٣/٢١٦، واللسان (أدب)، والتاج (بال)، وشرح شواهد المغني ١/٣٤٢، ٢/٥٩٥، ٨١٩، والصاحبي في فقه اللغة ٢٤٤، والمنصف ٢/١١٧.

(٣) البيتان في اللسان (جنن، ضحا)، وأمالي المرتضى ١/٥٠٨، وحماسة الخالديين ١/٢١٧، وإنباه الرواة ٣/١٣٣، ونقد الشعر ١٩٣، وحماسة القرشي ١٢٠.

(٤) الأبيات لزينب بنت فروة المرية في أمالي القالي ٢/٨٧، ولامرأة من طيئ في الوحشيات ٢٠٢، ولعاتكة المرية في زهر الآداب ١/١٦٧، ومعجم الأدبيات الشواعر ٣١٢، وشاعرات العرب ٢٠١.

بأطْيبَ مِمَّن يقصرُ الطَّرْفَ دُونَه   تُقى اللّهِ واستحياءُ بعْضِ العَواقب

وقال بعضُ العُشاق[1]: [من الطويل]

وأنتِ الَّتي كلَّفتني دَلَجَ السُّرَى   وجُونُ القَطَا بالجَلْهَتَين جُثومُ
وأنتِ الَّتي أَوْرَثْتِ قَلبي حَرارةً   وقرّحت قَرحَ القَلب وهو كليم
وأنتِ التي أسخطتَ قومي فكلُّهُمْ   بَعيدُ الرِّضَا دَانِي الصُّدُودِ كَظِيمُ

فقالت المعشوقة[2]: [من الطويل]

وأنتَ الَّذي أخْلَفْتَني ما وَعَدْتَني   وأشمتَّ بي مَنْ كان فيكَ يَلومُ
وأبرزتَني للنَّاسِ حتَّى تركْتَني   لَهُمْ غَرَضاً أُرْمى وأنتَ سَليمُ
فلوْ أنَّ قَوْلاً يكلِمُ الجسْمَ قد بَدَا   بجلْدِيَ مِنْ قَوْلِ الوُشاة كُلومُ

وقال آخر[3]: [من الطويل]

شهدْتُ وبَيتِ اللّه أنَّكِ غادةٌ   رَدَاحٌ وأَنَّ الوجهَ منك عَتيقُ[4]
وأنَّكِ لا تَجزينني بمودَّةٍ   ولا أنا للهجْرانِ منكِ مُطيقُ

فأجابته[5]: [من الطويل]

شَهدْت وبيت اللّه أنَّكَ باردُ الـ   ـثَّنَايا وأنَّ الخصْرَ منكَ رَقيقُ
وأنَّكَ مَشْبوحَ الذِّرَاعين خَلَجَمٌ   وأنَّك إِذْ تخْلو بهنَّ رفيقُ[6]

٥٧٠ - [شعر مختار]

وقال آخر[7]: [من الكامل]

اللّه يعلم يا مغيرة أنني   قد دُستها دَوس الحصان الهيكل

---

(١) الأبيات لابن الدمينة في ديوانه ٣٦ - ٣٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣٧٩، والأغاني ١٧ / ١٠١، ومعاهد التنصيص ١ / ١٦٢،ومعجم الأديبات الشواعر ٩٧ - ٩٨.

(٢) الأبيات لأمامة (أو أميمة) معشوقة ابن الدمينة في تزيين الأسواق ٣٠٧، وديوان ابن الدمينة ٤٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٣٨١، والأغاني ٢ / ٥٩، ١٧ / ١٠٠، والبيان ٣ / ٣٧٠، ومعجم الأديبات ٩٨؛ ومعاهد التنصيص ١ / ١٦٢.

(٣) البيتان لقيس بن الذريح في ديوانه ١٣٠، وتزيين الأسواق ١٩٠، والأغاني ٩ / ٢٠٤.

(٤) رداح: الثقيلة الأوراك. «القاموس: ردح» العتيق: الجميل الرائع. «القاموس: عتق».

(٥) البيتان لأعرابية في بلاغات النساء ١٥٣، ومعجم الأديبات ٩٣، وشاعرات العرب ٢٠٦، وبلا نسبة في البيان ٢ / ٣٥١، ورواية عجز البيت الأول: (وإن الخصر منك لطيف)، ورواية عجز البيت الثاني: (وأنك إذ تخلو بهن عنيف).

(٦) مشبوح الذراعين: عريضهما. «القاموس: شبح». خلجم: الجسيم العظيم. «القاموس: خلجم».

(٧) البيتان للعجاج في ديوانه ٢ / ٣١٢، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٢ / ٣٥١، والثاني في اللسان والتاج (فتخ).

فأخذتها أخْذَ المقصِّب شاتَهُ عَجلانَ يَشويها لقومٍ نُزَّلِ

وقال كعبُ بنُ سعدٍ الغَنَويّ[1]: [من الطويل]

وحَدَّثتماني أنَّما الموتُ بالقُرَى فكَيفَ وهاتَا هَضْبَةٌ وقَليبُ
وماءُ سماءٍ كانَ غيرَ مَجمَّةٍ ببَرّيّة تجْري عَلَيه جنوبُ[2]
ومنزلة في دارِ صدقٍ وغبطةٍ وما اقْتالَ في حُكْمٍ عليَّ طَبيبُ

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة[3]: [من الطويل]

رئيسُ حُروبٍ لا يزَالُ رَبيئَةً مشيح على مُحْقوقف الصُّلب مُلْبد
صبورٌ على رُزءِ المصائب حافظٌ منَ اليَومِ أعقابَ الأحاديث في غَدِ
وهَوَّنَ وَجدي أنني لم أقلْ لَهُ كَذَبْتَ ولم أبْخَلْ بما مَلَكَت يَدي

٥٧١ - [قطع من البديع]

وقطعةٌ من البَديع قوله: [من الرجز]

إذا حَدَاها صاحبي ورَجَّعا وصاح في آثارِها فأسْمَعا
يتبعْن منهن جُلالاً أتلعا أدمك في ماء المهاوي مُنْقَعَا

وقال الراجزُ في البديع المحمود[4]: [من الرجز]

قد كنت إذْ حبلُ صباك مُدْمَش وإذْ أهاضيبُ الشباب تَبْغَشُ[5]

ومن هذا البديع المستَحْسَن منه، قولُ حُجْر بن خالد بن مرثد[6]: [من الطويل]

سمعتُ بفعْلِ الفاعلين فلم أجدْ كفعْلِ أبي قابوسَ حَزْماً ونائلا
يُساقُ الغَمَامُ الغُرُّ من كلِّ بلدة إليكَ فأضحى حَوْلَ بيتك نَازلا
فأصبحَ منه كلُّ واد حللتَهُ وإن كان قد خَوَّى المرابيعُ سائلا[6]
فإن أنتَ تَهْلك يَهْلك البَاعُ والنَّدَا وتُضْحي قلوصُ الحمد جَرْباء حائلا[7]
فلا ملكٌ ما يبلغَنَّك سَعْيُهُ ولا سُوقةٌ ما يَمْدَحَنَّك بَاطلا

---

(١) الأبيات في الأصمعيات ٩٧، والحماسة البصرية ١ / ٢٣٣، والأمالي ٢ / ١٤٨، والسمط ٧٧٤.

(٢) المجمة: مكان وجوم الماء، أي كثير. «القاموس: جمّ».

(٣) ديوان دريد بن الصمة ٥٠ - ٥١، والأصمعيات ١٠٨.

(٤) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٣ / ٣٣٤، والبيت الأول برواية: (إذ ذاك إذ حبل الوصال مدمش) وهو في اللسان (دمج)، وشرح الأشموني ٣ /٨٧٨، وسر صناعة الإعراب ١ / ٢٠٥، والممتع في التصريف ١ / ٤١٢.

(٥) قوله «مدمش» أراد به «مدمج»، فابدل الشين مكان الجيم.

(٦) الأبيات في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢ / ٢٩٤.

(٧) المرابيع: الأمطار أول الربيع. «القاموس: ربع».

(٨) القلوص: الناقة الفتية. «القاموس: قلص». الحائل: الناقة التي حمل عليها فلم تلقح. «القاموس: حول».

بـــاب
في صدق الظَّنِّ وجَودة الفِراسة

٥٧٢ - [شعر في الظن والفراسة]

قال أوس بن حجر[١]: [من المنسرح]

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظـ ... ـنّ كأنْ قَدْ رأى وقد سمعا

وقال عمر بن الخطّاب[٢]: «إنك لا تَنْتَفعُ بعقل الرَّجل حتّى تعرفَ صدقَ فطنته».

وقال أوس بن حجر[٣]: [من المتقارب]

مليحٌ نَجيحٌ أخو مَأزِقٍ ... نِقابٌ يُحدِّث بالغَائبِ

وقال أبو الفضَّة، قاتل أحمرَ بن شميط: [من الوافر]

فإلاَّ يَأتِكُمْ خَبَرٌ يَقينٌ ... فإنَّ الظَّنّ يَنْقُصُ أوْ يزيدُ

وقيل لأبي الهذيل: إنّك إذا راوَغْت واعتلَلْتَ - وأنتَ تكلِّم النظام وقمت - فاحْسَنُ حالاتك أنْ يشكَّ النَّاسُ فيكَ وفيه! قال: خَمْسُون شكّاً خيرٌ مِنْ يَقينٍ واحد!!

وقال كُثَيِّرٌ في عبدِ الملك: [من الوافر]

رَأيتُ أبا الوَليد غَدَاةَ جَمعٍ ... به شَيبٌ وما فَقَدَ الشَّبَابَا[٤]

---

(١) ديوان أوس بن حجر ٥٣، وذيل الأمالي ٣٤، واللسان (حظرب، لمع)، والتهذيب٢/ ٤٢٤، وديوان الأدب ١/٢٧٣، وكتاب الجيم ٣/٢١٤، ومعاهد التنصيص ١/١٢٨، والبيان والتبيين ٤/٦٨، وعيون الأخبار١/ ٣٤، ورسائل الجاحظ ١/ ٣٠٢.

(٢) ورد قول عمر بن الخطاب في رسائل الجاحظ ١/ ٣٠٢.

(٣) ديوان أوس بن حجر ١٢، ورسائل الجاحظ ١/٣٠٢، واللسان والتاج (نقب، نجح، أقط)، والمقاييس ٥/٤٦٦، والتهذيب ٤/١٥٩، ٩/١٩٩، والتنبيه والإيضاح ١/ ١٤٢، وفصل المقال ١٤٢، ومجمع الأمثال ١/١٨، وزهر الأكم ١/ ١٢٥، وكتاب الأمثال لمجهول ٣٦، والمستقصى ١/٤٢٣، وبلا نسبة في ديوان الأدب ١/ ٤٥٥، والجمهرة ٣٧٥.

(٤) ديوان كثير عزة ٢٦٨، والبيان والتبيين ٤/ ٦٧، ونسب الأول والثالث إلى الأقيشر الأسدي في التاج (مرض)، وهما بلا نسبة في رسائل الجاحظ ١/ ٣٠٢، واللسان وأساس البلاغة (مرض)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٥، والثالث بلا نسبة في المقاييس ٥/ ٣١٢، والمجمل ٤/ ٣٢٠، والعين٧/ ٤٠.

فقلتُ لَهُ، ولا أعيا جَواباً: إذا شابتْ لِدَاتُ المَرْءِ شَابَا
ولكنْ تَحتَ ذاكَ الشيبِ حزمٌ إذا ما قال أمْرَضَ أو أصابا

وليس في جَودة الظَّنِّ بيتُ شعرٍ أحسن مِنْ بيتِ بلعاء بنِ قيس: [من الطويل]

وأبغِي صَوَابَ الظَّنِّ، أعلم أنَّه إذا طاشَ ظنّ المرء طاشت مَقادره[1]

وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾[2].

وقال ابن أبي ربيعةَ في الظَّنِّ[3]: [من الخفيف]

ودَعاني إلى الرَّشاد فؤادٌ كان للغَيِّ مَرَّةً قَدْ دَعاني
ذَاكَ دَهْرٌ لو كنتَ فيه قَرِيني غَيْرَ شَكٍّ عَرَفتَ لي عِصْيَاني
وتَقَلَّبتُ في الفِراشِ ولا تَعْـ ـلَمُ إلاَّ الظُّنُونَ أيْنَ مَكاني

٥٧٣ - [شعرٌ مختار]

وقال ابنُ أبي ربيعة في غير هذا الباب[4]: [من الوافر]

وخِلٌّ كنتُ عَينَ النُّصْحِ منْهُ إذا نَظَرَتْ ومستَمعاً مطيعا
أطافَ بغيَّةٍ فَنَهيتُ عنها وقُلْتُ لَهُ أرَى أمراً شَنيعَا
أَرَدْتُ رَشادَهُ جَهْدي، فلما أبَى وعَصَى أتَيناها جَميعَا

وقال معقِّر بن حمار البارقي[5]: [من البسيط]

الشِّعرُ لبُّ المرءِ يَعْرِضه والقَوْلُ مِثلُ مَوَاقِعِ النَّبْلِ
منها المقصِّر عَن رَمِيَّته ونَوَافِذٌ يَذهَبنَ بالخَصل

٥٧٤ - [أبياتٌ للمحدثَين حِسانٌ]

وأبياتٌ للمحْدَثين حِسَان، قال العَتَّابيّ[6]: [من الطويل]

وكَمْ نِعمةٍ آتاكها اللّهُ جَزْلَةً مُبرَّأَةً مِنْ كُلِّ خُلْقٍ يَذِيمُها

(١) البيت لبلعاء بن قيس في البرصان ٥، ٣٣، وفصل المقال ١٢٨، ومجموعة المعاني ٢١٠، والمؤتلف ١٠٦، وبهجة المجالس ١/٤١٩، ونسب إلى عفرس بن جبهة الكلابي في حماسة البحتري ٤٠٣، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/٣٥.

(٢) ٢٠ / سبأ: ٣٤.

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٥) البيتان لمعقر بن حمار في ربيع الأبرار ٥/٢٦٣.

(٦) البيتان الأخيران في البيان والتبيين ١/١٢٠، ونسبا إلى عمرو بن كلثوم في محاضرات الأدباء ١/١٣٣.

فَسلطتَ أَخلاقاً عليها ذميمةً تَعاوَرنها حَتَّى تَفرَّى أديمها
ولُوعاً وإشفاقاً ونطقاً من الخَنا بعَوراءَ يَجْرِي في الرِّجال نميمُها
وكنتَ امرأً لو شئتَ أنْ تَبْلُغَ المدَى بَلَغت بأدنى نعمَة تَسْتَديمُها
ولكنْ فِطامُ النَّفْسِ أعسر محمَلاً مِنَ الصَّخرَةِ الصَّمَّاء حِين ترُومُها

وقال أيضاً: [من الطويل]

وكنتُ امرأً هَيَّابَةً تَسْتَفزّني رضاعي بأدنى ضجْعَة أستلينُها
أُوافي أميرَ المؤمنين بهمَّةٍ تَوَقَّلُ في نَيلِ المَعالي فنُونُها
رَعى أُمَّةَ الإسلامِ فهو إمَامُها وأدَّى إليها الحقَّ فهو أمينُها
ويَستَنتج العقماء حتَّى كأنما تَغلْغَلَ في حيثُ استقَرَّ جنينُها
وما كل مَوصوفٍ لَهُ يَهتَدي ولا كل مَن أمَّ الصُّوَى يَسْتَبينُها
مُقيمٌ بمستنٍّ العُلا، حيثُ تَلتَقي طوارفُ أبكارِ الخُطُوبِ وعُونُها

وقال الحسن بن هانئ[1]: [من السريع]

قُولاَ لهارُون إمامِ الهدَى عندَ احتفال المجلسِ الحاشد
نَصيحةُ الفَضْلِ وإشفاقُهُ أخلَى لَهُ وجهَكَ مِن حَاسد[2]
بصادق الطاعة ديَّانها وواحد الغائب والشاهد
أنتَ على ما بكَ مِنْ قُدْرَةٍ ما أنتَ مثلَ الفَضْل بالواجد
أوحدَه اللّهُ فما مثْلُهُ لطالبٍ ذاكَ ولا نَاشَد
وليس على الله بمستنكر أنْ يَجْمَعَ العالَمَ في واحد

وقال عَديٌّ بن الرِّقاعِ العاملي[3]: [من الكامل]

وقَصيدةٍ قَدْ بِتُّ أجْمعُ بَيْنَها حتَّى أُقوِّمَ مَيْلَهَا وسنادها
نظَرَ المثقِّف في كُعُوب قَناته حتَّى يُقيمَ ثِقافُهُ مُنآدها
وعَلمْتُ حتَّى لَسْتُ أسْأَلُ عالما عَنْ حَرْف وَاحدة لكيْ أزْدَادهَا
صَلَّى الإلهُ عَلَى امْرئٍ ودَّعته وأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَزَادَها

---

(١) ديوان أبي نواس ٤٥٤.
(٢) الفضل هو ابن يحيى البرمكي.
(٣) ديوان عدي بن الرقاع ٣٨ ـ ٣٩، والطرائف الأدبية ٨٩، والأغاني ٩/٣١٦ - ٣١٧، ومعجم الشعراء ٨٧، والبيان والتبيين ٣/٢٤٤، ومعجم البلدان (الأحص، خناصرة)، وعيون الأخبار ١٢٨/٢.

٥٧٥ - [من قال شعراً وهو صغير]

قال[١]: واجتمع ناسٌ من الشُّعَراء بباب عَديٍّ بن الرقاعِ يُريدون مُماتَنَتَهُ ومُساجَلَتَه، فخَرَجَت إليهمْ بنْتٌ له صغيرة، فقالتَ[١]: [من الطويل]

تجَمَّعْتُم منْ كُلِّ أَوْبٍ ومَنزل ... عَلى وَاحدٍ لا زلْتُمُ قِرْنَ واحد

وقال عبدُ الرحمن بن حسّان الأنصاري، وهو صغير[٢]: [من البسيط]

اللّه يَعْلَمُ أنّي كُنْت مُشْتَغِلاً ... في دَارِ حَسَّانَ أَصْطَادُ اليَعَاسِيبَا

وقال لأبيه وهو صبيٌّ - ورجع إليه وهو يبكي ويقول: لسعني طائر! قال: فصفه لي يا بنيّ! قال كأنَّهُ ثَوْبُ حَبَرة! قال حسّان: قال ابني الشِّعْرَ وَرَبِّ الكعبة!

وكان الذي لَسعه زنبوراً.

وقال سَهْلُ بن هارون، وهو يختلف إلى الكُتَّاب لجارٍ لهم[٣]: [من البسيط]

نُبِّيت بَغْلك مبْطوناً فقلت له ... فهل تَماثَل أو نأتيه عُوَّادا

وقال طرفة وهو صبيٌّ صغير[٤]: [من الرجز]

يا لَكِ مِنْ قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ ... خلا لكِ الجَوُّ فبيضي واصفِري

وقال بعض الشعراء[٥]: [من الوافر]

إذا ما ماتَ مَيْتٌ من تَميمٍ ... فسَرَّكَ أن يَعيش فجِئْ بزادِ

---

(١) الخبر مع البيت في ذيل الأمالي ٧٠، والأغاني ٩/٣١٠، والكامل ٣٤٣، والشعر والشعراء ٦٢٢ (شاكر)، والبيت بلا نسبة في المعاني الكبير ٨٤٥، والجمهرة ١٠٢٩.

(٢) البيت مع الخبر في الكامل ٣٤٣ (طبعة الوالي)، ١٥٤ (طبعة المعارف).

(٣) البيت في رسائل الجاحظ ٢/٣٠٤، ورواية الخبر في الرسائل: «قال سهل بن هارون: بعثت وأنا صبي إلى جارٍ لنا أستعير منه بغلاً، فزعم أنه مبطون، فغبرت أياماً، ثم كتبت له: نبّيت بغلك....»

(٤) الرجز لطرفة في ديوانه ٤٦، والشعر والشعراء ٩٠، واللسان (عمر، قبر، نقر، جوا)، والجمهرة ٧٩٥، والتاج (عمر، نقر، جوا، الياء)، والتهذيب ٢/٣٨٤، ١١/٢٢٨، ولكليب بن ربيعة في اللسان (يا)، والتنبيه والإيضاح ٢/١٨٤، وبلا نسبة في الخصائص ٣/٢٣٠، والمخصص ١٢/٣٩، والجمهرة ٧٧٢، والمنصف ١/١٣٨، ٣/٢١، والعقد الفريد ٣/١٢٧، ورسائل الجاحظ ١/٣٤٣.

(٥) الأبيات ليزيد بن الصعق في أشعار العامريين ٥٨، والحماسة البصرية ٢/٢٥٩، ومعجم الشعراء ٤٨٠، والاقتضاب ٢٨٨، وله أو لأبي المهوش (أو المهوس) في اللسان (لفف، لقم)، والتاج (لفف)، ولأبي مهوش الفقعسي أو أبي الهوس الأسدي في الكامل ١/١٠٠ (طبعة المعارف)، وبلا نسبة في البيان والتبيين ١/١٩٠، ومجمع الأمثال ٢/٣٩٥، وعيون الأخبار ٢/٢٠٣، وأدب الكاتب١٣، والمعاني الكبير٥٨٠، والبيت الثالث لأبي المهوش في رسائل الجاحظ ٢/٢٨٣، وبلا نسبة في البيان ٣/٣٢١، وثمار القلوب ٢٥٧ (٤٩٣). والأول بلا نسبة في السان (عفر).

بخبزٍ أو بِلَحْمٍ أوْ بِسَمْنٍ أو الشَّيءْ الملفَّفِ في البِجَادِ[1]
تراه يَطوف بالآفاق حِرصاً ليأكُلَ رأسَ لُقمْان بنِ عادِ

وقال الأصمعي: الشيء الملفَّف في البِجاد: الوَطْب.

وقال أعرابيٌّ: [من الطويل]

أَلاَ بَكَرَتْ تَلْحَى قتَيْلَةُ بَعْدَما بدا في سَوادِ الرَّأس أبيض واضحُ
لتُدرِك بالإمْساك والمَنْع ثَرْوةً منَ المال أفنتْها السِّنونَ الجَوائحُ
فقلت لها: لا تعذُليني فإنما بذِكْرِ النَّدَى تَبْكِي عَلَيَّ النوائح

٥٧٦ - [أشعار تجوز في المذاكرة]

وقال بَشَّارٌ أبياتاً تجوز في المذاكرة، في باب المنى، وفي باب الحزم، وفي باب المشورة، وناسٌ يجعلونها للجعجاع الأزدي، وناسٌ يَجعلونها لغيره، وهي قوله[2]: [من الطويل]

إذا بَلَغَ الرَّأيُ المَشورَة فاستَعِنْ برأْي نَصيحٍ أو نَصيحة حازم
ولا تحْسَب الشُّورى عَلَيْكَ غَضاضَةً مَكَانُ الخَوافي رافدٌ للقَوادم
وأدْنِ منَ القُرْبى المقرِّبَ نَفْسَه ولا تُشْهِد الشُّورَى امرأً غَيْرَ كاتم
وما خَيْرُ كَفٍّ أمسَك الغلُّ أُخْتَها ومَا خَيْرُ نَصْلٍ لَمْ يُؤيَّدْ بقائمِ
فإنَّك لا تَسْتطرِدُ الهَمَّ بِالمَنى ولا تَبْلُغُ العَلْيَا بغَيْرِ المَكارِمِ

وقال بعض الأنصار[3]: [من الوافر]

وبَعْضُ خلائقِ الأقوامِ دَاءٌ كَداءِ الشيْخ ليسَ له شفاءُ

---

(١) البجاد: الكساء «القاموس: بجد».

(٢) الأبيات لبشار بن برد في ديوان المعاني ١/١٣٧، والبيان والتبيين ٤/٤٩، والمختار من شعر بشار ٢٠١، ونهاية الأرب ٦/٧١، ومحاضرات الراغب ١/١٤، ونكت الهميان ١٣٠، والأغاني ٣/١٥٧، ٢١٤، والحماسة البصرية ٢/٥٨، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/٣٢.

(٣) البيتان لقيس بن الخطيم في ديوانه ١٥١، ١٥٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٨٧، وله أو لربيع بن أبي الحقيق في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/١٠٤، ولربيع بن أبي الحقيق في البيان والتبيين ٣/١٨٦، والأشباه والنظائر للخالديين ١/٧٢، والبيت الأول للحطيئة في ديوانه ٣١٩، وأساس البلاغة (عنج)، ولابن الإطنابة في التاج (أتو)، وأساس البلاغة (أتى)، وبلا نسبة في اللسان (عنج، أتى)، والمقاييس ١/٥٢، ٤/١٥١، ١٥٢، والعين ٨/١٤٦، والتهذيب ١/٣٧٠، والتاج (عنج).

وبَعْضُ القَوْلِ ليس لَهُ عِناجٌ كمخْض الماء ليس لَهُ إتاءُ

وقال تأبَّط شَرًّا – إنْ كان قَالَها–[1] : [من المديد]

شامِسٌ في القُرِّ حتَّى إذا مَا ذَكَت الشِّعْرى فَبَردٌ وظِلٌّ[2]

ولَهُ طَعْمَان: أَرْيٌ وشَرِيٌ وكِلاَ الطَّعمَين قدْ ذَاقَ كُلٌّ[3]

مُسْبِلٌ في الحَيِّ أحْوَى رِفَلٌّ وإذا يغْدو فسِمْعٌ أزَلٌّ[4]

وَوَرَاء الثأر منه ابنُ أخت مَصِعٌ عُقْدَتُه ما تُحَلُّ

مُطرِقٌ يَرشَحُ سُمًّا، كما أطرَقَ أفْعَى يَنْفُثُ السمّ صِلُّ

خَبَرٌ مَا نابَنَا مُصمَئِلٌّ جَلّ حتَّى دقّ فيه الأجَلُّ[5]

كُلُّ ماضٍ قَد تَرَدَّى بِماضٍ كَسَنَا البَرقِ إذا ما يُسَلُّ[6]

فَاسقِنيها يا سَوَاد بنَ عَمرو إنَّ جِسمي بَعدَ خالي لخلُّ

وقال سلامَة بنُ جَندَل[7]: [من الطويل]

سأَجزيك بالوُدِّ الذي كان بينَنا أصَعْصَعُ إنّي سَوف أَجزيكَ صَعْصَعا

سأُهْدي وإن كنا بتثليثَ مِدْحَةً إليك وإن حلَّت بُيُوتك لَعلعا

فإنْ يَك محموداً أبوك فإنَّنا وجدناك مَحمُود الخَلائقِ أروَعا

فإن شئتَ أهدينَا ثناءً ومدحةً وإن شئت أهدينَا لَكُم مائةً معا

فقال صعصَعة بن محمود بن بشر بن عمرو بن مرثد: الثَّناء والمدحة أحبُّ إلينا. وكان أحمر بن جندل أسيراً في يده، فخلَّى سبيلَه من غير فداء.

---

(١) الأبيات من قصيدة تنسب إلى تابط شراً، أو الشنفرى، أو خلف الأحمر، أو ابن أخت تأبط شراً في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٣٢، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي٢ / ١٦٢، والخزانة ٣ / ٣٣٢ (بولاق)، وانظر ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية ٣٩، الفقرة (حى).

(٢) الشعرى: كوكب نيِّر يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر. «اللسان: شعر».

(٣) الأري: العسل. «القاموس: أري». الشري: الحنظل أو شجره. «القاموس: شري».

(٤) الرفل: الكثير اللحم. «القاموس: رفل». السمع: ولد الذئب من الضبع. «القاموس: سمع». الأزل: القليل لحم الفخذين. «القاموس: أزل».

(٥) المصمئل؛ في القاموس: اصمأل: اشتد، والمصمئلة: الداهية. «القاموس: صمأل».

(٦) أراد بالماضي الأول: الرجل الشديد، وبالماضي الثاني: السيف القاطع.

(٧) الأبيات في البيان والتبيين ٣ / ٣١٨ – ٣١٩.

وقال أوسُ بن حَجَر، في هذا الشَّكل من الشِّعر – وهو يقع في باب الشُّكر والحمد –(١): [من الطويل]

لَعَمرُك مَا ملَّت ثَواءَ ثَوِيِّها ... حَليمَةُ إذْ ألْقى مراسيَ مُقعَد(٢)

وَلَكِنْ تَلقت باليدَينِ ضَمانتي ... وَحَلَّ بفَلجٍ فالقنافذ عُوَّدي(٣)

وقَدْ غَبرت شهرَيْ رَبيعٍ كلَيْهما ... بحَمْلِ البَلايا والخباء الممدَّد

ولم تُلهِهَا تلك التَّكاليفُ؛ إنّها ... كما شئتَ منْ أُكرُومَةٍ وتَخَرُّد(٤)

سأجزيكِ أو يَجزيكِ عني مثَوِّبٌ ... وحَسْبُكِ أن يُثْنَى عَلَيْكِ وتُحمَدي

وقال أبو يعقوب الأعور(٥): [من الطويل]

فلم أجْزهِ إلاَّ المودَّة جاهداً ... وَحَسْبُك منِّي أن أوَدَّ وأجهدا

٥٧٧ - [أبيات تضاف إلى الإيجاز]

وأبيات تضافُ إلى الإيجاز وحَذْف الفضول. قال بعضهم ووصف كِلاَباً في حالِ شَدِّها وعَدْوِها، وفي سُرعَةِ رفعِ قوائمها ووضعها – فقال(٦): [من الرجز]

* كأنَّما تَرْفَعُ ما لَمْ يُوضَعِ *

ووصف آخرُ ناقة بالنشاط والقوَّة فقال(٧): [من الرجز]

* خرقَاءُ إلاَّ أنها صَنَاعِ *

وقال الآخر(٨): [من الرجز]

* الليلُ أخفى والنْهارُ أفضَحُ *

---

(١) ديوان أوس بن حجر ٢٦، والبيان والتبيين ٣/٣١٩ والأغاني ١١/٧٣، ومعاهد التنصيص ١/١٣٤، وشرح الأبيات التالية من ديوانه.

(٢) الثوي: الضيف. الثواء: الإقامة. ألقى مراسيه: استقر.

(٣) الضمانة: العاهة والداء. فلج والقنافذ: موضعان. العود: جمع عائد، وهو الذي يزور المريض.

(٤) التخرد: مصدر تخرّد؛ والخريدة من النساء: البكر التي لم تُمس قط، وقيل: هي الحيية الطويلة السكوت؛ الخافضة الصوت؛ الخفرة المستترة: الأكرومة من «كرم» كالأعجوبة من «عجب».

(٥) البيت للخريمي أبي يعقوب في ديوانه ٢٢، والبيان والتبيين ٣/٣٢٠، ورسائل الجاحظ ١/٣٠٥.

(٦) الرجز في محاضرات الأدباء ٢/٢٨٥، والصناعتين ٧٩.

(٧) الرجز في الرسالة الموضحة ٢٨، والبيان والتبيين ١/١٥٠، ٣/٧٢، والصناعتين ٣١٤، ٤١٩.

(٨) الرجز من الأمثال في مجمع الأمثال ١/٢٥٥، وجمهرة الأمثال ٢/٧٢، والمستقصى ١/٣٤٣، والدرة الفاخرة ١/١٧٢، ٢/٤٥٤، وهو في البيان والتبيين ١/١٥١ وقبله: «إنك يا ابن جعفر لا تفلح».

ووصف الآخر قَوْساً فقال[1]: [من الرجز]

* في كفِّه مُعْطِيَةٌ مَنوعُ *

وقال الآخر[2]: [من الرجز]

وَمَهْمَه فِيه السَّرابُ يَسْبَحُ ... كَأَنَّما دليلُه مطوَّح

يَدْأَبُ فِيهِ القَوْمُ حتّى يَطْلَحُوا ... كأنَّما بَاتُوا بِحَيْثُ أصْبَحُوا

ومثل هذا البيت الأخير قوله[3]: [من الكامل]

وكأنَّما بَدرٌ وَصِيلُ كُتيفة ... وكأنَّما مِنْ عاقِلٍ أرْمَامُ[4]

ومثله[5]: [من المتقارب]

تجاوَزْتُ حُمْرَانَ في ليلةٍ ... وقُلتُ قُسَاسٍ من الحَرْمَلِ[6]

ومن الباب الأوّل قوله[7]: [من المجتث]

عادَني الهمُّ فاعتلجْ ... كُلُّ هَمٍّ إلى فَرَجْ

وهذا الشِّعر لجُعَيفران الموَسْوَس.

وقال الآخَر[8]: [من الرجز]

لم أقْضِ من صحْبَةِ زَيدٍ أرَبي ... فتًى إذا نبَّهْتَه لم يَغْضَبِ

أبيضُ بَسَّامٌ وإن لم يعجب ... ولا يضن بالمتاعِ المحقَب

مُوكَّلُ النَّفس بِحِفْظِ الغُيَّب ... أقصى رفِيقيه له كالأقْرَب

---

(١) الرجز للعكلي في البيان والتبيين ١/ ١٥٠، وديوان المعاني ٢/ ٥٩، وبلا نسبة في اللسان (ذوق)، والتهذيب ٩/ ٢٦٣.

(٢) البيتان لمسعود أخي ذي الرمة في ديوان المعاني ٢/ ١٢٨.

(٣) البيت لامرئ القيس في ديوانه ١١٦.

(٤) في ديوانه: (كتيفة من بلاد باهلة. وعاقل: جبل قريب منها. أرمام: متباعد عنها. يقول: كان هذه المواضع متصلة على تباعد ما بينها لسرعة سير ناقته).

(٥) البيت لأوفى بن مطر الخزاعي في ذيل الأمالي ٩١، وبلا نسبة في التاج (حرمل).

(٦) حمران: اسم موضع، وفي التاج «جمران»، وفي ذيل الأمالي «ماوان» وهما موضعان، وكذلك قساس.

(٧) البيت في الأغاني ٢٠/ ١٩١، ورواية صدره: (لجّ ذا الهم واعتلج).

(٨) الرجز لجرير في أمالي المرتضى ٤/ ٢٠٢، والأبيات (٢، ٣، ٥، ٦) بلا نسبة في عيون الأخبار ٣/ ٢٣.

وقال دُكَين[1]: [من الرجز]

وقدْ تعَلَّلتُ ذَميلَ العَنْس   بالسَّوْط في دَيْمومةٍ كالتُّرْس

إذْ عَرَّجَ اللّيلَ بروجَ الشَّمسِ

وقال دُكَينٌ أيضاً[2]: [من الرجز]

بمَوطنٍ يُنْبِطُ فيه المحتسي   بالمشْرَفِيَّات نِطافَ الأنْفُسِ

وقال الراجز[3]: [من الرجز]

طَالَ عليهنَّ تكاليف السُّرَى   والنَّصُّ في حينِ الهَجيرِ والضُّحى

حَتَّى عُجاهُنَّ فما تحت العُجى   رَوَاعِفٌ يَخْضِبْنَ مُبْيَضَّ الحَصى[4]

في هذه الأرجوزة يقول:

* وضَحِكَ المزن بها ثمَّ بكى *

ومن الإيجاز المحذوف قولُ الراجز، ووصف سَهمه حينَ رَمى عَيراً كيف نَفَذَ سهمه، وكيفَ صرَعه، وهو قوله[5]: [من الرجز]

* حتَّى نجَا مِنْ جوفه وما نجا *

٥٧٨ - [شعر في الاتِّعاظ]

ومما يجوز في باب الاتِّعاظ قولُ المرأة وهي تطوف بالبيت[6]: [من الرجز]

أنت وهَبْتَ الفتيَةَ السَّلاهِبْ   وهَجْمةً يَحارُ فيها الطَّالبْ

وغنَما مِثْلَ الجَرَادِ السَّارِبْ   متاعَ أيَّامٍ وكُلٌّ ذَاهِبْ

ومثله قولُ المسعوديّ: [من الكامل]

أخلِفْ وأنْطِفْ، كلُّ شي   ءٍ زعزعتْه الريحُ ذاهبْ[7]

---

(١) الرجز لمنظور بن مرثد في المقاييس ٤ /١٣، ولمنظور بن حبة الأسدي في المؤتلف ١٠٤، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣ /٣٣٤، واللسان والتاج (علل)، وديوان الأدب ٣ / ١٩٠، وزهر الآداب ٤٥٨ (طبعة زكي مبارك).

(٢) الرجز بلا نسبة في اللسان (رعس).

(٣) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٣ / ٣٣٥.

(٤) العجى: جمع عُجاية؛ وهي عصب مركب فيه فصوص من عظام تكون عند رسغ الدابة. «القاموس: عجي».

(٥) الرجز في الرسالة الموضحة ٢٩، والبيان والتبيين ١ / ١٥٠، ٣ / ٧٢، والصناعتين ٤٠٦، ٤٧٤.

(٦) الرجز بلا نسبة في البخلاء ١٦٥، والبيان والتبيين ٣ / ١٩٤، ٢٥٢، ٤ / ٦٩.

(٧) ورد البيت مع بيت آخر في البيان والتبيين ٣ /١٩٤، ٢٥٢، ٤ /٦٩، ورواية صدر البيت في المواضع الثلاثة (أخلف وأتلف كل شيء).

وقال القُدار وكان سيِّد عَنَزة في الجاهلية: [من الكامل]

أهلَكْت مُهْرِيَ في الرِّهان لجَاجةً ومن اللّجَاجة ما يَضُرُّ وَيَنفَعُ

قال: وسمعت عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ينشد - وكان فصيحًا: [من الطويل]

إذا أنت لم تنفع فضرَّ فإنَّما يُرَجَّى الفتى كيما يضرَّ وينفعا[1]

وقال الأخطل: [من البسيط]

شُمْسُ العَداوةِ حتَّى يُستفادُ لهم وأعظمُ النّاس أحلاماً إذا قدروا[2]

وقال حارثة بن بدر: [من الطويل]

طربتُ بفاثور وما كدت أطربُ سَفاهًا وقَدْ جَرَّبْتُ فيمَن يجرِّب[3]

وجرّبتُ ماذا العَيْشُ إلاَّ تعلّةٌ وما الدَّهر إلاّ مَنْجَنونٌ يقلّب

وما اليومُ إلاَّ مِثلُ أمْس الذي مضى ومثلُ غدِ الجائي وكلٌّ سيَذْهب

وقال حارثة بن بَدر الغداني أيضاً[4]: [من الطويل]

إذا الهمُّ أمسَى وَهو داءٌ فأَلْقه ولَسْتَ بمُمْضيه وأنتَ تعادله

فلا تُنْزِلَنْ أمْرَ الشديدة بامرئٍ إذا رامَ أمرًا عَوَّقَتْهُ عَواذله

وَقُل للفؤاد إن نَزا بِك نزوَةً مِنَ الرَّوع أفْرِخْ أكثَرُ الرَّوع باطِلُه

٥٧٩ - [شعر في الغزْو]

وقال الحارثُ بن يزيد وهو جدُّ الأحَيمر السَّعديِّ وهو يقع في باب الغزْو وتمدُّحهم ببعد المغْزى[5]: [من مجزوء الكامل]

لا لا أعُقُّ ولا أحو ب ولا أُغير عَلَى مُضرْ

---

(١) البيت للنابغة الجعدي في ملحق ديوانه ٢٤٦، وله أو للنابغة الذبياني في شرح شواهد المغني ١/٥٠٧، ولهما أو لقيس بن الخطيم في الخزانة ٨/٤٩٨، والمقاصد النحوية ٤/٢٤٥، ولقيس ابن الخطيم في ملحق ديوانه ٢٣٥، وللنابغة الذبياني في المقاصد النحوية ٤/٣٧٩، وشرح التصريح ٢/٣، وبلا نسبة في الخزانة ٧/١٠٥، وشرح الأشموني ٢/٢٨٣ ومغني اللبيب ١/١٨٢.

(٢) ديوان الأخطل ٢٠١، واللسان (جشر، شمس)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (شمس).

(٣) الفاثور: اسم موضع أو وادٍ بنجد، معجم البلدان ٤/٢٢٤.

(٤) الأبيات في ديوان حارثة بن بدر الغداني ٣٦٢، والبيان والتبيين ٣/٢١٨، وأمالي المرتضى ١/٣٨١، وحماسة البحتري ١١، وحماسة القرشي ١٣٠، والبيت الأول بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (عدل)، ومجمل اللغة ٣/٤٥٣، والتهذيب ٢/٢١٣، والثالث له في البيان والتبيين ٢/١٨٧، وبلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (فرخ).

(٥) البيتان في البيان والتبيين ٣/٢٠٠، وأشعار اللصوص ١/٩٢.

لَكنَّما غزوي إذا ضَجَّ المَطيُّ منَ الدَّبَرْ

وقال ابن محفِّض المازنيُّ[1]: [من الطويل]

إن تَكُ درْعي يَوْمَ صَحراء كُلية ... أُصيبت فما ذَاكُمْ عَلَيَّ بعارِ[2]
ألم تك مَنْ أسْلابكمْ قبلَ ذاكمُ ... عَلَى وقَبى يومًا ويَوْمَ سَفارِ[3]
[فتلك سرابيل ابن داودَ بيننا ... عواريٌّ والأيام غير قصارِ][4]
ونحن طَرَدنا الحيَّ بَكْرَ بنَ وائلٍ ... إلى سَنَةٍ مثلِ الشِّهاب ونَارِ[5]
ومُومٍ وطاعون وحُمّى وحَصْبَةٍ ... وذي لِبَدٍ يَغشى المهَجْهجَ ضاري[6]
وحكم عدوٌّ لا هَوَادة عنْده ... ومنزلِ ذلٍّ في الحياة وعَارِ

وقال آخر[7]: [من الطويل]

خُذُوا العَقْلَ إن أعطاكُم القَوْم عَقْلَكُمْ ... وكونوا كَمَنْ سيمَ الهَوَانَ فأَرتعا
ولا تُكثروا فيها الضِّجاجَ فإنَّه ... محَا السّيف ما قَالَ ابنُ دَارةَ أجْمَعا

وقال أبو ليلى[8]: [من الوافر]

كأن قطاتها كُرْدُوسُ فَحل ... مقلَّصة على ساقَيْ ظليمِ

---

(١) الأبيات لحريث بن سلمة بن مرارة بن محفِّص في ذيل الأمالي ٨١، والأبيات (١ - ٢ -٣) له في معجم البلدان ٤ /٤٧٨ (كلية).

(٢) في ذيل الأمالي: «يوم صحراء كلية: موضع وقعة كانت بينهم وبين بني بكر بن وائل»، وفي معجم البلدان «كلية: هي من أودية العلاة باليمامة لبني تميم».

(٣) في ذيل الأمالي: «الوقبى وكذلك سفار: ماء لبني مازن». وفي معجم البدان ٥ / ٣٨١، «الوقبى: ماء لبني مالك بن مازن لهم به حصن وكانت لهم به وقائع مشهورة، وهي على طريق المدينة من البصرة». وفي معجم البلدان ٣ /٢٢٣ «سفار - بوزن قطام - منهل قبل ذي قار بين البصرة والمدينة؛ وهو لبني مازن بن مالك بن عمرو وكان فيه يوم مشهور من أيام العرب بين بكر بن وائل وبني تميم».

(٤) استدركت هذا البيت من ذيل الأمالي ومعجم البلدان. وفي ذيل الأمالي «السرابيل: الدروع لداود؛ فجعلها لسليمان». وانظر ثمارالقلوب (١٢٢).

(٥) في ذيل الأمالي «قال أبو علي :سنة: أراد أسكناهم السواد؛ وهو بلد وباء».

(٦) موم: الجدري الكثير. المهجهج: الذي يزجر السبع صائحاً: هجٍ هجٍ.

(٧) البيتان للكميت بن معروف في ديوانه ١٩٥ (شعراء مقلون)، والبيان والتبيين ١ /٣٨٩، والوحشيات ١١٦، وحماسة البحتري ١١٦، وله أو للكميت بن ثعلبة في اللسان (دور، قزع)، والتاج (قزع)، وللكميت في المستقصى ٢ /٣٤٢، ومجمع الأمثال ٢ /٢٧٩، وبلا نسبة في الحماسة البصرية ١ /٧٣ - ٧٥، وفصل المقال ٢٦.

(٨) البيت لخالد بن الصقعب النهدي في كتاب الجيم ٣ / ١٧٠.

٥٨٠ - [شعر في السيادة]

وقال أبو سلمى[(١)]: [من الرجز]

لابدَّ للسُّودد من أرماحِ ومِنْ سفيهٍ دائمِ النُّباحِ

ومنْ عَديدٍ يُتَّقى بالرّاحِ

وقال الهذلي[(٢)]: [من الوافر]

وإِنَّ سيادة الأقوام فاعْلَمْ لها صعْداءُ مَطلبها طويل

وقال حارثة بن بدر، وأنشده سفيان بنُ عُيينة: [من الكامل]

خلَت الدِّيارُ فَسُدْتُ غيرَ مُسَوَّد ومِنَ الشَّقاء تفرُّدي بالسُّوددِ[(٣)]

٥٨١ - [شعر في هجاء السادة]

وقال أبو نخيلة: [من الطويل]

وإِنَّ بقَوْمٍ سَوَّدوك لَفَاقَةً إلى سَيِّدٍ، لوْ يظفَرُون بسيِّدِ[(٤)]

وقال إياس بن قتادة، في الأحنف بن قيس: [من الطويل]

وإِنَّ مِنَ السّادات مَن لو أطعْتَه دَعَاك إلى نارٍ يَفُورُ سَعيرها[(٥)]

وقال حُميضة بن حذيفة: [من الطويل]

أيظلمهم قسراً فتبًّا لسَعيهِ وكل مطاعٍ لا أبالكَ يَظلِمُ

وقال آخر: [من الطويل]

فأصبحتَ بعد الحلم في الحيِّ ظالما تخَمَّطُ فيهم والمسوَّدُ يَظْلِمُ[(٦)]

---

(١) الرجز بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٥، وأساس البلاغة (هرر).

(٢) البيت للأعلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٢٣، وللهذلي في البيان والتبيين ١/ ٢٧٥، ٢/ ٣٥٢، ٣/ ٢١٨، وعيون الأخبار ١/ ٢٢٦، وتهذيب اللغة ٢/ ١١، وأساس البلاغة (صعد)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (صعد)، والجمهرة ٦٥٤.

(٣) البيت في الأغاني ٨/ ٤٠٨، والبيان والتبيين ٣/ ٢١٩، وربيع الأبرار ٤/ ١٤٢، وأمالي المرتضى ٢/ ٥٣، لعمرو بن النعمان البياض في معجم البلدان ١/ ٤٧٣ (بقيع الغرقد)، ولرجل من خثعم في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٣٣، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٦.

(٤) البيت لأبي نخيلة في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٦، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣/ ٢١٩.

(٥) البيت لإياس بن قتادة في البيان والتبيين ٣/ ٢١٨، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٦.

(٦) البيت بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٦.

وكان أنس بن مدركة الخثعمي يقول: [من الوافر]

عزمت على إقامةِ ذي صباحٍ ... لأمرٍ ما يسوَّدُ مَنْ يسودُ[1]

وقال الآخر: [من الوافر]

كما قال الحمار لسهمِ رامٍ ... لقد جَمَّعْتَ من شيء لأمر

وقال أبو حيّة: [من الطويل]

إذا قُلْنَ كلاً قال والنَّقْع ساطعٌ ... بلى، وهو واهٍ بالجراءِ أباجِلُه[2]

وقال آخر: [من البسيط]

إني رأيت أبا العوراء مرتفقاً ... بشطّ دجلة يشري التمر والسمكا

كشدَّة الخيل تبقى عند مذودها ... والموت أعلم إذ قفَّى بمن تركا

هذه مساعيك في آثار سادتنا ... ومن تكن أنت ساعيه فقد هلكا

وقال شتيم بن خويلد، أحد بني غراب بن فزارة[3]: [من المتقارب]

وقلت لسيِّدنا يا حليمُ ... إنَّك لَمْ تأْسُ أَسْوًا رَفيقَا[4]

أعَنتَ عديًّا على شَأوها ... تُعادي فَريقًا وتُبقي فريقَا

زَحرتَ بها ليلةً كلَّها ... فجئتَ بها مؤْيِداً خَنْفَقِيقَا[5]

وقال ابن ميادة[6]: [من الطويل]

أتيتُ ابن قشراءِ العِجانِ فلم أجدْ ... لدى بَابهِ إذناً يسيرًا ولا نُزْلا

---

(١) البيت لأنس بن مدركة في الخزانة ٣/٨٧، ١٨٩، والدرر ١/٣١٢، ٣/٨٥، وشرح المفصل ٣/١٢، ولأنس بن نهيك في اللسان (صبح)، ولرجل من خثعم في شرح أبيات سيبويه ١/٣٨٨، وبلا نسبة في الخزانة ٦/١١٩، والخصائص ٣/٣٢، والكتاب١/٢٢٧، والمقتضب ٤/٣٤٥، وهمع الهوامع ١/١٩٧، والبيان والتبيين ٢/٣٥٢، ٣/٢١٨.

(٢) ديوان أبي حية النميري ٧١.

(٣) الأبيات في البيان والتبيين ١/١٨١، ومعجم الشعراء ٣١١، واللسان (خفق)، والبرصان ٣٥١، والثالث في التاج (خفق)، وهو بلا نسبة في اللسان (خنفق، ودن)، والتاج (ودن)، والإنصاف ٤٥٣، والخزانة ٥/١٧٠، وجمهرة اللغة ٢/٣٠٤، ٣/٤٠١، والتهذيب ٧/١٢٢، ٦٣٣، وتذكرة النحاة ٦٤١.

(٤) قوله «يا حليم» هو من استعمال المدح مكان الذم، كقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ الدخان: ٤٩، وهذاالقول هزء منه، أي تزعم أنك حكيم وتخطئ هذا الخطأ.

(٥) في البيان «مؤيد: داهية. خنفقيق: داهية أيضاً».

(٦) ديوان ابن ميادة ١٩٧.

وإنَّ الَّذي ولاَّك أمْرَ جماعةٍ لأنقصُ من يَمْشي على قَدَم عَقلا

٥٨٢ - [شعر في السيادة]

وقال آخر[(١)]: [من الوافر]

ورِثنَا المجْد عن آباء صدق أسأنَا في ديارهِمُ الصَّنيعا
إذا المَجْدُ الرَّفيعُ تَعاوَرتْه بُناة السُّوء أوْشَكَ أنْ يضيعَا

وقال الآخر[(٢)]: [من الطويل]

إذا المرءُ أثْرَى ثمَّ قال لقومه أنَا السَّيِّدُ المُفْضَى إليه المعمَّمُ
ولم يعْطِهمْ خيراً أبَوْا أنْ يَسُودَهُم وهانَ عليهمْ رَغْمُهُ وهو أظْلم

وقال الآخر[(٣)]: [من الطويل]

تركتُ لبحرٍ درهَميه ولمَ يَكُنْ ليَدفَع عَنِّي خَلَّتي درْهمَا بحرِ
فقلتُ لبحرٍ خذْهُما واصطَرفهُما وأنفقْهما في غيرِ حمدٍ ولا أجرِ
أتمنعُ سُؤالَ العشيرةِ بعدَ مَا تسمَّيتَ بحراً واكْنيت أبا الغَمر

وقال الهذلي[(٤)]: [من الطويل]

وكنت إذا ما الدّهرُ أحدَث نَكبة أقولُ شَوًى، ما لَم يُصِبنَ صَمِيمي

وقال آخر[(٥)] في غير هذا الباب: [من الطويل]

سقى اللّه أرضاً يَعْلَمُ الضَّبُّ أنَّها بعيدٌ من الأدواء طَيِّبَةُ البَقْلِ
بنى بيته في رأس نَشْزٍ وكُدْيةٍ وكلُّ امرئٍ في حِرفَةِ العَيْش ذُو عَقْلِ

٥٨٣ - [أبو الحارث والبرذون]

وحدّثني المكيُّ قال: نظر أبو الحارث جُمَّين إلى برذون يُستقى عليه ماءٌ، فقال: [من الطويل]

* [وما][(٦)] المرءُ حيثُ يَضعُ نفسَه *

---

(١) البيتان لمعن بن أوس في الأغاني ١٢/ ٥٩، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٤/ ١١٣.

(٢) البيتان للمغيرة بن حبناء في أمالي الزجاجي ١٨، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/ ٢٤٨.

(٣) الأبيات بلا نسبة في عيون الأخبار ٣/ ١٤٣، ومحاضرات الراغب ٢/ ١٥٢، والعقد الفريد ٢/ ٢٧٥، وربيع الأبرار ٣/ ٩.

(٤) البيت للبريق الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٧٤٤، واللسان (شوا)، والجمهرة ٨٨٣، وبلا نسبة في المخصص ١٥/ ١٦٦، وأساس البلاغة (شوي)، والأضداد ٢٢٩.

(٥) البيتان لأعرابي في ربيع الأبرار ٥/ ٤٦٩.

(٦) الزيادة من البيان والتبيين ٢/ ١٠٣، ٣/ ٢٢٨.

هذا لو قد هملَجَ لم يُبْتَلَ يما تَرى[1]!

٥٨٤ - [بين العقل والحَظ]

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابي: [من الوافر]

وما لُبُّ اللَّبيب بغير حظٍّ ... بأغنى في المعيشةِ من فَتيل

رأَيت الحَظَّ يستُر كلَّ عَيْب ... وَهَيْهاتَ الحُظوظ من العقول

٥٨٥ - [هجو الخَلْف]

وقال الآخر[2]: [من الكامل]

ذهبَ الَّذين أُحبُّهم سلَفاً ... وبَقِيت كالمقْهور في خَلْفِ

من كلِّ مَطوِيٍّ على حَنَقٍ ... مُتَضَجِّع يُكْفَى ولا يَكفِي

٥٨٦ - [عبد العَين]

وقال آخر[3]: [من الطويل]

ومَوْلى كَعَبْدِ العَيْن أمَّا لِقاؤه ... فيُرضى وأمّا غَيبُه فظَنُونُ

ويقال للمرائي، ولمن إذا رأى صاحبَه تحرّك له وأراه الخدْمة والسرعة في طاعته فإذا غابَ عنه وعن عينه خالف ذلك: «إنَّما هو عَبْدُ عَين»[4].

وقال اللّهُ عزَّ وجلّ: ﴿وَمِنْ أهْلِ الكِتَاب مَن إنْ تَأمَنْه بِقنطارٍ يُؤَدِّه إلَيْكَ، وَمِنْهُم مَنْ إنْ تأْمَنْهُ بدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّه إلَيْكَ إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً﴾[5].

٥٨٧ - [من إيجاز القرآن]

وقد ذكرنا أبياتاً تُضاف إلى الإيجاز وقِلَّة الفُضول، ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آياً من القرآن؛ لتَعرِفَ بها فصل ما بينَ الإيجاز والحَذْف، وبين الزّوائد والفُضول

---

(١) في البيان والتبيين «لو هملج هذا البرذون لم يجعل للراوية».

(٢) البيتان في البيان والتبيين، وهما للأحوص في ٢ / ١٨٤، وبلا نسبة في ٣ / ٣٣٦.

(٣) البيت لجميل في ديوانه ٢٠٨، وديوان المعاني ١ / ١٥٩، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣ / ٢٠٤، واللسان والتاج وأساس البلاغة (عين)، وثمار القلوب ٢٦٣ (٥٠٢).

(٤) مجمع الأمثال ٢ / ٣٩٧.

(٥) ٧٥ / آل عمران: ٣.

والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْعِ للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الّذي كتبتُهُ لك في بابِ الإيجازِ وترك الفضول. فمنها قوله حينَ وصفَ خمرَ أهلِ الجنّة:

﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾[1] وهاتان الكلمتان قد جَمَعتا جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ الدُّنيا.

وقولُه عزّ وجل حينَ ذكر فاكهة أهلِ الجنّة فقال: ﴿لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾[2] جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني.

وهذا كثيرٌ قد دَللتك عليه، فإنْ أردته فموضعه مشهور.

٥٨٨ - [رأي أعرابي في تثمير المال]

وقال أعرابي من بني أسد: [من الطويل]

يقُولون ثَمِّر ما استطَعت، وإنما ... لِوَارِثه ما ثَمَّرَ المَالَ كاسبُه

فكلْهُ وأطعمْهُ وَخالِسهُ وَارِثاً ... شحيحًا ودهرًا تَعْتَريكَ نوائبُهْ

٥٨٩ - [شعر في الهجاء]

وقال رجلٌ من بني عَبْس[3]: [من البسيط]

أبلغ قُراداً لقد حَكّمتُمُ رجلاً ... لا يَعرفُ النَّصْفَ بل قد جاوَزَ النَّصَفا

كان امرأً ثائراً والحقُّ يَغْلبُه ... فجانَبَ السَّهْلَ سَهْلَ الحقِّ واعتسفا

وذاكمُ أنَّ ذُلَّ الجار حالَفَكُم ... وأنّ أنفكُمُ لا يعرفُ الأنَفا

إنَّ المحكَّمَ ما لَمْ يَرْتَقِبْ حَسَباً ... أوْ يَرْهَبِ السَّيف أو حدَّ القَنا جنَفَا[4]

مَن لاذ بالسَّيفِ لاقى قَرضَه عجبا ... موتاً على عَجَلٍ أو عاش مُنْتَصِفَا

بِيعُوا الحياة بها إذ سام طالبُها ... إمَّا رَواحاً وإما مِتَةً أنَفا

ليس امرؤٌ خالداً والموتُ يطلبُه ... هاتيك أجْسادُ عادٍ أصبحتْ جيفَا

أبلغْ لَديك أبا كعب مغَلْغَلة ... أنَّ الذي بيننا قدْ مات أو دنفا

---

(١) ١٩/ الواقعة: ٥٦.

(٢) ٣٣/ الواقعة: ٥٦.

(٣) البيتان الرابع والخامس في البيان والتبيين ١/ ٣١١.

(٤) الجنف: الميل والجور. «القاموس: جنف».

كانت أمورٌ فجابت عن حُلومكم ثَوْبَ العَزيمةِ حتَّى انجاب وانكشفَا
إنِّي لأعلَمُ ظَهْرَ الضِّغن أعْدِله عَنِّي، وَأعْلَمُ أنِّي آكُلُ الكتفا

٥٩٠ - [شعر في الحِكَم]

وقال أسقفٌ نجْران(١): [من الكامل]

منَعَ البقَاءَ تصرُّفُ الشمسِ وطُلوعُها منْ حيثُ لا تُمسي
وطُلوعُها بَيضاءَ صافِيَةً وغروبُها صَفْراءَ كالوَرْس
اليوم أَعلم ما يجيءُ بِهِ ومضى بفَصْل قضائه أَمْس

وقال عبيدُ بن الأبرص(٢): [من مخلع البسيط]

وكُلُّ ذي غَيْبةٍ يؤوبُ وغائبُ الموْتِ لا يَؤوبُ
مَنْ يَسْألِ النَّاسَ يَحْرِمُوه وسائِلُ اللّه لا يَخيبُ
وعاقرٌ مثلُ ذات رحْمٍ وغانمٌ مثْلُ مَنْ يَخيبُ
أَفْلحْ بما شئْتَ فقدْ يُبْلَغُ بالضَّـ ـعْف وقَدْ يُخدَعُ الأريبُ
المرءُ مَا عاش في تَكْذيبِ طُولُ الحَياةِ لَهُ تَعذيبُ

وقال آخر(٣): [من الرجز]

إذا الرِّجال ولَدَت أوْلادُها واضطرَبَتْ مِنْ كِبَرٍ أعْضادُها
وَجَعلَتْ أوْصابُها تعتادُها فَهْيَ زُروعٌ قد دنا حَصَادُها

---

(١) الأبيات لأسقف نجران في البيان والتبيين ٣/٣٤٢ - ٣٤٣، ومعاهد التنصيص ٢/١٢١، وثمار القلوب (٣٧٤)، والسمط ٤٨٦، واللسان (أمس)، والمقاصد النحوية ٤/٣٧٣، وله أو للقمقام ابن العباهل في معجم الشعراء ٢٢٣، ولتبع بن الأقرن أو لراهب من نجران في الحماسة البصرية ٢/٤٠٦ - ٤٠٧، والمعارف ٦٣٠، ولعابد من نجران في العقد الفريد ٢/١٢٢ (مطبعة الاستقامة)، ولبعض ملوك اليمن في الصناعتين ٢٠١، ولذي القرنين في التيجان ١٠١، وأنشدها روح بن زنباع في ذيل الأمالي ٣١، وبلا نسبة في شرح قطر الندى ١٥، وشرح شذورالذهب ١٢٦ - ١٢٧، وهمع الهوامع ١/٢٠٩.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣ - ١٥.

(٣) الرجز لعبدة بن الطبيب في الوحشيات ١٥٦، ولزر بن حبيش في أدب الدنيا والدين للماوردي ١٠٨ (١٩٢٥م)، ولضرار بن عمرو الضبي في أمثال الضبي ١٦٦، وبلا نسبة في جمهرة الأمثال ٢/٢٤٦.

٥٩١ - [مرثية في محمد المخلوع]

وقال بنت عيسى بن جعفر وكان مُمْلَكَةً لمحمدٍ المخلوع حينَ قتل: [من المنسرح]

أبْكيكَ لا للنَّعيم والأنس بَلْ لِلمعَالي والرُّمحِ والفَرَسِ[١]

أبكي على فارسٍ فُجعْتُ به أرْملَني قَبْلَ لَيْلةِ العُرُس

٥٩٢ - [من نعت النساء]

وقال سَلْمٌ الخاسر: [من الطويل]

تبدَّتْ فقلتُ الشَّمسُ عِنْدَ طلُوعِها بجيدٍ نقيِّ اللّونِ من أثرِ الوَرْسِ[٢]

فلما كَرَرْت الطّرفَ قلت لِصَاحِبي على مِريْةٍ: ما هاهُنا مطلع الشمس!

٥٩٣ - [شعر رثاء]

وقال الآخر[٣]: [من الوافر]

كفى حَزَناً بدَفنِكَ ثُمَّ أنِّي نَفَضْتُ تُرابَ قبرِك عَنْ يَدَيَّا

وكانت في حياتكَ لي عظاتٌ وأنتَ اليوْم أوعظُ منْك حَيّا

---

(١) البيتان لزوجة الخليفة الأمين لبابة بنت علي في مروج الذهب ٤/ ٢٩٧، ونزهة الجلساء ٦٧، ولِلُبانة بنت ريطة في العقد الفريد ٣/ ٢٠٤ (٢/ ١٧٨)، وشاعرات العرب ٢٣٩، ومعجم الأديبات ٤١٤، ولامرأة بعض الملوك في البيان والتبيين ٣/ ٢٠٢.

(٢) البيتان في ديوانه ٩٠، والحماسة البصرية ٢/ ١٦١، ونهاية الأرب ٢/ ٣٧.

(٣) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه ٦٧٩، والوحشيات ١٣٢، والبيان والتبيين ١/ ٤٠٨، ٣/ ٢٥٨، ومجالس ثعلب ٥٩، ومعاهد التنصيص ٤/ ١٨٨، الأغاني ٤/ ٤٤، ومحاضرات الراغب ٢/ ٢١٧.

بـــاب

من المديح بالجَمَال وَغَيره

٥٩٤ - [شعر في المديح]

قال مزاحمٌ العقيليّ: [من الطويل]

يزين سنا الماويِّ كلَّ عشيّةٍ   على غَفَلاَت الزَّينِ والمتجَمَّلِ[١]

وجوهٌ لوَ انَّ المدْلجينَ اعتشوْا بها   صَدَعْنَ الدُّجى حتَّى ترى اللَّيْل ينْجَلي

وقال الشَّمَردَل: [من البسيط]

إذا جَرى المسْكُ يَنْدى في مفارِقِهِمْ   راحُوا كأنهمُ مَرْضى من الكَرَم[٢]

يشبَّهونَ ملوكاً من تجلّتهم   وطولِ أنضية الأعناق والأُمم

النضيُّ: السَّهم الذي لم يُرَش، يعني أن أعناقهم مُلسٌ مستوية، والأمم: القامات.

وقال القتَّال الكلابيّ[٣]: [من البسيط]

يا لَيتَني، والمُنى لَيست بنافعةٍ   لمالكٍ أو لحِصْنٍ أو لسَيَّارِ

طوال أنضيَة الأعناق لم يجدوا   ريحَ الإماء إذا راحت بأزفار

---

(١) ديوان مزاحم العقيلي ٦، ومجالس ثعلب٢٢٩-٢٣٠، والبيان والتبيين ٣/٢٥٢، ٤/٦٩، واللسان (عشا، موا)، وبلا نسبة في التاج واللسان (موه)، والبيت الثاني في الوساطة ٣٥٥.

(٢) البيتان للشمردل بن شريك في الشعر والشعراء ٤٤٣ (ليدن)، ٧٠٨ (طبعة شاكر)، وله أو لليلى الأخيلية في اللسان (أمم، نضا)، ولليلى الأخيلية في ديوانها ١١٨، واللسان (جلل، نصا)، والتاج (نصا)، وبلا نسبة في أمالي القالي ١/٢٣٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦١١، والتاج (نضا)، والمقاييس ٥/٤٣٣،والمجمل ٤/٤٠٩.

(٣) ديوان القتال الكلابي٦٠، وأمالي القالي ٢/٢٢٣، والمعاني الكبير ٥٢٠، والكامل ١/٣٤ (طبعة المعارف)، ونسب البيت الأول والثالث إلى رافع بن هريم في نوادر أبي زيد ٢٢.

لم يرْضَعوا الدَّهر إلا ثدْيَ واضِحةٍ ... لواضِحِ الوَجْهِ يَحمِي باحَةَ الدَّارِ

وقال آخر: [من الطويل]

إذا كان عَقْلٌ قلتُمُ إنَّ عَقْلَنَا ... إلى الشَّاء لم تُحلُلْ عَلينا الأباعِرُ

وإنَّ امرأً بعدي يُبادل وُدَّكُمْ ... بُودٍّ بني ذبيان مولى لخاسِرُ

أولئك قومٌ لا يُهان هَديُّهم ... إذا صرَّحَتْ كَحْلٌ وهَبَّتْ أعاصرُ[1]

مَذاليق بالخَيل العِتاق إذا عَدَوا ... بأيديهمُ خطِّيَّة وبَواتِرُ[2]

وقال أبو الطَّمَحَان القَينيّ في المعنى الذي ذكرنا[3]: [من الطويل]

كم فيهمُ مِنْ سَيِّدٍ وابنِ سَيِّدٍ ... وَفيٍّ بعَقْد الجَارِ، حينَ يُفارقُه

يكاد الغَمامُ الغُرُّ يُرْعِدُ أنْ رَأى ... وُجُوهَ بَنِي لأمٍ ويَنْهَلُّ بارقُه

وقال لَقيطُ بن زرارة[4]: [من الطويل]

وإنِّي مِنَ القَوْمِ الذين عَرَفْتُمُ ... إذا مات منْهُمْ سَيِّدٌ قامَ صاحبُه

نجومُ سماءٍ كُلما غار كوْكَبٌ ... بَدَا كَوْكَبٌ تأوي إليه كواكبُه

أضاءَتْ لهمْ أحسابهُمْ ووُجُوهُهُم ... دُجَى اللّيلِ حتَّى نَظَّمَ الجزعَ ثاقبه[5]

وقال بعض التميميِّين، يمدَح عوفَ بنَ القَعْقاع بنِ مَعْبَدِ بن زرارة: [من الطويل]

بحقٍّ امرئ سرو عتيبة خاله ... وأنت لَقعقاعٌ وعمُّك حاجبُ

---

(١) الهدي: الأسير، وقيل: الرجل ذو الحرمة، يأتي القوم يستجير بهم؛ أو يأخذ منهم عهداً، فهو ما لم يُجَرْ، أو يأخذ العهد هدي، فإذا أخذ العهد منهم فهو حينئذجار لهم (اللسان ١٥/٣٥٨ – ٣٥٩ : هدي). الكحل: السنة الشديدة «القاموس: كحل».

(٢) مذاليق: جمع مذلاق؛ وهو السريع الجري «القاموس: ذلق».

(٣) البيتان في البيان والتبيين ٣/٣٣٧، والثاني في عيون الأخبار ٤/٢٥، والشعر والشعراء ٢٣٠ (ليدن).

(٤) الأبيات للَقيط بن زرارة في الشعر والشعراء ٤٤٧ (ليدن)، والبيت الثالث في عيون الأخبار ٤/٢٤، وتنسب الأبيات إلى أبي الطمحان القيني في الحماسة البصرية ١/١٦١، والحماسة المغربية ٦٠٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٨، والأغاني ١٣/٩، وأمالي المرتضى١/٢٥٧، والكامل ١/٣١ (طبعة المعارف)، والخزانة ٨/٩٥– ٩٦، وديوان المعاني ١/٢٢، والصناعتين ٣٦٠، والمقاصد النحوية ١/٥٦٧، واللسان (خضض)، وأخبار أبي تمام ١٣٥، والسمط ٢٣٦، وفي الشعر والشعراء ٤٤٧ «وبعض الرواة ينحل هذا الشعر أبا الطمحان القيني، وليس كذلك؛ إنما هو للقيط»

(٥) الجزع: ضرب من الخرز فيه سواد وبياض. «القاموس: جزع»

دراري نجوم كلما انقضَّ كوكبٌ بدا كوكب ترفضُّ عنه الكواكبُ

وقال طفَيلٌ الغَنَويُّ[1]: [من الطويل]

وكانَ هُريمٌ مِن سِنانٍ خَليفةً وعمرو ومن أسماءَ لَّما تَغَيَّبُوا
نجومُ ظلام كلما غابَ كوكبٌ بَدَا ساطعاً في حِنْدِس اللّيلِ كوْكب

وقال الخرَيمي[2]، يمدح بني خُرَيم من آل سنَان بن أبيَ حَارثة: [من الطويل]

بقيَّة أقمارٍ من الغُرِّ لو خبتْ لَظلَّت مَعَدٌّ في الدُّجى تتكَسَّعُ
إذا قمرٌ منهم تَغَوَّرَ أو خَبا بدَا قَمرٌ في جانب الليل يَلْمَعُ

وقال بعضُ غنِيٍّ[3] وهو يمدح جمَاعة إخوة، أنشدنيها أبو قطَن الذي يقال له شهيد الكَرَم: [من البسيط]

حَبِّر ثَناءَ بني عمرٍو فإنَّهمُ أُولو فُضولٍ وأنْفالٍ وأخطارِ
إنْ يُسْألوا الخَيْرَ يُعطوهُ، وإنْ جُهِدُوا فالجهْدُ يُخْرِجُ منْهُمْ طِيبَ أخبار
وإنْ تَودَّدْتَهم لانُوا، وإن شُهِموا كشفْتَ أذمَار حربٍ غَيرَ أغمارِ
مَن تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجوم التي يسري بها السَّاري

٥٩٥ - [شعر في الفخر]

وقال رجلٌ من بني نهشل[4]: [من البسيط]

إنِّي لمِنْ مَعْشر أفْنَى أوائلَهُمْ قيلُ الكُماةِ ألا أَينَ المحامُونا

---

(١) ديوان طفيل ٣٨ ، ٣٩، والبيان والتبيين ٣/٣٣٧، والثاني في أخبار أبي تمام ١٣٦، وأمالي المرتضى ١/١٨٦.

(٢) ديوان الخريمي ٤٣، وبهجة المجالس ١/٥٠٣، والأشباه والنظائر للخالديين ١/١٥٨، والبيت الثاني في ديوان المعاني ٢/١٧٥، وأمالي المرتضى١/٢٥٨، وأخبار أبي تمام ١٢٦، ١٣٤، والموشح ٣٢٣، وهو لأعرابي في ذيل الأمالي ١٢١.

(٣) الأبيات للعرندس الكلابي في معجم الشعراء ١٧٣، وأمالي القالي ١/٢٣٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٣، والحماسة المغربية ٢٩٩، ولعبيد بن العرندس الكلابي في التنبيه للبكري ٧٢، والسمط ٥٤٦، والكامل ١/٤٧ (طبعة المعارف)، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١/٢٣,٤١، والحماسة الشجرية ١/٣٥٩، وانظر حاشية الحماسة المغربية ٢٩٩.

(٤) الأبيات لنهشل بن حري في ديوانه ١٢٧ (شعراء مقلون)، وعيار الشعر ١٠٤ - ١٠٥، والشعر والشعراء ٤٠٥ (ليدن)، وزهر الآداب ١١٥٩، والأبيات لبشامة في عيون الأخبار ١/١٩٠، وله أو لبعض بني قيس بن ثعلبة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٠٠، ولأبي مخزوم النهشلي في الحماسة المغربية ٧٢٧ - ٧٢٨، ولرجل من بني نهشل في البيان والتبيين ٣/٣٣٧.

لو كانَ في الألف منَّا واحدٌ فدَعَوْا مَنْ فارسٌ خالَهُمْ إيّاهُ يَعنُونا
وليسَ يَذْهَبُ مِنّا سَيِّدٌ أبَداً إلاَّ افتلَيْنا غُلامًا سَيِّداً فِينا

٥٩٦ - [شعر في المديح]

وفي المعنى الأوّل يقول النّابغة الذُّبيانيّ(١): [من الطويل]

وذاكَ لأنَّ اللّهَ أعطاك سُورَةً ترَى كُلَّ مُلْكٍ دُونها يَتَذَبْذَبُ
بأنَّك شمسٌ والملوك كواكب إذا طَلَعتَ لم يَبْدُ منهنّ كَوكَبُ

وفي غير ذلك من المديح يقول الشاعر(٢): [من الكامل]

وأتيتُ حَيّاً في الحروب محلُّهم والجيشُ باسم أبيهمُ يُستَهزَمُ

وفي ذلك يقول الفرزدق(٣): [من الطويل]

لتَبْك وكيعاً خيلُ ليلٍ مُغيرةٌ تَساَقى السِّمامَ بالرُّدَيْنِيَّة السُّمْرِ
لقوا مثلَهم فاستهزَموهمْ بدعوةٍ دعَوْها وكيعاً والرِّماحُ بهم تجري

وأما قول الشاعر: [من الرجز]

* تخامل المحتد أو هزام *

فإنَّما ذَهبَ إلى أنَّ الدَّعوة إذا قام بها خامل الذِّكر والنسب فلا يحسُده من أكفائه أحدٌ وأما إذا قام بها مذكورٌ بيُمن النَّقيبة، وبالظَّفَر المتتابع، فذلك أجود ما يكون، وأقرَبُ إلى تمام الأمر.

وقال الفرزدق(٤): [من الطويل]

تَصرَّم منّي وُدّ بكرِ بنِ وَائلٍ وما كان وُدِّي عَنْهُمُ يتصرَّمُ
قوارصُ تأتِيني ويحتقرونها وقَدْ يَملأ القَطْرُ الأناءَ فَيُفْعَمُ

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٧٣، وديوان المعاني ١ /١٥ - ١٦، وعيار الشعر ٣٤، والأول في اللسان والتاج (سور)، والجمهرة ١٧٤، ٧٢٣، والتهذيب ١٣ /٤٩.

(٢) البيت لخزر بن لوذان في الوساطة ٣٦٤، وبلا نسبة في ديوان المعاني ١ /١٤٥ وفيه «أنشدناه أبو أحمد عن العبشمي عن المبرد».

(٣) ديوان الفرزدق ٢٤٦، ورسائل الجاحظ ٢ /٢٨٦، وديوان المعاني ١ /١٤٥. والثاني في الوساطة ٣٦٤.

(٤) البيتان في عيون الأخبار ٢ /١٦.

وقال الفرزدق[1]: [من الطويل]

وقالتْ أُراه واحداً لا أخَا لَهُ	يؤمِّله في الوَارِثينَ الأباعدُ
لعلَّكِ يوماً أن ترَيْني كأنَّما	بَنيَّ حَوَاليَّ الأسُودُ الحواردُ[2]
فإنَّ تميماً قبل أن يلد الحصى	أقام زماناً وهو في الناس واحدُ

وقال الفرزدق أيضاً[3]: [من الطويل]

فإنْ كان سيفٌ خان أو قَدَرٌ أتى	لميقاتِ يومٍ حَتْفُه غير شاهد
فسَيْفُ بني عَبْسٍ وقد ضَرَبُوا به	نبا بيدَيْ وَرْقاءَ عن رأسِ خالدِ
كذاك سُيوفُ الهِنْدِ تنبُو ظُباتُها	ويقْطَعْن أحياناً مَناطَ القَلائدِ[4]

٥٩٧ - [خير القصائد]

وإنْ أحببتَ أن تروِي مِن قصار القصائد شعراً لم يُسمَع بمثله، فالتَمسْ ذلك في قصار قصائدِ الفَرَزدق؛ فإنك لم ترَ شاعراً قطُّ يجمَعُ التَّجويدَ في القِصارِ والطِّوال غَيْرَه.

وقد قيل للكُميت: إنْ النَّاسَ يزْعمون أنّك لا تقدِر على القصار! قال[5]: مَنْ قال الطِّوال فهو على القِصار أقدر.

هذا الكلام يَخْرج في ظاهر الرَّأي والظَّن، ولم نجدْ ذلك عند التَّحصيل على ما قال.

وقيل لعَقِيل بن عُلَّفة: لم لا تُطيل الهجاء؟ قال[6]: «يَكفيكَ مِنَ القِلادة مَا أحَاط بالعُنق».

---

(١) الأبيات للفرزدق في ديوانه ١٧٢، ١/١٤٦ (طبعة دار صادر)، وعيون الأخبار ٤/١٢٣، ولابن عنقاء الفزاري في معجم الشعراء ١٩٩، ومعاهد التنصيص ١/٣٠٤، والثاني في أساس البلاغة (حرر)، والمجمل ٢/٥٦، وبلا نسبة في المقاييس ٢/٥٢، والجمهرة ٥٠١.

(٢) الحوارد: جمع حارد، وهو الرجل المتنحي المعتزل والغضبان: «اللسان حرد»، ورواية البيت في الديوان: (فإني عسى أن تبصريني كأنما بنيّ حوالي الأسود اللوابد)

(٣) الأبيات في الأغاني ١٥/٣٤٣ - ٣٤٤، والنقائض ٣٨٤، والعمدة ١/١٨٩ - ١٩٠ «باب في البديهة والارتجال». والوساطة ٤٣٧.

(٤) الظُّبَة: حد السيف. «القاموس: ظبو».

(٥) في البيان والتبيين ١/٢٠٧، والعمدة ١/١٨٨ «باب في القطع والطوال»: (ولاموا الكميت بن زيد على الإطالة، فقال: أنا على القصار أقدر).

(٦) البيان والتبيين ١/٢٠٧، ٢/٦٨، ٣/١٦٥، والأغاني ٢١/٣٥٨، والعمدة ١/١٨٧، ونهاية =

وقيل لجرير: إلى كَمْ تهجُو النَّاس؟ قال[١] «إنِّي لا أبتدي، ولكنِّي أعتدي».

وقيل له: لم لا تقصرِّ؟ قال: «إن الجماحَ يمنع الأذى».

٥٩٨ - [شعر مختار]

قال عبيد بن الأبرص[٢]: [من الكامل]

نبِّئتُ أنَّ بَني جَديلةَ أوْعَبُوا ... نُفَراءَ من سَلْمى لنا وتَكَتّبُوا[٣]

ولقد جَرى لهمُ فلم يتعيَّفوا ... تيسٌ قَعيدٌ كالهِراوةِ أعضَبُ[٤]

وأبو الفِراخ على خشاش هشيمةٍ ... متنكِّبٌ إبط الشَّمائل ينْعَبُ[٥]

فتجاوزوا ذَاكُمْ إلينا كلَّه ... عَدْواً وَقرْطبةً فلما قرَّبوا[٦]

طُعنوا بمُرَّان الوَشيجِ فما تَرى ... خلفَ الأسنّة غَيْرَ عرْق يشْخَبُ[٧]

وتَبَدَّلوا اليَعْبوبَ بَعدَ إلههِمْ ... صَنَماً ففرُّوا يا جَديلَ وأعذبوا[٨]

وقال آخر: [من الطويل]

ألم تَرَ حَسّان بنَ مَيسرة الذي ... بجُوْخَى إلى جيرانه كيفَ يَصنَعُ

مَتَارِيبُ ما تنفكُّ منهم عِصابة ... إليه سِراعاً يحصُدُون ويزْرَعُ[٩]

= الأرب ٣/٢٧، وزهر الآداب ٦٩٤ (طبعة مبارك)، وهو من الأمثال في المستقصى ٢/٦٢، ومجمع الأمثال ١/١٩٦، والأمثال لمجهول ٥٧.

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٥.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ٢ - ٣ وشرح الأبيات التالية في ديوانه.

(٣) أوعبوا: نفروا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد. تكتبوا: صاروا كتائب. بنو جديلة: حي من طيء. سلمى: أحد جبلي طيء.

(٤) تعيفوا من العيافة، وهي هنا التشاؤم. التيس: الذكر من الظباء. القعيد: الذي يأتي من الخلف، وهو يتشاءم به. الأعضب: المكسور أحد القرنين.

(٥) أبو الفراخ: الغراب. الخشاش: كل ما لا عظم له من الدواب. الهشيمة: الشجرة اليابسة. متنكب: مجتنب.

(٦) ذاكم: عنى به التعيف والزجر. القرطبة: العدو الشديد.

(٧) المران: الرماح الصلبة اللدنة، جمع مرانة. الوشيج: شجر الرماح. يشخب: يسيل دمه.

(٨) اليعبوب: صنم لجديلة. وفي الديوان (فَقَرُّوا) مكان (ففروا).

(٩) متاريب: جمع مترب، وهي كلمة من الأضداد تعني الذي قلَّ ماله والذي كثر ماله. انظر القاموس «ترب»، والأضداد ٣٨٠.

٥٩٩ - [شعر في معنى قوله: يريد أن يعربه فيعجمه]

وبابٌ آخر مثلُ قوله[١]: [من الرجز]

* يريد أن يُعربَه فيُعجمَهُ *

وقال آخر: [من الرجز]

* كأنَّ مَنْ يحفَظها يُضيعها *

وقال آخر: [من الرجز]

* أهوجُ لا يَنفَعُهُ التثَّقيفُ *

وقال بعض المحدَثين[٢] في هذا المعنى: [من الطويل]

إذا حَاولوا أن يَشْعَبُوها رأيتَها ... مَعَ الشَّعْب لا تزْدَادُ إلا تَداعِيا

وقال صَالحُ بنُ عبد القُدُّوس[٣]: [من السريع]

والشيخُ لا يَتْرُكَ أخلاقَهُ ... حَتَّى يُوارَى في ثَرَى رَمْسِهِ

إذا ارْعَوَى عادَ إلى جَهلِهِ ... كَذِي الضَّنا عادَ إلى نُكْسِهِ

ومثل هذا قوله[٤]: [من الكامل]

وتَروضُ عِرْسكَ بَعْدَ ما هَرِمتْ ... وَمِنَ العَناءِ رِياضةُ الهَرِمِ

وقال حُسيل بن عُرْفُطة[٥]: [من الطويل]

لِيَهْنيكَ بُغْضٌ في الصَّديق وَظِنة ... وتحديثُك الشَّيء الذي أنت كاذِبُهْ

وأنكَ مَشْنوءٌ إلى كلِّ صاحبٍ ... قَلاك ومثلُ الشَّرِّ يُكْرَهُ جانبُهْ

---

(١) الرجز للحطيئة في ديوانه ٢٩١، والأغاني ٢/١٩٦، ولرؤبة في ملحق ديوانه ١٨٦، واللسان (عجم)، ولهما في التاج (عجم).

(٢) البيت لمحمد بن يسير الرياشي في ديوانه ١٢٨. وعيون الأخبار ٣/٢٦٦، وبلا نسبة في البخلاء ٢٢٢.

(٣) البيتان لصالح بن عبد القدوس في طبقات ابن المعتز ٨٩، والحماسة البصرية ٢/٤٠، وأمالي المرتضى ١/١٠١، والأول في الأغاني ١٤/١٧٧، ضمن أخبار علي بن الخليل، والثاني بلا نسبة في اللسان (ضنى)، والعين ٢/٢٤٠، ٧/٦٠.

(٤) البيت لمالك بن دينار في أمالي القالي ٢/٥١، والأمثال والحكم ١٢٤، وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/٣٠١، وجمهرة الأمثال ٢/٢٧٩، والمستقصى ٢/٢٤٩، وفصل المقال ١٨٢، والأمثال لابن سلام ١٢١.

(٥) الأبيات في البيان والتبيين ٣/٢٤٩، وبلا نسبة في رسائل الجاحظ ٢/٣٣٩.

وأنَّك مِهْداءُ الخَنا نَطِفُ النثَا شَديدُ السِّبَاب رافع الصوت غالبُهْ[1]
فلم أرَ مِثْلَ الجَهْل يَدْعو إلى الرَّدى ولا مِثْلَ بُغْضِ النَّاس غَمّضَ صَاحِبُه

٦٠٠ - [كلمة للزِّبرقان]

وقال الأصمعي: قال الزِّبرقَان بنُ بدر: خَصْلَتان كبيرتان فِي امرئِ السَّوء: شِدَّة السِّباب، وكثرة اللِّطام.

٦٠١ - [تمجيد الأقارب]

وقال خالد بن نَضْلة[2]: [من الطويل]

لَعَمْري لَرَهْطُ المَرءِ خَيْرٌ بَقيةً عليه ولو عالَوْا به كلَّ مَركب
منَ الجانبِ الأقصَى وإنْ كان ذا نَدى كثيرٍ ولا يُنْبيك مثلُ المجرِّب
إذا كنْتَ في قومٍ عِداً لستَ منْهُمُ فكلْ مَا عُلفْتَ منْ خَبيث وَطَيِّب
فإنْ تَلتَبِسْ بي خَيلُ دُودَان لا أَرِمْ وإن كنتُ ذا ذَنْب وإن غَيْرَ مُذْنب

٦٠٢ - [بكل وادٍ بنو سعد]

قال: ولمَّا تأذَّى الأضبط بنُ قريع في بني سعد تحوَّلَ عنهمْ إلى آخَرينَ فآذَوه فقال: بكلِّ وادٍ بنو سعد[3]!

٦٠٣ - [مقطَّعات شتَّى]

وقال سُحَيمُ بن وَثيل[4]: [من الطويل]

ألا ليسَ زَينَ الرَّحلِ قِطْعٌ ونُمْرُقٌ ولكنَّ زَينَ الرَّحْلِ يا ميَّ راكبُه[5]

---

(١) النطف: المتهم المريب «القاموس: نطف». النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء «القاموس: نثا».

(٢) الأبيات لخالد بن نضلة الحجواني؛ أو لزرافة بن سبيع الأسدي، انظر الحماسة البصرية ٢/٥٦، وحاشية المحقق فيها، والبيت الثالث للحماسي في أساس البلاغة (علف)، وبلا نسبة في المجمل ٣/٤٥٧، واللسان والتاج (عدا)، والتهذيب ٣/١١٠، والمخصص ١٢/٥٢، ١٥/٨٢. وانظر الأبيات في الفقرة (٩٠٢).

(٣) البيان والتبيين ٣/٢٩٤، والبخلاء ١٨٩، ومجمع الأمثال ١/١٠٥، وجمهرة الأمثال ١/٦١.

(٤) البيت لسحيم بن وثيل في عيون الأخبار ١/٢٩٧، ولمضرس بن ربعي في معجم الشعراء ٣٠٧.

(٥) القِطْع: البساط «القاموس: قطع». نمرق: الوسادة الصغيرة «القاموس: نمرق».

وقال أعرابيٌّ[1]: [من الطويل]

فما وجْدُ ملواحٍ مِنَ الهيمِ خلِّئتْ ... عن الماء حتَّى جوْفها يَتَصَلْصَلُ[2]
تحومُ وتَغْشَاها العصيُّ وحَوْلها ... أقَاطيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وتُنْهَلُ
بأكثرَ منِّي غُلَّةً وتعطُّفاً ... إلى الورد، إلاَّ أنَّني أتَجَمّلُ

وقال خالدُ بن عَلْقَمَةَ ابنُ الطَّيفان، في عيب أخْذِ العَقْل والرِّضا بشيءٍ دونَ الدَّم، فقال[3]: [من الطويل]

وإنَّ الَّذي أصبحْتُمُ تَحلُبُونَه ... دَمٌ غَيْرَ أنّ اللَّونَ لَيسَ بأحْمَرَا
فلا تُوعِدُوا أولادَ حَيَّانَ بَعْدَما ... رَضِيتُمْ وزوّجتم سَيَالة مِسْهَرَا[4]
وأعجَبَ قِردٍ يقصم القمل حَالقاً ... إذا عبّ في البَقية بَرْبَرَا
إذا سكَبُوا في القَعبِ من ذي إنائهم ... رأوا لَونَه في القَعبِ وَرداً وأشقرا

---

(١) الأبيات بلا نسبة في البيان والتبيين ٣/ ٥٥.
(٢) الهيم: الإبل العطاش «القاموس: هيم». حلئت: منعت من الماء «القاموس: حلأ».
(٣) الأبيات في الوحشيات ٨١، والأول بلا نسبة في السمط ٦٧٣.
(٤) في الوحشيات (رضيتم وزوجتم سبالا مشعَّرا).

بـــاب آخر

في ذكر الغضب، والجنون، في المواضع التي يكون فيها محموداً

٦٠٤ - [شعر في الجنون]

قال الأشهبُ بن رُمَيلة[١]: [من الطويل]

هرّ المَقادَة من لا يستقيدُ لها ... واعصَوْصَب السَّيرُ وارتدّ المساكينُ[٢]

مِنْ كلِّ أشعثَ قدْ مالَتْ عِمامَتهُ ... كأنَّهُ مِنْ ضِرارِ الضَّيم مجْنُون

وقال في شبيه ذلك أبو الغول الطُّهَويُّ[٣]: [من الوافر]

فَدَتْ نفسي وما مَلَكَتْ يَميني ... مَعاشِرَ صُدِّقتْ فيهم ظُنُوني

مَعاشِرَ لا يملُّون المنايا ... إذا دَارتْ رَحَى الحرب الطَّحون

ولا يجزُون من خير بشر ... ولا يَجْزُون من غِلَظ بِلِين

ولا تَبلى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ ... صَلُوا بالحَرْب حيناً بعدَ حين

هُمُ أحمَوْا حِمَى الوَقْبَى بضَرْبٍ ... يُؤلِّف بينَ أشْتَات المَنُون[٤]

فنَكَّبَ عنهمُ دَرْءَ الأعادي ... وَدَاوَوْا بالجُنُونِ مِن الجنونِ

وقال ابن الطَّثريَّة[٥]: [من البسيط]

لو أنَّني لم أنلْ منكم معاقبةً ... إلا السِّنانَ لذاقَ الموت مطعونُ

أو لاختطبتُ فإني قد هممت به ... بالسّيف إن خطيب السَّيفِ مَجْنُونُ

---

(١) البيتان في ديوانه ٢٤٤.

(٢) هرّ: كره «القاموس: هرّ». المقادة: القود، وهو نقيض السوق «القاموس: قود».

(٣) الأبيات لأبي الغول الطهوي في الأمالي ١ / ٢٦٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٩ - ٤٠، والسمط ٥٨٠، والخزانة ٦، ٤٣٣، ٨ / ٣١٤، والأبيات (١، ٢، ٥) في معجم البلدان ٥ / ٣٨٠ (الوقبى)، و (١، ٢) في شرح المفصل ٥ / ٥٥، و (٣، ٥، ٦) في الشعر والشعراء ٢٥٦ - ٢٥٧ (طبعة ليدن)، والثالث في اللسان (سوا)، والرابع في اللسان (صلا)، و(١، ٢) بلا نسبة في الخصائص ٢ / ١٢١.

(٤) الوقبى: ماء لبني مالك بن مازن بن مالك، وكانت لهم به وقائع مشهورة، وهوعلى طريق المدينة من البصرة. معجم البلدان ٥ / ٣٨٠ (الوقبى).

(٥) ديوان ابن الطثرية ١٠٧.

وقالَ آخر[1]: [من الكامل]

حمراءُ تامكة السَّنامِ كأنَّها ... جَمَلٌ بهَودجِ أهْله مَظْعُون[2]

جادَتْ بها يَومَ الوَداعِ يَمينه ... كلْتا يَدَيْ عَمْرو الغَدَاةَ يَمينُ

ما إنْ يجود بمثْلها في مثلِه ... إلاَّ كَريمُ الخيمِ أو مجْنُونُ[3]

وفي هذا المعنى يقول حسَّان، أو ابنُه عبدُ الرحمن بن حسَّان[4]: [من الخفيف]

إنَّ شَرْخَ الشَّباب والشَّعَرَ الأسْـ ... ـودَ ما لَمْ يُعَاصَ كانَ جُنونَا

إنْ يكُنْ غَثٌّ مِنْ رَقاشِ حَديثٌ ... فبِما نأكُلُ الحديثَ سَمِينا

وفي شبيهٍ بذلك قول الشَّنْفَرَى[5]: [من الطويل]

فدقَّتْ وجلَّتْ واسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلتْ ... فول جُنَّ إنْسانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ

وقال القُطاميُّ[6] – حين وصف إفراط ناقَته في المرَح والنَّشاط: [من البسيط]

يَتْبَعْن ساميةَ العَينَينِ تحسَبُها ... مَجْنُونَةً أو تُرَى ما لا تَرَى الإبلُ

وقال ابنُ أحمرَ[7]، في معنى التشبيه والاشتقاق: [من الوافر]

بِهَجْلٍ من قَساً ذَفِرِ الخُزَامى ... تداعى الجِرْبِياءُ به الحنينا[8]

---

(1) الأبيات لجميل في ديوانه ١٩٨، والبرصان ٣٤٩، ولابن الطثرية في ديوانه ١٠٦، ولعبيد بن أيوب في أشعار اللصوص ١/٢٣٢، ٢٣٣، والبيت الثالث لعبيد بن أيوب في الرسالة الموضحة ٣٨، وأخبار أبي تمام ٣٣، والأبيات بلا نسبة في الوحشيات ٢٦٨.

(2) التامكة: الناقة العظيمة السنام «القاموس: تمك».

(3) الخيم: السجية «القاموس: خيم».

(4) البيتان لحسان بن ثابت في ديوانه ٤٧٣، والأول في اللسان والتاج (شرخ)، والجمهرة ٩٢، ٥٨٥، والتهذيب ٧/٨١، وديوان الأدب ١/١٠١، وبلا نسبة في المقاييس ٣/٢٦٩، والمخصص ١/٣٨، والثاني في اللسان والتاج (ما)، والتهذيب ١٥/٦٢٨.

(5) البيت للشنفرى في المفضليات ١٠٩، وشرح اختيارات المفضل ٥١٩، ورسائل الجاحظ ٢/٩٨، والبيان والتبيين ٣/٢٢٤، واللسان (جنن)، والأغاني ٢١/١٨٧.

(6) ديوان القطامي ٢٧.

(7) ديوان ابن أحمر ١٥٩، والبيان والتبيين ٣/٢٢٣، ومعجم البلدان (قسا)، والجمهرة ٢٨٩، والأول في اللسان (قسأ، فقأ، جرب، ذفر، قسا، هجل)، والجمهرة ٢٦٦، والتاج (فقأ، قسأ، جرب، ذفر، هجل، جنن)، وبلا نسبة في المخصص ١١/٢٠٧، ١٥/٢٠١، والثاني في السان (فقأ، خوز، قلع، جنن)، والتاج (فقأ، قسأ، جرب، خوز، قلع، جنن)، والخزانة ٦/٤٤٢، وإصلاح المنطق ٤٤.

(8) الهجل: المطمئن من الأرض «القاموس: هجل». الجربياء: الريح الشمالية الباردة «القاموس: جرب». الحنين: صوت الريح «القاموس: حنّ»

تَفَقَّأَ فَوقَهُ القَلَعُ السَّوَاري ... وجُنّ الخازِبازِ بِهِ جُنُونا[1]

وفي مثل ذلك يقول الأعشى[2]: [من الخفيف]

وإذا الغيثُ صوبُه وَضَعَ القدْ ... حَ وجُنَّ التِّلاعُ والآفاقُ

لم يزِدْهُمْ سَفاهةً نشْوةُ الخَمْـ ... ـرِ ولا اللَّهوُ فيهمُ والسِّباقُ

وقال آخر في باب المزاح والبَطالة، مما أنشَدَنيه أبو الأصبغ بن رِبعيّ: [من الطويل]

أتَوني بمجنونٍ يَسِيلُ لُعَابُه ... وما صاحبي إلاَّ الصَّحِيحُ المسلَّمُ

٦٠٥ - [إبراهيم بن هانئ والشعر]

وأنشدني إبراهيمُ بن هانئ، وعبدُ الرحمن بنُ منصور: [من الطويل]

جنُونَكَ مَجنونٌ ولسْتَ بواجدٍ ... طَبيباً يُدَاوِي مِن جنونِ جنُونِ

وكان إبراهيم بن هانئ لا يقيم شعراً ولا أدري كيف أقَامَ هذا البيت!

وكان يدَّعى بحضرة أبي إسحاق علمَ الحساب، والكلامِ، والهندسة، واللحون، وأنه يقول الشعر؛ فقال أبو إسحاق: نحن لم نمتحنك في هذه الأمور، فلك أن تدّعيهَا عندنا. كيف صرْتَ تدّعي قول الشعر، وأنتَ إذا رويتَه لغيرك كسرته؟! قال: فإنّي هكذا طبعتُ، أن أقيمه إذا قلت، وأكسره إذا أنشدت! قال أبو إسحاق: ما بعدَ هذا الكلام كلام!

٦٠٦ - [جواب أعرابي في شدة الغلمة]

وقلت لأعرابيّ، أيُّما أشدُّ غلمةً: المرأة أو الرجل؟ فأنشد[3]: [من الطويل]

فوَ اللَّه ما أدْرِي وإنِّي لَسائِلُ ... ألأيرُ أدنَى للفجور أو الحرُ

وقدجاءَ هذا مُرخِياً من عِنانه ... وأقبلَ هذا فاتحاً فاه يهدرُ

٦٠٧ - [مقطعات شتى]

وأنشد بعضهم[4]: [من الخفيف]

أصبَح الشَّيبُ في المفارِقِ شاعا ... واكتَسى الرأسُ من بياض قناعا

---

(١) القلع: قطع من السحاب «القاموس: قلع».

(٢) ديوان الأعشى ٢٦٥.

(٣) البيتان في محاضرات الأدباء ٢/ ١١٨ (٣/ ٢٦١) وفيه (قيل لقطرب: أيهما أسرع على المباضعة؛ الأير أم الحر؟ فقال...).

(٤) البيتان بلا نسبة في البيان والتبيين ٢/ ٣٣٤.

ثم وَلّى الشَّبابُ إلاّ قليلاً ثم يأبى القليلُ إلاّ نزاعا

وأنشد محمد بن يسير[1]: [من المنسرح]

قامتْ تُخاصرني لِقُبّتِها خَوْدٌ تَأَطَّرُ ناعمٌ بِكْرُ[2]

كلٌّ يَرَى أنَّ الشَّبابَ له في كل مبلغ لَذَّةٍ عُذْرُ

وقال الآخرُ في خلاف ذلك، أنشدنيه محمد بن هشام السِّدري: [من الطويل]

فلا تعذُراني في الإساءةِ إنَّه أشرُّ الرِّجال مَنْ يسيءُ فيُعذَرُ[3]

وقال ابن فسوة[4]: [من الطويل]

فَلَيتَ قَلوصي عُرِّيت أوْ رحلتها إلى حَسَن في داره وابن جعفر

إلى مَعْشَر لا يَخصِفُونَ نعالَهم ولا يلبَسُون السِّبْتَ ما لم يُحضَّر[5]

وقال الطِّرِمَّاحُ بنُ حكيم، وهو أبو نفْر[6]: [من الطويل]

لقد زادني حُبّاً لنَفسيَ أنَّني بَغيضٌ إلى كلّ امرئٍ غَيْرِ طائل

إذا ما رآني قطَّعَ الطَّرْفَ بَيْنه وَبَيْنيَ فعْلَ العارف المتجاهلِ

ملأتُ عليه الأرض حتَّى كأنَّها من الضِّيقِ في عَينَيْه كِفَّةُ حابل

وقال آخر: [من الوافر]

إذا أبصرتَني أعْرَضْتَ عَنِّي كأنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلي تَدُورُ

وقال الخُرَيمي[7] وَذكر عماه: [من المنسرح]

أُصغِي إلى قائدي ليخبِرَني إذا التَقَيْنا عَمَّنْ يُحَيِّيني

---

(١) البيتان لمحمد بن يسير الرياشي في ديوانه ١٣٩، والبيان والتبيين ١/١٩٨ وفيه «وأنشدني محمد ابن يسير للأحوص بن محمد»، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣/٣٤١، وهما لمحمد بن بشير في المحب والمحبوب ٤/٣٨٠، وانظر ديوان الأحوص ١١٣، المقطوعة رقم ٤٢.

(٢) في البيان والتبيين ١/ ١٩٨ «تخاصرني: آخذ بيدها وتأخذ بيدي. والقنة: الموضع الغليظ من الأرض في صلابة. والخود: الحسنة الخلق. تأطر: تتثنى. والغادة: الناعمة اللينة».

(٣) البيت في أدب الدنيا والدين للماوردي ٣١، وروضة المحبين ٥٧.

(٤) البيتان لعتيبة بن مرداس المعروف بابن فسوة في الأغاني ٢٢/٢٣٠، والبيان والتبيين ٣/١٠٩، والأول في الشعر والشعراء ٢١٨.

(٥) السِّبت: جلود البقر: وكل جلد مدبوغ «القاموس: سبت»، وأراد الشاعر هنا النعال.

(٦) ديوان الطرماح ٣٤٦ - ٣٤٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٧) ديوان الخريمي ٦١، ونكت الهميان ٧١، وربيع الأبرار ٥/ ١١٦ - ١١٧، وعيون الأخبار ٤/٥٧، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٥٣، والشعر والشعراء ٥٤٣.

أريدُ أن أعدلَ السَّلامَ وأنْ أَفصلَ بَيْنَ الشَّريفِ والدُّونِ
اسمَعُ ما لا أرَى فأكره أنْ أُخطِئ، والسَّمْعُ غيرُ مَأمُونِ
لِلّه عيني التي فجعْتُ بها لو أنّ دَهراً بها يَواتيني
لو كنْتُ خيِّرتُ ما أخَذْتُ بها تَعْميرَ نُوحٍ في مُلْكِ قارُون

وقال بعضُ القدَماء[1]: [من الوافر]

ألم تَرَ حوشَباً أضْحى يُبنِّي قُصُوراً نفعُها لِبَني بُقيله
يُؤَمِّل أنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ وأمرُ اللّهِ يحدثُ كلَّ لَيْلَه

وقال ابن عبَّاسٍ بعد ما ذهب بصره[2]: [من البسيط]

إِنْ يأخُذِ اللّهُ من عينيَّ نُورَهُما ففي لِساني وقلبي منْهُما نورُ
قلبي ذَكيٌّ وعَقلي غَيْرُ ذي دَخلٍ وفي فمي صارمٌ كالسَّيفِ مأثورُ

وقال حسَّان يذكرُ بيانَ ابن عبَّاس[3]: [من الطويل]

إذا قال لم يَترك مقالاً ولم يقفْ لعِيٍّ ولم يَثنِ اللّسانَ على هُجْرِ
يصرِّف بالقولِ اللسانَ إذا انتحى وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقْرِ

٦٠٨ - [شعر لأعرابي في الخصب والجدب]

وقال بعضُ الأعراب[4] يذْكُرُ الخصْبَ والجَدْبَ: [من الطويل]

مُطِرْنا فلمّا أنْ رَوِينَا تهادَرَتْ شَقاشِقُ فيها رائبٌ وحَليبُ
ورامت رجالاً مِنْ رجال ظُلامةً وعُدَّتْ ذُحولٌ بينهم وذنوبُ

---

(١) البيتان أنشدهما أبو العباس متمثلاً؛ وهما في معجم البلدان ٣/٤٦ (رُصافة أبي العباس)، وعيون الأخبار ١/٢١١،٣١٤، والوحشيات ١٧٤، والأغاني ٦/١٢٠، والأنوار ومحاسن الأشعار ٢/٩٦، وأساس البلاغة (بنى).

(٢) البيتان لابن عباس في نكت الهميان ٧١ نقلاً عن الجاحظ، وعيون الأخبار ٤/٥٦، ومعاهد التنصيص ١/٨٧، وربيع الأبرار ٥/١١٦، والشعر والشعراء ٥٤٣، وهما لحسان بن ثابت في ديوانه ٢٢١، وذيل الأمالي ١٥، وهما لأبي العيناء في معجم الأدباء ١٨/٢٠٣.

(٣) لم يرد البيتان في ديوان حسان بن ثابت، وهما في معجم الأدباء ٦/١٨٩.

(٤) الأبيات لأعرابي في ديوان المعاني ٢/ ٤٥، والإمتاع والمؤانسة ١/١٩٦، وانظر المخصص ١٠/١٨٠.

ونُصّتْ ركابٌ للصِّبا فَتَرَوَّحَتْ لهنَّ بما هاج الحبيبَ خبيبُ[١]
وطَنَّ فناءُ الحيِّ حتَّى كأنَّه رَحى مَنْهَلٍ مِنْ كَرِّهِنّ نحيب
بني عمِّنا لا تَعْجَلُوا، ينضُبُ الثَّرَى قليلاً ويَشفى المترَفِينَ طَبيبُ
فلو قَدْ تَوَلَّى النَّبتُ وامتيرَت القُرى وحَنَّتْ رِكابُ الحيِّ حينَ تثوب
وصارَ غَبُوقَ الخَود وهي كريمةٌ على أهلها، ذو جُدَّتين مَشُوب[٢]
وصار الَّذي في أنْفه خُنزوانَةٌ ينادَى إلى هادي الرَّحى فيجيبُ[٣]
أولئك أيَّامٌ تُبَيِّنُ ما الفتَى أكابٍ سُكَيْتٌ أمٌ أشمٌّ نجيبُ

٦٠٩ - [شعرلأنس بن أبي إياس]

وقال: ولما وَلِي حارِثَة بنُ بَدْرٍ سُرَّق، كتب إليه أنَسُ بن أبي إياسٍ الدُّؤلي[٤]: [من الطويل]

أحارِ بنَ بَدْرٍ قَد وَلِيتَ وِلايةً فكُنْ جُرَذاً فيها تَخُونُ وتَسْرِقُ
وباهِ تميماً بالغِنى إنَّ للغِنى لساناً به المرءُ الهَيُوبَةُ يَنْطِقُ
ولا تحقِرَنْ يا حارِ شيئاً ملكته فَحظُّك من ملك العراقَين سُرَّق
فإنَّ جميعَ النَّاسِ إمَّا مُكذِّبٌ يَقُول بَما يَهوَى، وإمَّا مصَدَّقُ
يقولون أقوالاً ولا يَعرِفُونها ولو قيل هاتُوا حقِّقوا لم يحقِّقوا

وقال بعض الأعراب: [من الطويل]

فلمَّا رَأَينا القوم ثاروا بَجَمْعهِمْ رَعينَا الحديثَ وهو فِيهمْ مُضَيَّعُ
وأدْرَكَنَا من عزِّ قَيسٍ حفيظةٌ ولاخيْرَ فيمن لا يضرّ وينْفَعُ

٦١٠ - [أقوال مأثورة]

ويقال إنَّ رجلاً قال لبعض السَّلاطين: الدُّنيا بما فيها حديث، فإن استَطَعتَ أنْ تكونَ مِن أحسَنِها حديثاً فافعَلْ!

---

(١) خبيب: سرعة الجري «القاموس: خبّ»

(٢) الغبوق: ما يشرب بالعشي «القاموس: غبق» الخود: الشابة الحسنة الخلق «القاموس: خود».

(٣) الخنزوانة: الكبر. هادي الرحى: مقبضها.

(٤) الأبيات لأنس الدؤلي في عيون الأخبار ١/٥٨، وأمالي المرتضى ٢/٤٩ - ٥١، ومعجم البلدان (سرق)، ومحاضرات الراغب ١/٨٣، وزهر الآداب ٩٨٦ (طبعة زكي مبارك).

وقال حُذَيفة بنُ بدرٍ لصاحبه يوم جَفْر الهباءة[1]، حينَ أعطاهُمْ بلسانه ما أعْطى: إيَّاك والكلامَ المأثور[2].

وأنشد الأصمعي: [من الخفيف]

كلُّ يومٍ كأنَّه يومُ أضْحى عِنْدَ عبد العَزيزِ أو يومُ فطرِ

وقال: وذكر لي بعضُ البَغداديِّين أنَّه سمع مدَنيًّا مرَّ بباب الفَضْلِ بن يحيى - وعلى بابه جماعةٌ من الشعراء - فقال[3]: [من الخفيف]

ما لَقينا مِنْ جُودِ فضلِ بنِ يَحيى تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شُعَرَاءَ

وقال الأصمعي: قال لي خَلَفٌ الأحمر: الفارسيُّ إذا تظرّف تساكت، والنَّبطيُّ إذا تظرَّف أكثر الكلام.

وقال الأصمعيُّ: قالَ رجلٌ لأعرابيٍّ: كيف فلانٌ فيكم؟ قالَ: مرزوقٌ أحمق! قالَ: هذا الرَّجلُ الكامل.

قال: وقال أعرابيٌّ لرجل: كيف فلانٌ فيكم؟ قَال: غَنيٌّ حَظِيٌّ، قال: هذا من أهل الجَنَّة!

٦١١ - [السواد والبياض في البادية]

الأصمعيُّ قال: أخبرني جَوسق قال: كان يقال بالبدو: «إذا ظَهَرَ البَياضُ قَلَّ السَّواد، وإذا ظَهَرَ السَّواد قَلَّ البَياض». قال الأصمعيُّ: يعني بالسَّواد التَّمر، وبالبياضِ اللَّبن والأقط[4]، يقول: إذا كانت السَّنَةُ مجدبة كثُرَ التَّمْرُ وقَلَّ اللَّبن والأقط. وقال: إذا كان العام خصيباً ظهر في صدقةِ الفِطر البياض يعني الإِقط وإذا كانَ جَدبياً ظهر السَّواد، يعني التّمر.

وتقول الفُرس: إذا زَخَرت الأودية بالماء كثُر التَّمر، وإذا اشتدَّت الرِّياح كثر الحبُّ.

---

(١) يوم الهباءة: هو يوم الجفر؛ لعبس على ذبيان، وفيه قَتَلَ حذيفة بن بدر وأخوه حَمَلُ سيدا بني فزارة. العمدة ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) ورد القول في البيان والتبيين ٢ / ١٠٥.

(٣) البيت لنصيب الأصغر أبي الحجناء في الأغاني ٢٣ / ٢٠.

(٤) الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض؛ يطبخ ثم يترك حتى يمصل «اللسان: أقط».

٦١٢ - [أثر الريح في المطر]

وحدَّثني محمَّد بن سلام، عن شُعيب بن حجر قال: جاء رجلٌ على فرسٍ فوقفَ بماءٍ من مياه العرب فقال: أعندكم الرِّيحُ الَّتي تكُبّ[١] البعير؟ قالوا: لا. قال: فتذْرِي[٢] الفارس؟ قالوا: لا. قال: فكما تكون يكونُ مطرُكم.

وحدَّثني العُتْبيُّ قال: هَجَمْتُ على بطنٍ بينَ جبلين، فلم أرَ وادياً أخصبَ منه، وإذا رجالٌ يتركَّلون على مَسَاحيهم[٣]، وإذا وجوهٌ مهَجَّنة، وألوان فاسِدة فقلتُ: واديكُمْ أخصبُ وادٍ، وأنتم لا تشبِهُونَ المخاصيبَ قال: فقال شيخٌ منهم: ليس لنا ريح.

٦١٣ - [شعر في الخصب]

وقال النَّمر بن تولب[٤]: [من البسيط]

كأنَّ جَمْرَةَ، أو عزّتْ لها شَبَهاً ... في العين يوماً تلاقَيْنا بأرمام[٥]

ميثاءُ جاد عليها وابلٌ هَطِلٌ ... فأَمْرَعَتْ لاحتيالٍ فَرْطَ أعوامِ

إذا يَجفُّ ثراهَا بلَّها ديَمٌ ... من كوكبٍ بزل بالماء سَجام

لم يَرْعَها أحدُ واربتها زَمناً ... فَأْوٌ منَ الأرضِ محفوف بأعلام[٦]

تَسْمَعُ للطَّير في حافاتِها زَجلاً ... كأنَّ أصواتَها أصواتُ جُرَّامِ[٧]

كأنَّ ريحَ خُزَاماها وحنْوَتها ... باللَّيل ريحُ يَلَنجوجٍ وأهْضام[٨]

قال: فلم يَدَعْ معنًى مِنْ أجلِه يُخصِب الوادي ويعتمُّ نبتُه إلاّ ذكره وصدق النمر!

---

(١) تكب البعير: تقلبه «القاموس: كبّ».

(٢) ذرت الريح الشيء: أطارته وأذهبته «القاموس: ذرو»

(٣) المسحاة: المجرفة من الحديد «اللسان: سحا».

(٤) ديوان النمر بن تولب ٣٨٦ - ٣٨٧، وديوان المعاني ٢/١٣، والبرصان ١٨٧، وشرح الأبيات التالية في ديوانه.

(٥) أرمام: جبل في ديار باهلة بن أعصر، وقيل: أرمام: واد.

(٣) الفاو: قطعة من الأرض تطيف بها الجبال.

(٤) الجرام: الذين يصرمون التمر، أي يقطعونه.

(٥) الحنوة: نبات سهلي طيب الرائحة. اليلنجوج: عود طيب الريح، وقيل: هو الذي يتبخر به. الأهضام: كل شيء يتبخر به.

وقال الأسديُّ في ذِكر الخِصْب ورطوبة الأشجار ولدونة الأغصان وكثرة الماء[١]: [من الكامل]

وَكأنَّ أرْحُلَنا بجوٍّ مُحَصَّبٍ ... بِلِوى عُنيزةَ من مَقيل التَّرمُسِ[٢]

في حيثُ خالَطَتِ الخُزامى عَرْفَجاً ... يأتيك قابِسُ أهله لم يُقْبَسِ

ذهب إلى أنَّه قد بَلغَ من الرُّطوبة في أغصانه وعيدانه، أنَّها إذا حُكَّ بعضها ببعضٍ لم يقدح.

وفي شبيهٍ بذلك يقول الآخر، وذهب إلى كثرةِ الألوان والأزهار والأنوار[٣]: [من الرجز]

كانت لنا من غَطفانَ جارَهْ ... كأنها من دَبَلٍ وشاره

والحلْي حلْيِ التِّبر والحِجارَهْ ... مَدْفَعُ مَيثاءَ إلى قَرَارَهْ

ثم قال[٤]: [من الرجز]

* إيَّاكِ أَعني واسمعي ياجاره *

وقال بشَّار[٥]: [من الخفيف]

وحديثٍ كأنَّهُ قِطَعُ الرَّوْ ... ضِ وفيه الحَمْراء والصَّفراءُ

---

(١) البيتان للأسدي في البيان والتبيين ٣/٣٤، والمخصص ١٠/١٣٣، ١٧٦، ١١/٣٢، وهما من قصيدة للمرار بن منقذ، ورد منها ثلاثة أبيات في معجم الشعراء ٣٣٨. وهما للمرار بن سعيد في أشعار اللصوص ٢/٣٦٣. وانظر الحيوان ٤/٤٨٨، الفقرة (١٢٤٥).

(٢) الترمس: ماء لبني أسد، وموضع قرب القنان من أرض نجد. معجم البلدان ٢/٢٧ (ترمس).

(٣) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (نوق، حلا)، والثالث في المخصص ٤/٤٠.

(٤) الرجز من الأمثال في مجمع الأمثال ١/٤٩، والفاخر ١٥٨، وجمهرة الأمثال ١/٨، ٢٩، والمستقصى ١/٤٥٠، وفصل المقال ٧٦ - ٧٧، وأمثال ابن سلام ٦٥، ونسب مع أبيات أخرى إلى سهل بن مالك الفزاري، وبلا نسبة في اللسان والتاج (نوق، حلا).

(٥) ديوان بشار ١/١١٩، والبرصان ١٨٨، والعقد الفريد ٥/٤١٧.

بـــاب

من الفطن وفَهمْ الرَّطَاناتِ والكنايات والفهْم والإفهام

٦١٤ - [حديث المرأة التي طرقها اللصوص]

الأصمعي قال: كانت امرأة تنزل متنحِّية من الحيّ، وتحبُّ العُزلة وكان لها غنَمٌ، فطرقها اللُّصوص فقالت لأمَتِها: اخرُجي! مَنْ هاهنا؟ قالت: هاهنا حَيَّانُ، والحُمارِس، وعامرٌ والحارثُ، ورأسُ عَنْز وَشادن. وراعيا بَهْمنا: فنحْن ما أولئك. أي: فنحن أولئك. فلما سَمِعُوا ذلك ظنُّوا أنَّ عندَها بنيها. وقال الأصمعيُّ مرّة: فلما سمِعت حِسَّهم قالت لأمَتها: أَخرجي سُلُحَ بَنَيَّ من هاهنا.

قال: وسُلُح جمع سُلاح[1]. وحيّان والحمارس: أسماءُ تُيوسٍ لها.

٦١٥ - [قصة المَمهُورة الشياه والخمر]

قال الأصمعيُّ[2]: تزوَّج رجلٌ[3] امرأةً فساق إليها مهرها ثلاثين شاة، وبعثَ بها رسولاً، وبعثَ بزقٍّ خَمْر. فَعَمَدَ الرَّسولُ فذبح شاةً في الطريق فأكَلها، وشَرَب بَعْض الزِّقِّ. فلما أتَى المرأة نظرت إلى تسع وعشرين ورأت الزِّقَّ ناقصاً، فعلمت أنَّ الرجل لا يبعثُ إلاَّ بثلاثين وَزِقٍّ مملوءٍ فقالت للرسول: قل لصاحبك: إنَ سُحيماً قد رُثم[4]، وإن رسولَك جاءَنا في المحَاق! فلما أتاه الرَّسولُ بالرِّسالة: قال يا عدوَّ اللّه، أكلتَ مِنَ الثَّلاثينَ شاةً شاةً، وشربْتَ من رَأسِ الزِّق! فاعتَرَف بذلك.

٦١٦ - [قصة العنبريّ الأسير]

الأصمعيُّ قال[5]: أخبرني شيخٌ من بني العنبر قال: أسر بَنو شَيبانَ رجلاً من

---

(١) السُّلاح: النجو «القاموس: سلح».

(٢) الخبر باختصار في البيان والتبيين ٣/٢١١، والكنايات ٦٣، ومحاضرات الأدباء ١/١٤٣ (١/٦٧).

(٣) في البيان والتبيين «قسامة بن زهير العنبري»، وفي محاضرات الأدباء «امرؤ القيس».

(٤) رثم أنفَه أو فاه: كسره حتى تقطر منه الدم، وكل ما لطخ بدم وكسر فهو رثيم «القاموس: رثم».

(٥) الخبر في محاضرات الأدباء ١/١٤٣ (١/٦٧)، والكنايات ٦٤، وأمالي المرتضى ١/١٢، وأخبار الظراف ٦٤، والمعاني للأشناندانى ٥٧، وطراز المجالس ٢٥٤.

بني العنبر، قال: دَعوني حتى أرسل إلى أهلي ليَفدُوني. قالوا: على ألاّ تكلّم الرّسولَ إلاّ بين أيدينا. قال: نعم. قال: فقال للرسول. ائت أهلي فقل: إنَّ الشَّجر قد أوْرق. وقل: إنَّ النِّساءَ قد اشْتَكت وخرَزَت القِرب. ثمَّ قالَ له: أتعقِلُ؟ قال: نعم. قال: إنْ كنت تَعقِلُ فما هذا؟ قال: الليل. قال: أراك تعقل انطلق إلى أهلي فقل لهم: عَرُّوا جملي الأصهب، واركَبُوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثاً عن أمري – وكان حارث صديقاً له – فذهب الرَّسولُ فأخبَرَهم. فدعَوا حارثاً فقصَّ عليه الرَّسولُ القصة،فقال أمّا قوله: «إنَّ الشَّجَر قد أورق» فقد تسلَّح القوم. وأمّا قوله: «إن النساء قد اشتكتْ وخرَزت القرَب» فيقول: قد اتخذت الشِّكا[1] وخَرزت القرَبَ للغزو. وأما قوله: «هذا الليل» فإنَّه يقول: أتاكم جَيشٌ مثلُ الليل. وأمّا قوله: «عرُّوا جملي الأصهْب» فيقول: ارتحلوا عن الصَّمَّان. وأما قوله: «اركَبُوا ناقتي الحمراء» فيقول انزِلُوا الدَّهناء

وكان القوم قد تهيَّؤوا لغَزْوهم، فخافوا أن يُنذِرهم، فأنذرهم وهم لا يشعرون فجاء القومُ يطلبونهم فلم يجدُوهم.

٦١٧ – [قصة العطاردي]

وكذلك صنع العُطاردي في شأن شعب جبلة[2]، وهو كرِب بن صفوان؛ وذلك أنه حينَ لم يرجع لهمْ قَولاً حين سألوه أنَ يقول، ورَمى بصُرَّتين في إحداهما شوك، والأخرى تراب، فقال قيس بن زهير: هذا رجلٌ مأخوذٌ عليه ألا يتكلَّم، وهو ينذِركم عددًا وشَوْكة[3].

قال اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[4].

٦١٨ – [شعر في صفة الخيل والجيش]

قال أبُو نخيلة[5]: [من الرجز]

لما رأيتُ الدِّينَ ديناً يُؤْفَكُ   وأمْسَتِ القُبةُ لا تستمْسِكُ

---

(١) الشكا: جمع شكوة: وهي وعاء من أدم «القاموس: شكو».

(٢) شعب جبلة: من أيام العرب، وكان لبني عامر وعبس على أسد وذبيان. العمدة ٢ / ٢٠٣، والأغاني ١١ / ١٣١، ومعجم البلدان ٢ / ١٠٤ (جبلة).

(٣) ورد الخبر في الأغاني ١١ / ١٣٩، ومحاضرات الأدباء ١ / ١٤٣ (١ / ٦٧).

(٤) ٧ / الأنفال: ٨.

(٥) الرجز في طبقات ابن المعتز ٦٤، وديوان المعاني ٢ / ١١٦، وبلا نسبة في المخصص ٧ / ٥٥، والجمهرة ٧٩٨.

يُفْتَقُ من أعْراضها ويُهتك   سرت من الباب فَطارَ الدَّكدَكُ
منها الدَّجُوجيُّ ومِنها الأرْمَكُ   كاللّيل إلاَّ أنَّها تَحَرَّكُ

وقال منَصورٌ النَّمري[1]: [من البسيط]

ليلٌ من النَّقْع لا شَمسٌ ولا قَمرٌ   إلاَّ جبينُك والمذروبة الشُّرُعُ[2]

وقال آخر: [من السريع]

كأنَّهم ليلٌ إذا استنفِرُوا   أو لُجَّةٌ ليس لها ساحلُ

وقال العجاج[3]: [من الرجز]

كأنَّما زُهاؤه إذا جُهِرْ   ليلٌ وَرزٌّ وَغْرِهِ إذا وَغَرْ
سارٍ سَرَى مِن قِبَل العَيْنِ فجر

وفي هذا الباب وليس منه يقول بشَّار[4]: [من الطويل]

كأنَّ مُثارَ النَّقع فوقَ رؤُوسهم   وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

وقال كلثوم بن عمرو[5]: [من البسيط]

تَبني سنابكُهم من فوق أَرؤسهم   سقفا كواكبه البيضُ المبَاتيرُ

وهذا المعنى قد غلب عليه بشّار، كما غلب عنترةُ على قوله[6]: [من الكامل]

فتَرَى الذُّبابَ بها يُغَنّي وَحدَهُ   هَزِجاً كفعْلِ الشَّارب المترنِّم
غَرِداً يُحكُّ ذِراعه بذِراعه   فِعلَ المُكَبِّ على الزِّنادِ الأجذَم

فلو أنَّ امرأ القَيس عَرضَ في هذا المعنى لعنترة لافتَضَح.

---

(١) ديوان منصور النمري ١٠١، وديوان المعاني ٢/٦٧، والأغاني ١٣/١٩٦، وأخبار أبي تمام ١٨، ومعاهد التنصيص ١/١٤٣.

(٢) المذروبة: المحددة «القاموس: ذرب» الشرع: المشروعة، والمراد بها السيوف.

(٣) ديوان العجاج ١/٢٦ - ٢٧ (السطلي)، ٧٥ (عزة حسن)، وديوان المعاني ٢/٧١، والبيتان (١ - ٢) في اللسان (زها، لها)، والتاج (لها)، والجمهرة ٤٦٨، والمجمل ١/٤٦٥، والتهذيب ٦/٤٩، ٣٧٤، والعين ٣/٣٨٩، وبلا نسبة في اللسان والتاج (جهر، وغر)، والمقاييس ١/٤٨٧، والمخصص ٦/٢٠٢، والبيت الثالث في المخصص ١٦/١٨٥، وأساس البلاغة (عيط).

(٤) ديوان بشار ١/٣١٨، والأغاني ٣/١٩٦، وديوان المعاني ٢/٦٧، والحماسة البصرية ١/٨، وطبقات ابن المعتز ٢٦، وأخبار أبي تمام ١٨، والوساطة ٣١٣، وعيون الأخبار ٢/١٩٠.

(٥) البيت في أخبار أبي تمام ١٩، والمختار من شعر بشار ١، والصناعتين ١٩٠.

(٦) البيتان من معلقة عنترة في ديوانه ١٩، والبيان والتبيين ٣/٣٢٦، والأول في أساس البلاغة (هزج)، والثاني في اللسان والتاج (قدح)، والتهذيب ٤/٣٣، ٨/٧٠.

٦١٩ - [مقطعات شتى]

وقال بعضهم في غير هذا المعنى: [من الخفيف]

وفلاةٍ كأنّما اشتَمَل اللّيـ ـلُ على رَكبِها بأبناءِ حامِ
خضْتُ فيها إلى الخَليفة بالرَّ قَّةِ بحْرَيْ ظَهيرةٍ وظَلام

وقال العَرْجيُّ[1]: [من البسيط]

سمّيتني خَلقاً بخَلَّةٍ قدُمَتْ ولا جَديدَ إذا لم يُلبَس الخَلَقُ
يا أيها المتحلّي غيْرَ شيمَته ومِنْ خلائقه الإقصادُ والمَلَقُ
ارجعْ إلى خِيمِك المعروفِ دَيْدَنُه إن التَّخَلقَ يأتي دُونَهُ الخُلُقُ

وقال آخر[2]: [من الكامل]

أودَى الخِيارُ مِنَ المعاشِرِ كلهـمْ واستَبَّ بَعْدَك يا كُلَيْبُ المَجْلسُ
وتنازَعوا في كلِّ أمرِ عظيمةٍ لو قدْ تكونُ شهدْتهُمْ لم ينْبِسُوا

وأبياتُ أبي نواسٍ على أنه مولَّد شاطر، أشعرَ من شعر مهلهل في إطراق النَّاسِ في مجلِس كليب، وهو قوله[3]: [من الطويل]

على خبز إسماعيلَ واقيَة البُخْلِ وقد حلَّ في دَارِ الأمان منَ الأكْل
وما خبزُهُ إلاّ كآوَى يُرى ابنها ولم تُرَ آوى في الحزون ولا السَّهْلِ
وما خبزُه إلاّ كعَنْقاء مُغربٍ تُصوَّر في بُسْط الملوك وفي المثْل
يحدث عنها النَّاس من غيرِ رُؤيةٍ سِوى صُورةٍ ما أن تُمرُّ ولا تُحْلي
وما خبزُه إلاّ كليبُ بنُ وائلٍ لَياليَ يحمي عزُّه مَنْبتَ البَقْلِ

---

(١) الأبيات للعرجي في ديوانه ٣٣، والشعر والشعراء ٣٦٥ - ٣٦٦ (ليدن)، والعقد الفريد ٣٣، وزهر الآداب ١٢٤ - ١٢٥ (طبعة مبارك)، والأبيات لسالم بن وابصة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٧١٠، والبيان ١/٢٣٣، ونوادر أبي زيد ١٨١، والكامل ١/١١ (طبعة المعارف)، والثاني له في اللسان والتاج (خلق)، والأبيات بلا نسبة في مجالس ثعلب ٢٤٨، والثالث بلا نسبة في عيون الأخبار ٢/٦.

(٢) البيتان لمهلهل بن ربيعة في أمالي القالي ١/٩٥، والسمط ٢٩٨ - ٢٩٩، وثمار القلوب (١٩١)، وديوان المعاني ٢/١٧٦، والحماسة البصرية ١/٢٣٤، ومجالس ثعلب ٣٨، ٥٨٤ - ٥٨٥، ومجمع الأمثال ٢/٤٢، والمستقصى ١/٢٤٧، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٣٨٥.

(٣) ديوان أبي نواس ٥١٥، وثمار القلوب ٧٧ (١٩٢)، وديوان المعاني ١/٢٠٣ - ٢٠٤، والقصيدة في هجاء إسماعيل النيبختي، انظر البخلاء ٧٢.

وإذْ هو لا يستبُّ خَصْمانِ عندَه ... ولا القولُ مرفوعٌ بجد ولا هَزْلِ
فإنْ خبْزُ إسماعيل حلَّ به الذي ... أصاب كليباً لم يكن ذاك عن بَذْلِ
ولكنْ قضاءٌ ليس يُسطاعُ دَفْعهُ ... بحيلةِ ذي دَهْيٍ ولا فِكْرِ ذي عقل

٦٢٠ - [الأعراب أشعر من أهل الأمصار]

والقضية التي لا أحتشِمُ منها، ولا أهابُ الخصومة فيها: أنّ عامّة العرب والأعراب والبدوِ والحضر من سائر العرب، أشعر من عامَّة شعراء الأمصار والقُرَى، من المولدة والنابتة. وليس ذلك بواجبٍ لهم في كلٍّ ما قالوه.

وقد رأيت ناساً منه يبهرِجون أشعارَ المولّدين، ويستسقِطون مَن رواها ولم أر ذلك قطُّ إلاَّ في راويةٍ للشعرِ غيرِ بصيرٍ بجوهر ما يروى. ولو كانَ له بصرٌ لعرَف موضعَ الجيِّد ممَّن كان، وفي أيِّ زمان كان.

وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانيَّ وقد بلغ من استجادته لهذين البيتينِ، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلَّف رجلاً حتى أحضره دواةً وقرطاساً حتَّى كتبهما له. وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً. ولولا أن أدخلَ في الحكم بعض الفتك؛ لزعمتَ أنّ ابنَه لا يقول شعراً أبداً، وهما قوله[1]: [من السريع]

لا تحسبَنَّ الموتَ مَوْتَ البِلَى ... فَإنَّما الموتُ سُؤالُ الرِّجالِ
كلاهما موتٌ ولكِنَّ ذَا ... أفظَعَ من ذاكَ لذلِّ السُّؤال

٦٢١ - [القول في المعنى واللفظ]

وذهب الشَّيخُ إلى استحسانِ المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرَوي، والمدنيّ. وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المَخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع وجَودَة السَّبك، فإنما الشعر صناعةٌ، وضَرْب من النَّسج، وجنسٌ من التَّصوير.

وقد قيل للخَليلِ بنِ أحمد: ما لكَ لا تقولُ الشِّعر؟ قال: «الذي يجيئُني لا أرضاه، والذي أرْضاه لا يجيئني»[2].

---

(١) البيتان بلا نسبة في البيان والتبيين ٢ / ١٢١.
(٢) نسب هذا القول إلى ابن المقفع في البيان والتبيين ١ / ٢٠٨.

فأنا أستحسن هذا الكلام، كما أستحسن جوابَ الأعرابيِّ حين قيل له: كيفَ تجِدُك؟ قال: أجدني أجدُ ما لا أشتَهِي، وأشتَهِي ما لا أجد[1]!

٦٢٢ - [شعر ابن المقفع]

وقيل لابن المقفَّع: ما لك لا تجوزُ البيت والبيتين والثلاثة! قال: إنْ جُزْتُها عرَفوا صاحبَها. فقال له السائل: وما عليك أنْ تُعرَف بالطِّوال الجياد؟! فعلم أنَّه لم يفهمْ عنه.

٦٢٣ - [الفرق بين المولد والأعرابي]

ونقول: إن الفَرق بين المولَّد والأعرابي: أنَّ المولَّد يقول بنشاطه وجمع باله الأبياتَ اللاحقَةَ بأشعارِ أهلِ البدو، فإذا أَمعنَ انحلَّتْ قُوَّتُه، واضطربَ كلامُه.

٦٢٤ - [شعر في تعظيم السادة]

وفي شبيهٍ بمعنى مهلهلٍ وأبي نُوَاس، في التَّعظيم والإطراقِ عندَ السّادة، يقول الشاعر في بعضِ بني مروان[2]: [من البسيط]

في كفِّه خَيْزَرَانٌ رِيحُه عَبِقٌ ... في كفِّ أرْوَعَ في عِرنينه شَمَمُ
يغضِي حَياءً ويغضَى مِنْ مَهابته ... فما يكلَّم إلاَّ حينَ يبتَسِمُ
إن قال قال بما يَهْوَى جَميعُهمُ ... وإن تكلَّمَ يوماً ساخَتِ الكلِمُ
كَمْ هاتفٍ بك مِن داعٍ وهاتفةٍ ... يَدْعُوكَ يا قثَمَ الخَيْرَاتِ يا قُثَمُ

وقال أبو نُواس في مثل ذلك[3]: [من المديد]

فتَرَى السادات ماثلة ... لِسليلِ الشَّمس من قَمرهْ
فَهمُ شَتَّى ظُنُونُهمُ ... حَذَرَ المطويِّ من خَبَرِهْ

---

(١) نسب هذا القول إلى أبي الدقيش في عيون الأخبار ٣/ ٤٩. وبلا نسبة في البيان والتبيين ١/ ٢١٠.

(٢) الأبيات للفرزدق في ديوانه ٢/ ١٧٩ - ١٨٠، وأمالي المرتضى ١/ ٦٨، وله أو لكثير بن كثير السهمي في المؤتلف والمختلف ٨٩، وللفرزدق أو لداود بن سلم أو للحزين الكناني في زهر الآداب ٣ ١٠٣ - ١٠٥ (طبعة مبارك)، والأغاني ١٥/ ٣٣٧، ولهم جميعاً أو للعين المنقري في العمدة ٢/ ١٣٨، وللحزين في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦٢٢، وبلا نسبة في البيان والتبيين ١/ ٣٧٠، ٣/ ٤١ - ٤٢، وعيون الأخبار ١/ ٢٩٤، ٢/ ١٩٦.

(٢) ديوان أبي نواس ٤٣١.

وقال إِبراهيم بنُ هَرْمَةَ في مديحِ المنصور، وهو شبيهٌ بهذا وليس منه[1]: [من الطويل]

له لحظات عنْ حِفافيْ سريره | إذا كرَّها فيها عقابٌ ونائلُ
فأمٌّ الذي أمَّنْت آمِنة الرَّدَى | وأمٌّ الذي أوعدتَ بالثُّكْل ثاكلُ

٦٢٥ - [شعر في الحلف]

وقال مُهلهلٌ، وهو يقع في باب الحلف وُكِّد بعَقْد[2]: [من المنسرح]

ملْنا على وائل وأفْلَتَنا | يَوْماً عديٌّ جُرَيْعَةَ الذَّقَنِ[3]
دفعتُ عنه الرِّماحَ مجتهداً | حفْظاً لحلفي وحلف ذي يَمن
أذكرُ مِن عهدنا وعهدهِمُ | عهداً وَثيقاً بمَنْحَر البُدُن
ما بلَّ بحرٌ كفاً بصوفتها[4] | وما أنافَ الهضابُ من حَضَن[5]
يزيده اللَّيلُ والنَّهارُ معاً | شَدًّا، خِراطَ الجَمُوح في الشَّطَنِ[6]

٦٢٦ - [شعر في مصرع عمرو بن هند]

وقال جابر بن حنَيٍّ التغلبيّ[7]: [من الطويل]

ولسنا كأقوامٍ قريبٍ محلهُمْ | ولسنا كمن يرضيكم بالتملق
فسائل شُرَحبيلاً بنا ومحلّماً | غداة نكُرُّ الخيْلَ في كلِّ خَنْدَق
لعمرك ما عمرُو بنُ هندٍ وقَدْ دعا | لتخدمَ ليلى أمَّهُ بموفَّقِ

---

(١) ديوان ابن هرمة ١٦٨، والحماسة البصرية ١/١٤٦، وعيون الأخبار ١/٢٩٤، وذيل الأمالي ٤١، والأغاني ٦/١٠٩، ١١١.

(٢) البيت الأول في ثمار القلوب ٥١١، والمستقصى ١/٢٧٤، واللسان (جرع)، والتاج (فلت).

(٣) من الأمثال قولهم «أفلت فلان بجريعة الذقن»، وهو مثل للمفلت من الهلاك بعد قربه منه. ثمار القلوب ٥١١، ومجمع الأمثال ٢/٦٩، والمستقصى ١/٢٧٤، وجمهرة الأمثال ١/١١٥.

(٤) من الأمثال في المستقصى ٢/٢٤٦ «ما بل بحر صوفة»، وفي مجمع الأمثال ٢/٢٣٠ «لا أفعل كذا ما بل بحر صوفة». وصوف البحر: شيء على شكل هذا الصوف الحيواني؛ واحده صوفه. اللسان (صوف).

(٥) حضن: جبل بأعلى نجد، وهو أول حدود نجد، وأشهر جبالها، معجم البلدان ٢/٢٧١ (حضن).

(٦) الخراط: الجماح «القاموس: خرط». الشطن: الحبل «القاموس: شطن».

(٧) الأبيات (٣ - ٤ - ٥) لأفنون التغلبي في الأغاني ١١/٥٥، والبيتان (١ - ٢) في النقائص ٨٨٦ - ٨٨٧، والأول في الشعر والشعراء ١١٩، ٢٤٩.

فقام ابنُ كُلثومٍ إلى السَّيف مُغْضباً ... فأمسَكَ من نَدْمَانه بالمخنَّق
وعممه عمداً على الرَّأس ضَرْبَةً ... بذِي شُطَبٍ صافي الحَديدة مخْفَق

٦٢٧ - [شعر في الأقارب]

وقال المتلمِّس[١]: [من الطويل]

على كلّهم آسَى وللأَصل زلفة ... فزحزح عن الأدنَينَ أن يتصدَّعوا
وقد كان إخواني كريماً جوارُهم ... ولكنَّ أصلَ العُود مِنْ حَيْثُ يُنزعُ

وقال المتلمس[٢]: [من الطويل]

ولو غيرُ أخوالي أرادُوا نقيضَتي ... جَعلتُ لهم فوقَ العرانينِ ميسما
وما كنتُ إلاَّ مثْلَ قاطعِ كفِّه ... بكفٍّ لهُ أخْرَى فأصبح أجْذَما
يداهُ أصابتْ هذه حَتْفَ هذه ... فلم تَجد الأخْرَى عليها مُقَدَّما
فأطرقَ إطراقَ الشّجاع ولو يَرَى ... مَساغاً لنَابَيه الشجاعُ لَصَمَّما
أحارثُ إنا لو تَساطُ دماؤُنا ... تَزَايَلْنَ حتَّى لا يمَسَّ دَمٌ دما

٦٢٨ - [تفسير كلمة لعمر بن الخطاب]

قال: وسأَلتُ عن قول عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لأبي مَرْيم الحَنفي: واللّه لأَنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدَّم[٣]! قال: لأنَّ الدَّم الجاري من كلِّ شيءٍ بيّن، لا يغَيضُ في الأرض؛ ومتى جفَّ وتجلَّب ففرقته رأيتَ مكانَه أبيض[٤].

إلاَّ إنَّ صاحب المنطقِ قال في كتابه في الحيوان: كذلك الدِّماء، إلاَّ دَمَ البعير.

٦٢٩ - [أشعار شتى]

وقال النَّمرُ بنُ تولَب[٥]: [من الطويل]

إذا كنتَ في سعدٍ، وأمُّك منهُمُ ... غريباً فلا تَغْرُرْك أمُّكَ من سَعْد

---

(١) ديوان المتلمس ١٥٥، ١٦٠.

(٢) ديوان المتلمس ٢٩ - ٣٤، والأصمعيات ٢٤٥ - ٢٤٦، والخزانة ١٠ / ٥٩.

(٣) في البيان والتبيين ٢ / ٨٩ «والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح. قال: فتمنعني لذلك حقاً؟ قال: لا. قال: فلا ضير، إنما يأسف على الحب النساء». وانظر الخبر في روايات مختلفة في البيان والتبيين ١ / ٣٧٧، وعيون الأخبار ٣ / ١٣ والكامل ١ / ٣٥٥ «طبعة المعارف».

(٤) في البيان ١ / ٣٧٦ «والأرض لا تنشف الدم المسفوح ولا تمصه. فمتى جف الدم وتجلّب لم تره أخذ من الأرض شيئاً».

(٥) البيت للنمر بن تولب في ملحق ديوانه ٣٩٧، والحماسة البصرية ٢ / ٢٨٧، وعيون الأخبار ٣ / ٨٩، والكامل ١ / ٣٤٦ (المعارف)، والمستقصى ١ / ٢٦٠ لغسان بن وعلة في اللسان =

وقال[1]: [من الطويل]

وإنَّ ابنَ أُختِ القَومِ مُصغًى إنَاؤه ... إذا لم يُزَاحِمْ خالَهُ بأبٍ جَلْدِ

وقال آخر[2]: [من الطويل]

تخيَّرَهُ اللّهُ الغداةَ لدينه ... على عِلْمِهِ واللّه بالعِلْمِ أفْرَسُ

وقال آخر[3]: [من الطويل]

وما ترَكَ الهاجون لي في أديمكم ... مَصَحّاً ولكنّي أرى مُترقّعا

وقال العِجْليّ، أو العُكليّ، لنوح بن جرير: [من الكامل]

أتسبُّني فأراك مثلي سُبَّةً ... وأسبّ جدّكم بسبٍّ أبينا

ولقد أرى والمقْتَضى متجوِّزٌ ... يا نوحُ أنَّ أباك لا يُوفينا

وقال عمرو بن معد يكرب[4]: [من الوافر]

إذا لم تَسْتَطِعْ شيئاً فَدَعْه ... وجاوِزْه إلى مَا تَسْتَطيعُ

وصِلْهُ بالزَّمَاعِ فكُلُّ أمرٍ ... سَمَا لكَ أو سَموت لَهُ ولوعُ

وقال المقنَّع الكِنديُّ[5]: [من البسيط]

وصاحب السُّوءِ كالدَّاء العَياء إذا ... مَا ارفَضَّ في الجوفِ يجري هاهُنا وهنا

يُنبي ويُخبِر عن عَوْرات صاحبه ... وما رأى عنده من صالحٍ دفنا

كمهْرِ سَوءٍ إذا رفَّعتَ سَيْرَتَه ... رامَ الجماح وإن خَفَّضته حَرَنَا

إن يَحْيَ ذاكَ فكنْ منه بمعزَلَةٍ ... أو ماتَ ذاكَ فلا تعْرِفْ لَهُ جَنَنا

= التاج (شطر)، وشرح ديوان الحماسة ١/١٧٢، ومحاضرات الراغب ١/١٧٧، وللنمر أو لضمرة ابن ضمرة في اللسان والتاج (كيس)، ولدريد بن الصمة في نظام الغريب ٣٨.

(١) البيت في المصادر السابقة، وبلا نسبة في المخصص ١٣/١٦١، وأساس البلاغة (صفا)، والتهذيب ٨/١٥٩.

(٢) البيت للبعيث في أساس البلاغة (فرس).

(٣) البيت للبعيث في التاج (رقع)، وبلا نسبة في اللسان (رقع)، والمقاييس ٢/٤٢٩، وأساس البلاغة (رقع).

(٤) ديوان عمرو بن معدي كرب ١٤٥، والأصمعيات ١٧٥، والتاج (زمع، طوع، ودع)، والأغاني ١٥/٢٠٧، ٢٢٥، ٢٣٦، والحماسة البصرية ١/٣٣.

(٥) ديوان المقنع الكندي ٢١٥، وهي لرافع بن هريم في أمالي القالي ٢/١٨٢، وللمثقب العبدي في بهجة المجالس ١/٧٢٢.

بـــاب

ذكر خصال الحرم[1]

٦٣٠ - [خصال الحرم]

فمن خصاله: أنّ الذِّئبَ يصيد الظَّبيَ ويُريغه ويعارضه، فإذا دخَلَ الحرم كفَّ عنه[2].

ومن خصاله: أنّه لا يسقط على الكعبة حمام إلاّ وهو عليل. يُعرف ذلك متى امتُحنَ وتعرِّفتْ حالُه[3]. ولا يسقط عليها ما دامَ صحيحاً.

ومن خصاله: أنّه إذا حاذى أعلى الكعبة عَرَقَةٌ من الطّير كاليمام وغيره، انفرَقت فِرقتين ولم يعلها طائرٌ منها[4].

ومن خصاله[5]: أنَّه إذا أصاب المطرُ البابَ الذي من شقِّ العراق، كان الخصب والمطرُ في تلك السَّنة في شقِّ العراق، وإذا أصاب الذي من شقِّ الشَّام كان الخِصْب والمطر في تلك السَّنَةِ في شِقِّ الشام. وإذا عمَّ جوانبَ البيتِ كان المطرُ والخِصْبُ عامًّا في سائر البُلدان.

ومن خصال الحرَم[6]: أنَّ حَصَى الجمار يُرمى بها في ذلك المرمى، مُذْ يومَ حَجَّ النَّاسُ البيتَ على طَوَالِ الدَّهرِ، ثمَّ كأنَّه على مقدارٍ واحد. ولولا موضع الآيةِ والعلامة والأعجوبةِ التي فيها، لقد كان ذلك كالجبال. هذا مِنْ غير أن تكسَحَه السُّيول، ويأخُذَ منه النَّاس.

---

(١) ربيع الأبرار ١ / ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) ثمار القلوب ١٣ (٦٧)، ومحاضرات الأدباء ٢ / ٢٦٣.

(٣) في ثمار القلوب «يعرف ذلك من امتحن وتعرف حاله».

(٤) ثمار القلوب ١٣ (٦٧).

(٥) ثمار القلوب ١٣ (٦٧)، وعيون الأخبار ١ / ٢٢٢.

(٦) انظر الحاشية السابقة.

ومن سُنَّتهم[1]: أنَّ كلَّ مَن علا الكعبةَ من العبيد فهو حرٌّ، لا يرون المِلْكَ على من علاها، ولا يجمعون بين عزّ علوِّها وذلة الْملك.

وبمكة رجالٌ من الصُّلحاء لم يدخُلوا الكَعبةَ قطّ.

وكانوا في الجاهليَّة لا يبنُون بيتًا مربّعًا؛ تعظيمًا للكعبة[2]. والعربُ تسمّي كلّ بيتٍ مربَّع كعبة، ومنه: كعبة نَجران[3]. وكان أوَّلُ مَن بنى بيتًا مربَّعاً حُميد بن زهير، أحد بني أسد بن عبد العُزَّى.

ثمَّ البركة والشفاء الذي يجدهُ مَن شرب من ماءِ زمزم على وجْه الدهر وكثرةُ من يُقيم عليه يجدُ فيه الشفاء، بعد أنْ لم يدعْ في الأرض حَمَّة إلاَّ أتاها، وأقام عندها، وشرب منها، واستنقع فيها[4].

هذا مع شأن الفيل، والطَّيرِ الأبابيلِ، والحجارة السِّجِّيل، وأنَّها لم تزل أمْناً ولَقاحاً[5]، لا تؤدِّي إتاوة، ولا تَدِين للملوك، ولذلك سمِّي البيتَ العتيق؛ لأنَّه لم يَزلْ حُرّاً لم يملكه أحد.

وقال حرب بن أُميَّة في ذلك[6]: [من الوافر]

أبا مطَر هَلُمَّ إلى صلاحِ ... فتَكْفيَكَ النَّدامى منْ قريشِ
فتأمَنَ وَسْطَهُمْ وتَعيشَ فيهم ... أبا مطر هُديتَ لخيْرِ عَيشِ
وتَنْزِلَ بَلْدَةً عزَّت قَديمًا ... وتأمَنَ أن يَزُوركَ ربُّ جيشِ

وقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[7] وقال عزَّ وجلَّ، حكايةً عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[8].

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) ثمار القلوب (٦٦).

(٣) نجران: أقدم بلاد اليمن، وكانت لها كعبة تُحَجُّ فخرِّبت وبطلت. وضرب بها المثل في الخراب وزوال الدولة. انظر ثمار القلوب (٧٥١)، ومعجم البلدان ٥/٢٦٨.

(٤) انظر ثمار القلوب (٨٠٤ - ٨٠٥).

(٥) اللقاح: الذي ليس في سلطان ملك. الكامل ٢/٣٠٦ (طبعة المعارف).

(٦) الأبيات في معجم البلدان ٣/٤١٩ (صلاح)، والكامل ٢/٣٠٦، واللسان والتاج وأساس البلاغة وعمدة الحفاظ (صلح)، وما بنته العرب على فعالِ ١٨، والأول في التنبيه والإيضاح ١/٢٥٣، وهو بلا نسبة في المخصص ١٣/١٨١، والجمهرة ٥٤٣.

(٧) ١٢٥/ البقرة: ٢.

(٨) ٣٧/ إبراهيم: ١٤.

٦٣١ - [خصال المدينة][1]

والمدينة هي طَيبة، ولطيبها قيل تلفِظ خَبَثها وينصعُ طيبُها. وفي ريح ترابها وبنّة ترْبتها، وعَرف ترابها ونسيم هوائها، والنعمة التي توجد في سِكَكِها وفي حيطَانها - دليلٌ على أنَّها جُعلت آيةً حينَ جعلت حرمًا.

وكلُّ من خَرَجَ من منزلٍ مطَيّبٍ إلى استنشاق ريح الهواء والتُّرْبة في كل بلدة فإنَّه لابدَّ عند الاستنشاق والتثبُّت منْ أنْ يجدَها منتنةً. فذلك على طبقاتٍ من شأن البُلدان، إلاّ ما كان في مدينة الرّسول، رسولَ اللّه ﷺ، فللصَّيَّاح[2] والعِطْرِ والبَخور والنضوح، من الرائحة الطيبة - إذا كان فيها - أضعافُ ما يوجد له في غيرِها من البُلدان، وإن كان الصَّيّاح أجوَد، والعطر أفخرَ، والبَخور أثمن.

٦٣٢ - [بعضُ البلدان الرديئة]

وربُّت بلدةٍ يستحيل فيها العطرُ وتذهب رائحته، كقصبَة الأهواز.

وقد كان الرشيدُ همَّ بالإقامة بأنطاكيَة[3]، وكره أهلَها ذلك، فقال شيخٌ منهم، وصَدَقَهُ: يا أمير المؤمنين، ليست من بلادك، ولا بلاد مثلك، لأنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيَّر فيها حتَّى لا يُنْتفعَ منه بكثير شيء، والسِّلاَحَ يصدأ فيها ولو كان من قلْعة الهند[4]، ومن طبع اليمن، ومطرها ربَّما أقام شهرين، ليس فيه سكون. فلم يُقم بها.

ثمّ ذكر المدينة فقال[5]: وإنّ الجُويريةَ السّوداء، لَتجعل في رأسها شيئًا من بَلح، وشيئًا من نَصُوحٍ، مما لا قيمةَ له؛ لهوانه على أهله، فتجد لذلك خُمرةً طيِّبة وطيبَ رائحةٍ لا يعدلُها بيتُ عَرُوسٍ من ذوي الأقدار. حتَّى إنّ النَّوى المنْقع، الذي يكونُ عندَ أهلِ العراق في غاية النَّتْن، إذا طال إنقاعه، يكونُ عندَهم في غاية الطِّيب. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ثمار القلوب (٧٩٠ - ٧٩١)، ورسائل الجاحظ ٤ / ١٣٠، ولطائف المعارف ١٥٥.

(٢) الصياح: العطر «القاموس: صيح».

(٣) ورد الخبر في معجم البلدان ١ / ٢٦٨ (أنطاكية).

(٤) قلعة الهند: قلعة عظيمة ببلدة «كله» وهي أول بلاد الهند من جهة الصين، فيها الرصاص القلعي لا يكون إلا في قلعتها، وفي هذه القلعة تضرب السيوف القلعية؛ وهي الهندية العتيقة. معجم البلدان ٤ / ٣٨٩ (الصين)، وانظر أيضاً ٣ / ٤٤٥ «الصين» حيث ذكر الخبر نفسه.

(٥) ثمار القلوب ٤٣٦ (٧٩٠).

بــاب
ذكر الحمام

٦٣٣ - [أجناس الحمام]

قال صاحب الحمام: الحمام وحشيٌّ، وأهليّ، وبيوتيّ، وطوراني[١]. وكلُّ طائرٍ يعرف بالزِّواج، وبحسن الصَّوت، والهديل، والدُّعاء، والترجيع فهو حمام، وإن خالفَ بعضهُ بعضاً في بعض الصّوت واللّون، وفي بعض القدِّ. ولحن الهديل. وكذلك تختلف أجناس الدَّجاج على مثل ذلك ولا يخرجها ذلك من أن تكون دَجَاجاً: كالدِّيك الهندي والخلاسيّ[٢] والنَّبطيّ، وكالدّجاج السِّنديّ والزنجيّ وغير ذلك. وكذلك الإبل: كالعِراب والبُخْت، والفوالج، والبَهْوَنيّات[٣] والصَّرْصَرَانيّات[٤]، والحُوش، والنُّجب، وغير ذلك من فحول الإبل؛ ولا يخرجها ذلك من أنْ تكون إبلاً.

وما ذاك إلاّمخالفة الجُرذان والفأر، والنّملِ والذّر، وكاختلاف الضّأْنِ والمعْزِ، وأجناسِ البقر الأهليّة والبقر الوحشيَّة، وكقرابَة ما بينهما وبين الجواميس.

وقد تختلف الحيّاتُ والعقاربُ بضروب الاختلاف، ولا يخرجها ذلك من أن تكونَ عقاربَ وحيّاتٍ، وكذلك الكلابُ، والغِرْبان.

وحسْبُك بتفاوت ما بينَ النّاس: كالزِّنج والصقالبة، في الشُّعُور والألوان، وكيأجوج ومأجوج، وعاد وثمود، ومثلُ الكَنْعَانيّين والعمالقة.

فقد تخالف الماعزة الضائنة حتىّ لا يقع بينهما تسافدٌ ولاتلاقح. وهي في ذلك غنمٌ وشاء.

قال: والقُمريُّ حمام، والفاختةُ حمام، والوَرَشان حمام. والشِّفْنين حمام، وكذلك

---

(١) الطوراني: نسبة إلى جبل طور «القاموس: طور»، وفي معجم البلدان ٤ / ٢٤ «طرآن»: (وطرآن جبل فيه حمام كثير؛ إليه ينسب الحمام الطرآني، والعامة تقول طوراني وهو خطأ).

(٢) الخلاسي: الديك بين دجاجتين هندية وفارسية «القاموس: خلس».

(٣) البهونية من الإبل: ما بين الكرمانية والعربية «القاموس: بهن».

(٤) الصرصرانيات من الإبل: ما بين البخاتي «الخراسانية» والعراب «القاموس: صرّ».

اليمام واليعقوب. وضروبٌ أخرى كلها حمام. ومفاخرها التي فيها ترجع إلى الحمام التي لا تُعرف إلاّ بهذا الاسم.

قال[1]: وقد زعم أفْليمون (صاحب الفراسة) أنَّ الحمام يتّخَذُ لضرُوب: منها ما يُتخذُ للأنس والنساء والبُيُوتِ، ومنا ما يُتّخَذُ للزِّجال والسباق.

والزِّجال: إرسال الحمام الهوادِي

٦٣٤ - [مناقب الحمام]

ومن مناقب الحمام حبُّه للناس، وأنس الناس به، وأنَّك لم تَرَ حيوانًا قطُّ أعدلَ موضِعًا، ولا أقْصَد مرتبةً من الحمام. وأسفل النّاس لا يكون دُون أنْ يتَّخذها، وأرفع الناس لا يكون فوقَ أن يتَّخذها. وهي شيءٌ يتَّخذه ما بين الحجَّام إلى الملك الهمام.

والحمامُ مع عمومِ شهوةِ النّاس له، ليس شيءٌ مما يتّخذونه هُمْ أشدُّ شغفًا به ولا أشدُّ صَبابَةً منهم بالحمام، ثمَّ تجد ذلك في الخِصيان كما تجدُه في الفحول، وتجده في الصِّبيان كما تجده في الرِّجال، وتجدُهُ في الفِتْيان كما تجدُه في الشيوخ، وتجده في النساء كما تجده في الرِّجال.

والحمامُ من الطَّير الميامين، وليس من الحيوان الذي تظهر له عورة وحجم قضيبٍ كالكلب والحمارِ وأشباه ذلك، فيكونَ ذلك مما يكونُ يجب على الرَّجال ألاّ يُدْخِلوه دورَهم.

٦٣٥ - [الحمام ملقّى]

قال مثنَّى بن زهير: ومن العجب أنّ الحمامَ مُلَقًّى، والسَّكْرَان مُوقًّى، فأنشده ابن يسير بيت الخُرَيمي[2]: [من الطويل]

وأعْدَدتُهُ ذُخْرًا لكلِّ مُلِمَّة وسَهْمُ المنَايا بالذَّخائرِ مُولَعُ

٦٣٦ - [شرب الحمام]

ومتى رأى إنسان عطشان الدِّيك والدَّجاجة يشربان الماء، ورأى ذئبًا وكلبًا يلطعَان الماء لطْعًا، ذهَبَ عطشه من قُبْح حسْو الديك نغْبةً نغْبة ومن لطْع الكلب.

---

(١) نهاية الأرب ١٠/٢٥٧.

(٢) ديوان الخريمي ٤٣، والبيان والتبيين ١/٤٠٦، ونهاية الأرب ٣/٨٧، والكامل ٢/٣٠٣ (طبعة المعارف).

وإنَّه لَيَرى الحمام وهو يَشرب الماء! وهو ريّان فيشتهِي أن يَكْرَعَ في ذلك الماء معه.

٦٣٧ - [صدق رغبة الحمام في النَّسل][١]

والدِّيك والكلبُ في طلب السِّفاد وفي طلب الذَّرْء كما قال أبو الأخزْر الحِمَّانيُّ: [من السريع]

لاَ مُبْتَغي الضَّنْءِ ولاَ بِالْعَازِلِ

والحمام أكثر معانيه الذَّرْء وطلبُ الولد. فإذا علم الذَّكَرُ أنَّه قد أودَع رحمَ الأنثى ما يكون منه الولد تقدَّما في إعداد العشِّ، ونقلِ القَصَب وشقَقِ الخُوص، وأشباه ذلك من العيدان الخوَّارة الدِّقاق حتى يعملا أُفحوصة وينسجاها نسجًا مداخلاً، وفي الموضع الذي قد رضياه اتخذاه واصطنَعاه، بقدر جثمان الحمامة، ثمّ أشْخَصا لتلك الأفحوصة حُروفًا غيرَ مرتفعة؛ لتحفَظَ البيض وتمنَعَه من التَّدحرج، ولتلزمَ كنَفَي الجؤجؤ ولتكون رِفداً لصاحب الحَضْن، وسَداً للبيض، ثمَّ يتعاوران ذلك المكان ويتعاقَبان ذلك القرمُوص وتلك الأفحوصة، يسخِّنانها ويدَفِّيانها ويطيِّبانها، وينفيان عنها طباعها الأوّل، ويُحدثان لها طبيعةً أخرى مشتقّةً من طبائعهما، ومستخرجةً من رائحة أبدانهما وقُواهما الفاصلة منهما؛ لكي تقعَ البيضةُ إذا وقعت، في موضعٍ أشبهِ المواضع طباعًا بأرحام الحمام، مع الحضانة والوَثارَة؛ لكي لا تنكسر البيضة بيبُس الموضع، ولئلا ينكر طِباعُها طباعَ المكان، وليكُون على مقدارٍ من البَرْد و السَّخانَة والرَّخاوة والصَّلابَة. ثمّ إنْ ضَرَبها المخاضُ وطَرّقت[٢] ببيضتها، بَدَرَت إلى الموضع الذي قد أعدّتُه، وتحاملتْ إلى المكان الذي اتَّخَذتْه وصنعتهُ، إلاَّ أن يقرِّعها رعدٌ قاصف، أو ريحٌ عاصفٌ فإنَّها ربَّما رمَتْ بها دون كنِّها وظل عُشها، وبغير موضعها الذي اختارته. والرَّعدَ ربما مَرِق[٣] عنده البيض وفسد، كالمرأة التي تُسقِط من الفَزَع، ويموتُ جنينُها من الرَّوع.

٦٣٨ - [عناية الحمام بالبيض]

وإذا وضَعت البيضَ في ذلك المكان فلا يزالان يتعاقبان الحضنَ ويتعاورانه، حتّى إذا بلغ ذلك البيضُ مَداه وانتهَتْ أيّامه، وتمَّ مِيقاته الذي وظَّفه خالقُه، ودبَّره

---

(١) نهاية الأرب ١٠ / ٢٧١.

(٢) طرّقت: حان خروج بيضها «القاموس: طرق».

(٣) مرقت البيضة: فسدت فصارت ماء «القاموس: مرق».

صاحبه، انصدع البيْض عن الفرخ، فخرجَ عاري الجِلْد، صغيرَ الجَناح، قليلَ الحيلة، منسَدَّ الحلقوم. فيعينانه على خلاصِه من قيضه[١] وترويحه من ضيق هَوَّته[٢].

٦٣٩ - [عناية الحمام بالفراخ]

وهما يعلمان أن الفرخَينِ لا تتَّسع حلوقهما وحواصِلهُما للغذاء، فلا يكون لهما عند ذلك همٌّ إلاَّ أنْ ينفخا في حلوقهما الريح، لتتسع الحوصلةُ بعد التحامها، وتَنْفَتقَ بعدَ ارتتاقِها، ثم يعلمان أنّ الفرخ وإن اتّسعت حَوصلتُه شيئًا، أنّه لا يحتمل في أول اغتذائه أن يزقَّ بالطّعم، فيُزَقّ عند ذلك باللُّعاب المختلط بقواهما وقوى الطعْم - وهمْ يسمُّونَ ذلك اللُّعاب اللِّباء - ثم يعلمان أنّ طبع حوصلتِه يرق عن استمراء الغذاء وهضم الطُّعم، وأنَّ الحوصلة تحتاجُ إلى دَبْغٍ وتقوية، وتحتاج إلى أن يكون لها بعضُ المتانَة والصلابة، فيأكلن من شَورَج أصول الحيطان، وهو شيءٌ بينَ الملح الخالص وبين التُّراب الملح، فيزقّان الفرخ حتّى إذا علما أنّه قد اندبَغ واشتدّ زقّاه بالحبِّ الذي قد غبَّ في حواصلهما ثم زقّاه بعد ذلك بالحبِّ الذي هو أقوى وأطرى[٣]. فلا يزلان يزُقّانه بالحبِّ والماء على مقدار قُوَّته ومبلغ طاقته، وهو يطلب ذلك منهما، ويبِضُّ[٤] نحوهما؛ حتى إذا علما أنّه قد أطاق اللقطَ منَعاه بعضَ المنْع، ليحتاج إلى اللقْط فيتعوَّده، حتى إذا علما أنْ أداتَه قد تمَّتْ، وأن أسبابَه قد اجتَمَعَتْ وأنَّهما إن فَطماهُ فطْمًا مقطوعًا مجذوذًا قوِيَ على اللَّقط، وبلغ لنفسه مُنتهى حاجته - ضرباه إذا سألهما الكفاية، ونَفَياه متى رجع إليهما ثمّ تنْزَع عنهما تلك الرحمَةُ العجيبة منهما له، وينسَيان ذلك العطف المتمكِّنَ عليه، ويُذهَلان عنِ تلك الأثرة له، والكدِّ المضني من الغُدُوِّ عليه، والرَّواح إليه، ثم يبتديان العمل ابتداءً ثانيًا، على ذلك النظام وعلى تلك المقدّمات.

فسبحان من عرّفهما وألهمهما، وهداهما، وجعلهما دَلالة لمن استدلّ، ومُخبِرًا صادقًا لمن استخبر، ذلكم اللّه رب العالمين.

٦٤٠ - [حالات الطُعم الذي يصير في أجواف الحيوان]

وما أعجب حالاتِ الطُّعْمِ الذي يصير في أجواف الحيوان، وكيف تتصرّف به

---

(١) القيض: القشرة العليا اليابسة على البيضة «القاموس: قيض»

(٢) الهَوَّة: الكوة، وهي الخرق في الحائط، والثقب في البيت «القاموس: الهوة، الكوة».

(٣) عيون الأخبار ٢ / ٩١.

(٤) البضّ: أن يسأل عن الحاجة فيتمطق بشفتيه «القاموس: بض».

الحالاتُ، وتختلف في أجناسه الوجوه: فمنها ما يكون مثل زق الحمام لفَرخه، والزقُّ في معنى الْقيء أو في معنى التقيؤ وليس بهما؛ وجرَّة البعير والشاة والبقرة في معنى ذلك، وليس به. والبعير يريد أن يعود في خَضمه[1] الأوّل واستقصاء طعمه. وربَّما كانت الجرَّةُ رجيعًا. والرَّجيع: أن يعود على ما قد أعاد عليه مرَّةً حتَّى ينزعه من جَوفه، ويقلبه عن جهته.

٦٤١ - [زَقّ الحمام]

والحمام يُخرجه من حَوصلته ومن مُستَكَنِّه وقَراره، وموضعِ حاجته واستمرائه، بالأثَرة والبرِّ، إلى حوصلة ولده. قد ملك ذلك وطابتْ به نفسُه ولم تغْثَثْ عليه نفسه ولم يتَقَذَّر من صنيعه، ولم تَخْبُثْ نفسُه، ولم تتغيَّر شهوته. ولعلَّ لذَّته في إخراجه أن تكون كلذّته في إدخاله، وإنما اللذة في مثل هذا بالمجاري، كنحو ما يعتري مجرَى النُّطفة من استلذاذ مرُور النُّطفة، فهذا شأن قَلْب الحمام ما في جوفه، وإخراجه بعد إدخاله. والتمساح يخرجه على أنّه رجعُه ونَجوه الذي لا مخرج له ولا فَرَج له في سواه.

٦٤٢ - [طبيعة الإنسان والحيوان في الطعام]

وقد يعتري ذلك الإنسان لما يعرِض من الدَّاء، فلا يعرف إلاّ الأكلَ والقيء، ولا يعرف النَّجْوَ إلاّ في الحين على بعَضِ الشِّدَّة. وليس ما عرَض بسبب آفةٍ كالذي يخرج على أصل تركيب الطبيعة.

والسِّنَّور والكلبُ على خلاف ذلك كلِّه، لأنهما يُخرجانه بعارضٍ يعرِضُ لهما مِن خُبْث النَّفس، ومن الفساد، ومن التَّثوير والانقباض ثمَّ يعودان بعد ذلك فيه من ساعتهما، مشتهيَين له، حريصين عليه.

والإنسان إذا ذَرَعه ذلك لم يكن شيء أبغض إليه منه، وربَّما استقاء وتكلّف ذلك لبَعضِ الأمر. وليس التكلف في هذا الباب إلاّ له.

وذوات الكروش كلها تَقْعص بجرّتها، فإذا أجادتْ مضْغه أعادته، والجرّة هي الفرْث، وأشدُّ من ذلك أنْ تكون رجيعًا، فهي تجيدُ مَضغَها وإعادتَها إلى مكانها، إلاّ أنَّ ذلك ممّا لا يجوز أفواهها. وليس عند الحافِر من ذلك قليلٌ ولا كثير، بوجهٍ من الوجوه.

---

(١) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس «القاموس: خضم».

وقد يعتري سباعَ الطير شبيهٌ بالقيء، وهو الذي يسمُّونه «الزُّمّج»[1]. وبعضُ السَّمكِ يقيء قيئًا ذريعًا، كالبال[2]، فإنَّه ربَّما دسَعَ الدَّسعة، فتلقى بعض المراكب، فيلقَون من ذلك شدّة. والناقة الضجور ربَّما دسعَتْ بجرَّتها في وجه الذي يرحُلها أو يعالجها، فيلقى من ذلك أشدّ الأذى. ومعلومٌ أنَّها تفعَلُ ذلك على عمد.

فلذوات الأقدام في ذلك مذهب، ولذوات الكُروش من الظِّلف والخفِّ في ذلك مذهب، ولذوات الأنياب في ذلك مذهب، وللسَّمك والتمساح الذي يشبه السَّمَكَ في ذلك مذهب.

ويزعمون أن جوف التمساح إن هو إلاَّ معاليق فيه، وأنه في صورة الجراب، مفتوح الفم، مسدود الدُّبر، ولم أَحقّ ذلك، وما أكثر من لا يعرفُ الحال فيه.

٦٤٣ - [القوة التناسلية لدى الحمام]

ثم رجع بنا القولُ في الحمام بعد أن استغنى ولده عنه، وبعد أن نُزعت الرحمة منه، وذلك أنّه يبتدئُ الذَّكرُ الدُّعاء والطرد، وتبتدئ الأنثى بالتأتّي والاستدعاء، ثمَّ تزيف وتتشكّل، ثمَّ تمكِّن وتمنع، وتجيبُ وتصدفُ بوجهها، ثم يتعاشقان ويتطاوعان، ويحدث لهما من التغزُّل والتفتُّل ومن السَّوف والقبَل، ومن المصِّ والرَّشف، ومن التنفُّخ والتنفُّج، ومن الخيلاء والكبرياء، ومن إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في الفم، وذلك من التطاعُم، وهي المطاعَمة. وقال الشاعر[3]: [من البسيط]

لم أَعطها بيدي إذ بتُّ أرشُفُها ... إلاَّ تَطاولَ غصنُ الجيد بالجيدِ

كما تطاعَمَ في خضراء ناعمة ... مطوَّقان أصاخا بعد تغريد

هذا مع إرسالها جناحيها وكفِّيها على الأرض، ومع تَدَرعها وتبعُّلها ومع تصاوله وتطاوُله، ومع تنفُّجه وتنفُّخهِ، مع ما يعتريه مع الحِكة والتفلّي والتنفُّش حتّى تراهُ وقد رمى فيه بمثله.

ثمُّ الذي ترى من كسْحِه بذنبه، وارتفاعِه بصدره، ومن ضرْبه بجناحِه، ومن

---

(١) الزمج: طائر دون العقاب حمرته غالبة، يصيد به الملوك الطير. حياة الحيوان ١ / ٥٣٨.

(٢) البال: حوت عظيم، جناحه كالشراع الظيم. وأهل المراكب يخافون منها أعظم خوف. حياة الحيوان ١ / ١٥٩.

(٣) البيتان بلا نسبة في اللسان والتاج (طعم)، والثاني في أساس البلاغة (طعم)، والتهذيب ٢ / ١٩٢، وتقدم البيتان في الفقرة (٥٦٦)، مع بيت ثالث.

فرحه ومَرَحه بعد قَمْطِه والفراغِ من شهوته، ثمَّ يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه أنكحُ النَّاس.

وتلك الخَصلةُ يفُوق بها جميع الحيوان، لأنّ الإنسان الذي هو أكثر الخلْق في قوّة الشهوة، وفي دوامها في جميع السَّنة، وأرغبُ الحيوانِ في التصَنُّع و التغزل، والتشكُّل[1] والتفتُّل أفتر ما يكونُ إذا فرغ، وَعندَها يركبُه الفُتور، ويحبُّ فِراق الزَّوج، إلى أن يعودَ إلى نشاطِه، وترجِعَ إليه قُوَّتُه.

والحمامُ أنشط ما يكون وأفرح، وأقوى ما يكون وأمرح، مع الزَّهو والشكل، واللهْو والجَذل، أبردَ ما يكون الإنسانُ وأفتره، وأقطَع ما يكون وأقْصرَه.

هذا، وفي الإنسان ضروبٌ من القُوى: أحدها فَضَل الشّهْوةِ، والأخرى دوام الشهْوة في جميع الدَّهر، والأخرى قوة التصَنُّع والتكلف، وأنتَ إذا جمعتَ خصالَه كلها كانت دونَ قوَّةِ الحمام عندَ فَراغِه من حاجته وهذه فضيلةٌ لا يُنْكِرُها أحدٌ، وَمَزِيّة لا يجحدها أحد!!

٦٤٤ - [الشبق المفرط في البغال]

ويقال: إنّ النَّاس لم يَجدُوا مثلَ نشاط الحمام في وَقت فَتْرَة الإنسان إلاّ ما وجدوه في البغال؛ فإنّ البغال تحمل أثقالاً عشيَّة، فتسيرُ بقيَّة يومها وسوادَ ليلتها، وصدرَ نهارِ غَدها، حتّى إذا حطُّوا عن جميع ما كان محمّلاً من أصناف الدوَاب أحمالها، لم يكَنْ لشيء منها همَّةٌ، ولا لِمَنْ رَكبَها من النّاس إلاّ المَرَاغة[2] والماء والعَلف، وللإنسان الاستلقاء ورفعُ الرِّجْلين والغمْز والتأوُّه، إلاّ البغال فإنها في وقت إعياء جميعِ الدواب وشدّة كلالها، وشَغْلها بأنفسها ممّا مرَّ عليها، ليس عليها عملٌ إلاّ أنْ تدلّي أيورَها وتشظَّ[3] وتضربَ بها بطونَها؛ وتحُطها وترفعها. وفي ذلك الوقت لو رأى المكاري امرأة حسناء لَماَ انتَشَرَ لها ولا هَمَّ بها. ولو كان مُنعظًا ثم اعتراه بعْض ذلك الإعياء لنَسي الإنعاظ[4].

وهذه خَصْلة تخالف فيها البغالُ جميعَ الحيوانِ، وتزعم العَمَلَة[5] أنَّها تلتمس

---

(١) الشكل: الغنج والدلاب «القاموس: شكل».

(٢) تمرغ في التراب: تقلّب فيه، والاسم منه المراغة «القاموس: مرغ».

(٣) تشظ: تنعظ «القاموس: شظ».

(٤) انظر مثل هذا الخبر في رسائل الجاحظ ٢ / ٣٢٤.

(٥) العملة: العمال.

بذلك الرَّاحَة وتتداوى به. فليس العجبُ - إن كان ذلك حقًّا - إلاّ في إمكان ذلك لها في ذلك الوقت، وذلك لا يكون إلاّ عن شهوة وشَبَقٍ مُفرط.

٦٤٥ - [نشاط الأتراك]

وشبهٌ آخرُ وشكلٌ من ذلك، كالذي يُوجدَ عند الأتراك عند بلوغ المنْزِل بعد مسير اللّيل كلِّه وبَعْضِ النَّهار، فإن النَّاسَ في ذلك الوقْتِ ليس لهم إلاّ أن يتمددوا ويقيِّدوا دوابّهم. والتركي في ذلك الوقت إذا عاين ظبْيًا أو بعضَ الصّيد، ابْتَدأ الرَّكْضَ بمثلِ نشَاطه قبلَ أن يسيرَ ذلك السير، وذلك وقْتَ يَهِمُّ فيه الخارِجيَّ والخَصيَّ أنفسُهمُا؛ فإنَّهما المذكوران بالصَّبرِ على ظَهْر الدّابَّة.

٦٤٦ - [فطام البهائم أولادها]

وليس في الأرض بهيمةٌ تَفطِمُ ولدَها عن اللّبن دَفْعةً واحدةً، بل تجدُ الظّبيةَ أو البقرة أو الأتان أو الناقة، إذا ظنت أنّ ولدَها قد أطاق الأكل منَعَتْهُ بعض المَنْع، ثمّ لا تزل تُنزِّل ذلك المنْع وترتبه وتدرِّجه، حتَّى إذا علمتْ أنّ به غنًى عنها إنْ هي فطمته فطامًا لا رجْعَة فيه، منَعَتْه كلَّ المنْع.

والعرب تسمِّي هذا التَّدبيرَ من البهائم التَّعفيرَ، ولذلك قال لبيد[1]: [من الكامل]

لمعفّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَه غُبْسٌ كواسبُ ما يُمَنُّ طعامُها

وعلى مثل هذه السِّيرة والعادة يكون عملُ الحمامِ في فراخه.

٦٤٧ - [من عجيب أمر الحمام]

ومن عجيب أمر الحمام أنّه يقلب بيضه، حتى يصير الذي كان منه يَلي الأرض يَلي بدنَ الحمام من بطنه وباطنِ جَناحه،حتّى يُعطيَ جميعَ البيضةِ نصيبها من الحضن، ومن مَسِّ الأرضِ، لعلمها أن خلافَ ذلك العمل يفسُده.

وخَصْلَةٌ أخرى محمودةٌ في الحمام، وذلك أنّ البغْل المتولِّد بينَ الحمار والرَّمَكة لا يبقى له نسل، والرَّاعِبي المتولّد فيما بينَ الحمام والوَرشان، يكثر نسله ويطولُ عمرُ ولدهِ. والبُخْتُ والفوالج، إنْ ضرَبَ بعضُها بعضًا خرج الولدُ منقوص

---

(١) ديوان لبيد ٣٠٨، واللسان والتاج (قهد، عفر، منن)، والتهذيب ٦/ ٥٧، ١٣/ ٣٤٨، والمقاييس ٤/ ٦٧، والمجمل ٣/ ٣٨٤، وديوان الأدب ١/ ١٠٤، ٣/ ١٣٥، وكتاب الجيم ٣/ ١١٦.

الخلق لا خير فيه. والحمامُ كيفمَا أدَرتَه، وكيفما زَاوجْتَ بينَ متّفقها ومختلفها، يكون الولد تامَّ الخلق، مأمول الخير. فمن نتاج الحمام إذا كان مركبًا مشْتركًا ما هو كالرّاعبي والوَرداني. وعلى أنّ للورْداني غرابةَ لون وظرَافَة قَدٍّ، للرَّاعبيِّ فضيلةٌ في عظم البدنِ والفراخِ، وله من الهديلِ والقَرْقَرَةِ ما ليس لأبويه، حتىٍّ صار ذلك سببًا للزِّيادة في ثمنه، وعلّةً للحِرْص على اتّخاذه.

والغنمُ على قسمين: ضأن ومَعز، والبقرُ على قسمين: أحدهما الجواميس إلا ما كان من بقرِ الوحْش. والظِّلْفُ إذا اختلَفا لم يكنْ بينهما تسافُدٌ ولا تلاقح، فهذه فضيلة للحمام في جهة الإنسال والإلقاح، واتّساع الأرحام لأصناف القبول. وعلى أنَّ بينَ سائر أجناس الحمامِ من الوَرَاشين، والقماريّ، والفواخت، تسافدًا وتلاقُحًا.

٦٤٨ - [مما أشبه فيه الحمام الناس]

وممَّا أشبّهَ فيه الحمامُ النَّاسَ، أنّ ساعات الحضْن أكثُرها على الأنثى، وإنّما يحضُن الذّكرُ في صدْر النهار حَضْنًا يسيرًا، والأنثى كالمرأة التي تكفُل الصبيَّ فتَفْطمه وتمرِّضه، وتتعهده بالتمهيد والتَّحريك. حتّى إذا ذهب الحضْنُ وانصرم وقتُه، وصار البيضُ فراخًا كالعيال في البيت، يحتاجون إلى الطّعام والشّراب، صار أكثرُ ساعات الزَّقِّ على الذّكر كما كان أكثرُ ساعاتِ الحضنْ على الأنثى.

وممَّا أشبه فيه الحمام النَّاسِ ما قال مثنَّى بنُ زُهير وهو إمام النّاس في البصرة بالحمام وكان جيِّد الفراسة، حاذقًا بالعلاج، عارفًا بتدبير الخارجيِّ إذا ظهرت فيه مَخيلة الخير - واسم الخارجيّ عندهم: المجهول - وعالمًا بتدبير العريق المنسوب إذا ظهَرتْ فيه علاماتُ الفُسولة وسوء الهداية. وقديمكن أن يَخلُفَ ابن قُرَشيَّين ويَنْدُب ابن خوزيٍّ[1] من نبطيَّة. وإنما فضَّلنا نتاج العلْية على نتاج السِّفلة لأنّ نتاجَ النَّجابة فيهم أكثرُ، والسُّقوط في أولاد السفلة أعمُّ، فليس بواجب أن يكون السفلةُ لا تَلد إلاّ السفلة والعلْية لا تَلد إلاّ العلِيةَ، وقد يلدِ المجنونُ العاقلَ والسخيُّ البخيلَ، والجميل القبيحَ.

وقد زعم الأصمعي أنّ رجلاً من العرب قال لصاحب له: إذا تَزَوَّجْتَ امرأةً من العَرَب فَانظُرْ إلى أخوالها،وأعمامها، وإخوتها، فإنها لا تخطئ الشبّهَ بواحد منهم! وإنْ كان هذا الموصي والحكيم، جعل ذلك حُكمًا عامًّا فقد أسرفَ في القولً، وإن كان ذهبَ إلى التّخويف والزّجْر والترهيب كي يختارَ لنفْسهِ، و لأنّ المتخيّر أكثرُ نجابةً فقد أحسن.

---

(١) الخوزي: نسبة إلى خوزستان.

وقال مثنّى بنُ زهير[1]: لم أر قطُّ في رجلٍ وامرأةٍ إلاّ وقد رأيتُ مثلَه في الذَّكر والأنثى من الحمام: رأيت حمامة لا تريد إلاّ ذكرَها، كالمرأة لا تريدُ إلاّ زوجها وسيّدها، ورأيتُ حمامةً لا تمنَع شيئًا من الذُّكورة، ورأيتُ امرأةً لا تمنع يَدَ لامس، ورأيت الحمامةَ لا تزيف إلا بعْدَ طَرْدٍ شديد وشدة طلب، ورأيتُها تزيفَ لأوَّل ذَكر يُريدُها ساعةَ يقصد إليها، ورأيتُ من النساء كذلك، ورأيت حمامةً لها زوج وهي تمكن ذكرًا آخرَ لاتَعْدُوهُ، ورأيتُ مثل ذلك من النساء، ورأيتُها تزيفُ لغير ذكرها وذكرُها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلاّ وذكرها يطيرُ أو يحضُنُ، ورأيت الحمامةَ تقمُطُ الحمام الذكور، ورأيت الحمامةَ تقمط الحمامة، ورأيت أنثى كانت لي لا تقمط إلا الإناث، ورأيت أخرى تقمط الإناثَ فقط، ولا تدَع أنثى تقمطها.

قال: ورأيت ذكراً يقمُط الذُّكورة وتقمطه؛ ورأيت ذَكرًا يقمُطها ولا يدعها تقمطه، ورأيت أنثى تزيفُ للذُّكورةِ ولا تدع شيئًا منها يقمطها.

قال: ورأيت هذه الأصنافَ كلَّها في السَّحَّاقات من المذكَّرات والمؤنثات، وفي الرِّجال الحَلَقيِّين[2] واللُّوطيِّين. وفي الرجَال من لا يريد النساء، وفي النساء من لا يريد الرجال.

قال: وامتنعتْ عليَّ خصلةٌ، فو اللّه لقد رأيت من النساء من تزْني أبدًا وتساحق أبدًا ولا تتزوج أبدًا، ومن الرجال من يلوط أبدًا، ويزني أبدًا ولا يتزوَّج، ورأيت حماماً ذكرًا يقمط ما لقي ولا يزاوج. ورأيتُ حمامَة تمكِّن كلَّ حمامٍ أرادَها مِنْ ذكرٍ وأنثى، وتقمُطُ الذكورةَ والإناثَ، ولا تزاوِج. ورأيتها تزَاوج ولا تبيض، وتبيضُ فيفسدُ بيضُها؛ كالمرأة تتزَوَّج وهي عاقر، وكالمرأة تلد وتكون خرقاء ورْهاء. ويعرض لها الغلظة والعقوق للأولاد، كما يعتري ذلك العُقاب.

وأمَّا أنَا فقد رأيتُ الجفاء للأَولاد شائعًا في اللّواتي حَمَلْن من الحرام ولربَّمَا ولدت من زَوجها، فيكون عطفها وتحنُّنها كتحنن العفيفات السَّتيرات، فما هو إلاّ أن تزنِيَ أو تَقْحُب فكأَنَّ اللّه لم يضْرِب بينها وبين ذلك الولدِ بشبكة رَحِم، وكأنّها لم تَلِدْهُ.

قال مثنَّى بنُ زهير: ورأيتْ ذكرًا له أنثيان وقد باضَتَا منه، وهو يحضُن مع هذه

(١) انظر الخبر في عيون الأخبار ٢ / ٩١، والعقد الفريد ٦ / ٢٤٠، ومحاضرات الأدباء ٤ / ٦٦٠.

(٢) الحلقي: من ألفاظ المولدين، وتعني: الذي فسد عضوه فانعكس ميل شهوته. انظر شفاء الغليل ٧٠.

ومع تلك، ويزُقُّ مع هذه ومع تلك، ورأيت أنثَى تبيض بيضة، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاث بيضات.

وزعم أنّه إنَّما جزَم بذلك فيها ولم يظنه بالذَّكر، لأنّها قد كانت قبل ذلك عند ذكرٍ آخر، وكانت تبيض كذلك.

ورأيتُ أنا حمامةً في المنزل لم يعرِضَ لها ذَكرٌ إلاّ اشتدّت نحوه بحدَّةٍ ونزقٍ وتسرُّعٍ، حتى تنقر أينَ صادفتْ منهُ، حتى يصدّ عنها كالهارب منها، وكان زوجها جميلاً في العَين رائعًا، وكان لها في المنزل بنون وبنو بنين وبنات وبنات بنات، وكان في العَين كأنّه أشبُّ من جميعهنَّ. وقد بَلَغ من حظوتِه أني قلَّما رأيتُه أرادَ واحدةً من عرْض تلك الإناث فامتنعتْ عليه، وقد كن يمتنعن من غيره، فبينا أنا ذاتَ يومٍ جالسٌ بحيث أراهنّ إذ رأيتُ تلك الأُنثى قد زافتْ لبعض بنيها! فقلت لخادمي: ما الذي غيَّرها عن ذلك الخلق الكريم؟ فقال: إني رَحَّلت زوجها من القاطول[1] فذهب، ولهذا شهر. فقلت: هذا عذر!

قال مثنّى بنُ زهير: وقد رأيت الحمامة تزاوِج هذا الحمام، ثم تتحول منه إلى آخر، ورَأيت ذكرًا فَعَلَ مثل ذلك في الإناث، ورأيت الذَّكرَ كثيرَ النَّسل قويًا على القمْط، ثمَّ يُصفِي كما يُصْفي الرَّجلُ إذا أكثر من النَّسْل والجماع.

ثمَّ عدّد مُثَنَّى أبوابًا غيرَ ما حفِظت ممَّا يُصابُ مثلُه في الناس.

٦٤٩ - [معرفة مثنَّى بن زهير بالحمام]

وزعموا أنّ مثنَّى كان ينظر إلى العاتق[2] والمخلف، فيظنَ أنّه يجيء من الغاية فلا يكاد ظنهُ يخطئ. وكان إذا أظهرَ ابتياع حمامٍ أغلوْه عليه، وقالوا: لم يطلُبْه إلاّ وقد رأى فيه علامةَ المجيء من الغاية، وكان يدسُّ في ذلك ففطنوا له وتحفظوا منه، فربَّما اشترى نصفَه وثلثه، فلا يقصرِّ عند الزِّجال من الغاية.

وكان له خصيٌّ يقال له خديج، يجري مجراه، فكانا إذا تناظرا في شأنِ طائرٍ لم تُخلِف فراستهما.

---

(١) القاطول: اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة؛ وهو نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمّر. معجم البلدان ٤ /٢٩٩.

(٢) العاتق: فرخ الطائر إذا طار واستقل «القاموس: عتق».

٦٥٠ - [المدة التي يبيض فيها الحمام والدجاج]

قال: والحمام تبيض عشرة أشهرٍ من السَّنة، فإذا صانوه وحفِظوه، وأقاموا له الكفاية وأحسنُوا تعهُّدُه، باضَ في جميع السَّنة.

قالوا: والدَّجاجة تبيض في كلِّ السَّنة خلا شهرين.

٦٥١ - [ضروب من الدجاج]

ومن الدَّجاج ما هو عظيم الجثّة، يبيض بيضًا كبيرًا، وما أقل ما يحضُن، ومن الدجاج ما يبيض ستِّين بيضة، وأكثرُ الدجاج العظيم الجثَّة يبيضُ أكثرَ من الصغير الجثَّة.

قال: أما الدَّجاج التي نسبت إلى أبي ريانوس الملك، فهو طويلُ البدَن ويبيضُ في كلّ يوم، وهي صعبة الخلق وتقتل فراريجها.

ومن الدَّجَاج الذي يربَّى في المنازل ما يبيض مرَّتين في اليوم، ومن الدجَاج ما إذا باض كثيراً مات سريعاً، لذلك العَرَض.

٦٥٢ - [عدد مرات البيض عند الطيور]

قال: والخُطَّاف تبيض مَرَّتين في السّنة، وتبني بيَتها في أوثق مكانٍ وأعلاه.

فأمَّا الحمام والفَواخت، والأطْرُغلاَّت والحمام البريُّ، فإنّها تبيض مرَّتين في السنة، والحمامُ الأهليُّ يبيض عشْر مرات. وأما القَبَج والدُّرَّاج فهما يبيضان بين العُشب، ولا سيما فيما طال شيّاً والتوى.

٦٥٣ - [خروج البيضة]

وإذا باض الطّيرُ بيضًا لم تخرُج البيضة من حدِّ التحْديد والتّلطيف، بل يكون الذي يبدأُ بالخروج الجانب الأعظم، وكان الظنُّ يسرعُ إلى أنّ الرأس المحدَّد هو الذي يخرج أوّلاً.

قال: وما كان من البيض مستطيلاً محدَّد الأطراف فهو للإناث، وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذّكور.

قال: والبيضة عندَ خروجها لِيِّنَة القِشْر. غير جاسية[1] ولا يابسة ولاجامدة.

٦٥٤ - [بيض الريح والتراب]

قال[2]: والبيض الذي يتولد من الريح والتُّراب أصغرُ وألطَف، وهو في الطِّيب

---

(١) جاسية: صلبة «القاموس: جسي».

(٢) عيون الأخبار ٢/٩٢.

دُونَ الآخر. ويكونُ بيضُ الرِّيح من الدجاج والقبج، والحمام، والطاوس، والإِوزّ.

٦٥٥ - [أثر حضن الطائر]

قال: وحضْن الطائر وجثومه على البَيض صلاَح لبَدن الطائر، كما يكون صلاحًا لبدَن البيض. ولا كذلك الحضْنُ على الفراخ والفراريج فربما هلك الطائر عن ذلك السبب.

٦٥٦ - [تكوّن بيض الريح]

وزعم ناسٌ أن بيض الرِّيح[1] إنما تكوَّن منْ سفادٍ متقدِّم. وذلك خطأٌ من وجهين: أمّا أحدُهما فأن ذلك قد عُرف من فَرَاريجَ لم يَرينَ ديكًا قط. والوجه الآخر: أن بيضَ الريح لم يكن منه فَرُّوج قطّ إلاّ أن يسفَدَ الدجَاجة ديك، بعد أن يمضي أيضًا خلْقُ البيض.

٦٥٧ - [معارف شتى في البيض]

قال: وبيض الصّيف المحضون أسرعْ خروجًا منه في الشتاء ولذلك تحضن الدجاجة البيضةَ في الصّيف خمس عشرة ليلة.

قال: وربَّما عَرَض غيمٌ في الهواء أو رَعْدٌ، في وقتِ حضْن الطائر، فيفسُدُ البيض. وعلى كل حال ففسادُه في الصيف أكثر، والموتُ فيها في ذلك الزمان أعمّ. وأكثر ما يكون فسادُ البيض في الجَنائب[2]، ولذلك كانَ ابن الجهم لا يطلبُ من نسائه الوَلد إلاّ والرِّيح شمال. وهذا عندي تعرُّضٌ للبلاء، وتحُّكك بالشرّ، واستدعاء للعقوبة.

وقال: وبعضهم يسمِّي بيضَ الرِّيح: البيض الجُنُوبيَّ، لأنَّ أصناف الطّيرِ تقْبَلُ الرِّيح في أجوافها.

وربَّما أفرخ بيضُ الرِّيح بسفادٍ كان، ولكنَّ لونَه يكونُ متغيِّراً وإن سفِد الأنثى طائرٌ من غير جنسها، غيَّر خلق ذلك المخلوقِ الذي كان من الذّكر المتقدِّم. وهو في الديَكةِ أعمَّ.

ويقولون[3]: إنّ البَيض يكون من أربعةِ أشياء: فمِنه مَا يكونُ من التُّراب، ومنه

---

(١) انظر عيون الأخبار ٢/٩٢.

(٢) الجنائب: جمع جنوب، وهي الريح الجنوبية.

(٣) عيون الأخبار ٢/٩٢.

ما يكونُ من السفاد، ومنه ما يكون من النّسيم إذا وصلَ إلى أرحامهن وفي بعض الزَّمَان، ومنْهُ شيءٌ يعتري الحَجَل وما شاكله في الطّبيعة، فإنّ الأنثى ربَّما كانَتْ على سُفَالةِ الريح التي تَهبُّ من شقِّ الذكَر في بعض الزمَان فتحتشي من ذلك بيضاً. ولم أرهم يشكون أن النَّخلة المُطْلعَةَ تكون بقربِ الفُحَّال وتحت ريحه، فتَلقح بتلك الريح وتكتفي بذلك. قال: وبيضُ أبكارِ الطّير أصغر، وكذلك أولادُ النساء. إلى أنْ تتسع الأرحَام وتنتفخ الجنوب.

٦٥٨ - [هديل الحمام]

ويكون هديل الحمام الفتيِّ ضئيلاً فإذا زقَّ مِرَارًا فَتَحَ الزَّقُّ جلْدَة غَببه وحوصلِته، فخرَجَ الصّوتُ أغلظَ وأجهرَ.

٦٥٩ - [حياة البكر]

وهم لا يثِقون بحياة البكر من النّاسِ كما يثقون بحياة الثاني، ويرون أنّ طبيعَة الشباب والابتداء لا يعطيانه شيئًا إلاّ أخَذه تضايقُ مكانه من الرّحم، ويحبُّون أن تبكّر بجارية! وأظُنُّ أن ذلك إنما هو لشدّة خوفهم على الذكر. وفي الجملة لا يتيمَّنون بالبكر الذكر. فإن كان البكرُ ابنَ بكرٍ تشاءَموا به، فإن كان البكْرُ ابنَ بكرَينِ فهو في الشؤم مثل قيسِ بنِ زهير، والبَسوس، فإن قيسًا كان أزْرق وبكرًا ابن بكرين. ولا أحفظُ شأن البَسوس حفظًا أجزمُ عليه.

٦٦٠ - [ما يعتري الحمام والإوز بعد السفاد]

قال: وأمّا الحمام فإنّه إذا قمط تَنَفّشَ وتكبَّر ونَفَضَ ذَنبه وضَرَبَ بجناحه، وأمّا الإوَزّ فإنّه إذا سفِد أكثر من السباحة، اعتراه في الماء من المَرَح مثلُ ما يعتري الحمام في الهواء.

٦٦١ - [مدة تخلق البيض]

قال: وبيضُ الدجَاج يتمُّ خلقُه في عشْرة أيام وأكثرَ شيئًا، وأمَّا بيض الحمام ففي أقلَّ من ذلك.

٦٦٢ - [سبب احتباس بيض الحمامة]

والحمامة ربَّما احتبَسَ البيضُ في جوفها بَعْدَ الوقتِ لأمورٍ تَعْرِضُ لها: إمّا لأمر عَرَض لعُشّها وأفحوصها. وإمّا لنتفِ ريشها، وإمَّا لعلَّةِ وجعٍ من أوجاعها وإمّا لصوتِ

رعد؛ فإنّ الرَّعدَ إذا اشتَدَّ لم يبقَ طائرٌ على الأرض واقع إلاّ عدَا فَزعاً، وإن كان يطير رَمى بنفسه إلى الأرض. قال علقمة بن عَبَدَة(١): [من الطويل]

رغَا فوقهُمْ سَقْبُ السّماء فَدَاحضٌ — بشكته لم يُستَلَبْ وسليبُ
كأنّهمُ صابتْ عليهمْ سحابةٌ — صواعقُها لطيرهِنَّ دَبيبُ

٦٦٣ - [تقبيل الحمام]

قال: وليس التَّقبيلُ إلاّ للحمَام والإنسان، ولا يدَعُ ذلك ذكرُ الحمام إلاّ بعد الهَرَم. وكان في أكثرِ الظَّنِّ أنّه أحوجُ ما يكون إلى ذلك التَّهييجِ به عند الكِبَرِ والضَّعف.

وتزعمُ العوامُّ أنَّ تسافُدَ الغِرْبان هو تطاعُمُها بالمناقير، وأنّ إلقاحَها إنَّما يكونُ من ذلك الوجه. ولم أرَ العلماء يعرفون هذا.

قال: وإناثُ الحمام إذا تسافَدَت أيضًا قَبَّل بَعْضُهُنَّ بعضًا، ويقال إنّها تبيضُ عن ذلك، ولكنْ لا يكون عن ذلك البيضِ فِراخ، وإنَّه في سبيل بيض الريح.

٦٦٤ - [تكوُّن الفرخ في البيضة]

قال: ويَستَبينُ خَلْقُ الفراخ إذا مضت لها ثلاثةُ أيَّامٍ بلياليها وذلك في شَبَاب الدَّجاج، وأمَّا في المَسَانِّ منها فهو أكثر، وفي ذلك الوقت تُوجد الصُّفرةُ من النَّاحية العُليَا من البَيضة، عند الطرَف المحدَّد وحيث يكون أوَّلُ نَقْرها، فَثَمَّ يستبين في بياض البَيضة مثلُ نقطة من دم، وهي تختلجُ وتتحرَّك. والفرخ إنَّما يُخلق من البَياض، ويَغْتذي الصُّفرة، ويتمُّ خَلْقُه لعشرةِ أيّام. والرَّأسُ وحْدَهُ يكونُ أكبر من سائر البدن.

٦٦٥ - [البيض ذو الصفرتين]

قال: ومن الدَّجاج ما يبيض بيضًا له صُفْرتان في بعض الأحايين، خبَّرني بذلك كم شِئتَ(٢) من ثقاتِ أصحابِنا.

وقال صاحب المنطق: وقد باضت فيما مضى دَجاجةٌ ثماني عشْرَة بيضةً، لكلِّ بيضةٍ مُحَّتانِ، ثمَّ سخِّنت وحُضنت، فخرَجَ من كلِّ بيضة فَرُّوجان، ما خلا البيضَ

---

(١) ديوان علقمة ٤٦، والمفضليات ٣٩٥، والأول في اللسان والتاج (دحص)، والتهذيب ٤ / ٢٣٠، والمقاييس ٢ / ٣٣٢، والمجمل ٢ / ٣١٩، وبلا نسبة في الجمهرة ٥٠٣، والثاني بلا نسبة في اللسان (صوب)، والتهذيب ١٢ / ٢٥٢.

(٢) هذه العبارة يستخدمها الجاحظ كثيراً، انظر رسائله ٢ / ٢٦٤.

الذي كان فاسداً في الأصل. وقد يخرج من البَيضة فَرُّوجان، ويكون أحدُهما أعظمَ جثَّةً، وكذلك الحمام. وما أقَلَّ ما يغادر الحمامُ أن يكون أحدُ الفرْخَيْنِ ذكَرًا والآخر أنثى.

٦٦٦ - [معارف في البيض]

قال: وربَّما باضتْ الحمامةُ وأشباهها من الفَواخت ثَلاث بيضات، فأمَّا الأُطرُغلاَّت والفَواخت فإنها تبيض بيضَتين، وربّما باضتْ ثَلاثَ بيضات ولكنْ لا يخرُجُ منها أكثرُ من فرخين، وربّما كان واحداً فقط.

قال: وبعض الطير لايبيض إلاّ بعدَ مُرُورِ الحَوْلِ عليه كَامَلاً، والحمامةُ في أكثر أمْرها يكونُ أحدُ فَرخَيها ذكرًا والآخر أنثى، وهي تبيضُ أوّلاً البيضةَ التي فيها الذّكر، ثمّ تقيم يومًا وليلةً. ثمَّ تبيض الأخرى، وتحضُنُ ما بينَ السَّبْعةَ عشَرَ يومًا إلى العشرين، على قدْر اختلاَفِ طباع الزّمان، والذي يعرضُ لها من العلل. والحمامةُ أبرُّ بالبَيضُ، والحمامُ أبرُّ بالفراخَ.

قال: وأمّا جميعُ أجناسِ الطيرِ ممّا يأكل اللّحمَ، فلم يظهْر لنا أنَّه يبيضُ ويُفرخ أكثرَ من مرَّة واحدة، مَا خلا الخُطّافَ فإنَّه يبيض مرَّتين.

٦٦٧ - [حضانة الطيور فراخها]

والعُقابُ تبيضُ ثلاث بيضات، فَيَخْرُج لها فرْخان. واختلفوا فقال بعضهم: لأنها لا تحضُن إلاَّ بَيضتين، وقال آخرون: قد تحضُنْ وَيخرج لها ثلاثَةُ أفراخ، ولكنَّها ترمي بواحدٍ استثقَالاً للتكسُّب على ثَلاثة. وقال آخرون: ليس ذلك إلاّ بما يعتريها من الضعف عن الصّيد، كما يعتري النُّفساء من الوهْن والضّعف. وقال آخرون: العُقاب طائر سيّء الخلق، رديءُ التَّربية، وليس يُستعانُ على تربية الأولاد إلاّ بالصَّبْر. وقال آخرون: لا، ولكنّها شديدةُ النَّهم والشَّرَه، وإذا لم تكنْ أمُّ الفِراخِ ذاتَ أثرَةٍ لها، ضاعت.

وكذلك قالوا في العَقعقَ[1]، عند إضاعتها لفراخها، حتى قالوا: «أحمقُ من عَقْعَقَ»[2]، كما قالوا: «أحذَر من عقْعقَ»[3].

---

(١) العقعق: طائر على قدر الحمامة وعلى شكل الغراب، وهو ذو لونين أبيض وأسود. حياة الحيوان ٢ / ٦٧.

(٢) المستقصى ١ / ٨٣، وأمثال ابن سلام ٣٦٥، ومجمع الأمثال ١ / ٢٢٦، وجمهرة الأمثال ١ / ٣٩٥، والدرة الفاخرة ١ / ١٥٥.

(٣) المستقصى ١ / ٦٢، وجمهرة الأمثال ١ / ٣٤٣، ٣٩٦، والدرة الفاخرة ١ / ١٣٣، ٢ / ٤٤١.

وقالوا: وأمّا الفَرخ الذي يُخرجه العُقاب، فإنّ المكلَّفَةَ، وهي طائرٌ يقال لها كاسِر العظام، تقبلُه وتربِّيه.

والعُقاب تحضن ثلاثين يومًا، وكذلك كلُّ طائرٍ عظيم الجثَّة، مثل الإوزّ وأشباهِ ذلك، فأمَّا الوسط فهو يحضنُ عِشرين يومًا. مثل الحِدأ ومثل أصناف البُزاةِ كالبواشِق واليآييء.

والحدأة تبيضُ بيضتين. وربّما باضتْ ثلاث بيضات وخرَج منهن ثلاثة فِراخ.

قالوا: وأما العقبان السُّودُ الألوان، فإنَّها تربّي وتحضن.

وجميع الطير المعقَّف المخالب تطردُ فراخها من أعشاشها عندَ قوَّتها على الطَّيران. وكذلك سائر الأصنافِ منَ الطيرِ، فإنَّها تطردُ الفِراخ ثمَّ لا تعرفُها، ما عدا الغداف، فإنها لا تزالُ لولدها قابلة، ولحالهِ متفقِّدة.

٦٦٨ - [أجناس العقبان]

وقال قوم: إن العقبانَ والبُزاة التّامّة، والجهارْرَانك، والسُّمنان. والزَّمامجِ والزَّرارقة إنها كلّها عِقْبان. وأمَّا الشّواهينُ والصُّقورةَ واليَوايئ، فإنها أجناسٌ أخر.

٦٦٩ - [حضن الطير]

قال: وقالوا: فراخ البزاة سمينة طَيِّبَةٌ جدًّا. وأما الإوزة فإنها التي تحضن دونَ الذكر، وأمّا الغِربانُ فعلى الإناث الحضن، والذكورة تأتي الإناث بالطُّعمة.

وأمّا الحجَل فإنَّ الزّوج منها يهيّئان للبَيض عُشّين وثيقين مقسومَين عليهما، فيحضنُ أحدُهُمَا الذَّكَرَ، والآخرَ الأنثى، وكذلك هُمَا في التَّربية. وكلٌّ واحدٍ منهما يعيشُ خمسًا وعِشرين سنة، ولا تلْقَحُ الأنثى بالبيض ولا يُلقِحُ الذكرُ إلاَّ بعدَ ثلاثِ سنين.

٦٧٠ - [الطاوس]

قال: وأمَّا الطّاوس فأوّل ما تبيضُ ثماني بيضات. وتبيض أيضًا بيضَ الريح. والطاوس يُلقي ريشَه في زَمن الخَريف إذا بدَا أوّلُ ورقِ الشَّجر يسقُطُ. وإذا بدأ الشَّجرُ يكتسي ورقًا. بدأ الطاوس فاكتسى ريشًا.

٦٧١ - [ما ليس له عشٌ من الطير]

قال: وما كان من الطّير الثَّقيل الجثَّة فليس يهيئ لبيضهِ عُشًّا؛ من أجْل أنَّه لا

يُجيد الطَّيرَان، ويثقل عليه النهوض ولا يتحلَّق، مثل الدُّرَّاج والقَبَجَ، وإنما يبيض على التُّراب. وفراخ هذه الأجناس كفراريج الدَّجاج، وكذلك فراريج البطِّ الصِّيني، فإنَّ هذه كلَّها تخرُج من البيض كاسية كاسبة تلقط من ساعتها، وتَكفي نفسها.

٦٧٢ - [القبجة]

قال: وإذا دنا الصَّيَّاد من عُشِّ القبجة ولَها فراخٌ، مرَّتْ بينَ يدَيه مَرًّا غيرَ مفُيت، وأطمعتْه في نفسها ليتبعها، فتمرُّ الفراخ في رجوعها إلى موضعِ عُشِّهَا. والفراخ ليسَ معها من الهداية ما مع أمِّها. وعلى أنّ القَبَجَةَ سيِّئة الدَّلالةِ والهداية، وكذلك كلُّ طائر يعجِّلُ له الكَيْس والكسْوة، ويعجِّل له الكَسْبُ في صغره.

وهذا إنَّما اعتراها لقَرابةِ ما بينَها وبين الدِّيك.

قال: فإذا أمعن الصَّائد خلْفها وقد خرجت الفراخ من موضَعها، طارت وقد نحَّتْه إلى حيثُ لا يَهتدي الرُّجوع منه إلى موضع عشِّها، فإذا سقَطَتْ قريبًا دعتْها بأصواتٍ لها، حتَّى يجتمعْنَ إليها.

قال: وإناثُ القَبَجْ تبيض خَمْسَ عشْرَةَ بيضة إلى ستَّ عشرةَ بيضة. قال: والقبج طيرٌ منكرٌ وهي تفرُّ ببَيضها من الذَّكر؛ لأنَّ الأنثى تشتغل بالحضْن عن طاعة الذَّكر في طلب السِّفاد. والقَبَج الذَّكَرُ يوصَفُ بالقوّة على السِّفاد، كما يوصف الدِّيكُ والحجَلُ والعُصفور.

قال: فإذا شُغلَت عنه بالحضْن، ظلبَ مواضعَ بيضها حتى يفسِدَهُ فلذلك ترتاد الأنثى عشَّها في مَخَابِئَ إذا أحسَّت بوقْتِ البيض.

٦٧٣ - [وثوب الذكورة على الذكورة]

وإذا قاتل بعضُ ذُكورةِ القَبَج بَعضاً فالمغلوبُ منها مسفودٌ والغالبُ سافد. وهذا العرض يعرِضُ للدِّيكة ولذكور الدَّراريج، فإذا دَخَل بين الدِّيَكةِ ديكٌ غريب، فمَا أكثَرَ ما تجتمع عليه حتَّى تسفَدَه!.

وسفادُ ذُكورة هذه الأجناسِ إنما يعرض لها لهذه الأسباب، فأمَّا ذُكورةُ الحَمير والخَنازيرِ والحمامِ، فإنّ ذُكورَها تثِبُ على بعضٍ مِن جهة الشَّهوة.

وكان عند يعقوبَ بن صباح الأشعثيِّ، هرّان ضخْمان، أحدُهُما يكومُ الآخَرَ متى أرادهُ، مِنْ غيرِ إكراهٍ، ومِن غيرِ أن يكونَ المَسْفودُ يريدُ من السَّافِد مِثلَ ما يريدُ

منه السَّافد. وهذا البابُ شائعٌ في كثير من الأَجناس، إلاَّ أنَّه في هذه الأَجناس أوْجَد.

٦٧٤ - [صيد البُزاة للحمام]

ثمَّ رجَع بنا القَولُ إلى ذِكر الحمام، من غير أن يشاب بذكر غيره.

زعم صاحبُ المنطق أنَّ البُزاةُ عشرة أجناس، فمنها ما يضرِب الحمامة والحمامة جاثمة، ومنها ما لا يضرب الحمامَ إلاّ وهو يطير، ومنها ما لا يضرب الحمام في حال طَيَرانه ولا في حال جثومه، ولا يعرض له إلاّ أنْ يجده في بَعْض الأغْصان، أو على بعض الأنشازِ والأشجار. فعدَّد أجناسَ صيدها، ثمَّ ذكرَ أنَّ الحمامَ لا يخفى عليه في أوّل ما يرى البازيَ في الهواء أيُّ البُزَاة هُو، وأَيُّ نوعٍ صَيدُه، فيخالف ذلك. ولمعرفة الحمامِ بذلك من البازي أشكال: أوَّلَ ذلك أنّ الحمامَ في أوَّلِ نُهوضه يفصلُ بينَ النَّسر والعُقاب، وبينَ الرّخمةِ والبازي، وبينَ الغُرابِ والصَّقر؛ فهوَ يَرَى الكرْكيَّ والطَّبرزين[١] ولا يستوحِشُ منهما! ويرى الزُّرّق فيتضاءل. فإنْ رأى الشّاهينَ فَقَدْ رأى السّمَّ الذعاف الناقِع.

٦٧٥ - [إحساس الحيوان بعدوِّه]

والنَّعجة ترى الفِيلَ والزَّنْدَبِيلَ[٢] والجاموسَ والبعير، فلا يهزُّها ذلك، وترى السَّبع وهي لم تره قبلَ ذلك، وَعضوٌ من أعضاء تلك البهائم أعظمُ وهي أهولُ في العين وأشنعُ، ثمَّ ترى الأسَدَ فتخافه. وكذلك البَبْر[٣] والنمر. فإن رأت الذئب وحده اعتراها منه وحْدَهُ مثلُ ما اعتراها من تلك الأجناسِ لو كانت مجموعةً في مكانٍ واحد. وليس ذلك عن تجربَةٍ، ولا لأنّ منظرَه أشنعُ وأعظم، وليسَ في ذلك عِلّة إلاّ ما طُبِعت عليه من تمييز الحيوان عندها. فليس بمُسْتَنكرٍ أنْ تَفْصِلَ الحمامة بينَ البازي والبازي، كما فصلت بين البازي والكَرْكيِّ.

فإنْ زعمتَ أنَّها تعرف بالمخالب فمنْقارُ الكرْكيِّ أشنع وأعظم وأَفظع، وأطولُ وأعرض. فأمَّا طَرَفُ منقار الأبغث فما كانَ كلُّ سنانٍ وإن كان مذرَّباً[٤] ليبلغه.

---

(١) الطبرزين: الفأس التي يعلقها الفارس في سرج جواده. انظر المعرب للجواليقي ١٩٤.

(٢) الزندبيل: الفيل الكبير. حياة الحيوان ١ / ٥٤٠.

(٣) الببر: ضرب من السباع، يسابق الأسد، يقال إنه متولد من الزبرقان واللبوة. حياة الحيوان ١ / ١٥٩.

(٤) المذرب: المحدد «القاموس: ذرب».

٦٧٦ - [بلاهة الحمام]

قال صاحب الدِّيك: وكيفَ يكونُ للحمام من المعرفة والفِطنة ما تذكرون، وقد جاء في الأثر[١]: «كُونُوا بُلْهاً كالحمام»!

وقال صاحب الدِّيك: تقول العربُ: «أخْرَق مِنْ حمامةٍ»[٢]، وممَّا يدل على ذلك قولُ عَبيدِ بنِ الأبرص[٣]: [من مجزوء الكامل]

عَيُّوا بأَمْرِهُمُ كما عَيَّتْ ببَيْضَتِهَا الحَمَامهْ
جَعَلَتْ لها عُودَينِ مِنْ نَشمٍ وآخَرَ من ثمامهْ

فإن كان عَبيدٌ إنما عَنَى حمامةً من حمامكم هذا الذي أنتم بِهِ تفْخَرُونَ، فقد أكثرتم في ذكر تدبيرها لمواضعِ بَيضها، وإِحكامها لصَنعة عشاشها وأفاحيصها.

وإن قلتم: إنَّه إنما عَنَى بعضَ أجناسِ الحَمَام الوحشي والبَرّيّ، فقد أخرجتمْ بعضَ الحَمَامِ مِنْ حُسْنِ التَّدْبير. وعبيدٌ لم يُخصَّ حماماً دُونَ حمام.

٦٧٧ - [رغبة عثمان في ذبح الحمام]

وحدَّث أُسامةُ بن زيد قال: سمعتُ بعضَ أشْياخنا منذُ زمان، يحدِّثُ أنَّ عثمانَ ابنَ عفَّانَ - رضي اللّهُ تعالى عنه - أراد أنْ يَذْبَحَ الحَمَامَ ثمَّ قال: «لولا أنّها أُمّةٌ من الأمم لأَمرت بذبحهن، ولكنْ قُصُّوهنَّ». فدلَّ بقوله: قُصُّوهنّ على أنَّها إنما تُذْبَحُ لرغبة مَنْ يتّخذُهنّ، ويَلعبُ بهنَّ من الفتْيان والأَحداث والشّطَّار، وأصحاب المراهَنة والقمار، والذين يتشرَّفون على حُرَم الناس والجيران، ويَختَدعُون بفراخ الحَمَامِ أولاد النَّاس، ويرمون بالجُلاَهق[٤] وما أكثر مَنْ قد فقأ عيناً وهشَمَ أنْفاً، وهتَمَ فَماً، وهو لا يدري مَا يصنَع، ولا يَقفُ على مقدارِ مَا ركبَ به القومَ. ثم تذهب جنايتُهُ هدَراً؛ ويعودُ ذلك الدَّمُ مطلولاً بلا عقْل ولا قودٍ ولا قِصاص ولا أرْش؛ إذْ كان صاحِبُه مجهولاً.

---

(١) ورد الأثر في البيان والتبيين ٢ / ٢٤٢. وعيون الأخبار ٢ / ٧٢، ومحاضرات الراغب ٢ / ٣٠٠.

(٢) مجمع الأمثال ١ / ٢٥٥، وجمهرة الأمثال ١ / ٤٣١، والمستقصى ١ / ٩٩، وأمثال ابن سلام ٣٦٦، وثمار القلوب (٦٨٢).

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٢٦، وعيون الأخبار ٢ / ٧٢، وهما لسلامة بن جندل في ديوانه ٢٤٨، ونظام الغريب ٢٠٨.

(٤) الجلاهق: كلمة فارسية تعني الطين المدور الذي يرمى به عن القوس، انظر المعرب للجواليقي ٤٢.

وعلى شبيه بذلك كان عمرُ - رضي اللّه عنه - أمر بِذَبْحِ الدِّيكة وأمرَ النبيُّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم بقتْل الكلاب[1].

قالوا: ففيما ذكرنا دليلٌ على أنَّ أكْلَ لحومِ الكلاب لم يكنْ مِنْ دينهم ولا أخْلاقهِمْ، ولا مِنْ دواعي شهواتهم. ولولا ذلك لما جاء الأثرُ عن النبيِّ - صلَّى اللّه عليه وسلم - وعُمرَ وعُثمانَ - رضي اللّه تعالى عنهما بذَبْح الدِّيكة والحَمَام، وقتْل الكلاب. ولولا أنّ الأمرَ على ما قلنا، لقالوا: اقتلوا الدُّيوكَ والحَمَامَ كما قال: اقتلوا الكلاب. وفي تفريقهم بينها دليلٌ على افتراقِ الحالاتِ عندَهم.

قال: حدَّثني أسامة بن زيد، وإبراهيمُ بنُ أبي يحيى، أنَّ عثمان شكَوْا إليه الحَمَامَ، وأنّه قال: «مَنْ أخَذَ منهنَّ شيئاً فهو له». وقد علمْنا أنّ اللفظَ وإن كان قد وقَعَ على شِكاية الحَمام، فإن المعنى إنَّما هو على شكايةِ أصحاب الحَمام؛ لأنّه ليس في الحَمامِ مَعنىً يدعُو إلى شكايةٍ.

قال: وحدّثنا عُثمان قال: سُئل الحسنُ عن الحَمام الذي يصطاده النَّاس، قال: لا تأكلْه، فإنّه منْ أموال الناس! فجعله مالاً، ونَهَى عن أكْله بغير إذن أهله. وكلٌّ ما كان مالاً فيبيعُه حسَنٌ وابتياعُه حسن. فكيفَ يجوزُ لشيء هذه صفته أنْ يُذبح، إلاَّ أن يكون ذلك على طريق العِقاب والزَّجْرِ لمن اتَّخذَه لما لا يحلّ !!.

قال: ورووا عن الزُّهري عن سعيد بن المسيَّب قال: نَهَى عُثمانُ عن اللعبِ بالحَمَام، وعن رمي الجُلاهِق. فهذا يدلُّ على ما قلْنا.

٦٧٨ - [أمْن حمام مكة وغزْلانها]

والناس يقولون: «آمَنُ مِنْ حَمَامِ مَكَّةَ، ومنْ غزلان مكة»[2]. وهذا شَائعٌ على جميع الألسنة، لايردُّ أحدٌ ممن يعرِفُ الأَمثَالَ والشّواهدَ. قال عُقيبةُ الأَسديُّ لابن الزُّبير: [من الكامل]

مازلتَ مذ حِجج بمكة محْرماً ... في حيثُ يأمَنُ طائرٌ وحَمامُ

فَلَتَنْهَضَنّ العيسُ تنفخُ في البُرَا ... يَجْتبْنَ عُرْض مَخارِمِ الأعلامِ[3]

أبنو المغيرةِ مثلُ آلِ خُويلدٍ؟! ... يا لَلرّجال لِخفّةِ الأحلام!

---

(١) انظرما تقدم في الفقرة (٢٢٥).

(٢) المستقصى ١/ ٩، ومجمع الأمثال ١/ ٨٧، والدرة الفاخرة ١/ ٦٩.

(٣) البرا: جمع برة، وهي الحلقة في أنف البعير «القاموس: برّ».

وقال النابغةُ في الغزْلان وأمْنِهَا، كقول جميع الشُّعراء في الحمام: [من البسيط]

والمؤمن العائذاتِ الطيرَ تمسَحُها ... رُكبانَ مَكّةَ بين الغِيلِ والسَّعَد[1]

ولو أنّ الظِّباء ابتُلِيْت مِمَّنْ يتَّخِذها بِمثل الذي ابتُليت به الحَمام ثمَّ ركبوا المسلمين في الغِزلان بمثل ما ركبوهم به في الحَمام، لساروا في ذَبْحِ الغِزلان كسيرتهم في ذَبْحِ الحمام.

وقالوا[2]: إنّه لَيبلُغُ مَن تعظيم الحَمام لحُرْمة البيتِ الحرام، أنّ أهلَ مكة يشهَدون عن آخرهم أنّهم لم يَرَوْا حَماماً قطُّ سقَطَ على ظَهر الكعبة، إلاّ مِنْ علةٍ عَرَضتْ له. فإن كانت هذه المعرفة اكتساباً من الحَمام فالحَمامُ فوق جميعِ الطَير وكلِّ ذي أربع. وإن كان هذا إنَّما كان من طريقِ الإلهام، فليس ما يُلهَمُ كما لا يلهم.

وقال الشّاعر في أمْن الحمَام: [من الوافر]

لقد علم القبائلُ أنّ بَيْتي ... تفرَّعَ في الذّوائبِ والسَّنام[3]

وأنَّا نَحْنُ أولُ من تَبَنَّى ... بمكّتها البيوتَ معَ الحَمام

وقال كثيِّر- أو غيره من بني سهم[4] - في أمْن الحَمام: [من الخفيف]

لَعَنَ اللّهُ مَنْ يَسُبُّ علياً ... وحُسَيْناً مِنْ سُوقَةٍ وإمامِ

أيُسَبُّ المطيَّبون جدوداً ... والكرامُ الأخوالِ والأعمامِ

يأمن الظبي والحَمامُ ولا يأ ... مَنُ آلُ الرَّسولِ عِنْدَ المَقامِ !!

رحمةُ اللّهِ والسَّلامُ عليهمْ ... كلما قامَ قائمٌ بسلامِ

وذكر شأنَ ابنِ الزبير وشأنَ ابنِ الحنفيَّة، فقال[5]: [من الطويل]

ومن يَرَ هذا الشَّيخَ بِالخيفِ من مِنى ... مِنَ النَّاس يَعْلمْ أنَّهُ غيرُ ظالم

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٢٥، والمقاييس ١/١٣٥، وفي ديوانه: (قوله «والمؤمن العائذات» يعني الله تعالى أمَّنها أن تهاج أو تصاد في الحرم، والعائذات: التي عاذت بالحرم. والغيل: الشجر الملتف، وكذلك السعد).

(٢) ثمار القلوب ١٣(٦٧).

(٣) البيتان للزبير بن عبد المطلب في المؤتلف والمختلف ١٣٠ - ١٣١.

(٤) الأبيات لكثير بن كثير بن المطلب السهمي في معجم الشعراء ٢٤٠، ونسب قريش ٦٠، ولكثير عزة في ديوانه ٥٣٧، وثمار القلوب (٦٧٨ - ٦٧٩)، ولعبد اللّه بن كثير السهمي في البيان والتبيين ٣/٣٦٠، وبلا نسبة في الرسالة البغدادية ٥٤.

(٥) الأبيات لمحمد بن كثير في معجم البلدان ٤/٦٦ (عارم)، ولكثير عزة في ديوانه ٢٢٤ - ٢٢٥، واللسان والتاج (لزم)، والكامل ١١٢٤، ١١٩٣ (الدالي)، والعقد الفريد ٤/٤١٣.

سَمِيُّ النبيِّ المصطفَى وابن عمِّه وفكَّاكُ أغْلالٍ ونفَّاعُ غارمِ
أَبَى فهو لا يشْري هُدى بضَلالةَ ولا يتَّقِي في اللّه لوْمَةَ لائمِ
ونحن بحَمْد اللّه نتلُو كتابَهُ حُلولاً بهذا الخَيْف خَيف المحَارِمِ
بحيثُ الحَمَامُ آمناتٌ سواكنٌ وتَلْقَى العدُوَّ كَالوَلِيِّ المسالمِ

٦٧٩ - [حمامة نوح وطوقها]

قال صاحب الحَمام(١): أمَّا العرب والأعرابُ والشُّعَراء، فقد أطبقوا على أنَّ الحَمَامَةَ هي التي كانت دليلَ نوحٍ ورائده، وهي التي استجعَلَتْ(٢) عليه الطَّوْقَ الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها اللّه تعالى تلك الحلْية؛ ومنَحَها تلك الزِّينة، بدعاء نوحٍ عليه السلام، حينَ رجعتْ إليه ومعها من الكرْم ما مَعها، وفي رجليها من الطِّين والحَمْأة ما برجليها، فعوِّضتْ من ذلك الطِّين خِضابَ الرِّجلين، ومن حُسن الدَّلاَلَةِ والطَّاعة طَوْقَ العنق.

٦٨٠ - [شعر في طوق الحمامة]

وفي طوقها يقول الفرزدق(٣): [من الوافر]

فمن يكُ خائفاً لأذاة شعري فقد أَمِنَ الهجَاءَ بنو حَرَامِ
هم قادُوا سفيهَهُم وخَافُوا قلائِدَ مِثلَ أَطواقِ الحمامِ

وقال في ذلك بَكْر بن النَّطَّاح(٤): [من الطويل]

إذا شئتُ غنَّتْني ببَغدَادَ قَيْنَة وإن شئتُ غنَّاني الحَمَامُ المطوَّق
لباسي الحسامُ أو إزارٌ مُعصفرٌ ودِرْعُ حديدٍ أو قميصٌ مخلَّق

فذكر الطَّوق، ووصَفها بالغِناءِ والإطراب. وكذلك قال حُمَيد بن ثَور(٥): [من الطويل]

رَقودُ الضُّحى لا تعرِف الجيرَة القصا ولا الجيرَةَ الأدْنينَ إلاَّ تجشُّما

---

(١) ثمار القلوب (٦٧٩).

(٢) استجعلت: طلبت الجعالة، وهي الرشوة.

(٣) البيتان للفرزدق في طبقات ابن سلام ٣٢٥، وثمار القلوب ٣٦٨ (٦٨١) والتشبيهات ٢٢٩، والعمدة ١/٦٦، والأول في اللسان والتاج (حرم)، ولم يرد البيتان في ديوانه.

(٤) ديوان بكر بن النطاح ٢٥٥، والعمدة ٢/١٧.

(٥) ديوان حميد بن ثور ١٧– ٢٧، وهي الأبيات (٤٨، ٥٠، ٧٨، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤)، والوحشيات ١٩٣، والكامل ٢/٩٨، والبيتان التاليان في عيون الأخبار ٤/١٤٥، والأول بلا نسبة في اللسان والتاج (قصر)، والمقاييس ١/٤٥٨، والمخصص ٤/٣.

وليستْ مِنَ اللائي يكونُ حديثَها أمَام بيوتِ الحيِّ إنّ وإنَّما

ثمّ قال:

وما هاج هذا الشّوقَ إلاّ حمامةٌ دعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرَنُّما[1]

مطوّقةٌ خطْباء تصدَحَ كلما دنَا الصَّيفُ وانجاب الربيعَ فأنجما[2]

ثمّ قال بعد ذكر الطوق[3]:

إذا شئتُ غنَّتْني بأجزَاعِ بيشَةٍ أو النَّخْلِ مِنْ تَثليثَ أو بيلملما

عجبتُ لها، أنَّى يكونُ غناؤها فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنْطقها فمَا

ولم أرَ محزُوناً لهُ مِثلُ صَوتِها ولا عَرَبيّاً شاقَهُ صوتُ أعجَما

وقال في ذكر الطّوق – وأنّ الحَمامةَ نَوّاحةٌ – عبدُ اللّه بن أبي بكر وهو شهيد يوم الطائِف، وهو صاحبٌ ابن صاحِب[4]: [من الطويل]

فلم أرَ مثلي طلّق اليومَ مثلها ولا مثْلها في غير جرمٍ تطَلّقُ

أعاتكُ لا أنْساكِ مَا هبَّتِ الصَّبَا وما نَاحَ قُمريٌّ الحَمامِ المطوَّقُ

وقال جَهْم بن خَلَف، وذكرها بالنَّوح، والغناء، والطّوْق، ودعوةِ نوح؛ وهو قَوْلُهُ[5]: [من المتقارب]

وقد شاقني نَوْحُ قُمريةٍ طرُوبِ العَشيِّ هتوفِ الضُّحَى

من الوُرْقِ نَوَّاحةٍ باكَرَتْ عَسِيبَ أَشاءٍ بذاتِ الغَضَا

---

(١) البيت له في معجم البلدان ٥/٤٢٨ (يبمبم)، والحماسة البصرية ٢/١٥٠، واللسان (حرر، سوق، حمم)، والتاج (حرر، علط، سوق، وحى)، والمقاييس ٢/٦، والمجمل ٢/٨، وبلا نسبة في العين ٣/٢٤.

(٢) اللسان (صدح، جول)، والتاج (جول).

(٣) الأبيات الثلاثة التالية في معجم البلدان ٥/٤٢٨ (يبمبم). وهي عدا الأخير في ديوان المعاني ١/٣٢٦،والأول منها في اللسان والتاج (فغر، غنا)، وأساس البلاغة (فغر)، وبلا نسبة في الخزانة ١/٣٧، والثاني في اللسان (ببم)، والتاج (ببم، يبمبم)، والتهذيب ١٥/٥٩١. والأغاني ١٤/٣٥٥.

(٤) الأبيات في الأغاني ١٨/٥٩، وتزيين الأسواق ٢٤٥، وذم الهوى ٦٤٧، وربيع الأبرار ٥/٢٩٧، ونوادر المخطوطات ١/٦١، وأخبار النساء ٢١٤، وحياة الحيوان ٢/٢٢٢، والظرف والظرفاء ١٧٣ – ١٧٤، وروضة المحبين ٢٨١ – ٢٨٢.

(٥) ورد البيت الأول والرابع منسوباً إلى جهم بن خلف في ثمار القلوب (٦٨١)، والقصيدة منسوبة إلى أبي صفوان الأسدي في الأمالي ٢/٢٣٨، وسرور النفس ١٠٧.

تَغَنَّتْ عَليه بلحنٍ لها | يُهيِّج للصَّبِّ ما قدْ مَضى
مطوَّقةٍ كُسبتْ زينةً | بدعْوةِ نوحٍ لها إذ دَعَا
فلم أرَ باكيةً مثلها | تبكِّي وَدَمْعَتها لا تُرَى
أضلّتْ فُرَيْخاً فَطَافَتْ لَهُ | وقد عَلقتْه حبالُ الرَّدَى
فلما بدا اليأْسُ منهُ بَكَتْ | عَليه، وما ذا يردُّ البُكا
وقد صادَهُ ضَرِمٌ مُلْحِمٌ | خفوقُ الجَناحِ حَثيثُ النَّجَا[1]
حديد المخالبِ عاري الوَظيـ | ـفِ ضارٍ من الوُرْقِ فيه قنا
تَرَى الطّيرَ والوَحْش مِن خَوفه | جوامزَ منه إذا ما اغتدى

٦٨١ - [نزاع صاحب الدِّيك في الفخر بالطوق]

قال صاحب الديك: وأمَّا قوله: [من الوافر]

مطوّقَة كساها اللّه طوقاً | ولم يخْصُصْ به طيراً سِواهَا

كيف لم يخصُص بالأطواق غَيْرَ الحَمام، والتَّدارجُ أحقُّ بالأطواق وأحسنُ أطواقاً منها، وهي في ذُكورتها أعمّ؟! وعلى أنّه لم يصف بالطّوق الحَمامة التي فاخرتم بها الدِّيك؛ لأنَّ الحَمامة ليست بمطوَّقة، وإنما الأطواقُ لذكورة الوارشين وأشباه الوارشين،من نوائح الطّير وهواتفِها ومغنِّياتها. ولذلك قال شاعرُكم، حيث يقول[2]: [من الطويل]

أعاتكَ لا أنساكِ ما هبَّتِ الصَّبَا | وما ناحَ قُمرَيُّ الحمَامِ المطوَّقُ

وقال الآخر[3]: [من المتقارب]

وقد شاقني نوحَ قمريةٍ | طروبِ العَشِيِّ هَتُوفِ الضُّحى

ووصفها فقال: [من المتقارب]

مطوَّقةٍ كُسيت زينةً | بدَعوةِ نوحٍ لها إذْ دَعا

فإن زعمتم أنّ الحَمامَ والقمْرِيَّ واليمامَ والفواختَ والدَّبَاسِيَّ[4] والشّفانِينَ

---

(١) الضرم: الشديد الجوع «القاموس: ضرم». الملحم: الذي يُطعِم اللحم «القاموس: لحم». حثيث النجا: السريع الطيران.

(٢) البيت لعبد اللّه بن أبي بكر؛ كما تقدم في الصفحة السابقة.

(٣) البيت لجهم بن خلف أو لأبي صفوان الأسدي؛ كما تقدم في الصفحة السابقة.

(٤) الدباسي: جمع دبسي، طائر صغير منسوب إلى دبس الرطب، وهو من الحمام البري. حياة الحيوان ١/ ٤٦٦.

والوارشين حمامٌ كلُّه، قلنا: إنَّا نزعم أنّ ذكورةَ التَّدارِجِ وذكورةَ القَبَج، وذكورةَ الحجَلِ ديوكٌ كلها. فإنْ كان ذلك كذلك، فالفخْرُ بالطّوق نحن أولى به.

قال صاحب الحَمام(1): العرب تسمِّي هذه الأجناسَ كلها حماماً، فجمعوها بالاسم العامّ، وفرَّقوها بالاسم الخاص، ورأينا صُورَها متشابهة، وإن كانَ في الأجسامِ بعضُ الاختلافِ، وفي الجُثَث بعض الائتلاف وكذلك المناقير. ووجدناها تتشابه من طريق الزِّواج، ومن طريقْ الدُّعاء والغناء والنَّوح، وكذلك هي في القدودِ وصُورِ الأعناق، وقصب الريش، وصِيغَة الرُّؤوس والأرجل والسُّوق والبَراثِن.

والأجناسُ التي عددتم ليس يجمعها اسمٌ ولا بلدةٌ، ولا صورةٌ ولا زِواج. وليس بين الدِّيَكة وبينَ تلك الذُّكورةِ نسبٌ إلاَّ أنّها من الطَّير الموصوفة بكَثْرةِ السِّفاد، وأنَّ فراخَها وفراريجها تخرُج من بيضها كاسية كاسبَة. والبطُّ طائرٌ مثقل، وقد ينبغي أن تَجعلوا فرخَ البطَّة فَرُّوجاً، والأنثى دجاجةً والذَّكرَ ديكاً، ونحنُ نجد الحَمامَ، ونجد الوراشين، تتسافد وتتلاقح، ويجيء منها الراعبيُّ والوردانيُّ؛ ونجد الفَواخِت والقماريّ تتسافد وتتلاقح، مع ما ذكرنا من التشابهُ في تلك الوجوه. وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ بعضها مع بعْضٍ كالبُخْتِ والعراب ونتائج ما بينهما، وكالبراذين والعِتاق، وكلها خيلٌ، وتلك كلها إبل. وليس بين التَّدارج والقَبَج والحَجَلِ والدَّجاجِ هذه الأمورُ التي ذكرنا.

وعلى أنَّا قد وجدْنا الأطواقَ عامّةً في ذوات الأوضاحِ مِنَ الحَمام، لأنَّ فيها من الألوان، ولها من الشِّيات وأشكالِ وألوان الريش ما ليس لغيرها من الطَّير. ولَو احْتَجَجْنَا بالتَّسافُد دون التَّلاقُح، لكانَ لقائلِ مقال، ولكنَّا وجدنَاهَا تجمع الخَصلتين، لأنَّا قدْ نجدُ سُفهاءَ النّاس، ومن لا يتقَّذر من الناس والأحداث ومن تشتدُّ غلمته عند احتلامه، وَيَقلُّ طرُوقُه، وتطول عُزْبته؛ كالمعْزِب من الرِّعاء فإنّ هذه الطَّبَقةَ من النّاس، لم يَدَعُوا نَاقَةً، ولا بقرَةً، ولا شاةً، ولا أتاناً، وَلا رَمَكةً، ولا حِجْراً، ولا كلبةً، إلاَّ وقد وقعوا عليها.

ولَولاَ أَنَّ في نفوس النَّاس وشَهوَاتهم ما يدعو إلى هذه القاذورة، لَما وجدْتَ هذا العَمَلَ شائعاً في أهل هذه الصفة، ولَوْ جمعتَهم لجمعتَ أكثرَ من أهلِ بغْدَادَ والبصرة. ثم لم يُلقحْ واحد منهم شيئاً من هذه الأجناس على أنّ بعض هذه الأجناس يتلقى ذلك بالشَّهوةِ المفْرطة.

---

(1) ثمار القلوب (٦٨١).

ولقد خبَّرني من إخواني من لا أتَّهِمُ خَبَرَه أنّ مملوكاً كان لبعض أهل القَطيعة – أعني قطيعة الربيع – وكان ذلك المملوكُ يَكومُ بغلةً وأنّها كانت تودق[١] وتتلمّظ وأنّها في بعض تلك الوَقَعات تأخَّرَتْ وهو موعبٌ فيها ذكرَه تطلبُ الزيادة، فلم يَزَلْ المملوكُ يتأخّرُ وتتأخّرُ البغْلَة حتَّى أسندتْه إلى زاويةٍ مِنْ زَوايا الإصطبل، فَاضَّغَطْته حتّى بَرَدَ[٢]، فدخل بعضُ من دخل فرآه على تلك الحال فصاح بها فتنحّتْ وخرّ الغلام مَيِّتاً[٣].

وأخبرني صديقٌ لي قال: بلغني عن بِرْذَوْنٍ لزُرْقان المتكَلِّم، أنّهُ كان يدربخ[٤] للبغال والحَمير والبراذين حتى تكومَه، قال: فاقبلت يوماً في ذلك الإصطبل، فتناولت المجرفة[٥]، فَوَضعَتُ رأس عود المِجْرَفَة[٥] على مَرَاثه وإنّه لأكْثَرُ مِنْ ذراعٍ ونصف، وإنه لخَشِنٌ غليظٌ غير محكوك الرأس ولا ممُلّسه، فدفعْته حتى بلغ أقصى العود، وامتنع من الدُّخول ببدن المِجْرَفة. فحلَفَ أنّه ما رآه تأطّرَ ولا انثنى.

قال صاحب الحمام: فهذا فرق ما بيننا وبينكم.

٦٨٢ – [ما وصف به الحمام من الإسعاد وحسن الغناء]

ونَذْكر ما وُصِف به الحمامُ من الإسعاد، ومن حُسْن الغُناء والإطراب والنَّوح والشّجَا. قال الحسن بن هانئ[٦]: [من المنسرح]

إذا ثَنَتْه الغصون جلّلني ... فَينانُ مَا في أديمه جُوَبُ
تبيتُ في مأتمٍ حمائمه ... كما تُرِنُّ الفواقدُ السُّلُبُ
يهبُّ شوقي وشوقهُنَّ معًا ... كأنَّما يستخفُّنا طرب

وقال آخر[٧]: [من الطويل]

لقد هَتَفتْ في جُنحِ لَيل حمامةٌ ... على فَنَنٍ وهنًا وإنِّي لَنائمُ

---

(١) وَدَقَتْ: أرادت الفحل «القاموس: ودق».
(٢) برد: مات.
(٣) ورد هذا الخبر في رسائل الجاحظ ٢ / ٢٦٢.
(٤) دربخت الحمامة لذكرها: طاوعته للسفاد «القاموس: دربخ»
(٥) المجرفة: المكنسة «القاموس: جرف».
(٦) ديوان أبي نواس ٤.
(٧) الأبيات لنصيب في ديوانه ١٢٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣ / ٢٥٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٢٨٩، وهي لمجنون ليلى في ديوانه ٢٣٨، والظرف والظرفاء ١٤٠، وللمجنون أو لنصيب في الحماسة البصرية ٢ / ١٥٢، ولقيس بن الذريح في الحماسة المغربية ٩٢٩.

فقلتُ اعتذاراً عند ذاك وإنّني ... لنفسي مما قد سَمعتُ لَلائمُ
كذبتُ وبيتِ اللّهِ لو كنتُ عاشقًا ... لما سَبَقَتْني بالبُكَاءِ الحَمَائمُ

وقال نصيب[1]: [من الطويل]

ولو قَبْلَ مَبْكاها بَكَيتُ صبابَةً ... بسُعدي شَفيت النّفس قبلَ التندُّمِ
ولكنْ بَكَتْ قَبلي فهيَّج لي البُكا ... بُكَاها فقلتُ الفَضلُ للْمُتَقدِّمِ

وقال أعرابي: [من الطويل]

عليكِ سَلامُ اللّه قاطعَةَ القُوى ... على أنَّ قَلبي للفراق كليمُ
قريحٌ بتغريدِ الحَمامِ إذا بكت ... وإن هبَّ يومًا للجَنُوبِ نَسيم

وقال المجنونُ[2]، أو غيره: [من الطويل]

ولو لم يَهجْني الرائحون لَهاجَني ... حمائمُ ورقٌ في الدِّيار وُقوعُ
تجاوَبْنَ فاستبْكَيْنَ من كان ذا هوًى ... نوائحُ لا تجري لهنَّ دُموعُ

وقال الآخر[3]: [من الطويل]

ألا يا سَيَالات الدَّحائلِ باللِّوى ... عليكنَّ من بَين السَّيال سلامُ
أرَى الوَحْشَ آجالاً إليكنَّ بالضحى ... لهنَّ إلى أفيائكنَّ بُغامُ[4]
وإنِّي لمجلوبٌ لي الشَّوقُ كلما ... تَرَنَّمَ في أفنانكنَّ حَمامُ

وقال عمرُو بن الوليد[5]: [من الخفيف]

حال منْ دون أنْ أحلَّ به النَّأ ... يُ وصَرْفُ النّوى وحَرْبٌ عقامُ
فتبدَّلْتُ من مَسَاكنِ قَومي ... والقصو ر التي بها الآطام[6]
كلَّ قصرٍ مشَيّدٍ ذي أواسٍ ... تتغنّى على ذراه الحَمامُ[7]

---

(١) البيتان لنصيب في ديوانه ١٣٠، وله أو لعدي بن الرقاع في الحماسة البصرية ٢/١٤٢، ولعدي بن الرقاع في شرح الحماسة للمرزوقي ١٢٩٠، والكامل ٢/٩٩ (طبعة المعارف)، وبلا نسبة في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/٢٥١، والثاني بلا نسبة في الرسالة الموضحة ١٣٠.

(٢) البيتان للمجنون في ديوانه ١٩١، والحماسة البصرية ٢/١٩٨، ولقيس بن الذريح في ديوانه ١١٤، ولهما في أمالي القالي ١/١٣٦.

(٣) الأبيات بلا نسبة في ربيع الأبرار ٣/١٤٤، ومعجم البلدان ٢/٤٤٤ (دحائل).

(٤) آجال: جمع إجل، وهو القطيع من بقر الوحش «القاموس: أجل».

(٥) الأبيات لأبي قطيفة، عمرو بن الوليد في الأغاني ١/٢٨، وحماسة القرشي ٤٣٨.

(٦) في الأغاني «الآطام: الدور المسطحة السقوف».

(٧) في الأغاني «أواس: واحدها آسي، والآسي والأساس واحد».

وقال آخر[1]: [من الطويل]

ألا يا صَبَا نجدٍ متى هِجْتَ من نَجدِ ... فقد هاج لي مَسراكَ وجداً علَى وَجد
أأن هَتَفتْ ورقاء في رَوْنقِ الضُّحى ... عَلَى غُصُنٍ غضِّ النَّبات من الرَّنْد
بكيتَ كما يبكي الوليد ولم تكنْ ... جَليداً وأبْدَيتَ الذي لم تكنْ تُبدي
وقد زعموا أنّ المحبَّ إذا دنَا ... يُمَلُّ، وأنّ النّأي يشفي مِنَ الْوَجْد
بكلٍّ تَدَاوَيْنا فلم يَشْفِ ما بنا ... عَلَى أنّ قُربَ الدَّارِ خيرٌ من البُعْد

٦٨٣ - [أنساب الحمام]

وقال صاحب الحَمام: للحمام مجاهيل، ومعروفات، وخارجيَّات، ومنسوبات. والذي يشتملُ عليه دواوينُ أصحب الحمام أكثرُ من كتب النَّسب التي تضاف إلى ابن الكلبيِّ، والشّرقيِّ بن القطاميِّ، وأبي اليقظان، وأبي عُبيدة النحويِّ، بل إلى دَغْفَلِ ابن حنظلة، وابن لسان الحُمَّرَة، بل إلى صُحارٍ العبديِّ. وإلى أبي السَّطّاح اللّخميّ، بل إلى النَّخّار العذريِّ، وصُبح الطائيِّ، بل إلى مَنْجور بن غيلان الضّبيّ، وإلى سَطيح الذئبيّ، بل ابن شرِيَّة الجُرْهميِّ، وإلى زيد بن الكيِّس النَّمَريّ؛ وإلى كلٍّ نسَّابَةٍ راويَةٍ، وكلِّ متفنن علاّمة.

ووصف الهذيل المازنيُّ، مثنّى بنَ زُهير وحفظه لأنساب الحمام. فقال: واللّه لهو أنسَب من سعيد بن المسيّب، وقَتادة بن دعامة للنَّاس، بل هو أنسبُ من أبي بكر الصِّدّيق رضي اللّه عنه! لقد دخلت على رجلٍ أعْرفَ بالأمَّهاتِ المنْجبات من سُحَيم ابن حفص، وأعرفَ بما دخَلها من الهُجْنةِ والإقراف، من يُونسَ بنِ حبيب.

٦٨٤ - [مما أشبه فيه الحَمام الناس]

قال: وممَّا أشبَهَ فيه الحَمامُ النَّاسَ في الصُّور والشَّمائلِ ورقّة الطباع، وسُرعة القَبول والانقلاب، أنّك إذا كنتَ صاحبَ فراسة، فمرَّ بك رجالٌ بعضُهم كوفيٌّ، وبعضهم بَصريٌّ، وبعضهُم شاميٌّ وبعضُم يمانيٌّ، لم يَخْفَ عَليك أمُورهم في الصُّوَر والشمائلِ والقُدود والنَّغم أيّهم بصريٌّ، وَأيُّهم كوفيّ، وأيّهم يمانيٌّ، وَأيهم مدنيٌّ وكذلك الحمام؛ لا تَرَى صاحبَ حَمامٍ تخفى عليه نسب الحمام وجنسها وبلادُها إذا رآها.

---

(١) الأبيات لابن الدمينة في ديوانه ٨٥، ولابن الطثرية في ديوانه ٦٨ - ٦٩، ولمجنون ليلى في ديوانه ١١٢ - ١١٣.

٦٨٥ - [ثمن الحمام وغيره][1]

وللحمام من الفضيلة والفخْر، أن الحمام الواحدَ يباعُ بخمسمائة دينار، ولايبلغ ذلك بازٍ ولا شاهينٌ، ولا صقرٌ ولا عُقاب، ولا طاوس، ولا تدْرجٌ ولا ديكٌ، ولا بعيرٌ ولا حمارٌ، ولا بغلٌ. ولو أردْنَا أن نحقِّقَ الخبرَ بأنَّ برذونًا أو فرَسًا بيع بخمسمائة دينار، لما قدَرْنا عليه إلاّ في حديث السَّمَر.

وأنت إذا أردْتَ أن تتعرَّف مبلغ ثمنِ الحمام الذي جاء من الغايَة، ثمَّ دخلْتَ بغدادَ والبصرة وجدْتَ ذلك بلا معاناة. وفيه أنَّ الحمام إذا جاء من الغاية بيع الفَرخُ الذَّكرُ من فراخ بعشرين ديناراً أو أكثر، وبيعَت الأنثى بعشرة دَنَانير أو أكثر، وبيعَت البيضة بخمسة دنانير، فيقوم الزَّوج منها في الغَلَّة مقام ضيعة، وحتى ينهَضَ بمؤنَة العِيال، ويَقضيَ الدَّين، وتبنى من غلاّته وأثمان رقابه الدُّورُ الجياد، وتبتاع الحوانيتُ المَغلَّة. هذا؛ وهي في ذلك الوقتِ مَلْهى عجيبٌ، ومنظرٌ أنيق، ومعتَبَرٌ لمنْ فكّر، ودليلٌ لمن نظرَ.

٦٨٦ - [عناية الناس بالحمام]

ومن دخل الحَجَر ورأى قصُورَها المبنيَّة لها بالشَّامات وكيف اختزانُ تلك الغلاَّت، وحفْظُ تلك المؤونات؛ ومن شهد أربابَ الحمام. وأصحابَ الهُدَّى وما يحتملون فيها من الكُلف الغلاظ أيَّامَ الزَّجْل، في حملانها على ظهور الرِّجال، وقبل ذلك في بُطون السفن، وكيف تُفْرَدُ في البيوت، وتجمع إذا كان الجمع أمثل، وتفرَّقُ إذا كانت التَّفرقَةُ أمثل وكيف تُنقلُ الإنَاثُ عن ذُكورتها، وكيفَ تنقَلُ الذُّكورَةُ عن إناثها إلى غيرها، وكيف يُخافُ عليها الضَّوَى[2] إذا تقاربت أنسابُها، وكيف يُخاف على أعراقِها من دخول الخارجيّات فيها، وكيف يحتاط في صحَّة طرْقها ونجْلها؛ لأنَّهُ لا يُؤْمَن أن يقمُط الأنثى ذكرٌ من عُرْضِ الحمام، فيضربَ في النَّجلِ بنصيبٍ، فتعتريه الهُجنة - والبيضة عند ذلك تنسب إلى طَرْقها. وهم لا يحوطون أرحام نسائهم كما يُحوطون أرحامَ المنْجبات من إناث الحمام. ومن شهد أصحاب الحمام عند زَجْلها من الغاية، والذين يعلّمون الحمامَ كيف يختارون لصاحب العلامات، وكيفَ يتخيَّرُون الثِّقة وموضعَ الصِّدقِ والأمانَةِ، والبُعدِ من الكَذِب والرّشوة، وكيفَ يتوخّوْن

---

(١) ربيع الأبرار ٥ / ٤٤٧.

(٢) الضوى: الهزال والضعف «القاموس: ضوى»

ذا التَّجربَة والمعرفة اللَّطيفة، وكيف تسخو أنفسُهمْ بالجعالة الرَّفيعة، وكيف يختارون لحملها من رجال الأمانة والجلَد والشَّفَقَة والبَصَر وحُسْنِ المعرفَة - لعَلم عند ذلك صاحب الدِّيك والكلب أنَّهما لا يجريان في هذه الحلبة، ولا يتعاطيان هذه الفضيلة.

٦٨٧ - [خصائص الحمام]

قال: وللحمام من حسنِ الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثَبات الحفْظ والذِّكرْ، وقوّة النِّزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه، ما ليس لشَيء. وكفاكَ اهتداءً ونزاعًا أن يكون طائرٌ من بهائم الطير، يجيء من بَرْغَمَة، لا بَلْ من العليق، أو من خَرشنة[١] أوْ من الصفصاف[٢]، لا بَلْ من البَغْراس[٣]، ومن لؤلؤة[٤].

ثمَّ الدَّليلُ على أنَّه يَستدلُّ بالعقلِ والمعرفة، والفِكرةِ والعناية أنَّه إنما يجيء من الغاية على تدريج وتَدْريبٍ وتنزيل. والدليل عَلَى علم أربابه بأنّ تلك المقدَّمات قد نَجَعنَ فيه، وعملن في طِباعه، أنّهُ إذا بلغ الرَّقَّة غمَّروا به بكَرّةٍ إلى الدَّرب وما فوقَ الدَّرْب من بلاد الرُّوم، بل لا يجعلون ذلك تغميراً؛ لمكان المقدمات والترتيبات التي قد عُمِلت فيه وحَذّقته ومَرَّنته.

ولو كان الحمام ممَّا يُرسَل باللّيل، لكان ممَّا يستدلُّ بالنُّجوم؛ لأنّا رأيناه يلزَم بَطنَ الفُرات، أو بطنَ دجلة، أو بُطونَ الأودية التي قد مرَّ بها، وهو يرى ويُبصرُ ويفهَمُ انحدار الماء. ويعلمُ بَعْدَ طول الجوَلانِ و بَعْدَ الزِّجال، إذا هو أشرف علَى الفرات أو دِجلة، أنّ طرِيقَه وطريق الماء واحد، وأنهُ ينبغي أن ينحدر مَعهُ.

وما أكثرَ ما يستدلُّ بالجَوَادِّ من الطُّرُق إذا أعيتْهُ بطونُ الأودية. فإذا لم يَدْرِ أمُصْعِدٌ أمْ مُنْحَدِرٌ، تعرَّفَ ذلك بالرِّيح، ومواضعِ قُرْصِ الشمس في السماء. وإنَّما يحتاج إلى ذلك كلِّه إذا لم يكُن وَقَعَ بعد على رسم يعمَلُ عليه فربَّما كَرّ حين يزجل بهِ يميناً وشِمالاً، وجنوبًا وشَمالاً، وصَباً ودَبُوراً - الفراسِخَ الكثيرةَ وفوقَ الكثيرة.

---

(١) خرشنة: بلد قرب ملطية من بلاد الروم. معجم البلدان ٢ / ٣٥٩.

(٢) الصفصاف: كورة من ثغر المصيصة، والمصيصة: مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم، تقارب مدينة طرسوس معجم البلدان ٣ / ٤١٣، ٥ / ١٤٥.

(٣) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى انطاكية من حلب. معجم البلدان ١ / ٤٦٧.

(٤) لؤلؤة: قلعة قرب طرسوس. معجم البلدان ٥ / ٢٦.

٦٨٨ - [الغُمر والمجرّب من الحمام]

وفي الحمام الغُمْر والمجرّب، وهم لا يُخاطِرون بالأغمار لوجهين: أحدهما أن يكون الغُمْر عريفًا فصاحبُه يضنُّ به، فهو يريدُ أن يدرِّبه ويمرِّنَه ثمَّ يكلفه بعد الشيء الذي اتّخذه له، وبسببه اصطنعه واتخذهُ. وإمَّا أن يكونَ الغمْر مجهولاً، فهو لا يتعنّى ويُشقي نفسَه، ويتوقَّعُ الهِدَايَةَ من الأغمار المجاهيل.

وخَصلةٌ أخرى: أنّ المجهولَ إذا رَجَعَ مع الهدَّى المعروفات، فحملهُ معها إلى الغاية فجاء سابقًا، لم يكنْ له كبير ثمنٍ حتَّى تتلاحق به الأولاد. فإنْ أنْجَبَ فيهنَّ صار أبًا مذْكوراً وصار نَسَباً يرجَع إليه، وزاد ذلك في ثمنه.

فأمَّا المجرَّب غير الغمر، فهو الذي قد عرَّفوه الوُرودَ[1] والتحَصُّب؛ لأنّه متى لم يقدرْ عَلى أن ينقضّ حتَّى يشربَ الماء من بطون الأودية والأنهار والغُدْران، ومناقع المياه، ولم يتحَصّب بطلب بُزورِ البراريِّ، وجاعَ وعطش – التمسَ مواضعَ الناس. وإذا مرَّ بالقرى والعُمْران سقط، وإذا سقط أُخذ بالبَايْكير[2] وبالقفَّاعة[3]، وبالملْقَف[4] وبالتَّدْبيق[5] وبالدُّشَاخ[6]؛ ورمى أيضاً بالجُلاهق[7] وبغير ذلك من أسبابِ الصَّيد.

والحمام طائرٌ مُلقًّى غير مُوَقًّى[8]، وأعداؤه كثير، وسباع الطّير تطلُبه أشدّ الطلب. وقد يترفّع مع الشّاهين، وهو للشاهين أخوَف. فالحَمامُ أطْيَرَ منْهُ ومن جميعِ سباعِ الطير، ولكنَّهُ يُذْعرُ فيجهَلُ بابَ المَخْلَص ويعتريه ما يعتري الحمار من الأسدِ إذا رآه، والشاةَ إذا رأت الذِّئب والفارة إذا رأت السِّنَّور.

٦٨٩ - [سرعة طيران الحمام]

والحمامُ أشدُّ طيرانًا من جميع سباع الطير، إلاَّ في انقضاض وانحدار؛ فإنَّ تلك

---

(١) الورود: ورود الماء «القاموس: ورد».

(٢) البايكير: ما يصاد به الطير.

(٣) القفاعة: شيء يتخد من جريد النخل لصيد الطائر «القاموس: قفع».

(٤) تلقف الشيء: تناوله «القاموس: لقف».

(٥) الدبق: غراء يصاد به الطير «القاموس: دبق».

(٦) آلة من آلات الصيد.

(٧) الجلاهق: كلمة فارسية تعني الطين المدور الذي يرمى به عن القوس. انظر المعرب للجواليقي ٤٢.

(٨) انظر الفقرة (٦٣٥).

تنحطّ انحطاط الصخور و متى التقت أمَّةٌ من سباع الطَّير أوْ جُفالةٌ[1] من بهائم الطير، أو طِرْنَ عَلَى عَرَقة[2] وخيطٍ ممدود، فكلُّهَا يعتريها عند ذلك التَّقصير عما ما كانت عليه، إذا طارت في غير جماعة.

ولن ترى جماعة طير أكثرَ طيرانًا إذا كَثُرْنَ من الحمام؛ فإنّهُنّ كلما التففن وضاق موضعُهنَّ كان أشدّ لطيرانهنَّ، وقد ذكر ذلك النَّابغة الذُّبيانيُّ في قوله[3]: [من البسيط]

وَاحْكمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إذ نَظَرتْ ... إلى حمامٍ شراعٍ واردِ الثَّمد[4]
يحفُّه جانبًا نيقٍ ويَتْبَعُهُ ... مثلُ الزُّجاجة لم تُكْحَلْ من الرَّمد[5]
قال: ألا لَيتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامَتا ونصفُهُ فَقَد[6]
فحسَبوه فألفوه كما حَسَبَتْ ... تسعًا وتسْعينَ لم تنقُصْ ولم تزد
فكمَّلت مائةً فيها حمامتُها ... وأسْرَعَتْ حَسْبَةً في ذلك العَدَد

قال الأصمعيُّ: لما أراد مَديحَ الحاسب وسرعة إصابته، شدَّدَ الأمرَ وضيَّقه عليه؛ ليكون أحمدَ له إذا أصاب؛ فجعلَهُ حَزَر طيراً، والطَّيرُ أخفُّ من غيره، ثمَّ جعله حمامًا والحمامُ أسرع الطَّيرِ، وأكثرُها اجتهاداً في السرعة إذا كثر عددهنَّ؛ وذلك أنّه يشتدُّ طيرانُهُ عند المسابقة والمنافسة. وقال: يحفّه جانبا نيقٍ ويتبعه، فأراد أنّ الحمام إذا كان في مضيقٍ من الهواء كان أسرَعَ منه إذا اتّسع عليه الفضاء.

٦٩٠ - [غايات الحمام]

وصاحب الحَمام قد كان يدرِّب ويمرِّن ويُنزِل في الزِّجال، والغايَة يومئذٍ واسط[7]. فكيف يصنَع اليومَ بتعريفه الطَّريق وتعريفهِ الوُرود والتحصُّب[8]، مع بُعد الغاية؟!

---

(١) الجفالة: الجماعة من كل شيء « القاموس: جفل ».

(٢) العرقة: السطر من الطير وكل مصطفّ « القاموس: عرق ».

(٣) ديوان النابغة الذبياني ٢٣ - ٢٥، ومنه استقيت شرح الأبيات التالية.

(٤) احكم: كن حكيماً في أمرك، مصيباً في الرأي، ولم يرد الحكم في القضاء. فتاة الحي: زرقاء اليمامة. الشراع: القاصدة إلى الماء. الثمد: الماء القليل.

(٥) النيق: الجبل. وقوله « وتتبعه مثل الزجاجة »، أي عينها صافية كصفاء الزجاجة. وقوله « لم تكحل من الرمد »، أي لم يصبها رمد فتكحل.

(٦) فَقَد: أي حسبي.

(٧) واسط: اسم لعدة مواضع، أعظمها وأشهرها واسط الحجاج، سميت بذلك لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة. معجم البلدان ٥ / ٣٤٧.

(٨) تحصّب الحمام: خرج إلى الصحراء لطلب الحب « القاموس: حصب ».

٦٩١ - [ما يختار للزّجْل من الحَمام]

والبغداديون يختارون للزِّجال من الغايةِ الإناث، والبصريّون يختارون الذُّكور فحجَّة البغداديّين أن الذَّكر إذا سافر وبَعُد عهده بقَمْط الإناث، وتاقَتْ نفسُه إلى السِّفاد، ورأى أنثاه في طريقه، ترك الطَّلبَ إن كان بعُد في الجوَلان؛ أو ترك السَّيرَ إن كان وقع على القَصْد، ومالَ إلى الأنثى وفي ذلك الفسادُ كلُّه.

وقال البَصريُّ: الذَّكرُ أحنُّ إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشدُّ متْنًا وأقوى بدَنًا، وهو أحسنُ اهتداء. فَنحنُ لا نَدع تقديمَ الشيء القائم إلى معنًى قد يعرضُ وقد لا يعرض.

٦٩٢ - [نصيحة شدفويه في تربية الحَمام]

وسمعتُ شدفويه السلائحي من نحو خمسين سنة، وهو يقول لعبد السلام بن أبي عمار: اجعل كعبة حمامك في صَحْن دارك، فإنَّ الحَمامَ إذا كان متَى خرج من بيته إلى المعلاة لم يصل إلى معلاته إلاّ بجمع النَّفس والجناحين، وبالنهوضِ ومكَابدَةِ الصعود - اشتدَّ متْنُه، وقويَ جناحُه ولحمه. ومتى أراد بيتَه فاحْتاج إلى أن ينتكس ويجيء منقضّاً كان أقوَى على الارتفاع في الهواءِ بعد أن يروى. وقد تعلمون أَنَّ الباطنيِّين أشدّ متنًا من الظاهريِّين، وأنّ النِّقرِسَ لا يُصيب الباطنيَّ في رجله ليس ذلك إلاّ لأنَّه يصعد إلى العلالي فوق الكَناديج[١] درجةً بعد درجة، وكذلك نزوله ، فلو دربَّتم الحَمامَ على هذا التَّرتيب كانَ أصوب. ولا يعجَبُني تَدْريب العاتق وما فوق العاتق[٢] إلاّ من الأماكنِ القريبة؛ لأن العاتقَ كالفتاةِ العاتق، وكالصبّي الغرير، فهو لأيَعْدَمُه ضعفُ البدن، وقلّةُ المعرفة، وسوء الإلف. ولا يُعجبُني أن تتركوا الحمام حتّى إذا صار في عدد المسانّ واكتهل، وولَدَ البطونَ بَعْدَ البطونِ، وأخذ ذلك من قوّة شبابِه، حملتموه على الزَّجْل، وعلى التَّمْرين، ثمَّ رميتم به أقصى غايةٍ لاً، ولكنَّ التَّدريب مع الشباب، وانتهاء الحِدَّة، وكمال القوَّة، من قبل أن تأخذ القوّة في النُّقصان. فهو يلقَّن بقربه من الحداثة، ويُعرَّف بخروجه من حدِّ الحداثة. فابتدئُوا به التّعليمَ والتمْرينَ في هذه المنزلة الوُسطى.

---

(١) في القاموس: (الكُنْدوج: شبه المخزن؛ معرب كندو، وكندجة الباني في الجدران والطيقان، مولّدة). «القاموس: كندج».

(٢) العاتق من الحمام: فرخه ما لم يستحكم، أو فرخ الطائر إذا طار واستقل «القاموس: عتق».

٦٩٣ - [الوقت المناسب لتمرين فراخ الحمام]

وهُمْ إذا أرادوا أن يمرِّنوا الفراخَ أخرجُوها وهي جائعة، حتى إذا ألقوا إليها الحبَّ أسرعت النزول. ولا تُخْرَجُ والرِّيح عاصف، فتخرج قبل المغربِ وانتصاف النهار، وحُذّاقهم لا يخرجونها مع ذكورة الحمام؛ فإنَّ الذُّكورة يعتريها النَّشاط والطَّيران والتَّباعُدُ ومجاوزة القبيلة. فإن طارت الفراخُ معها سقطتْ على دور الناس. فرياضتها شديدة، وتحتاج إلى معرفة وعنايَة، وإلى صبرٍ ومُطاوَلة؛ لأنّ الذي يُراد منها إذا احتيج إليه بعد هذه المقدّمات كان أيضًا من العجَب العجيب.

٦٩٤ - [اختيار الحمام]

وحدَّثني بعضُ من أثقُ به أنّ يَعقوبَ بن داود، قال لبعض مَنْ دَخَلَ عليه - وقد ذهب عنِّي اسمُه ونسيتُه، بَعْدَ أَنْ كنْتُ عرفته - : أَما تَرَى كيُ أخلَف ظنُّنا وأخطأ رأينُا، حتّى عمَّ ذلك ولم يخصّ ؟! أما كان في جميع من اصطنعناه واخترناه، وتفرَّسَنا فيه الخير وأردنَاه به - واحدٌ تكفينا معرفته مؤنَةَ الاحتجاج عنه، حتَّى صرْتُ لا أقرّع إلاّ بهم، ولاَ أعابُ إلاَّ باختيارهم!! قال: فقال له رجل إنّ الحمام يُختارُ من جهة النَّسَب، ومن جهة الخلْقة. ثم لا يرضى له أربابُه بذلك حتى ترتِّبه وتنزِّلهُ وتُدَرِّجُه، ثم تُحمَل الجماعةُ منه بعد ذلك التّرتيب والتَّدْريب إلى الغاية، فيذهبُ الشَّطرُ ويرجعُ الشطر، أو شبيهٌ بذلك أو قريبٌ من ذلك. وأنتَ عَمدْتَ إلى حمامٍ لم تنظرْ في أَنْسابِها ولَم تتأمَّلْ مَخيلة الخير في خلْقها ثمَّ لم ترْض حتى ضربْتَ بها بكُرَّةٍ واحدة إلى الغاية، فليس بعَجَبٍ ولا مُنْكَرٍ ألاّ يرجعَ إليكَ واحدٌ منها، وإنما كان العَجبُ في الرُّجوع. فأمّا في الضّلال فليس في ذلك عجبٌ. وعلى أنّه لو رجع منها واحدٌ أو أكثرُ من الواحدِ لكان خطؤك موفّرًا عليك، ولم ينتقصْهُ خطأُ من أخطأ؛ لأنّه ليس من الصواب أن يجيء طائرًا من الغايةِ على غير عِرْقٍ وعلى غير تدريب.

بـــاب
ومن كرم الحَمام الإلف والأنْس والنِّزاعُ والشّوق

٦٩٥ - [صدق خلق الحمام]

وذلك يَدُلُّ على ثبات العهد، وحفْظ ما ينبغي أن يُحفَظ، وصوْن ما ينبغي أن يصان وإنه لخلق صِدْق في بني آدم فكيفَ إذا كان ذلك الخلقُ في بعض الطير.

وقد قالوا[١]: عمَّرَ اللّه البُلدان بحبِّ الأوطان.

قال ابن الزُّبير[٢]: ليس النَّاسُ بشيء مِنْ أقسامهم أقنعَ منهم بأوطانهم!

وأخبر اللّه عزَّ وجلَّ عن طبائع النَّاس في حبِّ الأوطان، فقال: ﴿قَالُوا وَمَا لنَا أَلاَّ نقَاتلَ في سَبيلِ اللّه وقدْ أُخْرِجْنَا من ديَارنَا وَأَبْنَائنَا﴾[٣] وقال: ﴿ولَوْ أنّا كَتبْنَا عَلَيْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ما فَعَلوهُ إلاَّ قَليلٌ منْهُمْ﴾[٤].

وقال الشاعر[٥]: [من البسيط]

وكنتُ فيهمْ كممْطُورٍ ببَلْدتهِ   فسُرَّ أَنْ جَمعَ الأوْطَانَ والمطَرَا

فتجدُهُ يُرْسَل منْ موضعٍ فيجيء، ثمَّ يخرج من بيته إلى أضيق موضع وإلى رخام ونُقان[٦] فيرسل من أبعد من ذلك فيجيء. ثم يصنَع به مثلُ ذلك المرار الكثيرة، ويزاد في الفراسخ، ثم يَكون جزاؤه أن يغمَّر به من الرِّقّة إلى لؤلؤة[٧] فيجيء ويسترَق

---

(١) هذا القول لعمر بن الخطاب في رسائل الجاحظ ٢/٣٨٩، وللعبدي في ١/٦٤، وبلا نسبة في ٤/١١٠.

(٢) رسائل الجاحظ ٤/١١٠، ١/٦٤.

(٣) ٢٤٦/ البقرة: ٢.

(٤) ٦٦/ النساء: ٤.

(٥) البيت بلا نسبة في رسائل الجاحظ ٢/٤٠٦، وديوان المعاني ٢/١٩٠.

(٦) نقان: بضم أوله ويكسر، اسم جبل في بلاد أرمينية معجم البلدان ٥/٢٩٧.

(٧) لؤلؤة: قلعة قرب طرسوس. معجم البلدان ٥/٢٦.

من منزل صاحبه فيقص، ويَغْبرُ هناك حولاً وأكثَرَ من الحول، فحينَ ينبت جناحهُ يحنُّ إلى إلفه وينزع إلى وطنه، وإن كان الموضع الثَّاني أنفعَ له،وأنعمَ لباله. فيَهبُ فضْلَ ما بينهما لموضعِ تربيته وسكنه، كالإنسان الذي لو أصاب في غَير بلادهِ الرِّيف لم يقعْ ذلك في قلبه، وهو يعالجهم على أن يُعطَى عُشْرَ ما هو فيه في وطنه.

ثمَّ ربَّما باعه صاحبهُ، فإذا وجد مَخْلَصًا رجع إليه، حتَّى ربما فَعَلَ ذلك مراراً. وربَّما طار دَهْرَهُ وجالَ في البلاد، وألفَ الطّيران والتقلُّبَ في الهواء، والنَّظَرَ إلى الدنيا، فيبدو لصاحبه فيقصُّ جناحَه ويُلقيه في ديماس[1]، فينبت جناحُهُ، فلا يَذْهبُ عنه ولا يتغيَّر له. نَعَمْ، حَتَّى ربّما جَدَفَ[2] وهو مقصوصٌ، فإمَّا صار إليهِ، وإمّا بلغَ عذراً.

٦٩٦ - [قص جناح الحمام]

ومتى قصَّ أحد جناحيه كان أعجزَ له عن الطّيران، ومتى قصَّهما جميعًا كان أقوى له عليه، ولكنهُ لا يبْعد، لأنّه إذا كان مقصوصًا من شقٍّ واحد اختلفَ خلقه، ولم يعْتدل وزنه، وصارَ أحدُهما هوائيًا والآخرُ أرضيًا فإذا قصَّ الجناحان جميعًا طار، وإن كان مقصوصًا فقد بلغ بذلك التعديل من جناحيه أكثر مما كان يبلغ بهما إذا كان أحدُهما وافيًا والآخرُ مبتوراً.

فالكلبُ الذي تَدَّعون له الإلف وثبات العَهد، لا يبلغُ هذا، وصاحبُ الدِّيك الذي لايفخرُ للدِّيك بشيءٍ من الوفاء والحفاظ والإلف، أحقُّ بألاّ يعرِض في هذا الباب.

قال: وقد يكون الإنسان شديدَ الحضْر. فإذا قُطعَتْ إحدى يديه فأراد العَدْو كان خطوهُ أقصر، وكان عن ذلك القَصد والسَّننِ أذهبَ، وكانت غايَةُ مجهوده أقربَ.

٦٩٧ - [حديث نباتَةَ الأقطع]

وخبّرني كم شئتَ[3]، أنّ نباتَة الأَقطع وكان منْ أَشدَّاء الفتيان وكانت يدُه قطعت من دُوينِ المنكب، وكان ذلك في شقِّه الأيسر؛ فكان إذا صار إلى القتالِ وضرَبَ بسيفه، فإن أصاب الضَّريبةَ ثَبَتَ، وإن أَخطأ سقطَ لوجهه؛ إذ لم يكنْ جَناحه الأيسر يُمسكه ويثقّله حتى يعْتَدلَ بَدَنُهُ.

---

(١) الديماس: الكنُّ «القاموس: دمس».

(٢) جدف الطائر وهو مقصوص، كأنه يرد جناحيه إلى خلفه «القاموس: جدف».

(٣) هذه العبارة يستخدمها الجاحظ كثيراً، انظر رسائله ٢ / ٢٦٤.

٦٩٨ - [أجنحة الملائكة]

وقد طعن قومٌ في أجنحة الملائكة. وقد قال الله تعالى: ﴿الحَمْدُ للّٰه فاطِرِ السَّموَاتِ والأرض جَاعلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولي أَجْنحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يشَاءُ﴾[1] وزعموا أنَّ الجناحين كاليدين، وإذا كان الجناح اثنين أو أرْبَعَة كانتْ معتدلة، وإذا كانت ثلاَثة كان صاحبُ الثَّلاثة كالجادفُ من الطَّير[2]، الذي أحدُ جناحَيه مقصوص، فلا يستطيع الطَّيران لعدم التعديل. وإذا كان أحدُ جناحيه وافيًا والآخرُ مقصوصًا، اختلفَ خَلْقُه وصار بَعْضُه يذهب إلى أسفْلَ والآخر إلى فوق.

وقالوا: إنَّما الجناحُ مثل اليد، ووجدنا الأيديَ والأرجل في جميع الحيوان لا تكون إلاَّ أزواجًا. فلو جعلتمْ لكُلِّ واحدٍ منهم مائَة جَناحٍ لم نُنْكِرْ ذلك. وإن جعلتموها أنقصَ بواحدٍ أو أكثرَ بواحدٍ لم نجوِّزه.

قيل لهم: قد رأينا من ذوات الأربع ما ليسَ له قَرن، ورأينا ما له قرْنان أملسان، ورأينا ما له قرنان لهما شُعَبٌ في مقاديم القرون، ورأينا بعضَها جُمًّا ولأخَواتِها قرون، ورأينا منها ما لا يقال لها جُمٌّ لأنَّها ليست لها شكلُ ذوات القرون، ورأينا لبعض الشاء عدَّةَ قرون نَابتةٍ في عظم الرَّأس أزواجًا وأفرادًا، ورأينا قرُونًا جُوفًا فيها قرون، ورأينا قَرونًا لا قرونَ فيها، ورأيناها مُصمتَة، ورأينا بعضَها يتصُل قَرْنُه في كلِّ سنة، كما تسلخ الحيَّةُ جلدَها، وتنفضُ الأشجارُ ورقها، وهي قُرون الأيائلِ، وقد زعموا أنَّ للحمار الهنديِّ[3] قرنًا واحداً.

٦٩٩ - [ضروب من الطير]

وقد رأينا طائرًا شَديدَ الطيران بلا ريشٍ كالخُفاش، ورأينا طائرًا لايطير وهو وافي الجَناح، ورأينا طائرًا لا يمشي وهو الزَّرزور. ونحن نُؤْمن بأنَّ جعفرًا الطَّيارَ ابنَ أبي طالب، له جناحان يطير بهما في الجِنان، جُعلا له عوضًا من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين في يوم مؤتة[4]. وغيرَ ذلك من أعاجيب أصناف الخلق.

---

(١) ١/فاطر: ٣٥.

(٢) الجادف: الطائر الذي يطير وهو مقصوص «القاموس: جدف».

(٣) الحمار الهندي: هو الكركدن، وهو عدو الفيل، يقال إنه متولد من بين الفرس والفيل. حياة الحيوان ٣/٢٤٣.

(٤) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وبها كان يوم مؤتة في السنة الثامنة للهجرة بين المسلمين والروم. انظر أيام العرب في الإسلام ٨٨ - ٩١، ومعجم البلدان ٥/٢١٩ (مؤتة).

فقد يستقيم - وهو سهلٌ جائزٌ شائع مفهوم، ومعقول قريبٌ غير بعيد أن يكون إذا وُضع طباع الطائر على هذا الوضع الذي تراه ألاّ يطير إلاّ بالأزواج. فإذا وُضع على غير هذا الوَضع، وركِّب غيرَ هذا التَّركيب صارت ثلاثة أجنحة وَفُوق تلك الطبيعة. ولو كان الوَطواط في وضْعِ أخلاطه وأعضائه وامتزاجاته كسائر الطير، لما طار بلا ريش.

٧٠٠ - [الطير الدائم الطيران]

وقد زعم البَحْريّون أنّهم يعرفون طائرًا لم يسقط قطّ، وإنما يكون سقوطه من لدُنْ خروجهِ من بيضه إلى أن يتمَّ قصبُ ريشه[١]، ثم ّ يطير فليس له رِزق إلاّ من بعوض الهواء وأشباه البَعوض؛ إلاّ أنَّهُ قصيرُ العمر سريعُ الانحطام.

٧٠١ - [بقية الحديث في أجنحة الملائكة]

وليس بمستنكر أن يُمزَج الطائر ويُعْجَن غيرَ عجْنه الأوَّل فيعيش ضعفَ ذلك العُمر. وقد يجوز أيضًا أنْ يكونَ موضعُ الجَناح الثالث بين الجَناحين، فيكون الثالث للثاني كالثاني للأوّل، وتكون كلٌّ واحدةٍ من ريشةٍ عاملةً في التي تليها من ذلك الجسم فتستوي في القوى وفي الحِصص.

ولعَلَّ الجَناح الذي أنكره الملحدُ الضَّيِّقُ العَطَن أن يكونَ مركزُ قوادمِهِ في حاقِّ[٢] الصُّلب.

ولعَلَّ ذلك الجناح أن تكون الريشة الأولى منه معينة للجنَاح الأيمن والثانية معينة للجناح الأيسر، وهذا مما لايضيقُ عنه الوهم، ولا يعجز عنه الجواز.

فإذا كان ذلك ممكنًا في معرفة العبد بما أعاره الربُّ جلّ وعزَّ، كان ذلك في قدرة اللّه أجوز. وما أكثر من يضيقُ صدرُه لقلَّة علمه!

٧٠٢ - [أعضاء المشي لدى الحيوان والإنسان]

وقد علموا أنَّ كلّ ذي أربعٍ فإنّه إذا مَشى قدّم إحدى يديه، ولا يجوز أن يستعمل اليَد الأخرى ويقدِّمها بَعْدَ الأولى حَتّى يستعمل الرِّجل المخالفة لتلك اليد: إنْ كانت اليدُ المتقدّمة اليمنى حرَّكَ الرِّجْل اليسرى، وإذا حَرّك الرجل اليسرى لم

---

(١) ربيع الأبرار ٥/٤٥٦.

(٢) حاق الصلب: وسطه.

يحرِّك الرِّجْل اليمنى - وهو أقْرَبُ إليها وأشبه بها - حَتَّى يحرِّك اليَدَ اليسرى. وهذا كثير.

وفي طريقٍ أخرى فقد يقال: إنَّ كلَّ إنسانٍ فإنما رُكْبَته في رِجله، وجميعَ ذوات الأربَع فإنَّما رُكبها في أيديها. وكلُّ شيء ذي كَفٍّ وبَنان كالإنسان، والقرد، والأسد، والضَّبّ، والدُّب، فكفُّه في يده. والطَّائر كفّه في رجله.

٧٠٣ - [غرائب تصرفات بعض الناس]

١ - [استعمال الإنسان رجليه ما كان يعمله بيديه]

وما رأيتُ أحداً ليس له يَدٌ إلاّ وهو يعمل برجليه ما كان يعمل بيديه، وما أقف على شيء من عمل الأيدي إلاّ وأنا قد رأيتُ قوماً يتكلّفونه بأرجلهم.

ولقد رأيتُ واحداً منهم راهنَ على أن يُفرِغ برجليه ما في دَسْتيجة[١] نبيذ في قنانيَّ رِطليَّات وفقَّاعيّات فراهنوه، وأزعجني أمرٌ فتركته عند ثقات لا أشك في خبرهم، فزعموا أنّه وَفَى وزاد. قلت: قد عرَفتُ قولَكم «وفى» فما معنى قولكم «زاد» قالوا: هو أنّه لو صبَّ من رأس الدّستيجة حوالي أفواه القنانيّ كما يعجز عن ضَبطه جميعُ أصحاب الكمال في الجوارح، لما أنكرنا ذلك. ولقد فرَّغ ما فيها في جميع القناني فَما ضيّعَ أوقيَّةً واحدة

٢ - [قيام بعض الناس بعمل دقيق في الظلام]

وخبَّرني الحزَاميُّ عن خليل أخيه، أنّه متى شاء أن يَدْخُلَ في بيت ليلاً بلا مصباح، ويفرغ قربة في قنانيّ فلا يصبُّ إستاراً[٢] واحداً فعله.

ولو حكى لي الحزاميُّ هذا الصَّنيعَ عن رجل وُلِد أعمى أو عمي في صباه، كان يعجبني منه أقلَّ. فأمّا من تعوّد أن يفعل مثل ذلك وهو يبصر فما أشدَّ عليه أن يفعله وهو مغمَض العينين. فإن كان أخوه قد كان يقدر على ذلك إذا غمَّض عينيه فهو عندي عجب، وإن كان يبصر في الظلمة فهو قد أشبه في هذا الوجه السِّنّورَ والفأر، فإنَّ هذا عندي عجبٌ آخر وغرائب الدُّنيا كثيرة عند كلّ من كان كلفًا بتَعرافها، وكان له في العلم أصلٌ، وكان بينه وبين التبيُّنِ نَسَب.

---

(١) الدستيج: آنية تحول باليد، معرب دستي. «القاموس: دستج».

(٢) الإستار: من الأوزان يساوي أربعة مثاقيل ونصف «القاموس: ستر».

٣ - [إنكار الناس للغرائب]

وأكثر الناس لا تجدُهم إلاّ في حالتين: إمّا في حالِ إعراض عن التبيُّن وإهمال للنّفس، وإمَّا في حالِ تكذيبٍ وإنكارٍ وتسرّع إلى أصحاب الاعتبار وتتبُّعِ الغرائب، والرغبةِ في الفوائد. ثمَّ يرى بعضهم أنَّ له بذلك التكذيب فضيلةً، وأنّ ذلك بابٌ من التوقِّي، وجنسٌ من استعظام الكذب، وأنّه لم يكن كذلك إلاّ من حاقِّ الرَّغبة في الصِّدق. وبئس الشيء عادة الإقرار والقبول. والحقُّ الذي أمر اللّه تعالى به ورغب فيه، وحثَّ عليه أن ننكر من الخبر ضربين: أحدهما ما تناقَضَ واستحال، والآخر ما امْتنع في الطبيعة، وخرج من طاقة الخلقة. فإذا خرج الخبرُ من هذين البابين، وجرى عليه حكم الجواز، فالتدبير في ذلك التثبت وأن يكون الحقُّ في ذلك هو ضالّتك، والصِّدق هو بُغيتك، كائنًا ما كان، وقَع منك بالموافقةِ أم وقع منك بالمكروه. ومتى لم تعلم أنّ ثوابَ الحقِّ وثمرَةَ الصِّدق أجدى عليك من تلك الموافقةِ لم تقَع على أن تعطِي التثبتَ حَقّه.

٧٠٤ - [تشبيه رماد الأثافي بالحمام]

قال: وهم يصفون الرَّماد الذي بين الأثافيّ بالحمامةِ، ويجعلون الأثافيَّ أظآراً لها، للانحناء الذي في أعالي تلك الأحجار، ولأنَّها كانت معطّفات عليها وحانيات على أولادها. قال ذو الرُّمَّة[١]: [من الطويل]

كأنَّ الحمامَ الوُرْقَ في الدَّارِ جَثَّمت على خَرِق بين الأثافي جَوازِلُه

شبّه الرّماد بالفراخ قبل أن تنهض والجُثوم في الطير مثل الرُّبوض في الغنم. وقال الشماخ[٢]: [من الطويل]

وإرثِ رَماد كالحمامة ماثِل ونُؤْيَينَ في مَظلومَتَيْنِ كُدَاهما

وقال أبو حيَّة[٣]: [من الوافر]

مِنَ العَرَصاتِ غير مَخَدٍّ نُؤْيٍ كباقي الوحْي خُطَّ على إمام[٤]

---

(١) ديوان ذي الرمة ١٢٤٤، وفيه: (شبّه الأثافي بحمام ورق تضرب إلى السواد. وقوله «جثمت على خرق» يريد به الرماد. فشبه الأثافي على الرماد بحمام على الفراخ. والجوزل: الفرخ).

(٢) ديوان الشماخ ٣٠٩.

(٣) ديوان أبي حية النميري ٩١.

(٤) في ديوانه: (المخد: موضع الخد وهو الشق. الوحي: الكتابة. الإمام: الكتاب).

وغيرِ خوالدٍ لُوِّحْن حَتى بهنَّ علامةٌ من غير شام[1]
كأنّ بها حمامَات ثَلاثاً مَثَلْنَ ولم يَطِرْنَ مَعَ الحمامِ

وقال العَرْجي[2]: [من الطويل]

ومَرْبط أفْرَاسٍ وخَيمٌ مُصَرَّعٌ وهابٍ كجُثْمانِ الحمامةِ هامِدُ[3]

وقال البَعيث: [من الطويل]

وَيَسُفْعٌ ثَوَيْنَ العَامَ والعَامَ قبْلَهُ وَسَحْق رَمادٍ كالنَّصيف من العصْبِ[4]

٧٠٥ - [ما قيل من الشعر في نوح الحمام وفي ارتفاع بيوتها]

وقالوا في نوح الحمام، قال جِران العَود[5]: [من البسيط]

واستقبلوا واديًا نوحُ الحمامِ بهِ كأنّه صوتُ أنباطٍ مَثاكيـلِ

وقالوا في ارتفاع مواضعِ بُيوتِها وأعشاشها. وقال الأعشى[6]: [من الطويل]

ألم تر أن العِرْض أصبحَ بطنهُ خيلاً وزرعًا نابتًا وفَصافصا[7]
وذا شُرُفات يقصُر الطّرف دونَه تَرَى للحمام الورقِ فيه قرامصَا

وقال عمرو بن الوليد[8]: [من الخفيف]

فتبدَّلتُ من مساكنِ قومي والقُصور التي بها الآطامُ
كلَّ قصرٍ مشيّدٍ ذي أواسٍ تتغنَّى على ذُراه الحمامُ

والحمام أيضاً ربما سكن أجْوَافَ الرَّكايا، ولا يكون ذلك إلاّ لِلْوحشيِّ منها، وفي البِير التي لا تُورد. قال الشاعر: [من الوافر]

بدلو غير مُكرَبَةٍ أصابتْ حَماماً في مساكِنِه فَطَارَا

---

(١) (لوحن: غيرتهن النار. الخوالد: الأثافي).

(٢) ديوان العرجي ١١٧.

(٣) خيم: جمع خيمة «القاموس: خيم». الهابي: الرقيق الدقيق المرتفع «القاموس: هبي».

(٤) العصب: ضرب من البرود اليمنية «القاموس: عصب».

(٥) ديوان جران العود ٣٦.

(٦) ديوان الأعشى ٢٠١، والأول في اللسان والتاج (فصص، عرض)، والمقاييس ٤/٢٨٠، والمخصص ١٤/٤١، والثاني في اللسان والتاج (قرمص)، والعين ٥/٢٤٧.

(٧) العرض: موضع باليمامة. فصافص: جمع فصفصة، بكسر الفاء؛ وهو نبات تعلفه الدواب.

(٨) البيتان في الأغاني ١/٢٨، وحماسة القرشي ٤٣٨.

يقول: استقى بِسُفرته من هذه البئر، ولم يستقِ بدَلوٍ. وهذه بئر قد سكنها الحمام لأنّها لا تُورَدُ.

وقال جهم بن خلف[1]: [من الطويل]

وقد هاج شوقي أنْ تَغنَّت حمامةٌ ... مطوَّقةٌ ورقاء تصدَحُ في الفجر
هتوفٌ تبكِّي ساقَ حُرٍّ ولن ترَى ... لها دَمعةً يومًا على خدّها تجري
تغنَّتْ بلحنٍ فاستجابَت لصوتها ... نَوائحُ بالأصياف في فَنَنِ السِّدْر[2]
إذا فَترَتْ كرَّتْ بلحنٍ شجٍ لها ... يُهَيِّج للصَّبِّ الحزينِ جوَى الصَّدْرِ
دعتهُنَّ مطرابُ العشيَّات والضُّحى ... بصوتٍ يَهيجُ المستهامَ على الذِّكرِ
فلم أرَ ذا وجد يزيدَ صبابةً ... عليها، ولا ثكلى تُبَكِّي على بكْرِ
فأسْعَدْنها بالنَّوح حتَّى كأنَّما ... شَرِبنَ سُلافًا من معتَّقة الخَمْرِ
تجاوبْنَ لحنًا في الغُصون كأنَّها ... نوائحُ مَيْت يلتدمْنَ لدى قبرِ[3]
بسُرَّةِ وادٍ من تَبَالةَ مُونِقٍ ... كسا جانبيه الطَّلحُ واعتمَّ بالزَّهْرِ[4]

٧٠٦ - [استطراد لغوي]

ويقال: هدر الحمام يهدر. قال: ويقال في الحمام الوحشي من القماريِّ والفواخت والدَّباسي وما أشبه ذلك: قد هدل يهدِل هديلاً. فإذا طَرَّب قيل غرَّد يغرد تغريداً. والتغريد يكون للحمام والإنسان، وأصله من الطير.

وأمَّا أصحابنا فيقولون: إنّ الجمل يهدِر، ولايكون باللام، والحمام يهدل وربّما كان بالراء.

وبعضهم يزعُم أنّ الهديلَ من أسماء الحمام الذَّكر. قال الرّاعي واسمه عبيد بن الحصين[5]: [من الكامل]

كهداهِدٍ كَسرَ الرُّماةُ جَناحَه ... يدعُو بقارِعَةِ الطَّريق هديلا

(١) الأبيات في ربيع الأبرار ٥/٤٤٧، عدا البيت قبل الأخير.

(٢) السدر: شجر النبق. «القاموس: سدر».

(٣) يلتدمن: يضربن صدورهن في النياحة «القاموس: لدم».

(٤) تبالة: موضع ببلاد اليمن. معجم البلدان ٢/٩. الطلح قيل: الموز، وقيل: شجر عظيم بالبادية كالسَّمُر، أو شجر حسن اللون لخضرته، له رفيف ونور طيب. عمدة الحفاظ (طلع)، وانظر كتب التفسير في قوله تعالى: ﴿وطلح منضود﴾ [٢٩/ الواقعة: ٥٦].

(٥) ديوان الراعي ٢٣٨، واللسان والتاج (هدد، هدل)، والجمهرة ١٩٤، ١٢١١، والتهذيب ٥/٣٥٣، ٣٥٤، والعين ٣/٣٤٧، والمجمل ٤/٤٤٧، والمخصص ٨/١٣٤.

٧٠٧ - [ساق حُرٍّ]

وزعم الأصمعيُّ أنّ قوله[١]: «هتوفٌ تبكّي ساقَ حرٍّ» إنَّما هو حكاية صوت وحشيٍّ الطير من هذه النَّوَّاحات. وبعضهم يزعم أنّ «ساق حرّ» هو الذكر، وذهب إلى قول الطِّرمَّاح في تشبيه الرَّماد بالحمام، فقال[٢]: [من المديد]

بين أظآرٍ بمظلومةٍ كسَراة السّاقِ ساقِ الحمامْ

٧٠٨ - [صفة فرس]

وقال آخر[٣] يصف فرساً: [من الراجز]

ينْجيه مِنْ مِثْلِ حمام الأغْلاَلْ رفعُ يدٍ عَجلَى ورِجل شملاَلْ

تَظْمَأُ من تحتُ وتُروَي من عالْ

الأغلال: جمع غَلَلٍ، وهو الماء الذي يجري بين ظهرَي الشّجر قال: والمعنى أنّ الحمام إذا كان يريد الماء فهو أسرعُ لها. وقوله: شِملال أيْ خفيفة.

---

(١) يقصد قصيدة جهم بن خلف التي تقدمت.

(٢) ديوان الطرماح ٣٩١، والبرصان ١٧٩.

(٣) الرجز لدكين بن رجاء في اللسان (غلل، ظما، علا)، والتاج (غلل). وبلا نسبة في اللسان (ظمأ)، والتاج (ظمأ، علا)، والمخصص ١٣/١٤٤، والتهذيب ٣/١٨٥، ١٤/٤٠٢، والمقاييس ٤/١١٧.

بـــاب
ليس في الأرض جنسٌ يعتريه الأوضاح والشِّيات

٧٠٩ - [شيات الحمام]

ويكون فيها المصْمَت والبهيمُ أكثرَ ألوانًا، و من أصناف التَّحَاسين ما يكون في الحمام، فمنها ما يكون أخضرَ مُصمُّتاً، وأحمر مصمتاً وأسودَ مَصمتًا، وأبيض مصمتًا، وضروبًا من ذلك، كلها مصمتة[١]. إلاّ أنّ الهدَايَةَ للخُضْر النُّمر. فإذا ابيضّ الحمام كالفقيع فمثله من النّاس الصَّقلابيُّ، فإن الصَّقَلابيَّ فطيرٌ[٢] خامٌ لم تُنْضِجْه الأرحام؛ إذ كانت الأرحام في البلاد التي شمسها ضعيفة.

وإن اسودّ الحمامُ فإنما ذلك احتراقٌ، ومجاوزة لحدٍّ النُّضج. ومثلُ سود الحمام من الناس الزِّنج؛ فإن أرحامهم جاوزت حدَّ الإنضاح إلى الإحراق، وشيَّطت[٤] الشّمس شُعورَهم فتقبَّضت.

والشّعر إذا أدنَيته من النَّار تجعَّد، فإنْ زدْتَه تفَلفَل[٥]، فإن زدتَه احترق.

وكما أنّ عقول سُودانِ النَّاس وحُمرانِهم دونَ عقول السُّمر، كذلك بيضُ الحمام وسودُها دونَ الخُضْر في المعرفة والهدايَة.

٧١٠ - [استطراد لغوي]

وأصل الخضرة إنَّما هو لون الرَّيحان والبقولِ، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضرَ، والسماء خضراء، حتّى سمَّوا بذلك الكُحْل واللّيل.

قال الشَّمَّاخ بنُ ضرار[٥]: [من الطويل]

ورُحْنَ رَواحًا منْ زَرُودَ فنازعت زُبالةَ جلبابًا من الليل أخضرَا

---

(١) المقصود بالمصمت: الخالص.

(٢) فطير: لم ينضج «القاموس: فطر».

(٣) شيطت: أحرقت «القاموس: شيط».

(٤) شعر مفلفل: شديد الجعودة «القاموس: فلّ».

(٥) ديوان الشماخ ١٣٩، وأساس البلاغة (نزع)، والجمهرة ٦٨٤، وبلا نسبة في الجمهرة ٥٨٦.

وقال الرّاجز[1]: [من الرجز]

حتَّى انتضاه الصُّبح من ليلٍ خَضِرْ مثل انتضاء البَطَلِ السَّيفَ الذّكَرْ

نضو هوًى بالٍ على نِضْوِ سَفَرْ

وقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿ومنْ دُونِهِمَا جَنَّتانِ، فَبأيِّ آلاء رَبِّكما تُكَذِّبَان . مُدْهَامَّتَانِ﴾[2] قال: خضراوان من الرِّي سوداوان.

ويقال: إن العراقَ إنَّما سمِّي سواداً بلون السَّعَف الذي في النّخل، ومائه.

والأسودان: الماء والتمر. والأبيضان: الماء واللبن. والماء أسودُ إذا كان مع التّمر، وأبيض إذا كان مع اللّبن.

ويقولون: سُودُ البطون وحمْر الكُلى، ويقولون: سود الأكباد يريدون العداوة، وأن الأحقاد قد أحرقت أكبادَهم، ويقال للحافر أسود البطن؛ لأَن الحافر لا يكون في بطونها شحم.

ويقولون: نحن بخير ما رأينا سَواد فلان بين أظهرُنا، يريدون شخصه. وقالوا: بل يريدون ظلَّه.

فأمّا خضرْ مُحارِب، فإنما يريدون السُّود وكذلك: خُضْر غسَّان

ولذلك قال الشاعرُ[3]: [من البسيط]

إنّ الخَضارمة الخضْر الذين غدَوْا أهْلَ البريصِ ثمانٍ منهمُ الحكمُ[4]

ومن هذا المعنى قول القرشي في مديح نفسه[5]: [من الرمل]

وأنا الأَخضَرُ مَنْ يَعْرِفني أخضَرُ الجلْدةِ في بَيْتِ العربْ

وإذا قالوا: فلان أخضر القفا، فإنما يعنون به أنّه قد ولدتْه سوداء. وإذا قالوا:

---

(١) الرجز بلا نسبة في رسائل الجاحظ ١ /٢٠٨.

(٢) ٦٤ – ٦٥ / الرحمن: ٥٥.

(٣) البيت للغساني في رسائل الجاحظ ١ /٢٠٩.

(٤) البريص: اسم نهر دمشق، أو الغوطة بأجمعها. معجم البلدان ١ /٤٠٧.

(٥) البيت للفضل بن العباس في السمط ٧٠١، والفاخر ٥٣، والمؤتلف ٣٥، ومعجم الشعراء ١٧٨، والأغاني ١٦ /١٧٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٢٤، والمعارف ١٢٦، والأضداد ٣٨٢. والتنبيه والإيضاح ٢ /١١٧، والتهذيب ٧ /١٠٦، والجمهرة ٥٨٧، ٦٨٥، وأساس البلاغة والتاج (خضر)، والحماسة المغربية ٦٤٩، ونسب قريش ٩٠، ورغبة الآمل ٢ /٢٣٧، ٨ /١٨٣، وله أو لعمر بن أبي ربيعة في رسائل الجاحظ ١ /٢٠٨، ولعتبة بن أبي لهب في اللسان (خضر)، وبلا نسبة في المقاييس ٢ /١٩٥، والمجمل ٢ /١٩٨، والتهذيب ٧ /١٠٣.

فلان أخضر البطْن، فإنما يريدون أنّه حائك، لأنّ الحائك بطنَه لطول التزاقه بالخشبة التي يطوى عليها الثّوب يسودّ.

وكان سبب عداوة العَروضي لإبراهيم النَّظام، أنّه كان يسمِّيه الأَخضرَ البطن، والأَسود البطن؛ فكان يكشفُ بطنَه للناس - يريدُ بذلك تكذيبَ أبي إسحاق - حتى قال له إسماعيل بن غزْوان: إنَّما يريد أنَّك من أبناء الحاكة! فعاداه لذلك.

فإذا قيل أخضر النَّواجذ، فإنما يريدون أنّه من أهل القُرَى، ممّن يأكل الكُرَّاث والبصل.

وإذا قيل للثّور: خاضب؛ فإنما يريدونَ أنّ البقل قدْ خَضَبَ أظلافه بالخضرة. وإذا قيل للظليم: خاضب، فإنما يَريدونَ حمرةَ وظيفيه[١] فإنهما يَحمرَّان في القيْظ، وإذا قيل للرَّجل خاضب، فإنَّما يريدون الحنَّاء فإذا كان خضابُه بغير الحِنَّاء قالوا: صَبَغ ولا يقال خضب.

٧١١ - [الألفاظ المثناة]

ويقولون في شبيهٍ بالباب الأَوَّل: الأحمران: الذهب والزعفران، والأبيضان: الماء واللَّبن، والأسودان: الماء والتمر.

ويقولون: أهلَكَ النِّساء الأَحمران: الذَّهب والزّعفران، وأهلَكَ النَّاسَ الأحامِر: الذهب، والزعفران، واللَّحم، والخمر.

والجديدان: اللَّيل والنهار، وهما الملوان.

والعصر: الدَّهر، والعصران: صلاة الفَجْر وصلاة العشي، والعصران: الغَداة والعَشِيُّ، قال الشاعر[٢]: [من الطويل]

وأمطُله العَصْرَينِ حَتَّى يملَّني ... ويَرْضى بنِصْفِ الدَّينِ والأنفُ رَاغِمُ

ويقال: «البائعان بالخيار»[٣] وإنَّما هو البائع والمشتري[٤]، فدخل المبتاع في البائع.

---

(١) الوظيف: مستدق الذراع والساق «القاموس: وظف».

(٢) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (عصر)، والمقاييس ٣/٣٨٠، والتهذيب ٢/١٣، والمجمل ٣/٢٩٧، والأضداد ٢٠٢، وصدر البيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه ١١٩ ورواية عجزه: (ويرضى ببعض الدين في غير نائل).

(٣) أخرج البخاري في كتاب البيوع برقم ١٩٧٣، ١٩٧٦، ٢٠٠٢، ٢٠٠٤، ٢٠٠٨ (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا...)، وأخرجه مسلم في البيوع برقم ١٥٣٢.

(٤) أي أن «باع» هي كلمة من الأضداد، انظر الأضداد ٧٣ - ٧٥، ١٩٩.

وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلأَبَوَيْه لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾[1]، دخلت الأمُّ في اسم الأبوَّة، كأنهُمْ يَجمَعُون على أَنْبَهِ الاسميْنِ وكقولهم: ثبيرَين[2]، والبَصرتَين[3]. وليس ذلك بالواجب؛ وقَدْ قالوا: سيرَة العُمَرَين، وأبو بكْرٍ فوقَ عمر، قال الفرزْدَق[4]: [من الطويل]

أخذْنَا بآفاقِ السَّماءِ عليكمُ   لنا قَمراها والنُّجومُ الطَّوالعُ

وأمَّا قولُ ذي الرُّمَّة[5]: [من الطويل]

وليلٍ كجِلبابِ العَرُوسِ ادَّرعتُه   بأربْعةٍ والشخْصُ في العَينِ وَاحِدُ

فإنهُ ليس يريدُ لونَ الجلباب، ولكنّهُ يريد سُبوغه.

٧١٢ - [جواب أعرابيّ]

قال[6]: وكذلك قول الأعرابيِّ حينَ قيل له: بأيِّ شيء تعرفُ حَملَ شاتِك؟ قال: «إذا استفاضَتْ خاصِرتها، ودَجت شَعْرَتها». فالدَّاجي هاهنا اللابس.

قال الأصمعي ومسعود بن فيد الفزاري: ألا تَرونَه يقول: «كان ذلك وثَوبُ الإِسلامِ داجٍ». وأما لفظ الأصمعيّ فإنّه قال: كان ذلك منذُ دَجَا الإِسلام[7]. يعني أنّه أَلبس كلَّ شيء.

٧١٣ - [شِيات الحمام]

ثمَّ رجع بنا القول إلى ذكر شِياتِ الحمام.

وزعموا أنّ الأوضاحَ كلَّها ضعَف، قليلها وكثيرها، إلاّ أنَّ ذلك بالحِصَص على

---

(١) ١١ / النساء: ٤.

(٢) الثبيران: جبلان مفترقان يصب بينهما أفاعية، وهو وادٍ يصب من منى، يقال لأحدهما ثبير غينى، وللآخر ثبير الأعرج. معجم البلدان ٢ / ٧٣ (ثبير).

(٣) البصرتان: البصرة والكوفة. معجم البلدان ١ / ٤٣٠ (البصرة).

(٤) ديوان الفرزدق ١ / ٤١٩، والخزانة ٤ / ٣٩١، ٩ / ١٢٨، وشرح شواهد المغني ١ / ١٣، ٢ / ٩٦٤، واللسان (عوي)، وبلا نسبة في اللسان (شرق، قبل)، والمقتضب ٤ / ٣٢٦.

(٥) ديوان ذي الرمة ١١٠٨، واللسان والتاج وأساس البلاغة (روز). ورواية صدر البيت في المصادر (وليل كأثناء الرويزي جبته). والبيت كرواية الجاحظ في ديوان المعاني ١ / ٣٤٢، وأخبار أبي تمام ٨٣.

(٦) عيون الأخبار ٢ / ٧٥.

(٧) النهاية ٢ / ١٠٢ وفيه «دجا الإسلام: شاع وكثر».

قدْر الكثرة والقلَّة، كذلك هي في جميع الحيوان سواءٌ مستقبلُها ومستدْبرها. وذلك ليس بالواجب حتى لا يغادر شيئاً البتة؛ لأنَّ الكَلْبةَ السَّلوقيَّةَ البيضاءَ أكرمُ وأصيَدُ، وأصبَرُ من السَّوْدَاء.

والبياضُ في النَّاسِ على ضروب: فالمعيب منه بياضُ المُغْرَب والأشقَرُ والأحمرُ أقلُّ في الضّعف والفَسادِ، إذا كان مشتقّاً من بَياضِ البَهَقِ والبَرَصِ والبَرَشِ والشيب

والمغْرَبُ عند العرب لا خير فيه البتة. والفقيع لا يُنجِب، وليس عنده إلاّ حسنُ بياضه، عند من اشتهى ذلك

٧١٤ - [سوابق الخيل]

وزعم ابن سلاّم الجَمحيّ أنَّه لم يرَ قطُّ بلقاءَ ولا أبلق جاء سابقاً. وقال الأصمعيّ: لم يسبق الحَلْبَة أهضَمُ قطُّ؛ لأنهم يمدحون المُجْفَرَ[١] من الخيل، كما قال[٢]: [من المنسرح]

خِيط على زَفرةٍ فَتَمَّ ولم   يرجعْ إلى دِقّة وَلاَ هَضَمِ

ويقولون: إنَّ الفرَس بعُنُقه وبطْنه.

وخبّرني بعض أصحابنا، أنَّه رأى فَرَساً للمأمون بَلقاء سبقتِ الحلبة. وهذه نادرةٌ غريبة.

٧١٥ - [نظافة الحمام ونَفع ذرْقه]

والحمام طائر ألوفٌ مألوف ومحبَّب، موصوفٌ بالنّظافة، حتى إنّ ذرْقه لا يعاف ولا نتن له، كسُلاَحِ[٣] الدَّجاج والدِّيَكة. وقد يُعالج بذرْقه صاحبُ الحصاة. والفلاّحون يجدون فيه أكثرَ المنافع. والخبَّاز يُلقي الشيء منه في الخمير لينتفخَ العجينُ ويعظُمَ الرغيف، ثمّ لا يستبينُ ذلك فيه. ولذَرْقه غلاّتٌ، يعرف ذلك أصحاب الحُجَر. وهو يصلُحْ في بَعض وُجوهِ الدَّبْغ.

(١) المجفر: الواسع العظيم «القاموس: جفر».

(٢) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ١٥٦، واللسان (زفر، هضم)، وأساس البلاغة (زفر)، والتاج (هضم)، والمعاني الكبير ١٣٩، وبلا نسبة في الجمهرة ٧٠٦، والمخصص ١٤/ ١٤٦.

(٣) السُّلاح: النجو «القاموس: سلح».

بـــاب

٧١٦ - [لؤم الحمام]

وقال صاحبُ الدِّيك: الحمامُ طائرٌ لئيمٌ قاسي القلب، وإن برَّ بزَعْمكم ولدَ غيرِه، وصنَعَ به كما يصنع بفرخه؛ وذلك أنهما يحضُنان كلَّ بيض، ويزُقّان كلَّ فرْخ، وما ذاك منهما إلاّ في الفَرْط.

فأمَّا لؤمه فمن طريق الغَيرة، فإنّه يرى بعينه الذّكَرَ الذي هو أضعف منه، وهو يطرُدُ أنثاه ويكسَحُ بذَنَبه حَولها، ويتطوَّس[1] لها ويستميلها، وهو يرى ذلك بعَينه – ثمَّ لم نر قط ذكراً واثَبَ ذكراً عند مثلِ ذلك.

فإذا قلت: إنّه يشتدُّ عليه ويمنعه إذا جثَمت له وأراد أن يعلوَها؛ فكلُّ ذكر وأنثى هنالك يفعل ذلك، وليس ذلك من الذكر الغريب من طريق الغَيرة، ولكنّه ضربٌ من البُخْل ومن النّفاسة. وإذا لم يكن من ذكَرِها إلاّ مثلُ ما يكون من جميع الحمام عُلم أنّ ذلك منه ليس من طريق الغيرة. وأنا رأيت النواهضَ تفعل ذلك، وتقطع على الذّكر بَعْدَ أن يعلُوَ على الأنثى.

قال: وأمَّا ما ذكرتم من أن الحمامَ معطوفٌ على فراخه ما دامتْ محتاجةً إلى الزّقّ، فإذا استغنَت نُزعت منها الرحمةُ، فليس ذلك كما قلتم. الحمامُ طائرٌ ليس له عهد؛ وذلك أنّ الذّكرَ ربما كانت معه الأنثى السِّنينَ، ثمَّ تُنقَلُ عنه وتُوارَى عنه شهراً واحداً، ثم تظهر له مع زوجٍ أضْعَفَ منه، فيراها طولَ دهْره وهي إلى جنب بيته وتماريده[2] فكأنه لا يعرفها بعد معرفتها الدَّهرَ الطويل، وإنما غابت عنه الأيَّامَ اليسيرةَ. فليس يوجَّهُ ذلك الجهلُ الذي يُعامِلُ به فراخَهُ بعد أن كبِرَت، إلاَّ على الغباوة وسُوءِ الذِّكر، وأنّ الفرْخ حين استوى ريشُهُ وأشبَهَ غيرَه من الحمام جهِلَ الفصْلَ الذي بينهما.

فإن كان يعرف أنثاه وهو يجدُها مع ذكَرٍ ضعيف وهو مسلِّم لذلك وقانعٌ بِهِ، وقليلُ الاكتراث به، فهو من لؤمٍ في أصل الطبيعة.

---

(١) تطوّس: أبدى محاسنه وجماله. انظر القاموس «طوس».

(٢) التِّمراد: بيت صغير في بيت الحمام لمبيضه.

٧١٧ - [قسوة الحمام]

قال: وبابٌ آخر من لؤمه: القسوة، وهي ألأمُ اللّؤم؛ وذلك أن الذّكَر ربَّما كان في البيت طائرٌ ذكرٌ قد اشتدَّ ضعفهُ، فينقُر رأسَه والآخرُ مستخذٍ له، قد أمكَنَه من رأسه خاضعاً له، شديدَ الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمُه لضعْفه وعجْزِه عنهُ، ولا هو يرحَمُه لخضوعه، ولا هو يملُّ وليس له عنده وِتر. ثمّ ينقُر يافُوخَه حتى ينقُبَ عنهُ، ثمَّ لا يزال ينقُر ذلك المكانَ بَعْدَ النّقْب حتى يُخرِجَ دِمَاغَهُ فيموتَ بين يَدَيْه.

فلو كان ممَّا يأكل اللَّحمَ واشتهى الدماغ كان ذلك له عذراً؛ إذ لم يَعْدُ ما طَبَعَ اللّه عليه سِباعَ الطير.

فإذا رأينا من بعض بهائمِ الطيرِ من القَسوةِ ما لا نرى من سِباع الطير لم يكن لنا إلاّ أن نقضيَ عليهِ من اللؤم على حسب مباينته لشكل البهيمة، ويزيد في ذلك على ما في جوارح الطير من السَّبُعية.

٧١٨ - [أقوال لصاحب الديك في الحمام]

وقال صاحب الديك:

زعم أبو الأصبغ بن ربعيّ قال: كان رَوحٌ أبو همام صاحب المعمّى، عند مثنَّى ابن زهير، فبينما هو يوماً وهو معهُ في السطح إذ جاء جماعةٌ فصعدوا. فلم يلبثْ أن جاء آخرون، ثمَّ لم يلبَثْ أن جاء مثلهُمْ، فأقبَلَ عليهم فقال: أيُّ شَيءٍ جاء بكم؟ وما الذي جَمَعكم اليوم؟ قالوا: هذا اليومُ الذي يرجع فيه مَزَاجيلُ الحمامِ من الغايَة. قال: ثمَّ ماذا؟ قالوا: ثمَّ نَتَمَتَّعُ بالنَّظَر إليها إذا أقبلت. قال: لكِنَّني أتمتَّع بتغميض العين إذا أقبلت، وترْك النَّظرِ إليها !! ثمَّ نزَل وجلس وحدَه.

٧١٩ - [التلهِّي بالحمام]

وقال مثنّى بنُ زهير ذاتَ يوم: ما تلَهَّى النّاسُ بشيءٍ مثل الحمام، ولا وجدنا شيئاً مما يتخذه النّاس ويُلعَبُ بِهِ ويُلْهَى بِهِ، يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجدّ - كالحمام - وأبو إسحاق حاضر - فغاظه ذلك، وكظم على غيظه. فلمَّا رأى مثَنَّى سكوته عن الردِّ عليه طمع فيه فقال: يبلغُ واللّهِ مِنْ كرَم الحمامِ ووفائه، وثباتِ عهْده، وحنينه إلى أهله، أنِّي ربّما قصَصتُ الطَّائر وبعد أنْ طار عندي دهراً، فمتى نبَتَ جَناحُه كنباته الأوَّل، لم يَدْعُه سوءُ صنعِي إليه إلى الذَّهاب عنِّي. ولربَّما بِعْتُه

فيقصُّه المبتاعُ حيناً، فما هو إلاَّ أن يجدَ في جَناحه قوَّةً على النُّهوض حتَّى أراه أتاني جادفاً أو غير جادف[1]. وربَّما فعلتُ ذلك به مراراً كثيرة، كلَّ ذلك لا يزدَادُ إلاَّ وفاء.

قال أبو إسحاق: أمَّا أنت فأراكَ دائباً تحمَده وتذمُّ نَفْسَك. ولئنْ كان رجوعُه إليك من الكرمِ إنّ إخراجَك له من اللُّؤم! وما يُعجبني من الرِّجال مَنْ يَقْطَعُ نفسه لصلة طائر، وينسى ما عليه في جنب ما للبهيمة. ثم قال: خبِّرني عنْكَ حين تقول: رجَعَ إليَّ مرَّةً بعدَ مرَّة، وكلما زهدْتُ فيه كان فيَّ أرغبَ، وكلّما باعدْتُه كان لي أطْلَبَ؛ إليكَ جاء، وإليكَ حنَّ أمْ إلى عُشِّه الذي درَج منه، وإلى وكْره الذي رُبِّي فيه؟! أرأيت أنْ لو رجَعَ إلَى وكرِه وبيته ثمَّ لم يجدْك، وألفاك غائباً أو ميِّتاً، أكان يرجعُ إلى موضعه الذي خلّفه؟! وعلى أنَك تتعجَّب من هدايته، وما لك فيه مقالٌ غيره. فأمَّا شكرُك على إرادته لك، فقد تبيَّنَ خَطَاؤك فيه، وإنما بقي الآن حسنُ الاهتداء، والحنينُ إلى الوطن.

٧٢٠ - [هداية الرخم]

وقد أجمعوا على أنَّ الرَّخَمَ من لئام الطير وبغاثها، وليست من عِتاقها وأحْرارها، وهي من قواطِع الطّير، ومِنْ موضِع مَقْطَعها إلينا ثمَّ مرجعها إليه من عندنا، أكثَرُ وأطوَل من مقدارِ أبعَد غايات حمامكم. فإن كانتْ وقتَ خُروجها من أوطانها إلينا خرجتْ تقطَع الصَّحارَى والبراريَّ والجزائرَ والغياضَ والبِحارَ والجبالَ، حتّى تصير إلينا في كلِّ عام - فإن قلت إنّها ليستْ تخرج إلينا على سَمْتٍ ولا على هدايةٍ ولا دَلالة، ولا على أمارةٍ وعَلامة، وإنما هَرَبت من الثُّلوج والبرْد الشَّديد، وعلمت أنّها تحتاج إلى الطُّعْم، وأنّ الثّلجَ قد ألبَس ذلك العالم، فخرجتْ هاربة فلا تزالُ في هربها إلى أن تصادفَ أرضاً خصْباً دفئاً، فتقيم عندَ أدنى ما تجد - فما تقولُ فيها عند رجوعها ومعرفتها بانحسارِ الثلوج عن بلادها؟! أليست قد اهتدت طريقَ الرُّجوع!؟ ومعلوم عند أهلِ تلك الأطراف، وعند أصحاب التَّجارب وعند القانص، أنّ طَيْرَ كلِّ جهةٍ إذا قَطَعَتْ رَجَعت إلى بلادها وجبالها وأوكارها، وإلى غياضها وأعشّتها. فتجد هذه الصِّفة في جميع القواطع من الطَّير، كرامها كلئامها، وبهائمها كسباعها. ثمَّ لا يكون اهتداؤها على تمرينٍ وتوطين، ولا عن تدريبٍ وتجريبٍ، ولم تلقّن بالتّعليم، ولم تثبّتْ بالتّدبيرِ والتقويم. فالقواطع لأنفسها تصير إلينا، ولأنفسها تعودُ إلى أوكارها.

---

[1] جدف الطائر: طار وهو مقصوص «القاموس: جدف».

وكذلك الأوابد من الحمام، لأنفسها ترجع. وإلفُها للوطن إلفٌ مشتركٌ مقسومٌ على جميع الطّير. فقَدْ بَطَلَ جميعُ ما ذكرت.

٧٢١ - [قواطع السمك]

ثمّ قال: وأعجبُ من جميعِ قواطعِ الطّيرِ قواطعُ السَّمك، كالأسبور والجُوَاف والبَرستُوج، فإنَّ هذه الأنواعَ تأتي دِجلَة البصرةِ من أقصى البحار، تستعذبُ الماء في ذلك الإبَّان، كأنها تتحمَّضُ بحلاوة الماء وعذوبَته، بعدَ مُلوحةِ البحر؛ كما تتحمَّض الإبلُ فتتطلب الحَمْضَ - وهو ملحٌ - بَعْدَ الخُلّة - وهو ما حلا وعذب.

٧٢٢ - [طلب الأسد للملح]

والأُسْدُ إذا أكثَرتْ مِنْ حَسْوِ الدِّماء - والدِّماءُ حلوةٌ - وأكْلِ اللّحْم واللّحمُ حلو - طلبت المِلْحَ لتتملّحَ به، وتجعلَه كالحمْض بعْدَ الخُلّة.

ولولا حُسنُ موقعِ المِلْح لم يُدْخله النّاسُ في أكثرِ طعامهم.

والأَسَدُ يخرج للتملُّح فَلاَ يزالُ يسيرُ حتّى يجدَ مَلاَّحة. وربَّما اعتادَ الأَسَدُ مكاناً فيجده ممنوعاً، فلاَ يزالُ يقْطَعُ الفراسِخَ الكثيرةَ بَعْدَ ذلك فإذا تملَّح رجع إلى موضعِهِ وغَيْضَتِه وعَرينِه، وغابه وعِرِّيسته، وإن كان الذي قَطَع خمسين فرسخاً.

٧٢٣ - [قواطع السمك]

ونحن بالبصرة نعرف الأَشْهُر التي يقبل إلينا فيها هذه الأَصناف وهي تقبلُ مرَّتين في كلِّ سنة، ثمّ نجدُها في إحداهما أسمَنَ الجنس، فيقيم كلُّ جنس منها عِنْدَنا شهرَين إلى ثَلاَثة أشهُر، فإذا مضى ذلك الأَجلُ، وانقضتْ عِدّةُ ذلك الجنسِ، أقْبل الجنسُ الآخر. فهم في جميع أقسام شُهور السَّنَة من الشتاء والربيعِ، والصَّيفِ والخريف، في نوعٍ من السَّمك غيرِ النّوع الآخَر. إلاَّ أنَّ البَرَسْتُوجَ يُقْبِلُ إلينا قاطعاً من بلاد الزِّنج، يستعذب الماء من دِجلةِ البَصْرَةِ، يعرفُ ذلك جميعُ الزِّنج والبَحْرِيّين.

٧٢٤ - [بُعْدُ بلاد الزِّنج والصِّين عن البصرة]

وهم يزعمون أنّ الذي بين البصرة والزِّنج، أبعَدُ مما بين الصِّين وبينها.

وإنما غلط ناسٌ فزعموا أنّ الصِّين أبعد، لأن بحرَ الزِّنج حفرةٌ واحدة عميقَة واسعة، وأمواجها عظام، ولذلك البَحْرِ ريحٌ تهبُّ من عُمانَ إلى جهة الزِّنج شهْرَين، وريحٌ تَهُبُّ من بلادَ الزِّنج تريدُ جِهَة عُمان شهْرين، على مقْدَارٍ واحدٍ فيما بينَ الشِّدَّة

واللِّين، إلاّ أنّها إلى الشدَّة أقْرَب، فلما كان البَحْرُ عميقاً والرِّيحُ قَوِيَّةً، والأمْواجُ عظيمَةَ، وكان الشِّراعُ لا يَحطُّ، وكان سيرهم مع الوَتَر ولم يكن مع القَوْس، ولا يَعْرفون الخبَّ والمكلأَّ[1]، صارت الأَيّامُ التي تسير فيها السُّفن إلى الزِّنْجِ أقل.

٧٢٥ - [سمك البرستُوج]

قال: والبَرَسْتوج سَمكٌ يقْطَعُ أمواجَ الماء، وَيَسيح إلى البصرة مِنَ الزنْج، ثم يَعُودُ ما فَضَلَ عنْ صيدِ الناس إلى بلاده وبحره. وذلك أبْعَدُ ممّا بين البصرة إلى العليق المرارَ الكثيرة. وهم لا يصيدون من البَحْر فيما بين البَصرة إلى الزنْج من البَرَسْتُوج شيئاً إلاّ في إبانِ مَجيئها إلينا ورجوعِها عَنّا، وإلاّ فالبحر منها فارغٌ خال.

فَعامة الطيرِ أعجبُ من حمامكم، وعامَّةُ السّمك أعجبُ من الطَّير.

٧٢٦ - [هداية الطير والسمك]

والطَّيرُ ذو جناحين، يحلِّق في الهواء، فله سُرعةُ الدَّرَك وبلوغ الغاية بالطيران، وله إدراك العالم بما فيه بعلامات وأمارات إذا هو حلّق في الهواء، وعلا فَوق كل شيء. والسَّمكة تسبِّح في غَمْر البَحْر والماء، ولا تسبِّح في أعلاه. ونسيمُ الهواء الذي يعيشُ بهِ الطيرُ لو دامَ على السمَكِ ساعة مِنْ نهارٍ لقتله

وقال أبو العنبر: قال أبو نخيلة الراجز[2] وذكَرَ السمك: [من الرجز]

تغمُّه النشرَةَ والنسِيم ... فَلا يزال مُغرَقاً يَعُومُ

في البَحر والبَحْرُ له تخميمُ ... وأمُّهُ الوَالدة الرؤومُ

تَلهمهُ جهلاً وما يَريمُ

يقول: النشرَة والنسيم الذي يُحيي جَميعَ الحيوانات، إذا طال عليه الخُمُومُ واللَّخَنُ والعفَن، والرُّطوباتُ الغليظة، فذلك يغمُّ السَّمَك ويَكربُه، وأمُّه التي ولدته تأكله؛ لأنّ السَّمكَ يأكلُ بعضُه بعضاً، وهو في ذلك لا يرِيمُ هذا الموضع.

وقال رؤبة[3]: [من الرجز]

والحوت لا يَكفيه شيءٌ يَلْهَمُه ... يُصبِحُ عَطْشَانَ وفي الماءِ فَمُهْ

---

(١) الخب: اضطراب أمواج البحر «القاموس: خبّ» المكلأ: المرفأ «القاموس: كلأ».

(٢) الرجز في اللسان (نشر)، وحياة الحيوان ١/٥٦٧.

(٣) الرجز لرؤبة في ديوانه ١٥٩، والخزانة ٤/٤٥١، ٤٥٤، ٤٦٠، والدرر ١/١١٤، وشرح شواهد المغني ١/٤٦٧، والمقاصد النحوية ١/١٣٩، وبلا نسبة في المخصص ١/١٣٦، وهمع الهوامع ١/٤٠.

يصف طباعَه واتِّصاله بالماء، وأنَّه شديد الحاجةِ إليه، وإن كان غَرِقاً فيه أبداً.

٧٢٧ - [شعر في الهجاء]

وأنشدني محمَّدُ بنُ يسير لبعض المدنيِّين، يهجُو رجلاً، وهو قوله[١]: [من مجزوء الرمل]

لو رأى في السَّقف فرْجاً ... لنزَا حتَّى يموتَا

أو رآهُ وَسْطَ بحرٍ ... صارَ فيه الدَّهرَ حُوتَا

قال: يقول في الغَوْصِ في البَحْرِ، وفي طُول اللبْثِ فيه.

٧٢٨ - [حالة من امتلأ فمه ماء]

وقال الذَّكواني[٢]، وهو يصف الضِّفْدعَ: [من الرجز]

يُدخل في الأشْدَاق ماءً يَنصُفهْ ... كَيمَا يَنقَّ والنّقيقُ يُتْلفهْ

قال: يقول: الضِّفدع لا يصوِّت، ولا يتهيَّأ له ذلك حتَّى يكون في فيه ماء، وإذا أرادَ ذلك أدخل فكه الأسفلَ في الماءِ، وترَك الأعلى حتى يبلُغَ الماءُ نصفَه.

والمثل الذي يَتَمثّلُ به النّاس: «فلانٌ لا يستطيعُ أن يُجيبَ خُصومَه لأنّ فاهُ مَلآن ماءً»[٣]. وقال شاعرهُم[٤]: [من البسيط]

وما نسيت مكان الآمريك بذا ... يا مَنْ هويتُ ولكنْ في فمِي ماءُ

وإنَّما جعلوا ذلك مثلاً، حينَ وجَدُوا الإنسانَ إذا كان في فمه ماءٌ على الحقيقة لم يَسْتطع الكلام. فهو تأويلُ قول الذَّكوانيِّ: [من الرجز]

* يُدخِلُ في الأشداقِ ماءً يَنْصُفُه *

بفتح الياءِ وضمِّ الصَّاد، فإنَّه ذهبَ إلى قول الشاعر[٥]: [من الطويل]

وكنتُ إذا جاري دَعا لمضُوفةٍ ... أشمِّر حتَّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِي

المضوفة: الأمر الذي يشفقُ منه.

---

(١) البيتان لأبي نواس في الكنايات للجرجاني ٣٧، ومعاهد التنصيص ١/٦٨.

(٢) الرجز بلا نسبة في عيون الأخبار ٢/٩٧، وحياة الحيوان ١/٦٤٦.

(٣) في مجمع الأمثال ٢/٩٠ (في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء).

(٤) البيت لأبي نواس في ديوانه ٧٠٩.

(٥) البيت لأبي جندب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٥٨، واللسان (جور، ضيف، نصف، كون)، والتاج (حير، ضوف، ضيف)، وأساس البلاغة (ضيف)، والمعاني الكبير ٧٠٠، ١١١٩، وبلا نسبة في شرح المفصل ١٠/٨١، والممتع في التصريف ٢/٤٧٠، والمنصف ١/٣٠١.

وكقول الآخر(1): [من الوافر]

* فإنَّ الظَّنَّ يَنْصُفُ أو يزيدُ *

وهذا ليس من الإنصاف الذي هو العَدْل، وإنَّما هو من بلوغ نِصْف الساق.

وأمَّا قوله: [من الرجز]

* كَيما ينقَّ والنَّقِيقُ يُتلِفهُ *

فإنه ذهَبَ إلى قول الشاعر(2): [من الطويل]

ضفادِعُ في ظلماء ليل تجاوَبتْ فَدلَّ عَلَيْهَا صَوْتها حَيَّة البَحْرِ

٧٢٩ - [معرفة العرب والأعراب بالحيوان]

وقلَّ معنًى سَمعناهُ في باب مَعْرِفةِ الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتبِ الأطبَّاءِ والمتكلمين - إلاَّ ونحنُ قد وجدناه أو قريباً منهُ في أشعار العَرب والأعراب، وَفي معرفةِ أهلِ لغَتنا وملّتنا. ولولا أنْ يطولَ الكتابُ لذكرتُ ذلك أجمع. وعلى أنِّي قد تركتُ تفسيرَ أشعارٍ كثيرة، وشواهد عديدة مما لا يعرفه إلاَّ الرَّاويةُ النِّحرير؛ مِنْ خوف التطويل.

٧٣٠ - [حمام النساء وحمام الفراخ]

وقال أفليمون صاحبُ الفِراسة: اجعل حمامَ النساء المسرْوَلاتِ العِظامَ الحِسانَ، ذواتِ الاختيال والتَّبختر والهدير؛ واجعل حمام الفراخِ ذواتِ الأنساب الشَّريفة والأعراق الكريمة، فإنّ الفراخَ إنَّما تكثُر عن حُسْن التعهُّد، ونظافَة القراميص(3) والبُروج. واتَّخذْ لهنَّ بيتاً محفوراً عَلَى خلقة الصَّومَعة، محفوفاً من أسفله إلى مقدارِ ثُلثَي حيطانه بالتماريد(4)، ولتَكُنْ واسعةً وليكن بينها حَجاز. وأجودُ ذلك أن تكونَ تماريدُها محفورةً في الحائطِ على ذلك المثال، وتعهَّد البُرْج

---

(١) صدر البيت (فإلاَّ يأتكم خبر يقين)، وهو لأبي الفضة قاتل أحمر بن شميط، وقد تقدم في مطلع باب «في صدق الظن وجودة الفراسة»، ص ٢٧.

(٢) البيت للأخطل في ديوانه ١٨١، والبيان ١/ ٢٧٠، والكنايات ٧٢، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٢/ ٩٧.

(٣) القراميص: جمع قرموص؛ وهو العش يبيض فيه الحمام «القاموس: قرمص».

(٤) التماريد: جمع تمراد، وهو بيت صغير في بيت الحمام لمبيضه «القاموس مرد».

بالكنس والرَّشِّ في زمان الرش، وليكن مخرجُهنَّ من كَوٍّ[1] في أعلى الصَّومعة، وليكن مقتصداً في السِّعة والضِّيق، بقدر ما يدخُل منه ويخرجُ منه الواحد بعد الواحد. وإن استطعتَ أن يكونَ البيتُ بقُربِ مزرعةٍ فافعلْ. فإنْ أعجزكَ المنسوبُ منها فالتمسْ ذلك بالفِراسةِ التي لا تخطئُ وقلَّما يُخطئُ. المتفرِّس.

قال: وليس كلُّ الهُدَّى تَقْوَى على الرّجعة من حيثُ أرسلتْ؛ لأنَّ منها ما تفضل قوَّتهُ على هدايته، ومنها البطيء وإن كان قويّاً، ومنها السَّريع وإن كان ضعيفاً، على قدر الحنين والاغترام. ولا بدَّ لجميعها من الصَّرامةِ، ومن التّعليم أوَّلاً والتَّوطين آخِراً.

٧٣١ - [جماع الفِراسة أربعة]

وقال[2]: جماع الفِرَاسةِ لا يَخرج من أربعة أوجه: أوَّلها التقطيع، الثاني المجسَّة، والثالث الشمائل، والرابع الحركة.

فالتقطيع: انتصاب العنق والخِلْقة، واستدارةُ الرأس من غير عِظَمٍ ولا صِغَر، مع عظم القرطمتين[3]، واتِّساع المنخرين، وانهرات الشدقين وهذان مِنْ أعلامِ الكَرَم في الخيل؛ للاستروحِ وغير ذلك. ثمّ حُسنُ خِلْقة العينين، وقِصر المنقار في غير دقّة ثمَّ اتّساعُ الصّدرِ وامتلاءُ الجؤجؤ، وطولُ العُنَق، وإشراف المنكبين، وطول القوادمِ في غير إفراط، ولحُوق بَعض الخوافي ببعض، وصلابة العَصَبِ في غير انتفاخٍ ولا يُبس واجتماعُ الخلْق في غير الجعودة والكَزَازَة ، وعِظَمُ الفخذين، وقصرَ الساقين والوظيفَين، وافتراق الأصابع، وقِصرَ الذَّنب وخفَّته، من غير تَفْنين وتفرُّق . ثم تَوَقُّد الحدَقتين، وصفاء اللَّون. فهذه أعلامُ الفِراسة في التقطيع.

وأمَّا أعلامُ المجسة، فَوثَاقةُ الخلْق، وشدَّة اللَّحم، ومَتانَة العَصَب، وصلاَبةُ القَصَب، ولينُ الرِّيش في غيرِ رِقّةٍ وصَلابَة المِنقارِ في غيرِ دقة.

وأمَّا أعلامُ الشمائل، فقلَّة الاخْتيال، وصفاءُ البصر وثباتُ النَّظَر وشدّة الحَذَر، وحسنُ التّلَفت، وقلَّةَ الرعْدةِ عنْدَ الفزع، وخفَّةُ النّهوض إذا طار، وَترْكُ المبادرةِ إذا لَقَطَ.

---

(١) الكوّ: الخرق في الحائط «القاموس: كوة».

(٢) انظر المخصص ٨ / ١٧٠، ونهاية الأرب ١٠ / ٢٧٠.

(٣) القرطمتان: نقطتان على أصل منقار الحمام «القاموس: قرطم».

وأمّا أعلام الحركة، فالطيران في علوٍّ، ومدُّ العُنق في سموٍّ، وقلة الاضطراب في جوِّ السماء، وضمُّ الجناحين في الهواء، وتَدافُعُ الركض في غير اختلاط، وحُسْنُ القَصْد في غيرِ دَوَرَانٍ، وشدَّةُ المدِّ في الطيران. فإذا أصبتَه جَامعاً لهذه الخصال فهو الطائر الكامل. وإلا فبقدر ما فيهِ من المحاسن تكون هدايته وفَرَاهتهُ.

٧٣٢ - [أدواء الحمام وعلاجها]

قال[١]: فاعلموا أنَّ الحمامَ من الطيرِ الرقيق، الذي تُسرِع إليه الآفة، وتَعْرُوهُ الأدواءُ، وطَبيعَتهُ الحَرارة واليُبْس. وأكثرُ أدوائه الخُنان[٢] والكباد[٣]، والعُطاش، والسل، والقُمَّل. فَهوَ يحتاجُ إلى المكان البارِد والنَّظيف، وإلى الحبوبِ البارِدَة كالعَدَس والماشِ والشّعير المنخول. والقُرْطَمُ له بمنزلة اللَّحم للإنسان؛ لما فيه من قوّةِ الدَّسم.

فممَّا يُعالَجُ به الكبادُ[٤]: الزَّعفران والسكر الطبَرْزَد، وماء الهندباء يجعل في سُكرَّجة، ثمَّ يُوجر ذَلك أو يمجُّ في حلقه مجّاً وهو على الرِّيق.

وممَّا يعالَجُ به الخُنان[٤]: أنْ يليِّنَ لسانَه يوماً أو يومين بدُهْن البنفسج، ثمَّ بالرَّمادِ والملحِ، يُدلَك بها حتَّى تنسلخ الجلدة العليا التي غشيت لسانَه. ثمَّ يطلى بعَسل ودَهنِ ورد، حتّى يبرأ.

وممَّا يعالج به السّل[٤]: أنْ يُطعَم الماشَ[٥] المقْشور، ويمجَّ في حلْقه من اللَّبن الحليبِ، ويُقطَعَ من وظيفَيْهِ عِرقان ظاهران في أسفل ذلك، مما يلي المفصل من باطن.

وممَّا يعالَجُ بهِ القُمَّل: أنْ يُطلى أصولُ ريشه بالزِّيبَق المحلّلِ بدُهن البنفسَج، يفعل بهِ ذلك مرَّاتٍ حتى يسقُطَ قملُه؛ ويُكْنَسَ مكَانُهُ الذي يكون فيهِ كنساً نظيفاً.

٧٣٣ - [تعليم الحمام]

وقال: اعلم أنَّ الحمامَ والطيرَ كلَّها لا يصلُح التَّغمير بهِ من البعْد. وهدايته على

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ٩٠.

(٢) الخنان: داء يأخذ الطير في حلوقها «القاموس: خن».

(٣) الكباد: وجع الكبد.

(٤) عيون الأخبار ٢ / ٩١، وفيه سرد لعلاج أمراض الحمام.

(٥) الماش: حب مدور أصغر من الحمص؛ أسمر اللون، يميل إلى الخضرة، يؤكل مطبوخاً.

قدْر التعليم، وعلى قدر التوطين. فأوّل ذلك أن يخرج إلى ظهر سطحٍ يعلو عليه، ويُنْصَبَ عليه علَمٌ يعرفُهُ، ويكونَ طيرانُه لا يجاوز مَحلَّتُه، وأن يكون عَلَفُه بالغداة والعَشيِّ، يُلقَى له فوقَ ذلك السَّطْح، قريباً من علَمه المنصوب له، حتَّى يألفَ المكانَ ويتعوَّدَ الرُّجوعَ إليه. ولكن ليَنْظُرْ مِنْ أيِّ شيء يتَّخذ العلمَ؟ فإنّه لا ينبغي أنْ يكون أسودَ، ولا يكون شيئاً تراه من البُعْدِ أسود. وكلما كان أعظمَ كان أدلَّ.

ولا ينبغي أن يطيِّره وزوجتَه معاً، ولكن يَنْتفُ أحدهُما ويطيِّر الآخر، ويُخرَجان إلى السَّطح جميعاً، ثمَّ يطيَّر الوافي الجناح؛ فإنّه ينازع إلى زوجته. وإذا عرَف المكان، ودَارَ ورَجع، وألِفَ ذلك الموضع، ونبتَ ريشُ الآخَرِ، صُنع به كذلك.

وأجود من ذلك أن يُخرَجا إلى السَّطْح وهما مقصوصان، حتّى يألفا ذلك الموضع، ثمَّ يطيَّرَ أحدُهُما قبلَ صاحبه، ويُصْنَعَ بالثّاني كما صنع بالأوّل.

وما أشبه قوله هذا بقول ماسرجويه؛ فإنهُ وصفَ في كتابه، طباعَ جميعِ الألبان، وشُرْبَها للدَّواء، فلمّا فرغَ من الصّفة قال: وقد وصفت لك حالَ الألبان في أنفسها، ولكن انظُرْ إلى من يسقيك اللَّبن؛ فإنَّكَ بدءاً تحتاجُ إلى تنظيف جوفك، وتحتاج إلى مَن يعرفُ مقدارَ علّتك من قدر اللّبن، وجنس علّتك من جنس اللَّبن.

٧٣٤ - [حوار مع نجار يفهم صناعته]

ومِثلُ ذلك قول نجّارٍ كان عندي، دعوته لتعليق[١] باب ثمينٍ كريم فقلت له: إنّ إحكامَ تعليق الباب شديدٌ، ولا يحسنه من مائة نجّارٍ نجّارٌ واحد. وقد يُذْكر بالحذْق في نجارة السقُوف والقباب، وهو لا يكمُلُ لتعليق بابٍ على تمامِ الاحكام فيه. والسقُوف، والقِباب عند العامَّة أصعب.

ولهذا أمثال: فمن ذلك أنّ الغلام والجاريةَ يشويان الجَدْيَ والحملَ ويحكمان الشيّ، وهما لا يُحكمانِ شيَّ جنبٍ. ومَن لا عِلْم له يظَنُّ أنَّ شيَّ البَعْض أهونُ من شيِّ الجميع!.

فقال لي: قد أحسنتَ حين أعلمْتَني أنّك تُبصر العمل، فإنَّ معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشفيق[٢]. فَعَلَّقه فاحكَمَ تَعليقَه؛ ثمَّ لم يكنْ عندي حَلْقةٌ لوجه الباب إذا أردتُ إصفاقه، فقلت له: أكره أن أحبسَك إلى أن يذهب الغلامُ إلى السوق

---

(١) تعليق الباب: تركيبه «القاموس: علق».

(٢) الشفق: الرديء من الأشياء «القاموس: شفق».

ويرجع. ولكن اثقبْ لي موضعها. فلما ثقَبهُ وأخذ حقّه ولأني ظَهرَه للانصراف، والتفت إليَّ فقال: قد جوّدتُ الثَّقب، ولكن انظُرْ أيُّ نجارٍ يدُقُّ فيه الزِّرَّة؛ فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شقّ الباب - والشق عيب - فعلمتُ أنّهُ يفهَمُ صِناعتَهُ فهماً تامّاً.

٧٣٥ - [قص الحَمام ونتفه]

وبعض الناس إذا أراد أن يعلِّم زوجاً قصّهُما ولم ينْتفْهما. وبين النَّتف والقصِّ بَونٌ بَعيد. والقصُّ كثير القصِّ لا يُوجعُ ولا يُقَرِّحُ مَغارِزَ قَصب الرِّيش، والنَّتْف يُوهن المنكِبين. فإذا نُتفَ الطائرُ مِراراً لم يقْوَ على الغاية، ولم يزَلْ واهنَ المنكِبين. ومتى أبطأ عليه فنتفهُ وقد جفّت أصولُه وقُربت من الطَّرح كان أهونَ عليه، وكلما كان النباتُ أطرأ كان أضرَّ عليه. وإنه ليبلغَ من مضرَّته، وأنّ الذّكَرَ لا يجيدُ الإلقاحَ، والأنثى لا تُجيد القَبول. وربّما نتفت الأنثى وقد احتشتْ بيضاً، وقد قارَبت أن تبيضَ، فتبطئُ بَعْدَ وقتها الأيّامَ؛ ورُبما أضرَّ ذلك بالبيض.

٧٣٦ - [زجْل الحمام]

قال: وإذا بَلغ الثَّاني مبلغَ الأوَّلِ في استواءِ الرِّيش، والاهتداء إلى العَلَم، طيِّرا جميعاً، ومُنعا من الاستقرار؛ إلاّ أن يظن بهما الإعياء والكلال. ثم يُوطِّنُ لهما المرَاجِلُ برّاً وبحْراً، من حيث يبصران إذا هما ارتفعا في الهواء السَّمتَ ونفْسَ العَلَم، وأقاصيَ ما كانا يريانه منها عند التَّباعد في الدّورَان والجوَلان. فإذا رَجَعا من ذلك المكانِ مَرَّات زُجلا من أبعَدَ منه - وقد كانوا مَرَّةً يعجبهم أن يزجُلوا من جميع التوطيناَت، ما لم تبعدْ، مرّتين مرَّتين - فلا يزالان كذلك حتَّى يبلغا الغاية، ويكون أحدهما محتبساً إذا أرسل صاحبه؛ ليتذكّره فيرجعَ إليه. فإنْ خيفَ عليه أن يكون قد ملَّ زوجتَه، عرضت عليه زوجةٌ أخرى قبل الزَّجل؛ فإذا تسنَّمَها مرَّة حيلَ بينه وبينها يومَه ذلك، ثمَّ عرضوها عليه قبل أنْ يُحمَل، فإذا أطاف بها نُحِّيت عنهُ، ثمَّ حُمِل إلى الزَّاجل؛ فإنَّ ذلك أسرعَ له.

وقال: اعلموا أنَّ أشدَّ المَرَاجِلِ ما قلَّتْ أعلامُه، كالصَّحارى والبِحار.

٧٣٧ - [اختلاف طباع الطير]

قال: والطير تختلفَ في الطِّباع اختلافاً شديداً: فمنها القويُّ، ومنها الضعيف، ومنها البطيء، ومنها السَّريع، ومنها الذَّهولُ، ومنها الذَّكورُ، ومنها القليل الصَّبرِ على العطش، ومنها الصَّبورُ. وذلك لا يخفى فيهنَّ عند التَّعليمِ والتَّوطين، في سرعة

الإجابة والإبطاء. فلا تبْعدَنّ غايَةَ الضَّعيفِ والذَّهولِ والقَليلِ الصَّبر على العطش، ولا تزجلنَّ ما كان منشؤه في بلا الحرِّ في بلادِ البرد، ولا ما كان منشؤه في بلاد البَرْد في بلاد الحرِّ؛ إلاَّ ما كان بعد الاعتياد. ولا يصبرُ على طول الطيران في غير هوائه وأجوائه طائرٌ إلا بطولِ الإقامةِ في ذلك المكان، ولا تستوي حاله وحالُ من لا يَعْدُو هَوَاءَه والهَوَاءَ الذي يقرُبُ من طِباع هوائه.

٧٣٨ - [تعليم الحمام ورود الماء]

قال: ولا بدَّ أن يُعلَّم الورودَ، فإذا أرَدتَ به ذلك فأوْردْه العيونَ والغُدْرانَ والأنهارَ، ثمَّ حُلْ بينه وبين النَّظر إلى الماء، حتى تكفَّ بصرَه بأصابعك عن جهة الماء واتِّساع المورد، إلاَّ بقدْر ما كان يشربُ فيه من المساقي، ثمَّ أوسَعْ له إذا عَبَّ قليلاً بقدر ما لا يَرُوعه ذلك المنْظر وليكنْ معطَّشاً؛ فإنّه أجدرُ أن يشرَب. تفعلُ به ذلك مراراً، ثمَّ تفسحُ له المنْظَر أوّلاً أوّلاً، حتَّى لا يُنكِر ما هو فيه. فلا تزالُ بهِ حتَّى يعتادَ الشُّربَ بغَيرِ سترة.

٧٣٩ - [استئناس الحمام واستيحاشه]

قال: واعلم أنَّ الحمامَ الأهليَّ الذي عايشَ النّاسَ، وشَرِب من المساقي ولَقَط في البيوت يختلُّ بالوَحدة، ويَستَوحِش بالغُربة.

قال: واعلم أنّ الوحشيَّ يستأنِس، والأهلي يستوحش

قال: واعلم أنّه ينسى التّأديبَ إذا أُهمِلَ، كما يتأدَّب بعد الإهمال.

٧٤٠ - [ترتيب الزجْل]

وإذا زَجَلتَ فلا تُخَطْرف به من نصف الغاية إلى الغاية، ولكن رتِّب ذلك؛ فإنّه ربّما اعتادَ المجيء من ذلك البُعد، فمتى أرسلتَه من أقربَ منه تحيَّر، وأرادَ أن يبتدئَ أمْرَه ابتداءً. وهم اليومَ لا يفعلون ذلك؛ لأنّه إذا بلغ الرَّقّة أو فوقَ ذلك شيئاً فقدْ صار عُقْدَةً، وصار له ثمنٌ وغَلّة. فهو لا يرى أن يُخاطر بشيءٍ له قدْر. ولكنّه إن جاءَ من هيتَ[١] أُدْرِبَ[٢] به؛ لأنّه إن ذهب لم يذهب شيءٌ له ثمن، ولا طائرٌ له رياسة؛ وليس له اسم ولا ذكر؛ وإن جاء جاء شيء كبير وخطير، وإن جاء من الغاية فَقَدْ حَوَى به ملكاً. على هذا هم اليوم.

---

(١) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار معجم البلدان ٥ / ٤٢١.

(٢) الدرب: كل مدخل إلى الروم أو النافذ منه، ودرَّب: عوَّد المشي في الدروب «القاموس: درب».

وقال: لا ترسِلِ الزَّاقَّ[1] حتى تستأنف به الرِّياضة ولا تَدَعْ ما تُعدُّه للزِّجال أن يحصن بيضاً، ولا يجثم عليه، فإنّ ذلك ممّا ينقُضه[2] ويُفَتِّحه[3]، ويعظم له رأسَه، لأنّه عندَ ذلك يسمَن وتكثُر رطوبتُه فتقذفُ الحرارة تلك الرُّطوبة الحادَّة العارضةَ إلى رأسه، فإن ثقَبَ البيضَ وزقَّ وحَضن، احتَجْت إلى تضميره واستئناف سياسته. ولكنْ إنْ بَدَا لكَ أن تستفرخه فانقُلْ بيضَهُ إلى غيره، بَعْدَ أن تُعْلِمه بعلامةٍ تعرِفُه بها إذا انصَدَع.

٧٤١ - [علاج الحمام الفزع]

وإن أصاب الحمامَ أيضاً فَزَعٌ وذُعْرٌ؛ عن طلب شيء من الجوارح له، فإيَّاك أن تُعيدَه إلى الزَّجل حتّى ترضمه[4] وتستفرخه؛ فإن ذلك الذُّعْرَ لا يفارقُه ولا يسكن حتى تستأنفَ به التّوطين.

٧٤٢ - [طريقة استكثار الفراخ]

وإنْ أردتَ أن تستكثرَ من الفراخ فاعزِلِ الذُّكورةَ عن الإناث شهراً أو نحوَه، حتى يصول بعضها على بعض، ثم اجمعْ بينها؛ فإنّ بيضها سيكثُر ويقلُّ سَقطهُ ومُرُوقه. وكذلك كلُّ أرضٍ أثيرت، وكذلك الحِيالُ لما كان من الحيوان حائلاً[5]. قال الأعشى[6]: [من الخفيف]

مِنْ سَرَاة الهِجَانِ صَلَّبَهَا العُـ ـضُّ ورَعْيُ الحِمَى وطُولُ الحِيَالِ

وقال الحارث بن عباد[7] وجَعَل ذلك مثلاً: [من الخفيف]

قَرِّبا مَرْبِط النَّعامةِ مِنِّي لَقِحَتْ حَرْبُ وائل عن حِيَالِ

---

(١) زقّ الطائر فراخه: أطعمها بمنقاره.

(٢) ينقضه: يضعف قوته.

(٣) تفتحه: تسمنه، وفي القاموس «ناقة مفاتيح، وأينق مفاتيحات: سمان» «القاموس: فتح».

(٤) رضمت الطير: ثبتت «القاموس: رضم».

(٥) صارت إبله حائلاً: أي لم تحمل «القاموس: حول».

(٦) ديوان الأعشى ٥٥، واللسان والتاج (صلب، عضض)، والجمهرة ١٤٦، والمقاييس ٤/٥٠، والعين ١/٧٢، والتنبيه والإيضاح ١/١٠٣، وبلا نسبة في اللسان (حيل، هجن، حما، سرا)، والتاج (حمي).

(٧) البيت للحارث بن عباد في الأصمعيات ٧١، والحماسة البصرية ١/١٦، وذيل الأمالي٢٧، والخزانة ١/٤٧٢، ٤٧٣، والسمط ٧٥٧، والأغاني ٥/٤٧، ٤/٥٩، وديوان المعاني ٢/٦٣، واللسان (قلص، نعم، عنن)، والتاج (نعم، عنن)، وأساس البلاغة (حول، لقح)، والصاحبي في فقه اللغة ٢٠٨، وانظر حاشية الحماسة البصرية.

٧٤٣ - [حديث أفليمون عن نفع الحمام]

وقال أفليمون صاحب الفراسة، لصاحبه: وأنا محدِّثك عن نفَع الحمام بحديثٍ يزيدُك رغبة فيها: وذلك أنَّ مَلكَين طلب أحدُهما مُلْكَ صاحبه، وكان المطلوبُ أكثرَ مالاً وأقلَّ رجالاً، وأخصب بلاداً، وكانت بينهما مسافةٌ من الأرض بعيدة، فلما بلغَه ذلك دعا خاصَّته فشاوَرَهُمْ في أمْره وشَكا إليهم خوفَه على مُلكه، فقال له بعضهم: دامتْ لك أيُّها الملكُ السلامةُ، ووُقيتَ المكروه! إنَّ الذي تاقَتْ له نفسك قد يُحتالُ له باليَسيرِ من الطمع، وليسَ منْ شأن العاقلِ التَّغريرُ، وليس بعد المُناجَزَة بقيّة، والمناجزُ لا يدري لمن تكون الغَلَبة، والتمسُّك بالثقةِ خيرٌ من الإقدام على الغَرر.

وقال بعضهم: دامَ لك العزُّ، ومُدّ لك في البقاء! ليسَ في الذُّلِّ دَرَكٌ ولا في الرِّضا بالضيمِ بقيَّة، فالرَّأيُ اتخاذ الحُصون وإذكاءُ العُيونِ، والاستعدادُ للقتال؛ فإنّ الموتَ في عزٍّ خيرٌ من الحياة في ذلّ!.

وقال بعضهم: وُقيتَ وكُفيت، وأُعطيتَ فَضْلَ المزيد! الرَّأيُ طلب المصاهرة له والخِطْبة إليه؛ فإنّ الصهرَ سببُ أُلفةٍ تقعُ به الحُرْمةُ، وتثبت به المودَّة، وَيُحلُّ به صاحَبُهُ المحلَّ الأدنى. ومنْ حلَّ من صاحبه هذا المحلَّ لم يخلِّه مما عَراه، ولم يمتنع من مناوأة من ناواه. فالتمس خِلطَتهُ؛ فإنّه ليسَ بَعْدَ الخِلطةِ عداوةٌ، ولا مَع الشِّركة مبايَنة!

فقال لهم الملك: كلٌّ قد أشارَ برأيٍ، ولكلٌّ مدَّة، وأنا ناظرٌ في قولكم، وباللّه العصمة، وبشكره تتمُّ النعمة. وأظهَرَ الخطبة إلى الملكِ الذي فَوقَه، وأرسل رُسلاً، وأهدى هدايا، وأمَرَهُم بمصانعةِ جميع مَنَ يَصِلِ إليه، ودَسَّ رجالاً من ثقاته، وأمَرهُم باتِّخاذ الحمام في بلاده وتَوطينِهنَّ، واتخذ أيضاً عندَ نفسه مثلهنَّ، فرفَّعهن من غايةٍ إلى غاية. فجعلَ هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم، وجعل مَن عندَ الملكِ يرسلون من بلاد الملك، وأمرهمْ بمكاتَبته بخبرِ كلِّ يوم، وتعليقِ الكتُب في أصولِ أجنحة الحمام. فصار لا يخفى عليه شيءٌ من أمره. وأطمعَه الْملك في التزويج واستَفردَهُ[1] وطاولَه، وتَابعَ بين الهدايا، ودسَّ لحرسه رجالاً يلاطفونَهمْ حتى صاروا يبيتون بأبوابه معهم. فلمَّا كتبَ أصحابهُ إليه بغِرتّهم وصل الخبر إليه من يومِه، فسار إليه في جندٍ

(١) أفرده: عزله، وإليه رسولاً: جهزه «القاموس: فرد».

قد انتخبهم، حتى إذا كان على ليلةٍ أو بَعْض ليلة، أخذ بمجامع الطُّرُق، ثم بيَّتَهُمْ[1] ووثَبَ أصحابهُ من داخِل المدينة وهو وجنده من خارج، ففَتحوا الأبوابَ وقَتلوا المَلك. وأصبَحَ قد غَلَبَ على تلك المدينة، وعلى تلك المملكة، فَعظُمَ شأنُه، وأعظَمتْه الملوك، وذُكِر فيهم بالحزْم والكَيْد.

وإنما كان سبب ذلك كلِّه الحمام!.

٧٤٤ - [حديث آخر في نفع الحمام]

قال: وأحدِّثك عن الحمام أيضًا بحديثٍ آخر في أمر النساء والرِّجال وما يصابُ من اللَّذَّة فيهنَّ، والصَّواب في معاملتهنَّ. قال: وذلك أنَّ رجلاً أتَاني مرَّةً فَشَكا إليَّ حاله في فتاةٍ عُلِّقها فتزوّجها، وكات جاريةٌ غِرًّا حسناء، وكانت بكرًا ذاتَ عقلٍ وحياء، وكانتْ غَريرةً فيما يحسِن النِّساءُ من استمالة أهواء الرِّجال، ومنْ أخْذها بنصيبها من لذّة النساء فلما دخَلَ بها امتنعتْ عليه، ودافَعته عن نفسها، فَزاولها بكلِّ ضربِ كان يحسنُهُ من لَطف، وأدخل عليها من نسائه ونسائها مَنْ ظَنَّ أنَّها تقبَل منهنّ، فأعيتْهُن، حتى همَّ برفضها مع شدَّة وجْده بها، فأتَاني فشكا ذلك إليَّ مرةً، فأمرْته أن يُفْردها ويخلِّيَها من الناس، فلا يَصلَ إليها أحدٌ، وأنْ يضْعفَ لها الكرامة في اللّطف والإقامة لما يُصلحها من مَطعَم ومشرَبٍ ومَلبس وطيبٍ وغير ذلك، مما تلهو به امرأةٌ وتُعجَبُ به، وأنْ يجعَلَ خادمَها أعجميَّةً لا تَفْهَم عنها، وهي في ذلك عاقلة، ولا تفْهمُها إلاّ بالإيماء؛ حتى تستوحشَ إليها وإلى كل من يصل إليها من النِّساء وحتى تشتهيَ أن تجدَ مَنْ يراجعها الكَلام وتشكو إليه وحْشة الوَحْدة، وأنْ يَدخِل عليها أزواجًا من الحَمام، ذوات صورةٍ حسنة، وتخَيُّل وهدير فيُصَيِّرَهُنّ في بيتٍ نظيف، ويجعل لهنّ في البيت تماريد[2] وبين يدي البيت حجْرة نظيفة، ويفتح لها من بيتها بابًا فيصرْن نُصْبَ عينها فتلهو بهن وتنظر إليهنَّ، ويجعل دخوله عليها في اليوم دَفْعَةً إلى تلك الحمام. والتسلّي بهنّ، والاستدعاء لهنّ إلى الهدير ساعة، ثم يخرج، فإنَّها لا تلبث أنْ تتفكّر في صنيعهنّ إذا رأتْ حالهن؛ فإنَّ الطَّبيعةَ لا تَلبَثُ حتى تحرّكها، ويكون أوفقُ المقاعد لها الدنّو منهن، وأغلبُ الملاهي عليها النَّظَرَ إليهن؛ لأنَّ الحواس لا تؤدي إلى النَّفس شيئًا من قِبَل السمعِ، والبَصر، والذوق، والشم والمجسّة إلاّ تحرّك مِنَ العَقْل قي قَبُولِ ذلك أوْ رَدِّه، والاحتيالِ في إصابته أو دفعه،

---

(١) بيتهم: أوقع بهم ليلاً «القاموس: بيت».

(٢) التماريد: جمع تمراد، وهو بيت صغير في بيت الحمام لمبيضه. «القاموس: مرد».

والكراهية له أو السُّرور به بقدر ما حرّك النَّفسَ منه. فإذا رأيتَ الغالبَ عليها الدنوّ منهنّ، والتأمُّل لهن، فأدخِلْ عليها امرأةً مجرِّبة غَزلة تأنس بها، وتفطُنها لصنيعهنّ، وتعجُّبُها منهنّ، وتستميل فكرتها إليهنّ، وتَصِف لها موقعَ اللّذّة على قدْر ما ترى من تحريك الشّهوة. ثمّ أخرِج المرأة عنها، وحاوِل الدُّنو منها، فإنْ رأيتَ كراهيَةً أمسكْت وأعدْتَ المرأةَ إليها، فإنها لا تلبَث أن تمْكنَك. فإنْ فعلتْ ما تحبُّ وأمكنَتْك بعض الإمكان، ولم تَبْلُغ ما تريد فأخبرني بذلكَ.

قال: وقلتُ له: مُر المرأةَ فلتسألها عن حالها في نفسها، وحالك عندها، فلعَلّ فيها طبيعةً من الحياء تَمْنَعُها من الانبساط، ولعلَّها غرٌّ لا يُلتمَس ما قبَلها من الخرَق[1]. ففعل، وأمر المرأة أن تكشفها عن ذات نفسها، فشكت إليها الخَرَق[1]، فأشارت عليها بالمتابعة، وقالت: اعتبري بما تَرينَ من هذا الحمام؛ فقد تَرَين الزّوجين كيفَ يصنعان! قالت: قد تأمَّلت ذلك فعجبتُ منه، ولستُ أحْسنُه! فقالت لها: لا تمنعي يدَهُ ولا تحملي على نفسك الهيبةَ، وإنْ وجدتِ من نفَسك شيئًا تدعوكِ إليه لذّةٌ فاصنَعيه؛ فإنَّ ذلك يأخُذُ بقلبه، ويزيدُ في محبَّتكِ، ويحرِّك ذلك منهُ أكثرَ مما أعطاك. فلم يلبثْ أنْ نال حاجتَه وذهبت الحشمة، وسَقطت المداراة فكان سببُ الصُّنع لهما، والخروج من الوَحْشة إلى الأُنس، ومن الحال الدّاعية إلى مفارقتها إلى الحال الدّاعية إلى ملازمتها، والضَّنِّ بها – الحمام.

٧٤٥ – [الخوف على النساء من الحمام]

وما أكثرَ منَ الرِّجال، من ليسَ يمنَعُه من إدخال الحمام إلى نسائه الاّ هذا الشيء الذي حثَّ عليه صاحبُ الفراسة؛ وذلك أنَّ تلك الرُّؤيةَ قد تذكِّر وتشهِّي وتَمْحَن[2]. وأكثرُ النِّساء بين ثلاثة أحوال: إمَّا امرأة قد مات زَوجُها، فتحريكُ طباعها خطار بأمانتها وعَفافها. والمُغيبة[3] في مثل هذا المعنى. والثَّالثة: امرأةٌ قد طَال لُبثها مع زوْجها؛ فقد ذَهب الاستطراف، وماتت الشهوة. وإذا رأت ذلك تحرَّك منها كلُّ ساكن وذكَرَتْ ما كانتْ عنه بمندوحة.

والمرأة سليمة الدين والعرْضِ والقَلب، ما لم تَهْجسْ في صدرها الخواطر، ولم تتوهَّمْ حالاتِ اللَّذَّة وتحرُّك الشَهوة. فأمَّا إذا وقع ذلك فَعزْمُها أضعفُ العَزم، وعزْمُها على ركوب الهوى أقوى العَزْم.

---

(١) الخرَق: الدَّهش من خوف أو حياء «القاموس: خرق».

(٢) تمحن: تصيب بالمحن والبلية.

(٣) امرأة مُغيّبة: غاب عنها زوجها «القاموس: غيب».

فأمَّا الأبكارُ الغريرات فهنَّ إلى أن يُؤْخذْن بالقراءة في المصحف، ويُحتالَ لهن حتى يصرْنَ إلى حال التشييخ والجبن والكَزَازَة[١] وحتَّى لا يسمعَن من أحاديث البَاهِ والغَزَل قليلاً ولا كثيرا - أحوجُ.

٧٤٦ - [نادرة لعجوز أعجمية][٢]

ولقد ركبتْ عجوزٌ سنديةٌ ظهر بعير، فلما أقبَلَ بها هذا البعيرُ وأدبر وطمَر، فمخَضها مَرَّةً مخضَ السقاء، وجعلَها مَرَّةً كأنَّها ترْهَزُ[٣] فقالت بلسانها - وهي سنديّةٌ أعجميَّة - أخزَى اللّه هذا الذَّمل؛ فإنَه يذكِّر بالسِّرّ[٤]! تريد: أخزى اللّه هذا الجمل، فإنه يذكِّر بالشر. حدثنا بهذه النادرة محمَّد بن عبَّاد بن كاسب.

٧٤٧ - [نادرة لعجوز أعرابية]

وحدَّثنا رِبْعيٌّ الأنصاريُّ: أنَّ عجوزاً من الأعرابِ جَلستْ في طريق مكة إلي فتيان يشربون نبيذاً لهم، فسقَوْها قَدَحًا فطابت نفسُها، وتبسمت؛ ثمَّ سقَوْها قدحا آخرَ فاحمرَّ وجهها وضَحكت، فسقَوْها قدَحًا ثالثًا فقالت: خبِّروي عن نسائكم بالعراق، أيشرَبْنَ من هذا الشراب؟فقالوا: نعم. فقالت: زَنَيْنَ وربِّ الكعبة!

٧٤٨ - [عقاب خصيّ بسبب الحمام]

وزعم إبراهيم الأنصاريُّ المعتزليُّ أنَّ عباس بن يزيد بن جريرٍ دخَلَ مقصورة لبعض حَواريه، فأبصَرَ حماماً قد قَمط حمامةً، ثمَّ كسَحَ بذنبه ونفَش ريشه، فقال: لمن هذا الحمام؟ فقالوا: لفلانٍ خادِمك - يعْنونَ خَصيًّا له - فقدّمه فضَرَبَ عنقهُ.

٧٤٩ - [داعية الزنا][٥]

وقد قال الحطيئة لفتيان من بني قُرَيع - وقد كانوا ربَّما جلَسُوا بقُرب خَيْمته، فتغَنَّى بعضُهمْ غناء الرّكبان - فقال: يا بني قريعْ! إيَّايَ والغناءَ؛ فإنّه داعيةُ الزِّنَا[٦]!.

---

(١) الكزازة: البخل «القاموس: كزز».

(٢) الخبر في البيان والتبيين ١ / ٧٤.

(٣) الرهز: حركة الرجل والمرأة عند الجماع «اللسان: رهز»

(٤) السرُّ: النكاح «القاموس: سرر»، ولم ترد العجوز ذلك، بل أرادت «الشر» كما ذكر الجاحظ.

(٥) الخبر في الأغاني ٢ /١٧٩، وثمار القلوب (٩٥٥)، والشعر والشعراء ١ /٣٢٧، وانظر مثل هذا الخبر في الأغاني ٤ /٢٧٣، والتوفيق للتلفيق ١٩٨.

(٦) في مجمع الأمثال ٢ /٦٧ (الغناء رقية الزنا)، وهذا المثل ينسب إلى أكثم بن صيفي وإلى بزرجمهر في العقد الفريد ٣ /٧٧، وإحكام صنعة الكلام ٣٨.

٧٥٠ - [حمام واسط]

وأما أبو أحمد التمار المتكلم، فإنّه شاهدَ صاحبَ حمامٍ في يوم مجيء حَمامه من واسط، وكانت واسط يومئذ الغايَة، فرآه كلما أقبلَ طائرٌ من حمامه نعر[١] ورَقَص، فقال له: واللّه إني لأرَى منك عجباً؛ أراك تفْرَحُ بأن جاءك حمامٌ من واسط، وهو ذلك الذي كان، وهو الذي جاء. وهو الذي اهتدى؛ وأنتَ لم تجئ ولم تهتَد؛ وحين جاءَ من واسط، لم يجئ معه بشيءٍ من خبر أبي حمزة، ولا بشيءٍ من مقاريض[٢] واسط، وبزيون[٣] واسط، ولا جاء معه أيضًا بشيء من خِطْمِيٍّ[٤]، ولا بشيءٍ من جوز ولا بشيءٍ من زبيب. وقد مرَّ بكسكَرَ[٥] فأين كان عن جِدَاء كسكر، ودَجاج كسكر، وسمك كسكر، وصحناة[٦] كسكر، ورُبيثاء كسكر وشَعير كسكر؟! وذهب صحيحًا نشيطًا، ورجع مريضاً كسلان، وقد غرمت ما غرمت!! فقل لي: ما وجه فرحك؟ فقال: فرحي أنِّي أرجو أن أبيعه بخمسين ديناراً. قال: ومَن يشتريه منك بخمسين ديناراً؟ قال: فلان، وفلان. فقام ومضى إلى فلان فقال: زعم فلان أنّك تشتري منه حمامًا جاءَ من واسط بخمسين دينْاراً؟ قال: صدق. قال: فقل لي لم تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: لأنّه جاء من واسط. قال: فإذا جاء من واسط فلِمَ تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: لأنِّي أبيع الفرخَ منه بثلاَثة دنانير، والبيضة بدينارين. قال: ومن يشتري منك؟ قال: مثلُ فلان وفلان. فأخَذ نَعْله ومضى إلى فلان، فقال: زعم فلان أنّك تشتْري منه فرخًا من طائرٍ جاءَ من واسط بثلاثة دنانير، والبيضةَ بدينارَين. قال: صَدَق، قال: فقل لي: لِمَ تشتري فرخَة بثلاثة دنانير؟ قال: لأنَّ أباه جاء من واسط. قال: ولِمَ تشتريه بثلاثة دنانير إذا جاء أبوه من واسط؟ قال: لأني أرجو أن يجيءَ من واسط. قال: وإذا جاء من واسط فأيَّ شيء يكون؟ قال: يكون أن أبيعَه بخمسين ديناراً. قال: ومَن يشتريه منك بخمسين ديناراً؟ قال: فلان. فتركَه ومضى إلى فلانٍ، فقال: زعم فلان أنّ فرخًا من فراخه إذا جاء أَبُوه من واسط اشتريته أنت منه

---

(١) نعر: صاح «القاموس: نعر».

(٢) في القاموس «قرض»: (المقارض: أوعية الخمر، والجرار الكبار).

(٣) البزيون: السندس، وهو رقيق الديباج «القاموس: بزيون، سندس»

(٤) الخطمي: نبات محلِّل منضِّج مليِّن،نافع لعسر البول والحصا والنسا وقرحة الأمعاء والارتعاش وتسكين الوجع «القاموس: خطم».

(٥) كسكر: كورة بين الكوفة والبصرة. معجم البلدان ٤ / ٤٦١ .

(٦) الصحناة: إدام يتخذ من السمك الصغار والملح «القاموس: صحن».

بخمسين ديناراً. قال: صدق. قال: ولم تشتريه بخمسين ديناراً قال: لأنَّه جاء من واسط. قال: وإذا جاء من واسط لم تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: فأعاد عليه مثل قولِ الأوَّل. فقل:لا رزق اللّه من يشتري حماماً جاء من واسط بخمسين ديناراً، ولا رزق اللّه إلاَّ مَن لا يشتريه بقليل ولا بكثير.

٧٥١ - [نوادر لأبي أحمد التمار]

وأبو أحمد هذا هو الذي قال – وهو يعظ بعض المسرفين – لو أنَّ رجلاً كانت عنده ألفُ ألف دينار ثم أنْفقها كلَّها لذهبت كلها. وإنما سمع قول القائل: لو أنَّ رجلاً عنده ألفُ ألفِ دينار فأخَذَ منها ولم يضَعْ عليها لكان خليقاً أن يأتي عليها.

وهو القائل في قصَصه: ولقد عظَّمَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حقَّ الجارِ، وقال فيه قولاً أستحْيي واللّه من ذكره!

وهو الذي قال لبعضهم: بلغني أنَّ في بستانك أشياءَ تهمّني، فأحبُّ أن تَهَبَ لي منه أمراً من أمْرِ اللّه عظيم.

وكان زَجَّالاً قبل أن يكون تماراً.

وزعم سليمان الزجَّال وأخوه ثابت، أنّه قبل أن يكون تماراً قال يوماً – وذكر الحمام، حينَ زَهِد في بيع الحمام؛ وذكَرَ بعضَ الملوك – فقال: أمَّا فلان فإنّه لما بلغني أنه يلعبُ بالحمام سقط من عيني!

واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

تمَّ القولُ في الحمام، والحمد للّه وحدَه.

بـــاب

القول في أجناس الذِّبّان

بسم اللّه، وباللّه والحمد للّه ولا حَولَ ولا قُوَّة إلا باللّه. وصلّى اللّه على سيِّدنَا محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبِه وسلّم، وعلى أبرار عِتْرَتِه الطيِّبينَ الأخيار.

أوصيك أيُّها القارئ المتفهِّم، وأيهُا المستمعُ المنصت المصيخ، ألاّ تحقِرَ شيئاً أبداً لصغر جثَّته، ولا تستصغر قدرَه لقلَّة ثمنٍ.

٧٥٢ - [دلالة الدقيق من الخلق على اللّه]

ثمّ َ اعلمْ أنَّ الجبلَ ليس بأدلّ على اللّه من الحصاة، ولا الفَلكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلَّ عَلَى اللّه من بَدَن الإنسان. وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقَهُ كعظيمه وجليله. ولم تفترق الأمورُ في حقائقها، وإنما افترقَ المفكّرون فيها، ومَن أهمَل النَّظرَ، وأغفَلَ مواضع الفَرْق، وفَصولَ الحدود.

فمنْ قِبَلِ تركِ النَّظر، ومن قِبَلِ قطْع النَّظر، ومن قِبَل النظر من غير وجه النَّظَر، ومن قِبَل الإخلال ببعض المقدّمات، ومن قِبَل ابتداء النَّظر من جهَة النَّظرِ، واستتمام النظر مع انتظام المقدّمات – اختلَفوا.

فهذه الخصالُ هِيَ جُمَّاع هذا الباب، إلاّ ما لم نذْكرْه من باب العجز والنقص، فإن الذي امتنع من المعرفة من قِبَل النُّقصان الذي في الخلقة بابٌ عَلَى حِدة.

وإنما ذكرنا بَابَ الخطأ والصَّواب، والتَّقصير والتكميل. فإياك أن تسيءَ الظَّنّ بشيءٍ من الحيوان لاضطراب الخلق، ولتفاوُت التركيب، ولأنّه مشنوءٌ في العين، أو لأنّه قليلُ النّفعِ والرَّدِّ؛ فإنَّ الذي تظُنُّ أنّه أقلُّها نفعاً لعله أن يكون أكثرَها ردًّا، فإلاّ يكن ذلك من جهة عاجلِ أمرِ الدنيا، كان ذلك في آجل أمر الدين. وثوابُ الدين وعقابُهُ باقيان، ومنافعُ الدنيا فانية زائلة؛ فلذلك قدِّمت الآخرة على الأولى.

فإذا رأيتَ شيئًا من الحيوان بعيداً من المعاوَنة، وجاهلاً بسبب المكانَفَةِ[1]، أو

---

(١) المكانفة: المعاونة «القاموس: كنف».

كان مما يشتدُّ ضررُه، وتشتدُّ الحِراسة منهُ، كذوات الأنياب من الحيَّات والذئاب وذواتِ المخالبِ من الأسْدِ والنُّمور، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدَّبْر، فاعلم أنّ مواقع منافعها من جهة الامتحان، والبلَوى. ومن جهة ما أعد اللّه عزَّ وجلَّ للصابرين، ولمن فهم عنه، ولمن علم أنَّ الاختيارَ والاختبَار لا يكونان والدنيا كلُّها شرٌّ صِرْفٌ أو خيرٌ محْض؛ فإنّ ذلك لا يكون إلاَّ بالمزواجة بين المكروه والمحبوب، والمُؤلم والملذّ، والمحقَّر والمعظَّم، والمأمُون والمخوف. فإذا كان الحظُّ الأوَفرُ في الاختبار والاختيار. وبهما يُتوسل إلى ولاية اللّه عزّ وجلّ، وآبد[1] كرامته، وكان ذلك إنما يكون في الدار الممزوجة من الخير والشرِّ، والمشتركة والمركّبة بالنّفْع والضر، المشوبة باليُسْرِ والعسْر- فليعلَمْ موضعَ النَّفْع في خلْق العقرب، ومكانَ الصُّنْع في خَلْق الحيَّة، فلا يحقرنَّ الجرْجس[2] والفَرَاشَ والذرَّ والذِّبان ولْتقفْ حتىَّ تتفكَّرَ في الباب الذي رميتُ إليك بجمْلَته، فإنّك ستكْثِرُ حَمْدَ اللّه عَزَّ وجَلَّ على خلْق الهمجِ والحشرَات وذواتِ السُّمومِ والأنياب، كما تحمَده عَلَى خلقِ الأغذيةِ من الماءِ والنَّسيم.

فإنْ أردتَ الزِّراية والتَّحقيرَ، والعَداوة والتَّصغير، فاصرفْ ذلك كلَّهُ إلى الجنِّ والإنس، واحقرْ منهم كلَّ مَن عمِل عملاً من جهةِ الاختيار يستوجبُ به الاحتقار، ويستحقُّ به غايةَ المقْت من وجهٍ، والتصغيرَ من وجه.

فإن أنت أبغضت من جهة الطبيعة، واستَثْقَلت من جهة الفطرة ضربينِ من الحَيَوان: ضربًا يقتلك بسمه، وضربًا يقتلك بشدة أسْره[3] لم تُلَمْ. إلاّ أنّ عليك أنْ تَعلَمَ أنّ خالقَهما لم يخلقْهما لأذاك، وإنما خلقهما لتصبَر عَلَى أذاهما، ولأن تنالَ بالصَّبر الدَرجةَ التي يستحيل أنْ تنالها إلاّ بالصَّبر. والصبر لا يكُونَ إلاّ عَلى حَالٍ مكروه. فسواءٌ عليك أكان المكروه سبُعاً وثَّابًا، أو كان مَرَضًا قاتلاً، وعَلَى أنّك لا تدري لعلَّ النزْعَ[4]، والعَلَزَ[5] والحشْرَجة، أن يكون أشدَّ من لدْغ حيَّة، وضَغْمَةِ[6]

---

(١) آبد: دائم «القاموس: أبد».

(٢) الجرجس: البعوض الصغار «القاموس: جرجس».

(٣) الأسر: الشد والعصب وشدة الخَلْق والخُلُق «القاموس: أسر».

(٤) يقال: هو في النزع: أي قلع الحياة «القاموس: نزع».

(٥) العلز: هلع يصيب المحتضر «القاموس: علز».

(٦) الضغمة: العضّة «القاموس: ضغم».

سبعٍ. فإلاّ تكُنْ له حُرقةٌ كحرق النار وألمٌ كألم الدّهق[1]، فلعلَّ هناك من الكَرْب ما يكون موقعهُ من النَّفس فوقَ ذلك.

وقد عمنا أنّ النَّاس يُسَمُّون الانتظار لوقع السيف علَى صليف[2] العُنق جهَدْ البلاءِ؛ وليس ذلك الجهد من شكل لذْع النار، ولا من شكل ألم الضربِ بالعصا. فافهم فهمَكَ اللّه مواقع النفع كما يعرفها أهلُ الحكمة وأصحاب الأحْسَاس الصحيحة.

ولا تَذْهب في الأمورِ مذهَبَ العامّة، وقد جَعَلَكَ اللّهُ تعَالى من الخاصة، فإنك مسؤول عن هذه الفضيلة، لأنّها لم تجعلِ لعبًا ، ولم تترَكْ هَمَلاً. واصرِفْ بُغضك إلى مُريد ظلمكَ، لا يراقب فيكَ إلاً ولا ذمَّة، ولا مودةً، ولا كتابًا ولا سنَّة. وكلما زادك اللّه عزَّ وجلَّ نعمة ازدادَ عليك حنَقاً، ولكَ بُغْضًا. وفرّ كلَّ الفرارِ واهرُبْ كلَّ الهرب، واحترسْ كلّ الاحتراس، ممن لايراقب اللّه عزَّ وجلَّ؛ فإنه لا يخلو من أحد أمرين، إمَّا أن يكون لا يعرفُ ربَّهُ مع ظهور آياته ودلالاته، وسبوغِ آلائه، وتتابُع نَعَمائه، ومع برهانات رُسله، وبيانِ كتبهِ؛ وإمَّا أنْ يكونَ به عارفًا وبدينه موقنًا، وعليهِ مجترئًا، وبحُرماته مستخفًّا. فإن كان بحقِّه جاهلاً فهو بحقِّك أجهل، وله أنْكَر. وإن كان به عارفًا وعليه مجترئاً فهو عليك أجرأ، ولحقوقك أضيَع ولأياديك أكفر.

فأمَّا خلْق البَعوضةِ والنَّملة والفَرَاشةِ والذَّرَّة والذّبّان والجعْلان، واليعاسيب والجراد – فإياك أن تتهاونَ بشأن هذا الجُنْد، وتستخف بالآلة التي في هذا الذَّرْء[3]؛ فَربَّتَ أمة قد أجلاها عن بلادها النملُ، ونقلَها عن مساقطِ رؤوسها الذَّرُّ، وأُهلكت بالفأر، وجُردت بالجرَاد، وعُذِّبت بالبعوض، وأفسَدَ عيشها الذِّبَّان، فهي جُندٌ إن أراد اللّه عزَّ وجلَّ أن يهلِكَ بها قومًا بَعْدَ طُغْيانهم وتجبُّرهم وعتوِّهم؛ ليعرفوا أو ليُعرفَ بهم أنَّ كثيرَ أمرِهم، لا يقوم بالقليلِ من أمر اللّه عَزّ وجلّ. وفيها بَعْدُ مُعتبرٌ لمن اعتبر، وموعظةٌ لمن فكّر، وصلاحٌ لمن استبصر، وبلوَى ومحْنة، وعذابٌ ونِقْمة، وحُجَّة صادقة، وآيةٌ واضحة، وسَبَبٌ إلى الصّبْرِ والفِكْرَةِ. وَهما جِمَاع الخيرِ في باب المعْرفة والاستبانة، وفي بابِ الأجْر وعِظَمِ المثوبة.

---

(١) الدهق: خشبتان يغمز بهما الساق «القاموس: دهق».

(٢) صليف العنق: عُرْضُه «القاموس: صلف».

(٣) الذرء: النسل والخلق «القاموس: ذرأ».

وسَنَذْكر جملةً من حال الذّبّان، ثم نقولُ في جملةِ ما يَحضرُنا منْ شَأْنِ الغِرْبانِ والجعلانِ.

٧٥٣ - [أمثال في الفراش والذباب]

ويقال في موضع الذمِّ والهجاء: «ما هُمْ إلاّ فَراشُ نارٍ وَذِبَّانُ طَمَعٍ»[١]. وَيقال: «أطْيَشْ مِنْ فَراشَة»[٢]، «وأزهى مِنْ ذِبانٍ»[٣].

وقال الشاعر[٤]: [من الوافر]

كأنَّ بني ذويبة رهْطَ سلمَى فَرَاشٌ حول نارٍ يَصْطلينا
يُطَفْنَ بحرِّها ويَقَعْنَ فيها ولا يَدْرِينَ ماذا يتَّقينا

والعرب تجعل الفَراشَ والنَّحلَ والزَّنابيرَ والدَّبْر كلَّها من الذِّبان. وأما قولهم: «أزهى مِنْ ذُباب» فلأنَ الذُّباب يسقُط على أنفِ الملكِ الجبَّار، وعلى موُقِ عينيه ليأكله، ثم يطرده فَلا ينطرد.

٧٥٤ - [أمثال في الأنف]

والأنف هو النَّخْوة وموضعُ التَّجبرِ.

وكان من شأن البطارقة[٥] وقوَّاد الملوك إذا أنفوا من شيء أن ينخِروا كما ينْخِر الثَّورُ عندَ الذَّبحِ، والبِرذونُ عند النَّشاط.

والأنف هو موضعُ الخُنْزُوانة[٦] والنُّعَرةِ. وإذا تكبَّرت النَّاقَةُ بعد أن تلْقَح فإنهَّا تزمّ بأنفها.

والأصيد: الملك الذي تراه أبداً من كِبْره مائلَ الوجه. وشُبِّه بالأسد فقيل أصيد؛ لأنَّ عُنقَ الأسدِ من عظمٍ واحد، فهو لا يلتفتُ إلاّ بكُلِّه، فلذلك يقال لِلمُتَكَبِّرِ: «إنَّما أنفه في أسلوب»[٧]، ويقال: أرغَمَ اللّه أنفَه وأذلَّ معطِسَه! ويقال:

---

(١) ثمار القلوب (٧٣٠)

(٢) مجمع الأمثال ١/٤٣٨، والمستقصى ١/٢٣٠، وجمهرة الأمثال ٢/٣٢، وأمثال ابن سلام ٣٧٤.

(٣) المستقصى ١/١٥١، والدرة الفاخرة ١/٢١٣، ومجمع الأمثال ١/٣٢٧.

(٤) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب (٧٣٠).

(٥) البطريق؛ ككبريت؛ القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل «القاموس: بطرق».

(٦) الخنزوانة: الكِبْر «القاموس: خنز». وكذلك النعرة.

(٧) جمهرة الأمثال ٢/٩٩،

ستفعل ذلك وأنفُك راغم! والرَّغام: التّراب. ولولا كذا وكذا لهشَّمت أنفك. فإنما يخصُّون بذلك الأنف؛ لأنَّ الكبر إليه يضاف قال الشاعر[1]: [من السريع]

يا رُبَّ مَنْ يُبْغِضُ أذْوادنا رُحن عَلَى بَغْضائه واغتديْن[2]

لو نَبَتَ البَقلُ عَلَى أنفِه لرُحْنَ منه أُصُلاً قد أبين

ويقال «بعير مذبوب» إذا عرض له ما يدعو الذِّبّانَ إلى السُّقوط عليه. وهم يعرفون الغُدَّة[3] إذا فشَتْ أو أصابَتْ بعيراً بسُقوط الذِّبّان عليه.

٧٥٥ - [احتيال الجمالين على السلطان]

وبسقوط الذّبّان على البعير يحتال الجَمَّال للسُّلطان، إذا كان قد تسخَّرَ إبلَهُ وهو لذلك كاره، وإذا كان في جماله الجملُ النفيسُ أو الناقةُ الكريمة؛ فإنه يعمد إلى الخَضْخاض[4] فيصبُّ فيه شيئًا من دِبس ثم يَطْلي به ذلك البعير، فإذا وجد الذّبّان ريحَ الدِّبس تساقَطْنَ عليه. فيدَّعي عند ذلك أنَّ به غُدَّة ويجعلُ الشاهدَ له عندَ السُّلطان ما يُوجد عليه من الذِّبان! فما أكثر ما يتخلصون بكرائم أموالهم بالحيلِ من أيدي السلطان ولا يظنُّ ذلك السُّلطانُ إلاّ أنه متى شاء أنْ يبيعَ مائةَ أعرابي بدرهم فَعَل. والغدّة[3] عندهُمْ تُعدِي، وطباع الإبل أقبلُ شيء للأدواء التي تُعْدِي، فيقول الجمَّال عنْدَ ذلك للسُّلطان: لو لم أخف على الإبل إلاّ بعيري هذا المغدّ أن يُعدِيَ لم أبال، ولكنِّي أخاف إعداء الغُدَّةِ ومضرَّتها في سائر مالي! فلا يزال يستعطِفهُ بذلك، ويحتالُ له به حتَّى يخلِّيَ سبيلَه.

٧٥٦ - [نفور الذَّبّان من الكمأة]

ويقال إنَّ الذَّبّان لا يقْرُبَ قدْرًا فيه كمأة .كما لا يَدخُل سامٌّ أبْرص بيتًا فيه زعفران.

---

(١) البيتان لعمرو بن لأي بن موءلة في معجم الشعراء ٢٤ - ٢٥، والوحشيات ٩، والأول لعمرو بن قميئة في ديوانه ٨٢، والكتاب ٢/١٠٨، والأزهية ١٠١، وبلا نسبة في شرح المفصل ٤/١١، ومحاضرات الأدباء ٢/٦٣، والمقتضب ١/٤١.

(٢) الأذواد: جمع ذود، وهو القطيع من الإبل «القاموس: ذود».

(٣) الغُدة: طاعون الإبل «القاموس: غدد».

(٤) الخضخاض: نفط أسود رقيق تهنأ به الإبل الجربى «القاموس: خضض».

٧٥٧ - [الخوف على المكلوب من الذِّبَّان]

ومن أصابه عض الكلب الكَلِبِ حَمَوا وجهَه من سقوط الذِّبان عليه. قالوا: وهو أشدُّ عليه من دبيب النِّبْر على البعير.

٧٥٨ - [النِّبر]

والنِّبْر دويْبَّةٌ إذا دبَّت على البعير، تورَّم، وربَّمَا كان ذلك سبَبَ هلاكه.

قال الشاعرُ[١] وهو يصف سِمَن إبله، وعِظَمَ أبدانها: [من الكامل]

حمر تحقَّنَت النّجيل كأنَّما   بجلودهِنَّ مَدَارِجُ الأنْبارِ[٢]

٧٥٩ - [مميزات خلقيَّة لبعض الحيوان][٣]

وليس في الأرض ذبابٌ إلاّ وهو أقْرَح[٤]، ولا في الأرض بعيرٌ إلاّ وهو أعْلم[٥]، كما أنَّه ليس في الأرض ثورٌ إلاّ وهو أفطس[٦].

وفي أنَّ كلَّ بعير أعلمُ يقولُ عنترة[٧]: [من الكامل]

وحَليلِ غانيةٍ تركتُ مجدَّلاً   تمكو فريصَتُه كشِدْق الأعلَمِ[٨]

كأنَّه قال: كشدق البعير؛ إذ كان كلهُ بعيرٍ أعلم.

والشعراء يشبِّهون الضربة بشدْق البعير، ولذلك قال الشاعر[٩]: [من البسيط]

كمْ ضربةٍ لَكَ تحكِي فَا قُرَاسِيَةٍ   من المَصاعبِ في أشداقِهِ شَنَعُ[١٠]

---

(١) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (حقن)، والتهذيب ٤ / ٦٥.

(٢) تحققنت :امتلأت. النجيل: خير الحمض كله والينه على السائمة. المدارج: مواضع الدروج؛ وهو المشي.

(٣) انظر عيون الأخبار ٢ / ٧٥.

(٤) الأقرح: الذي بوجهه قرحة كالغرة «القاموس: قرح».

(٥) الأعلم: المشقوق المشفر الأعلى «القاموس: علم».

(٦) الأفطس: الذي تطامنت قصبة أنفه وانتشرت، أو انشرم أنفه في وجهه «القاموس: فطس».

(٧) البيت من معلقته في ديوانه ٢٤، واللسان والتاج (حلل، مكا)، وأساس البلاغة (مكو)، والتهذيب ١٠ / ٤١١، والمجمل ٤ / ٣٤٢، والمقاييس ٥ / ٣٤٤، والعين ٢ / ١٥٢.

(٨) حليل: زوج. تمكو: تصفر. الفريصة: لحمة في وسط الجنب عند منبض القلب.

(٩) البيت للنمر بن تولب في البيان ١ / ٥٥، ولم يرد في ديوانه.

(١٠) القراسية: الضخم الشديد من الإبل «القاموس: قرس». المصاعب :جمع مصعب؛ وهو الفحل «القاموس: صعب». الشنع: القبح «القاموس: شنع».

وقال الكميت[1]: [من المتقارب]

* مَشافِرَ قَرْحَى أكلْنَ البريرَا[2] *

وإذا قيل الأعلمْ، عُلِم أنَّه البعير، كما أنَّه إذا قيل الأقرح علم أنَّه الذِّبّان، قال الشاعِرُ[3]: [من الكامل]

ولأنتَ أطيشُ، حينَ تغْدُو سادراً   حذر الطعان، مِنَ القدوحِ الأقرَحِ[4]

يعني الذبَّان لأنَه أقرح، ولأنّه أبداً يحكُّ بإحدى ذراعيْه على الأخرى كأنّه يقدح بعودَي مَرْخٍ وعفَار، أو عرجون، أو غير ذلك مما يقدح به.

٧٦٠ - [إغارة الشعراء على المعاني]

ولا يعلم في الأرض شاعر تَقَدَّمَ في تشبيهٍ مُصيبٍ تامّ، وفي معنًى غريبٍ عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديعٍ مُخترع، إلاَّ وكلُّ مَنْ جاءَ من الشُعَراء منْ بَعده أو معه، إنْ هو لم يعدُ على لفظه فيسرقَ بعضه أو يدعيَه بأسْره، فإنّه لا يَدعُ أن يستَعينَ بالمعنى، ويجعَلَ نفسه شريكًا فيه؛ كالمعنى الذي تتنازعُه الشعراءُ فتختلف ألفاظهم، وأعاريضُ أشعارهِمْ، ولايكونُ أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه. أو لعلّه أن يجحد أنّه سمع بذلك المعنى قَطُّ، وقال إنَّه خطرَ على بالي من غير سماع، كما خطَر على بال الأوَّل. هذا إذا قرَّعُوه به. إلاَّ ما كان من عنترة في صفة الذباب؛ فإنه وصفَه فأجاد صفته فتحامى معناهُ جميعُ الشعراء فلم يعرضْ له أحدٌ منهم. ولقد عَرضَ له بعضُ المحدَثين ممن كان يحسِّنُ القَول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه، أنّه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر. قال عنترة[5]: [من الكامل]

جادَتْ عليها كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ   فَتَركْنَ كلَّ حَدِيقةٍ كالدِّرْهم

---

(١) صدر البيت (تشبَّه في الهام آثارها)، وهو في ديوان الكميت ١/ ١٩١، والبيان والتبيين ١/ ٥٥، واللسان والتاج (قرح)، والتهذيب ٤/ ٣٨.

(٢) البرير: الأول من ثمر الأراك «القاموس: برر».

(٣) البيت بلا نسبة في مجمع الأمثال ١/ ٤٣٨، وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٣، والمستقصى ١/ ٢٣٠، والدرة الفاخرة ١/ ٢٨٩، والأمثال للسدوسي ٦٣، وثمار القلوب (٧٢٤)، وأساس البلاغة (قدح).

(٤) السادر: الراكب رأسه «القاموس: سدر»، القدوح: الذي يحك ذراعاً بذراع «القاموس: قدح».

(٥) الأبيات من معلقته في ديوانه ١٨ - ١٩.

فترى الذُّبابَ بها يغنّي وحْدَه هَزِجًا كفعْل الشَّارِب المترنِّم
غَرِدًا يُحكُّ ذِراعَه بذِرَاعهِ فِعْلَ المكبِّ على الزِّنَادِ الأجذم

قال: يريد فعلِ الأقْطعِ المكبِّ على الزِّناد. والأجذم: المقطوع اليدين. فوصف الذّباب إذا كان واقعاً ثمَّ حكّ إحدى يديه بالأخرى، فشبَّهَهُ عند ذلك برجلٍ مقطوع اليدين، يقدَحُ بعودين. ومتى سقط الذُّبابُ فهو يفعل ذلك.

ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شِعر عنترة

٧٦١ - [قولٌ في حديث]

وقد كان عندنا في بني العدوية شيخٌ منهم مُنْكر، شديد العارضة فيه توضيع، فسمعني أقول: قد جاء في الحديث: «إنَّ تحْتَ جَناح الذُّبابْ اليمين شفاءً وتحت جَناحه الأيسر سمًّا. فإذا سقط في إنَاءٍ أو في شرابٍ أو في مَرَق فاغمسوه فيه؛ فإنه يرفَعُ عند ذلك الجناح الذي تحتَه الشفاء، ويحطُّ الجناح الذي تحته السمّ»[1]. فقال: بأبي أنتَ وأمي هذا يجمع العداوةَ والمَكيدة!

٧٦٢ - [قصّة لتميمي مع أناس من الأزد]

وقدكان عندنا أُنَاسٌ من الأزد، ومعهم ابن حزن، وابن حزن هذا عَدَوِيٌّ من آل عموج، وكان يتعصّب لأصحابه من بني تميم وكانوا على نبيذ، فسقط ذبابٌ في قدَح بعضهم، فقال له الآخر: غطِّ التميمي، ثمَّ سقط آخر في قدَح بعضهم، فقال الباقون: غطِّ التميميّ! فلمَّا كان في الثالثة قال ابن حزن: غطِّه فإنْ كان تميميًّا رسَبَ، وإن كان أزْديًّا طفاً. فقال صاحب المنزل: ما يسرُّني أنَّه كان نقصكم حرفًا. وإنما عَنى أنَّ أزْدَ عُمان مَلاَّحون.

٧٦٣ - [ضروب الذِّبَّان]

والذِّبَّان ضروبٌ سِوى ما ذكرَناه من الفَراش والنَّحل والزَّنابير. فمنها الشَّعْراء، وقال الراجز[2]: [من الرجز]

* ذِبّان شَعْرَاء وبيت ماذلِ *

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ١٧، حديث ٣١٤٢، وأعاده برقم ٥٤٤٥.
(٢) الرجز بلا نسبة في نهاية الأرب ١٠/ ٢٩٩.

وللكلاب ذبابٌ على حدَة يَتخلّق منها ولا يُريدُ سواها. ومنها ذبّان الكلأ والرياض. وكلّ نوعٍ منها يألفُ ما خلقَ منه. قال أبو النَّجْم[١]: [من الرجز]

مستَأسِد ذبَّانه في غَيْطلٍ يقُلن للرَّائدِ أعشَبْت انزل[٢]

٧٦٤ - [ما قيل في طنين الذّباب]

والعربُ تسمّي طَنينَ الذِّبّانِ والبعوض غناءً. وقال الأخطلُ[٣] في صفة الثَّور: [من البسيط]

فَرداً تغنّيه ذبّان الرِّياض كما غَنّى الغواةُ بِصَنْجٍ عِند أسْوارِ[٤]

وقالَ حَضْرميُّ بن عامرٍ[٥] في طنين الذباب: [من الكامل]

ما زال إهداءُ القَصائد بينَنَا شَتْمَ الصَّديق وكثْرَةَ الألقاب

حتَّى تركت كأنَّ أمْركَ بينَهم في كلِّ مجمعَةٍ طنينُ ذُبَاب

ويقال: «ما قولي هذا عندك إلاّ طنينُ ذُباب».

٧٦٥ - [سفاد الذباب وأعمارها]

وللذُّباب وقتٌ تهيج فيه للسِّفاد مع قصر أعمارها. وفي الحديث: «أنَّ عُمْرَ الذباب أربعون يوماً» ولها أيضاً وقت هَيْجٍ في أكْلِ النّاس وعضّهم، وشُربِ دمائهم. وإنما يعرض هذا الذِّبَّان في البيوت عند قرب أيَّامها؛ فإنّ هلاكها يكون بعد ذلك وشيكاً. والذِّبّان في وقتٍ من الأوقات من حتوف الإبل والدوابّ.

٧٦٦ - [ذوات الخراطيم]

والذُّباب والبَعوض من ذوات الخراطيم، ولذلك اشتدَّ عضُّها وقويتْ على خرْق الجلود الغلاظ. وقال الراجز[٦] في وصف البعوضة: [من الرجز]

مثل السُّفاةِ دائم طنينُها ركِّبَ في خرطومها سِكِّينُها[٧]

---

(١) ديوان أبي النجم العجلي ١٧٨ - ١٧٩، والطرائف الأدبية ٥٨، واللسان (عشب، أسد)، والتاج (عشب، أسد، مرع)، وأساس البلاغة (عشب، أسد)، والعين ١/ ٢٦٢، ٧/ ٢٨٦، والمقاييس ٤/ ٣٢٣، ومجالس ثعلب ١٩١.

(٢) الغيطل: الشجر الكثير الملتف «القاموس: غطل».

(٣) ديوان الأخطل ١٦٧.

(٤) الأسوار: قائد الفرس «ديوان الأخطل».

(٥) البيتان له في ثمار القلوب ٣٩٧ (٧٢٧).

(٦) الرجز بلا نسبة في الأمالي ٣/ ١٢٩، وحياة الحيوان ١/ ١٨٠ مادة (البعوض).

(٧) السفاة: جمع السفا، وهو شوك البهمى والسنبل، أو كل شوك «القاموس: سفى».

وقالوا: ذوات الخراطيم من كلِّ شيء أقوى عضّاً ونَاباً وفكّاً؛ كالذيب والخنزير، والكلب. وأمّا الفيل فإنّ خرطومَه هو أنفه، كما أنَّ لكلِّ شيءٍ من الحيوان أنفاً، وهو يده، ومنه يُغَنّي وفيه يجري الصَّوت، كما يُجري الزَّامرُ الصَّوتَ في القصَبةِ بالنّفخ. ومتى تضاغَطَ الهواءُ صوَّتَ علَى قدْر الضّغْطِ، أو على قدر الثّقب.

٧٦٨ - [أمثال من الشعر في الذباب]

والذباب: اسم الواحد، والذّبّان: اسم الجماعة. وإذا أرادوا التَّصغير والتقليلَ ضربوا بالذّبَّان المثل. قال الشاعر(١): [من الوافر]

رأيتُ الخبزَ عزَّ لديكَ حتّى حَسبتُ الخُبْزَ في جوِّ السَّحابِ
وما روّحْتنا لتذُبَّ عنا ولكنْ خِفْتَ مَرْزِية الذُّباب

وقال آخر(٢): [من الكامل]

لما رأيت القصْر أُغْلِقَ بابهُ وتعلّقت هَمدان بالأسباب
أيقنتُ أنّ إمَارة ابن مضارب لم يبق منها قِيسُ أيْرِ ذبابِ

قال بعضهم: لم يذهب إلى مقدار أيْره وإنما ذهب إلى مثل قول ابن أحمر(٣): [من السريع]

ما كنت عنْ قومي بمهتضم لو أنَّ معصيًّا له أمرُ
كلفّتني مُخَّ البَعوضِ فقدْ أقصرت لا نُجْحٌ ولا عُذْرُ(٤)

٧٦٩ - [ما يَلَغُ من الحيوان وما لا يلَغ]

قال: وليس شيٌ مما يطيرُ يلَغُ في الدّم، وإنما يلغ في الدماء من السِّباع ذواتُ الأربع. وأمّا الطّير فإنّها تشربُ حَسواً، أو عبَّة بعد عَبّة. ونُغبةً بعد نغبة. وسباع الطّير

---

(١) البيتان لأبي الشمقمق في البخلاء ٧٣، وعيون الأخبار ٢/٣٦، ٣/٢٤٧، وبلا نسبة في البخلاء ١٢٦، والثاني بلا نسبة في ديوان المعاني ١/١٨٧، والعقد الفريد ٦/١٩١.
(٢) البيتان لعبد الله بن همام السلولي في ديوانه ٣٧ - ٣٨، وبلا نسبة في ثمار القلوب ٣٩٨ (٧٢٨).
(٣) ديوان ابن أحمر ٩٤ - ٩٥، والمقاييس ١/٢٧٠، والثاني في ثمار القلوب ٣٩٩ (٧٢٩)، والمعاني الكبير ٦٠٨، والمستقصى ٢/٢٢٣.
(٤) قوله «كلفتني مخ البعوض» من الأمثال في مجمع الأمثال ٢/١٤٧، والمستقصى ٢/٢٢٣،

قليلة الشُّرب للماء. والأُسد كذلك. قال أبو زُبَيد الطائي[1]: [من المنسرح]

تذبُّ عنهُ كفٌّ بها رَمقٌ　　طيراً عكوفاً كزُوَّرِ العُرُسِ
إذا ونى ونْيَة دَلَفنَ له　　فهنَّ مِنْ والغٍ ومُنْتَهِسِ[2]

قال: والطَّير لا تلغ، وإنما يلغَ الذباب. وجعله من الطَّير، وهو وإن كان يطير فليس ذلك من أسمائه. فإذ قد جاز أن يستعير له اسم الطائر، جاز أن يستعير للطير ولْغ السِّباع فيجعَل حسْوها ولْغًا، وقال الشاعر: [من الطويل]

سراع إلى ولْغ الدماءِ رماحهم　　وفي الحرب والهيجاء أُسْدٌ ضراغِمُ

٧٧٠ - [خصلتان محمودتان في الذباب]

قال وفي الذباب خصلتان من الخصال المحمودة:

أمَّا إحداهما: فقُرب الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهها؛ فمن أراد إخراجها من البيت فليس بينَهُ وبين أن يكونَ البيتُ على المقدار الأوّل من الضِّياء والكنٌ بعد إخراجها مع السَّلامة من التأذي بالذبان - إلاّ أن يُغلَقَ البابُ، فإنَّهنَّ يتبادرن إلى الخروج، ويتسابَقْنَ في طَلَب الضوء والهرَب من الظلمة، فإذا أُرخي السِّترُ وفتحَ البابُ عاد الضَّوءُ وسلِمَ أهلُه من مكروهِ الذباب، فإنْ كان في الباب شقّ، وإلاّ جَافى المغلقُ أحدَ البابَين عن صاحبه ولم يطبقه عليه إطباقًا. وربّما خرجْن من الفتْح الذي يكون بين أسفل الباب والعتبة. والحيلةُ في إخراجها والسَّلامة من أذاها يسيرة، وليس كذلك البعوض؛ لأنَّ البعوض إنما يشتدُّ أذاه، ويقوى سلطانُه، ويشتدُّ كَلَبه في الظلمة، كما يقوَى سلُطان الذبان في الضياء، وليس يمكنُ النّاسَ أنْ يُدخلوا منازلَهم من الضِّياء ما يمنعُ عملَ البعوض؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلاّ بإدخال الشَّمسِ، والبعوض لا يكون إلاّ في الصيِّف، وشمسُ الصيُّفِ لا صبْرَ عليها. وليس في الأرضِ ضياءٌ انفصلَ من الشمس إلاّ ومَعه نصيبهُ من الحَرِّ، وقد يفارق الحرُّ الضياء في بعضِ المواضع، والضِّياءُ لا يفارِقُ الحَرَّ في مكانٍ من الأماكن.

فإمكان الحيلة في الذباب يسير، وفي البَعوض عسير!

والفضيلة الأخرى: أنه لولا أن الذّبابة تأكل البَعُوضة و تطلبها وتلتمسها على وجوهِ حيطان البيوت، وفي الزوايا، لما كان لأَهلها فيها قَرار!

---

(١) ديوان أبي زبيد ٦٤٠، وطبقات ابن سلام ٥١٦، والحماسة الشجرية ٢٧٣، والأول بلا نسبة في اللسان والتاج (عكف).

(٢) في ديوانه (ولغ السبع والكلب: شرب بطرف لسانه، ونهس اللحم: قبض عليه بمنسره).

وذكَر محمد بن الجهم - فيما خبَّرني عَنْه بعضُ الثقات - أنه قال لهم ذاتَ يوم: هل تعْرِفُون الحِكمة التي استفَدْناها في الذُّباب؟ قالوا: لا.

قال: بلى، إنّها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتفنيه: وذلك أنّي كنت أريد القائلة[1]، فأمرْت بإخراج الذُّباب وطَرْحِ السِّترِ وإغلاقِ الباب قبلَ ذلك بساعة. فإذا خرجن حصل في البيت البعوضُ، في سلطان البعوض وموضعِ قوَّته. فكنتُ أدخلُ إلى القائلة[1] فيأكلني البعوض أكلاً شديداً. فأتيتُ ذات يومٍ المنزلَ في وقت القائلة[1]، فإذا ذلك البيتُ مفتوحٌ، والسِّترُ مرفوع، وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك في يومهم، فلما اضطجعَتُ للقائلة لم أجد من البعوض شيئًا وقد كان غضبي اشتدَّ على الغلمان، فنمتُ في عافية. فما كان من الغد عادُوا إلى إغلاق الباب وإخراجِ الذّباب، فدخلتُ ألتمسُ القائلة[1]، فإذا البعوضُ كثير. ثم أغفلوا إغلاق البابِ يوماً آخر، فلما رأيته مفتوحًا شتمتُهُمْ فلمَّا صرتُ إلى القائلة[1] لم أجدْ بعوضةً واحدةً، فقلت في نفسي عند ذلك: أراني قد نمتُ في يَوْمَي الإغْفَالِ وَالتَّضْيِيع وامتَنعَ منِّي النَّومُ في أيَّام التحفُّظ والاحتراس. فلمَ لا أجرِّبُ ترْك إغلاق الباب في يومي هذا. فإن نمتُ ثلاثة أيام لا ألقى من البَعوضِ أذًى مع فتح الباب، علمتُ أنَّ الصّواب في الجمع بين الذِّبان وبين البعوض؛ فإنَّ الذِّبّان هي التي تُفنيه، وأنَّ صلاحَ أمرنا في تقريبِ ما كُنَّا نباعد. ففعلتُ ذلك، فإذا الأمر قد تمّ. فصرنا إذا أردْنا إخراجَ الذِّبّانِ أخرجْناها بأيسرِ حيلة، وإذا أردنا إفناء البعوض أفنيناها على أيدي الذِّبّان بأيسر حيلة.

فهاتان خَصْلتان من مناقب الذِّبّان.

٧٧٦ - [طبّ القوابل والعجائز]

وكان محمد بن الجهم يقول[2]: لا تتهاونوا بكثيرٍ ممّا ترون من علاج القوابل والعجائز، فإنّ كثيراً من ذلك إنما وقع إليهنَّ من قدماء الأطباء؛ كالذّبان يُلقى في الإثمِد ويسحق معهُ، فيزيد ذلك في نور البصر، ونفاذ النظر، وفي تشديد مراكز شعر الأشفار[3] في حافَات الجُفون.

---

(١) القائلة: النوم في نصف النهار «القاموس: قيل».

(٢) ورد الخبر في عيون الأخبار ٢ / ١٠٤، والعقد الفريد ٦ / ٢٤٥.

(٣) الأشفار: جمع شفر، وهو أصل منبت الشعر في الجفن «القاموس: شفر».

٧٧٧- [فائدة دوام النظر إلى الخضرة]

وقلتُ له مرّة(١): قيل لماسَرجَويه: ما بالُ الأكَرَة(٢) وسُكَّان البساتين، مع أكلهم الكرَّاث والتمر، وشروبهم ماء السّواقي على المالح(٣) أقلَّ النَّاس خُفْشانًا وعميانًا وعُمْشانًا وعوراً؟ قال: إني فكّرت في ذلك فلم أجد له علّةً إلاّ طولَ وقوع أبصارِهِمْ على الخُضْرة.

٧٧٨ - [من لا يتقزَّز من الذبّان والزنابير والدّود]

قال ابن الجهم: ومن أهل السُّفالة ناسٌ يأكلون الذّبان، وهُمْ لا يرمدون. وليس لذلك أكلوه وإنما هُمْ كأهل خُراسان الذي يأكلون فراخ الزَّنابير، والزَّنابير ذبان، وأصحاب الجبن الرَّطب يأخذون الجبنة التي قد نَغلت دوداً، فينكتها أَحَدُهم حَتَّى يخرُج ما فيها من الدُّود في راحَتِه، ثم يقمَحُها(٤) كَما يقمَحُ السَّويق. وكان الفرزدق يقول: ليت أنَّهمْ دفعوا إليَّ نصيبي من الذبان ضَرْبَة واحدة، بشرط أنْ آكله لراحة الأبد منها. وكان كما زعموا شديد التقذُّر لها والتقزُّز منها.

٧٧٩ - [دعاء أحد القصاص]

وقال ثُمامة(٥): تساقط الذبّان في مَرق بعض القصَّاص وعلى وجْهه فقال: كثَّرَ اللّهُ بكنّ القبور!

وحكى ثمامة(٦) عن هذا القاصِّ أنه سمعه بَعَبَّادان يقول في قصَصِه: اللّهمَّ مُنَّ علينا بالشهادة، وعلى جميع المسلمين

٧٨٠ - [قصّة في عمر الذُّباب]

وقال لي المكّيُّ مرَّة: إنما عمر الذبّان أربعونَ يومًا، قلت: هكذا جاء في الأثر. وكنّا يومئذ بواسط في أيَّام العسكر وليس بَعْدَ أرض الهنْد أكثرُ ذبَابًا من واسط، ولربّما رأيتَ الحائط وكأنَّ عليه مِسْحًا(٧) شديدَ السَّواد من كثرة ما عليه من الذبّان.

---

(١) ورد الخبر في عيون الأخبار ٢/ ١٠٨.

(٢) الأكرة: جمع أكار، وهو الحراث لحفرة الأرض «القاموس: أكر».

(٣) في عيون الأخبار «وشربهم الماء الحار على السمك المالح».

(٤) قمح: استفّ «القاموس: قمح».

(٥) ورد الخبر في البيان ٢/ ٣١٧، والعقد الفريد ٤/ ٢٠٠.

(٦) ورد الخبر في البيان ٢/ ٣١٧.

(٧) المِسح: كساء من شعر «القاموس: مسح».

فقلت للمكّيِّ: أحسب الذبَّان يموت في كل أربعين يومًا، وإن شئت ففي أكثرَ، وإن شئت ففي أقلَّ. ونحنُ كما ترى ندوسُها بأرجلنا، ونحن ها هنا مقيمون من أكثر من أربعين يومًا، بل منذ أشهر وأشهر، وما رأينا ذبابًا واحداً ميّتًا. فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء. قال: إنَّ الذّبابة إذا أرادتْ أن تموت ذهبتْ إلى بعض الخربات، قلت: فإنَّا قد دخلنا كلَّ خَربةٍ في الدُّنْيا، مَا رأينَا فيها قط ذبابًا ميّتاً.

٧٨١ - [نوادرللمكي]

وكان المكّيّ طيّبًا طيّب الحُجَج، ظَريفَ الحيَل، عجيبَ العلل وكان يدَّعي كلَّ شيءٍ على غاية الإحكام، ولم يُحْكِمْ شيئًا قطُّ، لا من الجليل ولا من الدَّقيق. وإذْ قد جرى ذِكره فسأحدِّثك ببعضِ أحاديثه، وأخبرك عن بعض علله، لِتَلَهَّى بها ساعةً، ثم نعودَ إلى بقية ذكر الذِّبّان.

ادّعى هذا المكّيُّ البَصَرَ بالبراذين، ونظرَ إلى برذون واقف، قد ألقى صاحبه في فيه اللِّجام، فرأى فأس اللِّجام وأين بلغَ منه، فقال لي: العجب! كيف لا يذْرَعُه القيء، وأنا لو أدخلت إصبعي الصغرى في حلقي لما بَقِيَ في جوفي شيءٌ إلاَّ خرج؟!! قلت: الآنَ علمتُ أنَّك تُبْصرا ثمَّ مكث البرذَون ساعةً يلوكُ لجامه، فأقبل عليَّ فقال لي: كيف لا يبرُدُ أسنانَه؟! قلت: إنما يكون علم هذا عند البصراء مثلك! ثمّ رأى البرذَونَ كلَّما لاك اللِّجام والحديدة سال لعابُه على الأرض فأقبل علَيَّ وقال: لولا أنَّ البرذَون أَفسَدُ الخلق عقلاً لكان ذهنُه قد صفا! قلت له: قد كنت أَشك في بَصرك بالدَّواب، فأمّا بعْدَ هذا فلستُ أَشكُّ فيه!

وقلت له مرّة ونحن في طريق بغداد: مَا بالُ الفرسَخ في هذه الطريق يكون فرسخين، والفرسخ يكون أَقلَّ من مقدار نصفِ فرسخ؟! ففكّر طويلاً ثمَّ قال: كان كِسرى يُقْطِعُ للنّاس الفراسخ، فإذا صانَعَ صاحبَ القطيعة زادوه، وإذا لم يصانع نقصوه!

وقلت له مَرَّة: علمتُ أنّ الشاري حدّثني أنَّ المخلوع بعث إلى المأمون بجرابٍ فيه سمسم؛ كأنّه يخبرُ أنَّ عندَّه من الجند بعدد ذلك الحبّ وأنّ المأمون بعث إليه بديك أعورَ، يريد أنَّ طاهر بن الحسين يقتُلُ هؤلاءِ كلَّهم، كما يلقط الدِّيك الحبَّ! قال: فإنَّ هذا الحديث أنا ولَّدته. ولكن انظرْ كيفَ سار في الآفق؟!

وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة.

٧٨٢ - [معارف في الذّباب]

ثمَّ رجع بنا القول إلى صلة كلامِنا في الإخبار عن الذّبّان .

فأمَّا سكّان بلاد الهند فإنّهم لايطبُخون قدراً، ولا يعملون حَلْوَى ولا يكادون يأكلون إلاّ ليلاً؛ لِما يتهافت من الذّبّان في طعامهم. وهذا يدلُّ على عفَنِ التُّربة ولَخَن الهواء.

وللذّبّانِ يعاسيبُ وجُحْلانٌ[١]، ولكن ليس لها قائدٌ ولا أمير. ولو كانت هذه الأصناف التي يحرسُ بعضها بعضًا. وتتَّخذ رئيسًا يدبِّرها ويحوطها، إنما أخرج ذلك منها العقْلُ دونَ الطّبع، وكالشيء يخصُّ به البعض دون الكلّ لكان الذرُّ وَالنَّمْلُ أَحقَّ بذلك من الكراكيِّ[٢] والغرانيق[٢] والثِّيران، ولكَان الفيلُ أحقَّ به من البعير؛ لأنه ليس للذرِّ قَائدٌ ولا حارس، ولا يعسوبٌ يجمعها ويحميها بعض المواضع، ويوردها بعضاً.

وكلُّ قائدٍ فهو يعسوبُ ذلك الجنسِ المَقُود. وهذا الاسم مستعارٌ من فحل النَّحل وأمير العَسَّالات.

وقال الشاعر وهو يعني الثَّور: [من الطويل]

كما ضُربَ اليعسوبُ إذ عاف باقِرٌ   وما ذنْبُه إذ عافتِ الماءَ باقِرُ[٣]

وكما قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، في صلاح الزّمان وفساده: « فإذا كان ذلك ضَربَ يعسوبُ الدِّين بذَنَبه »[٤].

وعلى ذلك المعنى قال حين مَرَّ بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد قتيلاً يوم الجمل: « لهفي عليك يَعْسُوبَ قريش! جدعْتَ أنْفِي وشفَيْتَ نفسي! »[٥].

قالوا: وعلى هذا المعنى قيل: « يعسوب الطُّفاوة ».

٧٨٣ - [أقذر الحيوان]

وزعم بعض الحكماء أنَّه لا ينبغي أن يكون في الأرض شيءٌ من الأشياء أنتنُ

---

(١) في القاموس: (الجَحْل: اليعسوب العظيم والجُعَل. جمع جُحول وجُحلان).

(٢) الكراكي: جمع الكركي، وهو طائر كبير، ذهب بعض الناس إلى أنه الغرنوق، وهو أغبر؛ طويل الساقين. حياة الحيوان ٢ / ٢٤٤ .

(٣) تقدم البيت في مقدمة المؤلف في الجزء الأول، ونسبه إلى الهيبان النهمي ص١٨ .

(٤) الحديث في النهاية ٣ / ٢٣٤، وأساس البلاغة (عسب).

(٥) الحديث في النهاية ٣ / ٢٣٥، وأساس البلاغة (عسب)، ومجالس ثعلب ١٢٩ .

من العذرة فكذلك لا شيء أقذرُ من الذِّبان والقمل. وأمَّا العَذرة فلولا أنَّها كذلك لكان الإنسان مع طول رؤيته لها، وكثرة شمِّه لها من نفسه في كلِّ يوم صباحًا ومساء، لقد كان ينبغي أن يكونَ قد ذهَب تقذُّرُه له على الأيَّام، أو تمحَّق، أو دخله النَّقص. فثباتُها ستين عامًا وأكْثَرَ وأقلّ على مقدار واحد من النتن في أنف الرَّجل ومنهم من وجدناه بعد مائة عام كذلك، وقد رأينا المِران والعادات وصنيعَها في الطَّبائع. وكيف تهوِّن الشديدَ، وتقلّل الكثير. فلولا أنَّا فوق كلِّ شيءٍ من النَّتْنِ، لَما ثبَتَتْ هذا الثَّباتَ، ولعرض لها ما يعرِض لسائر النَّتْنِ، وبَعْد فلو كان إنَّما يشَمُّ شيئًا خرجَ من جوفِ غيره ولم يخرجْ من جوفِ نفسه، لكان ذلك أشْبَه. فإذ قد ثبت في أنفه على هذا المقْدار. وهو منه دونَ غيره، وحتَّى صار يجدُه أنْتن من رَجيع جميع الأجناس – فليس ذلك إلاّ لما قد خُصّ به من المكروه.

وكذلك القول في القمل الذي إنَّمَا يُخْلق من عَرَق الإنسان، ومن رائحته ووسَخ جلده. وبخار بدنه. وكذلك الذِّبّان المخالطة لهُمْ في جميع الحالات، والملابسَةُ لهم دُونَ جميع الهوامِّ والهمَج والطّير والبهائمِ والسِّباع حتَّى تكون ألزم من كلِّ ملازم، وأقربَ من كلِّ قريب؛ حتى ما يمتنع عليه شيء من بدن الإنسان، ولا من ثوبه، ولا من طعامه، ولا من شرابه، حتَّى لزمه لزومًا لم يلزمه شيء قطُّ كلزومه، حتى إنّه يسافر السَّفَرَ البعَيدَ من مواضع الخِصْب، فيقطع البراريَّ والقفارَ التي ليس فيها ولا بقربها نباتٌ ولا ماءٌ ولا حيوان، ثم مع ذلك يتوخَّى عند الحاجة إلى الغائط في تلك البرِّيّة أن يفارق أصحابَه، فيتباعد في الأرض، وفي صحراء خلْقاء[1]، فإذا تبرَّزَ فمتى وقع بصرُه على برازِه رأى الذِّبّان ساقطاً عليه. فقَبْلَ ذلك ما كان يَراه. فإن كان الذُّباب شيئًا يتخلَّق له في تلك الساعة فهذه أعجبُ مما رآه ومما أردنا وأكثرَ ممّا قلنا. وإن كان قد كان ساقطاً على الصُّخور المُلْسِ، والبقاعِ الجُرْد، في اليوم القائظ، وفي الهاجرة التي تشْوي كلَّ شيء، وينتظرُ مجيئه – فهذا أعجبُ ممّا قلنا. وإن كانت قد تبعته من الأمصار، إمَّا طائرةً معه، وإمَّا ساقطةً عليه، فلما تبرَّزَ انتقلتُ عنه إلى برازه، فهذا تحقيقٌ لقولنا إنّه لايلزم الإنسانَ شيءٌ لزوم الذباب؛ لأنَّ العصافيرَ، والخطاطيف، والزَّرازير، والسَّنانير، والكلابَ وكلَّ شيء يألف النّاسَ، فهو يقيمُ مع النَّاس. فإذا مضى الإنسانُ في سفره، فصار كالمستوحش، وكالنَّازل بالقفار، فكلُّ شيءٍ أهليٍّ يألف النَّاس فإنّما هو مقيمٌ على مثل ما كان من إلفه لهم، لا يتبعهم من دورِ النَّاسِ إلى منازل الوحش؛ إلاّ الذِّبّان.

---

(١) خلقاء: لا نبات فيها «القاموس: خلق»

قال: فإذا كان الإنسانُ يستقذرُ الذِّبّان في مَرَقه وفي طعامه هذا الاستقذار، ويستقذِرُ القَمْلَ مع محلِّه من القَرابةَ والنِّسبةِ هذا الاستقذار فمعلومٌ أنَّ ذلك لم يكن إلاّ لما خص به من القذر. وإلاّ فبدون هذه القَرابة وهذه الملابسَةِ، تطيبُ الأنفس عن كثيرٍ من المحبوب.

٧٨٤ - [لجاج الذُّباب]

قال: وفي الذّبّان خُبْرٌ آخَر: وذلك أنّهُنَّ ربَّما تعَوَّدْنَ المبيتَ على خُوصِ فَسيلة وأقلابها[١] من فسائل الدُّور، أو شجرة، أو كِلَّة[٢]، أوْ بابٍ، أو سقف بيت، فيُطرَدْنَ إذا اجتمعن لوقتهنَّ عند المساء ليلتين أو ثلاث ليالٍ، فيتفرّقْنَ أو يهجُرْن ذلك المكان في المُستَقْبَلِ، وإنْ كانَ ذلك المكانُ قريبًا، وهو لهنَّ معرَّض، ثمَّ لا يدعْنَ أن يلتمِسْنَ مبيتًا غيرَه. ولا يعرض لهنَّ من اللَّجاجِ في مثل ذلك، مثلُ الذي يعرِض لهنّ من كثرة الرُّجوعِ إلى العينين والأنف بعدَ الذَّبِّ والطَّرْد، وبعدَ الاجتهادِ في ذلك.

٧٨٥ - [أذى الذباب ونحوها]

وقال محمَّد بن حرب: ينبغي أن يكونَ الذِّبّانُ سُمّاً ناقعاً؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ يشتدُّ أذاه باللّمس من غيره، فهو بالمداخلة والملابسة أجْدُرُ أنْ يؤذيَ. وهذه الأفاعي والثعابينُ والجرَّارات[٣] قد تمسُّ جلودَها ناسٌ فلا تضرُّهم إلاّ بأن تلابسَ إبرةُ العقرب ونَابُ الأفعى الدَّم ونحن قد نجد الرَّجُلَ يدخُل في خَرْق أنفه ذبَابٌ، فيجولُ في أوله من غير أنْ يجاوزَ ما حاذى روثَة أنفه وأرنبَته[٤] فيخرجه الإِنسانُ من جوف أنفه بالنّفخِ وشدَّة النَّفَس ولم يكن له هنالك لُبْثٌ، ولا كان منه عضّ، وليس إلا ما مسَّ بقوائمه وأطراف جناحيه، فيقع في ذلك المكان من أنْفه، من الدَّغدغة والأُكال والحكَّة، ما لا يصنع الخَرْدَل[٥] وبَصَلُ النَّرجس، ولبنُ التِّين. فليس يكون ذلك منه إلاّ وفي طبعه من مضادَّة طباع الإنسان ما لا يبلغه مضادَّة شيءٍ وإن أفرط.

قال: وليس الشّأن في أنّه لم ينخُس، ولم يجرح، ولم يَخِزْ ولم يَعُضَّ، ولم

(١) الأقلاب: جمع قلب؛ وهو شحمة النخلة «القاموس: قلب».

(٢) الكِلّة: ستر رقيق يتوقى به من البعوض «القاموس: كلل».

(٣) الجرارة – كجبّانة: عقيرب تجر ذنبها «القاموس: جرر».

(٤) روثة الأنف: طرف الأرنبة «القاموس: روث»، أرنبة الأنف: طرفه «القاموس: رنب».

(٥) الخردل: حب شجر معروف، قالع للبلغم مليِّن هاضم، نافع طلاؤه للنقرس والنسا والبرص «القاموس: خردل».

يغمز، ولم يخدش. وإنَّما هو على قدْر منافرةِ الطِّباعِ للطباع، وعَلَى قدر القَرابةِ والمشاكلةِ.

٧٨٦ - [الأصوات المكروهة]

وقد نجدُ الإنسانَ يغتَمُّ بتَنَقُّضِ[١] الفتيلة وصوْتها عندَ قرب انطفاء النار، أوْ لبعضِ البلَل يكون قد خالط الفتيلة، ولا يكون الصَّوت بالشَّديد، ولَكنَّ الاغتمامَ به، والتكَرُّه له ويكونُ في مقدارِ ما يعتريه من أشدِّ الأصوات. ومنْ ذلك المكروهُ الذي يدخلُ عَلَى الإنسان من غَطيط النَّائم، وليست تلكَ الكراهةُ لعلَّة الشِّدّة والصَّلابة، ولكن من قبَلِ الصُّورَةِ والمقدار، وإنْ لم يكن من قبل الجنس. وكذلك صوتُ احتكاك الآجُرِّ الجديد بعضه ببعض. وكذلك شجر الآجَام[٢] عَلَى الأجراف[٣]؛ فإنَّ النّفسَ تكرهُه كما تكرَهُ صوتَ الصَّاعقة. ولو كان عَلَى ثقَةٍ من السَّلامة من الاحتراق، لَمَا احتفَل بالصَّاعقةِ ذلك الاحتفالَ. ولعلَّ ذلك الصَّوت وحدَه ألاَّ يقتله.

فأَمَّا الذي نشاهدُ اليومَ الأمْرَ عليه، فإنّه متى قرُب منه قتله. ولعلَّ ذلك إنَّما هو لأنَّ الشّي إذا اشتدّ صَدْمُه فَسَخَ القوَّة أو لعلَّ الهواء الذي فيه الإنسانُ والمحيط به أن يحمَى ويستحيلَ ناراً للذي قَدْ شارك ذلك الصَّوتَ من النّار. وهم لم يجدوا الصَّوتَ شديداً جداً إلاَّ مَا خالَطَ منه النّار.

٧٨٧ - [ما يقتاتُ بالذُّباب]

وقال ابن حرب: الذِّبّان قوتُ خلْقٍ كثيرٍ من خلق اللّه عزّ وجلّ، وهو قوتُ الفراريج، والخفافيش، والعنكبوت، والخُلْد، وضروبٍ كثيرةٍ من الهَمَج، همجِ الطير، وحشرات السّباع. فأَمّا الطّير والسُّودَانيَّات، والحَصَانيّات[٤]، والشاهْمُرْكات[٥]، وغير ذلك من أصناف الطّير؛ وأمّا الضِّباع - فإنّها تأكل الجيف، وتدع في أفواهها فُضُولاً، وتفتَحُ أفواهَها لَلذِّبَّان، فإذا احتشَتْ ضمَّت عليها. فهذه إنّما تصيد الذِّبَّانَ بنوعٍ واحدٍ، وهو الاختطافُ والاختلاس، وإعجالها عن الوثوب إذا تلقّطته بأطراف المناقير، أو كبعض ما ذكرنا من إطباق الفم عليها.

---

(١) تنقضت الفتيلة: صوتت. انظر القاموس «نقض».

(٢) الآجام: الشجر الكثير الملتف «القاموس: أجم».

(٣) الجرف: المكان الذي لا يأخذه السيل «القاموس: جرف».

(٤) الحصانيات: طير «القاموس: حصن».

(٥) الشاه مرك: يعني ملك الطير؛ وهو الفتي من الدجاج حياة الحيوان ١ / ٥٩٤.

فأمَّا الصَّيدُ الذي ليس للكلب، ولا لعَنَاق الأرض[1]، ولا للفهد، ولا لشيءٍ من ذوات الأربع مثلُه في الحِذْق والخَتْل والمداراة، وفي صواب الوثْبة، وفي التسدُّد وسرعة الخطف، فليس مثلَ الذي يقال له الليث، وهو الصّنف المعروفُ من العناكب بصيد الذِّبّان؛ فإنَّك تجدُه إذا عاين الذِّبَّان ساقطاً، كيف يَلْطأ[2] بالأرضِ، وكيف يسكِّن جميعَ جوارحِه للوثْبة، وكيفَ يؤخِّر ذلك إلى وقت الغِرَّة، وكيف يريها أنّه عنها لاهٍ؛ فإنّك ترى من ذلك شيئاً لم تر مثله من فهد قطُّ، وإنْ كان الفهدُ موصوفاً منعوتاً.

واعلم أنّه قد ينبغي ألاّ يكونَ في الأرض شيءٌ أصيَدُ منه؛ لأنّه لا يطير، ولا يصيدُ إلاّ ما يطير! ويصيدُ طائراً شديدَ الحذر، ثمّ يصيد صيَّاداً! لأن الذّباب يصيد البعوض. وخديعتك للخدَّاع أعجبُ، ومكرُكَ بالماكِر أغرب! فكذلك يكون صيدُ هذا الفن من العنكبوت.

وزعم الجرداني أنّ الوزغَ تخْتِلُ الذّبانَ، وتصيدُها صيداً حسناً شبيهاً بصيد اللَّيث.

قال: والزُّنبور حريصٌ على صيدِ الذِّبَّان، ولكنه لا يطمع فيها إلاّ أن تكون ساقطةً على خَرْءٍ، دونَ كلِّ تمر وعسلٍ؛ لشدَّة عجبها بالخُرْء، وتَشاغلها به! فعند ذلك يطمَعُ فيه الزنبور ويصيده.

وزعم الجرداني وتابعه كيسان: أنّ الفهدَ إنما أخَذ ذلكَ عن اللَّيث. ومتى رآه الفهدُ يصيد الذّبّانَ حتى تَعلَّم منه؟! فظننت أنّهما قلَّدَا في ذلك بعض مَنْ إذا مَدَحَ شيئاً أسرف فيه.

٧٨٨ - [تقليد الحيوان للحيوان]

ويزعمون أنّ السّبع الصَّيُودَ إذا كان مع سبعٍ هو أصْيَدُ منه، تعلَّمَ منهُ وأخَذَ عنه. وهذا لم أحقّه. فأمّا الذي لا أشكُّ فيه فأنَّ الطائرَ الحَسَنَ الصَّوتِ الملحِّنَ، إذا كان مع نوائح الطَّيرِ ومغنِّياتها، فكان بقربِ الطَّائرِ من شكله، وهو أحذَق منه وأكرز وأمهر، جاوبَه وحكاه، وتعلَّم منه، أو صنَع شيئاً يقوم مقامَ التعلُّم.

---

(١) عناق الأرض: دويبة أصغر من الفهد، يصيد كل شيء، حتى الطير، حياة الحيوان ٢ / ٧٩.

(٢) لطأ: لصق «القاموس: لطأ».

٧٨٩ - [تعليم البراذين والطير]

والبرذَونُ يُراض فيعرِفُ ما يراد منه، فيعين على نفسه. وربَّما استأجروا للطَّيرِ رجُلاً يعلِّمها. فأمّا الذي رأيتُه أنا في البلابل، فقد رأيتُ رجُلاً يُدْعَى لها فيطارِحُها من شكل أصواتها.

٧٩٠ - [اختراع الطير للأصوات واللحون]

وفي الطّير ما يخترع الأصواتَ واللُّحون التي لم يُسمع بمثلها قطُّ من المؤلِّف للحونِ من النَّاس؛ فإنّه ربَّما أنشأ لحناً لَمْ يمرّ على أسماع المغنِّين قطُّ.

وأكثرُ ما يجدون ذلك من الطَّير في القماريِّ، وفي السُّودَانيات، ثمَّ في الكرارِزة[١]. وهي تأكل الذِّبّان أكلاً ذريعاً.

٧٩١ - [اللّجوج من الحيوان]

ويقال إن اللَّجاح في ثلاثةِ أجناسٍ من بينِ جميع الحيوان: الخنفساء، والذُّباب، والدُّودة الحمراء؛ فإنّها في إبَّانِ ذلك تروم الصُّعودَ إلى السَّقف، وتمرُّ على الحائط الأملس شيئاً قليلاً فتسقطُ وتعود، ثمَّ لا تزال تزداد شيئاً ثمَّ تسقط، إلى أن تمضيَ إلى باطن السَّقف، فربما سقطت ولَمْ يبق عليها إلاَّ مقدارُ إصبع، ثمَّ تعود.

والخنفساء تُقْبِلُ قبَل الإنسانِ فيدفعُها، فتبعُد بقدر تلك الطَّردة والدَّفعة ثمَّ تعود أيضاً، فيصنع بها أشدَّ من تلك ثمَّ تعود، حتَّى ربما كان ذلك سبباً لغضبه، ويكون غضَبُه سبباً لقتلها.

٧٩٢ - [اعتقاد المفاليس في الخنافيس]

وما زالوا كذلك، وما زالت كذلك، حتَّى سقط إلى المفاليس أنَّ الخنافسَ تجلب الرِّزق. وأنَّ دنوَّها دليلٌ على رزق حاضر: من صِلَةٍ، أو جائزة، أو ربحٍ، أو هديَّة، أو حظّ. فصارت الخنافسُ إنْ دخلَتْ في قمُصهم ثمَّ نفذَتْ إلى سَراويلاتهم لَمْ يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً. وأكثرُ ما عندهم اليومَ الدَّفعُ لها ببعض الرِّفق. ويظنُّ بعضهم أنّه إذا دافعها فعادَتْ، ثمّ دافعها، فعادت، ثمّ دافعها فعادت - أنّ ذلك كلما كان أكثرَ، كان حظُّه من المال الذي يؤمِّله عند مجيئها أجزَل.

---

(١) الكرارزة: جمع كرّزي، هو الصقر والبازي «القاموس: كرز».

فانظر، أيّة واقية وأيّة حافظة، وأيُّ حارسٍ، وأيُّ حصنٍ أنشأه لها هذا القول! وأيُّ حظٍّ كان لها حينَ صدَّقوا بهذا الخبر هذا التصديق! والطَّمعُ هو الذي أثارَ هذا الأمْرَ من مدافنه، والفقر هو الذي اجتذب هذا الطَّمع واجتلبه. ولكن الويل لها إنْ ألَحتْ على غَنِيٍّ عالمٍ، وخاصَّة إن كان مع جِدَتِه وعلمه حديداً عَجُولاً.

٧٩٣ - [اعتقاد العامة في أمير الذّبّان]

وقد كانوا يقتلون الذبابَ الكبير الشديد الطنين الملحَّ في ذلك، الجهيرَ الصوت، الذي تسميه العوامُّ: «أمير الذّبّان»، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده وقتله، إذا أكربَهمْ بكثرةِ طنينه وزَجَله وهماهمه فإنّه لا يفتر. فلمَّا سقط إليهم أنّه مبشّرٌ بقدومِ غائبٍ وبُرءِ سقيم، صاروا إذا دخلَ المنزلَ وأوسعَهُم شرّاً، لم يَهجْه أحدٌ منهم.

وإذا أرادَ اللّه عزّ وجلّ أن يُنْسِئَ في أجلِ شيءٍ من الحيوان هيَّأ لذلك سبباً، كما أنّه إذا أراد أن يقصُرَ عمرُه وَيحينَ يومُه هيَّأ لذلك سبباً. فتعالى اللّه علوّاً كبيراً!

ثمَّ رجَع بنا القولُ إلى إلحاح الذّبّان.

٧٩٤ - [إلحاح الذُّباب][1]

كان لنا بالبَصرة قاض يقال له عبدُ اللّه بنُ سوَّار، لم يَرَ النَّاسُ حاكماً قطُّ ولا زِمِّيتاً ولا ركيناً، ولا وقوراً حليماً، ضبط من نفسه وملَك من حركته مثلَ الذي ضبَط وملَك. كان يصلّي الغداةَ في منزله، وهو قريب الدَّار من مسجده، فيأْتي مجلسَه فيحتبي ولا يتَّكئ، فلا يزالُ منتصباً ولا يتحرَّك له عضوٌ، ولا يلتفت، ولا يحلُّ حُبْوَته[2] ولا يحوِّل رِجلاً عن رجل، ولا يَعتمد على أحد شقَّيه، حَتَّى كأنّه بناءٌ مبنيٌّ، أو صخرةٌ منصوبة. فلا يزال كذلك، حتّى يقوم إلى صلاة الظهر ثمّ يعودُ إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر، ثمَّ يرجع لمجلسه، فلا يزال كذلك حَتى يقوم لصلاة المغرب، ثمَّ رُبما عاد إلى محلِّه، بل كثيراً ما كان يكون ذلكَ إذا بقي عليه من قراءة العهود والشُّروط والوثائق، ثمَّ يُصلِّي العشاء الأخيرة وينصَرف. فالحق يقال: لَمْ يُقمْ في طول تلك المدَّة والولاية مَرَّةً واحدةً إلى الوضوء، ولا احتاجَ إليه، ولا شرِبَ ماءً ولا غيرَه من الشّراب. كذلك كان شأْنُه في طوال الأيام وفي

(١) وردت القصة في ثمار القلوب ٣٩٦ (٧٢٥)، وأمالي المرتضى ٢/١٠٥ (٤/٢٢).

(٢) الاحتباء: أن يضم الرجل رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشده عليها، وهو منهي عنه كما في الحديث الوارد في النهاية ١/٣٣٥، واللسان (حبا).

قصارها، وفي صيفها وفي شتائها. وكان مع ذلك لا يحرِّك يدَه، ولا يُشيرُ برأسه. وليس إلاّ أن يتكلم ثمَّ يوجز، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة. فبينا هو كذلك ذاتَ يوم وأصحابه حواليه، وفي السِّماطين بينَ يديه، إذْ سقَطَ على أنفه ذَبَابٌ فأطال المكث، ثمَّ تحوّل إلى مُؤْقِ عينه، فرام الصَّبر في سقوطه عَلَى المؤقَ، وعلى عضِّه ونفاذ خرطومه كما رَام من الصبر عَلى سقوطه عَلَى أنفه من غير أن يحرِّك أرنبَته، أو يغضِّنَ وجهَهُ، أو يذبّ بإصبعه. فلمّا طال ذلك عليه من الذبَاب وشغَله وأوجعَه وأحرَقهُ، وقصدَ إلى مكان لا يحتمل التّغافُلَ، أطبَق جفنَهُ الأعْلى عَلَى جفنه الأسفل فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن وَالى بينَ الإطباق والفتْح، فتنحَّى ريثما سكَنَ جفنُهُ، ثمَّ عاد إلى مؤقه بأشدَّ من مرَّته الأولى فَغمَسَ خرطومهُ في مكان كان قد أوهاهُ قبلَ ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزُه عن الصَّبر في الثانية أقوى، فحرَّك أجفانَهُ وزاد في شدَّة الحركة وفي فتح العين، وفي تتابُع الفتْح والإطباق، فتنحَّى عنهُ بقدْر ما سكَنَتْ حركَتهُ ثمَّ عاد إلى موضعه، فما زالَ يلحُّ عليه حتى استفرغَ صبْرَه وبَلغَ مجهُوده. فلم يجدْ بُدّاً من أن يذبَّ عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه ترمُقه، وكأنّهم لا يَرَوْنَه، فتنَحَّى عنه بقدْر ما رَدَّ يدَه وَسكَنتْ حركته ثمَّ عاد إلى موضعه، ثمَّ ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجْهه بطرَف كمه، ثم ألجَأه إلى أنْ تابَعَ بين ذلك، وعلم أنَّ فعلَه كلّه بعين مَنْ حضَره من أُمنائه وجلسائه. فلمَّا نظروا إليه قال: أشهد أنَّ الذّباب أَلَحُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب! وأستَغفر اللّه! فما أكثر مَن أعجبَتْه نفسُه فأراد اللّه عزّ وجلّ أن يعرِّفه من ضعْفه ما كان عنهُ مستوراً! وقد علمت أني عند الناس منْ أزمَت الناس، فقد غلَبَني وفَضَحَني أضعفُ خلْقه! ثمَّ تلا قولَهُ تعالى: ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقذُوهُ منهُ ضَعُفَ الطَّالبُ وَالَمطْلُوبُ ﴾[1].

وكان بيِّن اللِّسان، قليلَ فضولِ الكلام، وكان مَهيباً في أصحابه، وكان أحدَ مَنْ لم يَطْعَنْ عليهِ في نفسه، ولا في تعريض أصحابِه للمَنَالة.

٧٩٥ - [قصَّة في إلحاح الذباب]

فأمَّا الذي أصابني أنَا من الذِّبَّان، فإنِّي خَرَجتُ أمشي في المبارك[2] أريد دَيْرَ الربيع، ولم أقدِرْ علَى دابَّةٍ، فمررتُ في عشْبٍ أَشِبٍ[3] ونباتٍ ملتفٍّ كثيرِ الذِّبَّان،

---

(١) ٧٣/ الحج: ٢٢.

(٢) المبارك: اسم نهر بالبصرة؛ احتفره خالد القسري، والمبارك: نهر وقرية فوق واسط. معجم البلدان ٥/٥٠.

(٣) عشب أشب: ملتف «القاموس: أشب».

فسقط ذباب من تلك الذِّبّان عَلَى أنفي، فطردته، فتحولّ إلى عيني فطردْتُه، فعاد إلى مُوق عيني، فزدتُ في تحريك يديَّ فتنحّى عني بقدْر شدّة حركتي وذبِّي عن عيني – ولذِبّان الكلإ والغياضِ والرِّياضَ وقْعٌ ليس لغيرها – ثمَّ عادَ إليَّ فَعُدْتُ عليه ثمّ عَاد إليّ فعدَتُ بأشدّ من ذلك، فلما عاد استعملتُ كمِّي فَذَبَبْت به عن وجهي، ثَمّ عاد، وأنَا في ذلك أحثُّ السَّير، أؤمِّل بسرعتي انقطاعَهُ عنِّي فلما عَاد نزعتُ طَيْلَساني[1] من عُنُقي فذببت به عَنِّي بَدَلَ كُمِّي؛ فلما عاوَدَ ولم أجدْ له حيلةً استعملتُ العدْوَ، فعدوْت منه شوطاً تَامّاً لم أتكلفْ مثلَه مذْ كنتُ صبيّاً، فتلقّاني الأندلسيُّ فقال لي: ما لك يا أبا عثمان! هل منْ حادثة؟ قلت: نعم أكبر الحوادث، أريد أن أخرجَ من موضعٍ للذِّبّان عَلَيَّ فيه سلطانٌ! فضحك حتى جلس. وانقطع عني، وما صدّقتُ بانقطاعه عنّي حتّى تباعد جداًّ.

٧٩٦ – [ذبّان العساكر]

والعساكر أبداً كثيرة الذِّبّان. فإذا ارتحلوا لم يَرَ المقيمُ بعدَ الظَّاعن منها إلا اليسير.

وزعم بعضُ النَّاسِ أنَّهنَّ يتبعن العساكرَ، ويسقُطْنَ على المتاع، وعلى جِلاَلِ الدّوابّ، وأعجاز البراذِينِ التي عليها أسبابها حتى تؤدِّيَ إلى المنزل الآخر.

وقال المكِّيُّ: يتبعوننا ليُؤْذونا، ثمَّ لا يركبون إلاّ أعناقَنا ودوابَّنا!

٧٩٧ – [تخلّق الذّباب][2]

ويقول بعضهم: بل إنما يتخلَّق من تلك العُفوناتِ والأبخرةِ والأنفاس، فإذا ذهبت فنيت مع ذهابها، ويزعمون أنّهم يعرفون ذلك بكثرتها في الجنائبِ، وبقلّتها في الشمائِل.

قالوا: وربَّما سددْنا فمَ الآنيةِ التي فيها الشَّرابُ بالصِّمَامةِ، فإذا نزعْناها وجدنا هناك ذباباً صغاراً.

وقال ذو الرّمّة[3]: [من الطويل]

وأيقنَّ أنّ القنع صارت نِطافه فَرَاشاً وأنّ البَقْلَ ذَاوٍ ويابسُ

---

(١) الطيلسان: ضرب من الأكسية، أصله فارسي «اللسان: طلس».

(٢) انظر الفقرة (٨٠٣).

(٣) ديوان ذي الرمة ١١٢١، واللسان (فرش، قنع، ذوي)، والتاج (فرش، قنع)، والعين ١/ ١٧١، والتهذيب ١/ ٢٥٨، ١١/ ٣٤٦، ١٥/ ٤٣٨، وديوان الأدب ١/ ١٨٨.

القِنْع: الموضع الذي يجتمع فيه نقران الماء. والفراش: الماء الرقيق الذي يبقى في أسفل الحِياض.

وأخبرني رجلٌ من ثقيف، من أصحاب النّبيذ أنّهم ربُّما فلقوا السَّفرجلة أيامَ السَّفرجل للنَّقْل والأكل، وليس هناك من صغار الذّبّان شيءٌ البتّة ولا يُعدمُهمْ أنْ يَرَوا على مَقاطعِ السَّفرجلِ ذُباباً صغاراً. وربّما رصدوها وتأمّلوها، فيجدونَها تعظم حتّى تلحق بالكبار في السَّاعة الواحدة.

٧٩٨ - [حياة الذُّباب والجعلان بعد موته]

قال: وفي الذِّبان طبع كطبع الجعلان، فهو طبعٌ غريب عجيب. ولولا أنّ العيانَ قهَرَ أهلَهُ لكانوا خلقاءَ أن يدفعوا الخبرَ عنهُ؛ فإنَّ الجُعَلَ إذا دُفِنَ في الورد ماتَ في العين، وفنيت حركاتُه كلُّها، وعاد جامداً تارزاً(١) ولم يفصِل الناظرُ إليه بينَه وبين الجُعَلِ الميِّت، ما أقام على تأمله. فإذا أعيد إلى الروث عادت إليه حركة الحياةِ من ساعته.

وجرَّبتُ أنا مثلَ ذلك في الخنفساء، فوجدتُ الأمر فيها قريباً من صِفَةِ الجعَل، ولم يبلغْ كلَّ ذلك إلاَّ لقَرابةِ ما بينَ الخنفساء والجُعَل.

ودخلت يوماً على ابن أبي كريمة، وإذا هو قد أخْرَجَ إجَّانَة(٢) كان فيها ماءٌ من غسالة أوساخ الثياب، وإذا ذبَّان كثيرةٌ قد تساقطْنَ فيه من اللَّيل فموَّتْن. هكذا كُنَّ في رأي العين. فَغَبَرْنَ كذلك عَشيَّتَهُنَّ وليلتهنّ، والغَدَ إلى انتصاف النهار، حتّى انتفخْنَ وعفنَّ واسترخين؛ وإذا ابن أبي كريمة قد أعدّ آجُرّةً جديدة، وفُتاتَ آجُرٍّ جديد، وإذا هو يأخذ الخَمس منهنّ والستّ، ثمّ يضعهُنّ عَلَى ظهر الآجرَّة الجديدة، ويذرُّ عليهنَّ من دقاق ذلك الآجرِّ الجديد المدقوق بقدْر ما يغمُرها فلا تلبث أن يراها قدْ تحرَّكتْ، ثمَّ مشت، ثمَّ طارتَ؛ إلاَّ أنّه طَيَرانٌ ضعيفٌ.

٧٩٩ - [غلام ابن أبي كريمة]

وكان ابنُ أبي كريمة يقول: لا واللّه، لا دفنْتَ ميّتاً أبداً حَتّى يَنْتُنَ! قلت: وكيف ذاك؟ قال: إنّ غلامي هذا نُصيراً ماتَ، فأخّرْتُ دفنه لبعْضِ الأمْر، فقدم أخوه تلك اللَّيْلَة فقال: ما أظنُّ أخي ماتَ! ثمَّ أخذ فتيلتين ضخمتين، فروّاهما دهْناً ثمّ

---

(١) التارز: اليابس لا روح فيه؛ والميت «القاموس: ترز».

(٢) الإجانة: الوعاء يغسل فيه الثياب «القاموس: أجن».

أشعل فيها النّارَ، ثمَّ أطفأهما وقرَّبهما إلى منخريه، فلم يلبَثْ أنْ تحرَّك. وها هو ذا قد تراه! قلت له: إن أصحاب الحروب والذين يغسلون الموتى، والأطباء، عندَهم في هذا دَلالاتٌ وعلامات فلا تحمل عَلَى نفسك في واحدٍ من أولئك ألاَّ تستُره بالدفن حتى يَجيفَ.

والمجوس يقرّبون الميِّت منْ أنف الكلب، ويستدلون بذلك عَلَى أمره فعلمت أنّ الذي عايَنّاه من الذّبّان قد زادَ في عزْمِه.

٨٠٠ - [النُّعَر]

والنُّعَر: ضربٌ من الذِّبان، والواحدةُ نعَرة. وربما دخلتْ في أنف البعيرِ أو السَّبع، فيزمُّ بأنفه؛ للذي يلقى من المكروه بسببه. فالعَرَبُ تشبّه ذا الكِبْر من الرجال إذا صعّر خده، وزَمّ أنفه - بذلك البعير في تلك الحال. فيقال عند ذلك: «فلان في أنفه نعرة»[١]، و«في أنفِه خُنْزوانةٌ»[٢]. وقال عمر: «واللّه لا أقلعُ عنه أو أطيِّرَ نُعرَته»[٣].

ومنها القَمَع، وهو ضربٌ من ذبّان الكلأ. وقال أوس[٤]: [من الطويل]

ألمْ ترَ أن اللّه أنزلَ مُزْنه ... وعفْرُ الظِّباءِ في الكِناسِ تَقَمَّعُ

وذلك مما يكون في الصيفِ وفي الحرِّ.

٨٠١ - [أذى الذبّان للدوابّ]

والذّبان جنْدٌ من جند اللّه شديدُ الأذى. وربَّما كانَ أضرّ من الدَّبْر[٥] في بَعضِ الزمان، وربما أتت عَلَى القافلة بما فيها؛ وذلك أنّها تغشى الدوابّ حتّى تضربَ بأنفسها الأرض - وهي في المفاوز - وتسقط، فيهلك أهل القافلة؛ لأنهم لا يخرجون من تلك المفاوز على دوابهمْ - وكذلك تُضْرب الرِّعاء بإبلهم، والجمالون بجمالهم عن تلك الناحية، ولا يسْلُكُها صاحبُ دابَّة، ويقول بعضُهم لبعض: بادِرُوا قبْلَ حركَةِ الذِّبان، وقبل أنْ تتحرك ذّبان الرِّياضِ والكلأ!

---

(١) في الأمثال (في رأسه نعرة)، والمثل في مجمع الأمثال ٢/٦٩، والمستقصى ٢/٨٣، وجمهرة الأمثال ٢/٩٩.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/٩٩.

(٣) النهاية ٥/٨٠. أي حتى أخرج جهله من رأسه.

(٤) ديوان أوس بن حجر ٥٧، واللسان والتاج (قمع، حزن)، والمقاييس ٨/٢٨، والمخصص ٨/١٨٣، والمجمل ٤/١٢٤، والتهذيب ١/٢٩١، وبلا نسبة في الجمهرة ٩٤١.

(٥) الدبر: جماعة النحل والزنابير «القاموس: دبر».

والزّنابير لا تكادُ تدْمي إذا لسعت بأذنابها. والذِّبّان تغمس خراطيمها في جوفِ لحوم الدوابّ، وتخرِق الجلودَ الغلاظ حتى تنزفَ الدَّمَ نزفاً. ولها مع شدّة الوقعِ سمومٌ. وكذلك البَعوضة ذاتُ سمّ، ولو زيدَ في بَدَن البعوضة وزيدَ في حرْقة لسْعها إلى أن يصيرَ بَدَنها كبدن الجرَّارة[1] - فإنها أصغر العقارب - لما قام له شيءٌ، ولكان أعظمَ بليَّةً من الجرَّارة النصيبية[2] أضعافاً كثيرة. وربَّما رأيت الحمار وكأنّه مُمَغَّر أو معصفر. وإنَّهُمْ مع ذلك ليجلِّلون حمُرَهم ويُبَرقعونها، وما يَدَعون موضعاً إلاَّ ستروه بجهدهم، فربَّما رأيتَ الحمير وعليها الرِّجال فيما بين عَبْدَسي[3] والمذارِ[4] بأيديهم المناخس والمذابُّ، وقد ضربت بأنفسها الأرضَ واستسلمت للموت. وربّما رأيت صاحبَ الحميرِ إذا كانَ أجيراً يضربُها بالعَصا بكلِّ جَهْده، فلا تنبعث.

وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عندَه خطر. ولقدْ رأيتُ ذُباباً سقط على سالفة[5] حِمار كانَ تحتي، فضرب بأُذنيه، وحرَّك رأسه بكلِّ جهده، وأنا أتأمَّله وما يقلع عنه، فعَمَدْتُ بالسَّوطِ لأنحِّيَه به فنزا عنه، ورأيت مع نزْوِه عنه الدَّمَ وقد انفجر؛ كأنَّهُ كان يشرب الدَّمَ وقد سدَّ المخرج بفيه، فلمَّا نحَّاه طلع.

٨٠٢ - [ونيم الذّباب]

وتزعمُ العامَّةُ أنَّ الذّبَّان يخرَأ عَلَى ما شاء قالوا: لأنَّا نراه يخرأ عَلَى الشيء الأسود أبيضَ، وعلى الأبيضِ أسود.

---

(١) الجرارة، كجبانة: عقيرب تجر ذنبها «القاموس: جرر».

(٢) الجرارة النصيبية: نسبة إلى نصيبين، وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وسبب كثرة عقاربها أن أنوشروان الملك حاصرها وما قدر أن يفتحها، فأمر أن تجمع إليه العقارب. فحملوا العقارب من قرية تعرف بطيرانشاه من عمل شهرزور، فرماهم بها في العرادات والقوارير. وكان يملأ القارورة من العقارب ويضعها في العرادة؛ وهي على هيئة المنجنيق، فتقع القارورة وتنكسر وتخرج تلك العقارب، حتى ضجّ أهلها وفتحوا له البلد، وأخذها عنوة، وذلك أصل عقارب نصيبين. معجم البلدان ٥ /٢٨٨.

(٣) عبدسي: اسم مصنعة كانت برستاق كَسْكَر، خربها العرب، وبقي اسمها على ما كان حولها من العمارة. معجم البلدان ٤ /٧٧.

(٤) المذار: مدينة بين واسط والبصرة، فتحها عتبة بن غزوان أيام عمر بن الخطاب. معجم البلدان ٤ /٨٨.

(٥) السالفة: ما تقدم من العنق «القاموس: سلف».

ويقال قد ونمَ الذُّباب - في معنى خرئ الإنسان - وعرَّ الطائر. وصام النَّعام، وذَرَق الحمام. قال الشاعر[1]: [من الوافر]

وقَدْ وَنَمَ الذُّبابُ عليه حتَّى ... كأنَّ وَنيمَه نقطُ المِدَادِ

وليس طولُ كُوْمِ البعير إذا ركب النَّاقةَ، والخنزير إذا ركب الخنزيرة، بأطولَ ساعةً من لُبْثِ ذكورةِ الذبّان عَلَى ظهور الإناثِ عندَ السِّفاد.

٨٠٣ - [تخلق الذُّباب][2]

والذّباب من الخلْق الذي يكونُ مَرّةً من السِّفاد والوِلاد، ومرّةً من تعفُّن الأجسام والفَسادِ الحادث في الأجرام.

والباقلاءُ إذا عتَقَ شيئاً في الأنبار[3] استحال كلُّه ذُباباً، فربَّما أغفلوه في تلك الأنْبار فيعودون إلى الأنبارِ[3] وقد تطاير من الكُوَى والخروقِ فلا يجدون في الأنبار إلاَّ القشور.

والذّباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً، ثمَّ يعود ذباباً. وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقّباً في داخله شيءٌ كأنَّه مسحوق، إذا كان اللّه قد خلق منه الذّبّان وصيَّره. وما أكثر ما تجده فيه تامَّ الخلق. ولو تمّ جناحاه لقد كان طار.

٨٠٤ - [حديث شيخ عن تخلق الذّباب]

وحدّثني بعض أصحابنا عن شيخٍ من أهل الخُريبة قال: كنت أحبُّ الباقلاء، وأردت، إمَّا البَصرة وإما بغداد - ذهب عنِّي حفظه - فصرتُ في سفينةٍ حِمْلها باقلاء، فقلت في نفسي: هذا واللّه من الحظِّ وسعادة الجَدِّ، ومن التَّوفيق والتَسديد، ولقد أربع من وَقَعَ له مثل هذا الذي قد وقع لي: أجلسُ في هذه السفينة على هذا الباقلاء، فآكلُ منه نيّاً ومطبوخاً ومقلوّاً، وأرضُّ[4] بعضَه وأطحنُه، وأجْعله مرقاً وإداماً، وهو يغْذو غذاءً صالحاً، ويُسْمِنُ، ويزيد في الباه. فابتدأت فيما أمَّلته، ودفعْنا السَّفينة،

---

(١) البيت للفرزدق في ديوانه ٢١٥ (طبعة الصاوي)، واللسان والتاج (ونم)، والمجمل ٤/٥٥٦، والجمهرة ٩٩٢، وبلا نسبة في ديوان الأدب ٣/٢٥٥، والمخصص ٨/١٨٦، والتهذيب ١٥/٥٣٥، ١٦/٢٠٩.

(٢) انظر الفقرة (٧٩٧).

(٣) الأنبار: جمع نبر، وهو بيت التاجر يُنَضَّد فيه المتاع، والأنبار أيضاً: أكداس الطعام «القاموس: نبر»

(٤) أرضُّ: أدق «القاموس: رضض».

فأنكَرْتُ كثرة الذّبّان. فلما كان الغدُ جاء منه ما لم أقدْر معه على الأكلِ والشرب. وذهبت القائلة وذهب الحَديث، وشُغلت بالذّبِّ. على أنهنَّ لم يكنَّ يبرحْنَ بالذّبَّ، وكنَّ أكثَرَ من أنْ أكونَ أقوى عليهنَّ؛ لأنّي كنتُ لا أطردُ مائةً حتى يخلفهَا مائة مكانها. وهُنَّ في أولِ ما يخرجْنَ من الباقلاء كأنَّ بهنّ زَمَانَةً[١] فلما كانَ طيرانهنَّ أسوأ كان أسوأ لحالي، فقلت للملاح: ويلك! أيُّ شيءٍ معك حتى صار الذبان يتبعك! قدْ واللّه أكلَتْ وشربَتْ! قال: أوَ ليس تعرف القصة؟ قلت: لا واللّه! قال: هي واللّه من هذه الباقلاء، ولولا هذه البليّة لجاءنَا من الرُّكاب كما يجيئون إلى جميع أصحاب الحمولات. وما ظننته إلاّ ممن قد اغتفر هذا للين الكِراء، وحبِّ التفرّد بالسفينة. فسألْتُهُ أنْ يقربني إلى بعض الفُرَض[٢]، حتى أكتريَ من هناك إلى حيث أريد، فقال لي: أتحبُّ أنْ أزوِّدَك منه؟ قلت: ما أحبُّ أنْ ألتقيَ أنا والباقلاء في طريقٍ أبَداً!.

٨٠٥ - [من كره الباقلاء]

ولذلك كان أبو شمر لا يأكل الباقلاء، وكان أخذ ذلك عن معلِّمه معَمَّر أبي الأشعث. وكذلك كان عبد اللّه بن مسلمة بن محارب والوكيعيُّ ومُعمَّر، وأبو الحسن المدائني، برهةً من دهرهم.

وكان يقول: لولا أنَّ الباقلاء عفن فاسدُ الطّبعِ، رديءٌ يخثِّر الدَّمَ ويغلّظُه ويورث السّوداءَ وكلَّ بلاء - لما ولّدَ الذِّبانَ. والذّبان أقذرُ ما طار ومشَى! وكان يقول: كلُّ شيءٍ ينبت منكوساً فهو رديءٌ للذِّهن، كالباقلاء والباذنجان.

وكان يزعم أنّ رجلاً هرب من غرمائه فَدَخل في غابة باقلاء، فتستّر عنهم بها، فأراد بعضُهم إخرَاجه والدخول فيها لطلبهِ، فقال: أحكمَهُمْ وأعلمهم كفاكم له بموضعه شرّاً!

وكان يقول: سمعت ناساً من أَهل التجْربة يحلفون باللّه: إنَّه ما أقام أحدٌ أربَعين يوماً في منِبت باقلاءَ وخرج منه إلاّ وقد أسقمَهُ سُقْماً لا يزايلُ جسمَه.

وزعم أنّ الذي منع أصحاب الأدْهان والتربيةِ بالسمسم منْ أن يربُّوا السُّماسِم[٣]

---

(١) الزمانة: العاهة «القاموس: زمن».

(٢) الفُرَض: جمع فرضة، وهي محطّ السفن من البحر «القاموس: فرض».

(٣) السُّماسم: طائر «القاموس: سمم». وفي حياة الحيوان ١/٥٦٦: (السَّمائم: جمع سمامة، وهو ضرب من الطير كالخطاف، وقيل هو السنونو، وهو الطير الأبابيل الذي أرسله اللّه تعالى على أصحاب الفيل).

بنَوْر الباقلاء، الذي يعرفونَ من فساد طبعه، وأنَّه غير مأمون على الدِّماغ وعلى الخيشوم والصِّماخ[١]، ويزعمون أنّ عملَه الذي عمله هو القصد إلى الأذهان بالفساد.

وكان يزعم أنَّ كلَّ شيءٍ يكون رديئاً للعصب فإنَّه يكون رديئاً للذِّهن، وأن البصل إنما كان يفسد الذهن؛ إذْ كان رديّاً للعصب، وأنْ البَلاذُرَ[٢] إنما صار يُصلح العقلَ ويورثُ الحفظ؛ لأنَّه صالح للعَصَب.

وكان يقول: سواءٌ عليّ أكلت الذّبان أو أكلت شيئاً لا يولّد إلاَّ الذِّبانَ، وهو لا يولِّده إلاَّ هُوَ. والشيءُ لا يلد الشيءَ إلاّ وهو أولى الأشياءِ به، وأقربها إلى طبعه، وكذلك جميع الأرحام، وفيما ينتج أرحام الأَرض وأرحام الحيوان، وأرحام الأَشجار، وأرحام الثِّمَار، فيما يتولَّد منها وفيها.

٨٠٦ - [حديث أبي سيف حول حلاوة الخرء]

وبينما أنا جَالسٌ يوماً في المسجد مع فتيانٍ من المسجديِّين مما يلي أبواب بني سليم، وأنَا يومئذٍ حَدث السّنّ إذْ أقْبَلَ أبو سَيفٍ الممرور - وكان لا يؤْذي أحداً، وكان كثير الظَّرْفِ من قومٍ سَراة - حتى وقف علينا، ونحنُ نرى في وجهه أثر الجدِّ، ثمّ قال مجتهداً: واللّه الذي لا إله إلاّ هو إن الخرْءَ لحلو. ثمَّ واللّه الذي لا إله إلاّ هو إنَّ الخرء لحلو. ثم واللّه الذي لا إله إلاّ هو إنّ الخرء لحلو، يميناً بَاتَّةً يسألني اللّهُ عنها يوم القيامة! فقلت له: أشهد أنَّك لا تأكله ولا تذوقُه، فمن أين علمت ذلك؟ فإن كنْتَ علمت أمراً فعلِّمنَا مما علمَكَ اللّه. قال: رأيت الذّبّان يَسقط على النّبيذ الحلو، ولا يسقط على الحازر[٣]، ويقعُ على العسل ولا يقع على الخلّ، وأراه عَلَى الخُرء أكثرَ منه على التّمْر. أفتريدون حُجَّةً أبين من هذه؟ فقلت: يا أبا سَيْفٍ بهذا وشبهه يُعرفُ فضْلُ الشَّيخِ عَلَى الشابِّ.

٨٠٧ - [تخلق بعض الحيوان من غَيرِ ذكر وأنثى][٤]

ثُمَّ رَجَعَ بنا القول إلى ذِكر خلق الذِّبان من الباقلاء. وقد أنكر ناسٌ من العوامِّ

---

(١) الصماخ: خرق الأذن، والأذن نفسها «القاموس: صمخ».

(٢) البلاذُر: يسمى باليونانية أنَقَرْديا Anacardier ومعناها: الشبيه بالقلب؛ إلماعاً إلى شكل الثمر، وهو نبات طبي من فصيلة البطميات، تؤكل ثماره؛ وتسمى تفاح الأكاجو، وتفاح البلاذر، انظر معجم الألفاظ الزراعية للشهابي ٣٦.

(٣) الحازر: الحامض من اللبن والنبيذ «القاموس: حزر».

(٤) انظر الفقرة (٨١٢).

وأشْباهِ العوامِّ أن يكونَ شيءٌ من الخلق كانَ من غير ذكرٍ وأنثى. وهذا جهلٌ بشأن العالَم، وبأقسام الحيوان. وهم يظنُّون أنَّ على الدِّين من الإقرار بهذا القول مضرَّةً. وليس الأمر كما قالوا. وكلُّ قولٍ يكذِّبُه العِيان فهو أفحش خطأ، وأسخَفُ مذهباً، وأدلُّ على معاندةٍ شديدة أو غفْلة مفْرطة.

وإنْ ذهب الذَّاهبُ إلى أن يقيس ذلك على مجازِ ظاهر الرَّأي، دونَ القطْع على غيب حقائق العِلل، فأجْرَاه في كلِّ شيء – قال قَوْلاً يدفعه العِيانُ أيضاً، مع إنكار الدِّين له.

وقد علمنا أنَّ الإنسانَ يأكُلُ الطّعامَ ويشرَبُ الشَّرابَ، وليس فيهما حيَّةٌ ولا دودةٌ، فيُخْلق منها في جوفه ألوان من الحَيَّات، وأشكالٌ من الدِّيدان من غير ذَكرٍ ولا أنثى. ولكن لابدَّ لذلك الوِلادِ واللِّقاحِ من أنْ يكون عن تناكح طِباع، وملاقاة أشياءَ تشبه بطباعها الأرحامَ وأشياءَ تشبه في طبائعها ملقِّحات الأرحام.

٨٠٨ – [استطراد لغوي بشواهد من الشعر]

وقد قال الشاعر: [من الكامل]

فاسْتَنْكَحَ اللَّيْلَ البهيمَ فَأُلْقِحَتْ ... عن هَيْجِهِ واستُنْتِجَت أحلاما

وقال الآخر: [من مجزوء الكامل]

وإذا الأُمور تناكَحَتْ ... فالجود أكرمُها نِتاجا

وقال ذو الرُّمَّة: [من الطويل]

وإنِّي لمِدلاجٌ إذا ما تناكَحَتْ ... مَعَ اللَّيلِ أحلامُ الهِدَانِ المثقَّلِ[1]

وقال عليُّ بن مُعاذ: [من السريع]

لَلْبَدْرُ طِفلٌ في حِضَان الهوا ... مُسْتَزْلَقٌ من رَحِم الشّمْسِ[2]

وقال دُكينٌ الرَّاجز[3]، أو أبو محمد الفقعسيِّ: [من الرجز]

وقد تعللتُ ذميل العنْسِ ... بالسَّوطِ في ديمومةٍ كالتُّرسِ

إذا عَرَّجَ اللَّيلَ بروجُ الشَّمس

(١) الهدان: الأحمق الثقيل «القاموس: هدن».

(٢) أزلقت الفرس: ألقت ولدها تاماً «القاموس: زلق».

(٣) تقدم الرجز في الفقرة (٥٧٧) صفحة ٣٧.

وقال أمية بن أبي الصَّلت[١]: [من الكامل]

والأرضُ نوَّخها الإلهُ طَرُوقةً للماء حتَّى كلُّ زَنْدٍ مُسْفَدُ[٢]

والأرضُ مَعقِلنَا وكانتْ أمَّنا فيها مقابِرُنَا وفيها نولد

وذكر أميَّة الأرْضَ فقال[٣]: [من البسيط]

والطُّوط نزْرعُه فيها فنَلبَسهُ والصُّوف نجتزُّه ما أردف الوَبَرُ[٤]

هي القرارُ فما نبْغي بهَا بدلاً ما أرحَمَ الأرضَ إلاَّ أنَّنا كُفُرُ

وطَعنَةُ اللّهِ في الأعداءِ نافذةٌ تُعيِي الأطبَّاءَ لا تَثْوَى لها السُّبُرُ[٥]

ثمَّ رجع إليها فقال:

مِنها خُلِقْنَا وكانَتْ أُمّنا خُلِقَتْ ونحنُ أبناؤها لو أنَّنا شُكُرُ[٦]

٨٠٩ - [ما تستنكره العامة من القول]

وتقول العرب: الشمسُ أرحمُ بنا! فإذا سمع السامعُ منهم أنَّ جالينوسَ قال: عليكم بالبَقْلة الرحيمة - السِّلق - استشنعه السامع، وإذا سمع قولَ العرب: الشمسُ أرحم بنا، وقولَ أميّة[٧]: [من البسيط]

* ما أَرْحَمَ الأرضَ إلا أنَّنا كُفُرُ *

لم يستشنعه، وهما سواء.

فإذا سمع أهل الكتاب يقولون: إنَّ عيسى ابن مريم أخَذَ في يده اليمنى غُرْفَةً، وفي اليسرى كِسرَةَ خبز، ثم قال: هذا أبي، للماءِ، وهذه أمِّي، لكسرة الخبز. استشنعه، فإذا سَمعَ قولَ أميَّة[٨]: [من الكامل]

والأرضُ نَوَّخَهَا الإله طَرُوقَةً للماءِ حتَّى كل زَنْد مُسفَدُ

لم يستشنعه.

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٥٦، والأول في اللسان والتاج (سفد)، والثاني في المخصص ١٣ / ١٨٠، وبلا نسبة في المذكر والمؤنث للأنباري ١٨٧.

(٢) في ديوانه: (نوّخها: أبركها. والطروقة: أنثى الفحل، شبه الماء والأرض بالأنثى والفحل).

(٣) ديوان أُمية بن أبي الصلت ٣٨٥.

(٤) في ديوانه (الطوط: القطن، وقيل: قطن البردي خاصة، أردف: توالى وتتابع).

(٥) في ديوانه (السبر: جمع سبار، وهو فتيلة تجعل في الجرح. وثوى في المكان: أطال الإقامة به).

(٦) في ديوانه (شكر: جمع شاكر، وهو خلاف الجاحد).

(٧) تقدم البيت في نهاية الفقرة السابقة.

(٨) تقدم البيت في الفقرة السابقة.

والأصل في ذلك أنّ الزّنَادقَةَ أصحابُ ألفاظٍ في كتبهمْ، وأصحابُ تهويل؛ لأنَّهم حينَ عدمُوا المعانيَ ولم يكن عندهم فيها طائل، مالُوا إلى تكلُّف ما هو أخْضَرُ وأيسرُ وأوجَزُ كثيراً.

٨١٠ - [حُظْوة بعض الألفاظ لَدَى بعض النّاس]

ولكلِّ قَوْمٍ ألفاظٌ حظِيتْ عِنْدَهم. وكذلك كلُّ بليغٍ في الأرض وصاحِب كلامٍ منثور، وكلُّ شاعرٍ في الأرض وصاحِب كلامٍ موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهجَ وألف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرَها في كلامه، وإن كان واسعَ العلمِ غزيرَ المعاني، كثيرَ اللّفظ.

فصار حظُّ الزَّنَادِقَةِ من الألفاظ التي سبقتْ إلى قلوبهم، واتَّصلت بطبائعهم، وجَرتْ على ألسنتهم التناكحَ، والنتائِج، والمزاج والنُّور والظلمة، والدفَّاع والمنَّاع، والساتر والغَامر، والمنحلّ، والبُطلان، والوِجْدان، والأثير والصِّدِّيق وعمود السبح، وأشكالاً من هذا الكلام. فصَارَ وإن كان غريباً مرفوضاً مهجوراً عنْد أهلِ ملَّتنا ودعوَتنا، وكذلك هو عِنْدَ عوامِّنا وجمهُورنا، ولا يستعملهُ إلاّ الخَواصُّ وإلاَّ المتكلِّمون.

٨١١ - [لكل مقام مقال ولكل صناعة شكل]

وأنا أقولُ في هذا قَوْلاً، وأرجو أن يكون مرضياً. ولم أقلْ «أرجو» لأني أعلمُ فيه خللاً، ولكنّي أخذتُ بآداب وجوه أهلِ دعوتي وملّتي، ولغتي، وجزيرتي، وجيرتي؛ وهم العرب. وذلك أنّه قيل لصُحَارٍ العبديّ: الرجل يقول لصاحبه، عنْدَ تذكيره أياديَه وإحْسانه: أما نحنُ فإنّا نرجو أن نكونَ قدْ بلغْنا من أداءِ ما يجَبُ علينا مبلغاً مُرضياً. وهُوَ يعلم أنّه قَدْ وفّاه حَقّه الواجبَ، وتفضّل عليه بما لا يجب. قال صُحار: كانوا يستحبُّون أن يَدَعُوا للقول متنفَّساً، وأن يتركوا فيه فضلاً، وأن يتجافَوا عن حَقٍّ إن أرادوه لم يُمنَعوا منه.

فلذلك قلت «أرجو». فافهَمْ فَهّمَكَ اللّه تعالى.

فإنَّ رأيي في هذا الضّرب من هذا اللفظ، أنْ أكونَ ما دمتُ في المعاني التي هي عبارتها، والعادَة فيها، أن ألفظ بالشّيء العتيد[1] الموجود، وأدَعَ التكلّفَ لِما عسى ألاّ يسلس ولا يسهلَ إلاّ بعد الرِّياضة الطويلة.

---

(١) العتيد: الحاضر المهيأ «القاموس: عتد».

وأرى أنْ ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دُمتُ خائضاً في صناعة الكلام مع خواصِّ أهل الكلام؛ فإن ذلك أفهمُ لهمْ عني، وأخفُّ لمؤنتهمْ عليّ.

ولكل صناعةٍ ألفاظٌ قد حَصلت لأهلها بَعدَ امتحان سواها، فلم تَلزَق بصِناعتهم إلاَّ بَعدَ أن كانَتْ مُشاكَلاً بينها وبين تلك الصناعة.

وقبيحٌ بالمتكلم أنْ يفتقر إلى ألفاظِ المتكلِّمين في خُطبةٍ، أو رسالة، أو في مخاطبةِ العوام والتجار، أو في مخاطبةِ أهله وعبْدِهِ وأمته، أو في حديثه إذا تحدثَ، أو خبره إذا أخبر.

وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلبَ ألفاظ الأعرابِ، وألفاظ العوامّ وهو في صناعة الكلام داخل. ولكلٍّ مقامٍ مقال، ولكلِّ صناعة شكل.

٨١٢ - [خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى]

ثم رجع بنا القول إلى ما يحدث الله عزَّ وجلَّ من خلْقه من غير ذكرٍ ولا أنثى. فقلنا(١): إنّه لابدَّ في ذلك من تلاقي أمرينِ يقومانِ مقامَ الذّكر والأنثى، ومقامَ الأرضِ والمطر. وقد تقرب الطّبائعُ من الطبائع، وإن لم تتحوَّلْ في جميع معانيها، كالنطفة والدَّم، وكاللّبنِ والدَّم.

وقد قال صاحبُ المنطقِ: أقول بقولٍ عامٍّ: لابدَّ لجميع الحيوان من دم، أو من شيء يشاكل الدَّم.

ونحن قد نجد الجيفَ يخلق منها الدِّيدان، وكذلك العذرة. ولذلك المجوسيُّ كلما تبرَّز ذرَّ على بُرازه شيئاً من التراب؛ لئلا يخلق منها ديدان. والمجوسيُّ لا يتغوَّط في الآبار والبلاليع لأنّه بزعمه يُكرم بطنَ الأرض عن ذلك، ويزعم أنّ الأرضَ أحَدُ الأركان التي بُنيَت العوالمُ الخمسةُ عليها بزعمهم: أبرسارس وأبرمارس وأبردس وكارس وحريرة أمنةَ. وبعضهم يجعل العوالم ستة ويزيد أسرس، ولذلك لا يدفنون موتاهم ولا يحفرون لهم القبور، ويضعونهم في النّواويس وضْعاً.

قالوا: ولو استطعنا أنْ نخرج تلك الجيف من ظهور الأرضين وأجواف الأحراز(٢)، كما أخرجْناها من بطون الأرَضين لفعلنا. وهم يسمُّون يوم القيامة روزرستهار، كأنّه يوم تقوم الجيف. فمن بُغضهم لأبْدَان الموتى سمَّوها بأسمج أسمائهم.

---

(١) انظر الفقرة (٨٠٧).

(٢) الأحراز: جمع حرز، وهو المكان الحصين «القاموس: حرز»

قالوا: وعلى هذا المثال أعظمْنا النّار والماء، وليسا بأحقَّ بالتعظيم من الأرض.

وبعد فنحن ننزِع الصِّمامة من رؤوس الآنية التي يكونُ فيها بعضُ الشراب، فنَجد هنالك من الفراش ما لم يكن عن ذكر ولا أنثى، وإنما ذلك لاستحالة بعض أجزاءِ الهواء وذلك الشراب إذا انضمَّ عليه ذلك الوعاء. وهذا قولُ ذي الرمَّة وتأويلُ شعره، حيث يقول[1]: [من الطويل]

وأبصَرْنَ أن القِنْعَ صارتْ نِطافُهُ فَرَاشاً وأنَّ البَقلَ ذاوٍ ويابِسُ

وكذلك كلُّ ما تخلق من جُمَّارِ النَّخلة وفيها، من ضروب الخلَق والطَّير، وأشباه الطير، وأشباه بنات وَردان[2]، وَالذي يسمَّى بالفارسية فاذو، وكالسُّوس، والقوادح[3]، والأَرضة، وبَنَات وَرْدان اللاتي يخلقْن من الأَجذاع والخشب والحشوش. وقد نجد الأزَج[4] الذي يكبس فيه اليخ[5] بخراسان، كيف يستحيل كله ضفادِعَ. وما الضِّفدع بأدَلّ عَلَى اللّه من الفَراش.

وإنما يستحيل ذلك الثَّلجُ إذا انفتح فيه كقدْر منخر الثَّور، حتَّى تدْخُله الرِّيح التي هِي اللاقحة، كما قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لوَاقِحَ﴾[6]، فجعلها لاقحةً ولم يجعلها ملقحة.

ونجد وسْط الدَّهناء[7] – وهي أوسع من الدوِّ[8] ومن الصَّمَّان[9] – وعلى ظهر مسجد الجامع في غبِّ المطر من الضَّفادِع ما لا يُحصى عددُه. وليس أنَّ ذلك كان عن ذكرٍ وأنثى، ولكنَّ اللّهَ خَلقها تلك الساعةَ من طِباع تلك التُّربَةِ وذلك المطر

---

(١) ديوان ذي الرمة ١١٢١، واللسان (فرش، قنع، ذوي)، والتاج (فرش، قنع)، والعين ١ / ١٧١، وديوان الأدب ١ / ١٨٨، والتهذيب ١ / ٢٥٨، ١١ / ٣٤٦، ١٥ / ٤٣٨.

(٢) بنات وردان: دويبة تتولد في الأماكن الندية، وأكثر ما تكون في الحمامات والسقايات، وهي تألف الحشوش، أي قِطع النخل. حياة الحيوان ٢ / ٤٢٩.

(٣) القوادح: جمع قادحة، وهي الدودة «القاموس: قدح». وحياة الحيوان: ٢ / ١٩٤.

(٤) الأزج: ضرب من الأبنية «القاموس: أزج».

(٥) اليخ: كلمة فارسية تعني الثلج. انظر السامي في الأسامي ٣٤٣، وقد وردت هذه الفقرة في ربيع الأبرار ٥ / ٤٤٠.

(٦) ٢٢ / الحجر:١٥.

(٧) الدهناء: واد ببادية البصرة في أرض بني سعد معجم البلدان ٢ / ٤٩٣.

(٨) الدَّوّ: أرض ملساء بين مكة والبصرة على الجادة، ليس فيها جبل ولا رمل. معجم البلدان ٢ / ٤٩٠.

(٩) الصمَّان: أرض فيها غلَظٌ وارتفاع، وفيها قيعان واسعة، وهي متاخمة للدهناء، وقيل: الصمان جبل في أرض تميم أحمر لَيس له ارتفاع، انظرمعجم البلدان ٣ / ٤٢٣.

وذلك الهواءِ المحيطِ بهما، وتلك الرِّيح المتحرِّكة. وإنْ زعموا أن تلك الضَّفادعَ كانت في السَّحاب، فالذي أقرُّوا به أعجبُ من الذي أنكروه. وإنما تقيم الضَّفادعُ وتتربّى وتتوالَدُ في مناقع المياه، في أرض تلاقي ماءً. والسَّحابُ لا يوصف بهذه الصفة. قد نجد الماء يزيد في دجْلةَ والفُرات فتنزُّ البطون والحفائر التي تليها من الأَرض، فيُخْلق من ذلك الماءِ السَّمكُ الكثير، ولم يكن في تلك الحفائر الحدث[1]، ولا في بحر تلك الأرضين شيءٌ من بيض السَّمك.

ولم نجد أهلَ القاطول[2] يشكُّون في أنَّ الفأر تخلَّق من أرضهم، وأنّهُمْ ربَّما أبصروا الفأرَة من قبل أن يتم خلْقُها. فنسبوا بأجمعهم خلق الفأرِ إلى الذكر والأنثى، وإلى بعض المياه والتُّرَبِ والأجواء والزمان، كما قالوا في السمك، والضَّفادعِ، والعقارب.

٨١٣ - [ضعف اطراد القياس والرأي في الأمور الطبيعية]

فإن قاس ذلك قائس فقال: ليسَ بين الذِّبَّان وبنات وردان وبين الزَّنابير فرق، ولا بين الزَّنابير والدّبْر والخنافس فرق، ولا بين الزّرازير والخفافيش ولا بين العصافير والزّرازير فرق فإذا فرغوا من خشاش الأرض صاروا إلى بغاثها ثم إلى أحرارها، ثم إلى الطواويس والتدّارجِ[3] والزمامج[4] حتى يصعدوا إلى الناسِ. قيل لهم: ليس ذلك كذلك، وينبغي لكم بَديًّا أن تعرفوا الطّبيعة والعادة، والطبيعة الغريبة من الطبيعة العامّية، والممكن من المُمْتَنِع، وَأنّ المُمْكِنَ على ضربَين: فمنه الذي لا يزال يكون، ومنه الذي لا يكاد يكون، وما علة الكثرة والقلة، وتعرفوا أنّ الممتنع أيضًا عَلَى ضربينَ: فمنه ما يكُون لعلة موضوعة يجوز دفعها، وما كان منه لعلة لا يجوز دفعها، وفصلَ ما بين العلة التي لا يجوز دفعُها وهي عَلَى كل حالٍ علة، وبين الامتناع الذي لا علة له إلاّ عينُ الشيء وجنسُه.

وينبغي أنْ تعرفوا فَرْقَ ما بين المحال والممتنع، وما يستحيل كونه من اللّه عزّ وجلّ؛ وما يستحيل كونه من الخلق.

---

(١) الأحداث: أمطار أول السنة. «القاموس: حدث».

(٢) القاطول: اسم نهر كانه مقطوع من دجلة، وهو نهر كان في موضع سامرًا قبل أن تعمر، وكان الرشيد أول من حفره. معجم البلدان ٤ /٢٩٧.

(٣) التدرج: طائر يغرد في البساتين بأصوات طيبة حياة الحيوان. ١ /٢٣٠.

(٤) الزمج: طائر من الجوارح يصيد به الملوك الطير، وهو دون العقاب، تسميه العجم «دوبرادران». حياة الحيوان ١ /٥٣٨.

وإذا عرفتم الجواهرَ وحظوظها من القوى، فعند ذلك فتعاطَوا الإنكارَ والإقرار، وإلاَّ فكونوا في سبيل المتعلم، أو في سبيل من آثَر الرَّاحة ساعةً عَلَى ما يورِث كدُّ التعلُّم من راحة الأبد. قد يكون أن يجيءَ علَى جهة التوليد شيءٌ يبعُد في الوهم مَجيئه، ويمتنع شيءٌ هو أقرب في الوهم من غيره؛ لأنّ حقائق الأمور ومغيَّبات الأشياء، لاتُردُّ إلى ظاهر الرَّأي، وإنما يردُّ إلى الرَّأي ما دخل في باب الحَزم والإضاعَة وما هو أصوَبُ وأقربُ إلى نَيل الحاجة. وليس عندَ الرَّأي علْمٌ بالنُّجْح والإكداء؛ كنحو مجيء الزُّجَاج من الرَّمل، وامتناع الشّبَه[1] والزئبق من أن يتحوَّل في طبع الذّهب والفضّة. والزئبق أشبهُ بالفضّة المايعة من الرَّمل بالزجاج الفرعونيّ. والشَّبه الدمشقي بالذهب الإبريز أشبه من الرَّمل بفِلَق[2] الزجاج النقيِّ الخالص الصافي.

ومن العجب أنّ الزُّجاج - وهو مولَّد - قد يجري مع الذهب في كثيرِ مفاخرِ الذّهب؛ إذْ كان لا يغيِّر طبَعَهُ ماءٌ ولا أرض؛ والفضّة التي ليسَتْ بمولدة إذا دفنت زمانًا غير طويلٍ استحالتْ أرضاً. فأمَّا الحديد فإنّه في ذلك سريعٌ غير بطيءٌ.

وقد زعمَ ناسٌ أنّ الفرقَ الذي بينهما إنما هو أنّ كلَّ شيءٍ له في العالم أصلٌ وخميرةٌ، لم يكن كالشيء الذي يكتسب ويجتَلب ويلفَّق ويلزّق، وأن الذّهب لا يخلو من أن يكون ركنًا من الأركان قائمًا منذ كان الهواء والماء والنار والأرض. فإن كان كذلك فهو أبعد شيءٍ من أن يولِّد النّاسُ مثله. وإن كان الذّهب إنما حدث في عمق الأرض، بأن يصادف من الأرض جَوْهَرًا. ومن الهواءِ الذي في خلالها جوهرًا، ومن الماءِ الملابِس لها جوهراً، وَمن النار المحصورة فيها جوهرًا، مع مقدار من طول مُرور الزمان، ومقدار من مُقَابلات البروج. فإن كان الذَّهب إنما هو نتيجة هذه الجواهرِ عَلَى هذه الأسباب، فواجب ألاّ يكون الذهب أبدًا إلاّ كذلك.

فيقال لهؤلاء: أرأيتم الفأرة التي خُلقَتْ من صُلْب جُرَذٍ ورحم فأرة، وزعمتم أنَّها فأرة على مقابلة من الأمور السَّماويّة والهوائيَّة والأرضيَة وكانت نتيجة هذه الخصال، مع استيفَاء هذه الصِّفات؟ ألَسْنا قَدْ وجدنا فأرة أخرى تهيَّأ لها من أرحام الأرَضين، ومن حَضانة الهواء، ومن تلقيح الماء، ومن مُقابلات السماويَّات والهوائيّات. فالزّمان أصارَ جميع ذلك سببًا لفأرة أخرى مثلها. وكذلك كلُّ ما عددناه فمن أين يستحيل أن يخلط الإنسانُ بينَ مائيَّة طبيعية ومائيَّة جوهَر؟ إمَّا من طريق

---

(١) الشَّبَه: النحاس الأصفر. «القاموس: شبه».

(٢) فلق: جمع فلقة، وهي القطعة. «القاموس: فلق».

التبعيد والتقريب، ومن طريق الظُّنون والتجريب، أوْ من طريق أنْ يقع ذلك اتفاقًا، كما صنع النَّاطف[1] الساقط من يد الأجير في مُذَاب الصُّفر[2] حتى أعطاه ذلك اللّون، وجلَب ذلك النّفع، ثم إنَّ الرِّجالَ دبرْته وزادَتْ ونقَصَتْ، حتى صارَ شَبَهاً ذهبيًّا. هذا مع النّوشاذر المولّد من الحجارة السُّود.

فلو قلتم: إنَّ ذلك قائمُ الجوازِ في العقل مطّرد في الرَّأي، غير مستحيل في النَّظر. ولكنَّا وجدْنا العالَم بما فيه من النَّاس منذ كانا فإنَّ النَّاس يلتمسون هذا وينتصبون له، ويَكلَفون به. فلو كان هذا الأمرُ يجيءُ من وجه الجمع والتوليد والتركيب والتجريب، أوْ من وجه الاتفاق، لقد كان ينبغي أنْ يكونَ ذلك قد ظهر من ألوفِ سنينَ وأُلوف؛ إذْ كان هذا المقدارُ أقلَّ ما تؤرِّخ به الأمم، ولكان هذا مقبولاً غيرَ مردود. وعلى أنَّه لم يتبيّنْ لنا منه أنَّه يستحيل أنْ يكون الذَّهبُ إلاَّ من حيث وجد. وليس قُربُ كونِ الشيء في الوهم بموجب لكونهِ، ولا بعدُه في الوهْم بموجبٍ لامتناعه.

ولو أنَّ قائلاً قال: إنَّ هذا الأَمرَ إذ قد يحتاج إلى أنْ تتهيّأ له طباع الأَرض، وطباع الماء، وطباع الهواء، وطباع النار، ومقادير حركات الفلك، ومقدارٌ من طول الزمان. فمتى لم تجتمعْ هذه الخصالُ وتكمُلْ هذه الأُمور لم يتمَّ خلق الذَّهب. وكذلك قد يستقيم أنْ يكون قد تهيأ لواحدٍ أن يجمع بين مائتي شكل من الجواهر، فمزجها على مقاديرَ، وطبخَها على مقادير، وأغبّها مقداراً من الزمان، وقابلت مقداراً من حركات الأجرام السماويَّة، وصادفت العالم بما فيه على هيئة، وكان بعضُ ما جرى على يده اتفاقًا وبعضه قصداً، فلما اجتمعت جاء منها ذهبٌ فوقَعَ ذلك في خمسة آلاف سنة مرّة، ثمَّ أراد صاحبُه المعاوَدَة فلم يقدرْ على أمثال مقادير طبائع تلك الجواهر، ولم يضبط مقاديرَ ما كان قصَدَ إليه في تلك المرَّة، وأخطأ ما كان وقَعَ له اتِّفاقًا، ولم يقابل من الفلك مثلَ تلك الحركات، ولا من العالم مثل تلك الهيئة، فلم يُعَدْ له ذلك.

فإن قال لنا هذا القَول قائل وقال: بَيِّنُوا لي موضع إحالته، ولا تحتجُّوا بتباعد اجتماع الأُمور به، فإنَّا نقر لكم بتباعدها. هل كان عندنا في ذلك قولٌ مقنع، والدَّليل الذي تَثْلج به الصُّدور؟! وهل عندنا في استطاعة النَّاس أن يولّدوا مثل ذلك، إلاَّ بأن

(١) الناطف: ضرب من الحلوى، ويسمى القُبَّيط، لأنه يتنطَّف قبل استضرابه، أي يقطر قبل خثورته. «اللسان: نطف»

(٢) الصفر: النحاس أو الذهب. «القاموس: صفر».

يُعرَض هذا القول على العقول السليمة، والأفهام التّامَّة وتردَّه إلى الرسُل والكتب؟!
فإذا وجدنا هذه الأمور كلها نَافيَة له، كانَ ذلك عندنا هُوَ المقنع. وليس الشأن فيما
يظهر اللِّسانُ من الشكّ فيه والتّجويز له، ولكن ليردَّه إلى العقل؛ فإنّه سيَجده منكرًا
ونافيًا له، إذا كان العقل سليمًا من آفة المرض. ومن آفة التخبيل.

٨١٤ - [ضروب التخبيل]

والتخبيل ضروب: تخبيلٌ من المرَار، وتخبيل من الشّيطان، وتخبيل آخر
كالرجل يعمد إلى قَلب رَطْبٍ لم يتوقّح[١]، وذهن لم يستمرَّ[٢]، فيَحْمله على الدقيق
وهُو بَعْدُ لا يَفي بالجليل، ويتخطّى المقدِّمات متسكعًا[٣] بلا أمَارة، فرجع حسيرًا[٤]
بلا يقين، وغَبَر زَمَانًا لا يعرف إلاّ الشكوك والخواطر الفاسدة، التي متى لاقت القلبَ
على هذه الهيئة، كانت ثمرتها الحيرة، والقلبُ الذي يفسُد في يومٍ لا يداوَى في
سنة، والبناءُ الذي يُنقَضُ في ساعةٍ لا يبنى مثله في شهر.

٨١٥ - [قولهم: هذا نبيذٌ يُمنع جانبه]

ثم رجع بنا القول إلى ذكر الذِّبَّان

قيل لعَلُّويه كلب المطبخ: أيُّ شيءٍ معنى قولهم: «هذا نبيذٌ يمنع جانبَه»؟
قال: يريدُونَ أن الذِّبَّان لَا يدنو منه. وكان الرَّقاشي حاضرًا فأنشدَ قول ابن عبدل: [من
الخفيف]

عَشَّشَ الْعَنكَبُوت في قَعْرِ دَنِّي ... إنَّ ذا مِنْ رَزِيَّتي لَعَظِيمْ
لَيتني قد غَمَرْتُ دَني حتَّى ... أُبْصرَ العَنْكبُوتَ فيه يَعُومْ
غرقًا لا يُغيثه الدَّهْر إلاَّ ... زَبَدٌ فوقَ رأسه مركومْ[٥]
مخرجًا كفَّه ينادي ذُبابًا ... أن أغثْني فإنَّني مَغْمومْ
قال: دَعْني فَلَنْ أُطيقَ دُنُوًّا ... من شَرابٍ يشَمُّهُ المزكومْ

قال: والذِّبَّان يضرَب به المثلُ في القَذَر وفي استطابة النَّتْن، فإذا عَجزَ الذُّبابُ
عن شمّ شيءٍ فهو الذي لا يكون أنتنُ منه.

---

(١) وَقُح وقاحة: صَلُب. «القاموس: وقح».
(٢) يستمر: يقوى، ومنه يوم نحس مستمر: أي قوي. «القاموس: مرر».
(٣) تسكع: تحير. «القاموس: سكع».
(٤) حَسَرَ: كفَرِح وضَرَب: أعيا، فاستحسر فهو حسير. «القاموس: حسر».
(٥) الركم: جمع شيء فوق آخر حتى يصير ركاماً مركوماً. «القاموس: ركم».

ولذلك حينَ رمى ابنُ عبدلِ محمَّدَ بن حَسَّان بنِ سعْد بالبخر، قال[1]: [من الوافر]

وما يدنُو إلى فيه ذبابٌ ... ولو طُليَتْ مَشافِرُه بقَنْد[2]
يَرَيْنَ حلاوةً ويخفْنَ مَوتًا ... وَشِيكًا إنْ هَمَمْنَ له بوِرْد

٨١٦ - [أبو ذبّان]

ويقال لكلِّ أبخر: أبو ذبَّان، وكانت فيما زعموا كنيةَ عبدِ الملك بن مروان[3] وأنشدوا قولَ أبي حُزابةَ: [من الرجز]

أمسى أبو ذبّانَ مخلوعَ الرَّسَنْ ... خَلْعَ عِنانِ قارحٍ مِنَ الحُصُنْ[4]
وقد صفَت بَيْعَتنا لابنِ حسن

٨١٧ - [شعر فيه هجاء بالذباب]

قال رجل يهجو هلالَ بن عبد الملك الهُنَائيَّ: [من الوافر]

ألا مَن يَشْتري منِّي هلالاً ... مَوَدَّتَه وخُلَّتَه بفَلْسِ
وأَبرأ للذي يبتاعُ منِّي ... هلالاً مِن خصالٍ فيه خَمْسِ
فمنهنَّ النغانِغُ والمكاوي ... وآثارُ الجروحِ وأكْلُ ضرْسِ[5]
ومن أخْذِ الذباب بإصبعَيه ... وإن كانَ الذُّبابُ برأسِ جَعْسِ[6]

٨١٨ - [التسوية بين الذبان والناس في العجز]

قالوا: وضرب اللّه عزَّ وجلَّ لضعفِ النَّاسِ وعجزهم مثلاً، فقال: ﴿يا أَيُّها النَّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمعُوا لَهُ إنَّ الذين تَدْعون مِنْ دُون اللّه لنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَو اجْتَمَعُوا له وَإِنْ يسْلبْهمُ الذُّبابُ شَيْئًا لا يسْتَنْقذوه منه ضَعُفَ الطّالِبُ والمطْلُوبُ﴾[7] فقال

---

(١) الأغاني ٢/٤١٣، وفيه البيت الأول مع أبيات أخرى.
(٢) القند: كلمة معرّبة تعني عسل قصب السكر إذا جُمِّد. «القاموس: قند».
(٣) ثمار القلوب ١٩٧ (٣٩٣)، وعيون الأخبار ٤/٦١، والمرصع ١٧٧، ولطائف المعارف ٢٦، وقيل إن الذباب كان يسقط إذا قارب فاه من شدة رائحته.
(٤) القارح: الذي وقعت سنه الرَّباعية. «القاموس: قرح». الحصن: جمع حصان.
(٥) النغانغ: جمع نغنغ؛ كبرقع؛ وهو لحمة في الحلق «القاموس: نغنغ».
(٦) الجعس: الرجيع. «القاموس: جعس».
(٧) الحج: ٢٢/ ٧٣.

بَعضُ النَّاس: قَدْ سَوّى بين الذّبّان والنّاسِ في العجْز: وقالوا: فقدْ يولِّد النَّاس من التَّعفين الفَراش وغيرَ الفُراش وهذا خلقٌ، على قوله: ﴿وإذْ تَخْلُقُ من الطِّينَ كَهَيْئَة الطَّيْر﴾[1] وعلى قوله: ﴿أَحْسَنُ الخَالقينَ﴾[2] وعلى قول الشاعر[3]: [من الكامل]

وأرَاكَ تفْري مَا خلَقْتَ وبَعْـ ـضُ الْقومِ يخلُقُ ثمَّ لا يُفرِي

قيل لهم: إنما أراد الاختراع، ولم يرد التَّقدير.

٨١٩ - [قول في شعر]

وأمّا قول ابن ميَّادة[4]: [من الطويل]

ألا لا نُبالي أنْ تُخنِدفَ خِندفٌ ولسْنا نُبالي أن يَطِنّ ذُبابها[5]

فإنَّما جعل الذُّباب هاهنا مثلاً، وقد وضعَه في غير موضع تحقير له وموضع تصغير. وهو مثل قوله[6]: [من الطويل]

بني أسَدٍ كونُوا لمن قد علمتُم مَوَاليَ ذلَّتْ للهَوَان رِقابُها

فلو حاربتْنا الجنُّ لم نرفع العصَا عن الجنِّ حتَّى لا تَهرَّ كلابُها

وليس يريد تحقير الكلاب.

ويقال: هو ذباب العين، وذباب السَّيف، ويقال تلك أرضٌ مَذَبَّة أي كثيرة الذُّباب.

وقال أبو الشَّمقْمَقِ في هجائه لبعض من ابتُلي به[7]: [من الرمل]

أسَمجِ النَّاس جميعًا كلِّهم كذُبَابٍ ساقطٍ في مَرَقهْ

ويقال إن اللبن إذا ضرب بالكندس[8] ونضح به بيت لم يَدْخله ذبَّان.

---

(١) ١١٠/ المائدة: ٥.

(٢) ١٤/ المؤمنون: ٢٣.

(٣) ديوان زهير ٨٢، واللسان (خلق، فرا)، وعمدة الحفاظ (خلق)، والمقاييس ٢/٢١٤، ٤/٤٩٧، وديوان الأدب ٢/١٢٣، وكتاب الجيم ٣/٤٩، والمخصص ٤/١١١، والتهذيب ٧/٢٦، ١٥/٢٤٢، وبلا نسبة في الجمهرة ٦١٩، والتاج (فرا).

(٤) ديوان ابن ميادة ٧٨، وحماسة القرشي ١٤٣، والأغاني ٢/٣٣٣، والمختار من شعر بشار ٣/٥٧٩.

(٥) في ديوانه «تخندف: تهرول، خندف: امرأة إلياس بن مضر واسمها ليلى. الطنين: صوت الذباب».

(٦) أي ابن ميادة، انظر المصادر في الحاشية قبل السابقة.

(٧) ديوان أبي الشمقمق ١٥٧.

(٨) الكندس: عروق نبات داخله أصفر وخارجه أسود، مقيء مسله جلاّء للبهق. «القاموس: كدس».

٨٢٠ - [أبو حكيم وثمامة بن أشرس]

وسمعت أبا حكيم الكيمائي وهو يقول لثمامة بنِ أشرس: قلنا لكم إِنَّنا ندلكم على الإِكسير، فاستثقلتم الغُرْم، وأردتم الغُنم بلا غرم. وقلنا لكم: دَعُونا نصنع هذه الجسور صنعةً لا تنتقض أبداً، فأبيتم. وقُلنا لكم: ما ترجُون من هذه المسنّيات[1] التي تهدمها المُدود[2]، وتخرِّبها المراديّ[3]؟! نحنُ نعمل لكم مسنّيات[1] بنصف هذه المؤُونة، فتبقى لكم أبداً. ثم قولوا للمُدود أن تجتهد جهدَها، وللمَرَاديِّ أنْ تبلغ غايتها فأبيتم. وقولوا لي: الذُّباب ما ترجون منها؟! وما تشتهون من البَعُوض؟ وما رغْبَتُكمْ في الجرجسِ[4]؟ لمَ لا تَدعُوني أخرجها من بيوتكم بالمؤُونَة اليسيرة؟ وهو يقول هذا القولَ وأصحابُنا يضحكون، وابن سافري جالسٌ يسْمع.

فلما نزلنا أخذ بيده ومضى به إلى منزله، فغدَّاه وكساه وسَقاه، ثمَّ قال له: أحببتُ أنْ تخرج البَعُوضَ من داري. فأمَّا الذُّباب فإني أحتمله. قال: ولم تحتمل الأذى وقد أتاك اللّهُ بالفَرَج؟ قال: فافعلْ. قال: لابدَّ لي من أن أخلط أدوية وأشتري أدوية قال: فكم تريد؟ قال: أُريد شيئاً يسيراً. قال: وكم ذاك؟ قال: خمسون ديناراً. قال: ويحك! خمسون يقال لها يسير؟! قال: أنت ليسَ تشتهي الرَّاحة من قذَر الذِّبَّان ولسع البعوض! ثمَّ لبس نعليه وقام على رجليه. فقال له: اقعد. قال: إنْ قعدْتُ قبل أن آخذَها ثمَّ اشتريت دواءً بمائة دينار لم تنتفعْ به؛ فإنِّي لست أدَخِّنَ هذه الدُّخْنة، إلاَّ للذين إذا أمرتهم بإخراجهنَّ أخرَجُوهن. ولا أكتمكَ ما أُريدُ؛ إنِّي لست أقصد إلاَّ إلى العُمَّار[5]. فما هو إلاَّ أنْ سمع بذكر العُمَّار حتى ذهب عقله، ودعا له بالكيس وذهب ليزن الدنَّانير، فقال له: لا تشقَّ على نفسك! هاتها بلا وزنٍ عدداً، وإنَّما خاف أن تحدث حادثَةٌ، أو يقع شغل، فتفوت. فعدَّها وهو زَمِعٌ[6] فغَلط بعشرة دنانير، فلما انصرف وزنها وعدَّها فوَجدَ دَنانيره تنقص، فبكَرَ عليه يقتضيه الفَضْل، فضحك أبو حكيم حتَّى كاد يموت، ثُمَّ قال: تسألني عن الفرع وقد استُهلك الأصل؟! ولم يزل يختلف إليه ويدافعُه حتَّى قال له ثمامة: ويلك أمجنونٌ أنت؟! قد ذهب المالُ

---

(١) المسنيات: جمع سانية وهي العَرِم، والعرم هي الأحباس تبنى في الأودية. «القاموس: سني، عرم».

(٢) المدود: السُّيول.

(٣) المرادي: جمع مردي كشرطي، وهو خشبة تدفع بها السفينة «القاموس: مرد».

(٤) الجرجس: لغة في القرمص؛ وهو البعوض الصغار حياة الحيوان ١ / ٢٧٣.

(٥) عُمَّار البيوت: سكانها من الجن. (اللسان: عمر ٤ / ٦٠٧).

(٦) الزمع: الدهش والخوف. «القاموس: زمع».

والسُّخرية مستورة. فإن نافرْتَه فضَحْتَ نفسَك، وربحتَ عداوة شيطانٍ هو واللّه أضرُّ عليك من عُمَّارِ بيتك، الذي ليسَ يخرجون عنك الذبابَ والبعوض بلا كُلفة، مع حقٍّ الجوار. قال: هم سكَّاني وجيراني. قالوا: لو كان سمع منك أبو حكيم هذه الكلمة لكانت الخمسون ديناراً مائةَ دينار!!.

٨٢١ - [شعر في أصوات الذُّباب وغنائها]

ومما قيل في أصوات الذباب وغنائها، قال المثقِّب العبديُّ[١]: [من الوافر]

وتسمَعُ للذِّبابِ إذا تغنَّى ... كتَغريد الحمامِ على الغُصون

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

حُوّ مسَارِبُهُ تَغَـــنّى في غَياطِله ذبابُه[٢]

وقال أبو النجم[٣]: [من الرجز]

أُنفٌ ترى ذبَابها تعلّله ... من زَهَرِ الرَّوْضِ الذي يكَلِّلُهْ[٤]

وقال أيضًا[٥]: [من الرجز]

والشيخ تهديه إلى طحمائه ... فالرَّوضُ قد نوَّر في عَزَّائه[٦]

مختلفَ الألوان في أَسمائه ... نَوْرًا تخال الشَّمْسَ في حمرائه[٧]

مكلَّلاً بالورد من صفرائه ... يجاوب المكّاءَ من مُكَّائه[٨]

صوتُ ذبابِ العُشْبِ في دَرْمائه ... يَدْعو كأنَّ العَقْبَ مِنْ دُعائه[٩]

صوتُ مُغَنٍّ مَدَّ في غِنائه

---

(١) ديوان المثقب العبدي ١٨٢، واللسان والتاج (ذبب)، والمفضليات ٢٩١، وبلا نسبة في المجمل ٢/ ٣٣٥، والمقاييس ٢/ ٣٤٩، والجمهرة ٢٢٢، والتاج واللسان (وكك).

(٢) الحوة: سواد إلى الخضرة، أو حمرة إلى السواد، والأحوى: الأسود والنبات الضارب إلى السواد لشدة خضرته. «القاموس: حوو»، المسارب: جمع مسربة، وهي المرعى. «القاموس: سرب». الغيطلة: الشجر الكثيف الملتف «القاموس: غطل».

(٣) ديوان أبي النجم ١٥٧، والأول في اللسان والتاج (أنف).

(٤) الأنف: روضة لم يرعها أحد «القاموس: أنف».

(٥) ديوان أبي النجم ٦٢ - ٦٤.

(٦) في ديوانه «قال أبو زيد: الشيخ شجرة وثمرتها جرو كجرو الخرّيع، وهي شجرة العصفر، والطحماء: ضرب من النبات. تهديه: تهاديه» وفيه «العزاء: الأرض التي بلّها المطر فتماسكت».

(٧) في ديوانه «أراد أرضاً جاءت بعشب وزهر مختلف الألوان».

(٨) في ديوانه «المكّاء: نوع من القنابر حسن الصوت».

(٩) في ديوانه «الدرماء: نبت لا يطول، بل يتجمع في نموه يشبه الكبد، يريد أن المكاء يجاوب ذباب الدرماء حين يصوِّت مغنياً»

وقال الشمَّاخ[1]: [من الطويل]

يكلفها ألاَّ تخفِّضَ صَوْتها أَهازيجُ ذِبَّانِ عَلَى عُودِ عَوْسَجِ
بعيدُ مَدَى التطريبِ أوَّلُ صَوْته سَحيلٌ وأَعلاهُ نشيجُ المحشْرِجِ[2]

٨٢٢ - [المغنِّيات من الحيوان]

والأجناس التي توصف بالغناء أجناسُ الحمام والبعوض، وأصنف الذّبّان من الدَّبْر ، والنَّحلِ، والشَّعْراء، والقمَع والنُّعَر، وليس لذِبَّان الكلب غِنَاء، ولا لما يخرُجُ من الباقلاء. قال الشاعر[3]: [من الرجز]

تذبّ عنها بأثيثٍ ذَائلِ ذِبَّان شَعْرَاءَ وَصيفٍ ماذِلِ[4]

٨٢٣ - [ألوان الذِّبَّان]

وذِبَّان الشَّعْرَاء حُمر. قال: والذِّبَّان التي تُهْلِكُ الإبلَ زُرق.

قال الشاعرُ: [من الرجز]

تربَّعَتْ والدَّهرُ ذو تصفُّق حَاليةً بذي سَبيبٍ مونِق[5]
إلاَّ منَ أصواتِ الذّباب الأزرق أو من نقانق الفَلا المنقْنِقِ

والذّبَّان الذي يسقط على الدواب صُفر.

وقال أرطأة بن سُهَيَّة[6]، لزُميل بن أمِّ دينار: [من الكامل]

أزميل إنِّي إن أكن لك جازيًا أَعكرْ عليكَ وإن ترحْ لا تسْبقِ
إنِّي امروٌ تجد الرِّجال عداوتي وجْدَ الرِّكاب مَن الذُّبابِ الأَزْرق

وإذا مرَّ بك الشّعر الذي يصلح للمثل وللحفظ، فَلاَ تنْسَ حظَّك من حِفظه.

---

(١) ديوان الشماخ ٩٧.

(٢) السحيل: أشد نهاق الحمار. «القاموس: سحل».

(٣) الرجز بلا نسبة في نهاية الأرب ١٠/ ٢٩٩.

(٤) الأثيث: الكثير الملتف. «القاموس: أثث». ذائل: طويل «القاموس: ذيل». الماذل: الذي تطيب نفسه عن الشيء يتركه ويسترجي غيره. «اللسان: مذل».

(٥) التصفق: التقلب والتحول «القاموس: صفق» حالية: مزينة. السبيب: العضاه أو ذوائب الأشجار. «القاموس: سبب». المونق: المعجب. «القاموس: ونق».

(٦) البيتان لأرطاة بن سهية في الأغاني ١٣/ ٣٨، ولسالم بن دارة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٨٥، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٢٠٣، والأول بلا نسبة في المقاييس ٤/ ١٠٦.

وقال المتلمس[1]: [من الطويل]

فهذا أوَانُ العِرْض جُنّ ذُبَابُهُ زنابيرُه والأزرقُ المتلمِّسُ[2]

وبه سمِّي المتلمِّس.

وقال ابن ميّادة:[3] [من البسيط]

بعَنْتَريسٍ كأنَّ الدَّبْرَ يلسَعُها إذا تغرَّدَ حادٍ خلفَها طَرِبُ[4]

٨٢٤ - [ما يسمَّى بالذِّبان]

والدّليل على أنَّ أجناسَ النَّحل والدَّبْر كلّها ذِبَّان، ما حدث به عبَّاد بن صُهيب، وإسماعيل المكّي عن الأعمش، عن عطيَّة بن سعيد العَوْفي قال: قال رسول اللّه ﷺ: «كلُّ ذُبابٍ في النارِ إلاّ النَّحلة»[5].

وقال سليمان: سمعت مجاهداً يكرهُ قتل النَّحل وإحراقَ العِظام. يعني في الغزو.

وحدثنا عَنْبسة قال: حدّثنا حنْظلة السّدُوسيُّ قال: أنبأنا أنسُ بن مالك، أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «عمر الذّبابِ أربعون يوماً. والذُّباب في النار».

٨٢٥ - [بحث كلاميّ في عذاب الحيوان والأطفال]

وقد اختلف النَّاس في تأويل قوله: «والذباب في النار» وقال قوم: الذّباب خلقٌ خُلق للنّار. كما خلق اللّه تعالى نَاساً كثيراً للنَّار، وخلق أطفالاً للنَّار. فهؤلاء قومٌ خلعوا عُذرَهم فصار أحدهم إذا قال: ذلك عَدْلٌ من اللّه عزَّ وجلّ؛ فقد بلغ أقصى العذر، ورأى أنَّه إذا أضاف إليه عذابَ الأطفا فقد مجَّده. ولو وجد سبيلاً إلى أَنْ يقول إنَّ ذلك ظُلم لقاله ولو وجد سبيلاً إلى أن يزعم أنْ اللّه تعالى يخبر عن شيءٍ أنّه

---

(١) ديوان المتلمس ١٢٣، والاشتقاق ٣١٧، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٦٦٢، والجمهرة ٧٤٧، واللسان والتاج (لمس، عرض)، والخزانة ٤/١٨٥، والبيان ١/٣٧٥، وبلا نسبة في الخصائص ٢/٣٧٧، والمخصص ١٤/٩٦.

(٢) في اللسان «الأزرق: الذباب. وقيل: كل واد عِرض... وكل وادٍ فيه شجر فهو عِرْض». اللسان «عرض».

(٣) ديوان ابن ميادة ٥٩.

(٤) العنتريس: الناقة الصلبة القوية. «ديوانه».

(٥) الحديث في ثمار القلوب ٨٣٩.

يكون وهو لا يكون، ثم يقول إلاّ أنّ ذلك صدق لقاله. إلاّ أنّه يخاف السَّيف عند هذه، ولا يخاف السَّيف عند تلك. وإن كانت تلكَ أعظم في الفِرية من هذه.

وبعض يزعم أنَّ اللّه عزّ وجلَّ إنَّما عذّبَ أطفال المشركين ليغمَّ بهم آباءهم. ثمَّ قال المتعاقِلون منهم: بل عذّبهم لأنّه هكذا شاء، ولأنَّ هذا له. فليت شعري أيحتسب بهذا القول في باب التمجيد للّه تعالى؛ لأنّ كل من فعل ما يقدر عليه فهو محمود، وكل من لم يخف سوط أمير فأتى قبيحاً فالذي يحسن ذلك القبيحَ أنّ صاحبَه كان في موضع أمن، أو لأنّه آمنٌ يمتنع من مطالبة السلطان. فكيف وكون الكذب والظُّلم والعبث واللهو والبُخْل كلّه محال ممّن لا يحتاج إليه، ولا تدعوه إليه الدواعي.

وزعم أبو إسحاقَ أنّ الطّاعات إذا استوَتْ استوى أهلُها في الثّواب، وأنّ المعاصي إذا استوتْ استوى أهلُها في العقاب. وإذا لم يكن منهم طاعةٌ ولا معصية استوَوْا في التفضُّل.

وزعم أنَّ أجناس الحيوان وكلَّ شيءٍ يحسُّ ويألم، في التفضُّل سواء

وزعم أنّ أَطفالَ المشركين والمسلمين كلَّهم في الجنّة. وزعم أنّه ليس بينَ الأطفال ولا بينَ البهائم والمجانين فرق، ولا بين السِّباع في ذلك وبين البهائم فرق.

وكان يقول: إنّ هذه الأبدان السبُعيّة والبهيمية لا تدخل الجنّة، ولكنَّ اللّه عزَّ وجلّ ينقُل تلك الأرواح خالصةً من تلك الآفات؛ فيركِّبها في أيِّ الصُّور أَحَبَّ.

وكان أبو كلدة، ومَعْمَر، وأبو الهُذَيل وصحصح، يكرهون هذا الجواب. ويقولون: سواءٌ عند خواصِّنا وعوامِّنا، أَقلنا: إنَّ أَرواحَ كلابنا تصير إلى الجنّة، أم قلنا: إن كلابَنا تدخل الجنّة ومتى ما اتَّصل كلامُنا بذكر الكلب على أيِّ وجهٍ كان؛ فكأنّا عِنْدَهم قد زعمنا أنّ الجنّة فيها كلاب. ولكنّا نزعم[1] أنّ جميع ما خلَقَ اللّه تعالى مِنَ السِّباع والبهائم والحشرات والهمج فهو قبيح المنظرة مؤلم، أَو حسن المَنظرة مُلذّ؛ فما كان كالخيل والظباء، والطواويس، والتّدَارجِ فإنَّ تلك في الجنّة، ويَلذُّ أُولَياءُ اللّه عزّ وجل بمنَاظرها. وما كان منها قبيحاً في الدُّنيا مؤلمَ النظَر جعله اللّه عذابًا إلى عذاب أعدائه في النّار فإذا جاء في الأثر: أنَّ الذّباب في النّار، وغير ذلك من الخلق، فإنّما يراد به هذا المعنى.

وذهب بعضهم إلى أنها تكون في النَّار، وتلَذُّ ذلك، كما أنَ خَزَنَةَ جهنَّم والذين يتولَّون من الملائكة التَّعذيبَ، يلذُّون موضعَهم من النار.

---

(١) هذا القول نقله الثعالبي في ثمار القلوب (٨٣٩).

وذهب بعضهم إلى أنَّ اللّه تعالى يطبَعهُم على استلذاذ النَّار والعيشِ فيها، كما طبع ديدان الثَلج والخلِّ على العيش في أماكنها[1].

وذهب آخرون إلى أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يحدث لأبدانهما علَّةً لا تصل النّار إليها، وتنعم قلوبهما وأبدانهما من وجه آخر كيف شاء. وقالوا: وقد وجدنْا النّاسَ يحتالون لأنفسهم في الدُّنيا حيلاً، حتى يدخُل أحدُهم بَعضَ الأتاتين[2] بذلك الطلاء، ولا تضرُّه النار، وهو في معظمها، وموضعِ الجاحم[3] منها. ففضْلُ ما بينَ قدرةِ اللّه وقدرة عباده أكثر من فضل ما بينَ حرّ نار الدُّنيا والآخرة.

وذهب بعضهم إلى أنّ سبيلها فيها كسبيل نار إبراهيم؛ فإنّه لما قُذفَ فيها بَعثَ اللّه عزّ وجلّ مَلَكاً يقال له ملك الظلّ، فكان يحدِّثُه ويُؤنْسه؛ فلم تصل النار إلى أذاه، مع قرْبه من طباع ذلك الملَك.

وكيفَمَا دار الأمرُ في هذه الجوَابات؛ فإن أخسَّها وأشنَعها أحسَنُ من قولِ مَنْ زَعمَ أنّ اللّه تعالى يُعَذِّب بنار جهنَّمَ من لم يسخطه ولا يعقلُ كيف يكون السخط. ومن العَجَب أنَّ بعَضُهم يزعمُ أن اللّه تعالى إنما عذّبه ليغمَّ أباهُ. وإنما يفعل ذلك من لا يقدر على أن يُوصلَ إليهم ضعف الاغتمام، وضعفَ الألم الذي ينالهم بسبب أبنائهم. فأمّا مَن يقدرُ على إيصال ذلك المقدار إلى من يستحقه، فكيف يوصله ويصرفه إلى من لا يستحقّه؟ وكيف يصرفُه عمَّن أسخطه إلى من لم يُسْخطه؟ هذا وقَد سمعوا قولَ اللّه عزّ وجلَّ: ﴿يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدي مِنْ عَذَاب يومئذ ببَنيه. وصَاحبَته وأخيه. وَفصيلته التَّي تُؤْويه. وَمَنْ في الأَرْضِ جَميعًا ثمَّ يُنْجيه. كَلاَّ إنَّها لظَى. نَزَّاعةً للشَّوَى﴾[4] وكيف يقولُ هذا القوْلَ مَنْ يتلو القرآن؟!

ثمَّ رجع بنا القولُ إلى الذبّانِ وأصنافِ الذبّان.

٨٢٦ - [الذبان أجهل الخلق]

والذّبّان أجهلُ الخلْق؛ لأنّها تغْشَى النَّارَ من ذات أنفُسها حتى تحترق. وقال الشاعر: [من المتقارب]

خَتَمْت الفُؤَادَ عَلَى حُبِّها كذاكَ الصّحيفة بالخاتم

(١) انتهى ما نقله الثعالبي في ثمار القلوب (٨٣٩).

(٢) الأتاتين: جمع أتّون، وهو الموقد. «اللسان: أتن».

(٣) الجاحم: المكان الشديد الحر. «القاموس: جحم».

(٤) ١١ - ١٦/ المعارج ٧٠.

(٥) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب ٣٩٩ (٧٣٠)، والأوائل للعسكري ١/ ١٤٤.

هوتْ بي إلى حبها نظرةٌ هُوِيَّ الْفَرَاشَةِ للجاحم

وقال آخر[١]: [من الوافر]

كأنَّ مَشافِرَ النَّجدَاتِ منها إذا ما مسَّها قَمَعُ الذُّبابِ
بأيدي مأتم متساعداتٍ نعالُ السَّبْتِ أو عَذَبَ الثِّياب

٨٢٧ - [كراع الأرنب]

وقال بعض الشعراء[٢]، يهجو حارثَة بن بدر الغُدَانيَّ: [من الكامل]

زعمَتْ غُدَانَةُ أنَّ فيها سيِّدًا ضخْمًا يُوَارِيه جَنَاحُ الجُنْدُبِ

وزعم ناسٌ أنّه قال: [من الكامل]

يُروِيهِ ما يُرْوِي الذُّبابَ فينتشي سُكْرًا، وتُشْبِعُه كُرَاعُ الأرنب[٣]

قالوا: لا يجوز أنْ يقول: «يرويه ما يروي الذباب» و«يوارِيه جَنَاحُ الجندب» ثم يقول: «ويشبعه كراع الأرنب».

وإنما[٤] ذكر كُراعَ الأرنب؛ لأنّ يد الأرنب قصيرة، ولذلك تسرع في الصُّعود، ولا يلحقها مِن الكلاب إلاَّ كلُّ قصير اليد. وذلك محمودٌ من الكلب. والفرس تُوصَف بقصر الذِّراع.

٨٢٨ - [قصة في الهرب من الذّباب]

وحدّثني الحسنُ بن إبراهيم العلويُّ قال: مررتُ بخالي، وإذا هو وحده يضْحك، فأنكرتُ ضحكه؛ لأنِّي رأيتُه وحده، وأنكرته، لأنَّه كان رجلاً زمِّيتًا ركِينًا[٥]، قليلَ الضَحك. فسألته عن ذلك فقال: أتاني فلانٌ يعني شيخًا مدينيًا - وهو مذعور فقلتُ له: ما وراءك؟ فقال: أنا واللّه هاربٌ من بيتي! قلت ولِمَ؟ قال: في بيتي ذبابٌ أزرق، كلما دخلتُ ثَارَ في وجهي، وطار حولي وطنَّ عند أذني، فإذا وجد

---

(١) البيتان بلا نسبة في أساس البلاغة (قمع).

(٢) البيتان للأبيرد بن المعذر الرياحي في ديوانه ٢٧٣، والأغاني ١٣/١٢٧، والوافي ٦/١٩٣، ولزياد الأعجم في المنتخب ١٢٩، وبلا نسبة في ثمار القلوب ٣٢٥ (٦٠٣)، والأول بلا نسبة في المقاييس ٣/١٠.

(٣) الكراع: قائمة الدابة.

(٤) ثمار القلوب ٣٢٥ (٦٠٤).

(٥) الزمّيت: الوقور «القاموس: زمت». الركين: الرزين. «القاموس: ركن».

مني غفلةً لم يُخطئ موقَ عيني. هذا واللّه دأبُه ودأبي دهرًا معه. قلت له: إنّ شبه الذباب بالذباب كشبه الغراب بالغراب؛ فلعلّ الذي آذاك اليومَ أن يكونَ غيرَ الذي آذاك أمسِ، ولعلّ الذي آذاك آمسِ غيرُ الذي آذاك أوّل من أمسِ، فقال: أعتقُ ما أملك إن لَمْ أكن أعرفه بعينه منذُ خمس عشرة سنة. فهذا هو الذي أضحكني.

٨٢٩ - [قصة في سفاد الذباب]

وقال الخليلُ بن يحيى: قد رأيت الخنزير يركَبُ الخنزيرة عامَّة نهارِه، ورأيتُ الجمل يركبُ الناقة ساعةً من نهاره. وكنت قبل ذلك أغبط العصفور والعصم - فإنّ الذّكرَ وإنْ كان سريعَ النُّزول عن ظهر الأنثى فإنّه لسُرعة العودة، ولكثرة العدد، كأنّه في معنى الخنزير والجمل وحتّى رأيت الذُّبابَ وفطنت له، فإذا هو يركبُ الذُّبابة عامّة نهارِه. فقال له محمد بن عمر البكراوي: ليس ذلك هو السّفاد. قال: أمَّا الذي رأت العينانِ فهذا حكُمه. فإن كنتَ تريد أنْ تطيب نفْسُك بإنكار ما تعرفُ ممّا قسَم اللّه عزّ وجلّ بين خلقه، من فضول اللّذَّة، فدونك.

ويزعمون أنّ للوَرل[١] في ذلك ما ليس عند غيره.

٨٣٠ - [قصَّة آكل الذبّان]

وأنشدَ ابن داحة في مجلس أبي عبيدة، قولَ السَّيِّد الحميريِّ[٢]: [من الكامل]

أترى ضهاكًا وابنها وابن ابنها ... وأبا قحافة آكلَ الذّبّان
كانوا يَرون، وفي الأمور عجائبٌ ... يأتي بهنّ تصرُّفُ الأزْمانِ
أنّ الخلافَة في ذؤابةِ هاشمٍ ... فيهم تصير وهَيْبَةَ السُّلطانِ

وكان ابن داحة رافضيًّا، وكان أبو عبيدة خارجيّاً صُفرْياً، فقال له: ما معناه في قوله: «آكل الذّبّان»؟ فقال: لأنّه كان يذبُّ عن عطر ابن جُدْعان. قال: ومتى احتاج العطّارون إلى المذابّ؟! قال: غلطت إنَّما كان يذبُّ عن حَيْسة ابن جدعان. قال: فابن جُدعان وهشامُ بن المغيرة، كان يُحاسُ لأحدهما الحَيْسَةُ[٣] على عدَّة أنطاع[٤]،

---

(١) الورل: دابة على خلقة الضب، إلا أنه أعظم منه، وليس في الحيوان أكثر سفاداً منه. حياة الحيوان ٢/ ٤١٧ - ٤١٨.

(٢) ديوان السيد الحميري ٤٤٩.

(٣) الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً ثم يندر منه نواه. «القاموس: حيس».

(٤) الأنطاع: جمع نطع، وهو بساط من الأديم. «القاموس: نطع».

فكان يأكلُ منها الراكبُ والقائمُ والقاعدُ فأين كانت تقعُ مِذَبّةُ أبي قُحافَةَ من هذا الجبل؟! قال: كان يذبُّ عنها ويدورُ حواليها. فضحكوا منه، فهجر مجلسهم سنةً.

٨٣١ - [تحقير شأن الذُّبابة]

قال: وفي باب تحقير شأن الذبابة وتصغير قدرها، يقول الرسول: «لو كانت الدُّنيا تُساوي عند اللّه تعالى جَناحَ ذبابةٍ ما أعطى الكافرَ منها شيئًا»[١].

٨٣٢ - [أعجوبة في ذبان البصرة]

وعندنا بالبصرة في الذبّان أعجوبة، لو كانت بالشّامات أو بمصر لأدخلوها في باب الطِّلّسْم؛ وذلك أنّ التّمْر يكونُ مصبوبًا في بيادر التمر في شقّ البساتين، فلا ترى على شيءٍ منها ذُبَابَةً لا في اللّيل، ولا في النّهار، ولا في البَرْدَين[٢] ولا في أنصاف النهار، نعم وتكون هناك المعاصر، ولأصحاب المعاصر ظلال، ومن شأن الذُّباب الفرارُ من الشّمس إلى الظِّلّ. وإنّما تلك المعاصر بين تمرة ورُطَبَة، ودِبْس وثجير[٣]، ثمَّ لاتكاد ترَى في تلك الظّلال والمعاصر، في انتصاف النهار، ولا في وقت طلب الذِّبَّان الكِنَّ، إلاّ دونَ ما تَراه في المنزل الموصوف بقلّة الذِّبَّان.

وهذا شيء يكون موجوداً في جميع الشّقِّ الذي فيه البساتين. فإن تحوَّل شيء من تمر تلك الناحية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة، غشيَه من الذّبان ما عسى ألاّ يكونَ بأرض الهند أكثرُ منه وليس بين جزيرة نهر دُبَيس[٤]، وبين موضع الذبّان إلاّ فيض البصرة، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبّان ممّا يقابله، إلاّ سيحان[٥]، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة، ولا تكون تلك المسافة إلاّ مائة ذراع أو أزيَدَ شيئًا أو أنْقصَ شيئًا.

٨٣٣ - [نوم عجيب لضُروبٍ من الحيوان]

وأعجوبة أُخرى، وهي عندي أعجبُ من كلِّ شيءٍ صدَّرنا به جملة القَوْل في

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد الساعدي برقم ٢٣٢١، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٧٤٨٠، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥١٠.

(٢) البردان: الغداة والعشي، أو الظل والفيء. «القاموس: برد».

(٣) الثجير: ما عصر من العنب فجرت سلافته وبقيت عصارته، وثفل البسر يخلط بالتمر. «اللسان: ثجر».

(٤) نهر دبيس: نهر بالبصرة؛ سمي باسم رجل قصّار كان يقصر عليه الثياب. معجم البلدان ٥ / ٣٢٠.

(٥) سيحان: نهر بالبصرة كان للبرامكة. معجم البلدان ٣ / ٢٩٣.

الذباب. فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينامُ كالصافر والتُنوِّط؛ فإنَّهما إذا كان اللّيلُ فإن أحدهما يتدلّى من غصن الشّجرة، ويضمُّ عليه رجليه، وينكِّس رأسه، ثمَّ لايزال يصيحُ حتَّى يبرُقَ النُور. والآخرُ لا يزالُ يتنقَّل في زوايا بيته، ولا يأخذه القرار، خوفاً على نفسه، فلا يزال كذلك، وقد نتفَ قبلَ ذلك ممَّا على ظهور الأشجار مما يشبه الليف فنفشَه، ثمَّ فتلَ منه حبلاً، ثمَّ عملَ منه كَهَيئة القفَّة، ثمَّ جعله مُدلَّى بذلك الحبل، وعقَدَه بطَرَف غُصنٍ من تلك الأغصان؛ إلاَّ أنَّ ذلك بترصيعٍ ونسْج، ومُدَاخلَةٍ عجيبة؛ ثمَّ يتَّخذ عشَّه فيه، ويأوي إليه مخافة على نفسه.

والأعرابُ يزعمون أنَّ الذِّئبَ شديدُ الاحتراس، وأنَّه يُرواحِ بينَ عينَيه، فتكونُ واحدة مطبقة نائمة وتكون الأخرى مفتوحة حارسةً ولا يشكُّون أنّ الأرنب تنام مفتوحة العينين.

وأمَّا الدَّجاج والكلاب فإنما تعزُب[1] عقولهما في النَّوم، ثمَّ ترجع إليهما بمقدار رجوع الأنْفاس. فأمَّا الدَّجاج فإنها تفْعَل ذلك من الجبن وأمَّا الكلب فإنَّه يفعل ذلك من شدّة الاحتراس.

وجاؤوا كلهم يخبرون أن الغرانيق والكراكيَّ لا تنامُ أبدًا إلاّ في أبعدِ المواضعِ من النَّاس، وأحْرَزِها من صغار سباع الأرضِ، كالثعلب وابن آوى. وأنها لا تنام حتى تقلِّد أمرَها رئيساً وقائداً، وحافظًا وحارساً، وأن الرئيس إذا أعيا رفَعَ إحدى رجليه، ليكون أيقَظَ له.

٨٣٤ - [سلطان النوم]

وسلطان النَّوم معروف. وإن الرَّجل ممن يغزو في البحر، ليعتصمُ بالشِّراع وبالعود وبغير ذلك، وهو يعلم أن النَّومَ متى خالطَ عينَيه استرخَتْ يدُه، ومتى استرختْ يدُه بايَنَهُ الشيءُ الذي كان يركبه ويَستَعْصم به، وأنه متى بايَنه[2] لم يقدرْ عليه، ومَتى عجز عن اللّحاق به فقد عطب. ثمّ هو في ذلك لا يخلو، إذا سَهِر ليلة أو ليلتين، من أنْ يغلبه النَّومُ ويقهرَه، وإمَّا أنْ يحتاج إليه الحاجة التي يريه الرأي الخوّان، وفسادُ العقْلِ المغمُور بالعلَّة الحادثة، أنّه قد يمكن أنْ يُغفيَ وينتبهَ في أسرع الأَوقات، وقبلَ أنْ تَسترخِيَ يدُهُ كلَّ الاسترخاء، وقبلَ أن تباينه الخشَبةُ إن كانتْ خشبة.

---

(١) عزب: بعد وغاب. «القاموس: عزب».

(٢) باين: فارق. «القاموس: بين».

٨٣٥ - [أعجب من نوم الذبان]

وليس في جميع ما رأينا وروَينا، في ضروبِ نومِ الحيوان، أعجبُ من نوم الذّبّان، وذلك أنَّها ربما جعلت مأواها بالليل دَرْونْد الباب[١] وقد غشَّوه ببطانَة ساجٍ[٢] أملسَ كأنَّه صَفاةٌ، فإذا كان اللَّيلُ لزقت به، وجعلت قوائمها مما يليه، وعلّقت أبدانها إلى الهواء. فإن كانت لا تنام البتَّةَ ولايخالُطُها عُزوب[٣] المعرفة فهذا أعجب: أنْ تكونَ أمّةٌ من أمم الحيوانِ لا تعرف النَّومَ، ولا تحتاج إليه. وإن كانت تنام ويعزب عنها ما يعزُب[٣] عن جميع الحيوان سوى ما ذكرنا، فما تخلو من أن تكون قابضةً على مواضع قوائمها، ممسكة بها، أو تكون مرسلة لها مخلّية عنها. فإنْ كانت مرسلةً لها فكيف لم تسقطْ وهي أثقلُ من الهواء؟! وإن كانت ممسكة لها فكيف يجامع التشدُّد والتثبيت النَّوم؟!.

٨٣٦ - [بعض ما يعتري النائم]

ونحن نرى كلَّ من كان في يده كيس أوْ دِرهمٌأو حبلٌ، أو عصا فإنّه متى خالط عينَيْه النَّوم استرخَتْ يده وانفتحت أصابعُه. ولذلك يتثاءب المحتال للعبْد الذي في يده عِنان دابّةِ مولاه، ويتناوم له وهو جالس؛ لأنَّ من عادةِ الإنسان إذا لم يكن بحضرتِه مَن يشغله، ورأى إنسانًا قَبالَتَه ينودُ[٤] أو يَنْعس، أن يتثاءب وينعَس مثله. فمتى استرخَتْ يدُه أو قبضته عن طَرَف العنان، وقد خامَرهُ سُكْرُ النَّوم، ومتى صار إلى هذه الحال - ركب المحتال الدَّابَّة ومرّ بها.

---

(١) في اللسان «نجف»: (النجاف هو أسكفّة الباب، قال الأزهري: هو درونده أي أعلاه).

(٢) الساج: الطيلسان الأخضر أو الأسود «القاموس: ساج».

(٣) عزب: بَعُد وغاب «القاموس: عزب».

(٤) ينود: يتمايل من النعاس. «القاموس: نود».

بـــاب
القول في الغربان

اللهم جنبنا التكلُّف، وأعِذْنَا مِن الخطأ، واحْمِنا العُجْبَ بما يكون منه، والثِّقة بما عندنا، واجعلْنا من المحسنين.

نذكر على اسم اللّه جُمَلَ القولِ في الغِربان، والإخبار عنها، وعن غريبِ ما أُودِعَتْ من الدّلالة، واستُخْزِنت من عجيب الهداية.

وقد كُنَّا قدَّمنا ما تقول العربُ في شأن منادَمة الغُراب والدِّيكَ وصداقته له، وكيف رهنه عند الخمَّار، وكيف خاسَ به وسخِرَ منه وخدعه وكيف خرج سالماً غيرَ غارم، وغانماً غيرَ خائب، وكيف ضربت به العربُ الأمثالَ، وقالت فيه الأشعار، وأدخلتْه في الاشتقاقِ لزجْرها عند عيافتها وقِيافتها، وكيف كان السبب في ذلك.

٨٣٧ - [ذكر الغراب في القرآن]

فهذا إلى ما حكى اللّهُ عزَّ وجلَّ من خبر ابنَيْ آدمَ، حينَ قرَّبا قرباناً فحسَدَ الذي لم يُتقبَّلْ منه المتقبل منه، فقال عندما همَّ به من قتله، وعند إمساكه عنه، والتَّخلية بينَه وبين ما اختارَ لنفسه: ﴿إنِّي أُريدُ أنْ تَبُوءَ بإثْمي وإثمكَ فَتَكُونَ منْ أصْحَاب النَّارِ وَذلكَ جَزاءُ الظَّالمينَ﴾(١). ثُم قال: ﴿فطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيه فَقَتَلَهُ فأصْبَحَ منَ الخاسرِينَ فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً يَبْحثُ في الأرضِ ليُرِيَهُ كَيْفَ يُواري سَوْءَةَ أخيه﴾(٢) حتّى قال القائل، وهو أحد ابني آدم ما قال: فلولا أنّ للغُراب فضيلةً وأموراً محمودةً، وآلةً وسبباً ليس لغيره من جميع الطّير لما وضعه اللّهُ تعالى في موضعِ تأديب الناس، ولما جعله الواعِظ والمذكِّرَ بذلك. وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿فبعَثَ اللهُ غَراباً يَبْحَث

---

(١) ٢٩/ المائدة: ٥.

(٢) ٣٠-٣١/ المائدة: ٥.

في الأرضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُواري سَوْءَةَ أخيهِ﴾[١]، فأخْبر أنّه مبعوثٌ، وأنه هو اختاره لذلك مِنْ بين جميع الطّير.

قال صاحب الدِّيك: جعلت الدَّليلَ على سوء حاله وسقوطِه الدَّليلَ على حُسنِ حاله وارتفاعِ مكانه. وكلما كان ذلك المقرَّعُ به أسفَلَ كانت الموعظة في ذلك أبلغَ. ألا تَرَاهُ يقول: ﴿يا وَيْلَتَي أعَجَزْت أنْ أكونَ مثْلَ هذا الْغُرَابِ فأُوَارِي سَوْءَةَ أخي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادمِينَ﴾[١].

ولو كان في موضعِ الغُرابِ رجلٌ صالحٌ، أو إنسانٌ عاقلٌ، لما حَسُن به أن يقولَ: يا ويْلتى أعجَزت أنْ أكون مثلَ هذا العاقلِ الفاضل الكريمِ الشّريف. وإذا كان دوناً وَحقيراً فقال: أعجزتُ وأنا إنسانٌ أن أُحسنَ ما يحسنه هذا الطائر، ثمّ طائرٌ من شِرار الطير. وإذا أراهُ ذلك في طائرِ أسودَ محترقٍ، قبيحِ الشّمائلِ، رديء المَشْيَةِ، ليس من بهائم الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، وهو بَعْدُ طائرٌ يتنكَّد به ويتطيّر منه، آكلُ جيف، رديءُ الصيّد. وكلما كان أجهلَ وأنْذل كان أبلغَ في التّوبيخ والتّقريع.

وأمّا قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النّادمينَ﴾[١] فلم يكنْ به على جهة الإخبار أنّه كانَ قَتَلهُ ليلاً، وإنما هو كقوله: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئذ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحرِّفاً لقتال أوْ مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقدْ باء بغضبٍ مِنَ اللّه﴾[٢]. ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ من عادات الناس، كان من فرَّ من الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيد. وإنما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ من ساعاتِ أعمال الناس، وذلك هو النّهارُ دون اللّيل.

وعلى ذلك المعنى قال صالح بن عبد الرحمن، حين دفعوا إليه جوّاباً الخارجيَّ ليقتله، وقالوا: إن قتله برئت الخوارجُ منه، وإن ترك قتْله فقد أبدى لنا صفحته. فتأوّل صالحُ عند ذلك تأويلاً مستنكراً: وذلك أنه قال: قد نجدُ التّقيَّة تسيغ الكفر، والكفر باللسان أعظم من القتل والقذْفِ بالجارحة. فإذا جازتَ التقيَّة في الأعظم كانت في الأصغر أجوز. فلما رأى هذا التأويل يطّرد له، ووجد على حالٍ بصيرته ناقصة، وأحسّ بأنّه إنما التمس عُذْراً ولزّق الحجّة تلزيقاً فلمّا عزمَ على قتل جوّاب، وهو عنده واحدُ الصُّفرية في النُّسك والفضل قال: إني يومَ أقتُل جوّاباً على هذا الضّربِ من التأويل

(١) ٣١ / المائدة: ٥.
(٢) ١٦ /الأنفال: ٨.

لحريصٌ على الحياة! ولو كان حين قال إني يوم أقتل جوّاباً إنما عنى النهارَ دون الليل، كان عند نفسه إذا قتلهُ تلك القتلة ليلاً لم يأثم به. وهذا أيضاً كقوله تعالى: ﴿ولا تَقُولنَّ لشيْءٍ إنِّى فاعِلٌ ذلك غَداً إلا أن يشاء اللّهُ﴾[1].

ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دونَ المستعمَلِ بين الناس، لكان إذا قال من أوّل الليل: إني فاعلٌ ذلك غداً في السَّحر، أو مع الفجر أو قال الغداة: إني فاعِلٌ يومي كلّه، وليلتي كلها، لم يكنْ عليه حنث، ولم يكن مخالفاً إذا لم يستثن، وكان إذن لا يكون مخالفاً إلاّ فيما وقع عليه اسمُ غد. فأمّا كلُّ ما خالفَ ذلك في اللَّفظ فلا. وليس التّأويل كذلك لأنَّه جلَّ وعلا إنما ألزمَ عبدهَ أن يقول: إن شاء اللّه، ليَتَّقى عَادَةَ التألّي[2] ولئلا يكونَ كلامُه ولفظُه يشبه لفظ المستبدِّ والمستغْني، وعلى أن يكون عِنْد ذلك ذاكرَ اللّه، لأنه عبدٌ مدبَّرٌ، ومقلَّب ميَّسر،ومصرَّفٌ مسخَّر.

وإذا كان المعنى فيه، والغايَةُ التي جرى إليها اللفظ، إنما هو على ما وصفنا، فليس بين أن يقول أفعَلُ ذلك بعْدَ طرْفَة، وبين أن يقولَ أفعَلُ ذلك بَعْدَ سنة فرقٌ.

وأمَّا قوله: ﴿فَأَصْبحَ مِنَ النّادِمِين﴾ فليس أنّه كان هنالك ناسٌ قتلوا إخوتَهُمْ ونَدموا فصارَ هذا القاتلُ واحداً منهم؛ وإنما ذلك على قوله لآدم وحَوّاء عليهما السلام: ﴿ولا تقْرَبا هذهِ الشَّجرَةَ فتكونا مِنَ الظَّالِمينَ﴾[3]، على معنى أن كلّ من صنع صنيعكما فهو ظالم.

٨٣٨ - [الاستثناء في القسم]

وعجبت من ناسٍ ينكرون قولنا في الأستثناء، وقد سمعوا اللّه عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿إنّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلونْا أصْحَابَ الجَنَّة إذْ أقْسَموا ليَصْرِمُنَّها مُصْبحينَ. ولا يَسْتَثْنون. فطافَ عليْها طائفٌ مِنْ ربِّكَ وَهُمْ نائمونَ. فأصْبَحَتْ كالصّرِيم﴾[4]، مع قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولاتَقُولنَّ لِشيْءٍإنِّي فاعِلٌ ذلك غداً إلاّ أنْ يشاءَ اللّه﴾[5].

٨٣٩ - [تسمية الغراب ابن دأية]

والعربُ تسمِّي الغرابَ ابن دأية، لأنَّه إذا وجد دَبَرَةً[6] في ظهر البعير، أو في عنقه

---

(١) ٢٣/الكهف:١٨.

(٢) الإلّ: الحلف «القاموس: ألل».

(٣) ٣٥/ البقرة: ٢.

(٤) ١٧ - ٢٠/ القلم: ٦٨.

(٥) ٢٣/ الكهف: ١٨.

(٦) الدبرة: القرحة. «القاموس: دبر».

قرحة سقط عليها، ونقرهُ وأكله، حتَّى يبلغ الدَّايات. قال الشاعر[1]: [من الطويل]

نَجيبة قرْمٍ شادَها القَتُّ والنَّوى ... بيثربَ حتى نَيُّها متظاهر[2]

فقلتُ لها سيري فما بكِ علّة ... سنامكِ ملمومٌ ونابُكِ فاطِرُ[3]

فمِثْلكِ أو خيراً تركْتُ رذيّة ... تقلّب عينيها إذا مرّ طائر[4]

ومثله قول الرَّاعي: [من الطويل]

فلو كنت معذوراً بنصْرِك طيّرت ... صقوريَ غِرْبان البَعيرِ المقيدِ

هذا البيت لعنترة، في قصيدة له. ضرب ذلك مثلاً للبعير المقيّد ذي الدّبَر، إذا وقعت عليه الغِرْبان.

٨٤٠ - [علّة غرز الريش والخِرق في ظهر البعير]

وإذاكان بظهر البعير دَبَرَةٌ غرزوا في سنامه إمّا قوادمَ ريش أسود وإمّا خرَقاً سُوداً، لتفزع الغِرْبانُ منْهُ، ولا تسقط عليه. قال الشاعِرُ، وهو ذو الخِرَق الطُّهوي[5]: [من البسيط]

لما رَأتْ إبلي حطت حمولتها ... هَزْلى عجافاً عليها الرِّيشُ والخِرَقُ[6]

قالتْ ألا تبتغي عيشاً نعيشُ به ... عمَّا نلاقي، فشرُّ العيشة الرَّنَقُ

الرَّنَق، بالرّاء المهملة، وبالنون، هو الكدرُ غير الصافي.

وقال آخر: [من البسيط]

كأنَّها ريشةٌ في غاربٍ جرزٍ ... في حيثما صرفته الرِّيح ينصرف

---

(١) الأبيات للجون المحرزي أو لأبي الربيس التغلبي في الخزانة ٦/٨٥، ولأبي الربيس التغلبي في شرح أبيات سيبويه ١/٥٧٢، وبلا نسبة في البيان والتبيين ٣/٣٠٦ - ٣٠٧، والأول بلا نسبة في اللسان والتاج (ضمزز)، والثالث في اللسان والتاج (رهب).

(٢) القرم: الفحل الكريم. «القاموس: قرم». القت: العلف. نيها: شحمها.

(٣) ناب فاطر: مشقوق وظاهر. «القاموس: فطر».

(٤) الرذية: الناقة المهزولة من السير. «القاموس: رذي».

(٥) البيتان في الأصمعيات ١٢٤ - ١٢٥، والتاج (خرق)، والأول في اللسان (خرق)، والمقاييس ٢/١٧٣، والجمهرة ٥٩١، والمجمل ٢/١٧٨.

(٦) العجف: ذهاب السِّمن؛ وهو أعجف؛ وهي عجفاء. والجمع عجاف. «القاموس: عجف».

جَرَز: عظيم. قال رؤبة[١]: [من الرجز]

* عن جَرَزٍ منه وجوزٍ عارِ *

وقد توضع الرِّيش في أسنمتها وتغرز فيها لغير ذلك[٢]، وذلك أنَّ الملوك كانت تجعل الرِّيش علامة لحباء الملك، تحميها بذلك وتشرِّف صاحبها.

قال الشاعر[٣]: [من الكامل]

يهبُ الهِجانَ بريشها ورِعائها ... كاللّيلِ قبلَ صَباحهِ المتبلجِ[٤]

ولذلك قالوا في الحديث: فرجع النَّابغة من عند النُّعمان وقد وهبَ له مائَةً من عصافيره بريشها[٥].

وللرِّيش مكان آخر: وهو أنّ الملوك إذا جاءتها الخرائطُ بالظَّفَر غرزتْ فيها قوادمَ ريشٍ سُود.

٨٤١ - [غربان الإبل]

وقال الشاعر[٦]: [من الطويل]

سأرفَعُ قولاً للحُصين ومالكٍ ... تطيرُ به الغِربان شَطْرَ المواسم

وتروى به الهِيمُ الظماءُ، ويطَّبي ... بأمْثاله الغازِينَ سَجْعُ الحمائمِ

يعني غِرْبان الليل. وأمّا قوله: «وتروى به الهِيمُ الظِّماء» فمثل قول الماتحِ[٧]: [من الرجز]

علِقت يا حارث عِندَ الوِرْدِ ... بجاذلٍ لا رَفِلِ التَّرَدِّي[٨]

ولا عَيِيٍّ بابتناء المجْدِ

---

(١) الرجز ليس لرؤبة؛ بل للعجاج في ديوانه ١/١١٧، واللسان والتاج (جزر، همم، وري)، والجمهرة ١٧٠، وبلا نسبة في ديوان الأدب ٣/١٨٣، والتهذيب ٥/٣٨٢، ١٠/٦٠٨، والمخصص ٤/١٣٦، والعين ٣/٣٥٨.

(٢) البيان ٣/٩٦، ومجالس ثعلب ٣٥.

(٣) البيت بلا نسبة في البيان ٣/٩٦.

(٤) الهجان: الإبل البيض. «القاموس: هجن».

(٥) الأغاني ١١/٢٨، ٣٩، والشعر والشعراء ٧١، ٧٥، وأساس البلاغة (عصفر).

(٦) البيت الأول بلا نسبة في اللسان والتاج (غرب)، والتهذيب ٨/١٢٠.

(٧) الرجز في البيان ١/٤. الماتح: المستقي من أعلى البئر، والمائح: الذي يملأ الدلو من أسفل البئر «اللسان: متح».

(٨) جذل الشيء يجذل جذولاً: انتصب وثبت لا يبرح. «اللسان: جذل». الرفل: الذي يجر ثوبه متبختراً. «اللسان: رفل». التردي: ارتداء اللباس.

وقالوا في البعير إذا كان عليه حملٌ من تمر أو حبٍّ، فتقَدَّم الإبلَ بفضل قُوَّته ونشاطه، فعرض ما عليه للغربان. قال الرَّاجز[1]: [من الرجز]

قد قلتُ قولاً للغراب إذْ حَجَلْ عليكَ بالقود المسانيف الأُوَل[2]

تَغَدَّ ما شئت على غير عَجَلْ

ومثله[3]: [من الرجز]

يقدُمُها كلُّ علاة مذعان حمراءَ من مُعَرِّضاتِ الغِرْبانْ[4]

٨٤٢ - [أمثال في الغراب]

ويقال: «أصحُّ بدناً مِنْ غراب»، و «أبصَرُ مِنْ غُراب»[5]، و «أصفى عيناً من غراب»[6].

وقال ابن ميّادة[7]: [من الطويل]

ألا طرقَتنا أُمُّ أوسٍ ودونها حِرَاجٌ من الظلّماء يعشى غُرابُها

فبتْنا كأنّا بَيْننا لطميّةٌ من المِسْكِ، أو دارِيَّةٌ وعيابُها[8]

---

(١) الرجز بلا نسبة في المخصص ١٠/١٦٧، والتنبيه للبكري ٤٨، ومجالس ثعلب ١١٢، واللسان والتاج (سنف).

(٢) المسانيف: المتقدمة «اللسان: سنف».

(٣) الرجز للشماخ في ديوانه ٤١٦ - ٤١٧، وله أو للأجلح بن قاسط في اللسان والتاج (عرض)، وللأجلح بن قاسط في اللسان (علا)، ولرجل من غطفان في التنبيه للبكري ٤٧. وبلا نسبة في التهذيب ١/٤٦١، والمقاييس ٤/١١٨، ٢٧٩، والمجمل ٣/٤٧١، والمخصص ٤/١٧، ٧/١٣٧، وأساس البلاغة (عرض)، والجمهرة ٣٥٥، ٧٤٨، ١٣٢٠، وأمالي القالي ١/١١٩، والمعاني الكبير ١/٢٥٩.

(٤) في التنبيه للبكري: (العلاة: الشديدة الصلبة، مشبهة بالعلاة، وهو السندان)، وفيه: (الحمر أجلد الإبل، والمعرضات التي تقدم الإبل فتقع الغربان على حملها إن كان تمراً أو غيره فتأكله).

(٥) مجمع الأمثال ١/١١٥، والدرة الفاخرة ١/٧٨، وجمهرة الأمثال ١/٢٤٠، والمستقصى ١/٢١، وفصل المقال ٤٩١، وأمثال ابن سلام ٣٦٠.

(٦) المثل برواية (أصفى من عين الغراب) في مجمع الأمثال ١/٤١٧، والدرة الفاخرة ١/٢٥٠، ٢٦٣، وجمهرة الأمثال ١/٥٦٧، والمستقصى ١/٢١٠.

(٧) ديوان ابن ميادة ٧٧، والمستقصى ١/٢١، والأول في اللسان والتاج وأساس البلاغة (حرج)، والتهذيب ٤/١٤٠، وثمار القلوب ٤٦١ (٦٧٣)، والمعاني الكبير ١/٢٥٨.

(٨) في ديوانه: (اللطمية: من معانيها: الجمال التي تحمل العطر، وهي عند ابن الأعرابي سوق الإبل، والمقصود بها هنا الوعاء الذي يوضع فيه المسك. دارية: المسك المنسوب إلى دارين، وهو مرفأ في البحرين كانت ترفأ إليه السفن التي فيها المسك. العياب: الوعاء الذي يوضع فيه المسك).

يقول[1]: إذا كان الغراب لا يبصر في حِراج الظلماء. وواحد الحراج حَرَجة، وهي هاهنا مثَلٌ، حيث جعل كلَّ شيءٍ التفَّ وكَثفَ من الظَّلام حِراجاً، وإنّما الحِراجُ من السِّدْرِ وأشباه السّدر.

يقول: فإذا لم يبصرْ فيها الغرابُ مع حدَّةِ بصره، وصفاء مُقْلته فما ظنُّك بغيره؟!

وقال أبو الطمحان القيْنيُّ[2]: [من الطويل]

إذا شاء راعيها استقى مِنْ وقيعةٍ … كعين الغراب صَفْوُها لم يكدّرِ

والوقيعة: المكان الصلب الذي يُمسك الماء، والجمع الوقائع.

٨٤٣ - [استطراد لغوي]

قال: وأنشدنا أبوعمرو بن العلاء، في الوقائع: [من الطويل]

إذا ما استبالوا الخيل كانت أكفهم … وقائع للأبْوالِ والماءُ أبـرَدُ[3]

يقول: كانوا في فلاةٍ فاستبالوا الخيل في أكفهم، فشربوا أبوالها من العطش.

ويقال شهد الوقيقة والوقْعَة بمعنًى واحد. قال الشاعرُ[4]: [من الطويل]

لعمري لقد أبقتْ وقِيعةُ راهطٍ … على زفَرٍ داءً من الشَّرِّ باقيا

وقال زُفَر بنُ الحارث[5]: [من الطويل]

لعمري لقد أبقتْ وقيعة راهطٍ … لِمرْوان صدْعاً بيننا متنائيا

وقال الأخطل[6]: [من الطويل]

لقد أوقع الجحّافُ بالبشْرِ وقْعَةً … إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ

---

(١) ثمار القلوب ٤٦١ (٦٧٣).

(٢) البيت لأبي الطمحان في الأغاني ١٣/١٤، وقصائد جاهلية نادرة ٢٢٠، وأشعار اللصوص ١/٧٨، والمعاني الكبير ٢٥٩، وثمار القلوب (٦٧٣)، وبلا نسبة في المخصص ١٠/١٦٢، والجمهرة ٩٤٤.

(٣) البيت لمالك بن نويرة في ديوانه ٦٤، والأصمعيات ١٩٥، والسمط ٣٤٧، واللسان (بول)، وبلا نسبة في اللسان (وقع)، والجمهرة ٩٤٤، والاشتقاق ٢٩١.

(٤) البيت لجواس بن القعطل الكلبي في المؤتلف والمختلف ٧٤.

(٥) ديوان زفر بن الحارث الكلابي ١٧١، والحماسة البصرية ١/٢٦، والأغاني ١٩/١٩٦، والتاج (رهط)، ومعجم البلدان ٣/٢١ (راهط)، وحماسة القرشي ١٣٦، والوحشيات ٥٠، وهو بلا نسبة في اللسان (شأي)؛ وقافيته فيه (متشائياً) مكان (متنائيا).

(٦) ديوان الأخطل ٣٢، ومعجم البلدان ١/٤٢٧ (بشر)، والتاج (بشر)، والجمهرة ٣١٠، وبلا نسبة في اللسان (عول).

٨٤٤ - [أمثال من الشعر والنثر في الغراب]

وفي صحّة بدن الغراب يقول الآخر[١]: [من المنسرح]

إنّ مُعاذَ بن مسلمٍ رجُلٌ ... قدْ ضَجَّ مِنْ طُول عُمْرِهِ الأبد

قَدْ شاب رأسُ الزّمان واكتهل الدّهـ ... ـر وأثْوابُ عُمْرِه جُدُدُ

يا نَسْر لقْمانَ كَمْ تعيش وكم ... تَسْحَبُ ذيل الحياة يا لُبَد

قد أصبحتْ دارُ آدمٍ خرِبَتْ ... وأنت فيها كأنَّك الوَتدُ

تسألُ غِربانَها إذا حَجَلَتْ ... كيف يكونُ الصُّدَاعُ والرَّمَدُ

ويقال: «أرضٌ لا يطير غرابها»[٢]. قال النَّابغة[٣]: [من الكامل]

وَلِرَهْطِ حرّابٍ وقدٍّ سَوْرَةٌ ... في المجد ليس غرابُها بمُطارِ[٤]

جعله مثلاً. يعني أنّ هذه الأرض تبلغ من خِصبها أنّه إذا دخلها الغراب لم يخرُج منها، لأنّ كلّ شيءٍ يريدهُ فيها.

وفي زهوِ الغُراب يقول حسَّان، في بعضِ قريش[٥]: [من الكامل]

إنّ الفرافصة بن الاحْوصِ عنده ... شجَنٌ لأمِّك من بنات عُقاب

أجمَعْتَ أنَّك أنت ألأمُ مَنْ مَشى ... في فحش مُومِسةٍ وزهْوِ غرابِ

ويقال: «وجد فلان تمْرَةَ الغُراب»[٦]، كأنّه يتّبع عندهم أطيب التمر.

ويقال: «إنّه لأَحْذَرُ مِنْ غراب»[٧] و: «أشد سواداً من غراب»[٨].

---

(١) الأبيات للخزرجي في مروج الذهب ٢/٣٢٢، ووفيات الأعيان ٥/٢١٨، وثمار القلوب (٦٩٥)، ولمحمد بن مناذر في العقد الفريد ٣/٥٥، وبغية الوعاة ٣٩٣، ولابن عبدل في الدرة الفاخرة ٣١٦، وبلا نسبة في أمالي الزجاجي ١٧، والمعاني الكبير ٥٨، وعيون الأخبار ٤/٥٩، وإنباه الرواة ٣/٢٩٠، والبيت الثاني في مجالس ثعلب ١٦٣.

(٢) المثل في كتاب الأمثال لأبي عكرمة الضبي ٧٣.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ٥٥، واللسان والتاج (قدد، سور، طير)، وأساس البلاغة (غرب).

(٤) في ديوانه: حراب وقد: رجلان من بني أسد. والسورة: المنزلة الرفيعة. وقوله: «ليس غرابها بمطار» أي شرفهم ثابت باقٍ وليس بزائل.

(٥) ديوان حسان ١١٦، والثاني في ثمار (٤٩١)، واللسان (زنك)، والتاج (زوك)، وبلا نسبة في اللسان (زوك)، والمخصص ٣/١٠٣، والمجمل ٣/٣٣، والمقاييس ٣/٣٧.

(٦) مجمع الأمثال ٢/٣٦٢، وجمهرة الأمثال ٢/٣٣٣، والمستقصى ٢/٣٧٣، والأمثال لمجهول ١١٦.

(٧) مجمع الأمثال ١/٢٢٦، وجمهرة الأمثال ١/٣٩٦، والمستقصى ١/٦٢، والأمثال لمجهول ٧، والدرة الفاخرة ١/١٣٣، ١٥٦، ١٩٦.

(٨) المثل في المستقصى ١/١٩٢ برواية «أشد سواداً من حنك الغراب».

وقد مدحوا بسَوادِ الغراب. قال عنترة[1]: [من الكامل]

فيها اثنتان وأرْبَعُون حلوبَة سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسحمِ

وقال أبو دؤاد[2]: [من البسيط]

تنفي الحصى صُعُداً شرْقِيَّ مَنْسِمِها نَفْيَ الغُرابِ بأعلى أنفه الغَرَدا[3]

والمغاريد: كَمْءٌ. صغار. وأنشَد[4]: [من البسيط]

يَحُجُّ مأمومةً في قعْرها لَجَفٌ فاستُ الطبيبِ قذاها كالمغاريدِ[5]

وقد ذكرنا شدَّة منقاره، وحدَّة بصره في غير هذا المكان.

٨٤٥ - [شعر في مديح السواد]

وقالوا في مديح السواد، قال امرؤ القيس[6]: [من البسيط]

العينٌ قادحة واليدُ سابحة والأُذْن مصْغية واللَّونُ غِربيبُ

وفي السَّواد يقول ربيِّعة أبُو ذؤابٍ الأسدي[7]، قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب: [من الكامل]

إنِ المودة والهوادة بيننا خلقٌ كسحقِ الْيُمْنَة المنجابِ[8]

إلاَّ بجيشٍ لا يكتُّ عديدُه سُودِ الجلود من الحديدِ غضابِ[9]

---

(١) البيت من معلقته في ديوانه ١٧، والخزانة ٧/٣٩٠، والمقاصد النحوية ٤/٤٨٧، وبلا نسبة في شرح المفصل ٣/٥٥، ٦/٢٤.

(٢) ديوان أبي دؤاد ٣٠٨.

(٣) منسم الناقة: خفها «اللسان: نسم».

(٤) البيت لعذار بن درة الطائي في اللسان والتاج (حجج، لفف)، والمجمل ٢/٣٢، ٤/٢٦٦، والتنبيه والإيضاح ١/١٩٧، وبلا نسبة في اللسان والتاج (غرد)، والمقاييس ١/٢٣، ٢/٣٠، ٥/٢٣٥، والجمهرة ٨٦، ٦٣٣، ١٢٣٤، والمخصص ١٣/١٨٢، ١٦/٦٢، والتهذيب٣/٣٩٠، والكامل ١/٦٥ (طبعة المعارف).

(٥) في الكامل قوله «في قعرها لجف» أي تقلع، ويقال تلجفت البئر إذا انقلع طيُّها من أسفلها.

(٦) البيت لامرئ القيس في ديوانه ٢٢٦، والجمهرة ٥١٦، ولعمران بن إبراهيم الأنصاري في شرح شواهد الإيضاح ٤٩٧، ولإبراهيم بن عمران في اللسان (قصب)، وبلا نسبة في الجمهرة ٢٧٨، واللسان (لحب، قبب)، والتاج (قبب)، والتهذيب ٨/٢٩٩، وأساس البلاغة (قدح).

(٧) البيتان في أمالي القالي ١/٧٢، والأول في اللسان والتاج (يمن)، والثاني في الجمهرة ٧٩، وبلا نسبة في اللسان والتاج (كتت).

(٨) اليمنة: ضرب من برود اليمن. «اللسان: يمن».

(٩) كتَّ القومَ يكتُّهم: عدَّهم وأحصاهم، وأكثر ما يستعملونه في النفي. «اللسان: كتت».

٨٤٦ - [شعر ومثل في شيب الغراب]

وفي المثل: «لا يكون ذلك حتّى يشيبَ الغُراب»[١]. وقال العرْجيُّ[٢]: [من الخفيف]

لا يحولُ الفؤادُ عنه بوُدٍّ ... أبداً أو يحولَ لون الغرابِ

وقال ساعدة بن جُؤَيّة[٣]: [من الكامل]

شاب الغراب ولا فؤادك تارك ... عَهْدَ الغَضوبِ ولا عتابُكَ يُعتِبُ

٨٤٧ - [نقر الغراب للدماغ والعيون]

ومما يذكر للغراب ما حدّث به أبو الحسن، عن أبي سليم، أنَّ معاوية قال لأبي هوذة بن شمّاس الباهليِّ: لقد هممت أن أحملَ جمْعاً من باهلة في سفينة ثم أغرقهم! فقال أبو هوْذة: إذنْ لا ترضى باهلةُ بعدّتهمْ من بني أمية! قال: اسكت أيُّها الغرابُ الأبقع! وكان به برص، فقال أبو هوذة: إنَّ الغراب الأبقع ربَّما درج إلى الرَّخمة حتى ينقر دماغها، ويقلع عينيها! فقال يزيد بن معاوية: ألا تقتله يا أمير المؤمنين؟ فقال: مَهْ! ونهض معاوية. ثمَّ وجهه بعدُ في سريَّة فقتل. فقال معاوية ليزيد: هذا أخفى وأصوب[٤]!

وقال آخر[٥] في نقْر الغراب العُيونَ: [من الوافر]

أتوعد أسرتي وتركتَ حُجْراً ... يُرِيغُ سوادَ عينيه الغُرابُ

ولو لاقيت عِلباءَ بن جَحْشٍ ... رضيتَ من الغنيمةَ بالإيابِ

وقال أبو حيَّة - في أنّ الغراب يسمُّونه الأعور تطيُّراً منه[٦] -: [من الكامل]

وإذا تُحَلُّ قتودها بتنوفةٍ ... مَرَّت تليح من الغُرابِ الأعورِ[٧]

لأنها تخاف من الغربان، لما تعلمُ من وقوعها على الدَّبر.

---

(١) المستقصى ٢ / ٥٩، وفصل المقال ٤٧٤، ٤٨٢، وجمهرة الأمثال ١ / ٣٦٣.

(٢) ديوان العرجي ١١٦، ورواية صدره: (لم أحل عنك ما حييت بودي).

(٣) البيت لساعدة بن جؤية في شرح أشعار الهذليين ١٠٩٨، واللسان والتاج (شيب، عتب، غضب)، والعين ٤ / ٤١٣.

(٤) انظر الخبر في البرصان ٦٩ - ٧٠.

(٥) البيتان لعبيد بن الأبرص، والأول في ديوانه ١، والتهذيب ٨ / ١٨٧، وبلا نسبة في اللسان (روغ)، والثاني في ديوانه ٢٤، والعمدة ١ / ١٠٣.

(٦) ديوان أبي حية النميري ٥٩، والمعاني الكبير ٢٦٠، ورواية البيت في ديوانه:
(آلت إذا ما حُلّ عنها رحلها ... جُعلتْ تَضيفُ من الغراب الأعور)

(٧) تليح: تحذر وتشفق.

٨٤٨ - [مدح لون الغراب]

ومما يَمْدح به الشُّعراءُ بلون الغراب قال أبو حيّة[١]: [من الوافر]

غرابٌ كانَ أسْودَ حالكيّاً ألا سَقْيًا لذلك مِنْ غُرابِ

وقال أبو حيَّة[٢]: [من المتقارب]

زمانَ عَلَيَّ غرابٌ غداف فطيَّرهُ الدَّهْرُ عني فطارا
فلا يُبعدِ اللّه ذاك الغُدافَ وإن كان لا هو إلاَّ ادّكارا
فأصبح موضعهُ بائضاً مُحيطاً خِطاماً مُحيطًا عذارا[٣]

وقال أبو حيّة في غير ذلك ،وهو مما يُعدّ للغراب[٤]: [من الطويل]

كأنّ عصيم الوَرْس منهنَّ جاسدٌ بما سال من غربانهنَّ من الخطْر[٥]

٨٤٩ - [استطراد لغوي]

والغراب ضروب، ويقع هذا الاسم في أماكن، فالغراب حدُّ السكين والفأسِ، يقال فأسٌ حديدة الغراب. وقال الشّماخ[٦]: [من الطويل]

فأنحى عليها ذات حدٍّ غرابها عدُوٌّ لأوْساطِ العِضاهِ مُشارِزُ[٧]

المشارزة: المعاداة والمخاشنة.

والغراب:حدُّ الورك ورأسه الذي يلي الظهر، ويبْدأ من مؤخَّر الرِّدف. والجمعُ غِربان. قال ذو الرُّمَّة[٨]: [من الطويل]

وقَرَّبْنَ بالزُّرقِ الحمائل بعدَ ما تَقَوَّب من غِربان أوراكها الخطْرُ[٩]

---

(١) ديوان أبي حية ١٢١.

(٢) ديوان أبي حية ٤٣، وحماسة القرشي ٢٨١ - ٢٨٢، وطبقات ابن المعتز ١٤٥، وأمالي المرتضى ١/ ٤٤٥، ونسب البيت خطأ إلى الكميت في اللسان (غرب).

(٣) في ديوانه: (بائض: من باض النبت إذا صوّح، وبائض:أي مبيض. خطام: أي ما خطم به من الشعر.

(٤) ديوان أبي حية ٥٢.

(٥) في ديوانه: (العصيم: الدرن والوسخ والبول إذا يبس على فخذ الناقة).

(٦) ديوان الشماخ ١٨٥، واللسان والتاج (غرب، شرز)، والجمهرة ٣٢١، والعين ٤/ ٤١٣، وديوان الأدب ١/ ٤٣٩.

(٧) في ديوانه: (أنحى عليها: عرض عليها: أي أقبل يقطعها.ذات حد: فأس ذات حد. غرابها: حدها. العضاه: شجر عظيم له شوك. الشرز: القطع).

(٨) ديوان ذي الرمة ٥٦٦، والجمهرة ٢٣٤، ٧٠٣، ١٠٩٧، واللسان (غرب، خطر، زرق، جمل).

(٩) في ديوانه: (الزرق: أكثبة الدهناء). ويقال: «جمائل وجمال».

تقوَّب: تقشر ما على أوراكها من سلْحِها وبولها، من ضربها بأذنابها.

٨٥٠ - [غراب البين]

وكلّ غراب فقد يقال له غراب البين إذا أرادوا به الشؤم، أمّا غراب البين نفسه، فإنَّه غرابٌ صغير. وإنّما قيل لكلِّ غراب غراب البين، لسقوطها في مواضعِ منازلهم إذا بانوا عنها. قال أبو خولة الرِّياحيّ[1]: [من الطويل]

فليس بيربوعٍ إلى العقْل فاقَةٌ ... ولا دَنس يسودُّ منه ثيابُها

فكيف بنوكي مالك إن كفرتم ... لهم هذه، أم كيف بعدُ خِطابها

مَشَائم ليسُوا مُصلحين عشيرةً ... ولا ناعبٍ إلاّ ببينٍ غرابها

٨٥١ - [الوليد بن عقبة وعبد اللّه بن الزبير]

ومن الدَّليل على أنّ الغرابَ من شرارِ الطَّير، ما رواه أبو الحسن قال: كان ابنُ الزبير يقعد مع معاوية على سريره، فلا يقدر معاوية أن يمتنع منه، فقال ذات يومٍ: أما أحدٌ يكفيني ابن الزبير؟ فقال الوليد بن عقبة: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين. فسبق فقعد في مقعده على السرير، وجاء ابن الزبير فقعد دون السرير، ثمَّ أنشد ابن الزبير: [من الطويل]

تسمّى أباناً بعد ما كان نافعاً ... وَقَدْ كان ذَكْوانٌ تكنّى أبا عمرِو

فانحدرَ الوليدُ حتى صار معه، ثم قال: [من الوافر]

ولولا حُرَّة مهدَتْ عليْكمْ ... صفِيَّةُ ما عُدِدْتم في النَّفيرِ

ولا عُرفَ الزبيرُ ولا أبوه ... ولا جلس الزبير على السرير

ودِدْنا أنَّ أمّكم غراب ... فكنتم شرَّ طيرٍ في الطيور

٨٥٢ - [القواطع والرواجع والأوابد]

قال أبو زيد[2]: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الغربان، أي جاءت بلادنا، فهي

---

(١) الأبيات لأبي الأحوص الرياحي في البيان ٢/٢٦٠ - ٢٦١، والبيت الثالث للأخوص الرياحي في الإنصاف ١٩٣، والخزانة ٤/١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، وشرح شواهد المغني ٨٧١، وشرح المفصل ٢/٥٢، والكتاب ١/١٦٥، ٣٠٦، وشرح أبيات سيبويه ١/٧٤، ٢/١٠٥، واللسان (شأم)، والمؤتلف ٤٩، وهو للفرزدق في الكتاب ٣/٢٩، وديوانه٢٣، وبلا نسبة في الخزانة ٨/٢٩٥، ٥٥٤، والخصائص ٢/٣٥٤، وشرح المفصل ٥/٦٨، ٧/٥٧، ومغني اللبيب ٤٧٨.

(٢) ورد الخبر في ثمار القلوب (٦٥٥ - ٦٥٦).

قواطعُ إلينا، فإذا كان الصيف فهي رواجع. والطير التي تقيم بأرض شتاءها وصيفها أبداً فهي الأوابد. والأوابد أيضاً هي الدواهي، يقال جاءنا بآبدة. ومنها أوابد الوحْش. ومنها أوابد الأشعار. والأوابد أيضاً: الإبل إذا توحَّش منها شيءٌ فلم يُقدرَ عليه إلا بعقْر. وأنشد أبو زيد في الأوابد[١]: [من الرجز]

ومَنْهل وَرَدْته التقاطا طامٍ فلمْ ألْقَ به فُرَّاطا[٢]

إلاَّ القطا أوابداً غطاطا[٣]

٨٥٣ - [صوت الغراب]

ويقال نغق الغراب ينغق نغيقاً، بغين معجمة، ونعت ينعب نعيباً بعين غير معجمة. فإذا مرّت عليه السِّنون الكثيرة وغلظ صوته قيل شحَج يشحج شحيجاً. وقال ذو الرُّمَّة[٤]: [من الطويل]

ومُسْتَشْحجاتٍ بالفراقِ كأنّها مثاكيلُ من صُيّابةِ النُّوب نُوَّح[٥]

والنُّوبة توصف بالجزع.

٨٥٤ - [أثر البادية في رجال الروم والسند]

وأصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والرُّوم للإبل، يرون أنهم يصلحون على معايشها، وتصلح على قيامهم عليها.

ومن العجب أنَّ رجال الرُّوم تصلح في البدو مع الإبل، ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها.

---

(١) الرجز لنقادة الأسدي في اللسان (فرط، لقط)، والتاج (فرط، لغط، لقط)، وبلا نسبة في اللسان (لغط، رجم)، والكتاب ١/ ٣٧١، والتهذيب ٨/ ٥٨، ١٦/ ٢٥٢، والعين ٥/ ١٠١، والمقاييس ٥/ ٢٣، والمجمل ٤/ ٢٨٧، والمخصص ١٤/ ٢٢٦، والتاج (ترجم)، وديوان الأدب ٢/ ٣٠٨، وإصلاح المنطق ٦٨، ٩٦.

(٢) الفراط: المتقدمات إلى الماء «اللسان: فرط».

(٣) الغطاط: ضرب من القطا، الطوال الارجل، البيض البطون، الغبر الظهور، الواسعة العيون. «اللسان: غطط».

(٤) ديوان ذي الرمة ١٢٠٧، واللسان (صيب، شحج، ثكل)، والتاج (صيب، شحج)، وأساس البلاغة (ثكل، صيب)، والعين ٧/ ١٦٧، والمخصص ٣/ ١٥٣، ٤/ ٣٠، ٨/ ١٣٤، والتهذيب ٤/ ١١٧، وبلا نسبة في ديوان الأدب ٣/ ٤٦٠، والجمهرة ١٠٢٤.

(٥) الصيابة: الخالص والصميم والخيار من الشيء والسيد. «القاموس: صيب».

فأمّا السند؛ فإنَّ السِّنديَّ صاحب الخرْبة[1] إذا صار إلى البدو، وهو طفل، خرج أفصحَ من أبي مَهْديّة، ومن أبي مطرف الغنويّ. ولهم طبيعة في الصَّرْفِ، لا ترى بالبصرة صيرْفِيًّا إلا وصاحب كيسه سِنْديٌّ.

٨٥٥ - [تفوق أهل السند]

واشترى محمّد بن السّكن، أبا رَوْح فرَجاً السِّندي، فكسب له المال العظيم. فقلَّ صيدلانيٌّ عندنا إلاّ وله غلامُ سنديٌّ. فبلغوا أيضاً في البَرْبهار والمعرفة بالعقاقير، وفي صحّة المعاملة، واجتلاب الحُرفاء مبلغاً حسناً.

وللسِّندِ في الطبخ طبيعة، ما أكثر ما ينجبون فيه.

وقد كان يحيى بن خالد أراد أن يحوِّل إجراء الخيل عن صبيان الحبشان والنُّوبة، إلى صبيان السند، فلم يفلحوا فيه، وأراد تحويل رجال السّند إلى موضع الفرَّاشين من الرُّوم،فلم يفلحوا فيه.

وفي السِّند حلوق[2] جياد، وكذلك بنات السِّند.

٨٥٦ - [استطراد لغوي]

والغراب يسمّى أيضاً حاتماً. وقال عوف بن الخرِع[3]: [من الطويل]

ولكنّما أهْجُو صفيّ بن ثابت ... مُثَبَّجةً لاقت من الطَّيرِ حاتما[4]

وقال المرقِّش، من بني سدُوس[5]: [من مجزوء الكامل]

ولقد غَدوتُ وكنتُ لا ... أغدُو على واق وحاتم

---

(١) الخربة: سعة خرق الأذن، وكل ثقب مستدير. «القاموس: خرب».

(٢) حلوق: جمع حلق، أراد أن أصواتهم جيدة.

(٣) البيت في الأصمعيات ١٦٩.

(٤) المثبجة: البوم. «القاموس: ثبج».

(٥) الأبيات للمرقش في اللسان والتاج (وقي)، والمعاني الكبير ٢٦٢، والأزمنة والأمكنة ٢/٣٥٢، ١١٨٧، والتهذيب ٤/٤٥٠، ٩/٣٧٥، وله أو لخزز بن لوذان في اللسان والتاج (حتم، يمن)، والمؤتلف ١٤٣، ولرجل من بني سدوس في الاختيارين ١٧١، وللمرقم في عيون الأخبار ١/١٤٥ (ورد الاسم في الحاشية، وأثبت المحقق في المتن «المرقش» مدعياً أنه الصواب)، وحماسة البحتري ٢٥٥، وبلا نسبة في الوحشيات ١٦٦، وذيل الأمالي ١٠٦ - ١٠٧، وزهر الآداب ٥٢٤، والعمدة٢/٢٦٢، والأغاني ١١/٩.

فإذا الأشائمُ كالأيا | مِنِ والأيامِنُ كالأشائِمْ
وكذاك لا خيرٌ ولا | شرٌّ على أحدٍ بدائِمْ

وأنشد لخُثيم بن عَديٍّ[1]: [من الطويل]

وليس بهيّابٍ إذا شدّ رحْله | يقولُ عداني اليوم واق وحاتِمُ
ولكنّه يمضي على ذاك مُقدماً | إذا صَدَّ عنْ تلك الهنات الخُثارِمُ

والخثارم: هو المتطيِّر من الرِّجال. وأما قوله: «واق وحاتِمُ» فحاتم هو الغراب، والواقي هو الصُّرد، كأنَّه يرى أنّ الزَّجْر بالغراب إذا اشتقَّ من اسمه الغَرْبة، والاغتراب، والغريب، فإنَّ ذلك حتم. ويشتق من الصُّرَد التصريد، والصَّرَد وهو البرد. ويدلك على ذلك قوله[2]: [من الطويل]

دعا صَرِدٌ يوماً على غصْنِ شوْحَطٍ | وصاح بذاتِ البيْنِ منها غرابُها[3]
فقلتُ: أتصريدٌ وشحطٌ وغرْبة | فهذا لعمري نأيُها واغترابُها

فاشتقّ التَّصْريدَ من الصُّرَدِ، والْغُرْبَةَ مِنَ الْغُرابِ، والشَّحْطَ من الشَّوْحطِ.

ويقال أُغرب الرّجُل: إذا اشتدَّ مرضه، فهو مُغْرَب.

قال: والعنقاء المغْرِب، العقاب، لأنها تجيء من مكان بعيد.

٨٥٧ - [أصل التطير في اللغة]

قال: وأصل التطيُّر إنما كان من الطّير ومن جهة الطير، إذا مرَّ بارحًا[4] أوْ سانحاً[5]، أو رآه يتفلى وينتَتِف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعورَ من النّاس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيَّروا عندها، كما تطيَّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال. فكان زجر الطّير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطيّر، ثمَّ استعملوا ذلك في كلِّ شيء.

---

(١) البيتان للرقاص الكلبي أو لخثيم بن عدي في اللسان والتاج (حتم، خثرم، وقي)، ولخثيم بن عدي في التهذيب ٧/ ٦٩٠، وبلا نسبة في المخصص ٨/ ١٥٢، ١٣/ ٢٥، والعين ٥/ ٢٣٩.
(٢) البيتان بلا نسبة في زهر الآداب ٥٢٤.
(٣) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي. «القاموس: شحط».
(٤) البارح: من الصيد؛ ما مرّ من ميامنك إلى مياسرك. «القاموس: برح».
(٥) السانح: ضد البارح، ومنه «من لي بالسانح بعد البارح» أي بالمبارك بعد الشؤم. «القاموس: سنح».

٨٥٨ - [أسماء الغراب]

والغراب لسواده إن كان أسود، ولاختلاف لونه إن كان أبقع، ولأنّه غريب يقطع إليهم، ولأنّه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمَّم، إلاَّ عند مباينتهم لمساكنهم، ومزايلتهم لدورهم، ولأنّه ليس شيءٌ من الطير أشدَّ على ذوات الدَّبر من إبلهم من الغربان، ولأنه حديدُ البصر فقالوا عند خوفهم من عينه «الأعور». كما قالوا: «غراب» لاغترابه وغربته «وغراب البين»، لأنَّه عند بينونتهم يوجد في دُورهم.

ويسمُّونه «ابن داية»، لأنّه ينقب عن الدَّبر حتَّى يبلغ إلى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلب، وفقار الظهر.

٨٥٩ - [مراعاة التفاؤُل في التسمية]

وللطِّيَرة سمَّت العرب المنهوش بالسَّليم، والبرِّيّة بالمفازة، وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسمّوا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزّجر به على الأمور. فصار تطيُّرهم من القعيد والنَّطيح[١] ومن جرد الجراد، ومن أن الجرادة ذاتُ ألوان، وجميعِ ذلك - دون التَّطيُّرِ بالغراب.

٨٦٠ - [ضروب من الطِّيَرة]

ولإيمان العرب بباب الطِّيرة والفأل عقَدُوا الرَّتائم[٢]، وعشَّروا إذا دخلوا القرى تعشير الحمار[٣]، واستعملوا في القداح الآمر، والناهي، والمتربِّص. وهنَّ غيرُ قداح الأيسار.

٨٦١ - [اشتقاق أسماء في الطيرة]

ويَدُلُّ على أنهم يشتقُّون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون، قولُ سَوّار ابن المضرّب[٤]: [من الوافر]

تغنّى الطائران ببينِ ليلى ... على غصنين من غَرْبٍ وبانِ

---

(١) القعيد: ما جاء من ورائك من ظبي أو طائر. «القاموس: قعد». والنطيح: ما جاء من أمامك من الطير والوحش. «القاموس: نطح».

(٢) كان من أراد سفراً يعمد إلى شجرة؛ فيعقد غصنين منها، فإن رجع وكانا على حالهما قال: إن أهله لم تخنه، وإلا فقد خانته، وذلك الرتم والرتيمة. «القاموس: رتم».

(٣) كانوا يزعمون أن الرجل إذا ورد أرض وباء وضع يده خلف أذنه فنهق عشر نهقات نهيق الحمار ثم دخلها أمِنَ من الوباء، وعشّر الحمار: تابع النهيق عشر نهقات. «اللسان: عشر».

(٤) البيتان لسوار بن المضرب في الأصمعيات ٢٤٣، ولجحدر العكلي في الحماسة البصرية ٢/٩٨، وأشعار اللصوص ١/١٩٥، وأمالي القالي ١/٢٨٢، والكامل ١/٨٥، وللمعلوط في عيون الأخبار ١/١٤٩، وبلا نسبة في الوحشيات ١٨٣.

فكان البانُ أن بانتْ سُليمى وفي الغَرْب اغترابٌ غيرُ دانِ

فاشتقَّ كما ترى الاغتراب من الغَرْب، والبينُونة من البان.

وقال جران العود[1]: [من الطويل]

جرى يوم رُحْنا بالجمال نُزِفُّها عُقابٌ وشَحَّاج من البين يَبْرحُ

فأمَّا العُقاب فهي منها عقوبة وأمّا الغُراب فالغريب المطوَّحُ

فلم يجد في العُقاب إلاّ العقوبة. وجعل الشَّحاجَ هو الغراب البارح وصاحب البين، واشتقَّ منه الغريب المطوّح.

ورأى السَّمهريُّ غراباً على بانةٍ ينتف ريشه، فلم يجد في البان إلاّ البينونة، ووجد في الغراب جميع معاني المكروه، فقال[2]: [من الطويل]

رأيتُ غراباً واقعاً فوق بانةٍ يُنتِّف أعلى ريشهِ ويُطايرُهْ

فقلت، ولو أني أشاء زَجَرتُه بنفسي، للنهديِّ: هل أنت زاجرُه

فقال: غرابُ باغتراب من النَّوى وبالبان بينٌ من حبيب تعاشرُه

فذكر الغراب بأكثر ممَّا ذُكر به غيرُه، ثمَّ ذكر بعدُ شأنَ الريش وتطايره. وقال الأعشى[3]: [من الرمل]

ما تَعِيفُ اليومَ في الطيرِ الرَّوَحْ مِنْ غرابِ البين أو تيسٍ بَرَحْ

فجعل التَّيس من الطّير، إذ تقدم ذكر الطير، وجعله من الطير في معنى التطيُّر.

وقال النَّابغة[4]: [من الكامل]

زَعَمَ البوارِحُ أنَّ رِحْلتنا غَداً وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسْوَدُ

---

(١) ديوان جران العود ٣، والشعر والشعراء ٤٥١.

(٢) الأبيات للسمهري في الأغاني ٢١/٢٣٩، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٢١١، وأشعار اللصوص ١/٣٩، ولكثير في عيون الأخبار ١/١٤٨، وزهر الآداب ٥٢٥، والبيت الأول بلا نسبة في اللسان والتاج (نشش)، والمخصص ٨/١٣١.

(٣) ديوان الأعشى ٢٨٧، واللسان والتاج (روح، عيف)، وأساس البلاغة (عيف)، والعين ٣/٢٩٢، والجمهرة ٩٣٩، ١٠٨٠، والمقاييس ٢/٤٥٥، ٤/١٩٧، والمجمل ٢/٤٣٢، والمخصص ٩/٥٧، والتهذيب ٣/٢٣١، ٥/٢٢٢، والتنبيه والإيضاح ٢/٢٤٣.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ٨٩، والخصائص ١/٢٤٠، والأغاني ١١/٨، وبلا نسبة في اللسان (وجه).

وقال عنترة[1]: [من الكامل]

ظَعَنَ الذين فراقَهُمْ أتوقَّعُ ... وجرى بِبَيْنِهم الغُرابُ الأبقعُ
حَرِقُ الجناحِ كأنَّ لَحْيَي رأسه ... جَلمان بالأخبارِ هَشٌّ مُولَعُ
فزَجرتُه ألاّ يُفرِّخَ بيضُهُ ... أبداً ويُصْبِحَ خائفاً يتفجَّعُ
إنَّ الذين نَعَبْتَ لي بفراقِهمْ ... هم أسهرُوا ليلى التِّمامَ فأوْجَعُوا

فقال: «وجرى ببينهم الغراب» لأنّه غريب، ولأنه غراب البين، ولأنّه أبقع. ثم قال: «حَرِق الجناح» تطيراً أيضاً من ذلك. ثمَّ جعل لَحَيَيْ رأسهِ جلمَين، والجلَم يقطع. وجعله بالأخبار هشَّاً مُولعاً، وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم.

٨٦٢ - [التشاؤُم بالغراب]

قال: فالغراب أكثر من جميع ما يُتطيَّرُ به في باب الشؤم. ألا تراهم كلما ذكروا ممَّا يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه!

وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره، ثم إذا ذكروا كلّ واحدٍ من هذا الباب لا يمكنهم أنْ يتطيروا منه إلاّ من وجهٍ واحد، والغراب كثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدَّم في الشؤم.

٨٦٣ - [دفاع صاحب الغراب]

قال صاحبُ الغراب: الغرابُ وغير الغراب في ذلك سواءٌ. والأعرابيُّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة، وتَوهَّمَ فيها الخيرَ، وإن شاء اشتقَّ منها الشرّ.وكلُّ كلمة تحتملُ وجوهاً.

ولذلك قال الشاعر: [من الطويل]

نظرتُ وأصحابي ببطنِ طويلع ... ضُحَيّاً وقد أفْضى إلى اللَّبَبِ الحَبْلُ[2]
إلى ظبيةٍ تعطو سيالاً تَصورُه ... يجاذبها الأفنان ذو جُددٍ طفل[3]

---

(١) ديوان عنترة ٤٨، والأول والثاني في اللسان والتاج (بين)، والثاني في اللسان (حرق)، وهو بلا نسبة في أساس البلاغة (حرق)، والمخصص ١ /٧٣، والجمهرة ٥١٩.

(٢) طويلع: هضبة بمكة، وواد في طريق البصرة إلى اليمامة،وموضع بنجد. (معجم البلدان ٤ / ٥١). الحبل: الرمل المستطيل. «القاموس: حبل». اللبب: ما استرق من الرمل. «القاموس: لبب».

(٣) السيال: نبات له شوك أبيض طويل. «القاموس: سيل». الجدد: الخطوط. «القاموس: جدد».

فقلتُ وعِفت: الحبلُ حبلُ وصالها ... تجذَّذ من سلماك وانصرم الحبْلُ[1]
وقلت: سَيال! قَدْ تسلَّت مودَّتي ... تصورُ غُصُوناً! صار جثمانها يعلو[2]
وعِفت الغريرَ الطِّفل طفلاً أتت به ... فقلت لأصحابي: مضيُّكم جَهل
رُجوعِي حَزْمٌ وامترائيَ ضِلّةٌ ... كذلك كان الزَّجْرُ يَصْدُقني قبْلُ

وقال ابن قيس الرُّقيَّات[3]: [من الخفيف]

بَشَّر الظَّبيُ والغُرابُ بُسعْدى ... مرحباً بالذي يقول الغرابُ

وقال آخر[4]: [من الطويل]

بَدا إذ قصَدْنا عَامِدينَ لأرضنا ... سنيحٌ فقال القَوْم: مرَّ سنيحُ
وهابَ رجالٌ أن يقولوا وجمْجموا ... فقلت لهم: جار إليَّ ربيحُ
عقابٌ بإعقاب من الدار بَعْدَ ما ... مضت نيَّةٌ لا تستْطاعُ طرُوحُ
وقالوا: دمٌ! دامت مودّة بيننا ... وعاد لنا غض الشباب صريحُ
وقال صحابي: هُدهُدٌ فوق بانة! ... هدًى وبيانٌ في الطريق يلوحُ
وقالوا: حمامات! فحُمَّ لقاؤُها ... وطلحٌ! فنيلت والمطيُّ طليحُ

قالوا: فهو إذا شاء جعل الحمام من الحِمام والحميم والحمى. وإن شاء قال: «وقالوا حماماتٌ فحمَّ لقاؤها» وإذا شاء اشتق البين من البان. وإذا شاءَ اشتقَّ منه البيان.

وقال آخر[5]: [من الطويل]

وقالوا: عقابٌ! قلتُ عُقْبى من الهوى ... دنتْ بعد هَجْرٍ منهمُ، ونزوحُ
وقالوا: حمامات! فحُمَّ لقاؤُها ... وعاد لنا حُلوُ الشّباب رَبيحُ
وقالوا: تغنَّى هدهدٌ فوقَ بانة! ... فقلت: هُدًى نغدو به ونَرُوحُ

ولو شاء الأعرابيّ أن يقول إذا رأى سوادَ الغراب: سواد سودد، وسواد الإنسان:

---

(١) عفت: من العيافة والزجر. تجذد: تقطع. «القاموس: جذذ». سلماك: أي حبيبته سلمى.
(٢) تصور: تقطع. «القاموس: صور».
(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ٨٤.
(٤) الأبيات لأبي حية النميري ١٢٩ - ١٣٠، والحماسة البصرية ٢/١٨٨ - ١٨٩، والأمالي ١/٢٤، وزهر الآداب ٥٢٣.
(٥) الأبيات لأبي حية النميري. انظر مصادرها في الحاشية السابقة.

شخصه، وسواد العراق: سعف نخله، والأسودان: الماء والتمر، وأشباه ذلك - لقاله.

قال: وهؤلاء بأعيانهم الذين يصرِّفون الزَّجر كيف شاؤوا، وإذا لم يجدوا من وقوع شيءٍ بعد الزَّجر بُدّاً - هم الذين إذا بدا لهم في ذلك بداء أنكروا الطِّيَرةَ والزَّجْر البتّة.

٨٦٤ - [تطير النابغة]

وقد زعم الأصمعي أنَّ النَّابغةَ خرج مع زَبَّان بن سيّار يريدان الغزو، فبينما هما يريدان الرحلة إذ نظر النَّابغةُ وإذا على ثوبه جرادةٌ تجرد ذاتُ ألوان، فتطيَّر وقال: غيري الذي خرج في هذا الوجه! فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً غانماً، قال[1]: [من الوافر]

تخبَّر طَيْرَهُ فيها زيادٌ ... لتخْبِرَه وما فيها خبيرُ
أقام كأنَّ لقْمان بن عاد ... أشار له بحكْمته مُشيرُ
تعلَّمْ أنَّه لا طير إلاَّ ... على متطيرٍ وهو الثُّبور
بلى شيءٌ يوافق بعض شيءٍ ... أحايينا وباطله كثيرُ

فزعم كما ترى زَبّان - وهو من دهاة العرب وساداتهم - أنّ الذي يجدونه إنَّما هو شيءٌ من طريق الاتفاق، وقال: [من الوافر]

تعلَّمْ أنَّه لا طيْرَ إلا ... على متطيِّر وهو الثُّبُور

وهذا لا ينقض الأول من قوله: أمّا واحدة فإنه إنْ جعل ذلك من طريق العقاب للمتطير لم ينقضْ قوله في الاتفاق. وإن ذهب إلى أنّ مثل ذلك قد يكون ولا يشعر به اللاّهي عن ذلك والذي لا يؤمن بالطيرة، فإنّ المتوقِّع فهو في بلاء مادام متوقعاً. وإن وافق بعضُ المكروه جعله من ذلك.

٨٦٥ - [تطير ابن الزبير]

ويقال إنَّ ابن الزبير لما خرج مع أهله من المدينة إلى مكّة، سمع بعض إخوته ينشد: [من الطويل]

وكلُّ بني أُمٍّ سَيُمْسُون ليلةً ... ولم يَبْقَ من أعْيانِهمْ غيْرُ واحدِ

---

(١) الأبيات لزبان بن سيّار في البيان ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥، والبيتان الثالث والرابع له في العمدة ٢/ ٢٦٢، وهما بلا نسبة في عيون الاخبار ١/ ١٤٦، واللسان والتاج (طير)، والثالث بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (علم)، والمخصص ٣/ ٢٩.

فقال لأخيه: ما دعاك إلى هذا؟ قال: أما إني ما أردته! قال: ذلك أشدُّ له.

وهذا منه إيمان شديد بالطيرة كما ترى.

٨٦٦ - [بعض من أنكر الطيرة]

وممن كان لا يرى الطيرة شيئاً المرقش. من بني سدوس، حيث قال[١]: [من مجزوء الكامل]

إني غدوت وكنت لا   أغدو على واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشائمُ كالأيا   من والأيامِنُ كالأشائمْ
فكذاك لا خير ولا   شرٌّ على أحد بدائمْ

قال سلامة بن جندل[٢]: [من البسيط]

ومن تعرَّض للغِرْبان يزْجُرها   على سلامتهِ لا بدَّ مشؤوم

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك، الحارث بن حلزة، وهو قوله – قال أبو عبيدة: أنشدنيها أبو عمرو، وليست إلا هذه الأبيات، وسائر القصيدة مصنوع مولد – وهو قوله[٣]: [من السريع]

يا أيها المزمِعُ ثم انثنى   لا يثْنكَ الحازِي ولا الشاحجُ
ولا قعيد أغضبٌ قرْنُهُ   هاجَ له من مَرْبَعٍ هائجُ
بينا الفتى يَسعى ويُسْعى له   تَاحَ له من أمْره خالِجُ
يتركُ ما رَقَّح من عيشه   يعيثُ فيه همَجٌ هامجُ
لا تكسع الشّول بأغبارها   إنك لا تَدْري من الناتـجُ

وقال الأصمعي: قال سَلْم بن قتيبة: أضللت ناقة لي عشراء، وأنا بالبدو، فخرجت في طلبها، فتلقاني رجلٌ بوجهه شينٌ من حَرْق النار، ثم تلقَّاني رَجُلٌ آخذ بخطام بعيره، وإذا هو ينشد[٤]: [من مجزوء الكامل]

فلئنْ بغيت لها البغا   ة فما البغاة بواجدينا

---

(١) تقدمت الأبيات مع تخريجها في الفقرة (٨٥٦) ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٢) ديوان سلامة بن جندل ٢٥٢، والبيت لعلقمة في ديوانه ٦٧، والمفضليات ٤٠١، وأمالي المرتضى ١/ ٥٧٨، والحماسة البصرية ٢/ ٣٨٥.

(٣) الأبيات في المفضليات ٤٣٠، والبيان والتبيين ٣/ ٣٠٣ – ٣٠٤، والبخلاء ١٦٤.

(٤) البيت للبيد في ديوانه ٣٢٣، وعيون الأخبار ١/ ١٤٥.

ثم من بعد هذا كلّه، سألت عنها بعض من لقيتُه. فقال لي: التمسْها عند تلك النار. فأتيتهم فإذا همّ قد نتجوها حُواراً[1]، وقد أوقدُوا لها ناراً فأخذْت بخطامها وانصرفتُ.

٨٦٧ - [عدم إيمان النَّظَّام بالطيرة]

وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّارٍ النَّظَّام قال: جعْت حتَّى أكلت الطين، وما صِرت إلى ذلك حتَّى قلبت قلبي أتذكَّر: هلْ بها رجلٌ أصيبُ عنده غداءً أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان علي جُبَّةٌ وقميصان، فنزعتُ القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدْتُ إلى فُرْضَة الأهواز، أريد قصبةَ الأهواز، وما أعرف بها أحداً. وما كان ذلك إلاّ شيئاً أخرجه الضَّجر وبعض التعرُّض. فوافيتُ الفرضةَ فلم أصبْ فيها سفينة، فتطيَّرتُ من ذلك. ثم إني رأيت سفينةً في صدرها خَرْقٌ وهشم فتطيرتُ من ذلك أيضًا، وإذا فيها حمولة، فقلت للملاح: تحملني؟ قال: نعم. قلت: ما اسمك؟ قال: «داوداذ» وهو بالفارسية الشّيطان، فتطيرت من ذلك. ثم ركبت معه، تصكّ الشمال وجْهي، وتُثير بالليل الصَّقيعَ على رأسي. فلما قربنا من الفرصة صحْت: يا حمّال! معي لحافٌ لي سَمل، ومضْربة خلق، وبعضُ ما لا بُدَّ لمثلي منه، فكان أول حمّال أجابني أعور فقلت لبقّار كان واقفاً: بكم تكري ثورك هذا إلى الخان؟ فلما أدناه من متاعي إذا الثَّور أعضبُ القرن، فازددتُ طيرة إلى طيرة، فقلت في نفسي: الرُّجوع أسلم لي. ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين فقلت: ومن لي بالموت؟! فلما صرتُ في الخان وأنا جالس فيه، ومتاعي بين يديَّ وأنا أقول: إن أنا خلفته في الخان وليس عنده من يحفظه فُشّ البابُ وسرق، وإن جلست أحفظُه لم يكن لمجيئي إلى الأهوازِ وَجْه. فبينا أنا جالس إذ سمعت قرْع الباب، قلت: من هذا عافاك الله تعالى؟ قال: رجلٌ يريدك، قلت: ومن أنا؟ قال: أنت إبراهيم. فقلت: ومن إبراهيم؟ قال: إبراهيم النَّظَّام. قلت: هذا خَنّاق، أو عدوٌّ، أو رسولُ سلطان! ثم إني تحاملتُ وفتحتُ البابَ، فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول:

نحن وإن كُنّا اختلفنا في بعض المقالة، فإنّا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوقِ الإخلاق والحرِّيَّة. وقد رأيتك حين مررت بي على حال كرهتها منك، وما عرفتك حتى خبّرني عنك بعضُ من كان معي وقال: ينبغي أن يكون قد نزعتْ بك حاجة.

---

(١) الحوار: ولد الناقة. «القاموس: حور»

فإن شئت فأقِمْ بمكانك شهراً أوشهرين، فعسى أن نبعث إليك ببعضٍ ما يكفيك زمنًا من دهرك. وإن اشتهيت الرُّجوع فهذه ثلاثون مثقالاً، فخذها وانصرف، وأنت أحقُّ من عَذَرَ.

قال: فهجم واللّه عليَّ أمرٌ كاد ينقضني. أما واحدَةً: فأنِّي لم أكنْ ملكتُ قبل ذلك ثلاثين ديناراً في جميع دهري. والثّانية: أنّه لم يطلع مقامي وغيبتي عن وطني، وعن أصحابي الذين هم على حال أشكل بي وأفهم عنِّي. والثّالثة: ما بيّن لي من أنّ الطيرة باطل؛ وذلك أنّه قد تتابع عليّ منها ضروبٌ، والواحدة منها كانت عنْدهُمْ مُعطبة.

قال: وعلى مثل ذلك الاشتقاقِ يعملُ الذين يعبِّرون الرُّؤيا.

٨٦٨ - [ضروب من العجب في غربان البصرة]

وبالبصرة من شأن الغرْبان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات[١]: لكان عندهم من أجودِ الطِّلّسم. وذلك أنّ الغربان تقطع إلينا في الخريف، فترى النَّخْلَ وبعضها مصرومة[٢]، وعلى كلِّ نخلة عدَدٌ كثيرٌ من الغربان، وليس منها شيءٌ يقرب نخلةً واحدةً من النّخل الذي لم يُصرم، ولو لم يبق عليها إلا عذقٌ واحد. وإنّما أوكار جميع الطير المصوِّت في أقلاب تلك النّخل، والغراب أطيرُ وأقوى منها ثم لا يجترئ أن يسقط على نخلة منها، بعد أن يكون قد بقي عليها عِذْق واحدٌ.

٨٦٩ - [منقار الغراب]

ومنقار الغراب معْوَل، وهو شديدُ النَّقْر. وإنّه ليصلُ إلى الكمأة المنْدفنة في الأرض بنقْرة واحدة حتى يشخصها. ولهو أبصرُ بمواضع الكمأة من أعرابيٍّ يطلبها في منبتِ الإجردِّ[٣] والقِصيص[٤]، في يومٍ له شمس حارَّة. وإن الأعرابيّ ليحتاجُ إلى أن

---

(١) الشامات: بلاد الشام.

(٢) صرم: قطع «القاموس: صرم».

(٣) الإجرد: نبت يدل على الكمأة، واحدته إجرِدَّة، وقال النضر: الإجرد: بقل، يقال: له حب كأنه الفلفل. «اللسان: جرد».

(٤) القصيص: جمع قصيصة، وهي شجرة تنبت في أصلها الكمأة، وقد يجعل غِسْلاً للرأس. «اللسان: قصص».

يرى ما فوقها من الأرض فيه بَعْضُ الانتفاخِ والانصدَاع، وما يحتاجُ الغرَاب إلى دليل.
وقال أبو دُؤادٍ الإياديّ[١]: [من البسيط]

تَنْفي الحصى صُعُدًا شرقِي منْسمها ... نَفْي الغراب بأعلى أنْفه الغَرَدا

ولو أنّ الله عزَّ وجلّ أذن للغراب أن يسقط على النخلة وعليها الثّمرة لذهبت، وفي ذلك الوقت لو أنّ إنساناً نقر العذْق نقرةً واحدَةً لانتثر عامَّة ما فيه، ولهلكتْ غلاّتُ الناس. ولكنّك ترى منها على كلّ نخلة مصرومةِ الغِربانَ الكثيرة، ولا ترى على التي تليها غراباً واحداً، حتى إذا صرموا ما عليها تسابقن إلى ما سقط من التمر في جوف الليف وأصول الكرَب[٢] لتستخرجه كما يستخرج المنْتَاخُ[٣] الشّوك.

٨٧٠ - [حوار في نفور الغربان من النخل]

فإن قال قائل: إنما أشباح تلك الأعذاق المدلاّة كالخِرَق السُّود التي تُفزع الطير أنْ يقع على البزُور، وكالقودام السُّودِ تغرزُ في أسنمةِ ذوات الدبَرِ من الإبل، لكيلا تسقط عليها الغربان. فكأنها إذا رأت سواد الأعذاق فزعت كما يفزع الطير من الخِرَق السُّود.

قال الآخر: قد نجدُ جميع الطير الذمي يفزع بالخرَق السُّود فلا يسقط على البزور، يقع كله على النخل وعليه الحمل، وهل لعامّة الطيَّر وكور إلا في أقلابِ النّخل ذوات الحمل.

قال الآخر: يشبه أن تكون الغربان قطعتْ إلينا من مواضع ليس فيها نَخْلٌ ولا أعذاق، وهذا الطير الذي يفزع بالخِرَقِ السُّود إنَّما خُلقتْ ونشأت في المواضع التي لم تزل ترى فيها النَّخيل والأعذاق. ولا نعرف لذلك علة سوى هذا.

قال الآخر: وكيف يكون الشأن كذلك ومن الغربان غربانٌ أوابدُ بالعِراق فلا تبرَحُ تعَشِّش في رؤوس النَّخل، وتبيض وتفرْخُ، إلاّ أنّها لا تقرب النَّخلة التي يكون عليها الحمل.

---

(١) ديوان أبي دؤاد ٣٠٨.
(٢) الكرب: أصول السعف الغلاظ العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف؛ واحدتها كربة. «اللسان: كرب».
(٣) المنتاخ: المنقاش، والنتخ: إخراج الشوك بالمنتاخ. «اللسان: نتخ».

والدّليل عَلَى أنها تعشش في نخل البصرة، وفي رؤوس أشجار البادية قولُ الأصمعيِّ: [من المتقارب]

ومن زردَك مثل مكن الضِّبابِ يُناوح عيدانَه السيمكان[١]

ومن شكر فيه عُشُّ الغرابِ ومن جيسرانٍ وبنْداذجان[٢]

وقال أبو محمد الفقعسيُّ[٣]، وهو يصف فحل هَجْمة[٤]: [من الرجز]

يتبعُها عَدَبَّسٌ جُرائضُ أكلفُ مربدٌّ هصورٌ هائضُ[٥]

بحيثُ يعتش الغرابُ البائضُ

٨٧١ - [التطير والتفاؤل من الطير والنبات]

والعامَّة تتطيَّرُ من الغراب إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنَّى تفاءلتْ به.

والبوم عند أهل الرَّيِّ وأهل مَرْوٍ يُتفاءل به، وأهل البصرة يتطيرون منه. والعربيُّ يتطيرُ من الخلاف، والفارسي يتفاءل إليه، لأنَّ اسمه بالفارسية «باذامك» أي يبقى، وبالعربية خلاف، والخلاف غيرُ الوفاق.

والريحان يُتفاءل به، لأنه مشتقٌّ من الرَّوح، ويتطيرُّ منه لأن طعمه مُرٌّ، وإن كان في العين والأنف مقبولاً.

وقال شاعرٌ من المحدثين[٦]: [من الكامل]

أهدى له أحبابُه أُتْرُجَّةً فبكى وأشفق مِنْ عيافة زاجرِ

---

(١) الزردك: الجزر، وهي كلمة فارسية. الضباب: جمع ضب. المَكْن: البيض.

(٢) شَكِرَ النخل: كثرت فراخه، وشكير النخيل: هو الخوص الذي حول السعف، «اللسان: شكر». الجيسران: جنس من أفخر النخل؛ معرب «عيون الأخبار ٣ / ٢٩٧».

(٣) الرجز لأبي محمد الفقعسي في اللسان (بيض، جرض)، والتاج (عشش، جرض)، وكتاب الجيم ١ / ٢٣٩، وبلا نسبة في اللسان (عشش)، والتاج (بيض)، والعين ١ / ٦٩، والمقاييس ٤ / ٤٦، والمخصص ٨ / ١٢٥، ١٦ / ١٢٧.

(٤) الهجمة: من الإبل أولها أربعون إلى ما زادت، أو ما بين السبعين إلى المائة؛ أو إلى دوينها «القاموس: هجم».

(٥) جمل عدبس: شديد؛ وثيق الخلق؛ عظيم. «اللسان :عدبس». الجرائض: الجمل الذي يحطم كل شيء بأنيابه. «اللسان: جرض». المربد: الذي لونه بين السواد والغبرة. «اللسان: ربد». الهصور: الذي يأخذ طرف العود ويثنيه؛ وقيل للأسد هصور، لأنه يكسر ويميل. «اللسان: هصر». هاض: كسر «اللسان: هيض».

(٦) البيتان للعباس بن الأحنف في زهر الآداب ١٠١٧، ونهاية الأرب ١١ / ٨٣.

متطيِّراً ممّا أتاه، فطعمه   لونان باطنه خلافُ الظّاهرِ

والفرس تحبُّ الآس[1] وتكره الورد، لأن الورد لا يدومُ، والآس دائم.

قال: وإذا صاح الغرابُ مرتين فهو شرٌّ، وإذا صاح ثلاث مرّاتٍ فهو خير، على قدر عدد الحروف.

٨٧٢ - [عداوة الحمار للغراب]

ويقال: إنّ بين الغراب والحمار عداوةً. كذا قال صاحب المنطق.

وأنشدني بعض النحويِّين[2]: [من الرجز]

عاديتنا لا زلْت في تبابِ   عداوة الحمار للغراب

٨٧٣ - [أمثال في الغراب]

ويقال: «أصحُّ من غراب». وأنشد ابن أبي كريمة لبعضهم، وهو يهجو صريع الغواني مسلم بن الوليد: [من الوافر]

فما ريحُ السّذاب أشدُّ بُغْضاً   إلى الحيّاتِ منك إلى الغواني[3]

وأنشد: [من الوافر]

وأصلب هامةً من ذي حُيُود   ودُون صداعه حُمّى الغراب[4]

وزعم لي داهيةٌ من دهاة العرب الحوّائين، أنّ الأفاعي وأجناس الأحناش، تأتي أصول الشِّيحِ والحرْمل، تستظل به، وتستريح إليه.

ويقال: «أغربُ من غراب». وأنشد قول مضرّس بن لقيط: [من الطويل]

كأني وأصحابي وكرِّي عليهمُ   على كلِّ حال من نشاط ومن سأمْ

غرابٌ من الغِربانِ أيّامَ قرَّةٍ   رأيْن لحاماً بالعراص على وضمْ[5]

٨٧٤ - [حديث الطيرة]

وقد اعترض قومٌ علينا في الحديث الذي جاء في تفرقة ما بين الطيرة والفأل،

---

(١) الآس: ضرب من الرياحين، وهو شجرة ورقها عطر «اللسان: أوس».

(٢) تقدم البيت في الفقرة (٢٨٥)، ص ٢٨١.

(٣) البيت بلا نسبة في ربيع الأبرار ١/ ٢٧٧.

(٤) الحيود: ما شخص من نواحي الرأس. «القاموس: حيد».

(٥) الوضم: ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب أو حصير، والجمع: أوضام. «القاموس: وضم».

وزعموا أنّه ليس لقوله: «كان يعجبه الفألُ الحسن ويكره الطيرة»[1] معنى. وقالوا: إن كان ليس لقول القائل: يا هالك، وأنت باغٍ، وجهٌ ولا تحقيق، فكذلك إذا قال: يا واجد، ليس له تحقيق، وليس قوله يا مضلٌّ ويا مهلك، أحقَّ بأن يكون لا يوجبُ ضلالاً ولا هلاكاً من قوله يا واجد، ويا ظافر، من ألاّ يكون يوجب ظفرًا ولاوجوداً. فإمّا أنّ يكونا جميعاً يوجبان، وإما أن يكونا جيمعاً لا يوجبان. قيل لهم: ليس التأويل ما إليه ذهبتم. لو أن النّاس أمّلوا فائدة اللّه عزَّ وجلَّ ورجوا عائدته، عند كلِّ سبب ضعيف وقويّ، لكانوا على خير. ولو غلطوا في جهة الرّجاء لكان لهم بنفس ذلك الرّجاء خير. ولو أنهم بدل ذلك قطعوا أملهم ورجاءهم من اللّه تعالى، لكان ذلك من الشرّ والفأل، أن يسمع كلمةً في نفسها مستحسنة. ثمَّ إن أحبَّ بعد ذلك أو عند ذلك أنّ يحدث طمعاً فيما عند اللّه تعالى،كان نفس الطمع خلاف اليأس. وإنما خبَّر أنّه كان يعجبه. وهذا إخبارٌ عن الفطرة كيف هي، وعن الطبيعة إلى أيِّ شيء تتقلب.

وقد قيل لبعض الفقهاء[2]: ما الفأل؟ قال: أن تسمع وأنت مُضلٌّ: يا واجد، وأنت خائف: يا سالم. ولم يقل إنَّ الفأل يوجب لنفسه السلامة. ولكنّهم يحبُّون له إخراج اليأس وسوء الظن وتوقُّع البلاء من قلبه على كل حال – وحال الطيرة حال من تلك الحالات – ويحبون أن يكون لله راجياً، وأن يكون حسن الظن. فإن ظنَّ أن ذلك المرجوَّ يُوافقُ بتلك الكلمة ففرح بذلك فلا بأس.

٨٧٥ – [تطير بعض البصريين]

وقال الأصمعيُّ[3]: هربَ بعض البصريين من بعض الطَّواعين، فركب ومضى بأهله نحو سَفَوان، فسمع غلاماً له أسود يحدوُ خلفه، وهو يقول: [من الرجز]

لن يُسْبَقَ اللّهُ على حِمارِ ولا على ذي مَيْعَةٍ مَطَّارِ[4]
أو يأتيَ الحينُ على مقدارِ قد يصبحُ اللّه أمامَ السّاري

فلما سمع ذلك رجع بهم.

---

(١) في النهاية ٣/٤٠٥ (أنه كان يتفاءل ولا يتطير).

(٢) هو ابن عون، كما في عيون الأخبار ١/١٤٦.

(٣) الخبر مع الشعر في زهر الآداب ١٠٦٦، والبيان ٣/٢٧٨، وعيون الأخبار ١/١٤٤، ومحاضرات الادباء ٢/٢٢٥. وأمالي المرتضى ٤/١١٢.

(٤) المطار: السريع الجري.

٨٧٦ - [معرفة في الغربان]

قال: والغربان تسقط في الصحارى تلتمس الطُّعم، ولا تزال كذلك، فإذا وجبت[١] الشمس نهضت إلى أوكارها معاً. و ما أقلّ ما تختلط البُقْع بالسّود المصمتة.

٨٧٧ - [الأنواع الغريبة من الغربان]

قال: ومنها أجناس كثيرة عظام كأمثال الحداء السُّود، ومنها صغارٌ. وفي مناقيرها اختلاف في الألوان والصور. ومنها غربان تحكي كلّ شيء سمعته، حتى إنها في ذلك أعجب من الببغاء. وما أكثر ما يتخلّف منها عندنا بالبصرة في الصيف، فإذا جاء القيظ قلَّتْ. وأكثر المتخلِّفات منها البقع. فإذا جاء الخريف رجعت إلى البساتين، لتنال مما يسقط من التمر في كرب النّخل وفي الأرض، ولا تقرب النَّخلة إذا كان عليها عذق واحد، وأكثر هذه الغربان سود، ولا تكاد ترى فيهنّ أبقع.

٨٧٨ - [قبح فرخ الغراب]

وقال الأصمعيّ: قال خلف: لم أرَ قطُّ أقبح من فرخ الغراب! رأيته مرَّة فإذا هو صغير الجسم، عظيم الرأس، عظيم المنقار، أجرد أسودُ الجلد، ساقط النفس، متفاوت الأعضاء.

٨٧٩ - [غربان البصرة]

قال: وبعضُها يقيم عندنا في القيظ. فأمَّا في الصَّيف فكثير. وأمَّا في الخريف فالدُّهم. وأكثر ما تراه في أعالي سطوحنا في القيظِ والصيف البُقع. وأكثر ما تراه في الخريف في النخل وفي الشتاء في البيوت السُّود.

وفي جبل تكريت[٢] في تلك الأَيَّام، غِرْبانٌ سودٌ كأمثال الحداَءِ السُّود عظماً.

٨٨٠ - [تسافد الغربان]

وناس يزعمون أنَّ تسافدَها عَلَى غير تسافد الطير، وأنّها تزاقُّ بالمناقير، وتلقح من هناك.

---

(١) وجبت الشمس: سقطت للمغيب. «اللسان: وجب».

(٢) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. معجم البلدان ٢ / ٣٨.

٨٨١ - [نوادر وأشعار]

نَذْكر شيئًا من نوادر وأشعار وشيئًا من أحاديث، من حارِّها وباردها.

قال ابنُ نُجيْمٍ: كان ابن ميّادة يستحسن هذا البيت لأَرطأةَ بن سُهيّة[١]: [من الطويل]

فقلت لها يا أمَّ بيضاءَ إنّه هُريقَ شبابي واستَشَنَّ أديمي

صار شنّاً.

وكان الأصمعي يستحسن قولَ الطرمّاح بن حكيم، في صفة الظَّليم[٢]: [من الكامل]

مجتاب شمْلة بُرجُدٍ لسَرَاتِه قَدْراً وأسلم ما سِوَاهُ البَرجُدُ[٣]

ويستحسن قوله في صفة الثَّور[٤]: [من الكامل]

يبدوُ وتَضمره البلاد كأنَّه سيفٌ علَى شرفٍ يُسلُّ ويُغمدُ

وكان أبو نُواسٍ يستحسنُ قولَ الطّرماح[٥]: [من الطويل]

إذا قُبِضَتْ نفسُ الطّرماح أخلَقَتْ عُرى المجدِ واسترخى عنان القصائد

وقال كثير[٦]: [من الطويل]

إذا المال يوجبْ عليكَ عطاؤُه صَنيعَة برٍّ أو خليلٍ توامقُه
مَنَعْتَ وبعضُ المنْع حزمٌ وقُوَّةٌ فلم يفتلتك المالَ إلاّ حقائقه

وقال سهل بن هارون؛ يمدح يحيى بن خالد[٧]: [من الطويل]

عدوُّ تِلادِ المال فيما ينوبه منوعٌ إذا ما منعُه كان أحزَمَا

---

(١) البيت لأرطأة بن سهية في العمدة ١ / ٢٧٤، ولأبي حية النميري في ديوانه ١٩٤، واللسان والتاج (شنن)، وللطرماح في ديوانه ٣١٩.

(٢) ديوان الطرماح ١٤٤(١١٤)، والمعاني الكبير ٣٢٨، وربيع الأبرار ٥ / ٤٥٣.

(٣) في ديوانه : (مجتاب: لابس. البرجد: كساء ضخم مخطط فيه سواد وبياض، شبّه ريش الظليم به).

(٤) ديوان الطرماح ١٤٦ (١١٧)، وأساس البلاغة (ضمر)، وديوان المعاني ٢ / ١٣١، والأغاني ٦ / ٩٥، والعمدة ١ / ٢٦٠.

(٥) ذيل ديوان الطرماح ٣١١، والبيان ١ / ٤٦.

(٦) ديوان كثير ٣٠٩، واللسان والتاج (فلذ)، وأمالي المرتضى ٢ / ٢٦١، وبلا نسبة في أساس البلاغة (فلذ)، وديوان الأدب ٢ / ٤٠٠.

(٧) البيت له في البيان ٣ / ٣٥٢، والبخلاء ١٤، وزهر الآداب ٦١٦، ولكثير في العقد الفريد ٦ / ١٩٢.

قال: وكان رِبعيُّ بن الجارود يستحسن قولَه: [من الوافر]

فخير منك من لا خير فيه وخير من زيارتك القُعودُ

وقال الأعشى[1]: [من البسيط]

قد نطعُن العَيْرَ في مكنونِ فائله وقد يَشيطُ على أرماحنا البَطلُ

لا تنتهون ولن يَنْهَى ذوي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُل

وقال العلاء بن الجارود[2]: [من مجزوء الرمل]

أظهروا للنَّاس نسكًا وعلى المنقوش دارُوا

وَلَه صامُوا وصَلَّوا ولَهُ حَجُّوا وزارُوا

وله قاموا وقالوا وله حلّوا وساروا

لو غدا فوق الثريَّا ولهم ريش لطاروا

وقال الآخر في مثل ذلك[3]: [من الكامل]

شمر ثيابَك واستعدَّ لقابلٍ واحككْ جبينك للقضاء بثُومِ

وامشِ الدَّبيبَ إذا مشَيتَ لحاجةٍ حتى تصيبَ وديعةً ليتيم

وقال أبو الحسن: كان يقال: «من رقّ وجهُه رقّ عِلمُه».

وقال عمر: «تفقَّهوا قبل أن تسودوا»[4].

وقال الأصمعي: «وُصلت بالعلم، وكسبت بالملح»[5].

ومن الأشعار الطيبة قول الشاعرِ في السمك والخادم[6]: [من الخفيف]

مقبل مدبر خفيف ذَفيف دسم الثَّوب قد شَوَى سمكاتِ

---

(١) ديوان الأعشى ١١٣، والأول في اللسان والتاج (شيط، فيل)، وأساس البلاغة (شيط)، وشرح المفصل ٥/٦٤، والثاني في اللسان (دنا)، والخزانة ٩/٤٥٣، ١٠/١٧٠، والمقاصد النحوية ٣/٢٩١، وعمدة الحفاظ وأساس البلاغة (فتل)، وبلا نسبة في الخصائص ٢/٣٨٦، والمقتضب ٤/١٤١.

(٢) الأبيات لمحمود الوراق في العقد الفريد ٢/١٤١، ٤/٣٣٧.

(٣) البيتان لمساور الوراق في الأغاني ١٨/١٥٠، والبيان ٣/١٠٥، والعقد ٣/٢١٦، ٦/٣٦٦.

(٤) ورد قول عمر بن الخطاب في النهاية ٢/٤١٨.

(٥) ورد قول الأصمعي في البيان ١/١٩٩، ٢٤٣.

(٦) البيتان بلا نسبة في اللسان والتاج (شبط).

من شبابيط لجةٍ ذات غَمْر حُدُب من شُحومها زَهِماتِ[1]

ففكّر فيهما فإنَهما سيمتعانك ساعةً.

وقال الشاعر[2]: [من الكامل]

إنْ أجزِ علقمَةَ بن سَيْفٍ سعيَهُ لا أجزِه ببلاءِ يومٍ واحدِ
لأحَبَّني حُبّ الصبيِّ ورَمَّني رَمَّ الهَدِيِّ إلى الغنيِّ الواجد
ولقَدْ شفيتُ غليلتي ونقَعتها من آل مسعودٍ بماءٍ بارد

وقال رجل من جرم[3]: [من الطويل]

نبئتُ أخوالي أرادوا عمومتي بشنعاء فيها ثاملُ السُّمِّ مُنقَعا
سأركبها فيكم وأُدعى مفرِّقًا وإن شئتم من بعدُ كنت مجمِّعا

٨٨٢ - [أحاديث مستحسنة]

وقال يونس بن حبيب: ما أكلت في شتاءٍ شيئًا قطُّ إلاّ وقد برد، ولا أكلت في صيفٍ شيئًا إلاّ وقدْ سخن.

وقال أبو عمرو المدينيّ: لو كانت البلايا بالحِصَص، ما نالني كما نالني: اختلفت الجاريةُ بالشاة إلى التَّيَّاس اختلافاً كثيراً، فرجعت الجارية حاملاً والشاة حائلاً.

وقال جعفر بن سعيد[4]: الخلافُ موكّل بكلِّ شيء يكون، حتى القَذاة في الماء في رأس الكوز، فإن أردتَ أن تشرب الماء جاءتْ إلى فيك، وإن أردتَ أن تصبَّ من رأسِ الكوزِ لتخرج رَجَعت.

٨٨٣ - [حديث أبي عمران وإسماعيل بن غزوان]

وقال إسماعيل بن غزْوان: بكَرْت اليوم إلى أبي عمران، فَلزمتُ الجادَّةَ،

---

(١) زهمات: سمينات «اللسان: زهم».

(٢) الأبيات للمرناق الطائي في معجم الشعراء ٤٤٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٩٠، وبلا نسبة في البيان ٣/٢٣٣، والبيت الثاني لفدكي بن أعبد في اللسان والتاج (لمم).

(٣) البيتان لقيس بن رفاعة في الوحشيات ٦٠، ومعجم الشعراء ١٩٧، والأشباه والنظائر للخالديين ١/١٢٣.

(٤) الخبر في ثمار القلوب ٤٩٤ (٨٨٠)، وربيع الأبرار ١/٢٣٠.

فاستقبلني واحدٌ فلَزِمَ الجادَّة التي أنا عليها، فلما غشيني انحرفتُ عنه يَمْنَةً فانحرَفَ معي، فعُدتُ إلى سَمْتي فَعاد، فَعُدتَ فعاد ثمَّ عُدت فَعاد. فلولا أنَّ صاحبَ برذون فرَّق بيننا لكان إلى الساعة يكدُّني. فَدَخلت على أبي عمران فَدعا بغَدَائه، فأهويتُ بلقْمتي إلى الصِّباغ فأهوى إليه بعضُهم، فنحَّيت يدي فنحَّى يده، ثمَّ عُدْتُ فَعاد، ثمَّ نحيتُ فنحَّى، فقلت لأبي عمران: ألا ترى ما نحن فيه؟ قال سأحدِّثك بأعجبَ من هذا، أنا منذُ أكثر منْ سنة أشفقُ أن يراني ابن أبي عون الخياط، فلم يتَّفق لي أن يراني مرَّةً واحدة، فلما أن كانَ أمسِ ذكرتُ لأبي الحارث الصُّنع في السلامة من رؤيته، فاستقبلني أمسِ أربَعَ مرَّات!

٨٨٤ - [نوادر من الكلام البليغ]

وذكر محمّد بن سلام، عن محمّد بن القاسم قال: قال جرير: أنّا لا أبتدي ولكنّي أعتدي[١].

وقال أبو عبيدة: قال الحجّاج: أنا حديدٌ حَقود حسود![٢]

قال: وقال قدَيد بن مَنيع، لجُديع بن عليٍّ: لَكَ حكم الصبيّ على أهله![٣]

وقال أبو إسحاق - وذكرَ إنساناً[٤] - : هو واللّه أترَفُ من رَبيب مَلِك[٥]، وأخرق من امرأة[٦]، وأظلم من صبي[٧].

وقال لي أبو عبيدة: ما ينبغي أن يكون كان في الدنيا مثل هذا النَّظام. قلت: وكيف؟ قال: مرَّ بي يومًا فقلت: واللّه لأمتحننَّه، ولأسمعَنَّ كلامه؛ فقلت له: ما عيبُ الزُّجاج - قال: يُسرع إليه الكسر، ولا يقبل الجبْر - من غير أن يكون فكّر أو ارتدع!

---

(١) البيان ٣/١٦٥.

(٢) البيان ٣/٢٥٥.

(٣) ثمار القلوب ٥٣٨ (٩٤٩).

(٤) انظر البيان ١/٢٤٧، ورسائل الجاحظ ١/١٩٦.

(٥) الدرة الفاخرة ٢/٤٤٥، والمثل برواية: (أترف من ربيب نعمة) في مجمع الأمثال ١/١٥٠، والدرة الفاخرة ١/٩٧، والمستقصى ١/٣٤، وجمهرة الأمثال ١/٢٨٦.

(٦) المثل برواية (أخرق من أمة)، وبرواية (أخرق من صبي) في المستقصى ١/٩٩، وجمهرة الأمثال ١/٤٣١.

(٧) مجمع الأمثال ١/٤٤٦، والمستقصى ١/٢٣٤، وجمهرة الأمثال ٢/٢٧، والدرة الفاخرة ١/٢٩٣.

قال: وقال جَبَّار بن سُلمى بن مالك - وذكر عامر بن الطفيل فقال[1]: كان لا يضلُّ حتّى يضلَّ النَّجم، ولا يَعطشُ حَتَّى يعْطَش البَعير ولا يهاب حتّى يهاب السيل، كان واللّه خيرَ ما يكون حينَ لاتظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً.

وقال ابن الأعرابيّ: قال أعرابي[2]: اللهمَّ لا تُنْزلني ماءَ سَوءٍ فأكونَ امرأ سَوء! يقول: يدعوني قلّتُه إلى منعه.

وقال محمَّد بن سلام، عن حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس: إنّ الأحنف كان يكرَه الصَّلاة في المقصورة، فقال له بعضُ القوم: يا أبا بحر، لم لا تصلي في المقصورة؟ قال: وأنت لم لاتصلِّي فيها؟ قال: لا أُترك .

وهذا الكلامُ يدل على ضروب من الخير كثيرة.

ودخل عبد اللّه بن الحسن على هشامٍ في ثياب سفَره، فقال: اذكر حوائجك. فقالَ عبد اللّه: ركابي مُناخةٌ، وعَلَيَّ ثيابُ سفري! فقال: إنَّك لا تجدني خيراً منِّي لك الساعة.

قال أبو عبيدة[3]: بلغ عمرَ بن عبد العزيز قدومُ عبد اللّه بن الحسن، فأرسل إليه: إني أخاف عليك طواعينَ الشام، وإنَّك لا تُغنِمَ أهلَكَ خيراً لهم منك فالحقْ بهم، فإنّ حوائجهم ستسبقك.

وكان ظاهر ما يكلِّمونَه به ويُرُونه إيَّاه جميلاً مذكوراً، وكان معناهم الكراهة لمقامه بالشام، وكانوا يرون جَمالَهُ، ويعرفون بيانَه وكمالهُ فكان ذلك العَملُ من أجودِ التدبير فيه عندَ نفسه.

٨٨٥ - [شعر في الزهد والحكمة]

وأنشد: [من الطويل]

تُليح من الموتِ الذي هو واقعٌ ... وللموتِ بابٌ أنتَ لابدَّ داخلُه[4]

وقال آخر: [من الوافر]

أكلكُمُ أقام على عجوزٍ ... عشنْزَرَةٍ مقلَّدةٍ سِخابا[5]

(١) البيان ١/٥٤، والأغاني ١٧/٦١.

(٢) البيان ١/٤٠٥، ٢/٢٨٣، ٣/٢٦٩.

(٣) ثمار القلوب ٤٣٥ (٧٨٩).

(٤) تليح: تخاف «القاموس: ليح». وانظر مجالس ثعلب ٣٤٩.

(٥) العشنزرة: الشديدة الخلق العظيمة من كل شيء. «القاموس: عشنزر». السِّخاب: القلادة من سُكٍّ وقرنفلٍ ومحلبٍ بلا جوهر. «القاموس: سخب».

وقال آخر[1]: [من البسيط]

الموتُ بابٌ وكل الناس داخله ... فليتَ شعريَ بعدَ الباب ما الدَّارُ

لو كنتُ أعلم منْ يدري فيخبرني ... أجنَّة الخُلْدِ مأوانا أم النَّارُ

وقال آخر[2]: [من الكامل]

اصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتجلّدِ ... واعلمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ

فإذا ذكرتَ مصيبة تشجى بها ... فاذكرْ مصابَكَ بالنبيِّ محمدِ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

والشمس تَنْعَى ساكِنَ الـ ... ـدُّنيا ويُسعدُها القَمَرْ

أين الذين عليهمُ ... رَكَمُ الجَنادِلِ والمَدَرْ

أفناهُمُ غَلَس العشَا ... ءِ يهزُّ أجنحَةَ السَّحَرْ

ما للقلوب رقيقةٌ ... وكأنَّ قلبَك من حجَرْ

ولقلَّما تبْقى وعو ... دُكَ كلَّ يومٍ يُهتَصرْ

وقال زهير[3]: [من الطويل]

ومن يُوفِ لا يُذممْ ومَنْ يُفْضِ قلبه ... إلى مطمئن البرِّ لا يتجمجمِ

ومن يغترب يحسَب عدوًّا صديقه ... ومن لا يكرِّم نفسَه لا يكرّمِ

ومهما تكن عندَ امرئ من خليقة ... وإنْ خالها تخْفى على النَّاسِ تُعلمِ

ومن لا يزلْ يسترحلُ النَّاسَ نفسَه ... ولا يُعفِها يومًا من الذّمِّ يندَمِ

وقال زهير أيضاً[4]: [من البسيط]

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طُعِنُوا ... ضارب حتَّى إذا ما ضارَبُوا اعتنقا

---

(١) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه ١٤١، والبيت الأول في الأغاني ٢١/٣٠٥ تمثل به الحسن البصري.

(٢) البيتان لأبي العتاهية في ديوانه ١١٠ - ١١١.

(٣) الأبيات من معلقته في ديوانه ٣٦ - ٣٧، والأول في اللسان (جمم، فضا)، والتاج (كشح، كنن)، والثاني في اللمع ٢١٥، وعجزه لأبي المثلم الهذلي في اللسان (كرم)، والثالث في الدرر ٤/١٨٤، ٥/٨٢، وشرح شواهد المغني ٣٨٦، ٧٣٨، ٧٤٣، وبلا نسبة في الهمع ٢/٣٥، ٥٨، ومغني اللبيب ٣٣٠، والرابع في اللسان والتاج (رحل)، والتهذيب ٥/٨.

(٤) ديوان زهير ٥١، وعيون الأخبار ١/١٩٠، واللسان (وصل)، والتهذيب ١/٢٥٣، والعين ٥/١٦٨، والمقاييس ٤/١٦٠، وبلا نسبة في اللسان (عنق).

وقال[1]: [من الوافر]

وجارُ البيت والرَّجلُ المنادي	أمام الحيِّ عَقدُهما سواءُ[2]
جوارٌ شاهدٌ عدْلٌ عليكم	وسيَّان الكَفالةُ والتَّلاءُ[3]
فإن الحقَّ مقْطعُهُ ثلاث:	يَمينٌ، أو نِفارٌ، أو جِلاءُ

فتفهَّمْ هذه الأقسام الثلاثة، كيف فصّلها هذا الأعرابيُّ!

وقال أيضاً[4]: [من الطويل]

فلو كان حمد يُخلدُ النَّاسَ لم تمُتْ	ولكنَّ حمْدَ المرءِ ليسَ بمُخْلد
ولكنَّ منهُ باقيات وراثَةً	فأوْرِثْ بنيك بعضَها وتزوَّدَ
تزوّدْ إلى يوم المماتِ فإنَّه	وإنْ كرهتْه النَّفسُ آخِرُ معْهَدِ

وقال الأسديُّ[5]: [من الطويل]

فإني أحبُّ الخُلدَ لو أستطيعُه	وكالخُلد عندي أن أموت ولم أُلَمْ

وقال الحادرة[6]: [من الطويل]

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكُم	بإحساننا إنَّ الثَّناءَ هو الخُلد

وقال الغنوي[7]: [من الكامل]

فإذا بلغتمْ أهلكم فتحدَّثوا	ومن الحديث مهالك وخُلودُ

---

(١) الأبيات من القصيدة الثالثة في ديوانه، وترتيب الأبيات فيه (٥٦، ٤٥، ٤٢) وهي في الصفحات ٧٠، ٦٧، ٦٦، والبيت الثاني في اللسان والتاج (تلا)، وأساس البلاغة (تلو)، والتهذيب ١٤/٣١٨، وبلا نسبة في المخصص ٦/٨٤، والثالث في اللسان والتاج (نفر، قطع، جلا)، والتهذيب ١/١٩٤، ١١/١٨٥، والمخصص ١٢/٢٠٠، ١٦/٢٩، والعين ١/١٣٨، ٨/٢٦٨، وعيون الأخبار ١/٦٧.

(٢) في ديوانه: (المنادي: المُجالس، من النادي والندي).

(٣) في ديوانه: (التلاء: الحوالة، قال أبو عبيدة: التلاء: أن يُكتب على سهم أو قِدْح فلان جار فلان، يقال أتْله سهماً. وقد أتليته ذمة أي: أعطيته ذمة.

(٤) البيتان (١ -٢) في ديوانه ١٧٠، والثالث فيه ١٦٤، والأول في شرح شواهد المغني ٢/٦٤٢، والدرر ٥/١٠١، وبلا نسبة في الهمع ٢/٦٦، ومغني اللبيب ١/٢٥٦، والثالث في اللسان (بضع)، والتاج (غفر، بضع)، وأساس البلاغة (غفر).

(٥) البيت في البيان ٣/٣٢٠، ورسائل الجاحظ ١/٣٠٤.

(٦) ديوان الحادرة ٧٣، والبيان ١/٣٢٠، والوساطة ٣٤٠، وبلا نسبة في رسائل الجاحظ ١/٣٠٤، وعيون الأخبار ١/١٦١.

(٧) البيت للغنوي في رسائل الجاحظ ١/٣٠٤، وعيون الأخبار ١/١٦١، ولأُبي بن هريم في ديوان الحادرة ٧٣.

وقال آخر[1]: [من الطويل]

فقتلاً بتقتيل وعقراً بعقْرِكم　　　جزاءَ العُطَاسِ لا يموت من اتَّأَرْ

وقال زهير[2]: [من المنسرح]

والإثـمُ من شرٍّ ما تصولِ به　　　والبرُّ كالغَيثِ نبتُه أَمِرُ[3]

أي كثير. ولوشاء أن يقول:

* والبرُّ كالماءِ نبتُه أمرُ *

استقام الشعر، ولكن كان لا يكون له معنى، وإنّما أراد أن النبات يكون على الغيث أجود. ثمَّ قال[4]: [من المنسرح]

قد أشهَدُ الشَّاربَ المعذَّلَ لا　　　معروفُهُ مُنكَر ولا حصرُ[5]

في فتيةٍ لَيِّني المآزِرِ لا　　　ينسَوْنَ أحلامَهم إذا سَكِروا[6]

يشوُون للضَّيف والعُفاةِ ويُو　　　فون قضاءً إذا هُمُ نَذَروا[7]

يمدحُ كما ترى أهلَ الجاهلّية بالوفاء بالنُّذور

أنشدني حبَّان بن عتْبان، عن أبي عبيدة، من الشَّوارد التي لا أربابَ لها، قوله[8]: [من مجزوء الكامل]

إن يغْدرُوا أو يفجُروا　　　أو يبخَلوا لم يحفلوا

يَغدُوا عليكَ مرجَّليـ　　　ـنَ كأنّهُمْ لم يفعَلُوا

كأبي بَراقِشَ كلَّ يو　　　مٍ لونَه يتخيَّلُ

---

(١) البيت للمهلهل في البيان ٣/٣٢٠، والتهذيب ١١/١٤٥، وبلا نسبة في المقاييس ٤/٧٩، ورسائل الجاحظ ١/٣٠٤.

(٢) ديوان زهير ٢٣٠، وأمالي القالي ١/١٠٣.

(٣) في ديوانه: (أمِرُ: كثير يزداد).

(٤) انظر الحاشية قبل السابقة.

(٥) في ديوانه: (المعذل: الملوَّم. حصر: ضيِّق).

(٦) في ديوانه: (ليِّني: أي أنهم ملوك، ليست ثيابهم بغلاظ جافية، لا ينسون أحلامهم: أراد أنهم حلماء لا يجهلون ولا يسفهون).

(٧) في ديوانه: (العفاة: الذين يأتونه ويطلبون ما عنده).

(٨) الأبيات لبعض بني أسد في الخزانة ٩/٩١، والكتاب ٣/٨٧، وشرح المفصل ١/٣٦، واللسان والتاج (برقش)، وبلا نسبة في رسائل الجاحظ ٢/٢٣٨، والبيان ٣/٣٣٣، وعيون الأخبار ٢/٢٩، وديوان المعاني ١/١٨٢، وذيل الأمالي ٨٣، وثمار القلوب (٣٩٤)، وشرح أبيات سيبويه ٢/٢٠٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٥١٥، والثالث في أساس البلاغة (برقش، خبل)، والتنبيه والإيضاح ٢/٣١٢.

وقال الصَّلَتَان السعديُّ، وهو غير الصَّلتان العبْديِّ[١]: [من المتقارب]

أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبيـ ـرَ كرُّ الغَداة ومرُّ العشي

إذا ليلةٌ هرَّمَتْ يومها أتى بعد ذلك يوم فَتي

نروح ونغدُو لحاجاتنا وحاجة من عاشَ لا تنقضي

تموت مع المرءِ حاجاتُه وتبقى له حاجةٌ ما بقي

إذا قلتَ يَوْمًا لدى مَعْشرٍ أرُوني السَّريَّ أرَوْكَ الغني

ألم تَرَ لقمان أوصى بنيـ ـه وأوصيت عمراً فنعم الوَصي

وسِرُّك ما كان عندَ امرئٍ وسِرُّ الثَّلاثةِ غير الخفي

أنشدني محمَّدُ بن زياد الأعرابيّ: [من الطويل]

ولا تُلبثُ الأطماعُ من ليس عنده من الدِّين شيءٌ أن تميل به النَّفسُ

ولايُلْبثُ الدَّحْس الإهاب تحوزه بجُمْعِك أن ينهاه عن غيرك الترس[٢]

وأنشدني أبو زيدٍ النحويُّ لبعض القدماء[٣]: [من الطويل]

وَمهْمَا يكنْ رَيْبُ المَنُون فإنَّني أرى قمر اللّيلِ المعذَّرَ كالفتَى

يعودُ ضئيلاً ثم يرجعُ دائبا ويعظم حتَّى قيل قد ثاب واستوى

كذلك زَيْدُ المرء ثمَّ انتقاصه وتكرارُه في إثره بَعْدَ ما مضى

وقال أبو النَّجم[٤]: [من الرجز]

مَيِّز عَنهُ قُنزَعًا من قنْزُعِ مَرُّ اللَّيالي أبْطئي وأسرعي

أفناهُ قِيلُ اللّهِ للشَّمْس اطلعي ثمّ إذا واراكِ أُفق فارجعي

وقال عمرو بن هند[٥]: [من الطويل]

وإن الذي ينهاكم عن طلابِها يُناغي نِسَاءَ الحيِّ في طرَّة البُرْدِ

---

(١) الأبيات للصلتان العبدي وليست للسعدي كما صرح الجاحظ وهي في معجم الشعراء ٤٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٢١٠، وعيون الأخبار ٣ / ١٣٢، والشعر والشعراء ٣١٦، والعقد الفريد ٢ / ١٢٣، ومعاهد التنصيص ١ / ٧٤، والسمط ٥٣٢، ٧٦٦.

(٢) الدحس: الفساد. «القاموس: دحس».

(٣) الأبيات لحسان السعدي في نوادر أبي زيد ١١١ - ١١٢، ولحنظلة بن أبي عفراء الطائي في معجم البلدان ٢ / ٥٠٦ (دير حنظلة)، ولبعض شعراء طيء في أمالي المرتضى ٢ / ٧٦.

(٤) ديوان أبي النجم ١٣٣، واللسان (قرن، قنزع)، وبلا نسبة في التهذيب ٩ / ٩٤، والمخصص ١ / ٧١، والجمهرة ٨١٥، ١١٥٤، وخلق الإنسان ٧٥.

(٥) البيتان لعمرو بن عبد هند في البيان ٣ / ٣٤، ولعبد هند بن زيد التغلبي في الوحشيات ١٩.

يعَلَّلُ والأيَّام تنْقص عمْرَه كما تنقُص النِّيرَانُ من طَرَفِ الزّندِ

وقال ابن ميَّادة[١]: [من البسيط]

هل ينطقُ الرَّبع بالعَلياء غيّره سافي الرِّياحِ ومستنّ له طُنُب[٢]

وقال أبو العتاهية[٣]: [من الرجز]

أسرَع في نقص امرئ تمامُه

وقال[٤]: [من الخفيف]

ولمرِّ الفناءِ في كلِّ شيءٍ حركاتٌ كأنَّهنّ سكُون

وقال ابن ميّادة[٥]: [من الطويل]

أشاقَك بالقَنعِ الغَداةَ رُسومُ دَوارِسَ أدنى عهدهنَّ قديمُ
يلحْنَ وقد جَرَّمْنَ عشرين حِجَّةً كما لاح في ظهر البَنَان وشُوم

وقال آخر[٦]: [من البسيط]

في مرفَقيها إذا ما عُونقتْ جَمَمٌ علَى الضَّجيع وفي أنيابها شنَب[٧]

وقال ابن ميَّادة في جعفر ومحمد ابني سليمانَ، وهو يعني أمير المؤمنين المنصور[٨]: [من الطويل]

وفى لكما يا ابْني سليمان قاسم بجَدِّ النُّهى إذ يقسم الخير قاسمُهْ
فبيتكُما بَيتٌ رفيع بناؤه متى يَلق شيئًا مُحْدَثًا فَهو هادَمُهْ
لكُمْ كبْشِ صِدق شذَّبَ الشَّولَ عنكم وكسَّر قَرْني كلِّ كبشٍ يصادمُهْ[٩]

---

(١) ديوان ابن ميادة ٥٧، والأغاني ٢ / ٣٠٤.

(٢) في ديوانه: (استن المطر: أي انصب. الطنب: هو في الأصل حبل الخباء والسرادق، وهو هنا كناية عن غزارة المطر).

(٣) ديوان أبي العتاهية ٦٣٦، وعيون الأخبار ٢ / ٣٢٢، والسمط ١٠٤، والرسالة الموضحة ١٠٩، والبيان ١ / ١٥٤، والأشباه والنظائر للخالديين ١ / ٣٩، والعقد الفريد ٣ / ٥٨.

(٤) ديوان أبي العتاهية ٣٧٤.

(٥) البيت لابن ميادة أو لمزاحم العقيلي في ديوان ابن ميادة ٢٥١، ولمزاحم في ديوانه ٢٠، ومعجم البلدان ٤ / ٤٠٧ (قنع)، والتاج (قنع).

(٦) البيت لابن ميادة في ديوانه ٥٨،والأغاني ٢ / ٣٠٤.

(٧) في ديوانه: (الجمم: كثرة اللحم. الشنب: رقة وعذوبة في الأسنان).

(٨) ديوان ابن ميادة ٢٢٤ – ٢٢٥.

(٩) في ديوانه: (شذب: طرد. الشول من الإبل: التي نقصت ألبانها).

بـــاب
في من يهجى ويذكر بالشؤم

قال دِعبل بن عليّ، في صالح الأفقم - وكان لا يصحبُ رجلاً إلاّ ماتَ أو قُتِل، أو سقطَتْ منزلته[1] - : [من الكامل]

قل للأمينِ أمينِ آل محمَّدٍ قولَ امرئٍ شفقٍ عليه محامِ
إيَّاك أن تُغترَّ عنك صنيعةً في صالحِ بن عطيَّة الحجّامِ
ليس الصَّنائعُ عندَه بصنائعٍ لكنهنَّ طوائلُ الإسلام
اضربْ به نحرَ العدوِّ فإنَّه جيشٌ من الطاعون والبِرسامِ

وقال محمد بن عبد اللّه في محمد بن عائشة: [من مجزوء الرمل]

للهلاليّ قتيلٌ أبداً في كُلِّ عامِ
قَتَلَ الفضلَ بن سهلٍ وعليَّ بنَ هشامِ
وعجيفاً آخر القو مِ بأكناف الشآمِ
وغدا يطلب من يقـ ـتَل بالسَّيف الحُسامِ
فأعَاذَ اللّهُ منه أحمداً خيرَ الأنام

يعني أحمد بن أبي دؤاد.

وقال عيسى بن زينب في الصخري، وكان مشؤوماً: [من السريع]

يا قوم مَنْ كان له والدٌ يأكلُ ما جمَّعَ مِنْ وَفْرِ
فإنَّ عندي لابنه حيلة يموتُ إن أُصْحِبَهُ الصخري
كأنما في كفّهِ مِبردٌ يبرُد ما طال من العُمْرْ

٨٨٧ - [شعر في مديح وهجاء]

وقال الأعشى[2]: [من المتقارب]

فما إنْ على قلبه غَمرةٌ وما إن بعظمٍ لهُ من وَهَنْ

---

(١) الأبيات في الأغاني ٢٠/١٥٧، والأبيات قالها في صالح بن عطية الأضجم الذي كان من أقبح الناس وجهاً.

(٢) ديوان الأعشى ٦٩، وبلا نسبة في اللسان والتاج (وهن)، والعين ٤/٩٢، والتهذيب ٦/٤٤٤.

وقال الكميت[1]: [من المنسرح]

ولم يقلْ عِنْدَ زَلَّةٍ لهمُ   كُرُّوا المعاذيرَ إنَّما حَسبُوا

وقال آخر[2]: [من الطويل]

فلا تعذراني في الإساءةِ إنَّه   شِرارُ الرِّجال من يسيءُ فيُعذرُ

وقال العتَّابي[3]: [من الكامل]

رحل الرَّجاءُ إليك مغتربا   حُشدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ردَّت عليك ندامتي أمَلي   وَثنى إليك عنانَه شُكري
وجعلت عَتْبكَ عتب موعظةٍ   ورجاء عفوك مُنْتَهَى عُذْري

وقال أعشى بكر[4]: [من المنسرح]

قلَّدتك الشِّعر يا سلامة ذا   الإفضالِ والشَّيءُ حيثُ ما جُعلا
والشِّعر يَسْتَنْزِلُ الكريمَ كما اسْـ   ـتَنْزَلَ رَعْدُ السَّحابة السَّبَلا
لو كنت ماءً عِداًّ جممتَ إذا   ما ورَد القومَ لم تكنْ وشلا[5]
أنجَبَ آباؤه الكرامُ به   إذْ نجلاهُ فَنعْمَ ما نَجلا
استأثَر اللّهُ بالبَقاء وبالحَمْـ   ـدِ وولَّى المَلامَةَ الرَّجلا

وقال الكذَّاب الحِرْمازيُّ لقومه، أو لغيرهم[6]: [من الرجز]

لو كنتمُ شاءً لكنتم نقدا   أو كنتمُ ماءً لكنتم ثَمدا[7]
أو كنتُم قولاً لكنْتُم فَندا[8]

---

(١) البيت في شرح القصائد الهاشميات ٥٧ (ضمن كتاب الروضة المختارة)، والبيان ١/١٩٨.
(٢) البيت في أدب الدنيا والدين للماوردي ٣١، وتقدم في الفقرة ٦٠٧.
(٣) ديوان العتابي ٧٢، وعيون الأخبار ١/١٠٠، وطبقات ابن المعتز ٢٦٣.
(٤) ديوان الأعشى ٢٨٥.
(٥) الوشل: القليل. «القاموس: وشل».
(٦) الرجز للُعين المنقري في الأزمنة والأمكنة ٢/٢٧٧، وبلا نسبة في التاج (غرد، قرد)، والأضداد ٤٠٥، والأشباه والنظائر للخالديين ٢/١٦٤، ومجمع الأمثال ١/٢٨٤، والمستقصى ١/١٣١، والفاخر ٣٠، والدرة الفاخرة ٢٠٥، وجمهرة الأمثال ١/٤٦٩، وثمار القلوب (٥٦٨).
(٧) النقد: جنس من الغنم قبيح الشكل. «القاموس: نقد». ثمد: ماء قليل. «القاموس: ثمد».
(٨) الفند: الكذب. «القاموس: فند».

وقال الأعشى في الثياب[1]: [من الخفيف]

فعلى مثلها أزورُ بني قيـ ... س إذا شطَّ بالحبيبِ الفِراقُ
المهينين ما لهم في زمانِ السَّـ ... ـوءِ حتّى إذا أفاق أفاقوا
وإذا ذو الفضول ضنَّ على المو ... لى وصارتْ لخيمها الأخلاقُ[2]
ومشى القومُ بالعمادِ إلى الرَّزْ ... حى وأعيا المُسيم أيْنُ المساق[3]
أخذوا فضْلهُمْ هناكَ وقد تجـ ... ـري على عِرقْها الكرامُ العتاقُ
وإذا الغيث صوبُهُ وضع القدْ ... حَ وجُنَّ التِّلاعُ والآفاقُ
لم يزدْهُمْ سفاهةً شُربُ الخمْـ ... ـرِ ولا اللَّهْوُ فيهمُ والسِّباقَ
واضعاً في سراةِ نَجْرانَ رَحْلي ... ناعماً غير أنني مُشتاقُ
في مطايَا أربابُهُنَّ عجَالٌ ... عن ثَواءٍ وهمُّهُنَّ العراقُ
دَرْمَكٌ غُدوةً لنا ونَشيلٌ ... وصَبُوحٌ مباكرٌ واغتباق[4]
وندامى بيضُ الوجوهِ كأنَّ الشَّـ ... ـربَ منْهُمْ مصاعبٌ أفناقُ[5]
فيهمُ الخِصْبُ والسَّماحةُ والنجْـ ... ـدةُ جَمْعاً والخاطبُ المسْلاق[6]
وأبيُّون لا يُسامُون ضيْماً ... ومكيثُون والحلومُ وثاق[7]
وترى مجلساً يغصُّ به المحـ ... ـرابُ بالقَوْمِ والثِّيابُ رقاقُ

وقال أيضاً[8] في الثّياب: [من المتقارب]

أزور يزيدَ وعبدَ المسيحِ ... وقيساً هُمُ خيرُ أربابها
وكعبة نَجْران حتم عليـ ... ـك حتّى تُناخي بأبوابها
إذا الحِبراتُ تلوّتْ بهِم ... وجرُّوا أسافلَ هُدَّابها

---

(١) ديوان الأعشى ٢٦٣ – ٢٦٥.
(٢) الخيم: السجية «القاموس: خيم».
(٣) العماد: الأخبية. الرزحى: النوق الهزال. المسيم: راعي الإبل.
(٤) الدرمك: الذي يدرمك حتى يكون دقاقاً من كل شيء الدقيق والكحل وغيرهما. «اللسان: درمك». النشيل: ما نشل من لحم القدر بمائه. «اللسان: نشل».
(٥) الأفناق: جمع فنيق، وهو الفحل من الإبل. «اللسان: فنق».
(٦) الخطيب المسلاق: البليغ. «القاموس: سلق».
(٧) المكيث: الرزين. «القاموس: مكث». الحلوم: العقول.
(٨) ديوان الأعشى ٢٢٣، والأول والثاني في التاج (نجر).

وفي الثّياب يقول الآخر[(١)]: [من الطويل]

أُسَيْلم ذاكمُ لا خفا بمكانه ... لعينٍ تُرَجِّي أو لأذن تَسَمَّعُ

من النَّفرِ البيض الذين إذا انْتَمَوْا ... وهابَ الرِّجال حَلقةَ البابِ قَعْقعوا

جلا الأذفر الأحوى من الْمسك فرقه ... وطيب الدِّهان رأسه فهو أنْزَع

إذا النَّفر السُّود اليمانون حاولوا ... له حوك برديْه أجادُوا وأوسعوا

وقال كثيّر[(٢)]: [من الطويل]

يجررٍّ سِرْبالاً عليه كأنّه ... سبيٌّ هلالٍ لم تفتق شرانقه

وقال الجعدي[(٣)]: [من الوافر]

أتاني نصرهمْ وَهمُ بَعيدٌ ... بِلادُهمُ بأرضِ الخيْزُرانِ

يريد أرض الخصب والأغصانِ اللَّيِّنةِ.

وقال الشاعر[(٤)]: [من البسيط]

في كفِّهِ خَيْزُرانٌ ريحها عبقٌ ... بكفِّ أرْوَع في عِرنينه شمم

لأن الملك لا يختصرُ إلاّ بعُود لدْنٍ ناعمٍ. وقال آخر[(٥)]: [من الطويل]

تجاوبُها أخرى على خيْزُرانةٍ ... يكاد يدنيها من الأرض لينها

وقال آخر[(٦)]: [من الطويل]

نَبتُّم نباتَ الخيْزرانيِّ في الثرى ... حديثاً، متى ما يأتِكُ الخَيْرُ يَنْفعِ

وقال المسَيَّبُ بن علس: [من الوافر]

قِصار الهمِّ إلاّ في صديق ... كأنَّ وِطابَهُمْ مُوشى الضِّبابِ[(٧)]

---

(١) الأبيات لأبي الربيس في الخزانة ٦/ ٧٨ - ٨٠، ٨٣ - ٨٩، وبلا نسبة في البيان ١/ ٣٩٦، ٣/ ٣٠٥، ورسائل الجاحظ ١/ ٢٢١، والبرصان ٣٢٤، والبخلاء ٢٣٢، والعقد الفريد ٥/ ٣٤٣، والكامل ١/ ١٠٥ (طبعة المعارف)، الخزانة ٦/ ١٥٦.

(٢) البيت لكثير في ديوانه ٣٠٨، واللسان وأساس البلاغة (سبي)، والمعاني الكبير ٦٧٣، والتاج (هلل)، وللراعي النميري في ملحق ديوانه ٣٠٨، والتاج (سبي).

(٣) ديوان النابغة الجعدي ١٦٥، واللسان والتاج (خزر).

(٤) تقدم البيت وتخريجه في الفقرة ٦٢٤.

(٥) البيت بلا نسبة في البيان ٣/ ٦٢.

(٦) البيت للنجاشي الحارثي في ديوانه ١١٠، والخزانة ١١/ ٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٧، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٤٤، وبلا نسبة في الكتاب ٣/ ٥١٥، والهمع ٢/ ٧٨.

(٧) الوطاب: سقاء اللبن. «القاموس: وطب». وشى الشيءَ: استخرجه برفق «القاموس: وشي». الضباب: جمع ضب.

٨٨٨ - [عين الرضا وعين السخط]

وقال المسيب بن علس[١]: [من الكامل]

تامتْ فؤادك إذ عرضْتَ لها   حَسَنٌ برأي العين ما تمِقُ[٢]

وقال ابن أبي ربيعة[٣]: [من الرمل]

حسنٌ في كلِّ عينٍ من تودْ

وقال عبد اللّه بن معاوية[٤]: [من الطويل]

وعين الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ   ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدي المساويا

وقال رَوْح أبو همَّام[٥]: [من الطويل]

وعينُ السُّخْطِ تبصِرُ كلَّ عيبِ   وعينُ أخي الرِّضا عن ذاكَ تَعْمى

٨٨٩ - [شعر وخبر]

وقال الفرزدق[٦]: [من الطويل]

ألا خَبِّروني أيُّها النّاسُ إنَّما   سألتُ ومنْ يَسْألْ عن العلمِ يَعلمِ

سؤال امرئٍ لم يُغْفِل العلم صدرُه   وما السائل الواعي الأحاديث كالعمي

وقيل لِدَغْفَلٍ: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: لسانٌ سَؤُولٌ، وقلبٌ عقول[٧]

وقال النابغة[٨]: [من الطويل]

فآبَ مُضلِوهُ بعين جليَّةٍ   وغُودِرَ بالجولْانِ حَزْمٌ ونائلُ[٩]

---

(١) البيت في الشعر والشعراء ٨٤.

(٢) تامت فؤادك: استعبدته. «القاموس: تيم». تمق: تحب. «القاموس: ومق».

(٣) صدر البيت (فتضاحكن وقد قلن لها)، وهو في ديوانه ٣٢١.

(٤) ديوان عبد الله بن معاوية ٩٠، وعيون الأخبار ٣/١١، ٧٦، والحماسة البصرية ٢/٥٥، والحماسة المغربية ١٢٤١، والأغاني ١٢/٢١٤، ٢٣٣، وثمار القلوب ٣٢٧ (٤٩٩).

(٥) البيت في تزيين الأسواق ٣٠.

(٦) ديوان الفرزدق ٧٥٩.

(٧) القول لدغفل في عيون الأخبار ٢/١١٨، وله أو لعبد اللّه بن عباس في البيان ١/٨٤ - ٨٥.

(٨) ديوان النابغة الذبياني ١٢١، واللسان والتاج (ضلل، جلا)، والتهذيب ١١/١٨٧، ٤٦٥، والجمهرة ١٠٤٤، وبلا نسبة في الجمهرة ١٠٧٧، والمقاييس ١/٤٩٦، ٣/٣٥٦، والمجمل ٣/٢٧٧.

(٩) في ديوانه: (بعين جلية: أي بخبر صادق أنه قد مات. وغودر بالجولان: أي دُفن وترك. والجولان: موضع بالشام. وقوله: «حزم ونائل» أي رجل ذو حزم. والنائل: العطاء).

مُضِلوه: دافنوه، على حدٍّ قوله تعالى: ﴿أإذا ضللنا في الأرضِ﴾[1].

وقال المخبّل[2]: [من الطويل]

أضلَّتْ بنو قيس بنِ سَعْدٍ عميدها وفارسها في الدَّهْرِ قيس بن عاصمِ

قوال زهيرٌ – أو غيره – في سنان بن أبي حارثة[3]: [من الكامل]

إن الرَّزيَّة لا رزِيَّةَ مثلها ما تبتغي غطفانُ يومَ أضَلَّتِ

ولذلك زعم بعضُ النَّاس أنّ سِنان بن أبي حارثة خَرِفَ فذهب على وجهه، فلم يُوجد[4].

٩٠٠ – [من هام على وجهه فلم يوجد]

ويزعمون أنَّ ثلاثة نفرٍ هامُوا على وجُوههم فلم يُوجَدوا: طالب بن أبي طالب، وسنان بن أبي حارثة، ومرداس بن أبي عامر.

وقال جرير[5]: [من الطويل]

وإني لأستحْيي أخي أنْ أرى له عليَّ من الفضْلِ الذي لا يرى ليا

وقال امرؤ القيس[6]: [من الطويل]

وهل يَعِمَنْ إلاَّ خليٌّ منَعَّمٌ قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ[7]

وقال الأصمعي: هو كقولهم: «استراحَ منْ لا عَقْل له!»

وقال ابن أبي ربيعة[8]: [من الطويل]

وأعجبها منْ عيشها ظلُّ غرفةٍ وريَّانُ مُلْتفُّ الحدائق أخْضَرُ

ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يَهُمُّها فليستْ لشيءٍ آخرَ اللَّيلِ تسهرُ

---

(١) ١٠/ السجدة: ٣٢.

(٢) ديوان المخبل السعدي ٣١٨، واللسان والتاج وأساس البلاغة (ضلل).

(٣) ديوان زهير ٢٤٨، والأغاني ١٠/ ٢٩٩، وصدر البيت تناوله أكثر من شاعر منهم لبيد في ديوانه ١٥٥، وعجزه: (فقدان كل أخ كضوء الكوكب)، ومنهم الفرزدق في ديوانه ١/ ١٦١؛ وعجزه: (فقدان مثل محمد ومحمد)،وهو بلا نسبة في الأزهية ٢٨٦؛ وعجزه: (أخواي إذْ قتلا بيوم واحد).

(٤) الأغاني ١٠/ ٢٩٩، وفيه عدة روايات، وانظر رسائل الجاحظ ٢/ ٣٧٥.

(٥) البيت لجرير في عيون الأخبار ٣/ ١٨، وبهجة المجالس ٧٠٩، والسمط ٢٨٩، والموشح ٣٠٨، ولسيار ابن هبيرة في ذيل الأمالي ٧٤، ولعبد الله بن معاوية في ديوانه ٨٧، وبلا نسبة في اللسان (حيا).

(٦) ديوان امرئ القيس ٢٧، ورواية صدره: (وهل يعمن إلا سعيد ومخلّد).

(٧) في ديوانه: (الأوجال: جمع وجل؛ وهو الفزع).

(٨) ديوان عمر ٩٥، والبيان ٣/ ٣١٨.

بـــاب

في مديح الصَّالحين والفُقهاء

٩٠١ - [شعر في مديح العلماء ورثائهم]

قال ابنُ الخيَّاط[1]، يمدح مالك بن أنس: [من الكامل]

يأبى الجوابَ فما يُراجَعُ هَيْبَةً ... والسائلونَ نَواكِسُ الأذْقان

هديُ التقيِّ وعز سلطان التُّقى ... فهو المطاعُ وليس ذا سُلْطانِ

وقال ابن الخياط في بعضهم: [من الطويل]

فتى لم يجالس مالكاً منْذ أنْ نشا ... ولم يقتبِسْ من علمه فهو جاهلُ

وقال آخر[2]: [من البسيط]

فأنت باللَّيل ذئبٌ لا حرِيمَ له ... وبالنَّهارِ على سمْتِ ابن سيرين

وقال الخليل بن أحمد وذكروا عنده الحظَّ والجِدَّ، فقال: أمَّا الجِدُّ فلا أقول فيه شيئاً، وأمّا الحظّ فأخزى اللّهُ الحظَّ، فإنه يبلِّد الطالبَ إذا اتّكل عليه ويبعد المطلوب إليه من مذمَّةِ الطّالب.

وقال ابن شبرمة: [من البسيط]

لو شئت كنت ككرْز في تعبُّده ... أو كابنِ طارق حولَ البيت والحرم

قد حالَ دونَ لذيذِ العيش خوفهما ... وسارعا في طلاب العزِّ والكرمِ

وقال آخر[3] يرثي الأصمعيّ: [من البسيط]

لا دَرَّ دَرُّ خطوبِ الدهرِ إذْ فجعتْ ... بالأصمعيِّ لقدْ أبقتْ لنا أسفا

---

(١) البيتان لابن الخياط في الكامل ١/٤٠٨، وله أو لعبد الله بن المبارك في زهر الآداب ١١٥، ولعبد الله بن المبارك في العقد الفريد ١/٢٦٨، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/٢٩٤.

(٢) البيت بلا نسبة في البيان ٣/١٧٣، وثمار القلوب ٧٠ (١٧٧).

(٣) الأبيات لأبي العالية الشامي في تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٩ - ٤٢٠، ضمن أخبار الأصمعي.

عش ما بدا لك في الدُّنيا فلست ترى   في الدَّهر منهُ ولا من عِلْمِهِ خلفا

وقال الحسنُ بن هانئ[١]، في مرثية خلفٍ الأحمر: [من الرجز]

لو كان حيٌّ وائلاً من التَّلف   لوألتْ شغْواءُ في أعلى الشَّعفْ[٢]
أمٌّ فُريخٍ أحرزَتْه في لَجف   مُزَغَّب الألغاد لم يأْكل بكفْ[٣]
هاتيك أم عصماءُ في أعلى الشّرف   تظلُّ في الطُّبَّاق والنَّزْعِ الألفْ[٤]
أودى جماعُ العلم مذ أودى خلف   قليْذمٌ من العيالم الخسفْ[٥]

وقال يرثيه في كلمةٍ له[٦]: [من المنسرح]

بتُّ أعزّي الفؤاد عن خلفِ   وبات دمْعي إلاّ يَفض يَكف[٧]
أنسى الرَّزايا مَيتٌ فجعتُ به   أضحى رهيناً للتُّربَ في جَدَفَ[٨]
كان يسنَّى برفْقه غلقُ الـ   أفهام في لا خَرق ولا عُنَف
يجوبُ عنك التي عشيتَ لها   حيْران، حتّى يشفيكَ في لُطفِ
لا يهمُ الحاء في القراءة بالخا   ء ولا لامها مع الألف
ولا مضلاًّ سُبْلَ الكلامِ ولا   يكون إسناده عن الصُّحُفِ
وكان ممن مضى لنا خلفاً   فليس إذْ مات عنهُ مِن خلفِ

وقال آخر[٩] في ابن شبرُمة: [من الرجز]

إذا سألت الناس أين المكرمهْ   والعزُّ والجُرثومةُ المقدَّمَهْ
وأين فاروقُ الأمورِ المحكمه   تتابع النَّاسُ على ابن شُبرُمَهْ

---

(١) ديوان أبي نواس ٥٧٧ .

(٢) في ديوانه : (وائلاً : ناجياً . وألت : نجت . الشغواء : العقاب . الشعف : رأس الجبل) .

(٣) في ديوانه : (اللجف : محبس السيل، أو كل ما أشرف على الغار من صخرة ونحوها. المزغب : ذو الزغب؛ وهو الريش الدقيق. الألغاد : جمع لغد؛ وهو لحم الحلق) .

(٤) العصماء : من الظباء والوعول ما كان في ذراعيها أو أحدهما بياض؛ وسائرهما متخلف. الشرف : المكان المرتفع.

(٥) القليذم : البئر الغزيرة. العيالم : جمع عيلم؛ وهو البحر أو البئر الكثيرة الماء. الخسف : جمع خسيفة؛ وهي البئر حفرت في حجارة فنبعت بماء كثير لا ينقطع) .

(٦) ديوان أبي نواس ٥٧٥ – ٥٧٦ .

(٧) في ديوانه : (يكف : يسيل) .

(٨) (الجدف : القبر) .

(٩) الرجز ليحيى بن نوفل في البيان ١ / ٣٣٧ ، ولرؤبة في أمالي الزجاجي ١٠٠ ، وليس في ديوانه .

٩٠٢ - [شعر مختار]

وقال ابن عرفطة[١]: [من الطويل]

ليهنيكَ بُغْض للصَّديق وظنَّةٌ ... وتحديثك الشَّيْءَ الذي أنت كاذبُه

وأنَّك مشنوءٌ إلى كلِّ صاحبٍ ... بلاك، ومثل الشر يكره جانبُهْ

وإنّك مهداءُ الخنا نَطِف النّثاً ... شديد السِّبابِ رافعُ الصّوتِ غالبُه

وقال النّابغة الجعدي[٢]: [من المتقارب]

أبى لي البلاءُ وأنِّي امرؤٌ ... إذا ما تبَيَّنت لم أرْتب

وليس يريد أنّه في حال تبيُّنه غير مُرتاب، وإنَّما يعني أنّ بصيرته لا تتغيّر

وقال ابنُ الجهم، ذات يوم: أنا لا أشكُّ! قال له المكيُّ: وأنا لا أكاد أوقن!

وقال طرفة[٣]: [من الطويل]

وكرِّي إذا نادى المُضافُ مُحَنّبا ... كسيد الغضى في الطَّخْية المتورِّد[٤]

وتقصيرُ يوم الدَّجنِ والدّجن معجب ... ببهكنة تحت الخباء الممدَّدَ[٥]

أرى قبر نحَّامٍ بخيلٍ بماله ... كقبْرِ غَويٍّ في البطالة مُفْسدَ[٦]

لعمرُك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المُرْخى وثنْياه باليَدَ[٧]

أرى الموت أعداد النُّفوس ولا أرى ... بعيداً غداً، ما أقرب اليومَ من غد[٨]

وظلْم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرْءِ من وقع الحسامِ المهنَّد

وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجرٌ ... إذا خطرَتْ أيدي الرِّجالِ بمشهد

---

(١) تقدم تخريج الشعر في نهاية الفقرة (٥٩٩).

(٢) ديوان النابغة الجعدي ٢٧، والبيان ١/١٠٠، والمقاييس ١/٢٩٤.

(٣) الأبيات من معلقته في ديوانه، البيت الأول ص ٣٢، والثاني والثالث ص ٣٣، والرابع ص ٣٤، والسادس ص ٣٦، والخامس في ديوانه ٤٤ (طبعة سلغسون).

(٤) في ديوانه: (الكر: العطف. المضائق: الخائف والمذعور. المحنب: الذي في يده انحناء. السيد: الذئب)، والبيت في اللسان (حنب، ورد، ضيف)، والتاج (ورد، ضيف)، والتهذيب ١٤/١٦٦.

(٥) في ديوانه: (الدجن: الغيم. البهكنة: المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة)، والبيت في اللسان (خدر)، والجمهرة ٧٥٤، والمخصص ١٣/٢٠٠.

(٦) في ديوانه: (النحّام: الحريص على الجمع والمنع. الغوي: الغاوي الضال). والبيت في اللسان والتاج (نحم)، والتهذيب ٤/٣٨١، وبلا نسبة في العين ٣/٢٥٢.

(٧) في ديوانه: (الطِّوَل: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه. الإرخاء: الإرسال. الثني: الطرف)، والبيت في اللسان (طول، ثنى، مها)، والتاج (طول، ثنى)، والمقاييس ٣/٤٣٤، والجمهرة ٩٢٦، وأساس البلاغة وعمدة الحفاظ (طول)، والعين ٧/٤٥١.

(٨) البيت في اللسان (عدد)، والتهذيب ١/٩٢، ٨/١٧٠.

بـــاب

القول في الجعلان والخنافس

٩٠٣ - [صداقة الحيوانات لبعضها]

وسنقولُ في هذه المحقرات من حشرات الأرض، وفي المذكور من بغاث الطّير وخشاشه، ممَّا يقتات العذرة ويُوصف باللؤم، ويُتَقزَّزُ من لمسه وأكلِ لحمه، كالخنفساء والجعل، والهداهِدِ والرَّخم، فإنَّ هذه الأجناس أطلبُ للعذرة من الخنازير.

فأوَّل ما نَذْكُر من أعاجيبها صداقةُ ما بين الخنافس والعقارب، وصداقة ما بين الحيّات والوزَغ.

وتزعمُ الأعراب أنّ بين ذكورةِ الخنافس وإناث الجعلان تسافداً وأنهما ينتجان خلقاً ينزع إليهما جميعاً.

وأنشد خَشْنامُ الأعور النحويُّ عن سيبويه النَّحويّ، عن بعض الأعراب في هجائه عدوّاً له كان شديد السَّواد: [من الرجز]

عاديتنا يا خُنْفساً كامُ جُعلْ　　عداوة الأوعالِ حيَّاتِ الجبَلْ[١]

من كلّ عوْدٍ مُرهَفِ النّابِ عُتُلْ　　يخْرِقُ إنْ مسّ وإنْ شمّ قَتَلْ[٢]

ويثبت أكل الأوعال للحيّات الشِّعرُ المشهور، الذي في أيدي أصحابنا، وهو: [من الرمل]

عَلَّ زيداً أن يُلاقي مَرَّةً　　في التماسٍ بعضَ حيَّاتِ الجبلْ

غاير العينينِ مَفطوح القفا　　ليس من حيّات حُجْرِ والقلل[٣]

---

(١) كام: سفد. «القاموس: كوم».

(٢) العتل: الشديد. «القاموس: عتل».

(٣) مفطوح: عريض. «القاموس: فطح».

يتوارى في صُدوعٍ مرَّة رَبذُى الخطْفةِ كالقِدحِ المُؤلْ[1]
وترى السمّ على أشداقه كشعاع الشّمسِ لاحتْ في طَفَلْ[2]
طرد الأرْوى فما تقربُهُ ونفى الحيّاتِ عن بيضِ الحَجَلْ

وإنما ذكر الأروى من بين جميع ما يسكن الجبال من أصناف الوحش، لأنَّ الأروى من بينها تأكلُ الحيّات، للعداوة التي بينها وبين الحيّات.

٩٠٤ - [استطراد لغوي]

والأرْوى: إناث الأوعال، واحدتها أُرويّة. والناس يُسمُّون بناتهم باسم الجماعة، ولا يسمُّون البنت الواحدة باسم الواحدة منها: لا يسمُّون بأرويَّة، ويسمُّون بأرْوى. وقال شماخ بن ضِرار[3]: [من الوافر]

فما أرْوى وإنْ كرُمتْ علينا بأدنى من مُوقَّفةٍ حَرُونِ[4]

وأنشد أبو زيدٍ في جماعة الأوريّة[5]: [من الطويل]

فما لك من أرْوى، تعاديت بالعمى ولاقيتِ كلاباً مُطلاًّ وراميا[6]

يقال: تعادى القومُ وتفاقدوا: إذا مات بعضهم على إثر بعض.

وقالت في ذلك ضباعةُ بنت قُرْط، في مرثية زوجها هشام بن المغيرة[7]: [من السريع]

إنَّ أبا عثمان لم أنْسهُ وإنَّ صمتاً عن بُكاهُ لَحُوبْ

---

(١) الربذ: السريع «القاموس: ربذ». المؤل. المحدد. «القاموس: ألل».
(٢) الطَّفَل: الغروب. «القاموس: طفل»
(٣) ديوان الشماخ ٣١٩، والسمط ٦٦٣، وأمالي القالي ٢/٢٩، واللسان والتاج (وقف، حرن)، والمقاييس ٢/٤٧، والمخصص ٨/٣٠، ١٥/٢١٠.
(٤) في ديوانه: (الموقفة: من التوقيف؛ وهو البياض مع السواد، والمراد هنا: الأروية التي في قوائمها خطوط تخالف لونها، والحرون من الدواب: التي إذا استدر جريها وقفت فلم تبرح. والمعنى: إن هذه المرأة ليست بأقرب منالاً من الأروية التي تعتصم بأعلى الجبل فتمتنع على الصياد).
(٥) البيت لعمرو بن أحمر في ديوانه ١٧٣، واللسان (أبي)، والتاج (عدو، أبي)، والتهذيب ٣/١١٦، ١٥/١٠٤، وبلا نسبة في اللسان (عدا)، والجمهرة ٢٣٦، ١٠٩١، والمجمل ٣/٤٥٦، والمخصص ٥/٧٢، ٦/١٢٥، ١٣/١٥٥.
(٦) في ديوانه: (تعاديت بالعمى: يدعون عليها بالهلاك. الكلاب: الصائد. المطل: المشرف المترصد).
(٧) البيتان في العمدة ١/٢٧٨، وانظر أعلام النساء ٢/٣٥٥.

تفاقَدُوا من معشرٍ ما لهمْ أيَّ ذنوب صوّبوا في القليبْ[1]

٩٠٥ - [طلب الحيّات البيض]

وأما قوله: [من الرمل]

ونفى الحيَّاتِ عنْ بيْضِ الحجل

فإنَّ الحيّات تطلبُ بيض كلِّ طائر وفراخه. وبيضُ كلِّ طائرٍ مما يبيض على الأرض أحبُّ إليها. فما أعرف لذلك علَّةً إلا سهولة المطْلب.

والأيائل تأكل الحيَّاتِ، والخنازيرُ تأكل الحيَّاتِ وتعاديها.

٩٠٦ - [عداوة الحمار للغراب]

وزعم صاحبُ المنطق أن بين الحمار والغراب عداوة. وأنشدني بعضُ النحويِّين[2]: [من الرجز]

عاديتنا لا زِلْتَ في تبابِ عَدَاوَةَ الحمارِ للغُرابِ

وأنشد ابنُ أبي كريمة لبعض الشُّعراء في صريع الغواني[3]: [من الوافر]

فما ريحُ السَّذابِ أشدَّ بُغْضاً إلى الحيَّاتِ منك إلى الغواني

٩٠٧ - [أمثال في الخنفساء]

ويقال: «ألجُّ من الخنفساء»[4]، و«أفحشُ من فاسية» وهي الخنفساء و«أفحش من فالية الأفاعي»[5].

والفساء يُوصف بن ضربان من الخَلْق: الخنفساء، والظَّرِبان

وفي لجاج الخنفساء يقولُ خلفٌ الأحمر[6]: [من المتقارب]

لنا صاحبٌ مُولعٌ بالخلافِ كثيرُ الخطاءِ قليلُ الصّوابِ
ألجُّ لجاجاً من الخنفساءِ وأزْهى إذا ما مشى منْ غرابِ

---

(١) الذَّنوب: الدلو العظيمة «القاموس: ذنب». القليب: البئر. «القاموس: قلب».
(٢) تقدم الرجز في الفقرة (٨٧٢).
(٣) تقدم البيت في الفقرة (٨٧٣).
(٤) المستقصى ١/٣٠٨، ومجمع الأمثال ٢/٢٥٠، وأمثال ابن سلام ٣٧٤، والدرة الفاخرة ٢/٣٦٩.
(٥) المستقصى ١/٢٦٧، ومجمع الأمثال ٢/٨٥، والدرة الفاخرة ١/٣٣١، وجمهرة الأمثال ٢/٨٩، ١٠٦.
(٦) البيتان في حياة الحيوان ١/٤٣٧، ومعجم الأدباء ١٦/١٦١.

٩٠٨ - [طول ذماء الخنفساء]

وقال الرقاشي: ذكرت صبر الخنزير على نفوذ السهام في جنبه، فقال لي أعرابيٌّ: الخنفساء أصبر منه، ولقد رأيت صبيّاً من صبيانكم البارحة وأخذ شوكة وجعل في رأسها فتيلةً، ثمَّ أوقد نهاراً، ثمَّ غرزها في ظهر الخنفساء، حتَّى أنفذ الشَّوْكة. فغبرْنا ليلتنا وإنَّها لتجولُ في الدّارِ وتُصبِح لنا. واللّهِ إنِّي لأظنها كانتْ مُقْرِباً[١]، لانتفاخ بطنها.

قال: وقال القنانيُّ: العوَاساء: الحامل من الخنافس، وأنشد[٢]: [من الرجز]

بكْراً عواساءَ تفاسا مُقْرِبا

٩٠٩ - [أعاجيب الجعل]

قال: ومن أعاجيب الجعل أنَّه يموت من ريح الورد، ويعيش إذا أعيد إلى الرَّوث. ويضرب بشدَّة سوادِ لونِه المثل. قال الرَّاجزُ وهو يصفُ أسود سالخاً[٣]: [من الرجز]

مُهرّت الأشداق عود قد كَمَلْ   كأنَّما قُمِّص من لِيط جُعَلْ[٤]

والجعل يظَلُّ دهراً لا جناحَ له، ثم ينبت له جناحان، كالنمل الذي يغْبُر دهراً لا جناح له، ثم ينْبت له جناحان، وذلك عند هَلَكَتِه.

٩١٠ - [تطورالدعاميص]

والدّعاميص[٥] قد تغبر حيناً بلا أجنحة، ثم تصير فراشاً وبعوضاً. وليس كذلك الجراد والذِّبَّان، لأنَّ أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور من الأيام.

وزعم ثمامة، عن يحيى بن خالد: أنَّ البرغوث قد يستحيل بعوضة.

---

(١) مقرب: قرب ولادُها. «القاموس: قرب».

(٢) الرجز بلا نسبة في اللسان (قنب، عوس، فسا)، والتاج (فسا)، والمقاييس ٤/١٨٧، والمخصص ٢/١٨، وديوان الأدب ٤/١٣٦، والتهذيب ٣/٨٨، ٩/١٩٥، ١٣/٩٥.

(٣) الرجز بلا نسبة في البيان ٣/٢٢٥.

(٤) الهرت: الواسع. «القاموس: هرت». العود: المسن من الإبل .«القاموس: عود». قمِّص: ألبس قميصاً. الليط: قشر القصب. «القاموس: لوط».

(٥) الدعموص: دويبة أو دودة سوداء تكون في الغدران إذا نشّت. «القاموس: دعمص»، وانظر حياة الحيوان ١/٤٧٩.

٩١١ - [عادة الجعل]

والجعل يحرسُ النّيام، فكلما قام منهم قائمٌ فمضى لحاجته تبِعه، طمعاً في أنَّه إنَّما يريد الغائط. وأنشد بعضهم قول الشاعر[١]: [من البسيط]

يبيتُ في مجلس الأقوامِ يربُؤهم ... كأنَّه شرطيٌّ باتَ في حَرَسِ

وأنشد بعضهم لبعض الأعراب في هجائه رجلاً بالفسولة، وبكثرة الأكل، وبعظم حَجْم النَّجو[٢]: [من الرجز]

حتَّى إذا أضحى تدرَّى واكتحل ... لجارَتيه ثمَّ ولَّى فَنثلْ

رزْقَ الأنوقينِ القرنْبى والجَعَلْ

سمى القرنبي والجعل - إذ كانا يقتاتان الزِّبل - أنُوقين. والأنوق: الرَّخمة، وهي أحد ما يقتات العذرة. وقال الأعشى[٣]: [من الرجز]

يا رَخماً، قاظ على يَنْخوب ... يُعْجِلُ كفَّ الخارئ المُطيب[٤]

المطيب: الذي يستطيب بالحجارة، أي يتمسَّح بها. وهم يسمُّون بالأنوق كلَّ شيءٍ يقتات النّجْو والزِّبل، إلاَّ أنّ ذلك على التشبيه لها بالرّخم في هذا المعنى وحدهُ. وقال آخر[٥]: [من الرجز]

يا أيهذا النّابحي نَبْحَ القَبَلْ ... يدعُو عليَّ كلما قام يُصَلْ[٦]

رافعَ كفَّيهِ كما يفري الجُعلْ ... وقد ملأتُ بطْنه حتى أتل

غيظاً فأمسى ضغْنُه قد اعتدل

والقبل: ما أقبل عليك من الجبل. وقوله أتل، أي امتلأ عليك غيْظاً فقصّر في مشيته. وقال الجعديّ[٧]: [من الرمل]

منعَ الغدر فلم أهممْ به ... وأخُو الغَدْرِ إذا هَمَّ فعلْ

---

(١) البيت بلا نسبة في البرصان ١٥٧، وتقدم في الفقرة (١٨٥).

(٢) تقدم الرجز في الفقرة (١٨٤).

(٣) ديوان الأعشى ٣١٥، واللسان (خرأ، طلب، طيب، قيظ، رخم)، والتاج (سلب، قلب، رخم) والتنبيه والإيضاح ١/١٤، والتهذيب ١٤/٤٠، وبلا نسبة في اللسان (سلب)، والتهذيب ١٢/٤٣٥، والجمهرة ٣٤٠، ١١٩٤.

(٤) ينخوب: موضع؛ لم يحدده ياقوت، معجم البلدان ٥/٤٥٠؛ وفيه استشهد برجز الأعشى.

(٥) الرجز بلا نسبة في نوادر أبي زيد ٤٩، والأول والثاني في اللسان (قبل)، والرابع والخامس في اللسان والتاج (أتل)، والمقاييس ١/٤٧.

(٦) القَبَل: الجبل. «اللسان: قبل».

(٧) ديوان النابغة الجعدي ٩٦، والبخلاء ٢٤٣، واللسان والتاج (قبل)، والتهذيب ٩/١٦٥، وبلا نسبة في الجمهرة ٣٧٢.

خشيةُ اللّه وأنِّي رجلٌ   إنما ذكري كنار بقَبَلْ

وقال الرَّاجز - وهو يهجو بعضهم بالفُسولة، وبكثرة الأكل، وعِظَم حجْم النَّجْو[1]- :

* باتَ يعشِّي وحْده ألْفي جُعَل*

وقال عنترة[2]: [من الوافر]

إذا لاقيتَ جمع بني أبان   فإني لائمٌ للجعْد لاحي
كسوتُ الجعد جَعْد بني أبان   ردائي بعد عُرْيٍ وافتضاحِ

ثم شبَّهه بالجعل فقال:

كأنَّ مؤشر العضديْنِ جَحْلاً   هُدوجاً بين أقلبةٍ ملاحِ[3]
تضمن نعمتي فغدا عليها   بُكوراً أو تهجَّر في الرَّواحِ

وقال الشمَّاخ[4]: [من الطويل]

وإن يُلقيا شأواً بأرْضٍ هوى له   مفرّضُ أطراف الذِّراعينِ أفلجِ

والشأو هاهنا: الرَّوث، كأنَه كثره حتَّى ألحقه بالشأو الذي يخرج من البئر، كما يقول أحدهم إذا أراد أن يُنْقي البئر: أخرِجْ من تلك البئر شأْواً أو شأْوين، يعني من التراب الذي قد سقط فيها، وهو شيءٌ كهيئة الزَّبيل الصَّغير.

والشاو: الطِّلْق. والشأو: الفَوْت.

والمفرّض الأفلج الذي عنى، هو الجعل، لأنَّ الجعل في قوائمه تحزيز، وفيها تَفْريج.

٩١٢ - [معرفة في الجعل]

وللجعل جناحان لا يكادان يُريانِ إلاَّ عند الطَّيران، لشِّدة سوادهما، وشبههما بجلده، ولشِدّة تمكنهما في ظهره.

---

(١) تقدم الرجز في الفقرة (١٨٦).

(٢) ديوان عنترة ١١٥.

(٣) مؤشر: مرقق. الجحل: العظيم من الجعلان. «اللسان: جحل». الهدوج: الذي يمشي رويداً «اللسان: هدج». أقلبة: جمع قليب، وهو البئر .«اللسان: قلب». والبيت في اللسان (قلب، ملح، أشر، حجل) (والتاج ،قلب، ملح، أشر) والمخصص ١٧ / ٣٥.

(٤) ديوان الشماخ ٩٣، واللسان (فرض، قرض، شأي)، والتاج (فرض، شأي)، والتهذيب ١١ / ٤٤٧، والعين ٦ /٢٩٧، وبلا نسبة في التهذيب ٨ /٣٤٣.

قال الشاعر، حيثُ عدّد الخَوَنَة، وحثَّ الأمير على محاسبتهم: [من البسيط]

واشدُدْ يديك بزيْدٍ إن ظفِرْت به   واشْفِ الأرامل من دُحروجة الجُعلِ

والجعل لا يدحرج إلاّ جعراً يابساً، أو بعرة.

وقال سعد بن طريف، يهجو بلال بن رباح مولى أبي بكر[1]: [من البسيط]

وذاك أسودُ نوبيٌّ له ذفرٌ   كأنَّه جُعلٌ يمشي بِقِرْواحِ[2]

وسنذكر شأنه وشأن بلالٍ في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

٩١٣ - [أبو الخنافس وأبو العقارب]

وكان بالكوفة رجلٌ من ولد عبد الجبّار بن وائلِ بن حُجْر الحضرميّ يكنى أبا الخنافس راضياً بذلك، ولم تكن الكنية لقباً ولا نَبزاً، وكان من الفُقهاء، وله هيئة ورواءٌ. وسألته: هل كان في آبائه من يكنى أبا الخنافس؟ فإن أبا العقارب في آل سلم مولى بني العباس كثيرٌ على اتّباع أثر. وكان أبو الخنافس هذا اكتنى به ابتداء.

٩١٤ - [طول ذماء الخنفساء]

وقال لي أبو الفضل العنبريّ: يقولون: الضّبُّ أطول شيءٍ ذماء، والخنفساء أطول منه ذماء، وذلك أنه يُغرز في ظهرها شوكةٌ ثاقبة، وفيها ذبالةٌ تستوقدُ وتُصبِحُ لأهل الدّار، وهي تدبُّ بها وتجول! وربما كانت في تضاعيف حبل قتٍّ، أو في بعض الحشيش والعُشب والخلا، فتصيرُ في فم الجمل فيبتلعها من غير أن يضْغم الخنفساء، فإذا وصلت إلى جوفه وهي حيَّةٌ جالت فيه، فلا تموت حتى تقتله.

فأصحاب الإبل يتعاورون تلك الأواريّ والعلوفاتِ، خوفاً من الخنافس.

٩١٥ - [هجاء جواس لحسَّان بن بحدل]

وقال جَوّاس بن القعْطل في حسَّان بن بَحْدل: [من الكامل]

هل يُهلكنّي لا أبالكم   دَنِسُ الثيابِ كطابخِ القدْرِ

جُعلٌ تمطَّى في عمايته   زَمِرُ المروءةِ ناقصُ الشَّبْرِ[3]

---

(١) البيت في البرصان ١٥٦.

(٢) القرواح: البارز الذي لا يستره من السماء شيء، وهو الفضاء. «القاموس: قرح».

(٣) الزمر: القليل. «القاموس: زمر». الشبر: العطاء. «القاموس: شبر».

لزبابَةٍ سوداء حنظلةٍ والعاجز التَّدبير كالوَبْرِ[1]

فأمَّا الهجاء والمدح، ومفاخرة السُّودان و الحمران، فإنَّ ذلك كلَّه مجموعٌ في كتاب «الهجناء والصُّرحاء»

وقد قدّمنا في صدر هذا الكتاب جملةً في القول في الجعْلانِ وغيرِ ذلك من الأجناس اللئيمة والمستْقذرة، في باب النَّتن والطِّيب، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

---

(١) الزبابة: فأر عظيم أصم؛ أو أحمر الشعر؛ أو بلا شعر .«القاموس: زبب».

بـــاب

القول في الهدهد

وأما القول في الهدهد، فإنَّ العرب والأعراب كانوا يزعمون أنَّ القنزعة التي على رأسه ثوابٌ من اللّه تعالى على ما كان من برِّه لأُمِّه! لأنَّ أمَّه لما ماتتْ جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضٌ عن تلك الوَهْدَة.

والهدهد طائرٌ مُنتن الريحِ والبدن، من جوهره وذاته، فربَّ شيءٍ يكونُ مُنتناً من نفسه، من غيرِ عرَض يعرِضُ له، كالتيوس والحيّاتِ وغير ذلك من أجناس الحيوان

فأمَّا الأعراب فيجعلون ذلك النَّتْنَ شيئاً خامره بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونةً في رأسه. وقد قال في ذلك أميَّة أو غيرُه من شعرائهم. فأمَّا أميَّة فهو الذي يقول(١): [من الكامل]

اعَلمْ بأنَّ اللّه ليس كصنُعْه ... صنيعٌ ولا يخفى على اللّه مُلحدُ
وبكلِّ منكرةٍ لهُ مَعْرُوفةَ ... أخرى على عينٍ بما يتعمَّدُ
جُددٌ وتوشيم ورسمُ علامةٍ ... وخزائنٌ مفتوحة لا تنفدُ
عمن أراد بها وجاب عِنانَها ... لا يستقيم لخالق يتزيَّد
غيم وظلماء وغيث سَحابة ... أَزْمانَ كفَّنَ واستَرادَ الهدهُدُ(٢)
يبغي القرارَ لأمِّه ليُجنَّها ... فبنى عليها في قفاهُ يُمْهدُ(٣)
مَهداً وطيئاً فاستقلَّ بحمْله ... في الطَّيرِ يحملها ولا يتأوَّد(٤)
من أمِّه فجُزي بصالحِ حملهاَ ... ولداً، وكلف ظهره ما تفقد
فتراه يَدْلحُ ما مشى بجنازةٍ ... فيها وما اختلف الجديد المسند(٥)

---

(١) ديوان أمية ٣٥٣ – ٣٥٦.

(٢) في ديوانه: (استراد: خرج يبحث عن الكلأ، وأراد خروج الهدهد باحثاً عن مكان صالح لدفن أمه).

(٣) في ديوانه (يجنها: يدفنها بالجنن؛ وهو القبر).

(٤) في ديوانه (تأود: تعوَّج وتثنى).

(٥) في ديوانه (دلح الرجل بحمله: مر متثاقلاً غير منبسط الخطو. المسند: الدهر).

٩١٦ - [معرفة الهدهد بمواضع المياه][١]

ويزعمون أنَّ الهدهد هو الذي كان يدلُّ سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها.

٩١٧ - [سؤال في الهدهد][٢]

ويروُون أنّ نجْدة الحرُوريَّ أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس: إنّك تقول إنَّ الهدهدُ إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء، والهدهُد لا يُبْصر الفخَّ دُوَين التراب، حتى إذا نقر التّمْرة انضمّ عليه الفخُّ! فقال ابن عبَّاس: «إذا جاء القدرُ عمي البصرُ»[٣].

ومن أمثالهم: «إذا جاء الحينُ غطّى العين»[٤].

وابن عباسٍ إن كان قال ذلك فإنّما عنى هدهُد سليمان عليه السلام بعينه؛ فإنَّ القول فيه خلافُ القولِ في سائر الهداهد.

وسنأتي على ذكر هذا الباب من شأنه في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

وقد قال الناس في هُدهُد سُليمان، وغرابِ نوح، وحِمار عُزير، وذئب أُهبان بن أوس، وغير ذلك من هذا الفنّ، أقاويل، وسنقول في ذلك بجملةٍ من القول في موضعه إن شاء اللّه.

٩١٨ - [اتخاذ الهدهد عشه من الزبل]

وقد قال صاحبُ المنطق وزعم في كتاب الحيوان، أنَّ لكلِّ طائرٍ يعشِّش شكلاً يتخذ عشَّه منه، فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص. وزعم أنَّ الهدهُد من بينها يطلب الزِّبل، حتّى إذا وجده نقل منه، كما تنقل الأَرضَةُ من التّراب، ويبني منه بيتاً، كما تبني الأرضة، ويضع جُزءاً على جُزْء، فإذا طال مُكثه في ذلك البيت، وفيه أيضاً ولد، أو في مثله، وتربّى ريشه وبدنه بتلك الرائحة، فأخلقْ به أيضاً أن يُورث ابنه النَّتْن الذي عَلِقه، كما أورث جدُّهُ أباه، وكما أوْرثه أبوه. قال: ولذلك يكون منتناً.

---

(١) ثمار القلوب ٣٨٤ (٧٠٦).

(٢) المصدر السابق، والكامل ٣/٢٢٥ - ٢٢٦ (أبو الفضل إبراهيم).

(٣) ورد قول ابن عباس في مجمع الأمثال ١/١٢٣، وأمثال ابن سلام ٣٢٦، وجمهرة الأمثال ١/١١٨، والأمثال لمجهول ٣٢.

(٤) المستقصى ١/١٢٣، وأمثال ابن سلام ٣٢٦، وهو برواية (إذا جاء الحين حارت العين) في مجمع الأمثال ١/٢٠، وجمهرة الأمثال ١/١٠، ١١٨ - ١١٩، والأمثال لمجهول ٣٢.

وهذا وجهُ أنْ كان معلوماً أنّه لا يتَّخِذ عشَّه إلاّ من الزِّبل.

فأمَّا ناسٌ كثير، فيزعمون أن رُبَّ بدنٍ يكونُ طيب الرَّائحة، كفأرة المسك التي ربما كانت في البيوت. ومن ذلك ما يكونُ مُنْتِنَ البَدنِ، كالذي يحكى عن الحيَّاتِ والأفاعي والثَّعابين، ويوجدُ عليه التَّيوس.

٩١٩ - [طائر الاغتيولس]

وذكر صاحب المنطق أنَّ الطير الكبير، الذي يسمى باليونانية اغتيولس، يحكم عُشَّه ويتقنُه، ويجعله مستديراً مُداخلاً كأنَّه كرة معمولة. وروى أنَّهم يزعمون أنَّ هذا الطائر يجلب الدّارصينيَّ من موضعه، فيفرْشُ به عشَّه، ولا يعشِّش إلاّ في أعالي الشّجَر المرتفعة المواضع.

قال: وربّما عمد الناسُ إلى سهامٍ يشدُّون عليها رصاصاً، ثمَّ يرمون بها أعشتها، فيسقط عليهم الدّارصينيُّ، فيلتقطونه ويأخذونه.

٩٢٠ - [زعم البحريين في الطير]

ويزعمُ البحْريُّون أنَّ طائرين يكونان ببلاد السُّفالة[١]، أحدُهما يظهر قبل قُدوم السفن إليهم، وقبل أن يُمكنَ البحرَ من نفسه، لخروجهم في متاجرِهم فيقول الطائر: قرب آمَدْ، فيعلمون بذلك أنَّ الوقت قدْ دنا، وأنْ الإمكان قد قرب.

قالوا: ويجيء به طائرٌ آخر، وشكل آخر، فيقول: سمارو. وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم، فيسمُّون هذين الجنسين من الطير: قرب، وسمارو، كأنَّهم سمَّوهما بقولهما، وتقطيع أصواتهما، كما سمَّت العربُ ضرباً من الطَّير القطا، لأن القطا كذلك تصيح، وتقطيع أصواتها قطا، وكما سمَّوا الببغاء بتقطيع الصَّوتِ الذي ظهر منه.

فيزعم أهلِ البحر أنّ ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلاّ في إناث، وأنّ الآخر لا يطير أبداً إلاّ في ذكورة.

٩٢١ - [وفاء الشفنين]

وزعم لي بعضُ الأطباء ممن أصدّق خبره، أنّ الشِّفنين[٢] إذا هلكت أنثاه لم يتزوَّج وإن طال عليه التعزُّب. وإن هاج سفد ولم يطلب الزواج.

---

(١) السفالة: آخر مدينة تعرف بأرض الزنج، معجم البلدان ٣ / ٢٢٤.

(٢) الشفنين: هو اليمام، ومن طبعه إيثار العزلة. حياة الحيوان ١ / ٦٠١.

٩٢٢ - [من عجائب الطير]

وحكوا أنَّ عندهم طائرين، أحدهما وافي الجناحين وهو لم يطِرْ قطّ، والآخر وافي الجناحين، ولكنه من لدُنْ ينهض للطَّيرانِ فلا يزالُ يطيرُ ويقتات من الفراش وأشباه الفراش، وأنَّه لا يسقط إلاَّ ميِّتاً. إلاَّ أنهم ذكروا أنه قصير العمر

٩٢٣ - [كلام في قول أرسطو]

ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني، وإن كنت لا أعرف الوجه في أنَّ طائراً ينهض من وكره في الجبال، أو بفارس أو باليمن، فيؤمُّ ويعمد نحو بلاد الدارصيني، وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه. وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد أو من القواطع. وإنْ كان من القواطع فكيف يقطع الصَّحصحان[١] الأملس وبطون الأوْدية، وأهضامَ الجبال[٢] بالتّدويم في الأجواء، وبالمضيِّ على السَّمت، لطلب ما لم يَرَهُ ولم يشمُّه ولم يذقْه. وأخرى فإنّه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه، ما يصير فِراشاً له ومهاداً، إلا بالاختلاف الطويل. وبعد فإنّه ليس بالوطيء الوثير، ولا هو له بطعام.

فأنا وإن كنت لا أعرفُ العلَّة بعينها فلست أنكر الأمور من هذه الجهة. فاذكرْ هذا.

٩٢٤ - [قول أبي الشيص في الهدهد]

وقال أبو الشِّيص في الهدهد[٣]: [من البسيط]

لا تأمننَّ على سرِّي وسِرِّكمُ ... غيري وغيْرك أو طيِّ القراطيسِ
أو طائر سأحَلِّيهِ وأنعته ... ما زال صاحبَ تنقير وتدسيسِ
سودٍ براثِنه، ميلٍ ذوائبُه ... صُفر حمالِقه، في الحسنِ مَغمُوس
قد كان همَّ سليمانٌ ليذبحه ... لولا سِعايته في ملك بلقيس

وقد قدَّمنا في هذا الكتاب في تضاعيفه، عدَّة مقطَّعات في أخبار الهدهُد.

---

(١) الصحصحان: ما استوى من الأرض. «القاموس: صحح».

(٢) الأهضام: جمع هِضْم؛ مسقط الجبل، وهو ما دنا من السهل من أصله. «اللسان: هضم».

(٣) الأبيات في الحماسة البصرية ٢/٣٤١، وعيون الأخبار ١/٤١، والمختار من شعر بشار، ونهاية الأرب ١٠/٢٤٨، وحياة الحيوان ١/٢٩٤.

بـــاب
القول في الرخم

و قال: إنّ لئامَ الطير ثلاثة: الغِربانُ ، والبُوم، والرَّخَم

٩٢٥ - [أسطورة الرخم]

ويقال: إنّه قيل للرَّخمة: ما أحمقك! قالت: وما حُمْقي، وأنا أقطعُ في أوّلِ القواطع، وأرْجِع في أوَّلِ الرَّواجِع، ولا أطير في التَّحسير[١]. ولا أغتر بالشَّكير[٢]، ولا أسقط على الجفِير[٣].

وقد ذكرْنا تفسير هذا. وقال الكميت[٤]: [من مجزوء الكامل]

إِذْ قيل يا رَخَمَ انطقي ... في الطَّير، إِنّك شرُّ طائرْ

٩٢٦ - [شر الطير]

وقال أبو الحسن المدائني: أمَر بعضُ ملوك العجم الجُلنْدي بنَ عبد العزيز الأزديَّ، وكان يقال له في الجاهلية عرجدة، فقال له: صد لي شرَّ الطير، واشوه بشرِّ الحطب، وأطعمْه شرَّ الناس. فصاد رخمةً وشواها ببَعْر، وقرَّبها إلى خوزيّ[٥]. فقال له الخوزيُّ: أخطأت في كلِّ شيء أمرك به الملك: ليس الرَّخمةُ شرَّ الطير، وليس البعرةُ شرَّ الحطب، وليس الخوزيُّ شرّ الناس. ولكن اذهب فصد بومة، واشوها بدفلى، وأطعمها نبطيّاً ولدَ زِنى. ففعل، وأتى الملك فأخبره، فقال: ليس يُحْتاج إلى ولد زِنى! يكفيه أن يكون نبطيًّا.

---

(١) التحسير: سقوط ريش الطائر. «القاموس: حسر».

(٢) الشكير: الريش الصغير. «القاموس: شكر».

(٣) الجفير: جعبة السهام «القاموس: جفر».

(٤) ديوان الكميت ١ / ٢٢٧، والسمط ٣٠٠، والمستقصى ١ / ٨١، والمعاني الكبير ٢٩٢.

(٥) نسبة إلى خوزستان.

٩٢٧ - [الغراب والرخمة]

والغراب يقوَى على الرَّخمة، والرخمة أعظم من الغراب وأشدُّ. والرَّخمة تلتمس لبيضها المواضعَ البعيدة، والأماكنَ الوحشيَّة، والجبالَ الشامخة، وصُدوعَ الصَّخر. فلذلك يقالُ في بيضِ الأنوقِ ما يقال(١).

٩٢٨ - [ما قيل في بيض الأنوقِ]

وقال عُتبة بن شمّاس(٢): [من الخفيف]

إنَّ أولى بالحقِّ في كلِّ حقٍّ ثمَّ أولى أنْ يكون حقيقَا
منْ أبوهُ عبد العزيزِ بنُ مروا نَ ومنْ كانَ جدُّهُ الفارُوقا
ردَّ أموالنا علَيْنا وكانتْ في ذُرى شاهقٍ تفُوت الأنوقا

وطلب رجلٌ من أهل الشام الفريضة من معاوية فجاد له بها، فسأل لولدِه، فأبى، فسأله لعشيرته، فقال معاوية(٣): [من الخفيف]

طلب الأبْلقَ العقوق، فلمّا لمْ يجدْهُ أراد بيضَ الأنُوق

وليس يكون العَقُوق إلاّ من الإناث، فإذا كانت من البُلق كانت بلقاء. وإنما هذا كقولهم: «زَلَّ في سَلَى جَمَلٍ»(٤)، والجمل لا يكون له سلًى(٥).

وقد يرون بيض الأنوق، ولكنَّ ذلك قليلاً ما يكون، وأقلُّ من القليل، لأنَّ بيضها في المواضع الممتنعة، وليست فيها منافع فيتعرض في طلبها للمكروة.

---

(١) ثمار القلوب (٧١٧).

(٢) الأبيات لعتبة بن شماس في الكامل ١/٤٠٠ (طبعة المعارف)، ٢/٢٧١ (أبو الفضل إبراهيم)، والعقد الفريد ٣/٣٩٣، والأول والثاني في اللسان والتاج (فرق)، والأبيات لبعض ولد عيينة بن حصن في ثمار القلوب (٧١٨)، والبيت الثاني مع جملة أبيات لرجل من الأنصار في رسائل الجاحظ ٢/٢٨٦، والثالث لعقبة بن أسماء في المستقصى ١/٢٥.

(٣) الخبر مع البيت في ثمار القلوب (٧١٨)، والكامل ١/٤٠١ (طبعة المعارف)، ٢/٢٧١ (أبو الفضل إبراهيم)، والنهاية ١/٧٧، والدرة الفاخرة ٢٩٩، وجمهرة الأمثال ٢/٦٤، وربيع الأبرار ٣/٣١٦، واللسان (عقق)، والبيت في الفاضل ٤٦، والمصون ٣٠، ونظام الغريب ٢٠٧، والإصابة (١٠٩٨) ٨/٢٠٦، واللسان والتاج (أنق)، والتهذيب ١/٦٢، ٩/٣٢٤، والجمهرة ٣٧١، والمقاييس ١/١٤٩.

(٤) المثل برواية: (وقع القوم في سلى جمل)، وهو في مجمع الأمثال ٢/٣٦٠، والدرة الفاخرة ١/٢٩٩، وجمهرة الأمثال ٢/٣٦٦، والمستقصى ٢/٣٧٧، وأمثال ابن سلام ٣٤٣.

(٥) ثمار القلوب (٥٢٩).

وأنا أظنُّ أن معاوية لم يقل كما قالوا: ولكنَّهُ قدم في اللّفظ بيض الأنوق، فقال: « طلب بيض الأنوق، فلما لم يجدْه طلب الأبلق العقوق ».

٩٢٩ - [ما يسمَّى بالهدهد]

وأمَّا قول ابن أحمر[١]: [من الكامل]

يمشي بأوظفةٍ شديدٍ أسْرُها ... شمِّ السنابك لا تقي بالجدجد[٢]
إذ صبَّحته طَاوياً ذا شِرَّةٍ ... وفؤادُه زجلٌ كعزْفِ الهدهد

فقد يكون ألاّ يكون عنى بهذا الهدهد، لأنَّ ذكورة الحمام وكلَّ شيء غنّى من الطير وهدر ودعا، فهو هُدهد. ومن روى « كعَزْفِ الهدهدِ »[٣]فليس من هذا في شيء.

وقد قال الشاعر في صفة الحمام: [من الكامل]

وإذا استْشرنَ أرنَّ فيها هدهدٌ ... مِثْلُ المداكِ خضبته بجسادِ[٤]

٩٣٠ - [ميل بعض النساء إلى المال]

وخطب رجلٌ جميلٌ امرأةً، وخطبها معه رجل دميم فتزوجت الدَّميم لماله، وتركته، فقال[٥]: [من الطويل]

ألا يا عبادَ اللهِ ما تأمُرونني ... بأحسنِ من صلّى وأقبحهِمْ بعلاَ
يدِبُّ على أحشائها كلَّ ليلة ... دبيبَ القَرنْبى بات يقرو نقاً سَهْلا[٦]

---

(١) البيت الأول في ديوان ابن أحمر ٥٦، واللسان والتاج (جدد، وقي)، والتنبيه والإيضاح ٢/١٣، والتهذيب ٩/٣٧٥، وبلا نسبة في الجمهرة ١٨٢، والثاني في ديوانه ٥٩، واللسان والتاج (هدد).

(٢) الأوظفة: جمع وظيف، وهو مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل وغيرها. « القاموس: وظف». السنبك: طرف الحاف.ر « القاموس: سنبك». لا تقي: لا تتوقاه. الجدجد: الأرض الصلبة المستوية « القاموس: جدد».

(٣) في اللسان « هدد »: (الهَدْهَد: أصوات الجن؛ ولا واحد له).

(٤) استشارت: سمنت وحَسُنت « القاموس: شار». المداك: حجر يدق به الطيب. الجساد: الزعفران « القاموس: جسد».

(٥) البيتان للأخطل في حياة الحيوان ٢/٢٠٩ (القرنبى)، وليسا في ديوانه، وبلا نسبة في الكامل ١/٢٨٢ (طبعة المعارف)، ٥٩٥ (الدالي)، والأول في قطر الندى ٢٠٢، والهمع ٢/٧٠، والدرر ٥/١١٥، والثاني في اللسان والتاج (قرنب).

(٦) في الكامل: (القرنبى: دويبة على هيئة الخنفس منقطة الظهر، وفي قوائمها طول على الخنفس؛ وهي ضعيفة المشي).

٩٣١ - [الأجناس التي تطلب العذرة]

والأجناس التي تريد العذِرة وتطلبها كثيرة، كالخنازير، والدَّجاج، والكلاب، والجراد، وغير ذلك. ولكنها لا تبلغ مبلغ الجُعل والرّخمة.

٩٣٢ - [أكل الأعراب لبعض الحيوان]

وقال ابن أبي كريمة: كنتُ عند أبي مالك عمرِو بن كِركِرة، وعنده أعرابيٌّ، فجرى ذكر القرنْبى. قال: فقلت له: أتعرف القرنْبى؟ قال: وما لي لا أعرف القرنبى؟! فو اللّه لربّما لم يكن غدائي إلاّ القرنبى يُحسْحسُ[1] لي. قال: فقلت له: إنها دويبّة تأكل العذرة. قال: ودجاجكم تأكل العذرة!

وقال[2]: قال بعض المدنيِّين لبعض الأعراب: أتأكلون الحيّاتِ والعقاربَ والجعْلان والخنافس؟ فقال: نأكل كلَّ شيء إلاّ أمَّ حُبين[3]. قال: فقال المدنيّ: «لتَهْنِ أمَّ الحبينِ العافية».

قال: وحدثنا ابن جريجٍ، عن ابن شهاب، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة، عن ابن عباس، أنّ رسول اللّه ﷺ قال[4]: «من الدوابِّ أربعٌ لا يُقْتلن: النملة، والنَّحلة، والصُّرَد، والهدهُد».

٩٣٣ - [القول في الخفاش]

فأوّل ذلك أنَّ الخفّاش طائر، وهو مع أنّه طائرٌ من عَرَضِ الطير فإنّه شديد الطَّيران، كثير التكفّي في الهواء، سريع التقلُّب فيه، ولا يجوز أن يكون طُعمه إلا من البعوض، وقوتُه إلا من الفراشِ وأشباه الفراش، ثمَّ لا يصيده إلاّ في وقت طيرانه في الهواء، وفي وقت سلطانه، لأنَّ البعوض إنَّما يتسلط بالليل. ولا يجوز أن يبلغ ذلك إلاّ بسرعة اختطافٍ واختلاس، وشدّة طيران، ولين أعطاف وشدّة متن، وحسن تأتٍّ، ورفقٍ في الصّيدٍ. وهو مع ذلك كلِّه ليس بذي ريش، وإنما هو لحم وجلد. فطيرانه بلا ريش عجب، وكلما كان أشدَّ كان أعجب.

---

(١) حسحس اللحمَ: جعله على الجمر. «القاموس: حسس».

(٢) الخبر في عيون الأخبار ٣/٢٠٩، وثمار القلوب (٤١٠)، والمرصع ١٤٠، والدرة الفاخرة ٤٧٩، وأدب الكاتب ٢١٦.

(٣) أم حبين: دويبة على قدر الكف. ثمار القلوب (٤١٠).

(٤) عيون الأخبار ٢/٨٩.

٩٣٤ - [من أعاجيب الخفاش]

ومن أعاجيبه أنّه لا يطير في ضوءٍ ولا في ظلمة. وهو طائر ضعيفُ قُوَى البصرِ، قليلُ شعاعِ العين الفاصلِ من النّاظر. ولذلك لا يظهر في الظُّلمة، لأنّها تكون غامرة لضياء بصره، غالبةً لمقدار قوى شعاع ناظره. ولا يظهر نهاراً، لأنَّ بصره لِضعف ناظره يلتمع في شدة بياض النهار. ولأنَّ الشيء المتلألئ ضارٌّ لعيونِ الموصوفين بحدَّة البصر، ولأن شعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه، يكون رادعاً لشعاع ناظره، ومفرِّقاً له. فهو لا يبصر ليلاً ولا نهاراً. فلما علم ذلك واحتاج إلى الكسب والطُّعم، التمس الوقت الذي لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامراً قاهراً، وعالياً غالباً. ولا من الضِّياء ما يكون مُعْشياً رادعاً، ومفرِّقاً قامعاً. فالتمس ذلك في وقت غروب القُرص، وبقيّةِ الشّفق، لأنّه وقت هيْج البعوض وأشباه البعوض، وارتفاعها في الهواء، ووقت انتشارها في طلب أرزاقها. فالبعوض يخرج للطعم، وطعمه دماء الحيوان، وتخرج الخفافيش لطلب الطعم، فيقع طالبُ رزق على طالب رزق، فيصير ذلك هو رزقه. وهذا أيضاً مما جعل اللّه في الخفافيش من الأعاجيب.

٩٣٥ - [البائضة والوالدة][١]

ويزعمون أن السُّك[٢] الآذان والممسوحة، من جميع الحيوان، أنها تبيضُ بيضاً، وأنّ كلَّ أشرف[٣] الآذان فهو يلد ولا يبيض. ولا ندْري لم كان الحيوان إذا كان أشرفُ الآذان ولد، وإذا كان ممسوحاً باض.

ولآذان الخفافيش حجمٌ ظاهر، وشخوص بيِّن. وهي وإن كانت من الطير فإنَّ هذا لها، وهي تحبل وتلد، وتحيض، وترضع.

٩٣٦ - [ما يحيض من الحيوان]

والناس يتقزّزون من الأرانب والضِّباع، لمكان الحيض.

وقد زعم صاحب المنطق أنَّ ذوات الأربع كلَّها تحيضُ، على اختلافٍ في القلّة والكثرة. والزّمان، والحمرة والصفرة، والرقّة والغلظ. قال: ويبلغ من ضنٍّ أنثى

---

(١) عيون الأخبار ٢ /٨٨، ومحاضرات الأدباء ٤ /٦٧٦.

(٢) السَّكَك: صغر الأذن ولزوقها بالرأس وقلة إشرافها «القاموس: سكك».

(٣) أذن شرفاء: طويلة. «القاموس: شرف».

الخفافيش بولدها ومن خوفها عليه، أنها تحمله تحت جناحها، وربّما قبضت عليه بفيها، وربّما أرضعته وهي تطير، وتقوى من ذلك، ويقوى ولدُها على ما لا يقوى عليه الحمام والشَّاهْمرْك،وسباع الطير.

٩٣٧ - [معارف في الخفاش]

وقال معمرٌ أبو الأشعث: ربَّما أتأمتِ الخفافيشُ فتحمل معها الولدين جميعاً، فإنْ عظُما عاقبتْ بينهما.

والخفّاش من الطير، وليس له منقار مخروط، وله فمٌ فيما بين مناسر السِّباع وأفواه البوم. وفيه أسنانٌ حداد صلاب مرصوفة من أطراف الحنك، إلى أصول الفك، إلاّ ما كان في نفس الخطم.

وإذا قبضتْ على الفرخ وعضتْ عليه لتطير به، عرفت ذَرَب أسنانها[١]، فعرفت أي نوعٍ ينبغي أن يكون ذلك العض، فتجعله أزْماً ولا تجعله عضّاً ولا تنْييباً ولا ضَغْماً، كما تفعل الهرَّة بولدها، فإنّها مع ذرب أنيابها، وحدَّة أظفارها ودقَّتها، لا تخدش لها جلداً، إلا أنها تُمْسِكها ضرباً من الإمساك، وتأزم عليها ضرباً من الأزم قد عَرفته.

ولكل شيءٍ حدٌّ به يصلح، وبمجاوزته والتقصير دُونه يفسد.

وقد نرى الطَّائر يغوص في الماء نهاره، ثم يخرج منه كالشَّعرة سَلَلْتها من العيجن، غير مبتلّ الرِّيش، ولا لثقِ الجناحين. ولو أنَّ أرفق الناس رِفقاً، راهن على أن يغمس طائراً منها في الماء غمسةً واحدة ثمّ خلَّى سِربه ليكونَ هو الخارج منه، لخرجَ وهو متعجِّن الريش، مُفْسد النظم، منقوضُ التأليف. ولكان أجود ما يكون طيراناً أن يكون كالجادفِ. فهذا أيضاً من أعاجيب الخفاش.

٩٣٨ - [من أعاجيب الخفافيش]

ومن أعاجيبها تركها ذرى الجبال وبسيط الفيافي، وأقلاب النخل، وأعالي الأغصان، ودَغل الغياض والرياض، وصُدوع الصّخر، وجزائر البحر، ومجيئها تطلب مساكن الناس وقربهم، ثم إذا صارت إلى بيوتهم وقربهم، قصدت إلى أرفع مكان وأحصنه، وإلى أبعد المواضع من مواضع الاجتياز، وأعرض الحوائج.

---

(١) ذرب أسنانها: حدتها «القاموس: ذرب».

٩٣٩ - [طول عمر الخفاش]

ثمَّ الخفّاشُ بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر، حتى يجوز في ذلك العُقابَ والورشان إلى النسر، ويجوز حد الفِيَلة والأُسْد وحَميرِ الوحش، إلى أعمار الحيّات.

ومن أعاجيب الخفافيش أنّ أبصارها تصلح على طول العمر، ولها صبرٌ على طول فقد الطُّعم. فيقال إنّ اللواتي يظهرن في القمر من الخفافيش المسنّاتُ المعمَّرات، وإنّ أولادهن إذا بلغن لم تقو أبصارهُنَّ على ضياء القمر.

ومن أعاجيبها أنها تضخم وتجسم وتقبل الشّحم على الكبر وعلى السنّ.

٩٤٠ - [القدرة التناسلية]

وقد زعم صاحبُ المنطق أنَّ الكلاب السلوقيَّة كلما دخلتْ في السنِّ كان أقوى لها على المعاظلة.

وهذا غريبٌ جداً، وقد علمنا أنّ الغلام أحدُّ ما يكون وأشبقُ وأنكحُ وأحرصُ، عند أوّل بلوغه. ثم لا يزالُ كذلك حتى يقطعه الكبر أو إصفاء أو تعرض له آفة.

ولا تزال الجاريةُ من لدُنْ إدراكها وبلوغها وحركة شهوتها على شبيه بمقدارٍ واحد من ضعف الإرادة. وكذلك عامَّتهنَّ. فإذا اكتهلن وبلغت المرأة حدّ النَّصَف فعند ذلك يقوى عليها سلطانُ الشَّهوةِ والحرص على الباهِ، فإنما تهيج الكهلة عند سُكون هيج الكهل وعند إدبار شهوته، وكلال حدِّه.

٩٤١ - [قول النساء في الخفافيش]

وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عضَّ الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشيٍّ. فما أنسى فزعي من سنِّ الخفاش، ووحشتي من قربه! إيماناً بذلك القول، إلى أن بلغت.

وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافاتٌ، عسى أن نذكر منها شيئاً إذا بلغنا إلى موضعه إن شاء الله.

٩٤٢ - [ضعف البصر لدى بعض الحيوان]

ومن الطير وذوات الأربع ما يكون فاقد البصر بالليل، ومنها ما يكون سيّءَ البصر. فأمّا قولهم: إنَّهَ الفارة والسنّور وأشياء أُخر أبصرُ باللَّيل، فهذا باطل.

والإنسان رديء البصر باللَّيل، والذي لا يبصر منهم باللَّيل تسمّيه الفرْس شبْكُور وتأويلُهُ أنّهُ أعْمى ليْلٍ[1]، وليْسَ لهُ في لُغَة العربِ اسم أكثَرُ من أنّه يُقالُ لمنْ لا يُبْصِرِ باللَّيل بعينه: هُدَبِد. ما سمعتُ إلاّ بهذا، فأمّا الأغطش فإنّه السيِّءُ البصر بالليل والنهار جميعاً.

وإذا كانت المرأة مُغْرَبَةَ الْعَيْنِ فكانت رديَّة البصر، قيل لها: جَهْراء. وأنشد الأصمعيُّ في الشاء[2]: [من الكامل]

جهراء لا تألو إذا هي أظهرتْ ... بصراً ولا مِنْ عَيْلةٍ تُغنيني

وذكروا أنَّ الأجهر الذي لا يبصر في الشمس. وقوله «لا تألو» أي لا تستطيع. وقوله: «أظهرت» صارت في الظهيرة. «والعَيْلة»: الفقر. قال: يعني به شاة.

وقال يحيى بن منصور، في هجاء بعض آل الصَّعق: [من البسيط]

يا ليتني، والمنى ليستْ بمغْنيةٍ، ... كيف اقتصاصك من ثأْرِ الأحابيش

أتنكحون مواليهم كما فعلوا ... أمْ تغْمِضون كإغماضِ الخفافيش

وقال أبو الشمقمق، وهو مروان بن محمد[3]: [من مجزوء الرمل]

أنا بالأهواز محزو ... نٌ وبالبصرة داري

في بني سعدٍ وسعد ... حيث أهلي وقراري

صرت كالخفاش لا أُبْـ ... ـصِرُ في ضوء النهار

وقال الأخطل التغلبيّ[4]: [من الطويل]

وقد غبرَ العَجْلان حيناً إذا بكى ... على الزّاد ألقته الوليدة في الكسرِ

فيصبح كالخُفاش يدلك عينه ... فقُبِّح من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْرِ[5]

وقالوا: السحاة مقصورة: اسم الخفاش، والجمع سحاً كما ترى.

---

(١) نقل الزمخشري هذا القول في أساس البلاغة (هدب).

(٢) البيت لأبي العيال الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٤١٥، واللسان والتاج (جهر، ألا)، والمخصص ٦/١٦٤، وديوان الأدب ٢/٢٦١، وللهذلي في التهذيب ٦/٤٩، ١٥/٤٣٢، والمقاييس ١/١٢٩.

(٣) ديوان أبي الشمقمق ١٣٦.

(٤) ديوان الأخطل ١٨٣، والأول في العين ٥/٣٠٧، والثاني في اللسان والتاج (حجر).

(٥) حجر: أراد محجر العين. ديوانه ١٨٣.

٩٤٣ - [لغز في الخفاش]

وقالوا في اللُّغز، وهم يعنون الخفّاش[١]: [من الطويل]

أبى شعراءُ النَّاس لا يُخبرونني ... وقد ذَهَبُوا في الشِّعر في كلِّ مذهبِ

بجلدةِ إنسان وصُورةِ طائرٍ ... وأظْفارِ يَرْبوعٍ وأنيابِ ثعلب

٩٤٤ - [النهي عن قتل الضفادع والخفافيش]

هشامٌ الدَّسْتوائي قال: حدَّثنا قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن عبد اللّه بن عمر أنّه قال: «لا تقتلوا الضَّفادِعَ فإنَّ نقيقَهُنَّ تسبيح. ولا تقتلوا الخفَّاش فإنَّه إذا خرب بيت المقْدسِ قال: يا ربِّ سلِّطني على البحر حتّى أغرقهم».

حماد بن سلمة قال: حدّثنا قتادة، عن زرارة بن أوفى، قال: قال عبد اللّه بن عمر: «لا تقتلوا الخفَّاش، فإنّه استأذنَ في البحر:أن يأخذ من مائه فيطفئ نار بيت المقدسِ حيث حرق. ولا تقتلوا الضَّفادع فإنَّ نقيقها تسبيح».

قال: وحدثنا عثمان بن سعيد القرشي قال: سمعت الحسن يقول: «نهى رسول اللّه ﷺ عن قتل الوَطْواطِ، وأمر بقتل الأوزاغ».

قال: والخفاش يأتي الرُّمانة وهي على شجرتها، فينقب عنها، فيأكل كلَّ شيءٍ فيها حتى لا يدع إلاّ القشر وحده. وهم يحفظون الرُّمَّان من الخفافيش بكلِّ حيلة.

قال: ولحوم الخفافيش موافقةٌ للشواهين والصُّقورة والبوازي، ولكثير من جوارح الطير، وهي تسمن عنها، وتصحّ أبدانُها عليها. ولها في ذلك عملٌ محمودٌ نافعٌ عظيمُ النَّفْع، بيِّنُ الأثر. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

تمَّ المصحف الثالث من كتاب الحيوان

ويليه المصحف الرابع

وأوله في الذّرّ

---

(١) نهاية الأرب ١٠/ ٢٨٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبْهِ وَسلَّمَ

نَبدأ في هذا الجزء، بعَوْن الله وتأييده، بالقول في جُمْلة الذرّة والنملة، كما شرطنا به آخرَ المصحَفِ الثَّالث. ولا حولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللّه العليِّ العظيم.

٩٤٥ - [خصائص النملة]

قد علمنا أنَّ ليس عندَ الذَّرَّةِ غَنَاءُ الفرَسِ في الحرب، والدَّفْع عن الحريم. ولكنّا إذا أردْنا موضعَ العجَب والتَّعجيب، والتَّنْبيه على التدبير،، ذكرنا الخسيسَ القليلَ، والسَّخيفَ المهين، فأرَيْناكَ ما عنده من الحسِّ اللطيفِ، والتَّقْديرِ الغريب، ومن النظر في العواقب، ومشاكلةِ الإنسان ومزاحمَته.

والإنسانُ هو الذي سُخِّر له هذا الفَلَكُ بما يشتمل عليه.

وقد[١] علمنْا أنَّ الذَّرَّةَ تدّخرُ للشتاء في الصَّيف، وتتقدَّمُ في حال المُهلة، ولا تُضيعُ أوقاتَ إمكانِ الحزم. ثم يبلغ من تفقُّدها وحُسْنِ خُبرِها[٢]، والنظر في عواقب أمْرِها، أنَّها تخافُ على الحبوب التي ادَّخَرَتْها للشِّتاء في الصيف،أنْ تعفنَ وتُسوِّسَ، [فتنقلها من][٣] بطن الأرض، فتخرجها إلى ظهرها، لتُيبِّسها وتُعيدَ إليها جُفوفها، وليضربها النَّسيمُ، وينفَى عنها اللَّخَنَ والفساد.

ثمَّ ربّما كان – بل يكون أكثر – مَكانُها نَديًّا[٤]. وخافتْ أن تنبت نَقَرتْ موضع القطْمير من وسط الحبّة، وتعلم أنّها من ذلك الموضع تبتدئُ وتنبتُ وتنقلب[٥]، فهي تفلق الحبّ كلَّه أنصافاً. فأمّا إذا كان الحب من حبِّ الكُزْبُرة، فلقته أرباعًا، لأنَّ

(١) الخبر في ثمار القلوب (٦٤٣).

(٢) في ثمار القلوب: «ثم تبلغ من نقدها؛ وصحة تمييزها».

(٣) في الأصل: «ويقبلها»؛ والتصحيح من ثمار القلوب.

(٤) في الثمار: «ثم ربما – بل في أكثر الأوقات – اختارت ذلك ليلاً، لأنه أخفى، وفي القمر لأنها فيه أبصر، فإن كان مكانها ندياً».

(٥) في الثمار: «تنبت وتصلب».

أنْصافَ حبٍّ الكزبرة ينبت منْ بين جميع الحبوب. فهي على هذا الوجه مجاوزةٌ لفطنةِ جميع الحيوان، حتَّى ربَّما كانت في ذلك أحزمَ من كثير من الناس.

ولها، مع لطافة شخْصها وخِفَّة وزنها،وفي الشمِّ والاستراوح ما ليس لشيء.

وربّما أكل الإنسانُ الجرادَ أو بعض ما يشبه الجرادَ،فتسقط من يده الواحدةُ أو صدرُ الواحدة، وليس يرى بقُربه ذَرَّةً ولا له بالذّرِّ عَهْدٌ في ذلك المنزلِ،فلا يلبثُ أن تُقْبل ذَرَّة قاصدةٌ إلى تلك الجرادة، فترومها وتحاول قَلْبها ونقلها، وسحبها وجرَّها، فإذا أعجزتْها بَعْدَ أن بلغتْ عُذْرًا، مضتْ إلى جُحرِها راجعةً، فلا يلبَثُ ذلك الإنسانُ أن يراها قد أقبلتْ، وخَلفها صُويحباتُها كالخيطِ الأسودِ الممدُود، حتى يتعاونَّ عليها فيحملنها.

فأوّلُ ذلك صِدْق الشَّمِّ لما لا يشَمُّه الإنسان الجائع. ثمَّ بُعْدُ الهمَّةِ، والجراءةُ على محاولةِ نقل شيءٍ في وزْنِ جسمِها مائةَ مرَّة، وأكثر من مائة مرّة.

وليسَ شيءُ من الحيوان يقْوى على حملِ ما يكونُ ضعف وزنه مراراً غيْرَها. وعلى أنها لا ترضى بأضعْافِ الأضعافِ، إلاّ بعد انقطاعِ الأنفاس.

٩٤٦ - [كلام النمل]

فإن قلت: وما علَّمَ الرَّجُلَ أنَّ الَّتي حاولتْ نَقْل الجرادَة فعجَزت، هي التي أخْبَرَتْ صُوَيحباتها من الذَّرّ، وأنها كانت على مقدَّمتهن؟ قلنا: لطُول التَّجربة، ولأنّا لم نر ذَرَّةً قط حاولَتْ نقل جرادةٍ فعجزتْ عنها، ثمَّ رأيناها راجعةً، إلاّ رأينا معها مثْلَ ذلك، وإنْ كنّا لا نَفْصلُ في العينِ بينها وبينَ أخواتها، فإنَّه ليس يقعُ في القلب غيرُ الذي قلنا. وعلى أنَّنا لم نرَ ذَرَّةً قطُّ حملت شيئاً أو مضت إلى جُحرِها فارغةً، فتلقاها ذَرّةٌ، إلاّ واقَفَتْها ساعة وخبَّرتْها بشيء. فدَلَّ ذلك على أنها في رجوعها عن الجرادة، إنَّما كانت لأشباهها كالرَّائد لا يكذبُ أهْلَهُ[١].

ومن العجب أنَّك تُنْكر أنَّها توحي إلى أخْتها بشيء، والقرآنُ قد نطق بما هو أكثرُ من ذلك أضعافاً. وقال رُؤْبة بن العجّاج[٢]: [من الرجز]

لو كُنْتُ عُلِّمْتُ كلامَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمانَ كلامَ النَّمْلِ[٣]

---

(١) في مجمع الأمثال ٢ / ٢٣٣، وجمهرة الأمثال ١ / ٤٧٤: «الرائد لا يكذب أهله».

(٢) ديوان رؤبة ١٣١، واللسان والتاج (حكل، فطحل)، والجمهرة ٥٦٢، والتهذيب ٤ /١٠١، والمجمل ٢ / ٩٤، وبلا نسبة في المخصص ٢ / ١٢٢، والمقاييس ٢ / ٩١، وديوان الأدب ١ / ١٥٨.

(٣) الحكل: ما لا يسمع له صوت كالذر والنمل. «اللسان: حكل».

وقال اللّه عز وجلّ: ﴿حَتى إذا أتَوْا على وادي النَّمْلِ قالتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلوا مساكِنَكُمْ لا يحْطِمَنَّكُمْ سُليمانُ وجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ. فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً منْ قَولِها وقالَ ربِّ أَوْزِعْني أنْ أشكُرَ نِعْمتكَ الَّتي أنعمت عليَّ﴾[1] فقد أخبر القرآنُ أنها قد عرَفَتْ سليمان وأثبتتْ عينَهُ، وأنَّ علْمَ منطقها عندَه، وأنها أمرتْ صُويحباتها بما هو أحزَمُ وأسلم. ثمَّ أخْبَرَ أنها تعرِفُ الجنودَ من غير الجنود، وقد قالت: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُون﴾. ونخَالُك أيها المنكِرُ تبسُّمَهُ بحالهنَّ، أنّك لم تعرفْ قَبْلَ ذلك الوقت وبَعْدَهُ، شيئاً مِنْ هذا الشكل من الكلام، ولا تدْبيرًا في هذا المقدار. وأمّا ما فوق ذلك فليس لك أن تدَّعيه. ولكن، ما تُنكِرُ من أمثاله وأشباهه وما دُون ذلك، والقرآنُ يدلُّ على أنّ لها بياناً، وقولاً، ومنطقاً يفصلُ بين المعاني التي هي بسبيلها؟! فلعلها مكلَّفة، ومأمورةٌ منهيَّة، ومُطيعةٌ عاصية. فأوّل ذلك أن المسألة من مسائل الجهالات. وإنّ مَنْ دَخلتْ عليه الشُّبهة من هذا المكانِ لناقصُ الرَّوِيَّة رَديُّ الفكْرة.

وقد علمنا، وهم ناس ولهم بذلك فضيلةٌ في الغريزةِ وفي الجنسِ والطَّبيعة. وهم ناسٌ إلى أن ينتهوا إلى وقت البلوغ ونزول الفَرْض حتى لو وَردت ذَرّةٌ لشربتْ مِنْ أعلاه.

٩٤٧ - [شعر فيه ذكر النمل]

وقال أبو دَهبْلٍ[2]: [من المديد]

آبَ هذا اللَّيلُ فاكتنعا	وأمَرَّ النَّومُ فامتنَعا[3]
في قِبابٍ وَسْطَ دَسْكرَةٍ	حَوْلها الزَّيْتُونُ قد يَنعا[4]
ولها بالماطرون إذا	أكلَ النملُ الذي جَمعا[5]
خُرْفةٌ، حتى إذا ارتبعَتْ	سكنتْ مِنْ جِلّقٍ بيَعا[6]

---

(١) ١٨ - ١٩ / النمل: ٢٧.

(٢) الأبيات لأبي دهبل الجمحي في ديوانه ٨٥، والمستقصى ١ / ٥١، وليزيد بن معاوية في ديوانه ٢٢، والمقاصد النحوية ١ / ٤٨، ومعجم البلدان ٥ / ٤٢ (الماطرون)، وللأحوص الأنصاري في ديوانه ٢٢١، وليزيد أو للأحوص في الخزانة ٧ / ٣٠٩، والكامل ١ / ٢٢٦ - ٢٢٧ (طبعة المعارف)، والثاني للأخطل في اللسان والتاج (دسكر)، والثالث له في اللسان (مطرن).

(٣) اكتنع الليل: حضر ودنا. «اللسان: كنع». أمرَّ: صار مرّاً.

(٤) الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم؛ يكون فيها الشراب والملاهي. «اللسان: دسكر».

(٥) الماطرون: موضع بالشام قرب دمشق. معجم البلدان ٥ / ٤٢.

عِنْدَ غيري فالتمس رَجلاً يأكلُ التَّنُّوم والسَّلَعا[١]
ذاك شيءٌ لست آكِله وأُراهُ مأكلاً فظِعا

وقال أبو النَّجم في مثل ذلك[٢]: [من الرجز]

١- وكانَ نُشّاب الرِّياحِ سُنبلُهْ   واخضَرَّ نبْتاً سِدْرُهُ وَحَرْمَلُهْ[٣]
٣- وابيضَّ إلاّ قاعه وجَدْوَلُهْ   وأصبحَ الرَّوضُ لَويّا حَوْصلُه[٤]
٥- واصفرّ من تَلْعٍ فليجٍ بقلُه   وانحتّ من حرشاء فَلْجٍ خَرْدَلُه[٥]
٧- وانشقَّ عن فصح سواء عُنْصُلُه   وانتفض البَرْوقُ سُوداً فُلْفُلهْ[٦]
٩- واختلفَ النَّمْلُ قطارًا ينْقُلُه   طارَ عنِ المُهْر نَسيلٌ يُنْسِلُهْ[٧]

٩٤٨ - [استطراد لغوي]

قال أبو زيد: الحمكة القمْلة، وجمعه حَمَك. وقد ينقاسُ ذلك في الذَّرّةِ.

قال أبو عبيدة: قرية النمل من التُّراب[٨]، وهي أيضاً جرثومة النمل.

وقال غيره: قرية النمل ذلك التراب والجُحرُ بما فيه من الذرِّ والحبِّ والمازنِ. والمازنُ هو البيض، وبه سمَّوا مازن.

(١) التنّوم: شجر له حمل صغار كمثل حب الخروع، ويتفلق عن حب يأكله أهل البادية. «اللسان: تنم».

(٢) ديوان أبي النجم ١٥٧ - ١٥٩، والرابع في اللسان (حصل)، والتهذيب ٤ / ٢٤١، والسادس والتاسع في اللسان والتاج (قطر، حرش)، وبلا نسبة في الجمهرة ٢١٨، ٥١٣، والسادس في المقاييس ٢/٣٩، و (٦، ٨، ٩) بلا نسبة في الاشتقاق ٢٩٨، و(٧، ٨) في التاج (نفض)، والجمهرة ٢١٨، و(٨) في اللسان والتاج (فلل)، و(٨، ٩) في أساس البلاغة (فلل)، و(١٠) في اللسان والتاج (عتل).

(٣) في ديوانه: (السدر: شجر النبق. الحرمل: نبت له ورق كورق الصفصاف).

(٤) في ديوانه: (حوصله: مجتمع الماء فيه).

(٥) في ديوانه: (التلع: السيل؛ أو مجرى الماء من مكان عالٍ. الفليج: المتسع ذو الأفلاج، والأفلاج: الأودية الصغيرة. انحتّ: سقط وطاح. الحرشاء: اسم لخردل البر).

(٦) في ديوانه: (انشق: انفتح وكبّ ثمرته بعد أن أتم النضج. العنصل: بصل البر. البروق: شجر هش ضعيف له ثمر حبه أسود صغير كالفلفل).

(٧) في ديوانه: (القطار أصلاً أن تتلو الإبل بعضها مقطورة، وكذا جاء النمل يجمع الحب بجد ونشاط. النسيل: الساقط من الريش والصوف والشعر).

(٨) في المخصص ٨ / ١٢٠: (قرية النمل وجرثومته: ما يجمع من التراب).

قال أبو عَمْرو: الزِّبال ما حملت النملة بفيها، وهو قول ابن مُقبل[1]: [من المتقارب]

كريم النِّجارِ حَمَى ظهره ... فلم يُرْتَزَأ بركوب زبالا[2]

٩٤٩ - [شعر في التعذيب بالنمل]

وأنشد ابن نُجيمْ: [من الخفيف]

هَلكوا بالرُّعافِ والنمل طورْاً ... ثمَّ بالنَّحس والضِّباب الذُّكور

وقال الأصمعيّ في تسليط الله الذَّرَّ على بعض الأمم[3]: [من الخفيف]

لحقوا بالزّهْوَيَين فأمسوا ... لا ترى عُقْرَ دارهم بالمبينِ

سلَّط الله فازرا وعُقيفا ... ن فجازاهُمُ بدارٍ شَطون

يتبعُ القارَّ والمسافرَ مِنْهُمْ ... تحت ظلٍّ الهدى بذات الغُصون

فازر، وعقيفان: صنفان من الذَّرّ. وكذلك ذكروه عن دغفل بن حنظلة الناسب[4]. ويقال: إنّ أهل تهامة هلكوا بالرُّعافِ مرتينِ. قال: وكان آخرُ من مات بالرُّعاف من سادة قريش، هِشامَ بن المغيرة.

قال أميّةُ بن أبي الصَّلت في ذلك[5]: [من الخفيف]

نُزِعَ الذِّكْرَ في الحياة وغنا ... وأراهُ العذاب والتَّدميرا[6]

أرسلَ الذَّرَّ والجرادَ عليهم ... وسِنيناً فأهلكَتْهُمْ ومُورا[7]

---

(١) ديوان ابن مقبل ٢٣٧ (١٧٦)، واللسان والتاج (رزأ، زبل)، والجمهرة ٣٣٤، والتهذيب ١٣/٢١٦، وديوان الأدب ١/٤٦٦، وهو لابن أحمر في أساس البلاغة (زبل)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في المخصص ٨/١٢٠.

(٢) في ديوانه: (النجار: الأصل. الزبال: ما تحمل النملة بفيها، والمعنى أنه فحل لم يركب وأودع للفحلة).

(٣) البيت الثاني بلا نسبة في اللسان والتاج (عقف)، والتهذيب ١/٢٦٦، وروايته:
(سلّط الذرُّ فازرٌ أوعُقَيْفا ... ن فأجلاهم لدارٍ شطونِ).

(٤) في اللسان: (قال دغفل النسابة: ينسب النمل إلى عقفان والفازر. فعقفان جدّ السود، والفازر: جد الشقر).

(٥) ديوان أمية ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٥.

(٦) رواية صدره في ديوانه: (سلب الذكْر في الحياة جزاءً).

(٧) في ديوانه: (عليهم: الضمير لآل فرعون، لأن اللّه أهلكهم بالطوفان والجراد. والمور: التراب تثيره الرياح).

ذَكَرُ الذَّرِّ إنَّه يفعل الشر رَّ وإن الجـراد كان ثُبُورا[1]

٩٥٠ - [النبي سليمان والنملة]

وقرأ أبو إسحاق قوله عز وجلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُليمانَ جُنودُهُ مِن الجنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعونَ. حتَّى إذا أَتَوْا على وادي النَّمْلِ﴾[2]، فقال[3]: كان ذلك الوادي معروفاً بوادي النمل، فكأنّه كان حِمى. وكيف نُنْكِرُ أن يكون حمى؟! والنَّمْلُ ربَّما أجْلتْ أمَّةً من الأُممِ عن بلادهم.

ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شَعيرُكُمْ عَجبٌ، وأرْزكُمْ عَجبٌ، وسمككم عجب، وجِداؤكُمْ عجب، وبطُكم عَجبٌ، ودَجاجُكم عجب، فلو كانت لكم أعناب! فقالوا: كلُّ أرضٍ كثيرة النَّمْلِ لا تصلُح فيها الأعناب. ثمَّ قرأ: ﴿قالتْ نَمْلَةٌ يا أيها النّمْلُ ادْخُلوا مساكنكُمْ﴾[4] فجعل تلك الجحَرةَ مساكن. والعربُ تسميها كذلك ثمَّ قال: ﴿لا يحْطمَنَّكُمْ سُليمانُ وَجنودهُ﴾[4] فجمعتْ من اسمه وعينه، وعرفت الجنُدَ من قائد الجند، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لا يشعُرُونَ﴾ فكانوا معذورين، وكنتم ملومين، وكان أشدَّ عليكم. فلذلك قال: ﴿فتبسَّمَ ضاحكاً مِنْ قوْلها﴾[5] لما رأى مِنْ بُعْد غوْرها وتسديدها، ومعرفتها. فعند ذلك قال: ﴿رَبِّ أوْزِعْني أن أشْكُرَ نِعْمَتكَ الَّتي أنعمْتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ صالِحًا ترضاهُ وأدْخلني بِرحْمتِكَ في عِبادِكَ الصَّالحينَ﴾[5].

٩٥١ - [أمثال في النمل]

قال: ويقال: «ألطف من ذَرَّةٍ» و: «أضْبطُ مِنْ نملة»[6].

قال: والنملةُ أيضاً: قُرحَةٌ تعرضُ للسَّاق، وهي معروفةٌ في جزيرة العرب.

قال: ويقال: «أنْسَبُ مِنْ ذَرَّة».

---

(١) في ديوانه: (الثبور: الهلاك، وصفه بالمصدر، يريد أنه مهلك).
(٢) ١٧ - ١٨/النمل: ٢٧.
(٣) ثمار القلوب ٣٤٥ (٦٣٩).
(٤) ١٨/النمل: ٢٧.
(٥) ١٩/النمل: ٢٧.
(٦) المستقصى ١/٢١٤، ومجمع الأمثال ١/٤٢٧، وجمهرة الأمثال ٢/١٢، والدرة الفاخرة ١/٢٨٢.

٩٥٢ - [تفسير بيت من الشعر]

فأمَّا قوْلُهُ(١): [من الخفيف]

لَوْ يَدِبُّ الحوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّ رِّ عَلَيْها لأنْدَبَتْها الكلومُ

فإنَّ الحوليَّ منها لا يُعرفُ منْ مَسانِّها، وإنما هو كما قال الشاعر: [من الطويل]

تلقّط حَوْلِيّ الحصى في منازلٍ من الحيِّ أمْسَتْ بالحبيبَين بلْقعا

قال: وحوليُّ الحصى: صغارها. فشبَّهه بالحوليِّ من ذوات الأربع.

٩٥٣ - [أحاديث في النمل]

ابن جُريج، عن ابن شهاب، عن عُبيد الله بن عبد اللّه بن عتبة، عن ابن عباس، أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «مِنْ الدَّوابِّ أربَعٌ لا يُقْتَلْنَ: النّملة، والنَّحْلة، والصُّرَد، والهُدهُد».

وحدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ عبدِ الله المسعودي، قال: حدّثنا الحسن بن سعد، مولى علي بن عبد الرحمن بن عبد اللّه قال: «نزل رسول اللّه ﷺ منزلاً فانطلق لحاجته، فجاء وقد أوقد رجلٌ على قريَة نَمْلٍ، إمَّا في شجرةٍ وإمَّا في أرض، فقال رسول الله ﷺ :مَنْ فَعلَ هذا؟! أطْفِئها أطْفئها!».

ويحيى بن أيوب،عن أبي زرعة بن جرير، قال أنبأنا أبو زرعة عن أبي هريرة قال :« نزل نَبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرة، فعضَّته نملةٌ، فقام إلى نَمْلٍ كثيرٍ تحتَ شجرةٍ فقتلهُنَّ، فقيل له: أفلا نَمْلةً واحدةً؟!»(٢).

وعبد اللّه بنُ زيادٍ المدنيُّ، قال: أخبرني ابنُ شهابٍ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: «سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: نزَلَ نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شَجَرة، فقرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فأمَرَ بجَهازه فأُخرجَ مِنْ تحتها، ثمَّ أمرَ بقَرْية النَّمْلِ فأُحرقَتْ، فأوْحى اللهُ إليه: أفي أن قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أُمَّةً من الأممِ يسبِّحون الله تعالى ؟! فهلاَّ نمْلةً واحدةً!»(٣).

يحيى بن كثير، قال: حدّثنا عمر بن المغيرة بن الحارث الزِّمّاني، عن هشامٍ

---

(١) ديوان حسان ٤٣٣، والتاج (ندب).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٤١، ومسلم في السلام برقم ٢٢٤١.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد برقم ٢٨٥٦.

الدَّسْتوائي قال: إنَّ النَّمْلَ والذَّرَّ إذا كانا في الصَّيفِ كلِّه ينقُلْن الحبَّ، فإذا كان الشتاءُ وخفِنَ أن ينبت فلقْنَه.

هشام بن حسّان، أنّ أهلَ الأحنف بن قيس لَقوا من النَّمْلِ أذًى، فأمرَ الأحنف بكُرْسيٍّ فوُضِع عند جُحْرهنَّ، فجلَسَ عليه ثمَّ تشهَّد فقال: لَتَنْتَهُنَّ أوْ لنُحَرِّقنّ عليْكُنَّ، أو لنفعلنَّ أوْ لنفعَلنَّ! قال: فذهبن.

وعوف بن أبي جميلة عن قسامةَ بن زُهير قال: قال أبو موسى الأشعريّ: إنَّ لكلِّ شيء سادةً، حتَّى إنَّ للنمل سادة.

عبد اللّه بن زيادٍ المدنيُّ، قال: أنبأنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يقول :خرج نبيٌّ من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هُمْ بنملة رافعة رأسها إلى السماء، فقال ذلك النبيُّ: ارجِعُوا فقد استُجيبَ لكم منْ أَجْلِ هذا النَّمْلِ!».

مسْعَر بن كِدام، قال حدّثنا زيد القمِّيُّ، عن أبي الصِّدِّيق النَّاجي قال: «خرج سليمانُ بنُ داود - عليهما الصلاة والسلام - يستسقي فرأى نملةً مستلقيةً على ظهرها، رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهمَّ إنَّا خلقٌ من خَلْقك، ليس بنا غنًى عن سقْيك، فإمّا أنْ تسقينا وترزُقنا، وإمَّا أنْ تُميتنا وتُهلكنا! فقال:ارجعوا فقد سُقيتمْ بدعوة غيركم!»(١).

٩٥٤ - [تأويل آية]

وحدثني أبو الجهجاه قال: سأل أبو عمرو المكفوف عن قوله تعالى: ﴿حتى إذا أَتَوْا على وادي النّمْلِ قالتْ نَمْلةٌ يا أيُّها النَّملُ ادْخُلُوا مساكنَكُمْ لا يحْطمَنَّكُمْ سُليمانُ وجنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ. فتبسَّم ضاحكاً منْ قَولها﴾(٢) فقلت له: إنَ نذيراً يعجب منه نبيٌّ من الأنبياء ثمَّ يعظمُ خطرهُ حتى يُضحكه لَعَجيب! قال:فقال: ليس التأويلِ ما ذهبتَ إليه. قال: فإنَّه قد يضْحك النبيُّ، عليه السلام، من الأنبياء منْ كلامِ الصبيِّ، ومِنْ نادرةٍ غريبة. وكلُّ شيءٍ يظهَرُ من غير معدنه، كالنَّادرة تُسمع من المجنون، فهو يُضْحك، فتبسُّمُ سُليمانَ عندي على أنّه استَظرف ذلك المقدارَ من النّملة. فهذا هو التأوِيل.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٢.

(٢) ١٨-١٩/ النمل: ٢٧.

٩٥٥ - [سادة النمل]

وقال أبو الجهجاه: سألتُه عن قول أبي موسى: إنَّ لكلِّ شيءٍ سادةً حتى الذَّرُّ. قال: يقولون: إنّ سادتها اللَّواتي يخرُجْنَ من الجُحْر، يرتَدْنَ بجماعتها، ويستبقن إلى شمٍّ الذي هُو مِنْ طعامهنَّ.

وقال زهير[١]: [من الطويل]

وقالَ سأقضِي حاجَتي ثمَّ أتَّقي عَدُوِّي بألْفٍ مِنْ وَرائي مُلجَّمِ

فشَدَّ ولم تفْزَع بُيُوت كثيرةٌ لدى حيثُ ألقَتْ رَحْلها أمُّ قشْعمِ[٢]

قال بعض العلماء: قرية النمل.

٩٥٦ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال في لسانه حُبْسة: إذا كان في لسانه ثِقَلٌ يمنَعُه من البيان. فإذا كان الثِّقلُ الذي في لسانه من قِبَل العُجْمة قيل: في لسانه حُكْلة. والحُكلُ من الحيوان كلّه ما لم يكن له صوتٌ يُستَبان باختلاف مخارجه، عند حَرَجه وضجَره، وطلبهِ ما يغذُوه، أو عندَ هِياجه إذا أراد السِّفاد، أو عند وعيدٍ لقتالٍ، وغير ذلك من أمره.

٩٥٧ - [سبب اختلاف كلام الناس في رأي الهند]

وتزعم الهندُ أنّ سبب ما له كثر كلامُ الناس واختلفتْ صُوَرُ ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقاديرُ أصواتهم في اللِّين والشّدّة، وفي المدِّ والقطْع - كثرةُ حاجاتهم. ولِكثرةِ حاجاتهم كثرتْ خواطرُهم وتصاريفُ ألفاظهم، واتّسعتْ على قدْرِ اتّساع معرفتهم.

قالوا: فحوائج السَّنانير لا تعدو خمسة أوجه: منها صياحُها إذا ضربت، ولذلك صورة. وصياحُها إذا دعت أخَواتها وآلافَها، ولذلك صورة. وصياحُها إذا دعَتْ أولادَها للطُّعْم، ولذلك صورة. وصياحُها إذا جاعَتْ، ولذلك صورة. فلما قلَّتْ وجوهُ المعرفةِ ووجوهُ الحاجات، قلَّتْ وجوهُ مخارج الأصواتِ. وأصواتها تلك فيما بينها هوَ كلامها.

وقالوا: ثمَّ من الأشياء ما يكونُ صوتها خفياً فلا يفهمه عنها إلا ما كان مِن

---

(١) البيتان من معلقته في ديوانه ٢٩.

(٢) في ديوانه: (أم قشعم: الحرب؛ أو المنية).

شكلها. ومنها ما يفهم صاحبَه بضروبِ الحركات والإشارات والشمائل. وحاجاتها ظاهرةٌ جليَّة، وقليلةُ العددِ يسيرة. ومعها من المعرفة ما لا يقصِّر عن ذلك المقدار، ولا يجوزُه.

وراضَةُ الإبل، والرِّعاءُ، وَرُوَّاضُ الدَّوَابِّ في المُروجِ، والسُّوَّاسُ، وأصحابُ القنْص بالكلاب والفهود، يعرفون باختلاف الأصوات والهيئات والتشوُّف، واستحالة البصرِ، والاضطرابِ، ضروباً من هذه الأصناف، ما لا يعرف مثله من هو أعقلُ منهم، إذا لم يكن له منْ مُعاينة أصناف الحيوان ما لهمْ. فالحُكلُ من الحيوان من هذا الشكل. وقد ذكرناه مرَّة قال رُؤبة[1]: [من الرجز]

لَوْ أَنَّني عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ ... أوْ أنَّني أُوتيتُ علمَ الحُكْلِ

عِلْمَ سُليمانٍ كلامَ النَّملِ

٩٥٨ - [تفسير معنى الحكل]

وقال أبو العباس محمَّد بن ذُؤيب الفُقيميُّ، وهو الذي يقال له العُمانيُّ في بعض قصائده في عبد الملك بن صالح. والعُمانيُّ ممن يُعدُّ ممن جمع الرَّجزَ والقصيد، كَعُمَرَ بن لجإٍ، وجرير بن الخطفي، وأبي النّجم وغيرهم.

قال العُمانيّ[2]: [من الطويل]

ويَعْلم قَوْلَ الحُكْل لو أنَّ ذَرَّةً ... تُساودُ أُخرى لم يَفُتْهُ سِوادُها

يقول: الذَّرُّ الذي لا يُسمع لمناجاته صوت، لو كان بينها سِوادٌ لفهمه. والسِّواد هو السِّرار. قال النبيُّ ﷺ لابن مسعود: «أذنكَ حتى أساودكَ» أي تسمع سِوادي. وقالت ابنةُ الخُسِّ: قُرْبُ الوسادِ وطولُ السِّواد[3].

قال أبو كبير الهُذَليُّ[4]: [من الكامل]

ساودت عنها الطَّالبينَ فلمْ أنَمْ ... حتى نَظَرْتُ إلى السِّماكِ الأعزلِ[5]

---

(١) ديوان رؤبة ١٣١، واللسان والتاج (حكل) والبيان ١ / ٤٠.

(٢) البيت في المعاني الكبير ٦٣٦، والبيان ١ / ٤٠، ٣٢٥، وبهجة المجالس ١ / ٤٢٣، وأساس البلاغة (حكل)، وبلا نسبة في اللسان (حكل)، والمختار من شعر بشار ٨.

(٣) ورد قولها في البيان ١ / ٣٢٤، ومجالس ثعلب ٣٠٤، وربيع الأبرار ٣ / ١٥٨، وهو من الأمثال في المستقصى ١ / ١٩٥، ومجمع الأمثال ٢ / ٩٣، وجمهرة الأمثال ٢ / ١١٤، ١٢٦.

(٤) شرح أشعار الهذليين ١٠٧٩، واللسان (سهر).

(٥) السماك الأعزل: نجم وقّاد؛ شبهوه بالأعزل من الرجال، وهو الذي لا سلاح معه، وهو منزل القمر. العمدة ٢ / ٢٥٤.

وقال النمرُ بنُ تَوْلب[1]: [من الكامل]

ولقد شهِدْتُ إذا القداحُ تَوَحَّدَتْ   وشهدْتُ عند اللَّيل مُوقِدَ نارها

عن ذاتِ أوْليةٍ أساودُ ربّها   وكأنَّ لَوْن الملحِ تحت شفارها

وقد فسَّرنا شأن الحكل.

وقال التيميُّ الشاعرُ المتكلم - وأنشد لنفسه وهو يهجو ناساً من بني تغْلبَ معروفين -[2]: [من الكامل]

عُجْم وحُكْلٌ لا تُبِينُ، ودِينُها   عِبادةُ أعلاجٍ عليها البرانسُ[3]

ففصل بين الحُكْل والعُجْم مثل ذواتِ الحافر والظِّلف والخفِّ، وجعل الحُكْلَ كالذرِّ والنَّمل والخنافس، والأشكال التي ليست تصيحُ من أفواهها. فقال لي يومئذ حفصٌ الفَرْدُ: أشهدُ أنّ الذي يقال فيه حقٌّ، كان والله نصرانيًّا، ثمَّ صار يخبر عن النصارى كما يخبر عن الأعراب!

٩٥٩ - [بين الأصمعي والمفضَّل]

وقال الأصمعيّ للمفضَّل، لما أنشد المفضَّلُ جعفرَ بن سليمانَ قولَ أوسِ بن حجر[4]: [من المنسرح]

وذاتُ هدمٍ عارٍ نواشِرُها   تُصْمِتُ بالماء تَوْلباً جَدِعا[5]

فجعل الذَّال معجمة، وفتحها، وصحَّف، وذهب إلى الأجذاع. قال الأصمعيّ:

---

(١) ديوان النمر بن تولب ٣٥١، وأدب الكاتب ٥١٤، والسمط ٧٨٣، والمخصص ١٤/٦٧، والأول في اللسان والتاج (ولي) والتهذيب ١٥/٤٥٣، والبيتان بلا نسبة في رصف المباني ٣٦٩.

(٢) البيت في البيان ١/٤٠، ورواية صدره: (ولكن حكلاً لا تبين وديتها).

(٣) العلج: الرجل من كفار العجم، والرجل القوي الضخم من الكفار. «اللسان: علج». البرانس: جمع برنس: وهو كل ثوب رأسه منه ملتزق به، أو هو قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها في صدر الإسلام. «اللسان: برنس».

(٤) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ٥٥، والخصائص ٣/٣٠٦، واللسان (تلب، جدع، هدم)، والتاج (تلب، هدم)، والتهذيب ١/٣٤٦، والمخصص ١٤/٦٤، والمزهر ٢/٣٧٨، ولبشر بن أبي خازم في ديوانه ١٢٧ (١٥٠)، ولبشر أو لأوس في التاج (جدع)، وبلا نسبة في الجمهرة ١٣١٣، والمقاييس ١/٤٣٢، وديوان الأدب ٢/٣٥، والعقد الفريد ٢/٤٨٣.

(٥) في ديوان بشر: (الهدم: الثوب الخَلَق الرث، وذات هدم: يعني امرأة ضعيفة. النواشر: عروق السواعد. تولب: أراد به طفلها؛ وهو في الأصل ولد الحمار. الجدع: السيئ الغذاء).

إنما هي: «تَوْلباً جَدِعا» الدَّال مكسورة. وفي الجَدِعِ يقول أبو زُبيد[1]: [من البسيط]

ثُمَّ استقاها فلم يقطع نظائمها عن التضبُّبِ لا عَبْلٌ ولا جَدِعُ

وإنما ذلك كقول ابن حَبْناء الأشجعي: [من الوافر]

وأرْسَلَ مُهْمَلاً جَدِعاً وخُفّاً ولا جَدِعُ النَّبات ولا جَديبُ

فنفخ المفضَّلُ، ورفع بها صوته، وتكلَّم وهو يصيح. فقال الأصمعي: لو نفخت بالشَّبُّور لم ينفعك! تكلَّمْ بكلامِ النَّملِ وأصِبْ!

والشَّبُّور: شيء مثل البُوق، والكلمة بالفارسية. وهو شيءٌ يكون لليهود، إذا أراد رأسُ الجالوت أن يحرِّم كلامَ رجلٍ منهم نفخُوا عليه بالشَّبُّور.

٩٦٠ - [تحريم الكلام لدى اليهود والنصارى]

وليس تحريمُ الكلام من الحدود القائمة في كتبهم، ولكنَّ الجاثَليقَ ورأس الجالوت، لايمكنُهُما في دار الإسلام حبسٌ ولا ضرْب، فليس عندهما إلاَّ أنْ يغرِّما المال، وَيُحرِّما الكلام. على أنَّ الجاثليق كثيراً ما يتغافل عن الرَّجلِ العظيمِ القدْر، الذي له من السُّلطان ناحيةٌ.

وكان طيمانو رئيس الجاثليق، قدْ همَّ بتحريم كلام عَونِ العباديِّ، عندما بلغه من اتخاذ السَّراري، فتوعّده وحلف: لئن فعل ليُسْلمنَّ! وكما ترك الأشقيل وميخاييل وتوفيل، سَمْلَ عيْنِ مَنْويل - وفي حكمهم أنَّ منَ أعان المسلمين على الرُّوم يقتل؛ وإن كان ذا رأي سَملوا عينيه ولم يقتلوه - فتركوا سُنَّتهم فيه.

وقد ذكرنا شأنهم في غير ذلك، في كتابنا على النَّصَارى فإن أردته فاطلبهْ هنالك.

٩٦١ - [معنى بيت لابن أبي ربيعة]

وقال عمر بن أبي ربيعة[2]: [من الكامل]

لَوْ دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ضاحِي جِلْدِها لأَبَانَ مِنْ آثارهنَّ حُدُورُ

والحَدْر: الورم والأثرُ يكون عن الضَّرْب.

---

(١) ديوان أبي زبيد ٦٤٥، والطرائف الأدبية ١٠٠، وأساس البلاغة (جدع).

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ١٢٥، واللسان والتاج وأساس البلاغة (حدر)، وبلا نسبة في اللسان (بين)، والمخصص ٢/ ٨٠، والتهذيب ٤/ ٤٠٨، والعين ٣/ ١٧٩.

٩٦٢ - [التكنّي بالنمل]

وقد يسمَّى بنَمْلة ونُمَيْلة، ويكتنون بها. وتسمَّوا بذَرٍّ، واكتنوا بأبي ذرّ. ويقال: سيفٌ في مَتْنه ذَرٌ، وهو ذَرِّيُّ السَّيف.

٩٦٣ - [أشعار تصف السيف]

وقال ابن ضبَّة[١]: [من الهزج]

وقد أغدُو مع الفتيا ... ن بالمنجرد التَّرِّ[٢]
وذى البِرْكَةِ كالتَّابو ... ت والمَحْزَمِ كالقَرِّ[٣]
معي قاضبة كالملْـ ... ـحِ في مَتْنَيْه كالذَّرِّ
وقد أعْتسِرُ الضَّرْبَـ ... ـةَ تثني شَثْنَ الشَّتْرِ

وقال الآخر: [من الوافر]

تكادُ الرِّيح ترميها صرارا ... وتُرْجَفُ إن يُلثِّمها خمارُ
وتحسَبُ كلَّ شيءٍ قيلَ حَقًّا ... ويُرْعِبُ قلبها الذَّرُّ الصِّغارُ

وقال أوسُ بنُ حجر، في صفة السَّيْفِ[٤]: [من الطويل]

كأن مدبَّ النَّمْلِ يتَّبِعُ الرُّبا ... ومَدْرج ذرّ خافَ برْداً فأسْهلاَ[٥]
على صفحتيه بعد حين جلائه ... كفى بالَّذي أبلى وأنعتُ مُنْصُلاَ[٦]

قال[٧]: وخطب إلى عقيل بن عُلَّفة بعض بناته رجلٌ من الحُرْقة من جُهينة، فأخذه فشَدَّهُ قِماطاً، ودهن استه برُبٍّ وقمطهُ وقرَّبه من قريةَ النَّمل، فأكل النملُ حُشْوَةَ بطنه.

---

(١) الأبيات في الوحشيات ٧٤، واللسان والتاج (ترر)، والتهذيب ١٤ / ٢٤٩، والجمهرة ٣٢٥، ٣٥٥، وأساس البلاغة (ثرر).

(٢) المنجرد: الفرس السبّاق القصير الشعر. (القاموس: جرد).
الترّ: السريع الركض والمعتدل الأعضاء من الخيل. (القاموس: ترر).

(٣) البركة: الصدر. (القاموس: برك). القر: الهودج. (القاموس: قرر).

(٤) ديوان أوس بن حجر ٨٥، والشعر والشعراء ١٠٠، والأول في عيون الأخبار ٢ / ١٨٧، ومعاهد التنصيص ١ / ١٣٥.

(٥) في ديوانه: (يقول: اشتد على النمل البرد في أعلى الوادي فأسهل، أي أتى السهل فاستبان أثره)

(٦) في ديوانه: (الجلاء: الصقل. أبلي: أشفيك من نعته وأحدثك عنه. النصل: السيف).

(٧) الخبر في الأغاني ١٢ / ٢٥٥ برواية مختلفة.

٩٦٤ - [ذكر النمل في الشعر]

وقال ذوالرُّمّة[١] : [من الطويل]

وَقَرْيةٍ لا جنٍّ ولا أَنَسيّةٍ مُداخَلَةٍ أبوابُها بُنِيَتْ شَزْرا[٢]

نَزلْنا بها ما نبتغي عندها القِرَى ولكنَّها كانت لمنزلنا قَدْرا

وقال أبو العتاهية[٣] : [من الكامل]

أخْبِثْ بدارٍ هَمُّها أشِبٌ جثْل الفُرُوعِ كثيرةٌ شُعَبُه

إنَّ استهانتها بمنْ صرعتْ لَبِقَدْرِ ما تَعْلو بهِ رُتَبُه

وإذا استوتْ للنَّمل أجنحةٌ حتى يطير فقدْ دنا عطبه

وقال البعيث : [من الطويل]

ومولًى كَبَيْتِ النملِ لاخَيْرَ عنده لمولاه إلاّ سَعْيه بنميم

٩٦٥ - [أقوال في النمل]

قال : وقدسمعت بعض الأعراب يقول : إنهُ لنمامٌ نمْليٌّ. على قولهم : « كذبَ عليَّ نَمِلٌ » إذا أرادوا أنْ يخبروا أنه نمام. وقال حميد بن ثوْر، في تهوين قوَّة الذرّ[٤] : [من الطويل]

منعَّمَة، لو يُصْبحُ الذَّرُّ ساريًا على جِلْدِها بضّتْ مدارجهُ دما

وقال اللّه عز وجل: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يرَهُ. ومنْ يَعْمَلْ مثْقَال ذَرَّةٍ شراًّ يَرَه ﴾[٥].

قال : وقيل لعائشة – رضي الله تعالى عنها، وقد تصدَّقتْ بحبَّةِ عنب –: أتصَدَّقينَ بحبَّةِ عنب؟! قالت : « إن فيها لمثاقيل ذَرّ »[٦].

---

(١) ديوان ذي الرمة ١٤٣٢، والمعاني الكبير ٦٣٦، وشروح سقط الزند ١٥٥٦.

(٢) في ديوانه : (يريد قرية النمل. « مداخلة » : بعضها في بعض، وقوله : « بنيت شزراً »، أي : ليست بمستقيمة، هي معوَجَّة).

(٣) ديوان أبي العتاهية ٤٩، وثمار القلوب ٣٤٦ (٦٤١).

(٤) ديوان حميد بن ثور ١٧، وعيون الأخبار ٤ / ١٤٤، والأغاني ٤ / ٣٥٤.

(٥) ٧ – ٨ / الزلزلة : ٩٩.

(٦) ورد قول عائشة رضي اللّه عنها في تفسير الآية التي تقدمت، انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٥٧٧.

٩٦٦ - [لغز في النّمْل]

وممّا قيل في الشِّعر من اللُّغز[١]: [من المتقارب]

فما ذُو جناحٍ له حافرٌ   وليس يضُرُّ ولا ينفعُ

يعني النَّمل. فزعم أنّ للنَّمل حافرًا، وإنَّما يحفِرُ جُحره، وليس يَحفْرِهُ بفمه.

٩٦٧ - [التعذيب بالنمل]

وعذّب عُمَرُ بن هُبيرة سعيد بن عمرو الحَرَشيّ بأنواع العذاب فقيل له: إن أردت ألاّ يُفْلِحَ أبداً فمُرْهُم أن ينفخُوا في دُبُرِه النّمل. ففعلوا فلم يفلح بعدها.

٩٦٨ - [ما يّدخر قوته من الحيوان]

قالوا: وأجناسٌ من الحيوان تَدَّخرُ، وتُشبَّهُ في ذلك بالإنسان ذي العقل والرَّوِيَّة، وصاحب النَّظرِ في العواقب، والتفكير في الأمور: مثلُ الذّرّ، والنّمل، والفأر، والجرذان، والعنكبوت، والنّحل. إلاّ أنَّ النحل لا يدَّخر من الطعام إلاّ جنساً واحداً، وهو العسل.

٩٦٩ - [أكل الذَّرّ والضباع للنمل]

وزعم اليقطريّ أنّك لو أدخَلْتَ نملةً في جُحر ذرٍّ لأكلتها، حتى تأتي على عامّتها. وذكر أنّه قد جرَّب ذلك.

وقال صاحب المنطق: إنَّ الضّباع تأكل النمل أكلاً ذريعاً، وذلك أن الضِّباع تأتي قريةَ النَّمْلِ في وقتِ اجتماعِ النّمل، فتلحَس ذلك النَّملَ بلسانِها، بشهوةٍ شديدةٍ، وإرادة قويّة.

٩٧٠ - [أكل النمل للأرضة]

قالوا: وربّما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم، وأكلتْ كلَّ شيءٍ لهم. ولا تزالُ كذلك حتى يَنْشُوَ في تلك القرى النَّمل، فيسلِّط الله ذلك النّملَ على تلك الأرَضة، حتى تأتيَ على آخرها. وعلى أنَّ النَّمْلَ بعد ذلك سيكونُ له أذى، إلاّ أنّه دونَ الأرضة تعدِّياً. وما أكثرَ ما يذهَبُ النَّمل أيضاً من تلك القُرى، حتى تتمَّ لأهلها السَّلامَةُ من النَّوعينِ جميعاً.

---

(١) البيت في محاضرات الأدباء ٢/ ٣٠٥.

وزعم بعضُهم أنَّ تلك الأَرَضَة بأعيانها تستحيل نَمْلاً، وليسَ فَناؤُها لأكلِ النَّمْلِ لها، ولكنَّ الأرضةَ نفسَها تستحيلُ نملاً. فعلى قدْرِ ما يَستحيل منها يُرَى النقص[1] في عددِها. ومضَرَّتِها على الأيام.

٩٧١ - [مثل في النمل]

قال: وبِالنَّمْلِ يُضرب المَثل؛ يقال: «جاؤوا مِثْلَ النَّمْلِ»[1].

والزِّنْج نوعان[2]: أحدهما يفخَر بالعدد، وهم يسمَّون النَّمل، والآخَر يفخر بالصَّبرِ وعِظَم الأبدان، وهم يسمَّون الكلاب. وأحدهما يكبو والآخرُ ينبو. فالكلابُ تكْبو، والنَّمل تنبو[2].

٩٧٢ - [أجنحة النَّمل سبب هلاكها]

قال: ومن أسبابِ هلاك النّمْلِ نباتُ الأجنحة له. وقد قال الشاعرُ[3]: [من الكامل]

وإذا استَوَتْ للنّمْلِ أجنحةٌ   حتى يَطِيرَ فقَدْ دَنَا عَطبُه

وإذا صارَ النَّمل كذلك أخصبَتِ العصافير؛ لأنها تصطادها في حال طيرَانها.

٩٧٣ - [وسيلة لقتل النمل]

قالوا[4]: وتُقْتَلُ بأنْ يصبَّ في أفواه بيوتها القَطِران والكِبريتُ الأصفر، ويُدَسَّ في أفواهها الشّعر. وقد جرَّبنا ذلك فوجدناه باطلاً. انتهى.

---

(١) في المستقصى ٢/٤٨: «جاءت مثل النمل».

(٢) البيان ٣/٥١، ورسائل الجاحظ ١/٢١١ «رسالة فخر السودان».

(٣) البيت لأبي العتاهية في ديوانه ٤٩، وثمار القلوب ٣٤٦ (٦٤١).

(٤) ربيع الأبرار ٥/٤٨٢.

بـــاب

جملة القول في القِرْدِ والخنزير

وفي تأويل المَسْخ، وكيف كان، وكيف يُمسَخُ الناس على خلقتهما دونَ كلِّ شيء، وما فيهما من العبرة والمحنة؛ وفي خصالهما المذمُومة، وما فيهما من الأمُورِ المحمودة؛ وما الفصْل الذي بينهما في النَّقص، وفي الفَضْل، وفي الذمِّ وفي الحمد.

٩٧٤ - [ذكر الحيوان في القرآن]

وقد ذكر اللّه عزَّ وجلَّ في القرآن العنكبوتَ، والذّرَّ والنَّمْلَ، والكلبَ، والحمار، والنَّحلَ، والهُدهدَ، والغُرابَ، والذئب، والفيلَ والخيل، والبغال، والحمير، والبقَرَ، والبعوضَ، والمعز، والضأن، والبقرة، والنعجة، والحوت، والنُّون. فذكر منها أجناساً، فجعلها مثلاً في الذِّلَّة والضَّعف، وفي الوهْن، وفي البَذاء، والجهل.

وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[١] فقلَّلها كما ترى وحقّرها، وضرب بها المثل. وهو مع ذلك جلَّ وعلا، لم يمسخ أحداً من حَشْو أعدائه وعظمائهم بعوضة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُون اللّه لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لاَ يَسْتَنْقذُوهُ منه ضَعُفَ الطَّالبُ وَالمَطْلُوبُ﴾[٢]. إنَّمَا قرَّع الطالب في هذا الموضع[٣] بإنكاره وضعفه، إذ عجز ضعفُه عن ضَعْف مطلوب لا شيءَ أضعفُ منه، وهو الذباب. ثمّ مع ذلك لم نجدْه جلَّ وعلا، ذكَرَ أنَّهُ مسخ أحداً ذُباباً.

وقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوت﴾[٣] فَدَلَّ بوهْن بيته على وهْن خَلْقه، فكان هذا القولُ دليلاً على التّصغيرِ والتّقليل. وإنما لم يقل: إنِّي مسختُ أحداً من أعدائي عنكبوتاً.

---

(١) ٢٦ / البقرة: ٢.

(٢) ٧٣ / الحج: ٢٢.

(٣) ٤١ / العنكبوت: ٢٩، وانظر ثمار القلوب (٦٣٥) ففيه التعليق نفسه الذي أورده الجاحظ.

وقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[1] فكان في ذلك دليلٌ على ذمِّ طباعه، والإخْبار عن تسرُّعه وبَذائه. وعن جهله في تدبيره، وتركِه وأخْذه. ولم يقل إني مسخْتُ أحداً من أعدائي كلباً.

وذكر الذرَّة فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[2] فكان ذلك دليلاً على أنَّه من الغايات في الصِّغَر والقِلَّة، وفي خِفَّة الوزْن وقلة الرجحان. ولم يذكُرْ أنّه مسَخَ أحداً من أعدائه ذرّة.

وذكر الحمار فقال: ﴿كَمَثَلِ الحمار يَحملُ أَسْفَاراً﴾[3] فجعله مثلاً في الجهل والغفلة، وفي قِلَّة المعرفة وغلَظ الطَّبيعة. ولم يقلْ إنِّي مسخْتُ أحداً من أعدائي حماراً. وكذلكَ جميع ما خَلَق وذَكرَ من أصناف الحيوان بالذَّمِّ والحمد.

فأمَّا غير ذلك ممّا ذكر من أصناف الحيوان، فإنّه لم يذكرْهُ بذمٍّ ولا نقص، بل قد ذكر أكثَرَهنّ بالأمور المحمودة، حتَّى صار إلى ذكر القرد فقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخنَازِيرَ﴾[4] فلمْ يكنْ لهما في قلوبِ النَّاس حال. ولو لم يكن جعل لهما في صُدور العامّة والخاصّة من القُبْح والتَّشويه، ونذالةِ النَّفس، ما لم يجعلْهُ لشيءٍ غيرهما من الحيوان، لما خصَّهما اللّه تعالى بذلك.

وقد علمنْا أنَّ العقربَ أشدُّ عداوةً وأذًى، وأفسَدُ، وأنَّ الأفعى والثُّعْبانَ وعامَّةَ الأحناش، أبغَضُ إليهم وأقتَلُ لهم، وأنَّ الأسَدَ أشَدُّ صَوْلةً، وأنَّهم عن دفعهم له أعجز، وبغضَهم له على حسب قوّته عليهم، وعجزِهم عنه، وعلى حَسَب سوءِ أثره فيهم. ولم نَرَهُ تعالى مسَخَ أحداً من أعدائه على صورة شيءٍ من هذه الأصناف.

ولو كان الاستنذالَ والاستثقالَ والاستسقاطَ أراد، لكان المسخ على صورة بنات وَرْدانَ أولى وأحقّ. ولو كان التَّحقيرَ والتَّصْغيرَ أرادَ، لكانت الصُّؤابة والجرْجسَة أولى بذلك. ولو كان إلى الاستصغار ذهَبَ لكان الذرُّ والقمْل والذُّبابُ أولى بذلكَ.

والدَّليل على قولنا قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنّها شَجَرَةٌ تَخرُجُ في أَصْلِ الجَحيمِ. طَلعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[5] ولَيْسَ أن النَّاسَ رأوْا شيطاناً قطُّ على صورة، ولكنْ

---

(١) ١٧٦/الأعراف:٧.

(٢) ٧ – ٨/الزلزلة: ٩٩، وانظر التعليق نفسه في ثمار القلوب (٦٤٥).

(٣) ٥/الجمعة:٦٢.

(٤) ٦٠/المائدة:٥.

(٥) ٦٤ – ٦٥/الصافات: ٣٧، وانظر التعليق نفسه في ثمار القلوب (١٥٧).

لما كان اللّه تعالى قد جعل في طِباع جميع الأمم استقباحَ جميعِ صُور الشَّياطين، واستسماجَه وكراهتَهُ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرْبَ المثل في ذلك - رجع بالإيحاش والتّنفير، وبالإخافة والتقريع، إلى ما قد جعله اللّه في طباع الأوَّلين والآخِرين وعندَ جميعِ الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم.

وهذا التأويل أشبهُ مِن قولِ مَنْ زعَمَ مِن المفسِّرين، أنّ رُؤوسَ الشّياطين نبات نبت باليمن. [وقول بعضهم: إن الشياطين ها هنا: الحيّات][1].

وقال اللّه عزّ وجلّ لنبيِّه: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] فذكر أنه رِجْسٌ، وذكر الخنزير، وهو أحد المسوخ، ولم يذكر في هذه الآية التي أحصى فيها أصنافَ الحرام، وأباح ما وراء ذلك - القرْدَ.

وصار بعضهم إلى تحريمه من جهة الحديث. وهو عند كثيرٍ منهم يحتمل المعارَضة.

٩٧٥ - [مساوئ الخنزير]

فلولا أنَّ في الخنزير معنًى متَقَدِّماً سوى المسخ، وسِوى ما فيهِ من قبح المنظر وسَماجة التمثيل، وقبح الصوت، وأكل العَذِرة، مع الخلاف الشديد واللِّواط المفْرط والأخلاقِ السمجة، ما ليس في القرد الذي هو شريكه في المسخ - لَمَا ذَكَرَه دونه.

٩٧٦ - [تحريم الخنزير في القرآن، دون القرد]

وقد زعم نَاسٌ أنَّ العربَ لم تَكنْ تأكلُ القُرودَ. وكان من تنصَّرَ مِن كبار القبائل وملوكِها يأكلُ الخِنزير، فاظهر لذلك تحريمهُ؛ إذ كان هناكَ عالَمٌ من الناس، وكثير من الأشراف والوضعاء، و الملوكِ والسُّوقة، يأكلونُه أشدَّ الأكل، ويرغَبون في لحمه أشدّ الرغبة.

قالوا: ولأنَّ لحم القرد يَنْهَى عن نفسه. ويكفي الطبائعَ في الزّجرِ عنهُ غَنَثُه. ولحم الخنزير ممّا يُسْتَطابُ ويتواصَف، وسَبيلُ لَحم القردِ كسَبيلِ لحمِ الكلب، بل هو شرٌّ

---

(١) الزيادة من ثمار القلوب (١٥٧).

(٢) ١٤٥/الأنعام: ٦.

منهُ وأخبَث. وقد قال الشاعر للأسديِّ الذي لِيمَ بأكل لحم الكلب[1]: [من الرجز]

يا فقعسيُّ لِمْ أكَلْتُه لِمهْ　　لو خافَكَ اللّهُ عليهِ حَرَّمهْ

فما أكَلْتَ لحمهُ ولاَ دَمَهْ

وليس يريد بقوله: «لو خافك اللّه عليه» أنّ اللّه يخافُهُ على شيءٍ أو يخافه من شيء. ولكنَّهُ لمَّا كانَ الكلبُ عندَهُ مما لاَ يأكله أحد ولاَ يُخَافُ عَلَى أَكْله إلاَّ المضطرُّ، جعل بدل قوله: أمِنَ الكلبُ على أكْل لحمه، أنَّ اللّه هو الذي لم يَخَفْ ذلك فيحرِّمه. وهذا ممّا لا تقف الأعرابُ عليه، ولا تَتَّبعَ الوهمُ مواضعَه؛ لأنَّ هذا بابٌ يدخل في باب الدِّين، فيما يُعرَف بالنَّظر.

٩٧٧ - [أكل لحوم بعض الحيوانات]

وقد يأكل أجْراءَ الكلاب ناسٌ، ويستطيبونها فيما يزعمون. ويقولون: إنّ جرو الكلب أسمنُ شيءٍ صغيراً، فإذا شبَّ استحال لحمه، كأنَّه يشبّه بفرخ الحمام مادام فرخاً وناهضاً، إلى أن يستحكم ويشتدّ.

وما أكثر من يأكل السَّنانير. والذين يأكلونها صنفان من الناس: أحدهما الفتى المغرور، الذي يقال له أنت مسحور، ويقال له: من أكل سنّوراً أسودَ بهيماً لم يعمَلْ فيه السحر، فيأكله لذلك. فإذا أكله لهذه العلَّة، وقد غسل ذلكَ وعصره، أذهب الماءُ زُهُومَته، ولمْ يكن ذلك المخدوعُ بمستقذرٍ ما استطابه. ولعَلّهُ أيضاً أن يكون عليه ضربٌ من الطَّعام فوق الذي هو فيه، فإذا أكلَه على هذا الشَّرط، ودبّر هذا التدبير، ولم ينكره، عاوده. فإذا عاوده صار ذلك ضَراوةً له.

والصِّنف الآخر أصحاب الحمام؛ فما أكثر ما ينصبُون المصائد للسَّنانير، التي يُلقُّوْنَ منها في حمامهم. وربَّما صادف غيظ أحدهم وحَنَقُه وَغَضَبُهُ عليه، أن يكون السِّنَّور مُفرِطَ السِّمن، فيدعُ قتْله ويذبَحُه. فإذا فعل ذلك مرَّةً أو مرتين، صار ضراوةً عليها. وقد يتقَزَّز الرَّجلُ من أكل الضَّبِّ والوَرَل والأرنب، فما هو إلاَّ أنْ يأكُله مرَّةً لبعضِ التَّجربة، أو لبعضِ الحاجة، حتى صار ذلك سبباً إلى أكلها، حتى يصير بهم الحال إلى أنَ يصيروا أرغبَ فيها من أهلها.

وها هنا قومٌ لا يأكلون الجرادَ الأعرابيّ السمين، ونحن لا نعرف طعاماً أطيبَ منه. والأعراب إنَّما يأكلون الحيَّاتِ على شبيهٍ بهذا الترتيب ولهذه العوارض.

---

(١) الرجز في اللسان (روح، لوم)، والبخلاء ٢٣٤، والمخصص ٢/٤، والمقاصد النحوية ٤/٥٥٥.

وزعم بعضُ الأطبَّاء والفلاسفة، أنَّ الحيَّاتِ والأفاعيَ تؤكل نِيئَةً ومطبوخة، ومشويَّة، وأَنَّهَا تغذُو غِذَاءً حسَناً.

وزعم أبو زيد، أنَّه دخل على رؤبة، وعنده جِرذانٌ قد شَوَاهُنّ، فإذا هو يأكلهنَّ، فأنكر ذلك عليه، فقال رؤبة: هُنّ خيرٌ من اليرابيعِ والضِّبابِ وأطيَبُ؛ لأنها عندكم تأكُلُ الخبزَ والتمرَ وأشباهَ ذلك. وكفاك بأكل الجرذان[1]!

ولولا هول الحيَّاتِ في الصُّدور من جهة السُّمرِم، لكانت جهة التقذُّر أسهلَ أمراً من الجرذان.

وناسٌ من السُّفالة يأكلون الذِّبَّان. وأهلُ خُراسانَ يُعجَبون باتخاذ البَزْماوَرد من فِراخ الزَّنابير، ويعافون أذنابَ الجرادِ الأعرابيِّ السمين. وليسَ بين ريح الجَرادِ إذا كانت مشويَّةً وبينَ ريح العقارِبِ مشْويَّةً فرق. والطَّعْمُ تبعٌ للرائحة: خبيثُها لخبيثها، وطيِّبها لطيِّبها.

وقد زعم ناسٌ، ممن يأكلون العقاربَ مشويَّة ونيئةً، أنها كالجراد السِّمان.

وكان الفضلُ بنُ يحيى يوجِّه خدمَهُ في طلب فراخِ الزَّنابير ليأكلها. وفراخُها ضربٌ من الذُّبان.

فأمَّا لحوم البراذين فقد كثُر علينا وفينا، حتى أنسْنا به. وزعم بعضهم أنَّه لم يأكلْ أطيبَ من رأسِ برْذَونٍ وسُرَّته. فأمّا السُّرَّةُ والمَعْرَفُ[2] فإنهم يزاحِمون بها الجِدَاءَ والدَّجاج. ويقدِّمون الأسرامَ المحشوَّة.

ومِن أصحابنا مَن يأكل السراطين أكلاً ذريعاً. فأما الرق[3] والكوسج[4] فهو من أعجب طعام البحْرِيِّين. وأهل البَحر يأكلون البلبل فهو اللّحم الذي في جوف الأصداف.

والأعرابيُّ إذا وجد أسودَ سالخاً، رأى فيهِ ما لا يرى صاحب الكسمير في كسميره.

---

(١) ورد الخبر في الأغاني ٢٠ / ٣٥٠، وفيه أنه يأكل الفئران.

(٢) المعْرَفَة: موضع العرف من الفرس.

(٣) الرق: ضرب من دواب الماء يشبه التمساح، والرق أيضاً: العظيم من السلاحف. حياة الحيوان ١ / ٥٢٧.

(٤) الكوسج: نوع من السمك تنفر منه الحيوانات البحرية، وهي القرش. حياة الحيوان ٢ / ٢٩٩.

وخَبَّرني كم شئْتَ من الناس، أنَّه رأى أصحابَ الجُبْن الرَّطب بالأهوازِ وقراها، يأخذون القطعةَ الضَّخمةَ من الجبْن الرَّطب، وفيها كَكواء الزنابير، وقد تولَّدَ فيها الدِّيدان، فينفضها وسْطَ رَاحته، ثمَّ يقمَحُها في فيهِ، كما يقمَحُ السَّويق والسُّكَّر، أو ما هو أطيبُ منهُ.

٩٧٨ - [آيات في تعذيب الناس بالحيوان]

وقد خبَّر اللّه تعالى عن أصحاب النِّقم، وما أنزل اللّهُ من العذاب، وما أخذ من الشكل والمقابلات، فقال: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِه فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْه حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِه الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾[١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعلَ رَبُّكَ بِأَصْحاب الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ في تَضْلِيلٍ. وَأَرسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾[٢].

وليس من هذه الأصنافِ شيءٌ أبلغُ في المُثْلة والشُّنْعةِ، ممَّن جَعلَ منهم القرَدَة والخنازير.

٩٧٩ - [الأهلي والوحشي من الحيوان]

فالخنزير يكون أهلياً ووحشياً، كالحمير والسَّنانير، مما يعايش النَّاس. وكلها لا تقبل الآداب. وإنَّ الفُهودَ وهي وحشيَّةٌ تقبل كلها، كما تقبَلُ البوازي، والشَّواهين، والصقورة، والزُّرَّق، واليُؤيؤ، والعُقَاب، وعَناق الأرض، وجميعُ الجوارحِ الوحشيَّات. ثمَّ يفضلُها الفهدُ بخَصْلةٍ غريبة وذلك أنّ كبارَها ومَسانَّها أقبَلُ للآداب، وإن تقادَمتْ في الوحْش، منْ أولادها الصغار، وإن كانت تقبل الآداب؛ لأنَّ الصغيرَ إذا أُدِّبَ فبلغ، خرج جبينًا مُواكلاً، والمسنَّ الوحشيَّ يخلُص لك كُله، حتى يصير أصيدَ وأنفعَ. وصغارُ سباعِ الطَّير وكبارُها على خلاف ذلك، وإن كان الجميعُ يقبل الأدب. والخنزيرُ وإن كان أهليّاً فإنُه لا يقبل الأدبَ على حال، حتى كَأَنَّهُ - وإن كان بهيمةً - في طباع ذئب.

وذلك أن أعرابيّاً أخذَ جروَ ذئبٍ وكان التقطه التقاطاً، فقال: أخذْتهُ وهو لا يعرف أبوَيهِ ولا عملَهُما، وهو غرٌّ لم يصِدْ شيئاً، فهو إذا ربَّيناه وألَّفناه، أنفعُ لنا من

---

(١) ٤٠ /العنكبوت: ٢٩.

(٢) /الفيل: ١٠٥.

الكلب. فلمّا شبَّ عدا على شاة لهُ فقتلَها وأكل لحمها، فقال الأعرابيُّ[1]: [من الوافر]

أكَلْتَ شُوَيهتي وَرُبيتَ فينا　　فَمنْ أَدْرَاكَ أنَّ أباكَ ذيبُ

فالذئب وجرو الذئب إذا كانا سبعين وَحْشيَّيْنِ كانا ثمَّ من أشدِّ الوحْش توحُّشاً وألزمِها للقِفار، وأبعَدها من العمران.

والذِّئب أغدَر من الخنزير والخِنّوص[2] وهما بهيمتان.

٩٨٠ - [ضرر الخنزير]

وأمَّا ضرره وإفساده، فَمَا ظنُّك بشيءٍ يُتَمَنَّى له الأسَد؟! وذلك أن الخنازير إذا كانت بقرب ضِيَاع قومٍ، هلَكتْ تلك الضِّياع، وفسَدتْ تلك الغلاّت. وربَّما طلب الخنزير بعضَ العروقِ المدفونَة في الأرض فيخرِّب مائةَ جريبٍ، ونابه ليس يغلبه معْول. فإذا اشتدَّ عليهم البلاءُ تمنَّوا أن يصير في جَنْبتهم أسد. ولربَّما صار في ضَياعهم الأسد فلا يَهيجونَه، ولا يؤذونَه، ولو ذهب إنسانٌ ليحفر له زُبيةً منعوه أشدَّ المنع؛ إذ كان ربَّمَا حَمَى جانبَهم من الخنازير فقط. فما ظنّك بإفسادها، وما ظنّك ببهيمة يُتَمَنَّى أن يكون بدلَها أسد؟! ثمَّ مع ذلك إذا اجتمعوا للخنازير بالسِّلاح، وبالآلاتِ والأدوات التي تقتل بها، فربَّما قتل الرَّجُلَ منهم، أو عقرَهُ العقرَ الذي لا يندمل؛ لأنَّه لا يضرب بنابه شيئاً إلاَّ قطعَه، كائناً ما كان. فلو قَتلوا في كلِّ يوم منها مائةً وقتلتْ في كلِّ يومٍ إنساناً واحداً، لما كان في ذلك عِوض.

والخنازير تطلب العَذِرَة، وليست كالجلاَّلة[3]؛ لأنها تطلب أحَرَّها وأرطبَها وأنتنَها، وأقربها عهداً بالخروج. فهي في القرى تعرف أوقاتَ الصُّبحِ والفجْر، وَقبلَ ذلك وبعدَه؛ لبُروزِ النَّاس للغائط. فيعرف من كان في بيته نائماً في الأسحار ومع الصُّبح، أنَّه قد أسْحَر وأصبح، بأصواتها ومرورِها، ووقْعِ أرجلها في تلك الغيطان، وتلك المتبرَّزَات. وبذلك ضربُوا المثلَ ببكور الخنزير، كما ضربوا المثل بحذَرِ الغراب وروَغان الثَّعلب.

---

(١) الخبر والبيت في عيون الأخبار ٢/٥، وثمار القلوب (٥٨١)، ومجمع الأمثال ١/٤٤٦، والمستقصى ١/٢٣٣، وجمهرة الأمثال ٢/٣٠، والدرة الفاخرة ٢٩٤، والتذكرة الحمدونية ٢/٢٤٨، ومحاضرات الأدباء ١/١٢٢ (١/٢٤٩).

(٢) الخنوص: ولد الخنزير. (القاموس: خنص).

(٣) الجلاّلة: البقرة تتبع النجاسات، والجلة: البعرة. (القاموس: جلل).

على أنَّ الثَّعلبَ ليس بأرْوَغَ من الخِنْزير، ولا أكَدَّ للفارس، ولا أشدَّ إتعاباً لصاحبه.

٩٨١ - [بعض أسباب مسخ الإنسان][١]

فأمَّا قُبْحُ وجهِه فلو أنَّ القُبح[٢] والإفلاس، والغَدْر والكذب، تجسَّدت ثمَّ تصوَّرتْ لَمَا زادتْ على قُبح الخنزير. وكلّ ذلك بعضُ الأسباب التي مُسخ لها الإنسان خنزيراً.

وإنَّ القرد لَسَمِجُ الوجْه، قبيحٌ [في][٣] كلِّ شيء. وكفاك به أنَّه للمثل المضروب - ولكنَّهُ في وجهٍ آخَرَ مليحٌ. فمِلْحُه يعترض على قُبْحه فيمازجُه ويُصلِح منه. والخنزيرُ أقبح منه لأنَّه ضَربٌ مُصمَتٌ بهيم. فصار أسمجَ ببعيدٍ.

٩٨٢ - [نزو الذكر على الذكر]

وحدَّثَني بعضُ أهل العلم، ممَّن طال ثَواؤه في أرض الجزيرة، وكان صاحبَ أخبار وتجربة، وكان كلفاً يحبُّ التبيّن، معترضاً للأُمور، يحبُّ أنْ يُفضِيَ إلى حقائقها، وتثبيت أعيانها بعللها، وتمييز أجناسها، وتعرّف مقاديرِ قُواها وتصرُّف أعمالها، وتنقُّل حالاتها؛ وكان يعرِفُ للعلم قَدْرَهُ، وللبيان فضلهُ.

قال: ربَّما رأيت الخنزير الذَّكر وقد ألجأه أكثرُ مِن عِشرينَ خنزيراً إلى مَضِيق، وإلى زاوية، فينزُون عليه واحداً واحداً، حتى يبلغ آخرُهم.

وخبَّرني هذا الرَّجل وغيرهُ من أهلِ النظر وأصحابِ الفكر، أنَّهم رأوا مثلَ ذلك من الحمير. وذكروا أنّ ذلك إما تأنيثٌ في طبعه، و إمّا أنْ يكون له في أعينها من الاستحسان شبيهٌ بالذي يعتري عيونَ بعضِ الرجال في الغلمان، والأحداثِ الشَّبَاب.

وقد يكون هذا بين الغَرانِق والكَرَاكيّ. والتَّسافُد بين الذَّكر والأنثى. والسافد والمسفود إذا كانا من جميع الذكورة، كثيرٌ في جميع أصناف الحيوان، إلاَّ أنَّه في جميع الخنازير والحمير أفشى. وأمَّا تسافُد الحمام الذَّكر والأنثى للذَّكر، فأكثرُ من أن يكون فيه تنازع.

---

(١) وردت هذه الفقرة في ثمار القلوب ٣٢١ (٥٩٨).

(٢) في ثمار القلوب (الكفر).

(٣) إضافة من ثمار القلوب.

٩٨٣ - [معارف في الخنزير]

وباب آخر ممَّا ذكر صاحب المنطق، فزعم أنّ من الخنازير ما له ظِلف واحد، وليس لشيء من ذوات الأنياب في نابه من القوَّة والذَّرَب ما للخنزير الذكر، وللجمل، والفهد، والكلب. قال: والإنسان يلقي أسنانه، وكذلك الحافر والخفّ. قال: والخنزير لا يلقي أسنانَه البتّة.

ويقال: إنّ عبد الصَّمد بنَ عليٍّ لم يُثغر قط، وأنَّه دخل قبره بأسنان الصِّبا.

٩٨٤ - [أسنان الذئب والحية]

وزعم بعضهم أنَّ أسنانَ الذِّئبِ مخلوقَةٌ في الفكّ، ممطولةٌ في نفس العظم. وذلك ممَّا توصف به أسنان الحيَّة. قالَ الشَّاعرُ: [من السريع]

مُطِلْنَ في اللّحْيَيْنِ مَطْلاً إلى   الرَّأسِ وَأَشْدَاقٍ رَحِيباتِ

والشَّاعِرُ يمدحُ الشيءَ فيشدِّدُ أمرَه، ويقوِّي شأنُه، وربَّما زاد فيه، ولعلَّ الذي قال في الذِّئبِ ما قال، هذا أراد. ولا يشكُّون أنّ الضَّبع كذلك.

٩٨٥ - [مرق لحم الحيوان]

قال وليس يجمُدُ مرق لحم الحيوان السَّمين، مثل الخنزير والفرس، وأمَّا ما كان كثير الثرب فمرقته تجمد، مثل مرق لحم المِعْزَى.

٩٨٦ - [طباع بعض الحيوان عند الهيج]

قال: والخنزير الذَّكر يقاتِل في زمن الهيْج، فلا يدَعُ خنزيراً إلاَّ قتله، ويدنُو من الشَّجرة ويدلُكُ جلدَه، ثمّ يذهب إلى الطين والحمأة فيتلطخ به، فإذا تساقط عاد فيه.

قال: وذكورة الخنازير تطرد الذُّكورة عن الإناث، وربّما قتل أحدُهما صاحبَه وربّما هلكا جميعاً، وكذلك الثِّيرانُ والكِبَاشُ والتُّيوس في أقاطيعها، وهي قبل ذلك الزَّمان متسالمة.

والجمل في تلك الحالة لا يدَعُ جملاً ولا إنساناً يدنُو من هَجْمَتِه[١]. والجمل خاصَّة يكره قُربَ الفرَس، ويقاتله أبداً.

---

(١) الهجمة من الإبل: أولها أربعون، أو ما بين السبعين إلى المائة. (القاموس: هجم).

ومثل هذا يعرِض للذِّئبة والذِّئب. والأُسد ليس ذلك من صفاتها؛ لأنَّ بعضَها لا يأوي إلى بعضٍ، بل ينفرد كلٌّ واحدٍ بلبؤته. وإذا كان للذِّئبة الأنثى جرَاء ساءت أخلاقُها وصَعُبت، وكذلك إناث الخيل والفيل: يسوء خلقها في ذلك الزَّمان. والفيَّالون يحمونها النَّزْو؛ لأنها إذا نزت جهلت جهلاً شديداً، واعتراها هَيْجٌ لا يُقام له. وإذا كان ذلك الزَّمانُ أجادوا عَقْله، وأرسلوه في الفِيَلة الوحشيّة. فأمَّا الخنزير والكلبُ فإنهما لا يجهلان على النَّاس؛ لمكان الألفة.

قال: وزعم بعضُ النَّاس أنَّ إناثَ الخيلِ تمتلئ ريحاً في زمان هيْجها، فلا يباعدون الذُّكورة عنها. وإذا اعتراها ذلك ركضَتْ ركضاً شديداً، ثمَّ لا تأخذ غرباً ولا شرقاً، بل تأخذ في الشَّمالِ والجنوب.

ويعرض مثل هذا العَرَضِ لإناث الخنازير. فإذا كان زمَنُ هَياج الخنازير، تطأطئ رؤوسها، وتحرِّك أذنابهَا تحريكاً متتابعاً، وتتغيّر أصواتُها إذا طَلَبت السِّفاد. وإذا طلبت الخنزيرةُ السِّفادَ بالت بولاً متتابِعاً.

٩٨٧ - [مدد الحمل للحيوان]

قال: وإناث الخنازير تحمل أربعةَ أشهرٍ. وأكثَرُ ما تحمل عشرون خِنَّوصاً[٢]. وإذا وضعت أجراءً كثيرَةً لم تَقْوَ على رِضاعها وتربيتها.

قال: وإناث الخنازير تحمل مِنْ نزوةٍ واحدة، وربما كان من أكثر. وإذا طلبت الذَّكرَ لم تنزع حتى تطاوع وتسامحَ، وترخي أذنابها. فإذا فعلت ذلك تكتفي بنزْوةٍ واحدة.

ويُعلَفُ الذَّكَرُ الشَّعيرَ في أوان النَّزْو، ويصلُح للأُنثى.

والخنزيرة تضع في أربعة أشهرٍ، والشَّاةُ في خمسة، والمرأة والبقرةُ في تسعة أشهر، والحافر كله في سنة.

٩٨٨ - [خصائص الخنزير]

قال: ومتى قلعت العينُ الواحدة من الخنزير هلك. وكثيرٌ من الخنازير تبقى خمسة عشر عاماً. والخنزير ينزو إذا تمّ له ثمانية أشهر، والأنثى تريد الذَّكر إذا تمَّت لها ستَّة أشهر. وفي بعض البلدان ينزو إذا تمّ له أربعة أشهر، والخنزيرة إذا تمّت لها ستّة أشهر، ولكنَّ أولادهما لا تجيء كما يريدون. وأجود النَّزْو أن يكون ذلك منه

وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث سنين. وإذا كانت الخنزيرة بكراً ولدت جراءً ضعافاً وكذلك البكر من كل شيء.

٩٨٩ - [الحلال والحرام من الطيبات في القرآن]

وقالَ اللّهُ تَبارك وتعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشكُرُوا للّه إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعبُدُونَ﴾[١] ثمَّ ذكر غيْرَ الطيِّبات فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَلَحمُ الخنْزير وَمَا أُهلَّ لغَيْر اللّه به وَ المُنْخَنقَةُ وَ المَوْقُوذَةُ وَ المُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطيحَةُ وَمَا أكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبحَ على النُّصُب، وَ أَنْ تَسْتَقْسمُوا بالأَزْلاَم، ذَلكُمْ فسْقٌ﴾[٢] ثمّ قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بشَرٍّ منْ ذَلكَ مَثُوبَةً عنْدَ اللّه مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ وَ غَضبَ عَلَيْه وَجَعَلَ منْهُمُ الْقرَدَةَ وَ الخَنَازيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاء السَّبيلِ﴾[٣] وقال: ﴿يَا أيّها الّذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللّهَ لاَ يُحبُّ المُعْتَدينَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿طَيِّبَات﴾ تحتمل وجوهاً كثيرة، يقولون: هذا ماءٌ طيِّب، يريدون العُذوبة. وإذا قالوا للبُرِّ والشَّعيرِ والأرز طيِّب، فإنما يريدون أنَّه وَسَطٌ، وأنّه فوقَ الدُّون. ويقولون: فمٌ طيِّب الرِّيح، وكذلك البُرّ، يريدون أنّه سليم من النّتن، ليس أنَّ هناك ريحاً طيبة ولا ريحاً منتنة. ويقولون: حلالٌ طيِّب، وهذا لا يحل لك، ولا يَطيب لك، وقد طاب لك أي حل لك، كقول: ﴿فَانْكحُوا مَا طَاب لَكُمْ منَ النِّساءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾[٥].

٩٩٠ - [استطراد لغوي]

قال طُوَيْسٌ المغنِّي لبعضِ ولد عثمانَ بن عفّان[٦]: لقدْ شَهدْتُ زفاف أمِّكَ المباركَة إلى أبيك الطيِّب. يريد الطَّهارَة. ولو قال: شهدت زفاف أمِّكَ الطيِّبة إلى أبيك المباركَ، لم يحسُنْ ذلك؛ لأنَّ قولك طيِّب إنَّمَا يدلّ على قدر ما اتَّصلَ به من الكلام.

---

(١) ١٧٢/البقرة: ٢.
(٢) ٣/المائدة: ٥.
(٣) ١٦٠/المائدة: ٥.
(٤) ٨٧/المائدة: ٥.
(٥) ٣/ النساء: ٤.
(٦) الخبر في البيان ١/٢٦٣، ورواية الخبر فيه: (قال سعيد بن عثمان بن عفان لطويس المغني: أيُّنا أسف أنا أم أنت يا طاوس؟ قال: بأبي أنت وأمي؛ لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب).

وقد قال الشّاعرُ[1]: [من الكامل]

* والطيّبون مَعاقِدَ الأُزْرِ *

وقد يخلو الرَّجلُ بالمرأة فيقول: وجدتها طيِّبة. يريد طَيِّبة الكَوْم[2]، لذيذة نفس الوطء. وإذا قالوا: فلان طيِّب الخُلُق، فإنما يريدون الظَّرْفَ والمِلْح.

وقال اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[3] يريد ريحاً ليستْ بالضعيفة ولا القويّة.

ويقال: لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلاَّ عن طيب نفْسٍ منه. وقال اللّه عزّ وجلَّ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾[4] وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[5] وذلك إذْ كانت طيّبة الهواءِ والفواكه، خصيبة.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[6] ثم قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[7].

وفي هذا دليلٌ على أنّ التأويلَ في امرأة نوحٍ وامْرأة لوط، عليهما السلام، على غير ما ذهب إليه كثيرٌ من أصحاب التّفسير: وذلك أنهم حينَ سمعوا قولَه عزّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا﴾[8] فدلَّ ذلك على أنّه لم يَعْنِ الخيانَةَ في الفَرْج.

---

(١) صدر البيت: (النازلين بكل معترك)؛ وهو للخرنق بنت بدر بن هفان في حماسة القرشي ٣٦٧، وأشعار النساء ١٦٣، والحماسة البصرية ١/٢٢٧، والأمالي ٢/١٥٨، وأمالي المرتضى ١/٢٠٦، والسمط ٥٤٨، والخزانة ٥/٤١، ٤٢، ٤٤، واللسان (نضر)، وأساس البلاغة (أزر)، والمقاصد النحوية ٣/٦٠٢، ٤/٧٢، والكتاب ١/٢٠٢، ٢/٥٧، ٥٨، ٦٤، وشرح أبيات سيبويه ٢/١٦.

(٢) كام المرأةَ: نكحها. (القاموس: كوم).

(٣) ٢٢/يونس: ١٠.

(٤) ٤/النساء: ٤.

(٥) ١٥/سبأ: ٣٤.

(٦) ٢٣/النور: ٢٤.

(٧) ٢٦/النور: ٢٤.

(٨) ١٠/التحريم: ٦٦.

وقد يقع اسمُ الخيانة على ضروب: أوّلها المالُ، ثمَّ يشتقُّ من الخيانة في المال الغشُّ في النصيحةِ والمشاورةِ. وليس لأحدٍ أنْ يوجِّه الخبرَ إذا نزل في أزواج النبي ﷺ وحُرَم الرُّسُل، على أسمَجِ الوجوه، إذا كان للخبر مذهبٌ في السَّلامة، أو في القُصُور على أدنى العيوب.

وقد علمْنا أنّ الخيانةَ لا تتخطَّى إلى الفرج حتّى تبتدئ بالمال. وقد يستقيم أن يكونا من المنافقين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة. ولا تكون نساؤهم زواني، فيلزمهم أسماءٌ قبيحة. وقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿إذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحيّةً منْ عنْدَ اللّه مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[1] وقال: ﴿فَكُلُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً﴾[2] وقال: ﴿مَنْ عَملَ صَالحاً منْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[3] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينَةَ اللّه الّتي أَخْرَجَ لعبَاده وَالطّيِّبَات منَ الرِّزْق﴾[4] وقال: ﴿وَمَثَلُ كَلمَة خَبيثَة كَشَجَرَة خَبيثَة﴾[5] و: ﴿مَثَلاً كَلمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة﴾[6] وقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ والسَّلْوَى كُلُوا منْ طَيِّبَات مَارَزَقْنَاكُمْ﴾[7] فقوله: طيِّب، يقعُ في مواضعَ كثيرةٍ، وقدْ فصَّلنا بعض ذلك في هذا الباب.

---

(١) ٦١/النور: ٢٤.
(٢) ١١٤/النحل: ١٦.
(٣) ٩٧/النحل: ١٦.
(٤) ٣٢/الأعراف: ٧.
(٥) ٢٦/إبراهيم: ١٤.
(٦) ٢٤/إبراهيم: ١٤.
(٧) ٥٧/البقرة: ٢.

ثمَّ قال: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] ألاَ تراه قد ذكر أصنافَ ما حرَّم ولم يذكرْها بأكثرَ من التَّحريم، فلمّا ذكر الخنزير قال: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾؟! فجعل الخنزير وإنْ كان غير ميتة أو ذكَرَ الذّابح عليه اسم اللّه، أنَّه رِجْسٌ. ولا نعلم لهذا الوجه إلاَّ الذي خصّهُ اللّه به من ذكر المسخ، فأراد تعظيمَ شأنِ العقاب ونزولِ الغضَب، وكان ذلك القول ليس ممّا يضرّ الخنزير، وفيه الزّجر عن محارمه، والتّخويفُ من مواضع عذابه. وإنْ قيلَ: ينبغي أن يكون مسَخَ صورة القرد، فهلاَّ ذكره في التحريم مع أصناف ما حرَّم، ثمّ خصَّهُ أيضاً أنَّه من بينها رجس، وهو يريد مذهبه وصفته؟ قلنا. إنّ العربَ لم تكن تأكلُ القرودَ، ولا تلتمسُ صيدَها للأكل. وكلُّ مَن تنصَّرَ من ملوك الرُّومِ والحبشَة والصِّين، وكلّ مَن تمجَّس من مَلكٍ أو سُوقة، فإنَّهُمْ كانوا يرون لِلَحْمِ الخنزير فضيلة، وأنّ لحومَها ممَّا تقوم إليهِ النفوسُ، وتنازِع إليه الشّهوات.

وكان في طباع الناس من التكرُّه للحوم القرَدة، والتقذُّر منها ما يُغني عن ذكرها. فذكر الخنزيرَ إذْ كان بينهما هذا الفرق، ولو ذكر ذلك وألحقَ القردَ بالخنزير لموضع التحريم، لكان ذلك إنما كان على وجه التوكيد لما جعله اللّه تعالى في طبائعهم من التكرُّه والتقذّر، ولا غير ذلك.

وقال اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[2].

٩٩١ - [بعض وجوه التحريم]

وقد أنبأَك كما ترى عن التّحريم أنّهُ يكون مِنْ وجوه: فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغَشم والغدْر؛ وهذه أمورٌ لا تحلُّ على وجه من الوجوه. ومنها ما يحرم في العقْل من ذبح الإنسانِ الطِّفلَ. وجعَلَ في العقول التبيُّنَ بأَنّ خالق الحيوانِ أو المالكَ له، والقادرَ على تعويضِهِ، يقبح ذلك في السماع على ألسنة رسله.

---

(١) ١٤٥ /الأنعام: ٦.

(٢) ١٤٦ /الأنعام: ٦.

وهذا ممَّا يحرم بعَينِهِ لاَ أنه حرِّم لعلة قد يجوز دفعها. والظلم نفسهُ هو الحرام، ولم يحرَّم لعلةٍ غير نفسِه.

وباب آخر، وهو ما جاء من طريق التعبُّد، وما يعرف بالجملة، ويعرف بالتفسير.

ومنهُ ما يكون عقاباً، ويكون مع أنهُ عقابٌ امتحاناً واختباراً، كنحو ما ذكر من قوله: ﴿ ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾[1] وكنحوَ أصحاب البقرة الذين قيلَ لهُمْ: اذْبَحُوا بَقَرَةً فإنِّي أُريد أن أضربَ بها القتيل ثم أحْييهما جميعاً. ولوَ اعترضوا مِن جميع البقر بقرة فذبحوها، كانوا غيرَ مخالفين. فلمّا ذهبوا مذهب التشكك والتعلّل، ثم التعرُّض، والتعنُّت في طريق التعنّت، صار ذلك سبب تغليظ الفرض[2].

وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[3] وقال اللّه تعالى: ﴿ الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدُونَه مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[4] ومثله: ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا ﴾[5] يجوز أن يكونَ إنّمَا يريدون صَرْف العذاب، ويجوز أن يكون إنماَ يريدون تخفيف الفرائض. وقد يجوز أن يكونَ على قول من قال: لا أستطيع النظرَ إلى فلانٍ، على معنى الاستقبال.

وبابٌ آخرُ من التّحريم، وهو قَوْله: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾[6].

٩٩٢ - [شعر في الخنزير]

وقال مروان بن محمد[7]: [من المنسرح]

يَمْشِي رُوَيْداً يُرِيدُ ختلكم ... كمشي خِنزيرةٍ إلى عَذِرَهْ

(١) ١٤٦/الأنعام: ٦.

(٢) ثمار القلوب (٥٦٠).

(٣) ٣٢/المائدة: ٥.

(٤) ١٥٧/الأعراف: ٧.

(٥) ٨٦/البقرة: ٢.

(٦) ٩٣/آل عمران: ٣.

(٧) ديوان أبي الشمقمق ١٣٨.

وقال آخر[1]: [من الخفيف]

نِعْمَ جَارُ الخنزيرةِ المرضعُ الغَرْ ... ثَى إذا ما غدا، أبُو كلثوم
طَاوياً قد أصاب عند صديقٍ ... مِنْ ثريد مُلَبَّد مَأدُوم
ثمَّ أنْحَى بجَعْرِهِ حاجبَ الشَّمْـ ... ـسِ فَأَلْقى كَالمِعْلَفِ المهْدُومِ

٩٩٣ - [جرير والحضرمي]

وقال أبو الحسن: وفد جريرٌ على هشام، فقال الحضرمي: أيُّكُمْ يشتمهُ؟ فقالوا: ما أحدٌ يقْدمُ عليه! قال: فأنا أشتمهُ ويرضَى ويَضْحَك! قال: فقام إليه فقال: أنت جرير؟ قال: نعم. قالَ: فلا قربَ اللّه دارك ولاَ حيًا مَزارك! يا كَلْب! فجعلَ جريرٌ ينتفخ، ثمَّ قال لهُ: رَضيتَ في شرفك وَفضْلك وَعَفافك أنْ تُهاجِيَ القردَ العاجز؟! يعني الفرزدق. فضحك.

فحدَّث صديقٌ لي أبا الصَّلَع السِّنديَّ بهذا الحديث، قال: فشعْري أعجبُ من هذا لأني شتمت البُخَلاءَ، فشتمت نفسي بأشدَّ ممّا شتمتهم. فقالَ: وَما هو؟ قال قولي: [من مجزوء الرمل]

لاَ تَرَى بيتَ هجاءٍ ... أبداً يُسْمَعُ منِّي
الهِجَا أَرْفَعُ مِمَّنْ ... قَدْرُهُ يصغُرُ عنِّي

٩٩٤ - [احتيال بعض الناس]

قال أبو الحسن: كان واحدٌ يسخَر بالنَّاس، ويدَّعي أنَّه يَرقِي من الضِّرس إذا ضربَ على صاحبه. فكان إذا أتاه مَن يشتكي ضرسه قال له إذا رقاه: إيَّاك أنْ تذكر إذا صرتَ إلى فِراشك القردَ؛ فإنَّك إنْ ذكرته بَطَلَت الرُّقْية! فكان – إذا آوى إلى فراشه – أوَّلَ شيء يخطر على باله ذكرُ القرد، ويبيت على حاله من ذلك الوَجَع، فيغدو إلى الذي رقَاه فيقول له: كيف كنت البارحة؟ فيقول: بتُّ وَجِعاً! فيقول: لعلَّك ذكرْت القرد! فيقول: نعم! فيقول: مِنْ ثَمَّ لم تنتفع بالرُّقية!

٩٩٥ - [شعر لبعض ظرفاء الكوفيين]

وقال بعضُ ظُرَفاءِ الكوفيِّين[2]: [من الوافر]

فَإنْ يشْرَبْ أبو فَرُّوخَ أشْرَبْ ... وَإنْ كانت معتَّقَةً عُقَارَا

---

(١) الأبيات في البيان ٣ / ٣١١.

(٢) البيتان لبعض الكوفيين في عيون الأخبار ٣ / ١٦، واللسان والتاج (فرخ).

وإن يأكلْ أبو فرُّوخَ آكُلْ ... وإن كانت خَنانيصاً صغاراً[1]

٩٩٦ - [قرد يزيد بن معاوية]

وقال يزيد بن معاوية[2]: [من الطويل]

فَمَنْ مبلغُ القِردِ الذي سَبقَتْ به ... جيَادَ أميرِ المؤمنين أَتَانُ

تَعَلَّقْ أبا قَيْسٍ بها إنْ أطعتَني ... فليس عليها إن هلَكْتَ ضَمَانُ

٩٩٧ - [شعر في الهجاء]

وزعم الجرداني، أنَّ بشَّاراً الأعمى، لم يجزَعْ من هجاءٍ قطُّ كجزَعِه مِن بيت حمَّادِ عَجردٍ، حيث يقول[3]: [من الهزج]

ويا أقبَحَ مِن قردٍ ... إذا ما عَمِي القِرْدُ

وقال بُشَير بن أبي جَذيمة العَبْسيّ[4]: [من الطويل]

أتَخْطِرُ للأَشْرافِ حِذْيَمُ كبرة ... وهل يستعدُّ القِرْدُ للخَطَرَانِ

أبى قِصرُ الأذْناب أن يخْطِرُوا بها ... ولُؤْمُ قُرودٍ وَسْطَ كلِّ مكانِ

لقد سمِنَتْ قِرْدانُكُمْ آلَ حِذْيم ... وأحسابُكم في الحيِّ غيرُ سِمان

الأصمعيُّ عن أبي الأشهب عن أبي السليل قال: ما أبالي أخنزيراً رأيتُ يُجَرُّ برجله، أو مثل عبيد ينادي: يالَ فُلان!

٩٩٨ - [استطراد لغوي]

الأصمعيُّ عن أبي ظبيان قال[5]: الخُوز هم البُناة الذين بنَوا الصَّرح واسمُهم مشتقٌّ من الخنزير. ذهب إلى اسمه بالفارسية خوك، فجعلت العرب خُوك خُوزاً. إلى هذا ذهب.

---

(١) الخنانيص: جمع خنوص، وهو ولد الخنزير. (القاموس: خنص).

(٢) البيتان في مروج الذهب ٣/ ٢٦٦، ونهاية الأرب ٩/ ٣٣٧، والمخصص ١٣/ ١٧٧، وحياة الحيوان ٢/ ٢٠١ (قرد).

(٣) البيت في البيان ١/ ٣٠، والأغاني ١٤/ ٣٢٩، ٣٣٣،وطبقات ابن المعتز ٢٥، ٦٧، والمؤتلف ٢٣٥، وثمار القلوب (١٤٧).

(٤) الأبيات في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٩.

(٥) معجم البلدان ٢/ ٤٠٤ (خوز).

٩٩٩ - [القول في المِسخ]

وقد قال النَّاسُ في المَسْخ بأقاويلَ مختلفة: فمنهم من زعم أنّ المِسخَ لا يتناسل ولا يبقى إلاَّ بقدر ما يكونُ موعظةً وعبْرة، فقطعوا على ذلك الشهادةَ. ومنهم مَن زعم أنَّه يبقَى ويتناسل، حتى جعل الضَّبَّ والجرِّيَّ، والأرانب، والكلاب وغيرَ ذلك، من أولادِ تلك الأمم التي مُسِخت في هذه الصُّور. وكذلك قولُهم في الحيَّات.

وقالوا في الوزَغ: إن أباها، لمّا صنع في نار إبراهيمَ وبيت المقْدِس ما صنع، أصمَّهُ اللّه وأبرصَه، فقيل: «سامّ أبرص». فهذا الذي نرى هو من ولده؛ حتَّى صار في قتله الأجرُ العظيم، ليس على أنّ الذي يقتلُه كالذي يقتل الأُسْدَ والذِّئاب، إذا خافها على المسلمين.

وقالوا في سهيلٍ، وفي الزُّهَرة، وفي هارُوت وماروت، وفي قيرى وعيرى أبَوَي ذي القرنين، وجُرْهم، ما قالوا.

فأمَّا القول في نفس المَسْخ فإنَّ النَّاس اختلفوا في ذلك: فأمَّا الدُّهريّة فهم في ذلك صنفان: فمنهم مَن جَحَد المسْخَ وأقرَّ بالخسْف والرِّيح والطّوفان، وجعل الخسْفَ كالزَّلازل، وزعم أنَّه يقرُّ من القذْف بما كان من البَرَد الكِبَار؛ فأمّا الحجارة فإنَّها لا تجيء من جهة السَّماء. وقال: لستُ أجوِّز إلاَّ ما اجتمعتِ عليه الأمَّة أنَّه قد يحدث في العالم. فأنْكَرَ المسْخَ البتّة.

١٠٠٠ - [أثر البيئة]

وقال الصِّنف الآخَر: لا ننكر أنْ يفسُدَ الهواءُ في ناحيةٍ من النواحي فيفسدَ ماؤهم وتفسُدَ تُربتهم، فيعملَ ذلك في طباعهم على الأيَّام، كَماً عمل ذلك في طباع الزِّنج، وطباع الصَّقالبة، وطباع بِلادِ يأجوج ومأجوج.

وقد رأينا العَرب وكانوا أعراباً حينَ نزلوا خراسانَ، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى طباعَ بلاد الترك كيفَ تطبَعُ الإبلَ والدَّوابَّ وجميعَ ماشيتهم: من سبُعٍ وبهيمةٍ، على طبائعهم. وترَى جرادَ البقولِ والرَّياحين وديدانَها خَضراءَ، وتراها في غير الخُضرة على غير ذلك[١]. وترى القمْلة في رأس الشابِّ الأسودِ الشَّعر سوداء، وتراها في رأس الشَّيخ الأبيضِ الشَّعرِ بيضاءَ، وتراها في رأس الأشْمط شمطاءَ، وفي

---

(١) رسائل الجاحظ ١ / ٢٢٠.

لون الجملِ الأورق. فإذا كانت في رأس الخَضِيب بالحمرة تراها حمراء. فإنْ نَصَلَ خضابه صار فيها شُكْلةٌ، من بين بيضٍ وحُمْر.

وقد نرى حَرَّة بني سُليم، وما اشتملت عليه من إنسانٍ، وسبع، وبهيمةٍ، وطائرٍ، وحشرة فتراها كلَّها سوداء[1].

وقد خبَّرَنَا من لا يُحصَى من النَّاس أنّهم قد أدركوا رجالاً من نبَط بَيسان[2]، ولهم أذنَابٌ إلاّ تكنْ أذنَاب التماسيح والأسد والبقر والخيل؛ وإلاّ كأذنَاب السّلاحف والجِرْذان، فقد كان لهم عُجوبٌ[3] طِوالٌ كالأذنَاب.

وربَّما رأينا الملاّح النَّبَطِيَّ في بعض الجعفريّات على وجههِ شبهُ القِرْد. وربَّما رأيْنا الرَّجلَ من المغرِب فلا نجد بينهُ وبين المِسخ، إلاّ القليل.

وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسدُ، والماءُ الخبيثُ، والتربةُ الرديَّةُ، ناساً في صفةِ هؤلاء المغربيِّين والأنباط، ويكونون جُهّالاً، فلا يرتحلون؛ ضَنَانَةً بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون. فإذا طال ذلك عليهم زادَ في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب، وفي تلك الألوان الشُّقْر، وفي تلك الصُّوَر المناسبةِ للقرود.

قالوا: ولم نعرفْ، ولم يثبُتْ عندنا بالخبر الذي لا يعارَض، أنّ الموضع الذي قلب صُوَر قومٍ إلى صور الخنازير، هو الموضع الذي نقل صُوَر قَوْمٍ إلَى صُوَرِ القرود. وقد يجوز أن تكون هذه الصُّورُ انقلبت في مهبِّ الريح الشمالي، والأخرى في مهبِّ الجنوب. ويجوز أن يكون ذلك كان في دهرٍ واحد؛ ويجوز أن يكون بينهما دهرٌ ودهور.

قالوا: فلسْنا ننكر المِسْخ إن كان على هذا الترتيب؛ لأنَّه إن كان على مجرى الطَّبائع، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك بناقضٍ لقولِنا، ولا مثْبتٍ لقولكُمْ.

قال أبو إسحاق: الذي قلتم ليسَ بمُحال، ولا يُنْكَر أن يحدُثَ في العالَم برهاناتٌ، وذلك المسخْ كان على مجرى ما أُعطُوا من سائر الأعاجيب، والدَّلائل والآيات. ونحن إنَّما عرفنا ذلك من قِبَلهم. ولولا ذلك، لكان الذي قلتمْ غيرُ ممتنع. ولو كان ذلك المسْخُ في هذا الموضع على ما ذكرتم، ثمَّ خبر بذلك نبيٌّ، أو دَعا بهِ نبيٌّ، لَكان ذلك أعظَمَ الحُجَّة.

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/٣١٣، وانظر الرسائل ١/٢١٩ – ٢٢٠. وربيع الأبرار ٥/٤٨١.

(٢) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين. معجم البلدان ١/٥٢٧.

(٣) العجوب: جمع عجب، وهو أصل الذنب. (القاموس: عجب).

فأما أبو بكر الأصمّ، وهشام بن الحكم، فإنَّهُما كانا يقولان بالقلْب، ويقولان: إنَّه إذا جاز أنْ يقلب اللّهُ خَرْدلةً من غير أن يزيد فيها جسماً وطولاً أو عرضاً جاز أن يقلب ابنَ آدمَ قِرداً من غير أن ينقُص من جسمه طولاً أو عرضاً.

وأمَّا أبو إسحاقَ فقد كان - لولا ما صَحَّ عنده من قول الأنبياء وإجماع المسلمين على أنّه قد كان، وأنَّه قد كان حُجَّةً وبرهاناً في وقته - لكان لا ينكر مذهبهم في هذا الموضع.

وقوله هذا قولُ جميعِ من قال بالطَّبائع، ولم يذهَبْ مذهب جهمٍ، وحفصٍ الفَرْدِ.

وقال ابن العنسيّ يذكر القرد: [من الطويل]

فهَلاَّ غَدَاةَ الرَّمْلِ يَا قِرْدَ حِذْيَمٍ تُؤَامِرُهَا في نَفْسها تَسْتَشِيرُها

١٠٠١ - [القول في تحريم الخنزير]

قال: وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألة؛ فمنهم من أراد الطّعن، ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم مَنْ أحبَّ أن يعرف ذلك من جهة الفُتيا؛ إذْ كان قولُه خلافَ قولنا.

قالوا: إنَّمَا قال اللّه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾[1]، فذكر اللَّحمَ دونَ الشّحم، ودونَ الرَّأس، ودونَ المخِّ، ودونَ العصَب، ودون سائرِ أجزائه؛ ولم يذكره كما ذكر المَيْتة بأسرها، وكذلك الدَّم؛ لأنَّ القول وقع على جملتهما، فاشتمل على جميع خصالهما بلفظٍ واحد، وهو العموم. وليس ذلك في الخنزير؛ لأنّه ذكر اللّحم من بين جميع أجزائه وليس بين ذكْر اللَّحْم والعظْم فرق، ولا بينَ اللَّحْمِ والشَّحم فرق. وقد كان ينبغي في قياسكُمْ هذا لو قال: حرِّمت عَلَيْكُمُ الميتَةُ والدَّم وشَحْم الخنزير، أن تحرِّموا الشحم، وإنَّما ذكر اللَّحم، فلِمَ حرّمتم الشحم؛ وما بالُكُمْ؛ تحرِّمونَ الشّحم عند ذكْر غيرِ الشّحم! فهلاّ حرَّمتم اللَّحم بالكتاب، وحرَّمتم ما سواه بالخبر الذي لا يُدْفَع!؟ فإن بقِيَتْ خصلةٌ أو خَصلتانِ ممَّا لم تُصيبوا ذِكْره في كتابٍ منَزَّل، وفي أثَرٍ لا يدفع، رددتموه إلى جهة العقل.

قُلنا: إنّ النَّاس عاداتٍ، وكلاماً يعرِّف كل شيءٍ بموضعه، وإنما ذلك على قدْر استعمالهم له، وانتفاعهم به.

وقد يقول الرجل لوكيله: اشتر لي بهذا الدِّينارِ لحماً، أو بهذه الدراهم، فيأتيه باللّحم فيهِ الشّحم والعظْم، والعِرق والعصب والغُضروف. والفُؤَاد والطِّحالُ، والرِّئةَ،

---

[1] ٣/المائدة: ٥.

وببعض أسقاط الشاة وحشو البطن. والرأس لحمٌ، والسَّمك أيضاً لحم. وقال اللّه تعالى: ﴿هُوَ الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[١]. فَإِنْ كانَ الرَّسول ذهبَ إلى المستعمَل من ذلك، وترَكَ بَعْضَ ما يقع عليه اسمُ لحم، فقد أخذَ بما عَلَيْه صاحبه. فإذا قال حَرَّمتُ عَلَيْكُمْ لحماً، فكأنّه قال: لحم الشّاة والبقرة والجزور. ولوَ أنّ رجُلاً قال: أكلت لحماً – وإنمَا أكل رأساً أو كبداً أو سمكاً – لم يكنْ كاذباً. وللنّاس أن يضعُوا كلامَهم حيثُ أحَبُّوا، إذا كان لهم مجازٌ؛ إلاّ في المعامَلات.

فإنْ قُلت: فما تقول في الجلد؟ فَلَيس للخنزير جلد، كما أنّه ليس للإنسان جلدٌ إلاّ بقطعِ ما ظهر لك منه بما تحتَه، وإنّما الجلْد ما يُسْلخُ ويُدْحَس[٢] فيتبرأ ممَّا كان بِه مُلتزقاً ولم يكن مُلتحماً، كفرق ما بين جلد الحَوْصَلة والعرْقين.

فإنْ سألتَ عن الشَّعر، وعن جلد المنْخَنقة والمَوقُوذة والمترَدِّيَة والنَّطيحة وما أكل السَّبُعُ، فإنِّي أزعم أنّ جلدهُ لاَ يُدْبَغ وَلاَ يَنْتَفعُ به إلاّ الأساكفة، والقول في ذلك أنّ كلَّهُ محرّم. وإنما ذلك كقوله تعالى: ﴿ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾[٣] وكَقَوْله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلكَ غَداً إلاّ أَنْ يَشَاءَ اللّهُ﴾[٤].

والعَربُ تقُول للرَّجُل الصانع نجَّاراً، إن كان لاَ يعمل بالمِثْقَبِ والمنشار ونحوه ولاَ يضرب بالمضلع ونحو ذلك، وتسميِّه خبَّازا إذا كان يطبخ ويعجن. وتسمِّي العِيرَ لطيمة، وإن لم يكن فيها ما يحمل العِطْر إلاّ واحد. وتقول: هذه ظُعُنُ فُلاَنٍ؛ للهوادج إذا كانت فيها امرأةٌ واحدة. ويقال: هولاء بنو فُلان؛ وإن كانت نساؤهم أكثرَ من الرجال.

فلما كان اللحم هو العمود الذي إليه يُقْصَد، وصار في أعظم الأجزاء قَدْراً، دَخَل سائرُ تلك الأجزاءِ في اسمه. ولو كان الشّحمُ معتزلاً من اللّحم ومفْرَداً في جميع الشِّحام، كشحوم الكُلى والثُّروب، لم يجزْ ذلك. وإذا تكلمَتْ على المفردات لم يكن المخُّ لحماً، لا الدِّماغ، ولا العظم، ولا الشّحم، ولا الغُضروف، ولا الكروش، ولا مَا أَشبه ذلك. فلما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ﴾[٥] وكانت

---

(١) ١٤/النحل: ١٦.

(٢) دحس الرجل الشاة: أدخل يده بين جلدها وصفاقها للسلخ.

(٣) ١٦/الأنفال: ٨.

(٤) ٢٣/الكهف: ١٨.

(٥) ٣/المائدة: ٥.

هذه الأشياء المشبَّهة باللَّحم تدخُل في باب العموم في اسم اللحم، كان القَوْلُ واقعاً على الجميع.

وقال الشاعر: [من الكامل]

مَنْ يَأْتِنا صُبحاً يريدُ غداءَنا ... فالهَامُ مَنْضَجَةٌ لَدَى الشَّحَّامِ

لحمٌ نَضيجٌ لا يُعنِّي طابخاً ... يُؤْتَى به مِنْ قَبْلِ كلِّ طعامِ

١٠٠٢ - [مسألة الهدهد]

وإذْ قد ذكرْنَا بَعض الكلامِ، والمسائل في بعْض الكلام، فسنذكر شأْنَ الهدهُد والمسألة في ذلك. قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[١] ثم قال: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[٢] يعني الهدهُد. فقال لسليمان المتَوعد له بالذَّبح عقُوبة له - والعقوبة لا تكون إلا على المعصية لبشريٍّ آدَميّ لم تكن عقوبته الذَّبح، فدلّ ذلك على أنّ المعصية إنما كانت له، ولا تكون المعصيةُ للّه إلاّ ممّن يعرف اللّه، أو ممَّن كان يمكنُه أن يعرفَ اللّه تعالى فتَرَكَ ما يجبُ عليه من المعرفة - وفي قوله لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٣]. ثمّ قال بعد أنْ عرفَ فصْل ما بين الملوك والسُّوقة، وما بين النِّساء والرجال، وعرف عظم عرشها، وكثرةَ ما أوتيت في ملكها، قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾[٤] فعَرَف السُّجُود للشمس وأنْكَرَ المعاصي. ثمَّ قال: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٥] ويتعجَّبُ من سجودهم لغير اللّه. ثمَّ علمَ أنَّ اللّه يعلم غيبَ السَّموات والأرض، ويَعلم السِّرَّ والعلانية. ثمَّ قال: ﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٦] وهذا يدلُّ على أنّهُ أعْلمُ مِن ناسٍ كثيرٍ من المميِّزين المستدلِّين الناظرين.

---

(١) ٢١/النمل: ٢٧.
(٢) ٢٢/النمل: ٢٧.
(٣) ٢٢/النمل: ٢٧.
(٤) ٢٤/النمل: ٢٧.
(٥) ٢٥/النمل: ٢٧.
(٦) ٢٦/النمل: ٢٧.

قال سليمان: ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[1] ثمَّ قال: ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّه الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾[2] ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾[3] وذلك أنَّها قالت: ﴿ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ﴾[4] ثمَّ قال سليمانُ للهدهد: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[5] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[6] فطعن في جميع ذلك طاعنون، فقال بعضهم: قد ثبتَ أنّ الهدهد يحتمل العقاب والعتاب، والتَّكليف والثَّواب، والولاية، ودخولَ الجنَّة بالطّاعة، ودخولَ النّار بالمعصية؛ لأنَّ المعرفةَ تُوجِب الأمرَ والنهيَ، والأمرَ والنهيَ يوجبان الطاعةَ والمعصية، والطاعةَ والمعصية يوجبان الوَلاَية والعَداوة، فينبغي للهداهد أنْ يكون فيها العدوُّ والوليُّ، والكافر والمسلم، والزِّنديق والدَّهريّ.

وإذا كان حُكْمُ الجنس حُكماً واحداً لزم الجميعَ ذلك. وإن كان الهدهدُ لا يبلغ عندَ جميع الناس في المعرفة مبلغَ الذرّة، والنملة، والقملة، والفيل، والقرد، والخنزير، والحمام -- وجميع هذه الأمَم، تُقَدِّمُهَا عليه في المعرفة -- فينبغي أن تكونَ هذه الأصنافُ المتقدِّمَةُ عليه، في عقول هذه الأمَّة والأنبياء.

وقد رأينا العلماء يتعجَّبون من خُرافات العَرَب والأعراب في الجاهليَّة ومن قولهم في الدِّيك والغراب، ويتعجَّبون من الرِّواية في طوق الحمَام فإنّ الحمام كان رائدَ نوح على نبينا وعليه السلام.

---

(١) ٢٧/النمل: ٢٧.
(٢) ٢٨ – ٣١ النمل: ٢٧.
(٣) ٣٦/النمل: ٢٧.
(٤) ٣٤/النمل: ٢٧.
(٥) ٣٧/النمل: ٢٧.
(٦) ٣٨ – ٤٠/النمل: ٢٧.

وهذا القول الذي تؤمنون به في الهدهد، من هذا النوع.

قُلنا: إنّ اللّه تعالى لم يقل: وتَفَقّدَ الطّير فقال ما لي لا أرى هدهداً من عُرْض الهداهد، فلم يوقع قولَه على الهداهد جُملة، ولا على واحدٍ منها غير مقصودٍ إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامَّة، ولكنَّهُ قالَ: ﴿وَتَفَقّدَ الطّيرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ﴾[1] فأدخَلَ في الاسم الألفَ واللام، فجعله معرفة فدلَّ بذلك القصد على أنَّه ذلك الهدهدُ بعينه. وكذلك غُرابُ نوح، وكذلك حمارُ عُزير، وكذلك ذئب أُهبانَ ابن أوس؛ فقد كانَ لِلّهِ فيه وفيها تدبيرٌ، وليجعَل ذلك آيةً لأنبيائه، وبرهاناً لرسله.

ولا يستطيع أعقلُ الناس أن يعملَ عمل أجرإِ النَّاس، كما لا يستطيع أجرأُ النَّاس أن يعملَ أعمالَ أعقلِ الناس. فبأعمال المجانينِ والعُقلاءِ عرَفنا مقدارهما من صحّة أذهانهما وفسادها، وباختلاف أعمالِ الأطفالِ والكهول عرفْنا مقدارَهما في الضعْف والقوَّة، وفي الجهل والمعرفة. وبمثل ذلك فَصَلنا بين الجماد والحيوان، والعالِم وأعلمَ منه، والجاهلِ وأجْهلَ منهُ. ولو كان عند السِّباعِ والبهائم ما عند الحكماء والأدباء، والوزَراء والخَلفاء والأمَمِ والأنبياء، لأثمرت تلك العقول، باضطرارٍ، إثمارَ تلك العقول. وهذا بابٌ لا يخطئ فيه إلاَّ المانيَّةُ[2] وأصحابُ الجهالات فقط. فأمَّا عوامُّ الأمم، فضلاً عن خواصهم، فهم يعلمون من ذلك مثلَ ما نعلم. وإنما يُتفاضَل بالبيان والحفظ، وبنسق المحفوظ. فأمَّا المعرفة فنحن فيها سواء. ولم نعرف العقلَ وعدَمه ونقصانه، وإفادته، وأقدارَ معارفِ الحيوان إلاَّ بِمَا يظهر منها. وبتلك الأدلَّة عرفنا فرقَ ما بين الحيِّ والميت، وبين الجماد والحيوان.

فإن قال الخصم: ما نعرف كلامَ الذِّئب، ولا معرفة الغُراب، ولا علمَ الهدهد. قلنا: نحن ناسٌ نؤمن بأَنَّ عيسى عليه السلام خُلِق من غير ذكرٍ وإنَّما خُلق من أُنثى؛ وأنَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ خُلقا من غير ذكرٍ وأنثى، وأنَّ عيسى تكلَّم في المهد، وأنَّ يحيى بن زكريَّا نطق بالحكمةِ في الصِّبا، وأنَّ عقيماً ألقحَ، وأنَّ عاقراً ولدت[3]؛ وبأشياءَ كثيرةٍ

---

(١) ٢٠/النمل: ٢٧.

(٢) المانية: ويقال: المنانية؛ والمنائية؛ والمانوية، هم الزنادقة أصحاب ماني بن فاتك الذي كان يقول: إن مبدأ العالم من كونين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما في صراع مستمر لا ينتهي إلا بانتهاء الدنيا. انظر فهرست ابن النديم ٤٥٦ وما يليها، ومروج الذهب ٧/٦٢٩.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً﴾ [مريم: ٨]، وقوله تعالى: ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ [هود: ٧٢].

خرجت خارجيةً من نَسَقِ العادة. فالسّبب الذي به عرَفنا أنّه قد كان لذلك الهدهد مقدارٌ من المعرفة، دونَ ما توهَّمتم وفوق ما مع الهدهد. ومتى سألتمونا عن الحجَّة فالسبيل واحدة. ونحن نقرُّ بأنّ مَن دخل الجَنة من المجانين والأطفال يدخلون عقلاءَ كاملين، من غير تجاربَ وتمرينٍ وترتيب. فمسألتكُمْ عما ألهم الهدهد، هي المسألة عمَّا ألهم الطفل في الجنة.

فإن قال قائل: فإنَّ ذلك القولَ كلَّه، الذي كان من الهدهد، إنما كان على الإلهام والتّسْخير، ولم يكن ذلك عن معرفة منه، فلم قال: ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾[1]؟ قلنا: فإنّه قد يتوعَّد الرَّجُلُ ابنه - وَهو بَعْدُ لم يَجر عَلَيْه الأحكَامُ - بالضَّرب الوجيعِ، إن هو لم يأتِ السُّوق، أو يحفظْ سورةَ كَذَا وكَذَا؛ فلاَ يعنِّفُهُ أحدٌ على ذلك الوعيد. ويكذبُ فيضربه على الكذب، ويضرب صبياً فيضربه لأنه ضربه. وهو في ذلك قد حَسُنَ خطّه، وجاد حسابُه، وشدَا من النَّحو والعروض والفرائض شدْواً حسناً، ونفع أهلَه، وتَعلم أعمالاً، وتكَلَّم بكلام، و أجاب في الفتيا بكلامٍ فَوْقَ معاني الهدهد في اللّطافة وَ الغموض. وَهُوَ في ذلك لم يكمُل لاحتمال الفرض وَالْوِلاية وَالعَداوَة.

فإن قال: فهل يجوز لأحدٍ أن يقول لابنه: إنْ أنت لم تأتِ السُّوق ذبحتك؛ وَهُوَ جادٌ؟ قُلنا: لا يجوز ذلك. وَ إنَّمَا جاز ذلك في الهدهد لأنّ سلَيمان - وَمَنْ هو دونَ سليمان من جميع العالم - له أن يذبح الهدهدَ والحمامَ والدِّيك، والعَناق والجدْي. والذَّبحُ سبيلٌ من سُبُل مناياهم. فلو ذبحهُ سليمانُ لم يكن في ذلك إلاَّ بقدر التَّقديم والتأْخير، وإلاَّ بقدْر صَرفَ ما بين أن يموت حتْفَ أنفه، أو يموتَ بالذَّبح. ولَعَلَّ صَرْفَ ما بينهما لا يكونَ إلاَّ بمقدار ألم عِشرين درَّةً[2]. ولعلَّ نتْف جناحه يَفي بذلك الضرب. وإذا قلنا ذلك فقد أعطينا ذلك الهدهدَ بعينه حقَّ ما دلَّت عليه الآية، ولم نجزْ ذلك في جميع الهداهد، ولم نَكُنْ كَمَنْ ينكر قدرة اللّه على أن يُركِّبَ عصفوراً من العصافير ضرباً من التراكيب يكون أدهى من قيس بن زهير. ولو كان اللّه تعالى قد فعل ذلك بالعصافير لظهرت كذلك دلائل.

على أنَّا لو تأوَّلنا الذَّبحَ على مثالِ تأويلِ قولنا في ذبْح إبراهيم إسماعيلَ عليهما السلام - وَإنما كان ذلك ذبحاً في المعنى لغيره - أو على معنى قول القائل: أمّا أنا

(١) ٢١/النمل: ٢٧.
(٢) الدِّرَّة: درة السلطان التي يضرب بها. (اللسان: درر).

فقد ذبحته وضربت عنقه، ولكن السيف خانني. أو على قولهم: المِسْك الذَّبيح، أو على قولهم: فجئت وقدْ ذَبَحَني العطش - لكان ذلك مجازاً.

ولو أنَّ صَبيّاً مِن صبياننا سُئل، قبل أن يبلُغَ فرضَ البلوغ بساعة، وكان رأى مَلكة سبإٍ في جميع حالاتها، لما كان بعيداً ولا ممتنعاً أن يقولَ: رأيتُ امرأةً ملكَةً، ورَأيتها تسجُد للشَّمس من دون اللّه، ورأيتُها تُطيعُ الشَّيطانَ وتَعصِي الرَّحمنَ، ولا سيما إنْ كانَ من صِبيان الخلَفاء والوُزراء، أو مِنْ صبيان الأعراب.

والدَّليل على أنَّ ذلك الهدهدَ كان مسخَّراً وميَسَّراً، مَضيُّه إلى اليمن، ورجوعُه من ساعته.

ولم يكن من الطَّير القواطعِ فرجع إلى وكره. والدَّليل على ذلك أنَّ سليمان عليه السلام لم يقل: نعم قد رأيت كلَّ ما ذكرتَ، وأنت لم تعلم حين مضَيت بطّالاً هارباً من العمل، أتُكْدي أم تنجح، أو ترى أُعجوبةً أو لا تراها. ولكنَّهُ توعَّدهُ على ظاهر الرَّأي، ونافره القولَ؛ ليُظهرَ الآيةَ والأعجوبة.

١٠٠٣ - [طعن الدهرية في ملك سليمان]

ثمَّ طعَن في مُلك سُليمانَ ومَلكة سبإٍ، ناسٌ من الدُّهريَّة، وقالُوا: زعمتم أنَّ سُليمان سأل ربَّه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[١] وأنَّ اللّه تعالى أعطاه ذلك، فملَّكه على الجنِّ فضلاً عن الإنْس، وعلَّمه منطقَ الطَّير، وسخَّر له الرِّيح، فكانت الجنُّ له خَوَلاً، والرِّياحُ له مسخرة ثمَّ زعمتم - وهو إمّا بالشّام وإمَّا بسَوَادِ العراق - أنَّه لا يعرف باليمن مَلكَةً هذه صفتُها. وملوكُنا اليومَ دونَ سليمانَ في القدْرة، لا يخفى عليهم صاحب الخزَر، ولا صاحبُ الروم، ولا صاحبُ الترك، ولا صاحبُ النُّوبة، وكيف يجهل سليمانُ موضعَ هذه الملكة، مع قرْب دارها واتِّصَالِ بلادها! وليس دونَها بحارٌ ولا أوعارٌ؛ والطريق نهجٌ للخُفِّ والحافر والقدَم. فكيفَ والجنُّ والإنسُ طوعُ يمينه. ولو كان، حين خبَّره الهدهدُ بمكانها، أضرَب عنها صفحاً، لكان لقائلٍ أن يقول: ما أتاه الهدهدُ إلاّ بأمرٍ يعرفه. فهذا وما أشبهَهُ دليلٌ على فساد أخباركم.

قُلنا: إنّ الدُّنيا إذا خلاّها اللّه وتدبيرَ أهلها، ومجاريَ أمورها وعاداتها كان لعمري كما تقولون. ونحن نزعمُ أنَّ يَعْقوبَ بنَ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ كَانَ أنبهَ أهْلِ

---

(١) ٣٥/ص: ٣٨.

زمانه؛ لأنّه نبيٌّ ابنُ نبيٍّ، وكان يوسُف وزير مَلِك مصر من النَّباهة بالموضع الذي لا يُدفَع، وله البُرُدُ، وإليه يرجع جوابُ الأخبار، ثمَّ لم يعرِفْ يَعقوبُ مكانَ يوسُفَ، ولا يوسفُ مكانَ يَعقوبَ عليهما السلام - دهراً من الدُّهور، مع النَّباهةِ، والقُدْرةِ، واتِّصال الدار.

١٠٠٤ - [القول في موسى بن عمران]

وكذلك القولُ في موسى بنِ عمرانَ ومَنْ كَانَ معه في التِّيه، فقد كانوا أمَّةً من الأمم يتَكَسَّعُونَ أربعين عاماً، في مقدارِ فراسخَ يسيرةٍ ولا يهتدون إلى المخرج. وما كانت بلادُ التِّيه إلاّ من ملاعبهم ومُنْتَزَهاتهم. ولا يعدم مثلُ ذلك العسكرِ الأدلاَّءَ والجَمَّالين، والمُكارينَ[1]، والفُيُوجَ[2]، والرُّسلَ، والتّجار. ولكنَّ اللّه صَرَفَ أوهامَهم، ورفع ذلك الفَصْلَ[3] من صدورهم.

١٠٠٥ - [القول في الشياطين]

وكذلك القول في الشَّياطين الذين يسترقون السّمْعَ في كلِّ ليلة، فَنَقُولُ: إنَّهم لو كان كلما أراد مُريدٌ منهم أن يصعَدَ ذكَرَ أنَّه قد رُجِم صاحبُه، وأنَّه كذلك منذ كان لم يصل معه أحدٌ إلى استراقِ السَّمْع، كان مُحالاً أن يرومَ ذلك أحَدٌ منهم مع الذِّكر والعِيان.

ومثل ذلك أَنّا قد علمْنا أنّ إبْليسَ لا يزالُ عاصياً إلى يومِ البَعث. ولو كان إبْليسُ في حال المعْصيَة ذَاكِراً لإخبارِ اللّه تَعالى أنَّه لا يزالُ عاصياً وهو يَعلم أنّ خَبرَه صدقٌ، كان محالاً أنْ تدعُوَه نفسُه إلى الإيمانِ، ويطمَعَ في ذلك، مع تصديقِه بأنّه لا يختار الإيمانَ أبداً.

ومن المحال أن يجمَع بين وجودِ الاستطاعة وعدم الدَّواعي وجواز الفعل.

ولو أنّ رجلاً عَلِم يقيناً أنّه لا يخرُج من بيته يومَه ذلك، كان محالاً أن تدعُوَه نفسه إلى الخروج، مع علمه بأنّه لا يفعل. ولكنَّ إبْليسَ لما كانَ مصروفَ القَلبِ عن ذِكْر ذلك الخبر، دخل في حَدِّ المستطيعين.

---

(١) المكارين: جمع مكارٍ، وهو الذي يؤجر دابته للناس. انظر اللسان (كرى).
(٢) الفيوج: جمع فيج: رسول السلطان الذي يسعى بالكتب. (اللسان: فيج).
(٣) الفصل: التمييز. (اللسان: فصل).

ومثل ذلك أنّ النبي ﷺ لَمّا بشره اللّه بالظّفرِ وتمام الأمر[1] بشرّ أصحابَه بالنَّصر، ونزولِ الملائكة. ولو كانوا لذلك ذاكرين في كلّ حالٍ، لم يكن عليهم منَ المحاربة مؤونة. وإذا لم يتكلفوا المؤونة لم يؤجَروا. ولكنّ اللّه تَعالى بنظره إليهم رَفَع ذلك في كثيرٍ من الحالات عن أوهامهم؛ ليحتملوا مشَقَّة القِتال، وهم لا يعلمون: أيغلِبُون أم يُغْلَبون؛ أو يَقْتُلُونَ أم يُقتلون.

ومثل ذلك ما رفع من أوهام العَرب، وصرف نفوسهم عن المعارَضَة للقرآن، بَعْدَ أنْ تحدَّاهم الرَّسولُ بنظْمه. ولذلك لم نَجدْ أحَداً طمِع فيه. ولو طمِعَ فيه لتَكلفه، ولوتكلف بَعضهُمْ ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شُبهة لعظمت القصَّة على الأعْراب وأشباه الأعراب، والنِّساء وأشباه النساء، ولأَلقَى ذلك للمسلمين عملاً، ولطَلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثُر القيلُ والقال.

فقد رأيتَ أصحابَ مُسيْلمَة، وأصحاب ابن النواحة إنما تَعلّقُوا بما ألَّف لهُمْ مُسَيلمة من ذلك الكلام، الذي يَعلمُ كلُّ مَن سَمعه أنَّه إنَّما عَدا على القرآن فسلَبه، وأخَذَ بَعضَه، وتَعاطى أن يُقَارِنَه. فكان للّه ذلكَ التَّدبيرُ، الذي لا يبلغه العِبَادُ ولو اجتَمَعوا له.

فإنْ كان الدُّهريُّ يريدُ من أصحَاب العبَادَات والرُّسُلِ، ما يريد من الدُّهريِّ الصِّرفِ، الذي لا يُقرُّ إلا بما أوجَدَه العيان، وما يَجري مَجرَى العِيان - فَقَدْ ظَلَمَ.

وقَد علم الدُّهريُّ أنّنا نعتقد أنّ لنا ربّاً يخترع الأجسامَ اختراعاً وأنّهُ حَيٌّ لا بحياة، وعالمٌ لا بعلم، وأنّه شيءٌ لَا ينقسم، وليس بذي طُول ولا عرْض ولا عُمق، وأنّ الأنبياء تحيي الموتى. وهذا كلُّه عنْدَ الدهريِّ مستنكَر، وإنَما كان يكون له عَلَيْنا سبيل لو لم يكن الذي ذكرنا جائزاً في القياس، واحتجْنا إِلَى تثبيت الرُّبوبيَّة وتصديقِ الرِّسالة، فإذا كان ذلك جائزاً، وكانَ كونُه غيرَ مستنكَرٍ، ولا محالٍ، ولا ظُلم، ولا عيبٍ، فلم يبقَ له إلاّ أنْ يسألَنَا عن الأصْلِ الذي دعا إلى التَّوحيد، وإلَى تثبيت الرسل.

وفي كتابنا المنزّل الذي يدلُّنا على أنّه صدْقٌ، نَظْمُه البديع الذي لايقدِر على مثله العباد، مَعَ ما سِوَى ذلك من الدّلائِلِ التي جَاء بها مَنْ جَاء به.

وفيه مسطورٌ أنّ سليمانَ بنَ داودَ غبَرَ حيناً - وهو ميّت - معتمداً على عصاه، في الموضع الذي لا يُحْجَب عنه إنْسيٌّ ولا جنّيٌّ، والشَّياطينُ مهُمْ المَكْدُودُ بالعَمَل الشديد، وَمِنْهُمْ المحبوسُ والمستعبد، وكانوا كما قال اللّه تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا

---

[1] إشارة إلى وقعة أحد، وهي التي ورد ذكرها في سورة آل عمران؛ الآيات ١٢٢ - ١٢٦.

يَشاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجفَانٍ كالجَوَابي وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[1] وقال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفَادِ﴾[2]، وأَنَّهُ غَبَرَ كذلك حيناً وهو تُجاهَ أعيُنِهم، فلا هُمْ عرفُوا سجيَّةَ وُجوهِ الموتَى، ولا هو إذْ كان ميِّتاً سقَط سُقوطَ الموتى. وثبتَ قائماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتةٌ قائمةٌ في يده، وهو قابضٌ عليها. وليستْ هذه الصِّفَةُ صفةَ موتانا.

وقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ المُهِينِ﴾[3] ونحنُ دونَ الشَّياطينِ والجنِّ في صدْق الحسِّ، ونُفوذِ البصر. ولوْ كُنَّا من بعضِ الموتى بهذا المكان، لما خَفَي علينا أَمرُه وكان أدنى ذلك أنْ نظنَّ ونرتاب. ومتى ارتابَ قومٌ وظَنُّوا وماجُوا وتكلموا وشاوروا، لَقِنُوا وثُبِّتُوا. ولا سيَّما إذا كانوا في العذاب ورأوْا تَبَاشيرَ الفرَج.

ولولا الصَّرْفة. التي يُلقيها اللّه تعالى على قَلْبِ مَنْ أَحَبَّ، ولولا أنّ اللّه يقدرُ على أنْ يشغَلَ الأوهامَ كيف شاء، ويذكِّر بما يشاء، ويُنَسِّي ما يشاء، لما اجتمع أهلُ داره وقصْره، وسُوره ورَبَضه، وخاصَّتُه، ومن يخدُمه من الجنِّ والإِنْس والشَّياطين، على الإطباق بأنَّه حَيٌّ. كذلك كان عندهم. فحدث ما حَدَثَ من موته، فلمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه. فعلمْنا أنَّ الجنَّ والشّياطينَ كانت تُوهم الأغبياء والعَوَامَّ والحُشْوَة والسِّفلة، أنَّ عندهما شيئاً من علْمِ الغيب – والشياطين لا تعلم ذلك – فأراد اللّه أَنْ يكشف من أمْرهم للجُهَّال ما كان كَشَفَه للعلماء. فبهذا وأشباهه من الأمور نحنُ إلى الإقرار به مضطرون بالحجَج الاضطراريَّة فليس لخصومنا حيلةٌ إلاَّ أن يواقفُونَا، وينظروا في العلَّة التي اضطرتنا إلى هذا القول؛ فإن كانت صحيحةً فالصَّحيحُ لا يُوجِب إلا الصحيح. وإنْ كانت سقيمةً علمْنا أنَّما أُتينَا من تأويلنا.

وأما قوله: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ﴾[4] فَإِنَّ التعذيبَ يكون بالحبس، كما قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿لوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا في الْعَذَابِ المُهِينِ﴾[5]. وإنَّما كانُوا مُخَيَّسِينَ[6].

---

(١) ١٣/سبأ: ٣٤.
(٢) ٣٨/ص: ٣٨.
(٣) ١٤/سبأ: ٣٤.
(٤) ٢١/النمل: ٢٧.
(٥) ١٤/سبأ: ٣٤.
(٦) المخيس، هو من قولهم: إبل مخيسة؛ أي لا تسرح.

وقد يقول العاشق لمعشوقته: يا معذِّبتي! وقد عذّبتني!

ومن العذَاب ما يكُونُ طويلاً، ومنْه ما يكونُ قصيرَ الوقْت. ولو خَسَفَ اللّه تَعالى بقومٍ في أقلَّ من عُشْر ساعة لجاز لقَائل أن يقول: كان ذلك يومَ أحلَّ اللّه عذابَه ونِقمَتَه ببلاد كذا وكذا.

١٠٠٦ - [القول في الخنزير]

وقال أبو ناصرة: الخنزير ربَّما قتل الأسد، وما أكْثرَ ما يَلْحَقُ بصاحب السَّيفِ والرُّمح، فيضربُه بنابه، فيقطَعُ كلّ ما لقيه من جسَده: من عظمٍ وعصَبٍ، حتى يقتلَه. وربَّما احتال أن ينبَطِحَ على وجههِ على الأرض، فلا يغني ذلك عنْه شيئاً.

وليس لشيءٍ من الحيوان كاحتمال بدنِه لِوَقْع السهام، ونفوذها فِيه.

وهو مع ذلك أرْوَغُ من ثعلب، إذا أراده الفارس. وإذا عدا أطمَعَ في نفْسه كلّ شيء، وإذا طولب أعيا الخيْلَ العتاق. والخنزيرُ مع ذاك أنْسَلُ الخلْق؛ لأنَّ الخنزيرةَ تَضَعُ عشرين خنَّوْصاً، وهو مَع كَثرة إنساله - منْ أقوَى الفحُول على السِّفاد، ومَعَ القُوّة علَى السِّفاد هو أطولها مُكْثاً في سفادِه، فهْوَ بذلك أجمَعُ للفُحُولة.

وإذا كانَ الكلبُ والذِّئبُ موصوفَينِ بشدّة القَلْب؛ لطُول الخَطْم، فالخنْزيرُ أولى بذلك.

وللفيل نابٌ عجيب، ولكنَّهُ لقصر عنقه لا يبلغ النَّابُ مبلغاً، وإنَّمَا يستعينُ بخُرطومِه، وخُرطومُهُ هو أنفه، والخَطْمُ غير الخرطوم.

قال أبو ناصرة: وله طيب، وهُو طيبُ لحمه ولحمُ أولاده. وإذا أرادُوا وصفَ اختلاط ودَك الكُرْكيِّ[1] في مَرَق طبيخ، قالُوا كأنَّ إهالتَه إهالة[2] خنزير؛ لأنَّه لا يسرعِ إليها الجمود. وسرعةُ جمودِ إهالة الماعز في الشِّتاء عيب. وللضَّأن في ذلك بعضُ الفضيلة على الماعز؛ ولا يلحق بالخنزير.

وإذا نقص من الإنسان عَظْمٌ واحْتيجَ إلى صِلتِه في بعض الأمراض لم يلتحِمْ بهِ إلاّ عَظْمُ الخنْزير.

وإذا ضُرِب فصاح لم يكن السَّامعُ يفصِلُ بينَ صَوته وبينَ صوت صبيٍّ مضروب.

---

(١) الودك: الدسم (القاموس: ودك). الكركي: طائر كبير، أغبر؛ طويل الساقين. (حياة الحيوان ٢/٢٤٤).

(٢) الإهالة: الشحم. (القاموس: هال).

وفي إطباقِ جميع الأممِ على شهوةِ أكله واستطابَةِ لحمِه، دليلٌ على أنَّ له في ذلِكَ ما ليس لغيْره.

١٠٠٧ - [زعم المجوس في المنخنقة والموقوذة والمتردية]

والمجوس تزعم أنَّ المُنخنقَة والموقُوذَة والمتردِّية، وكلَّ ما اعْتُبط[١] ولم يمت حَتْف أنفه، فهو أطْيب لَحْماً وأحلى؛ لأنَّ دَمَه فيه، والدم حُلوٌ دَسِم. وإنما عافَه مَن عافَه من طَريق العادة والدِّيانة، لا من طريق الاستقْذار والزُّهْدِ الذي يكُونُ فِي أصل الطبيعة.

١٠٠٨ - [اختلاف ميل الناس إلى الطعام]

وقد عافَ قومٌ الجرِّيَّ والضِّبابَ[٢] على مثل ذلك، وشُغِف بِهِ آخرون.

وقد كانت العربُ في الجاهليَّة تأكل دمَ الفصْد، وتفضِّل طَعمه، وتُخبر عَمَّا يورثُ من القوَّة.

قال: وأيُّ شيءٍ أحسَنُ من الدّم، وهل اللَّحمُ إلا دَمٌ استحالَ كما يستحيل اللَّحمُ شحماً؟ ولكنّ الناس إذا ذَكروا معناه، ومن أين يخرج وكيف يخرج، كانَ ذلِكَ كاسِراً لهُمْ، ومانعاً من شهوتِه.

١٠٠٩ - [ما يغير نظر الإنسان إلى الأشياء]

وكيف حال النَّار في حسنها، فإنّه ليس في الأرض جسمٌ لم يصبغ أحسن منْه. ولَوْلا معرفتهُمْ بقتْلها وإحْراقِها وإتلافها، والألم والحُرْقة المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحُسْن عِنْدَهُمْ. وإنَّهم ليَرَوْنَها في الشِّتاءِ بغير العُيونِ التي يرونَها بها في الصَّيف. ليس ذلك إلاَّ بقدْر ما حدَثَ من الاستغناءِ عنها.

وكذلك جِلاءُ السَّيف؛ فإنَّ الإنسانَ يَستحسِنُ قَدَّ السَّيفِ وخَرْطَه، وَطبْعَهُ وبريقَه. وإذا ذكر صنيعَه والذي هُيئَ له، بَدَا لهُ في أكثرِ ذلك، وتبدَّل في عينه، وشَغلَه ذلك عن تأمُّل محاسنه.

ولولا علْم النَّاس بعداوة الحيَّاتِ لهم، وأنهَا وحشيَّة لا تَأْنَس ولا تقبل أَدَباً، ولا

---

(١) اعتُبط: مات من غير علة. (القاموس: عبط).

(٢) الجرّي: ضرب من السمك. الضباب: جمع ضب.

تَرْعَى حقَّ تربِية، ثمَّ رأوا شيئاً من هذه الحيَّاتِ، البيض، المنقّشَةِ الظُّهور - لَمَا بَيَّتُوها ونوّمُوها إلاَّ في المهد، مع صِبيانهم.

١٠١٠ - [ردٌّ على من طعن في تحريم الخنزير]

فيقال لصاحب هذه المقالة: تحريم الأغذيَة إنَّمَا يكونُ من طريق العبادة والمحْنة، وليس أنهَ جوهَرَ شيء من المأكول يوجبُ ذلك. وإنَّمَا قلنا: إنَّا وجدْنا اللّه تعالى قد مسَخَ عباداً من عباده في صُوَرَ الخنزير دونَ بقيَّة الأجْناس، فعلمنا أنَّه لم يَفْعَلْ ذلك إلاَّ لأمور اجتمعتْ في الخنزِير. فكان المسخ على صورته أبلَغ من التَّنكيل. لم نقُلْ إلاَّ هذا.

١٠١١ - [القول في القرد]

والقرد يَضحَكُ ويَطْرَب، ويُقعي ويَحكي، ويتناولُ الطَّعامَ بيديه ويضعُه في فيه، ولَهُ أصابعُ وأظفار، ويَنقي الجوز، ويأنس الأُنْسَ الشَّديد، ويَلْقَنُ بالتَّلقين الكثير، وإذا سقَط في الماء غرِق ولم يسبَحْ؛ كالإنسانِ قبلَ أنْ يتعلَّمَ السِّباحة. فلم تجد النَّاسُ للذي اعترى القرْدَ من ذلك - دونَ جميعِ الحيوان عِلّةً - إلاَّ هذه المعاني التي ذكرتها، من مناسَبة الإنسانِ مِنْ قِبَلِها.

ويُحكى عنه من شدَّة الزَّواج، والغَيرة على الأزواج، ما لا يحكى مثلُه إلاَّ عن الإنسان؛ لأنَّ الخنزيرَ يَغَارُ، وكذلك الجملُ والفرَسُ، إلاَّ أنهَا لا تزاوج. والحمارُ يَغارُ ويحمي عانَتَهُ الدَّهر كُلَّهُ، ويضرِبُ فيها كضربه لو أصابَ أَتَاناً من غيرها. وأجناس الحمام تزاوج ولا تَغار.

واجتمَع في القرد الزَّواج والغَيرة، وهما خَصلتانِ كريمتان، واجتماعُهما من مفاخرِ الإنسان على سائرِ الحيوان. ونحن لم نَرَ وجْهَ شَيءٍ غيرِ الإنسان أشبَهَ صورة وشبهاً، على ما فيه من الاختلاف، ولا أشبَهَ فماً ووجْهاً بالإنسان من القرْد. وربّما رأيْنا وجهَ بَعْضِ الحمر إذا كان ذا خطْمٍ، فلا نَجدُ بَيْنَهُ وبين القرْدِ إلاَّ اليسيرَ.

وتقول الناس: «أكْيسُ من قِشَّة»[١] و«أمْلَحُ مِنْ رُبَّاحٍ»[٢] ولم يقل أحد: أكيس من خِنزير، وأملَحُ من خِنّوص. وهو قول العامّة: «القرد قبِيحٌ ولكنّه مليح».

---

(١) المثل في مجمع الأمثال ٢ /١٦٩، والفاخر ٨١، وجمهرة الأمثال ٢ /١٧٥، والمستقصى ١ /٢٩٧، وأمثال ابن سلام ٣٧٠، والدرة الفاخرة ٢ /٣٦٦.

(٢) الرباح: ذكر القرد. (القاموس: ربح).

وقال النَّاس في الضبِّ: إنه مِسخٌ. وقالوا: انْظُر إلى كفِّه وأصابعه. فكَفّ القرد وأصابعُه أَشْبَهُ وأصنَعُ. فقدَّمَتِ القردَ على الخنزير من هذا الوجه.

١٠١٢ - [علة تحريم لحم الخنزير]

وأمّا القولُ في لحمه، فإنَّا لم نزعمْ أنّ الخنزيرَ هو ذلك الإنسانُ الذي مُسِخ، ولا هو من نَسله، ولم نَدعْ لَحمهُ من جهة الاستقذارِ لِشَهْوته في العَذِرة، ونحن نجد الشَّبُّوط والجِرّيَّ، والدّجاج، والجَرادَ، يشاركْنُه في ذلك ولكن للخصال التي عدّدنا من أسباب العبادات. وكيف صار أحقَّ بأنْ تمسخ الأعداءُ على صورته في خلقته.

١٠١٣ - [حديث عبيد الكلابي]

قال: وقلت مرّةً لعبيد الكلابيِّ - وأظهَرَ مِن حُبِّ الإبلِ والشّغَفِ بها ما دَعاني إلى أن قلت لَهُ -: أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا خُؤولة. إنِّي واللّه ما أعني البَخاتيَّ، ولكني أعني العِرَاب، التي هي أعرب! قلت لَهُ: مَسَخَكَ اللّه تعالى بعيراً! قال: اللّه لا يمسخُ الإنسَانَ على صُورةِ كريمٍ، وإنما يمسخه على صورةِ لئيم، مثل الخنزير ثم القرد. فهذا قولُ أعرابيٍّ جِلْفٍ تكَلم على فِطرته.

١٠١٤ - [تأويل آية]

وقد تكلم المخالفُون في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذلكَ نَبلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١).

وقد طعَنَ ناسٌ في تأويل هذه الآيَة، بغيرِ علمٍ ولا بيانٍ، فقالوا: وكيف يكون ذلك وليس بين أن تجيء في كلِّ هلال فرقٌ، ولا بينها إذا جاءت في رأس الهلال فرقٌ، ولا بينَها إذا جاءتْ في رأس السَّنَةِ فرق.

١٠١٥ - [هجرة السمك]

وهذا بحرُ البَصرةِ والأُبلّة، يأتيهم ثلاثةَ أشهرٍ معلومة معروفة من السنة السَّمكُ الأسْبور، فيعرفون وقتَ مجيئه وينتَظرُونه، ويَعرفون وقتَ انقطاعه ومجيء غيره، فلاَ يمكث بهم الحالُ إلاَّ قليلاً حتَّى يُقبِلَ السَّمكُ من ذلك البحر، في ذلكَ الأوان، فلاَ

---

(١) الأعراف: ٧/١٦٣.

يَزَالونَ في صَيْدِ ثَلاَثَةَ أشهرٍ معلومةٍ من السَّنَة، وذلكَ في كلِّ سنة مرَّتين لكل جنس. ومعلومٌ عندهم أنه يكون في أحد الزمانين أسمَنَ، وهو الجُواف، ثمَّ يأتيهم الأسْبور، على حساب مجيء الأسبور والجُوَاف. فأمّا الأَسْبور فهو يقطع إليهم من بلادِ الزِّنج. وذلكَ مَعْرُوفٌ عند البحْريِّينَ. وأنَّ الأَسْبور في الوقت الذي يقطَع إلى دِجلة البَصرة لا يوجَد في الزِّنج، وفي الوقت الذي يُوجَدُ في الزنج لا يوجد في دِجلة. وربَّما اصطادُوا منها شيئاً في الطريق في وقت قطعهَا المَعْرُوف، وفي وقت رجوعها. ومَعِ ذلكَ أصنافٌ من السمك كالإرْبيان، والرَّقّ، والكَوْسَج، والبرد، والبَرَستُوج. وكلُّ ذلك معْرُوف الزَّمانِ، متوقعُ المخرَج.

وفي السَّمك أوابدُ وقواطع، وفيها سيّارةٌ لا تقيم. وذلك الشبَهُ يُصابُ. ولذلك صارُوا يتكلمُونَ بخَمْسةِ السنة، يهذُّونها[1]، سوى ما تَعلَّقُوا به من غيرها.

ثمَّ القواطع من الطير قد تأتينا إلى العِراق منهم في ذلك الإبَّان جماعاتُ كثيرةٌ، تَقْطَعُ إلينا ثمَّ تَعُودُ في وقتها.

١٠١٦ - [رد على المعترض]

قُلْنا لهؤلاء القَوْم: لَقَدْ أَصبتم في بَعض ما وصفتم، وأخْطأْتم في بَعضٍ. قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ تَأتيهمْ حيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأتيهمْ﴾[2] ويومُ السبتِ يدورُ مَعَ الأسابيع، والأَسابيعُ تَدور مع شهورِ الْقَمَرِ. وهذا لا يكونُ مَعَ استواءٍ من الزمان. وقد يكون السبتُ في الشتاء والصَّيف والخريف، وفيما بين ذلك. ولَيْسَ هذا من باب أزمان قواطع السَّمكِ وهَيْجِ الحَيَوان وطلب السِّفاد، وأزمان الفلاحَة، وأوقاتِ الجزْر والمَدِّ؛ وفي سبيلِ الأنواء، والشجر كيْفَ يَنْفُضُ الوَرَق والثمار؛ والحيّاتِ كَيف تَسلُخُ، والأيائِلُ كَيف تُلقي قُرونَها، والطيرِ كيف تَنطق ومتى تسكت.

ولو قال لَنَا قائل: إني نَبِيٌّ وقُلْنَا لَهُ: وما آيتك؟ وعلامتك؟ فقال: إذا كان في آخر تَشرينَ الآخِرِ أقبل إليكم الأسْبُور من جهة البحر، ضَحكُوا منه وسخروا به.

ولو قال: إذَا كانَ يَوْمُ الجمعَة أو يومُ الأحَد أقبل إلَيكم الأسْبُور، حَتَّى لا يزالُ يصنع ذلك في كلِّ جمعة – علمْنا اضطراراً إذَا عايَنَّا الذي ذكَرَ على نَسَقه أنّه صادق، وأنَّه لم يعلمْ ذلك إلاّ من قِبَلِ خالِق ذلك. تعالى اللّه عن ذلك.

---

(١) الهذُّ: سرعة القراءة. «القاموس: هذذ».

(٢) ١٦٣/الأعراف:٧.

وقد أقرَرْنا بعجيبِ ما نرى من مطالع النُّجوم، ومن تناهي المدِّ والجزْر على قدر امتلاءِ القمر، ونُقصانه وزيادته، ومحاقه[1] واستراره[2]. وكلُّ شيءٍ يأتي على هذا النَّسقِ من المجارِي، فإنَّمَا الآيةُ فيه لِلَّهِ وحدَه على وحدانيَّته.

فإذا قال قائلٌ لأهل شريعة[3] ولأهل مُرسًى، من أصحابِ بحرٍ أو نهرٍ أو وادٍ، أو عينٍ، أو جدولٍ: تأتيكم الحيتانُ في كلِّ سبت، أو قال: في كلِّ رمضان. ورمضانُ متحوِّلُ الأزمانِ في الشِّتاءِ والصيف والرَّبيعِ والخريف. والسَّبتُ يتحوَّل في جميع الأزمان. فإذا كان ذلك كانتْ تلك الأعجوبةُ فيه دالةً على توحيد اللّه تعالى، وعلى صدق صاحب الخبَر، وأنَّه رسولُ ذلك المسخِّر لذلك الصِّنف. وكان ذلك المجيءُ خارجاً من النَّسق القائم، والعادةِ المعروفة. وهذا الفرقُ بذلك بَيِّنٌ. والحمدُ للّه.

١٠١٧ - [شنعة المسخ على صورة الخنزير والقرد]

قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[4] وفي الموضعِ الذي ذكَرَ أنَّه مسَخَ ناساً خنازير قد ذكر القُرُود. ولم يذكُرْ أنَّهُ مَسَخَ قوماً خنازير، ولم يمسَخْ منهم قروداً. وإذا كان الأمر كذلك فالمسخُ على صورة القِرَدة أشنَع؛ إذْ كان المسخُ على صورتهَا أعظمَ، وكان العقابُ به أكْبر. وإنّ الوقت الذي قد ذكر أنَّه قد مسخ ناساً قروداً فقد كان مسخَ ناساً خنازير. فلم يدَعْ ذكْرَ الخنازير وذكْرَ القرودَ؛ إلاّ والقرودُ في هذا الباب أوجَعُ وأشنَع وأعظمُ في العُقوبة، وأدلُّ على شدَّة السَّخْطة. هذا قول بعضهم.

١٠١٨ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال لموضع الأنف من السِّباع الخطم، والخُرطوم - وقد يقال ذلك للخنزير - والفِنْطِيسة[5]، والجمع الفناطيس. وقال الأعرابيّ: كأنّ فناطيسها كراكِرُ[6] الإبل.

---

(١) المحاق: آخر الشهر، أو ثلاث ليالٍ من آخره، أو أن يستسر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية. (القاموس: محق).

(٢) استرار القمر: اختفاؤه. (اللسان: ستر).

(٣) الشريعة: مورد الماء. (اللسان: شرع).

(٤) ١٦٦/الأعراف: ٧.

(٥) فنطيسة الخنزير: خطمه. (اللسان: فنطس).

(٦) الكراكر: جمع كركر، وهو وعاء قضيب البعير والتيس. (اللسان: كركر).

١٠١٩ - [خصائص حيوانات بعض البلدان]

وقال صاحب المنطق: لا يكونُ خنزيرٌ ولا أيِّلٌ بحريّاً. وذكر أنَّ خَنازيرَ بعض البُلدان يكونُ لها ظلفٌ واحد، ولا يكونَ بأرضِ نهاوَنْدَ حِمَارٌ؛ لشدَّة بردِ الموضع، ولأنَّ الحِمار صَرِدٌ.

وقال: في أرضِ كذا وكذا لا يكون بها شيءٌ من الخَلْد، وإن نقله إنسانٌ إليها لم يحفر، ولم يتَّخذ بها بيتاً. وفي الجزيرة التي تسمَّى صِقِلِّيَة لا يكُونُ بها صنفٌ من النمل، الذي يسمَّى أقرشان.

١٠٢٠ - [قول أهل الكتابين في المسخ]

وأهل الكتابَين[١] يُنكرون أنْ يكون اللّه تعالى مسخَ النَّاس قروداً وخنازير، وإنما مسخ امرأة لوط حَجَراً. كذلك يقولون.

القول في الحيات

اللهمَّ جنِّبنا التكلفَ، وأَعِذْنَا من الخطَل، واحمِنا من العُجْبِ بمَا يكونُ منَّا، والثِّقة بمَا عندنا، واجعلْنا من المحسنين.

حدثنا أبو جعفرٍ المكفوفُ النحويُّ العنبريُّ، وأخوه رَوحٌ الكاتب ورجالٌ من بني العنْبر، أن عندهم في رمال بلْعنبرِ حيَّةٌ تصيد العصَافير وصغَارَ الطيرِ بأعجب صيدٍ. زعموا أنها إذا انتصَفَ النهارُ واشتدَّ الحرُّ في رمال بلعنبر، وامتنَعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورَمِض[٢] الجندب، غمست هذه الحيّةُ ذنبَها في الرَّمل، ثم انتصبَتْ كأنها رمحٌ مركوزٌ، أو عودٌ ثابت، فيجيء الطائر الصغيرُ أو الجرادةُ، فإذا رأى عوداً قائماً وكرِه الوُقُوعَ على الرَّمل لشدَّة حرِّه، وقَعَ علَى رأسِ الحيَّة، على أنّها عُود. فإذا وقَعَ على رأسها قبضَتْ عليه. فإن كان جرادةً أو جُعَلاً أو بَعْضَ ما لا يُشْبعها مثلُه، ابتلعته وبقيتْ على انتصابها. وإن كان الواقعُ على رأسها طائراً يُشبعها مثلُه أكلتْهُ وانصرفت. وأنَّ ذلك دأبُها ما مَنَعَ الرَّملِ جانبَه في الصَّيف والقَيْظ، في انتصاف النهار والهاجرة. وذلك أنَّ الطائرَ لا يشكُّ أنَّ الحيَّةَ عودٌ، وأنه سيقُوم له مقام الجِذْل[٣] للحِرْباء، إلى أنْ يسكنَ الحرُّ ووَهَجُ الرَّمْلِ.

---

(١) أهل الكتابين: اليهود والنصارى.

(٢) الرمض: شدة الحر. (اللسان: رمض)

(٣) الجذل: أصل الشجرة وغيرها، أو ما عظم من أصول الشجر. (القاموس: جذل).

وفي هذا الحديثِ من العَجَب أَنْ تكون هذه الحيَّةُ تَهتَدي لمثل هذه الحيلة. وفيه جَهلُ الطائرِ بفرق ما بين الحيوانِ والعُود. وفيه قلةُ اكتراث الحيَّة بالرَّمْل الذي عادَ كالجمر، وصلحَ أن يكون مَلَّةً[١] وموضعاً للخبزة، ثمَّ أن يشتمل ذلك الرَّمل على ثلث الحيَّة ساعاتٍ من النَّهَار، والرملُ على هذه الصفة. فهذه أعجوبةٌ من أعاجيب ما في الحيّات.

وزعم لي[٢] رِجَالٌ من الصّقالبة، خصيانٌ وفحول، أَنَّ الحيَّة في بلادهم تأتي البقرةَ المحفَّلةَ[٣] فتنطوي على فخذيْها ورُكبتيها إلى عراقيبها، ثمّ تُشْخص صدرَها نحو أَخلاف ضَرْعِها، حتى تلْتقم الخلف؛ فلا تستطيع البَقَرَةُ مع قوَّتها أن تَتَرَمْرَمَ[٤]. فلا تزالُ تمصُّ اللبن، وكلما مصَّت استرخت. فإذا كادت تتلفُ أَرسلتها.

وزعموا أن تلك البقَرَةَ إمّا أن تموتَ، إمّا أَنْ يصيبَها في ضرعها فسادٌ شديدٌ تَعْسُرُ مداواته.

والحيَّةُ تُعْجَبُ باللبن. وإذا وجدت الأفاعي الإناءَ غير مخَمَّر كرعت فيه، ورُبَّمَا مجَّت فيه ما صار في جوفها، فيصيبُ شاربَ ذلك اللبَنِ أذًى ومكروهٌ كثير.

ويقال إنَّ اللبن محتَضر[٥]. وقد ذهب ناسٌ إلى العمَّار، على قولهم إنَّ الثوبَ المعصْفَر محْتضَر[٥]. فظنَّ كثيرٌ من العلماء أنَّ المعنى في اللبن إنَما رَجَعَ إلى الحيَّات.

والحيَّةُ تُعْجَبُ باللُّفَّاح[٦] والبطِّيخ، وبالحُرْف[٧]، والخردل المرْخُوف[٨]؛ وتكره ريحَ السذاب[٩] والشِّيح، كما تكره الوَزَغُ ريحَ الزَّعفَران.

---

(١) الملَّة: الرماد الحار والجمر. (القاموس: ملل).

(٢) نهاية الأرب ٩/١٣٩.

(٣) المحفلة: الناقة أو البقرة أو الشاة لا يحلبها صاحبها أياماً حتى يجتمع لبنها في ضرعها، فإذا احتلبها المشتري وجدها غزيرة فزاد في ثمنها، فإذا حلبها بعد ذلك، وجدها ناقصة اللبن عما حلبه أيام تحفيلها. (اللسان: حفل).

(٤) تترمرم: تتحرك. (اللسان: رمم).

(٥) محتضر: تحضره الجن. (اللسان: حضر).

(٦) اللفاح: نبات يقطيني أصفر شبيه بالباذنجان طيب الرائحة. (اللسان: لفح).

(٧) الحُرف: حب الرشاد. (القاموس: حرف).

(٨) المرخوف: المسترخي. (القاموس: رخف).

(٩) السذاب: ضرب من البقول. (القاموس: سذب).

وليس في الأرض شيءٌ جسمه مثلُ جسم الحيَّة، إلا والحيّةُ أقوى بدناً منه أضعافاً. ومن قوّتها أنها إذا أدخَلَتْ رأسها في جُحْرِها، أو في صَدْعٍ إلى صدرها، لم يستطعْ أقوى النّاس وهو قابضٌ على ذنبها بكلتَا يديه أنْ يخرجها؛ لشدَّة اعتمادها، وتَعاونِ أجزائِها. وليست بذاتِ قوائم لَهَا أظفارٌ أو مخالبُ أو أظلاف، تُنْشِبُهَا في الأرض، وتتشبث بها، وتعتمد عليها. وربما انقطَعَتْ في يدي الجاذب لها، مَعَ أنها لدْنَةٌ ملساءُ عَلِكَة فيحتاج الرفيق في أمرها عند ذلك، أنْ يُرسلها من يديه بعضَ الإرسال، ثمَّ ينشطُها كالمختطف والمختلس، وربما انقطع ذنبها في يد الجاذب لها. فأمَّا أذنابُ الأفاعي فإنها تنبُت.

ومن عجيب ما فيها من هذا الباب، أنَّ نابَها يُقطَع بالكاز[1]، فينبت حتى يتمَّ نباته في أقلَّ من ثلاث ليال.

والخُطَّاف في هذا الباب خلافُ الخنزير؛ لأنَّ الخطاف إذا قُلمتْ إحدى عينيه رجَعت. وعينُ البِرْذَوْنِ يركبها البَياضُ، فيذهب في أيَّامٍ يسيرة.

وناب الأفعى يُحتالُ له بأن يُدخلَ في فيها حُمَّاض أترُجّ[2]، ويطبق لحيُها الأعلى عَلَى الأسفل، فلا تقتل بِعَضّتها أياماً صالحة.

والمِغْناطيس الجَاذب للحديد، إذا حُكَّ عليه الثُّوم، لم يجذب الحديد.

١٠٢١ - [خصائص الأفعى]

والأفعى لا تدورُ عينُها في رأسها، وهي تلد وتبيض، وذلك أنها إذا طَرَّقت[3] ببيضها تحطَّمَ في جوفها، فترمي بفراخِها أولاداً، حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيواناً مثلَه.

وفي الأفاعي من العجَب أنها تُذبح حتى يُفرَى منها كلُّ ودَج، فتبقى كذلك

---

(١) الكاز: المقطع. «السامي في الأسامي ١٤٧».

(٢) في القاموس «ترج»: (الأُتْرُجُّ، والأُتْرُجَّةُ والتُّرُنْجَة والتُّرُنْج: نبات معروف، حامضه مسكّن غلمة النساء؛ ويجلو اللون والكلف، وقشره في الثياب يمنع السوس). وفي معجم الألفاظ الزراعية ١٦٣ - ١٦٤. (جنس الليمون فيه أنواع البرتقال والأترج والنارنج والليمون الحلو والحامض، وهي تسمى الموالح في مصر؛ والحوامض في الشام، وما في جوف ثماره يسمى الحُمّاض. جنس شجر مثمر من الفصيلة البرتقالية).

(٣) طرَّقت ببيضها: حان لها أن يخرج بيضها. (القاموس: طرق).

أيَّامًا لا تموت. وأمرتُ الحاويَ فقبض على خَرَزَة[1] عنقها، فقلت له: اقبضها من الخَرَزَة[1] التي تليها قبضاً رفيقاً. فما فَتَحَ بينها بقدر سَمِّ الإبرة حتَّى بَرَدَتْ ميّتة. وزعم أنّه قد ذبحَ غيرَها من الحيَّات فعاشَتْ على شبيه بذلك، ثمَّ إنه فَصَلَ تلك الخَرَزَة[1] عَلَى مثالِ ما صنع بالأفعى، فماتت بأسرعَ من الطَّرْف.

١٠٢٢ - [قوة بدن الممسوح]

وكلُّ شيءٍ ممسوحِ البدن، ليس بِذِي أيدٍ ولا أرْجُل، فإنَّه يكون شديدَ البدن، كالسَّمكة والحيَّة.

١٠٢٣ - [سم الأفعى]

وزعم أحمد بن غالب قال: باعني حَوّاءٌ ثلاثين أفعى بدينارين، وأهدي إليَّ خمساً اصطادها من قُبالة القلب، في تلك الصحارى على شاطئ دجلة. قال: وأرَدْتها للتِّرياق. قال: فقال لي حين جاءني بها: قل لي: مَن يعالجها؟ قال: فقلت له: فلان الصيدلانيّ. فقال: ليس عن هذا سألتك، قل لي: من يذبحها ويسلُخها؟ قال: قلت: هذا الصيدلانيُّ بعينه. قال: أخاف أن يكون مغروراً من نفسه. إنَّه والله إن أخطأ موضع المفصل من قفاهُ، وحركتُه أسرعُ من البرق، فإن كان لا يحسن ولا يدري كيف يتغفله، فينقُرُه نَقْرَةً، لَمْ يُفْلِح بَعدَهَا أبَداً. ولكني سَأتَطوَّعُ لك بأنْ أعمل ذلك بين يديه. قال: فبعثت إليه. وكان رأسه إلى الجَوْنة[2]، فَيُغْفِلُ الواحدةَ فيقبض على قفاها بأسرع من الطَّرْف، ثمَّ يذبحها. فإذا ذبحها سال من أفواهها لُعابٌ أبيض، فيقول: هذا هو السم الذي يَقتُل! قال: فجالت يدُه جَوْلةً، وقطرت من ذلك اللُّعاب قطرةٌ عَلَى طرَف قميصِ الصيدلانيِّ. قال: فَتَفَشَّى ذلك القاطرُ حتَّى صار في قدر الدِّرهم العظيم. ثم إنّ الحوّاء امتَحَن ذلك الموضع فتهافت في يده، وبقيت الأفاعي مُذَبَّحة تجول في الطست ويكدم بعضُها بعضاً، حتى أمسينا.

قال: وبكرت على أبي رجاء إلى باب الجسر، أحَدِّثه بالحديث، فقال لي ودِدْت أنِّي رأيت موضعَ القطْرة من قميص الصَّيدلانيِّ! قال: فوالله مارِمْتُ حَتَّى مرَّ مَعي إلى الصَّيدَلانيِّ، فأرَيْتُه موضعَه.

وأصحابُنَا يزعمون أنَّ لعابَ الأَفاعي لا يَعمَلُ في الدَّم. إلاَّ أنّ أَحْمَدَ بنَ المثنَّى

---

(١) الخرزة: فقرة من فقرات العنق. (القاموس: خرز).

(٢) الجونة: سلة صغيرة مستديرة مغشاة أدماً تكون مع العطارين. اللسان (جون).

زعم أنّ من الأفاعي جنساً لا يُضرُّ الفراريج من بينِ الأشياء، ولا أدري أيُّ الخبرين أبعد: أخبَرُ ابن غالب في تفسيخ الثَّوب، أو خبر ابن المثنى في سلامة الفَرُّوجِ عَلَى الأَفعى؟

١٠٢٤ - [ما تضيء عينه من الحيوان]

وزعم محمد بن الجهم أنّ العيون التي تضيء بالليل كأنها مصابيحُ، عيُونُ الأسْد والنمورِ، والسَّنانير والأفاعي. فبينا نحنُ عندَه إذْ دخل عليه بعضُ من يجلب الأفاعي من سجسْتان، ويَعْمَلُ التِّرياقات، ويبيعها أحياءً ومعمولة[١]، فقال له: حَدِّثهم بالذي حَدَّثتني به من عين الأفعَى. قال: نَعَم، كنتُ في مَنْزِلي نائماً في ظلمة، وقد كنتُ جمعتُ رؤوس أفَاعٍ كنَّ عندي، لأرميَ بها، وأغفلتُ تحت السَّرير رأساً واحداً، ففتحْتُ عَيني تجاهَ السَّريرِ في الظلمةِ، فرأيت ضياءً إلاَّ أنَّه ضئيلٌ ضعيفٌ رقيق، فقلت: عينُ غولٍ أو بعضِ أولاءِ السَّعالى، وذهبَتْ نفسي في ألوانٍ من المعاني، فقمت فقدَحْت ناراً، وأخذتُ المصباح معي، ومضيت نحوَ السرير فلم أَجدْ تَحْتَهُ إلاَّ رأسَ أفعى، فأطفأتُ السِّراج ونمتُ وفتحْتُ عيني، فإذا ذلك الضوء على حاله، فنهضْتُ فصَنعتُ كصنيعي الأوَّل، حتى فعلتُ ذلك مراراً. قال: فقلت آخر مرَّة: ما أرى شيئاً إلاَّ رأسَ أفعى، فلو نحَّيتَهُ! فنحَّيتُه وأطفأتُ السِّراج، ثمّ رجعْتُ إلى منامي، ففتحْت عيني فلم أرَ الضَّوء، فعلمت أنَّه من عين الأفعى، ثمَّ سألتُ عن ذلك، فإذا الأمرُ حَقٌّ، وإذا هو مشهورٌ في أهل هذه الصِّناعة.

١٠٢٥ - [علة قوة بدن الحية]

قال: وربَّمَا قبضَ الرَّجلُ الشديدُ الأسْرِ والقُوَّة القبضةَ على قفا الحيَّة فتلتفُّ عليه فتصرعُهُ. وفي صُعودِها وفي سعيها خلفَ الرَّجلِ الشديد الحُضْر، أو عند هربها حتَّى تفوتَ وتسبق، وليستْ بذاتِ قوائم، وإنما تنسابُ عَلَى بطنها، وفي تدافُعِ أجزائها وتَعاونها، وفي حَرَكَة الكلِّ من ذاتِ نفسها، دليلٌ على إفراطِ قُوَّة بدنها.

ومن ذلك أنها لا تمضَغ، وإنما تبتلع، فربَّما كان في البَضْعة أو في الشيءِ الذي ابتلعَتْه عَظْمٌ، فتأتي جذْمَ شجرة، أو حَجراً شاخِصاً[٢] فتنطوي عليه انطواء شديداً فيتحطَّم ذلك العَظْم حَتَّى يَصِيرَ رُفَاتاً.

---

(١) في حياة الحيوان ١ / ٤٠١ «الحية»: (يحرم أكل الترياق المعمول من لحومها).
(٢) شَخَص: ارتفع. (القاموس: شخص).

ثمَّ يُقطعُ ذنبُها فينبت. ثمَّ تعيشُ في الماء، إن صارت في الماء، بَعد أنْ كانَتْ برّيَّة، وتعيشُ في البرِّ بَعْدَ أن طال مُكثُها في الماء وصارتْ مائية.

قال: وَ إنَّمَا أتتْها هذه القُوَّة، واشتدَّت فقَرُ ظهرها هذه الشِّدَّةَ؛ لكثرة أضلاعها، وذلك أنَّ لها من الأضلاع عددَ أيَّامِ الشَّهر. وهي مع ذلك أطولُ الحيوان عمراً.

١٠٢٦ - [موت الحية]

ويزعمون أنَّ الحيَّة لا تموتُ حَتْفَ أنفها، وإنَّمَا تموتُ بعَرَضٍ يَعْرِضُ لَها. ومع ذلك فإنه ليس في الحيوان شيءٌ هُوَ أصبرُ عَلَى جوعٍ من حَيَّةٍ؛ لأنَّها إن كانَتْ شَابَّةً فَدَخَلَتْ في حائطِ صخرٍ، فتتبَّعُوا موضعَ مَدْخَلَها بوتدٍ أو بحجر، ثمّ هدموا هذا الحائط، وجدُوها هنَاك منطوية وهي حَيّةٌ. فالشّابةُ تُذكر بالصَّبْر عند هذه العلَّة. فإن هَرِمَتْ صغُرت في بدنها، وأقنَعَهَا النَّسِيم، ولم تشتَهِ الطعم. وقد قَالَ الشاعرُ: - وهُوَ جَاهليٌّ(١) -: [من الرجز]

فابْعَثْ له من بعض أعراض اللَّمَمْ لُمَيْمَةً من حَنَشٍ أعمَى أصمْ
قَدْ عاشَ حتى هُوَ لا يَمشي بدمْ فكُلَّمَا أَقْصَدَ منْهُ الجُوعُ شَمْ

وهذا القولُ لهذا المعنى. وفي هذا الوجه يقُول الشاعرُ(٢): [من الرجز]

داهية قَدْ صغُرَتْ من الكِبَرْ صِلّ صفاً ما ينطَوي من القِصَرْ
طويلة الإطاقِ من غير خَفَر كمطرقٍ قد ذهبت به الفِكَرْ(٣)
جَاء بهَا الطوفان أيَّامَ زَخَرْ

١٠٢٧ - [صَبْرُ الحية على فَقْد الطُّعْم]

ومن أعاجيبهَا أنها وإن كانَتْ مَوْصُوفَةً بالشَّرَه والنَّهَم، وسرعَةَ الابتلاع، فلها في الصَّبر في أيَّامِ الشِّتاء ما ليس للزّهِيدِ. ثمَّ هي بَعْدُ ممَّا يصير بها الحالُ إلى أن تستغنيَ عن الطُّعم.

---

(١) الرجز بلا نسبة في البرصان ٢٣٣، والسمط ٤٩٠، واللسان (حنش)، والتهذيب ٤ /١٨٦.

(٢) الرجز للنابغة في ديوان المعاني ٢ /١٤٥، والحماسة الشجرية ٢٧٣ - ٢٧٤، وبلا نسبة في الخزانة ٢ /٤٥٧، والمخصص ٨ /١٠٩، ١٦، ١٠٦، ١٨٥، والمنصف ٣ /١٦، وأساس البلاغة (حرو)، وربيع الأبرار ٥ /٤٧٥.

(٣) الإطراق: إرخاء العينين. (القاموس: طرق).

١٠٢٨ - [النمس والثعابين]

ثمّ قَدْ يزعمُون أنَّ بمصرَ دويْبَّةً يقال لها النمس يتَّخذهَا الناطور إذا اشتدّ خوفه مِنَ الثّعَابين؛ لأنَّ هذه الدَّابةَ تنقبضُ وتنضمُّ، تَتضاءَلُ وتستدقّ، حتّى كأنها قُدَيْدَة[١] أو قطعةُ حبْل، فإذا عضَّها الثُّعبان وانطوى عليها زفرتْ، وأخذَتْ بنَفَسها وزَخَرت جوفَها فانتفخ. فتفعل ذلك وقد انطوى عليها، فتقطعه قِطَعاً من شِدّةِ الزَّخْرة. وهذا من أعجب الأحاديث.

١٠٢٩ - [القواتل من الحيات]

والثَّعابينُ إحدَى القواتِلِ. ويزعُمون أنها ثلاثةُ أجناسٍ لا ينجَعُ فيها رُقيةٌ ولا حيلة، كالثعبان، والأفعى، والهنديَّة. ويقال: إنَّ ما سواها فإنما يقتُلُ مع ما يُمدُّها من الفزَع؛ فقد يفعل الفزَع وحْدَه؛ فكيف إذا قارنَ سُمَّهَا؟! وسُمُّهَا إنْ لم يقتُلْ أمرضَ.

١٠٣٠ - [ما يفعل الفزع في المسموم]

ويزعمون أنَّ رجلاً قال[٢] تحتَ شجرة، فتدلَّت عليه حيَّةٌ منها فعضَّت رأسَه، فانتبه محمرَّ الوَجْه، فحكَّ رأسَه، وتَلَفَّتَ، فلم يَرَ شيئاً، فوضع رأسَه ينامُ، وأقام مدَّةً طويلةً لا يرى بأساً، فقال له بَعْضُ مَنْ كان رأى تدلِّيَهَا عليه ثمّ تقلُّصَها عنه وهروبَها منه: هل علمتَ مِنْ أيِّ شَيء كان انتباهُك تحتَ الشَّجرة؟ قال: لا واللّه، ما علمت. قال: بلى، فإنَّ الحيَّةَ الفُلانيَّة نزلت عليك حتّى عضّتْ رأسَك، فلما جلست فزعاً تقلَّصتْ عنك وتراجعَتْ. فَفَزع فَزْعَةً وصَرَخَ صرخَةً كانَتْ فيها نَفْسُهُ. وكأنهُمْ توَهُموا أنَّه لما فزِع واضطرَبَ، وقد كان ذلك السمُّ مغموراً ممنوعاً فزال مانعُه، وأوغله ذلك الفَزَعُ، حينَ تفتَّحت منافسُه، إلى موضع الصَّميم والدِّماغِ وعمْقِ البدَن، فانحلَّ موضعُ العَقْد الذي انعقدَتْ عليه أجزاؤه وأخلاطُه.

وأنشد الأصمعيُّ: [من الرجز]

* نَكِيثة تنهشه بمنبذ *

---

(١) قديدة: تصغير القدة، وهي جمع القد. والقد: سيور تقد من جلد فطير غير مدبوغ، فتشد بها الأقتاب والمحامل. (اللسان: قدد).

(٢) قال يقيل قيلولة: نام في نصف النهار.

وأنشدَ لأبي دُؤادٍ الإياديِّ[1]: [من الخفيف]

فأتاني تَقْحِيمُ كَعْبٍ لِيَ المنـ ـطقَ إن النَّكِيثة الإقْحَامُ[2]

قال: فالفزَعُ إمّا أنْ يكونَ يُوصِل السمَّ إلى المَقاتِل، وإمَّا أن يكون معيناً له، كتعاون الرَّجُلين على نزع وتد. فهم لا يجزمون على أنّ الحيَّة من القواتل البتّة، إلاَّ أنْ تقتلَ إذا عضَّت النائِمَ والمغشيَّ عليه، والطفلَ الغريرَ، والمجنونَ الذي لا يَعْقِلُ، وحتّى تجرَّبَ عليهِ الأدوية.

١٠٣١ - [الترياق وانقلاب الأفعى]

وكنت يوماً عند أبي عبد اللّه أحمد بن أبي دُؤاد، وكان عنده سَلَمويه وابن ماسويه، وبختيشوع بن جبريل، فقال: هل ينفع التِّرياق من نهشة أفعى؟ فقال بعضهم: إذا عَضَّت الأفعَى فأُدرِكَتْ قبل أن تَنْقَلب نفع الترياق، وإن لَمْ تُدْرَك لَمْ يَنْفَعْ؛ لأنهم إنْ قلَّلوا مِنَ التِّرياقِ قتَلهُ السُّمُّ، وإن كثّروا مِنْهُ قَتله الفاضلُ عن مقدار الحاجة.

قلت: فإنَّ ابنَ أبي العجوزِ خبَّرني بأنها ليست تنقلب لِمجِّ السمِّ وإفراغه، ولكنَّ الأفعى في نابها عَصَل[3]، وإذا عضّت استفرغت إدخالَ النَّاب كلِّه، وهو أحْجَنُ أعْصَل، فيه مشابه من الشِّصّ، فإذا انقلبَتْ كان أسهلَ لنزْعه وسلِّه. فأمَّا لصبِّ السّمّ وإفراغه فلا. قَالَ: واللّه لعلَّه ما قلت! قلتُ: مَا أسْرَعَ ما شككْتَ!!.

ثمّ قلت له: فكأنما وضعوا الترياق واجتلَبُوا الأَفاعيَ وضنُّوا وعزمُوا على أنه لا ينفع إلاّ بدَرْكِ الأَفْعى قبلَ أنْ تَنقلب! وكيف صار التِّرياقُ بعد الانقلاب لا يكونُ إلاَّ في إحْدَى منزلتين: إمّا أن يقتل بكثرته، وإمَّا ألاّ ينْفَعَ بقلَّته! فكأَنَّ الترياقَ ليس نفعُه إلاَّ في المنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلةً ولا ناقصة! ولكني أقولُ لك: كيف يكون نفعه إذا كانَ الترياقُ جَيِّداً قويَّاً، وعُوجل فسُقي المقْدَارَ الأَوسطَ، قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ الصَّميمَ، ويغوصَ في العُمْق. وعلى هذا وُضع، وهم كانوا أحْزَم وأحْذَقَ مِنْ أن يتكلَّفوا شيئاً، ومقدارُه من النَّفعِ لا يُوصَل إلى معرفته.

---

(١) ديوان أبي دؤاد ٣٣٨، والأصمعيات ١٨٦.

(٢) في ديوانه: (تقحيمه: توركه قولاً نابياً، وهو إدخال الكلام بعضه في إثر بعض. كعب: قيل إنه ابن مامة بلغه عنه أمر يكرهه. النكيثة: الخطة الصعبة).

(٣) العصل: الاعوجاج. (القاموس: عصل).

ويقول بعضُ الحُذَّاق: إنَّ سقي التِّرياقِ بعدَ النهش بساعةٍ أو ساعَتين مَوْتُ المنهوش.

ثم قلت له: وما عَلَّمك؟ وبأيِّ سببٍ أيقنتَ أنها تمجُّ من جوفِ نابها شيئاً؟! ولعله ليس هنالك إلاَّ مخالطةُ جوهرِ ذلك النَّابِ لدم الإنسان! أَوَلَسْنَا قد نَجدُ من الإنسانِ مَنْ يَعَضُّ صاحبَهُ فيقتُلُهُ، ويكونُ معروفاً بذلك؟! وقد تُقرُّون أنَّ الهنديَّة والثُّعبانَ يقتُلان، إمَّا بمخالطة الرِّيق الدم، وإمَّا بمخالطة السِّنِّ الدَّم، من غير أن تدَّعُوا أنَّ أسنانَهما مجوَّفة. وقد أجمع جميعُ أصحاب التجارب أنَّ الحيَّة تُضرَبُ بقَصَبَةٍ فتكونُ أشدَّ عليها من العصا. وقد يضرَبُ الرجلُ على جسَده بقُضْبان اللّوْز وَ قُضْبَان الرُّمان، وقُضبانُ اللَّوْزِ أعلَكُ[1] وألْدَن، ولكنَّها أَسلَمُ، وقُضبان الرُّمَّان أخفُّ وأسخَفُ ولكنها أعطب.

وقد يطأ الإنسانُ على عَظْمِ حَيَّةٍ أو إبْرَةِ عَقْرَبٍ، وهما مَيْتَتان، فيلقى الجهد. وقد يُخْرَجُ السِّكِّينُ من الكيرِ وهو مُحمًى، فيغْمَسُ في اللبنِ فمتى خالَطَ الدَّمَ قامَ مقامَ السمّ، من غير أن يكون مَجٌّ في الدّم رطوبةً غليظَةً أو رقيقَةً.

وبعض الحجارة يُكْوَى بها - وهو رخْوٌ - الأوْرَامُ حتى يفرقها ويُحْمِصهَا[2] من غير أن يكونَ نفذَ إلَيْهَا شيءٌ مِنْهُ، وليس إلاَّ الملاقاة.

قلتُ: ولعلَّ قُوًى قد انفصلَتْ من أنياب الأفاعي إلى دماء النَّاس. وقد رَوَوْا أنَّه قيل لجالينوس: إنّ ها هُنا رجلاً يَرقي العقاربَ فتموتُ، أو تنحلّ فلا تعمل، فرآه يرقيها ويتفُل عليها، فدعا به بحضرة جماعةٍ وهو على الرِّيق، ودعا بغَدائه فتغَدّى مَعَه، ثمَّ دُعيَ له بالعقارب فتَفَل عليها، فلم يَجدْ لعابه يصنَعُ شيئاً إلاَّ أنْ يكون ريقاً. وهُوَ حَديثٌ يدورُ بينَ أهل الطبِّ، وأنت طبيب. فلم أَرَهُ في يومه ذلك قال شيئاً إلاَّ مِن طريقِ الحَزْر والحَدْس، والبلاغات.

١٠٣٢ - [سُموم الحيات والعقارب]

وسمومُ الحيَّات ذوات الأنياب، والعقارب ذوات الإبر، إنَما تَعْمَلُ في الدّمِ بالإجمادِ والإذابة. وكذَا سمومُ ذواتِ الشعر والقُرُونِ والجُمِّ، إنما تَعْمَلُ في العصب، ومنها ما يعمل في الدم.

---

(١) أعلك: أشد وأمتن، وطعام عالك: متين الممضغة. (القاموس: علك).

(٢) انحمص: انقبض وتضاءل. (القاموس: حمص).

١٠٣٣ - [شرب المسموم للَّبن]

وحدَّثني بعضُ أصحابنا قال: كنتُ إمَّا برماي وإما بباري وهما بلادُ حيّاتٍ وأفاعٍ، ونحن في عُرْس، إذ أدخلوا الخدْرَ العروسَ فأبطؤوا عليه شيئاً، فأغفى وتَلوّتْ على ذراعه أفعى، فذهبَ ينفضها وحَجَمَتْ على ذراعه - وقد يقال ذلك إذا كانت العضَّة في صورة شَرْطِ الحجَّام - فصرَخَ وجاؤوا يتعادَوْن[1] فوجدُوها فقتلوها، وسقَوه في تلك اللَّيلة لبَن أربعينَ عنزاً، كُلَّمَا استقرّ في جوفه قَعْبٌ من ذلك اللَّبَن قاءَ فَيَخْرُجُ منْهُ كأمثال طَلْعِ الفُحَّال[2] الأبيض، فيه طرائق من دَسَمٍ تعلُوه خُضرة، حتى استَوْفَى ذلك اللَّبَن كُله. قال: فعندها قال شيخٌ من أهل القرية: إن كنتم أخرَجْتم ذلك السّمَّ فقد أخرجتم نَفْسَهُ معَه! قال: فغبَرَ أيَّاماً بأسوإِ حالٍ ثمَّ مات. قال: وكنتُ أعجَبُ من سُرعةِ استحالة اللَّبَنِ وجُموده.

١٠٣٤ - [اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم]

قلتُ: والحيَّاتُ البرّيَّة إذا هرِمت تنسَّمت النَّسيمَ فاكتفَتْ بذلك، وكذلك الضِّبابُ إذا هرِمت.

قال: ولا يكون ذلك للمائيّة من حيَّاتِ الغياضِ وشُطوطِ الأنهار، ومناقِعِ المياه.

١٠٣٥ - [الحيات المائية]

قال: والحيَّات المائيَّة، إمَّا أن تكون بريّةً أو جبليَّةً، فاكتَسحتها السُّيولُ واحتملَتْها في كثير منْ أصناف الحشَرات والدَّوابِّ والسِّباع، فتوالدت تلك الحيَّاتُ وتلاقَحَتْ هناك. وإمَّا أنْ تكون كانت أمهاتُها وآباؤُها في حيَّات الماء. وكيف دارت الأمورُ فَإنَّ الحيَّاتِ في أصل الطّبع مائيّة. وهي تعيشُ في النَّدَى، وفي الماء، وفي البرِّ وفي البحر، وفي الصَّخر والرَّمل. ومن طباعها أن ترقّ وتلطف على شكلين: أحدهما لطول العمر، والآخر للبُعد من الرِّيف. وعلى حسب ذلك تعظُم في المياه والغياض.

قال: وكلُّ شيء في الماء ممّا يعايش السمك، مما أشبه الحيَّات كالمارماهي والأنكليس فإنها كلها على ضربين: فأحدهما من أولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من طباع البلد والماء. والآخر من نسل سمك وحيات تلاقَحَت؛ إذ كان طبَاعُ السمك قريباً من طباع تلك الحيّات. والحيَّاتُ في الأصل مائيَّة، وكلّها كانت حيّات.

---

(١) يتعادون: يتبارون في العدو. (القاموس: عدو)

(٢) الطلع: نَوْر النخل. (القاموس: طلع). الفحال: ذكر النخل. (القاموس: فحل).

١٠٣٦ - [قرابة بعض النبات لبعض]

وقد زعم أهلُ البصرة أنّ مُشَان[١] الكوفة قريبٌ من بُرْنيّ[٢] البصْرَة، قلبته البلدة.

ويزعمُ أهلُ الحجاز أنَّ نخلَ النارجيل[٣] هو نخل المُقْل[٤]، ولكنّه انقلب لطباعِ البلدة. وأشباهُ ذلك كثير.

ويزعمون أنَّ الفيلة مائية الطِّباع بالجاموسيَّة والخنزيريّة التي فيها.

١٠٣٧ - [الذئب والنسيم]

قال: والذِّئبُ أيضاً، وإن كان عندهم مِمَّا لا يجتزي بالنَّسيم، فإنَّه من الحيوان الذي يفتح فاه للنَّسيم؛ ليبرد جوفه من اللهيب الذي يعتري السِّباع؛ ولأنَّ ذلك يمدّ قوَّته، ويقطع عنه ببرودته ولطافته الرِّيق. فإن كان ذا سُعْر إذا عدا احتشى ريحاً.

١٠٣٨ - [صبر الذئب والأسد على الطعام]

وربّما جاعَ الأسد ففعل فعْلَ الذِّئب، فالأسد والذِّئب يختلفان في الجوع والصبر؛ لأنَّ الأسدَ شديدُ النَّهَم، رغيبٌ حريص شَرِهٌ؛ وهو مع ذلك يحتملُ أنْ يبقى أيّامًا لا يأكلُ شيئاً. والذِّئبُ وإن كان أقفر منزلاً، وأقلَّ خصْباً، وأكثَرَ كَدّاً وإخفاقاً، فلا بدَّ له من شيء يُلقيه في جوفه، فإذا لم يجدْ شيئاً استعارَ النسيم، [وربما استفّ التراب][٥].

١٠٣٩ - [حيلة بعض الجائعين]

والنَّاس إذا جاعُوا واشتدَّ جوعُهم شدُّوا على بطونهم العمائِم. فإن استقلوا، وإلاَّ شَدُّوا الحَجَر.

١٤٠ - [شعر في الذئب]

وأنشَد: [من الطويل]

كَسِيدِ الغَضَا العَادِي أضلَّ جِراءَهُ ... على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلَ الرِّيحِ يَلْحَبُ[٦]

---

(١) المشان: نوع من الرطب إلى السواد دقيق، هو أعجمي. (اللسان: مشن).

(٢) البرني: ضرب من التمر أصفر مدور. (اللسان: برن).

(٣) النارجيل: جوز الهند. (اللسان: نرجل).

(٤) المُقل: حمل الدوم، واحدته مقلة، والدوم: شجرة تشبه النخلة في حالاتها. (اللسان: مقل).

(٥) الزيادة من ثمار القلوب ٣١٠ (٥٧٨)، حيث وردت الفقرة كلها.

(٦) السيد: الذئب. (القاموس: سيد). الجراء: جمع جرو. الشرف: ما علا من الأرض. (القاموس: شرف). يلحب: يسرع. (القاموس: لحب).

كأنّه يجمع استِدْخالَ الرِّيحِ والنَّسيم، فلعلَّه أن يجِدَ ريحَ جِرائه.

وقالَ الرَّاجز[1]: [من الرجز]

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إذا لم يَسْمَعِ — بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصَّفَا المُوقَّعِ[2]

١٠٤١ - [شمّ الظليم]

والظَّليم يكون على بيضه فيشمُّ ريح القانص من أكثَرَ من غَلْوَةٍ، ويبعُد عَنْ رئالهِ فيشمُّ ريحَها من مكانٍ بعيد.

وأنشدني يحيى بن نُجيم بن زَمَعة قال[3]: [من الرجز]

* أشمُّ من هَيَقٍ وأهْدَى من جَمَلْ *[4]

وأنشدني عَمْرُو بن كِركِرة: [من الرجز]

* مَا زَالَ يشتمُّ اشتمامَ الهَيْقِ *

قال: وإنّمَا جعله ذئبَ غضاً لأنهم يقولون: ذئبُ الخَمر أخبث.

ويقولون: شَيْطان الحَماطة: يريدون الحيّة[5].

١٠٤٢ - [الحيّات الخفيفة والثقيلة]

وكلُّ حيّةٍ خفيفةِ الجسم فهي شَيطان. والثِّقالُ لا تنْشط من أرضٍ إلى أرض، وتثقُلُ عَمَّا تبلُغُه المستطيلاتُ الخِفاف. وقال طَرَفة[6]: [من الطويل]

تلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ — تَعَمُّجُ شَيْطانٍ بذي خِرْوعٍ قَفْرِ

---

(١) الرجز لأبي الرديني العكلي في البيان ١/٨٢، والخزانة ٣/١٠٥ (بولاق)، وبلا نسبة في البرصان ١٩٨، واللسان والتاج (مخر، قرع)، وديوان الأدب ١/٣١١.

(٢) في البرصان: (وصف الراجز استرواح الذئب وحرصه على استنشاق الريح). المقراع: الفأس. (اللسان: قرع).

(٣) الرجز بلا نسبة في البرصان ٣٠٣، وثمار القلوب (٦٥٢)، واللسان (نعم)، والتهذيب ٣/١٤.

(٤) الهيق: ذكر النعام. (اللسان: هيق).

(٥) ثمار القلوب (٦٢٣).

(٦) لم يرد البيت في ديوان طرفة، وهو بلا نسبة في اللسان (حبب، عمج، خرع، شطن، ثنى)، والتاج (حبب، خرع، ثنى)، والمقاييس ٢/٢٨، ٣/١٤٨، ٤/١٣٧، والمجمل ٢/٣٠، والمخصص ٧/١١٠، ٨/١٠٩، وديوان الأدب ٢/٦٠، ٤٤٠.

الكِرْماني عن أنَس - ولا أدري مَنْ أنسٌ هذا - في صفة ناقة: [من الطويل]

شَناحِيَةٌ فيها شَناحٌ كأنّها حَبَابٌ بِكفٍّ الشَّأْوِ من أسطعٍ حَشْرِ[1]

والحَباب: الحيّة الذّكر.

١٠٤٣ - [المضاف إلى النبات من الحيوان]

وكما يقولون[2]: ذئب الخَمر، يقولون: أرنب الخلَّة[3]، وتيس الرَّبْل، وضبٌّ السَّحا[3]. والسَّحَا بقلةٌ تحسُنُ حالُه مَنْ أكلها.

وكذلك يقولون: «ما هو إلاّ قُنْفَذُ بُرْقَةَ»[4] لأنه يكون أخبثَ له.

١٠٤٤ - [خصائص البلدان]

وذلك كلّه على قَدْر طبائع البُلدان والأغْذيَة العاملة في طبائع الحيوان. ألا ترى أنَّهم يزعُمون أنَّ مَن دخَلَ أرضَ تُبَّتَ[5] لم يزَلْ ضاحكاً مسروراً، من غير عَجَبٍ حتّى يخرجَ منها. ومن أقام بالموصل حولاً ثم تفقَّد قوَّته وجد فيها فضلاً. ومن أقام بالأهواز حَوْلاً فتفقَّد عقلَه ذُو فِراسةٍ وجد النُّقصانَ فيه بيِّناً. كما يقال في حُمَّى خَيبر، وطِحال البحْرين، ودماميل الجزيرة، وجَرَب الزِّنج. وقال الشمَّاخ[6]: [من الوافر]

كأنَّ نَطاة خَيْبَرَ زَوَّدَتْه بَكُورَ الورْدِ رَيِّثَةَ القُلُوعِ[7]

وقال أوسُ بن حجَر[8]: [من الطويل]

كأنَّ به إذْ جئتُهُ خَيْبَرِيَّةً يَعُودُ عَلَيْهِ وِرْدُهَا وقلالُهَا[9]

---

(١) الشناحية: الناقة الطويلة الجسم. (القاموس: شنح). الشأو: الزمام. (القاموس: شأو). الأسطع: العنيق الطويل. (القاموس: سطع).

(٢) ثمار القلوب ٣٣٠ (٥٧٧، ٦١٤).

(٣) الخلة والسحا: شجرة شاكة. (القاموس: خلل، سحى).

(٤) برقة: الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان. وللعرب مئة برقة، من بينها (برقة أنقد) وهو القنفذ. انظر معجم البلدان ١/ ٣٩٠ وما بعد.

(٥) تبت: بلد بأرض الترك، أو هي مملكة متاخمة للصين والهند. معجم البلدان ٢/ ١٠، وانظر الفقرة في ثمار القلوب ٣١٠ (٥٧٧، ٧٩٤)، وعيون الأخبار ١/ ٢١٩.

(٦) ديوان الشماخ ٢٢٣، واللسان (صلل، نطا)، والتاج (نطا)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (قلع)، والتهذيب ١/ ٢٥، ١٤/ ٣١، ومعجم البلدان ٥/ ٢٩١ (نطاة).

(٧) في ديوانه: (نطاة خيبر: قيل: هي خيبر نفسها علم لها، وقيل واد بخيبر، وقيل: حصن بها. زودته: أعطته زاداً. بكور الورد: يعني حمى تباكر بوردها جسمه. ريثة القلوع: بطيئة الذهاب والانكشاف).

(٨) ديوان أوس ١٠٠، وثمار القلوب ٤٣٦ (٧٩١)، والسمط ٩١٨.

(٩) في ديوانه: (الورد: ورود الحمى).

وقال آخر[1]: [من الرجز]

* كأنّ حمَّى خَيبر تَمَلُّهُ *

وكذلك القول في وادي جُحفة، وفي مَهْيَعَةَ، وفي أصول النخل حيث كان.

وقال عبد اللّه بن همام السَّلوليُّ في دماميل الجزيرة[2]: [من الطويل]

أُتيحَ له مِنْ شُرْطَةِ الحَيِّ جَانبٌ ... غَليظُ الْقُصَيْرَى لحمُهُ مُتَكاوِسُ

تَراهُ إذا يَمْضِي يحكُّ كَأَنَّمَا ... به من دَماميل الجَزيرةِ ناخسُ

فحدَّثني أبو زُفَرَ الضِّراري قال[3]: مات ضِرار بن عمرو وهو ابن تسعين سنةً بالدَّماميل. قلت: واللّه إنّ هذا لعجب! قال: كلاَّ، إنَّمَا احتملها من الجزيرة.

وكذلك القولُ في طواعِين الشّام. قال أحدُ بني المغيرة، فيمن مات منهم بِطَوَاعِينِ الشامِ، ومن مات منهم بطَعْن الرِّماح أيَّامَ تلك المغازي[4]: [من السريع]

مَنْ يَنْزِلِ الشَّامَ وَ يَعْرَسْ بهِ ... فالشَّامُ إنْ لَمْ يُفْنِه كَاذِبُ

أفْنى بني رَيْطَةَ فُرسانَهمْ ... عِشرينَ لم يُقْصَصْ لهم شارِبُ

ومن بني أعمامِهِمْ مِثْلَهم ... لِمثْلِ هذا عجبَ العاجِبُ

طَعْنٌ وطاعُونٌ مناياهُمُ ... ذلك ما خطَّ لنا الكاتبُ

١٠٤٥ - [قدوم عبد اللّه بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وهشام]

قال[5]: ولمّا قَدمَ عبدُ اللّه بن الحسن بن الحسن رضي اللّه عنهم، على عمَرَ بنِ عبد العزيز - رضي اللّه عنه - في حَوَائجَ له، فلمَّا رأى مكانَه بالشام، وعَرَفَ سِنَّه وسمْتَه وعقلَه، ولسانَه، وصلاته وصيامه، فلم يكنْ شيءٌ أحبَّ إليه من ألاَّ يراه أحَدٌ من أهل الشام، فقال له: إنِّي أخافُ عَلَيكَ طَواعينَ الشَّام؛ فإنَّك لن تُغْنِمَ أهلَك أكثَرَ

---

(١) الرجز لليلى الأخيلية في ديوانها ٩٩، ولعمرة بنت الحمارس في أشعار النساء ١٥٥، وبلا نسبة في ثمار القلوب (٧٩١).

(٢) البيتان في البرصان ١٤٧، ومعجم البلدان ٢/١٣٤ (جزيزة أقور). والثاني بلا نسبة في الجمهرة ٥٦٥، ١٠٥١.

(٣) ثمار القلوب (٧٩٤).

(٤) الأبيات للمهاجر بن خالد بن الوليد في الإصابة ٦/١٦٠ رقم ٨٣٢٩، وتاريخ الطبري ٤/٦٥، ولبعض بني المغيرة في ثمار القلوب ٤٣٥ (٧٨٩)، والتعازي للمبرد ٢١٥.

(٥) ثمار القلوب ٤٣٥ (٧٨٩).

منك، فالحَقْ بهم؛ فإنَّ حوائجك ستسبقُك إليهم. ثمّ قدم على هشامٍ، فكره عبدُ اللّه أن يدخل منزل له حتّى يأتيَه في ثيابِ سفَرِه؛ مخافة سوء ظنِّه. فلما أعلمه الحاجبُ مكانَه، ودخل عليه وعايَنه، كره أن يقيم بها طَرْفَة عين. قال: اذكر حوائجك. قال: أحطُّ رَحْلي وأضَعُ ثيابَ سفري، وأتذكَّرُ حوائجي. قال: إنَّك لنْ تجدَني في حالٍ خيراً لك منِّي الساعة! يريد أنّ القُلوبَ أرقُّ ما تكونُ إذا تلاقت العيونُ عَن بُعْدِ عَهد. وليس ذلك أراد.

١٠٤٦ - [طحال البحرين]

والعامّة تنشد[١]: [من الطويل]

مَنْ يَسْكُنِ البَحْرَينِ يعظُمْ طحالُهُ ... وَيُغْبَطْ بما في بَطْنِهِ وَهُو جَائعُ

ونظر دُكينٌ الرّاجزُ، إلى أبي العباس محمَّد بنِ ذُويبٍ الفُقَيميِّ الرَّاجز، وهو غُلَيِّمٌ مصفرٌّ مَطحُول، وهو يمتَحُ على بَكَرةٍ ويرتجز. فقال: من هذا العُمانيّ؟ فلزمته هذه النّسبة[٢].

١٠٤٧ - [جرب الزنج]

وحدَّثني يوسفُ الزِّنجي أنّه لا بدَّ لكلِّ مَن قدم من شقِّ العراق إلى بلاد الزِّنج ألاّ يزالَ جَرِباً، ما أقام بها. وإنْ أكثَرَ من شُرْب نبيذها، أو شَرابِ النَّارَجيل، طمَسَ الخُمَارُ على عقله، حتَّى لا يكونَ بينه وبين المعتوه إلاَّ الشَّيء اليسير[٣].

١٠٤٨ - [طبيعة المصيصة]

وخبَّرني كم شئْتَ من الغُزاة، أن مَن أطالَ الصَّومَ بالمصيصة في أيَّام الصَّيف، هاج به المِرار. وأنَّ كثيراً منهم قد جُنُّوا عن ذلك الاحتراق[٤].

١٠٤٩ - [حمى الأهواز]

فأمَّا قصَبَة الأَهواز، فإنَّها قلبَتْ كلَّ مَن نزَلها من بني هاشم إلى كثيرٍ من

---

(١) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (بطن)، والمستقصى ١/٣١٩، وزهر الأكم ٣/٧، ومجمع الأمثال ١/٢٧٨، وفصل المقال ٤٣٥، ورسائل الجاحظ ١/٣٤١، ونوادر المخطوطات ١/٢٦١، والشعر والشعراء ٤٧٥ (ليدن)، ٢/٧٥٥ (شاكر)، وثمار القلوب (٧٩٤).

(٢) الخبر في الشعر والشعراء ٤٧٥ (ليدن)، ٢/٧٥٥ (شاكر).

(٣) الخبر في ثمار القلوب (٧٩٥).

(٤) الخبر في عيون الأخبار ١/٢١٩، وثمار القلوب (٧٩٥)، ولطائف المعارف ٢٣٠.

طباعهم وشمائلهم، ولا بدَّ للهاشميِّ، قبيحَ الوجه كانَ أو حسناً، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً، منْ أن يكون لوجْهه وشمائله طبائعُ يَبِينُ بها من جميعِ قريشٍ وجميعِ العرب. فلقد كادَتْ البلْدةُ أن تنقل ذلك فتبدِّله، ولقد تَخَيَّفَتْهُ وأدخلَت الضَّيمَ عليه، وبيَّنَتْ أثرَها فيه فما ظنُّك بصنيعها في سائر الأجناس[1]؟!

ولفسادِ عُقولهم، ولؤمِ طبْع بلادهم، لا تراهم مع تلك الأموالِ الكثيرة، والضِّياع الفاشية، يحبُّون من البنينَ والبنات ما يحبُّه أوساطُ أهلِ الأمصار على الثَّروة واليَسار، وإِن طال ذلك. والمال مَنْبَهةٌ كما تعلمون.

وقد يكتسبُ الرَّجُل، من غيرهم، المُوَيل[2] اليسير، فلا يرضى لولده حتَّى يفرضَ له المؤدِّبين، ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك. وليس في الأرض صناعةٌ مذكورةٌ، ولا أدبٌ شريفٌ؛ ولا مذهبٌ محمودٌ، لهم في شيءٍ منه نصيبٌ وإِن خَسّ[3]. ولم أرَ بِهَا وَجْنةً حمراءَ لصبيٍّ ولا صبيَّةٍ، ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك. وهي قتَّالَةٌ للغُرَباء.

وعلى أَنَّ حُمَّاها خاصَّةً ليست للغريب بأسرَعَ منها إلى القريب. ووباؤها وحُمَّاها، في وقت انكشاف الوَباء ونُزوعِ الحمَّى عن جميع البُلدان.

وكلُّ محمومٍ في الأرض فإِنَّ حُمَّاه لا تنْزِع عنه، ولا تفارقُه وفي بدنه منها بقيَّة، فإِذا نزعَتْ عنه فقد أخَذَ منها عند نفسه البراءَةَ، إلى أنْ يعود إلى الخلْط، وأَنْ يجمعَ في جوفه الفسادَ[4].

وليست كذلك الأهواز لأنها تُعاوِد من نزَعتْ عنه من غير حدَث، كما تعاود أصحابَ الحدَث؛ لأنَّهم ليسوا يُؤْتَون من قبل النَّهَم[5]، ومن قِبَل الخلْط والإِكْثار، وإِنَّما يُؤتَوْن من عينِ البلدة.

وكذلك جمعَتْ سوقُ الأهوازِ الأفاعيَ في جبلِها الطَّاعِن في منازلها، المطلِّ عليها؛ والجرَّاراتِ[6] في بيوتِها ومقابرها ومنابرها. ولَو كان في العالَم شيءٌ هو شرٌّ من

---

(١) الخبر في عيون الأخبار ١ / ٢١٩ - ٢٢٠، وثمار القلوب (٧٩٢)، ولطائف المعارف ١٧٥.

(٢) المُوَيْل: تصغير المال.

(٣) بعدها في معجم البلدان ١ / ٢٨٦: الأهواز: «أو دقّ أو جلّ».

(٤) في معجم البلدان: «فإذا نزعت فقد وجد في نفسه منها البراءة، إلا أن تعود لما يجتمع في بطنه من الأخلاط الرديئة».

(٥) في معجم البلدان: «من قبل التُّخَم والإكثار من الأكل وإنما يؤتون من عين البلدة».

(٦) الجرارات: العقارب.

الأفعَى والجرَّارة، لما قصَّرَت قصَبة الأهواز عن توليده وتلقيحه. وبَليتُها أنَّها من ورائها سِبَاخٌ[1] ومناقعُ مياهٍ غليظةٍ وفيها أنهارٌ تشُقها سَايِلُ كُنُفِهِم، ومياهُ أمطارهم ومُتَوضَّآتِهِمْ.

فَإذا طلَعت الشَّمسُ فَطالَ مُقامُها، وطالت مقابلتُها لذلك الجبل، قبل بالصَّخْرية التي فِيه تلكَ الجرّارات. فإذا امتلأَتْ يبَساً وحرارةً، وعادتْ جمرةً واحدةً، قذفت ما قَبلت من ذلك عليهم.

وقد تُحدِث تلك السِّباخ وتلك الأنهار بُخَاراً فاسداً، فإذا التقى عليهم ما تُحدِث السِّباخُ وما قذفه ذلك الجبلُ، فسَدَ الهواء. وبفساد الهواء يفسُد كلُّ شيءٍ يشتمِلُ عليه ذلك الهواء.

وحدَّثني إبراهيمُ بن عباس بنُ محمد بن منصورٍ، عن مَشْيخة من أهل الأهواز، عن القوابل، أنهنَّ ربّما قَبِلْنَ[2] الطِّفلَ المولودَ، فيجدْنَهُ في تلك السَّاعةِ محموماً. يعرِفْنَ ذلك ويتحدَّثْن به.

١٠٥٠ - [عيون فراخ الحيات والخطاطيف]

قال: ويعرِض لفراخِ الحيَّات مثلُ الذي يعرِض لفراخِ الخَطاطِيف؛ فإنَّ نازعاً لو نزَع عيونَ فراخِ الخطاطيفِ، وفراخِ الحيّاتِ، لعادتْ بصيرةً.

١٠٥١ - [مفارقة السلحفاة والرق والضفدع للماء]

وزعم أنَّ السُّلحفاةَ والرّقّ، والضّفدع، مّما لا بدَّ له من التنفُّس، ولا بدَّ لها من مفارقةِ الماء، وأنَّها تبيض وتكتسب الطعم وهي خارِجة من الماء، وذلك لِلنَّسب الذي بينها وبين الضّب، وإن كان هذا بَرِّيًّا وهذا بحريًّا.

١٠٥٢ - [شبه بعض الحيوان البري بنظيره من البحري]

ويزعمُون أنّ ما كان في البرِّ من الضبِّ والورَل والحرباء، والحلكاء، وشحْمة الأرض، والوزَغِ والعظاء[3] مثل الذي في البحر من السُّلَحفاةِ والرّقّ، والتِّمساح،

---

(١) سباخ: جمع سبخة، وهي الأرض تعلوها ملوحة. (القاموس: سبخ).

(٢) قبلت القابلة الولد: تلقته عند خروجه. (القاموس: قبل).

(٣) الورل والضب والحرباء وشحمة الأرض والوزغ، كلها متناسبة في الخلق. حياة الحيوان ٢/٤١٨ (الورل).

والضِّفدع، وأنَّ تلك الأجناسَ البرّيةَ وإن اختلفتْ في أُمورها، فإنّها قد تتشابه في أمور، وأنّ هذه الأجناسَ البحرية من تلك، ككلب الماء من كلب الأرض.

١٠٥٣ - [صبر بعض الحيوان عن الطعم]

وقد زعم صاحبُ المنطق أنّ الحيَّة وسامّ أبْرَص من العظاء، والتِّمساح، تسكنُ في أعشّتها الأربعة أشهر الشديدة البرد، لا تطعم شيئاً، وأنّ سائر الحيّاتِ تسكنُ بطنَ الأرض. فأمَّا الأفاعي فإنّها تسكن في صُدوع الصَّخر.

وليس لشيءٍ من الحيوانِ من الصَّبر عن الطُّعمِ ما لهذه الأجناس. وإنَّ الفيل ليناسبُها من وجهين: أحدهما من طول العمر، فإنَّ منها ما قد عاش أربعمائة سنة. والوجه الآخر أنّ الفيلة مائيَّة وهذه الأجناس مائيَّة وإن كان بعضها لا يسكن الماء.

١٠٥٤ - [داهية الغَبَر]

قال: وسمعتُ يونُس بن حبيبٍ يقول[١]: «داهية الغبر» قال[٢]: وقيل ذلك لأنها ربَّما سكنَتْ بقُربِ ماء، إمَّا غديرٍ وإما عينٍ، فتحْمي ذلك الموضعَ. وربما غبر ذلك الماءُ في المنْقَع حيناً وقد حمتْه. وقال الكذَّابُ الحرمازيّ[٣]: [من الرجز]

يا ابنَ المعلَّى نزلتْ إحدى الكُبَرْ ... دَاهيةُ الدَّهرِ وصَمَّاءُ الغَبَر

قال: وسأل الحكم بنُ مروانَ بنِ زنباعٍ، عن بني عبد اللّه بن غطفان، قال: أفعى إنْ أيقظْتها لسعَتْك، وإن تركْتها لم تَضِرْك.

١٠٥٥ - [نادرة تتعلق بالحيات]

وذكر عن سعيد بن صخر قال: نُهش رجلٌ من أهل البادية كثيرُ المال، فأشفى على الموت، فأتاهم رجلٌ فقال: أنا أَرْقيه، فما تُعطوني؟ فشارطوه على ثلاثين درهماً، فرقاه وسقاه أشياء ببعض الأخلاط، فلمَّا أفاقَ قال الرَّاقي والمداوي: حقي! قال الملدوغ: وما حقه، قالوا: ثلاثون درهماً. قال أُعطيه من مالي ثلاثينَ درهماً في نفثاتٍ نفثها، وَحَمْضٍ سقاه! لا تُعطوه شيئاً!

---

(١) من الأمثال قولهم «إنه لداهية الغبر» وهو في مجمع الأمثال ١/٤٤، وجمهرة الأمثال ١/٤٥٠، والمستقصى ١/٤٢١، وفصل المقال ١٤١، وأمثال ابن سلام ٩٩، والغبر: عين ماء بعينه تألفه الحيات.

(٢) ورد القول في أساس البلاغة «غبر».

(٣) الرجز في مصادر المثل السابق، واللسان والتاج وأساس البلاغة (غبر).

١٠٥٦ - [حديث سكر الشطرنجي]

وحدَّثني بعض أصحابنا عن سكَّرٍ الشِّطرنجيّ، وكان أحمق القاصِّين، وأحذقَهم بلعب الشِّطرنج، وسألته عن خرق كان في خَرَمَة[١] أنفه فقلت له: ما كان هذا الخرق؟ فذكر أنَّه خرج إلى جَبُّلَ[٢] يتكسَّب بالشِّطْرنج، فقدم البلدةَ وليس معه إلاّ درهمٌ واحد، وليس يَدري أينجَح أم يُخْفق،ويَجدُ صاحبَه الذي اعتمده أمْ لا يجده؟ فورد على حَوَّاءٍ[٣] وبين يديه جُونٌ[٤] عِظَامٌ فيها حياتٌ جليلة.

والحيّة إذا عضَّت لم تكنْ غايتُها النَّهش أو العضّ، وأن ترضى بالنَّهش، ولكنَّها لا تعضُّ إلاَّ للأكل والابتلاع. وربَّما كانت الحيَّات عِظامًا جدًّا ولا سموم لها، ولا تَعْقِر بالعضّ، كحيات الجَوْلانِ.

وفي البادية حيَّة يقال لها الحُفَّاث، والحُفَّاث من الحيَّات تأكل الفأر وأشباهَ الفأر، ولها وعيدٌ مُنكرٌ، ونفخٌ وإظهارٌ للصَّولة، وليس وراء ذلك شيء. والجاهل ربَّما مات من الفزع منها. وربَّما جمعت الحيَّة السَّمَّ وشدَّةَ الجَرْح، والعضَّ والابتلاع، وحَطْمَ العظم.

فوقف سُكَّرٌ على الحوّاء وقد أخرج من جونته أعظم حَيَّاتٍ في الأرض، وادّعى نفوذَ الرُّقيةِ وجودةَ التِّرياق، فقال له سُكَّرٌ:خذْ منِّي هذا الدِّرهم، وارقني رُقْيةً لا تضرّني معها حيّةٌ أبداً! قال: فإنِّي أفعل. قال: فأرْسِلْ قبل ذلك حَيَّةً، حتّى ترقيني بعد أن تعضَّني، فإنْ أفقْتُ علمتُ أنَّ رُقْيتك صحيحة. قال: فإنِّي أفعل، فاخترْ أيَّتَهنَّ شئت. فأشار إلى واحدةٍ ممّا تعضُّ للأكلِ دون السَّمّ، فقال:دعْ هذه، فإنَّ هذه إن قبضَتْ على لحمك لم تفارقك حتى تقطعك! قال: فإنِّي لا أريد غيرها. وظنَّ أنّه إنّما زَوَاها عنه لفضيلةٍ فيها. قال: أمّا إذْ أبيت إلاَّ هذه فاخترْ موضعاً من جسدكَ حَتَّى أرسلها عليه. فاختارَ أنفه، فناشده وخوَّفه، فأبى إلاَّ ذلك أو يردَّ عليه درهَمَهُ. فأخذها الحوّاءُ وطواها على يده، كي لا يدعها تنكزُ[٥] فتقطع أنفه من أصله. ثمَّ أرسلها عليه. فلما أنشبت أحد نابَيْها في شِقِّ أنفه صَرَخ عليه صَرخةً جمعتْ عليه أهل تلك

(١) الخرمة: موضع الخرم من الأنف. (القاموس: خرم).

(٢) جَبُّل: بلدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي. معجم البلدان ٢ / ١٠٣.

(٣) رجل حَوَّاء وحاوٍ: يجمع الحيات. (اللسان: حوا).

(٤) جون: جمع جونة، وهي سليلة «تصغير سلة» مغشاة أدَماً تكون مع العطارين. (القاموس: جون).

(٥) نكزت الحية: لسعت بأنفها. (القاموس: نكز).

البلْدة، ثُمّ غُشي عليه، فأُخذَ الحوّاءُ فوُضع في السِّجن، وقتلوا تلك الحيَّات، وتركوه حتّى أفاقَ كانّه أجنُّ الخلْق، فتطوَّعوا بحمله فحملوه مع المُكاري[1]، وردُّوه إلى البصرة، وبقِي أثَرُ نابِها في أنفه إلى أن مات.

١٠٥٧ - [أظلم من حية]

قال: وأشياءُ من الحشرات لا تتخذ لنفسها ولا لبيضها ولا أولادها بيوتاً، بل تظلم كلَّ ذي جُحر جُحرَه، فتخرجُه منه، أو تأكلُهُ إنّ ثبتَ لها.

والعربُ تقول للمُسيء: «أَظْلَمُ مِنْ حَيّةٍ» لأنَّ، الحيّة لا تتَّخذ لنفسها بيتاً. وكُلُّ بيتٍ قصدَت نحوه هرب أهلُه منه. وأخْلَوْه لها.

١٠٥٨ - [الورل والحية]

والورَل يقْوَى على الحيَّاتِ ويأكلها أكلاً ذريعاً. وكلُّ شدَّةٍ يلقاها ذو جُحْر منها فهي تلقَى مثلَ ذلك من الورَل. والورَلُ ألْطفُ جرِمًا من الضّبّ.

وزعم أنَّهُمْ يقولون: «أَظْلَمُ مِنْ وَرَل»[2] كما يقولون: «أظْلَمُ مِنْ حَيّة»[3]، وكما يقولون: «أظْلَمُ مِنْ ذِئْبٍ»[4] ويقولون: «من اسْتَرْعى الذِّئْبَ ظلمَ»[5].

١٠٥٩ - [الورل والضبّ]

وبراثن الوَرَل أقوى من براثِنِ الضّبّ. والضِّبابُ تحفر جحَرتها في الكُدَى[6]. والوَرَل لا يحفُرُ لنفسه بل يُخْرِجُ الضّبّ من بيته. فتزعم الأعرابُ أنَّه إنما صار لا يحفر لنفسه إبقاءً على براثنه. ويمنع الحيَّةَ أن تحفُر بيتها أنّ أسنانَها أكَلُّ من أسنان الفأر ومن التي تحفر بالأفواه والأيدي، كالنمل والذرّ وما أشبه ذلك. والحيّة لا ترى أن تعانيَ ذلك، وَحَفْرُ غيرها ومعاناتُه يكفيها.

---

(١) المكاري: من يكري الناس دابته، أي يؤجرها. (انظر القاموس: كرى).

(٢) مجمع الأمثال ١ / ٤٤٥، وجمهرة الأمثال ٢ / ٣٠، والمستقصى ١ / ٢٣٤.

(٣) مجمع الأمثال ١ / ٤٤٥، وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٩، والمستقصى ١ / ٢٣٢ وفصل المقال ٤٩٢.

(٤) مجمع الأمثال ١ / ٤٤٦، وجمهرة الأمثال ٢ / ٣٠، والمستقصى ١ / ٢٣٤.

(٥) مجمع الأمثال ٢ / ٣٠٢، وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٦٥، والمستقصى ٢ / ٣٥٢، وأمثال ابن سلام ٢٩٤، والفاخر ٢٦٥، والدرة الفاخرة ١ / ٢٩٤.

(٦) الكدى: جمع كدية، وهي الأرض الصلبة. (القاموس: كدي).

١٠٦٠ - [شعر في ظلم الحية]

وفي ضَرْبِ المثل بظُلْم الحيّة، يقول مضرِّس بن لقيط[١]: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ إنِّي لَوْ أُخاصِمُ حَيّةً ... إلى فَقْعَسٍ ما أَنْصَفَتْني فَقْعَسُ

إذا قلتُ ماتَ الدّاءُ بيني وبينَهُمْ ... سَعَى حَاطِبٌ منهم لآخر يقْبِسُ

فما لَكُمُ طُلْسًا إليَّ كأَنَّكُمْ ... ذِئَابُ الغضا والذِّئْبُ بالليلِ أطْلَسُ[٢]

وجعله أطلس؛ لأنّه حين تشتدُّ ظُلمة اللَّيل فهو أخفى له، ويكونُ حينئذٍ أخبث له وأضْرَى.

وقال حَريزُ بن نُشْبَة العَدَويّ، لبني جعفر بن كلاب، وضَرَبَ جَوْر الحيَّةِ والذِّئبِ في الحُكْمِ مثلاً، فقال[٣]: [من البسيط]

كأنّني حين أحبُو جَعْفرًا مِدَحي ... أسقِيهمُ طَرْقَ ماءٍ غيرَ مَشْرُوبِ[٤]

ولو أخاصِمُ أفْعَى نَابُها لَثِقٌ ... أو الأساوِدَ من صُمِّ الأهاضيبِ[٥]

لكنتمُ معها إلْباً، وكان لها ... نابٌ بأسفل ساقٍ أو بِعُرْقُوبِ[٦]

ولو أخاصِمُ ذئْباً في أكِيلته ... لجاءني جمعُكُمْ يسعى مع الذِّيبِ[٧]

١٠٦١ - [فم الأفعى]

قال: والحيَّة واسعةُ الشَّحْوِ والفم، لها خطم، ولذلك ينفذ نابُها. وكذلك كلُّ ذي فمٍ واسعِ الشَّحو، كفم الأسد. فإذا اجْتمعَ له سعَةُ الشَّحو وطولُ اللَّحيين، وكان ذا خَطمٍ وخُرطومٍ فهو أشدُّ له؛ كالخنزير، والذِّئب والكلْب. ولو كان لرأس الحيَّة عَظْمٌ كان أشدَّ لعضّتها، ولكنَّه جلدٌ قد أطبقَ على عظمين رقيقينِ مستطيلين بفكِّها الأعلى والأسفل. ولذلك إذا أهوى الرَّجُلُ بحَجر أو عصًى، رأيتها تلوِّي رأسها وتحتال

(١) الأبيات للأسدي في البيان ٢/١٦٠، ولعامر بن لقيط الأسدي في حماسة البحتري ٣٨٠، ومحاضرات الراغب ١/١٧٤.

(٢) الأطلس: وهو الذي في لونه غبرة إلى سواد. (القاموس: طلس).

(٣) ورد البيتان الثاني والرابع في البيان ٢/١٦٠ مع نسبتهما إلى الفزاري.

(٤) ماء طرق: بالت فيه الإبل وبعرت. (القاموس: طرق).

(٥) لثق: مبتل. (القاموس: لثق).

(٦) أَلَبَ القوم إليه: أتوه من كل جانب، وانضم بعضهم إلى بعض. (القاموس: ألب).

(٧) الأكيلة: شاة تنصب ليصاد بها الذئب ونحوه؛ وهي قبيحة. (القاموس: أكل).

في ذلك، وتمنعه بكلِّ حيلةٍ، لأنَّها تعلم وتحسُّ بِضعْفِ ذلك الموضع منها، وهو مَقْتَلٌ. وما أكثر ما يكون في أعناقها تخصيرٌ[١]، ولِـ مدورها أغباب[٢]، وذلك في الأفاعي أعمُّ. وذلك الموضعُ المستدقّ[١] إنَّما هو شيءٌ كهيئة الخريطة، وكهيئة فم الجِراب، مُنْضمٌّ الأثْناء، مُثَنّى الغضُون. فإذا شئت أن تفتح انفتح لك فمٌ واسع.

ولذلك قال إبراهيم بن هانئ: كان فَتْحُ فمِ الجرابِ يحتاجُ إلى ثلاثة أيدٍ، ولولا أنّ الحمالين قد جعلوا أفواههم بدل اليد الثَّالثةِ لقدكان ذلك ممتنعًا حتّى يستعينوا بيدِ إنسان.

وهذا ممَّا يعدُّ في مجون ابن هانئ.

وكذلك حُلوقُ الحيَّاتِ وأعناقها وصدورُها، قد تراها فتراها في العين دقيقةً، ولا سيَّما إذا أفرطَتْ في الطُّول.

١٠٦٢ - [شراهة الحية والأسد]

وهي تبتلعُ فِراخ الحمام. والحيةُ أنهمُ وأشره من الأسد. والأسدُ يبلعُ البَضْعَةَ العظيمةَ من غير مضْغٍ، وذلك لما فيه من فَضْلِ الشرَه. وكذلك الحيّة. وهما واثقان بسهولةِ وسَعَةِ المخرج.

١٠٦٣ - [تنِّين أنطاكية]

وممَّا عظَّمها وزادَ في فزع النَّاس منها، الذي يرويه أهلُ الشام، وأهْلُ الْبَحْرَيْن، وأهل أنطَاكِيَةَ، وذلك أنِّي رأيتُ الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهرَ جدَّةً من الثلثين الأسفلين، فقلت لهم: ما بالُ هذا الثلث الأعلى أجدَّ وأطْرى؟ قالوا: لأنّ تنِّيناً[٣] تَرَفَّعَ مِنْ بَحْرِنا هذا، فكان لا يمرُّ بشيءٍ إلاّ أهلكه، فمرَّ على المدينة في الهواء، محاذياً لرأس هذه المنارة، وكان أعلى ممَّا هي عليه، فضربه بذنبهِ ضَرْبَةً، حَذفت من الجميع أكثرَ من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك اختلفَ في المنْظَرِ.

ولم يزل أهلُ البقاع يتدافعون أمْرَ التِّنِّين. ومن العجب أنّكَ تكون في مجلسٍ

---

(١) تخصير: دقّة.

(٢) أغباب: جمع غبب، وهو اللحم المتدلي تحت الحنك. (القاموس: غبب).

(٣) التنين: ضرب من الحيات كاكبر ما يكون منها، وطوله نحو فرسخين. حياة الحيوان ١ / ٢٣٣.

وفيه عِشرُون رَجُلاً، فيجري ذكرُ التِّنين فينكرهُ بعضهم. وأصحاب التثبت يدَّعون العِيانَ. والموضع قريب، ومَنْ يعاينهُ كثير. وهذا اختلافٌ شديد.

١٠٦٤ - [الحية الأصلة]

والأعراب تقول في الأصلة قولاً عجيباً: تزعُمُ أنَّ الحَّية التي يقال لها الأصَلَة لا تمرّ بشيءٍ إلاّ احترق. مع تهاويلَ كثيرةٍ، وأحاديثَ شنيعةٍ.

١٠٦٥ - [الأجدهاني]

وتزعم الفُرْس أنّ الأجدهاني أعظم من البعير، وأنّ لها سبعةَ رؤوس، وربّما لَقِيتْ ناساً فتبتلع من كلِّ جهةٍ فمٍ ورأسٍ إنساناً. وهو من أحاديث الباعة والعجائز.

١٠٦٦ - [الحية ذات الرأسين]

وقد زعم صاحبُ المنطق أنّه قد ظهرَتْ حَيّةٌ لها رأسان. فسألتُ أَعْرَابيًّا عن ذلك فزَعَمَ أنّ ذلك حَقٌّ. فقلت له: فمن أي جهة الرَّأسين تسعَى؟ ومن أيِّهما تأكلُ وتعَضّ؟ فقال: فأمَّا السَّعْيُ فلا تَسْعَى، ولكنّها تَسْعَى إلى حاجتها بالتقلب، كما يتقلَّب الصِّبيانُ على الرَّمْل. وأمّا الأكل فإنها تتعشى بفمٍ وتتغدّى بفم.وأمّا العضُّ فإنها تعضُّ برأسيها معًا!! فإذا به أكذبُ البريَّة. وهذه الأحاديثُ كلها، ممّا يزيد في الرعب منها، والاستهالة لمنظرها.

١٠٦٧ - [فُرانق الأسد]

ومِثْلُ شأن التِّنين مثْلُ أمرُ فُرانقِ[١] الأسد، فإنّ ذكره يجري في المجلس، فيقول بعضهم: أنا رأيتهُ وسَمِعْتُهُ!

١٠٦٨ - [فزع الناس من الحية]

وربما زاد في الرعب منها والاستهالة لمنظرها ,ولُ جميعِ المحدِّثين: إنَّ من أعظم ما خَلَقَ اللّهُ الحيةَ والسَّرطانَ والسّمك!

١٠٦٩ - [طول عمر الحية]

وتقول الأعراب: إنَّ الحيةَ أطولُ عمرًا من النَّسر، وإن الناسَ لم يجدُوا حَيةً قطُّ ماتت حتْفَ أنفها، وإنما تموت بالأمر يعرض لها. وذلك لأمور؛ منها قولهم: إنَّ فيها شياطينَ، وإنَّ فيها منْ مِسخ، وإنّ إبليسَ إنما وسوس إلى آدم وإلى حوَّاء من جَوْفها.

---

(١) الفرانق: معرب بَرْوانك. (القاموس: فرنق).

وزعم لي الفضلُ بن إسحاقَ، أنهُ كان لأبيه نُخَّانٍ[1]، وأنّ طولَ كُلٍّ نخ تسعةَ عشر ذراعاً.

١٠٧٠ - [تَخَلُّق القشور للحيات]

ومن الحيَّات الجُرْد والزعْر، وذلك فيها من [الغالب][2].

ومنها ذواتُ شعر، ومنها ذواتُ قرون. وإنَّما يتخلق لها في كلِّ عام قشرٌ وغلاف [فهي تسلخ القشور الناعمة والغُلُف، التي على مقادير أجسادها، وإنما يستدل بالقشور، فأما الجلود فإن أبدانها لا تفارقها إلا بسلخ السكين][3].

١٠٧١ - [تقشر جلد الإنسان]

وأمَّا الجلودُ فإنَّ الأرمينيَّ زعم أنه كان عندهم رجلٌ ينقَشِر من جلده وينسلخُ في كلِّ شهرٍ مَرَّةً. قال فجمع ذلك فوُجد فيه مِلْءُ جراب أو قال: أكثرُ.

١٠٧٢ - [علة الفزع من الحية]

وأمَّا الذي لا أشك في أنه قد زاد في أقدارها في النفوس، وعظَّم من أخطارها، وهوَّل من أمْرها، ونبّه على ما فيها من الآية العجيبةِ والبرهانِ النيِّر، والحجَّة الظاهرة، فمَا في قلب العصا حَيَّة، وفي ابتلاعها ما هوّلَ به القوم وسَحَروا من أعْيُنِ النَّاس، وجاؤوا به من الإفك. قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقالَ مُوسَى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمين حَقيقٌ على أن لا أقُولَ على اللّه إلاَّ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَة مِنْ رَبِّكُمْ فأرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرائيلَ قال إنْ كُنْتَ جِئْتَ بآيَة فأْت بها إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقينَ. فألْقَى عَصاهُ فإذا هي ثُعبَانٌ مُبينٌ ﴾[4]، إلى قوله: ﴿ فَأَلْقَوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾[5].

فإنْ قلت: إنه إنما حَوَّل العصا ثُعباناً لأنهم جاؤوا بحبال وعِصِيٍّ؛ فحوَّلوها في أعين الناس كلها حيّات، فلذلك قلبَ الله العصَا حَيةً على هذه المعارضة. ولو كانوا

---

(١) النخّ: بساط طويل. (القاموس: نخخ).

(٢) الإضافة من حياة الحيوان ٣٩٢/١، وفيه: (ومن أنواعها: الأزعر وهو غالب فيها، ومنها ما هو أزبّ ذو شعر، ومنها ذوات القرون وأرسطو ينكر ذلك).

(٣) ما بين القوسين زيادة من ثمار القلوب (٦٣٠)، وقد نقله الثعالبي عن الجاحظ، وفي الأصل «فأما مقادير أجسامها فقط»، وهي كلمات لا تفيد معنى.

(٤) الأعراف: ١٠٤-١٠٧.

(٥) الشعراء: ٤٤

حين سحرُوا أعيُنَ الناس جَعَلوا حبالهم وعصيَّهُمْ ذئاباً في أَعْيُنِ الناسِ ونمُوراً، لجعلَ اللّهُ عصا مُوسى ذئبًا أوْ نَمراً، فلم يكن ذلك لخاصَّةَ في بَدَنِ الحية.

قلنا: الدّليل على باطل ما قلتم، قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿وما تلْكَ بيَمينكَ يَا مُوسى. قال هي عَصايَ أَتوكّأُ علَيْهَا وأَهُشُّ بها عَلى غَنَمي وَلِيَ فيها مآربُ أُخْرَى قال أَلْقها يا مُوسى فألْقَاها فإذا هي حَيَّةٌ تَسْعى﴾[1] وقال اللّه عزَّ وجلّ: ﴿إذْ قالَ مُوسى لأهْله إنّي آنسْتُ ناراً﴾[2] إلى قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كأنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يعُقِّبْ يا مُوسى لا تخفْ إنِّي لا يخافُ لَدَيَّ المرْسَلُونَ﴾[3] فقلبت العصا جانًّا، وليس هناك حبالٌ ولا عصيٌّ. وقال اللّه: ﴿قال لئنِ اتخَذْتَ إلهاً غَيْري لأَجْعَلَنَّك منَ المَسْجُونينَ قالَ أَولَوْ جِئْتُكَ بشَيءٍ مُبين قالَ فأْتِ به إنْ كنت من الصَّادقينَ فألْقى عصاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مُبينٌ﴾[4] فقلْبُ العصا حَيَّةً كانَ في حالاتٍ شَتَّى. فكان هذا مِمّا زاد في قدْر الحية.

وقد ورد أنه ﷺ قال في دعائه أن لا يميتَه اللّهُ لَديغاً[5]. وتأويل ذلك: أنَّه ﷺ ما استَعَاذَ باللّه من أن يموتَ لديغاً، وأنْ تكونَ مِيتته بأكْلِ هذا العدوِّ، إلا وهو من أعداءِ اللّه، بل من أشدِّهم عداوة.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «أشَدُّ النّاس عذاباً بومَ القيامة مَنْ قتلَ نَبيًّا أو قَتَلَهُ نبيٌّ» كأنَّهُ كان في المعلوم أنَّ النبيَّ لا يقتلُ أحداً، ولا يتفَقُ ذَلك إلاَّ في أشْرار الخلْق. ويدلُّ على ذلك، الذي اتفَّق من قتل أُبيِّ بنِ خلفٍ بيده، والنَّضر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعيط، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاصي – صبراً[6].

وحُدِّثت عن عبد اللّه بن أبي هند، قال: حدّثني صيفي بن أبي أيُّوب، أنه سمع أبا بَشيرٍ الأنصاريّ يقول: «كان رسول ﷺ يتعوَّذُ من هؤلاء السَّبْع: كان يقول: اللهمَّ إني أعوذُ بك من الهَدْم[7] وأعوذُ بك من التردِّي، وأعوذُ بك من الغَمِّ

---

(١) طه: ١٨.

(٢) النمل: ٧.

(٣) النمل: ١٠.

(٤) الشعراء: ٢٩ – ٣٢.

(٥) في النهاية ٤/٢٤٥ (أعوذ بك أن أموت لديغاً).

(٦) قتله صبراً: حبسه ورماه حتى مات (القاموس: صبر).

(٧) في النهاية ٥/٢٥٢ «أنه كان يتعوذ من الأهدمين» هو أن ينهار عليه بناء، أو يقع في بئر أو أُهْوية.

والغرَق[1]، وأعوذ بك من الحَرَقِ والهَرَم، وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيطانُ عند الموت وأعوذ بك من أن أموتَ في سبيلك مُدْبِرًا، وأعوذ بك من أن أموت لديغاً»[2].

وطلحة بن عمرو قال: حدثني عطاء أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من الأسَد والأسْوَدِ، وأعوذ بك من الهَدْم»[3].

١٠٧٣ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال للحيَّة: صَفَرَتْ تَصْفِرُ صفيرًا، والرجل يصفر بالطير للتنفير، وبالدوابِّ وببعض الطير للتعليم. وتتخذ الصَّفّارة يُصْفَرُ بِها للحمامِ وللطيرِ في المزارع. قال أعشى هَمْدان يهجو رَجُلاً: [من الكامل]

وإذا جثا للزَّرع يوم حَصادِه قَطَعَ النَّهارَ تأوُّهاً وصَفِيرا

١٠٧٤ - [لسان الحية]

والحيَّة مشقوقة اللسانِ سوداؤه. وزعم بعضهم أنَّ لبعض الحيَّات لسانين. وهذا عندي غلطٌ، وأظنُّ أنَّهُ لما رأى افتراقَ طرف اللسان قضى بأنَّ له لسانين.

١٠٧٥ - [عجيبة للضب]

ويقال: إن للضَّبِّ أيْرَين، ويسمَّى أير الضَّبِّ نَزْكاً. قال الشاعر[4]: [من الطويل]

كَضَبٍّ له نِزْكانِ كانا فَضِيلةً على كلِّ حافٍ في الأنام وناعِلِ[5]

قَالَ أبو خلف النمريّ: سئل أبو حيّة النميري عن أير الضَّبِّ، فزعم أنّ أيرَ الضّب كلسان الحيَّة: الأصل واحدٌ، الفرع اثنان.

---

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير ١٥٤١ رواية عن النسائي والحاكم.

(٢) النهاية ٤/٢٤٥.

(٣) في حياة الحيوان ١/٣٨ «الأسود السالخ»: (روى أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب..». والأسود نوع من الأفعوان شديد السواد، سمي بذلك لأنه يسلخ جلده كل عام.

(٤) البيت لحمران ذي الغصة في اللسان والتاج (نزك)، والتهذيب ١٠/١٠١، ١٥/١٠٩ وبلا نسبة في الجمهرة ٨٢٥، واللسان والتاج (سبحل)، والمقاييس ٥/٤١٦، وأساس البلاغة (نزك)، وعيون الأخبار ٢/٩٨، والمخصص ٨/٩٧، ومحاضرات الأدباء ٢/٣٠٣، وربيع الأبرار ٥/٤٦٩.

(٥) الناعل: من لبس نعلاً.

١٠٧٦ - [عقاب الحية في زعم المفسرين]

وبعض أصحاب التفسير يَزْعُمُ أنّ اللّه عاقب الحيَّةَ حين أدخلت إبليس في جوفها، حتى كَلّمَ آدمَ وَحوَّاءَ وخدعهما على لسانها، بعشر خصال: منها شقُّ اللسان. قالوا: فلذلك ترى الحيَّة إذا ضُرِبَتْ للقَتْلِ كيف تخرج لسانها لتُرِيَ الضّاربَ عقوبةَ اللّه، كأنها تَسْترحم. وصاحب هذا التفسير لم يقلْ ذلك إلاّ لحيَّةٍ كانت عنْدَهُ تَتَكَلمُ، ولولا ذلك لأنكر آدمُ كلامها، وإن كان إبليسُ لا يحتال إلاّ من جهة الحيَّة، ولا يحتال بشيءٍ غيرِ مموّهٍ ولا مشبَّه.

١٠٧٧ - [استطراد لغوي]

قال: ويقال: أرضٌ مَحْوَاةٌ وَمَحْيَاة من الحيَّات، كما يقال أرض مَضَبَّة وَضَبِبَة من الضِّباب، وفائرة من الفأر.

١٠٧٨ - [هذا أجل من الحرش]

وقال الأصمعيُّ في تفسير قولهم في المثل: «هذا أَجَلُّ مِنَ الحَرْش»[١]: إنّ الضّبّ قال لابنه: إذا سمعت صَوْتَ الحرْشِ فلا تخرُجَنَّ! قال: وذلك أنّهم يزعمون أن الحرْشَ تحريك اليد عندَ جُحْر الضّبِّ، ليخرج إذا ظنَّ أنه حية - قال: وسمع ابنهُ صوت الحفْر فقال: يا أَبَهْ هذا الحرش؟ قال: يا بنيَّ، هذا أجلُّ من الحرْش! فأرسلها مثلاً.

١٠٧٩ - [الحيوانات التي تأكل الحيات]

بين الحيات وبين الخنازير عداوة، والخنازيرُ تأكُلها أكلاً ذريعاً. وسمومُ ذوات الأنياب من الحيّات، وَذوات الإبر، سريعةٌ في الخنازير، وهي تَهْلكُ عند ذلك هلاكاً وشيكاً، فلذلك لا ترضى بقتلها حتى تأكلها. وتأكلُ الحيَّاتِ العقْبانُ، والأيائلُ، والأراويُّ، والأوعالُ، والسَّنانير والشّاهْمُرك[٢]، والقنفذُ. إلاّ أن القَنفذَ أكثرُ ما يقصِدُ إلى الأفاعي، وإنما يظهر بالليل. قال الرَّاجز: [من الرجز]

* قنفذ ليلٍ دائم التَّجْآبِ *

وهذا الراجز هو أبو محمد الفقعسيُّ.

---

(١) المثل في مجمع الأمثال ١/١٨٦، وجمهرة الأمثال ١/٢٩٨، ٣٣٢، والمستقصى ١/٥٠، ٣٨٤، والفاخر ٢٤٢، ٢٨٩، وفصل المقال ٤٧١، وأمثال ابن سلام ٣٤٢، والدرة الفاخرة ١/١١٨.

(٢) الشاهمرك: الفتي من الدجاج، وهو معرب «الشاه مرغ» ومعناه ملك الدجاج. حياة الحيوان ١/٥٩٤.

١٠٨٠ - [القول في القنفذ]

وكذلك يشبه النَّمَّامُ، والمُدَاخِلُ، والدَّسِيس، بالقنفذ، لخروجه بالليل دون النهار، ولاحتياله للأفاعي. قال عَبْدة بن الطبيب[١]: [من الكامل]

اعْصُوا الذي يُلقي القَنافذَ بَيْنَكُمْ ... مُتَنَصِّحًا وَهُوَ السِّمامُ الأنْقَعُ
يُزْجِي عَقَارِبَهُ ليبعثَ بينكم ... حَرْبًا كما بعثَ الْعُرُوقَ الأخْدَعُ[٢]
حرّانَ لا يَشْفي غَليلَ فؤادهِ ... عَسَلٌ بماءٍ في الإناءِ مُشَعْشَعُ[٣]
لا تأمَنُوا قَوْمًا يشب صبيهم ... بَيْنَ القَوابِلِ بالعداوَةِ يُنْشَعُ[٤]

وهذا البيت الآخر يضم إلى قول مجنون بني عامر[٥]: [من الطويل]

أتاني هَوَاها قَبْل أنْ أعْرِفَ الهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْباً خَالياً فَتَمَكنا

ويضم إليه قول ابْنِ أوْدٍ: «الطينة تَقْبَلُ الطبائع ما كانت لَيِّنَةً».

ثم قال عبْدة بنُ الطَّبيب[٦]، في صلة الأبياتِ التي ذكر فيها القنفذَ والنَّميمةَ: [من الكامل]

إنَّ الذين تُرَوْنَهُمْ خُلاَّنَكُمْ ... يَشْفِي صُدَاعَ رُؤوسهِمْ أنْ تُصْرَعُوا
قومٌ إذا دمسَ الظَّلاَمُ عَلَيْهِمُ ... جَدْعُوا قَنافِذَ بالنميمة تمزَعُ

وهذا الشعر من غُرر الأشعار. وهو مِمَّا يحفظ.

وقال الأوديُّ[٧]: [من البسيط]

كقنفذ القُنِّ لا تخفى مدارِجُهُ ... خبٌّ إذا نامَ عَنْهُ الناس لم ينمِ[٨]

---

(١) ديوان عبدة بن الطبيب ٤٧، وشرح اختيارات المفضل ٦٩٣؛ وحماسة البحتري ٢٤٠.
(٢) في ديوانه: يزجي: يسوق ويدفع، والأخدعان: عرقا الرقبة.
(٣) في ديوانه: شعشع العسل بالماء: خلطه.
(٤) القوابل: جمع قابلة، وهي التي تتلقى الولد وقت الولادة. ينشع بالعداوة: أي توضع في فمه ليشربها.
(٥) البيت لمجنون ليلى في ديوانه ٢٨٢، والبيان ٢/٤٢، وليزيد بن الطثرية في ديوانه ١٠٩، والحماسة الشجرية، ولعمر بن أبي ربيعة في عيون الأخبار ٣/٩.
(٦) البيتان في المفضليات ١٤٧، وحماسة البحتري ١٥٥.
(٧) ديوان الأفوه الأودي ٢٤، وهو لأيمن بن خريم في ديوان المعاني ٢/١٤٤.
(٨) القن، بالكسر، قرية في ديار فزارة، وبالضم، جبل من جبال أجإ عند ذي الجليل واد. (معجم البلدان ٤/٤٠٨). الخب: الخداع.

وفي عهد آل سجستان على العربِ حين افتتحوها[1]: لا تقتلوا قُنْفُذًا ولا وَرَلاً وَلاَ تَصيدُوا،لأنها بلادُ أفاعٍ. وأكثرُ ما يجتلبُ أصحابُ صنعة الترياق والحواؤون الأفاعي من سجستان. وذلك كَسْبٌ لهم وحِرْفَةٌ ومَتجرٌ.ولولا كثْرَةُ قنافذها لما كان لهم بها قرارٌ.

والقنفذُ لا يبالي أيّ موضع قبضَ من الأفعى. وذلك أنه إن قبض على رأسها أو على قفاها فهي مأكولةٌ على أسهل الوُجوه، وإن قَبضَ على وسطها أو على ذنبها، جذَبَ ما قبض عليه، فاستدار وتجمَّع، ومنحه سائرَ بدَنه،فمتى فَتَحَتْ فاها لتقبضَ على شيء منه، لم تصلْ إلى جلده مع شوكه النَّابتَ فيه. والأفعى تهربُ منه، وطلبهُ لها وجراءتهُ عليها، على حَسَبِ هربِها منه وضَعْفها عنه.

١٠٨١ - [أمثال في الحية والورَل والضَّبِّ]

وأمَّا قولهم: «أضل من حَيّة»؛ و«أَضَلُّ من وَرَل»؛[2] و«أضَلُّ من ضَبٍّ»[2]. فأمَّا الحيّة فإنَّها لا تتَّخذ لنفسها بيتاً، والذَّكَرُ لا يقيم في الموضع، وإنما يقيم على بيضها بقدر ما تخرج فراخُها وتقوى علي الكَسْب والتماس الطعم، ثمَّ تصير الأنثى سَيَّارَةً، فمتى وَجَدت جُحْرًا دخلتْ واثقةً بأنَّ السَّاكنَ فيه بين أمرين:إمّا أقام فصار طُعْماً لها، وإمَّا هرَب فصار البيتُ لها ما أقامت فيه ساعةً، كان ذلك من ليلٍ أو نهار.

١٠٨٢ - [بيض الحيات وجسمها]

وقد رأيتُ بيض الحيَّات وكسرتُها لأتعرَّفَ ما فيها. فإذا هو بيضٌ مستطيلٌ أكدرُ اللون أخضر، وفي بعضه نَمَشٌ[3] ولُمَعٌ[4]. فأمَّا داخلُه فلم أَرَ قَيْحًا قطُّ، ولا صديداً خَرَجَ من جُرحٍ فاسدٍ، إلاَّ والَّذي في بيضها أسمجُ منه وأقذر. ويزعمون أنها كثيرةُ البيض جداً، وأنَّ السلامة في بيضها على دون ذلك، وأنَّ بيضها يكون منضَّدًا في جوفها طُولاً على غرار واحد، وعلى خيط واحد.

وهي طويلة البطن والأرحامِ. وعددُ أضلاعها عددُ أيام الشهر. وكان ذلك بعض ما زاد في شدَّة بدنها.

---

(١) مروج الذهب ١ / ٢٣٥، وعيون الاخبار ١ / ٢٢٠، وثمار القلوب (٦٢٦)، وكان ذلك سنة ٨١هـ.

(٢) مجمع الأمثال ١ /٤٢٦، والمستقصى ١ /٢١٨، وفصل المقال ١٦٣، وجمهرة الأمثال ٢ /١١، والدرة الفاخرة ١ /٢٨٨.

(٣) النمش: نقط بيض وسود، أو بُقَع تقع في الجلد تخالف لونه. (القاموس: نمش).

(٤) اللمع: كل لون خالف لوناً. (القاموس: لمع).

١٠٨٣ - [أكثر الحيوان نسلاً]

والخلْق الكثير الذَّرء[١] الدَّجاجُ. والضَّبُّ أكثَرُ بيضاً من الدَّجاجة. والخنزيرة تضعَ عشرين خِنَّوْصاً.

ويخرجُ من أجواف العقارب عقاربُ صغارٌ، كثيرةُ العدد جداً. وعامَّة العقارب إذا حَبِلَتْ كان حَتْفُها في ولادها، لأنَّ أولادها إذا استَوى خَلْقُها أكلَتْ بطونَ الأمَّهات حتّى تثقبها. وتكونُ الولادةُ من ذلك الثَّقب، فتخرج والأمهاتُ ميِّتة.

وأكثَرُ من ذلك كله ذَرْءُ السَّمك، لأنَّ الإنسان لو زَعَمَ أنّ بيضة واحدة من بَعْضِ الأسْبور عشرة آلاف بيضة، لكان ذلك لعظَم ما تحمل، ولدقَّة حَبّه وصغره. ولكن يعتريها أمران: أحدهما الفساد، والآخر أنَّ الذكورة في أوانِ ولادة الإناث تَتْبَعُ أَذْنَابَها، فكُلَّما زَحَرَتْ بشيء التقمتْه والتهمتْه.

ثمَّ السَّمك بعد ذلك في الجملة إنما طبعها أن يأكل بعضُها بعضاً.

١٠٨٤ - [علة كثرة الأولاد]

ويزعمون أن الكثْرَةَ في الأولاد إنّما تكون من العفَن واللَّخَن[٢]، وعلى قدْرِ كثرة المائيَّة وقلّتها. فذهبوا إلى أنَّ أرحامَ الرُّوميَّات والنَّصرانيَّات أكثرُ لخناً ورُطوبة، لأنّ غَسْلَ الفُرُوجِ بالماء البارد مراراً في اليوم، ممَّا يطيِّب الأرحامَ، وينفي اللَّخَنَ[٢] والعَفَن، ويزعمون أنَّ المرأة إذا كان فرجُها نظيفاً، وكانت مُعَطّرَة قويّة المُنّة[٣] قَلَّ حملُها، فإنْ أفرطَتْ في السِّمَنِ عادتْ عاقراً. وسِمانُ الرِّجال لا يكاد يعتريهم ذلك.

وكذلك العاقر من إناث الإبل والبقر والغنم والنَّخْل. إذا قويت النَّخلة وكانت شابّةً، وسَمِنَ جُمَّارُها، صارتْ عاقِراً لا تحمل، فيحتالون عند ذلك بإدخال الوهن عليها.

١٠٨٥ - [طعن في التعليل السابق]

وقد طعن في ذلك ناسٌ فقالوا: إنّ في الضّبِّ على خلاف ما ذكرتم. قد تبيضُ الأنثى سبعين بيضة فيها سبعون حِسْلاً[٤]. ولولا أنّ الضَّبَّ يأكلُ ولدَه لانتفشت

---

(١) الذرء: النسل. (القاموس: ذرأ).

(٢) اللخَن: قبح ريح الفرج، ولَخِن: أنتن. (القاموس: لخن).

(٣) لعله الصواب: سَرِيَّة البَنَّة، أي طيبة الرائحة.

(٤) الحسل: ولد الضب، وهو واضح من المعنى.

الصحارى ضِباباً. والضب لا يحفر إلاّ في كُدْية[1] وفي بلادِ العَرَاد[2]. وإذا هرمت تبلّغتْ بالنّسيم. وهذا كله مِمَّا يستدلُّ به على بُعْدِ طبعها من اللَّخَن والعفن.

وقيل لهم: قد يمكنُ أن يكون ذلك كذلك في جميع صفاتها إلاّ في أرحامها فقط.

١٠٨٦ - [سفاد الحيات]

وليس للحيَّات سفادٌ معروف يَنْتَهي إليه علمٌ، ويقف عليه عيان. وليس عند الناس في ذلك إلاّ الذي يَرَوْنَ من ملاقاة الحيّة للحيَّة، والتواء كلٍّ منهما على صاحبه، حتى كأنهما زوجُ خيزرانٍ مفتولٌ، أو خَلخَالٌ مفتولٌ. فأمَّا أنَ يقفوا على عضوٍ يدخل أو فرج يدخل فيه فَلا.

١٠٨٧ - [شعر في الأيم والجرادة الذكر]

والعرب تذكُرُ الحيّاتِ بأسمائها وأجناسها. فإذا قالوا :أَيْم، فإنما يريدون الذّكَر دونَ الأنثى. ويذكرونه عنْدَ جودة الانسياب، وخفَّة البدن، كما تذكر الشُّعراء في صفة الخيل الجرادةَ الذّكَرَ، دُونَ الأنثى. فهم وإن ألحقُوا لها فإنما يريدون الذّكَرَ. قال بِشْرُ بن أبي خازم[3]: [من الوافر]

* جَرَادَةَ هَبْوَةٍ فيها اصفرارُ *

لأنّ الأنثى لا تكون صفراء، وإنما الموصوفُ بالصُّفْرة الذّكر، لأن الأنثى تكون بين حالتين: إمّا أنْ تكون حُبْلى بِبَيْضِها فهي مُثْقلة، وإمّا أن تكون قد سرأت[4] وقذَفت بيضها، فهي أضعفُ ما تكون.

قال الشاعر[5]: [من الطويل]

أَتذهَبُ سَلْمَى في اللِّمَامِ وَلا تُرى   وفي اللَّيلِ أَيْمٌ حيثُ شاءَ يسيبُ[6]

---

(١) الكدية: الأرض الصلبة الغليظة. (القاموس: كدي).

(٢) العراد: حشيش طيب الرائحة. (اللسان: عرد).

(٣) صدر البيت: (مهارشة العنان كأن فيها) وهو في ديوان بشر بن أبي خازم ٧٤، واللسان (عرر)، والتهذيب ١/١٠٢، ٦/٧٩، وبلا نسبة في المخصص ١٦/١١٥، واللسان وأساس البلاغة (هرش)، والتاج (عرر، هرش).

(٤) سرأت: باضت. (القاموس: سرأ).

(٥) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (سيب).

(٦) اللمام: اللقاء اليسير. سابت الحية تسيب: مضت مسرعة.

١٠٨٨ - [آثار الحيات والعظاء في الكثبان]

وإذا انسابت في الكُثْبانِ والرّملِ، يبينُ مواضعُ مَزَاحِفها، وعُرِفت آثارُها.

وقال آخر[١]: [من الوافر]

كأنَّ مَزَاحِفَ الحيَّاتِ فيها قُبيلَ الصُّبْحِ آثارُ السِّياطِ

وكذلك يعرفون آثار العظاء. وأنشدَ ابن الأعرابيِّ: [من الطويل]

بها ضربُ أذناب العِظَاء كأنها مَلاعِبُ وِلْدَانٍ تخطّ وتمصعُ[٢]

وقال الآخر، وهو يصف حيّات[٣]: [من المتقارب]

كأنَّ مَزاحِفها أنسعٌ جُرِرْنَ فُرَادَى ومَثْناتها

وقال ثمامة الكلبيُّ[٤]: [من الوافر]

كأنَّ مَزَاحِفَ الهَزْلَى صباحاً خُدُودُ رَصائع جُدلتْ تؤاما

والهَزْلَى من الحيَّات. قال جرير أو غيره[٥]: [من الطويل]

ومن ذات أصْفاءٍ سُهُوب كأنها مَزَاحِفُ هَزْلَى بينها متباعدُ[٦]

وقال بعضُ المحدثين، وذكر حال البرامكةِ كيف كانتْ، وإلى أيِّ شيءٍ صارت: [من الكامل]

وإذا نَظَرْتَ إلى التّرى بعِرَاصهم قُلتَ: الشجاعُ ثوى بها والأرقمُ

وقال البعيث[٧]: [من الطويل]

لَقًى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهي ضَيْفَةٌ فجاءتْ بيَتْنٍ للضيافَةِ أرْشَما[٨]

---

(١) البيت للمتنخل الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٢٧٣، والشعر والشعراء ٢/٦٦٤، وجمهرة اللغة ٥٢٧، واللسان (زحف)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (زحف)، والمخصص ١٦/١٠١.

(٢) تمصع: تسرع. (القاموس: مصع).

(٣) نهاية الأرب ١٠/١٤٦، والأنسع جمع نِسع، بالكسر، وهو سَيْر يصفر ويجعل زماماً للبعير.

(٤) البيت في أساس البلاغة (هزل).

(٥) البيت للّعين المنقري في الوحشيات ٢٦٧، وبلا نسبة في اللسان (صوى).

(٦) الأصفاء: جمع صفا، والصفا جمع صفاة، وهي الصخرة الملساء.

(٧) البيت الأول للبعيث في التاج (رشم، يتن)، واللسان (ضيف، رشم، يتن)، ولجرير في ذيل ديوانه ١٠٤١، واللسان (نزر، لقا)، والتاج (نزر)، والعين ٦/٢٦٢، وبلا نسبة في المقاييس ٢/٣٩٦، ٣/٣٨٢، والمجمل ٢/٣٨٠، ٣/٢٩٨، والمخصص ٣/٦٦، ١٧/٣٠، وديوان الأدب ٢/٢٦٨، ٣/٢٠٩، واللسان والتاج (نزل)، والبيت الثاني للبعيث في اللسان والتاج (سمسم).

(٨) اللقى: الذي لا يدري ابن من هو، ضيفة: أي أن أمه دعيت إلى ضيافة، فحملت به، وهذه كناية الزنى. اليتن: من يخرج رجلاه عند الولادة قبل رأسه. الأرشم: من يتشمم الطعام.

مُدامِنُ جَوْعَاتٍ كأنّ عروقَهُ مسَارِبُ حيَّاتٍ تَسَرَّبْنَ سَمْسَما[1]

١٠٨٩ - [أعجوبة جلد الحية]

[وليس في الأرض قشر ولا ورقة][2]، ولا ثوبَ، ولا جناحَ، ولا سِتْرَ عنكبوتٍ، إلا وَقشْرُ الحيَّةِ أحْسَنُ منه وأرقُّ، وأخفُّ وَأنْعَمُ، وأعجبُ صنعةً وتركيباً.

ولذلك وصف كُثَيِّرٌ قميص ملك، فشبَّهه بِسَلخ الحيَّة، حيث يقول[3]: [من الطويل]

إذا ما أفادَ المالَ أودَى بفَضْلِه حقوقٌ، فَكُرْهُ العاذلات يوافقُه
يجرِّر سِرْبالاً عليه كأنَّهَ سَبِيءٌ لهَزْلَى لم تُقَطَّعْ شَرَانِقُهُ[4]

والسَّبِيء: السَّلْخُ والجلد. قال الشاعر[5]: [من الطويل]

* وقد نصلَ الأظْفارُ وانسَبَأ الجِلْدُ *

١٠٩٠ - [صمم النعام والأفعى]

وترعمُ العربُ أنَّ النَّعامَ والأفعى صُمٌّ لا تسمع، وكذلك هما من بينِ جميع الخَلْقِ. وسنذكرُ من ذلك في هذا الموضع طرفاً، ونؤخر الباقي إلى الموضع الذي نذكر فيه جملة القَوْل في النَّعام.

وقد ابتُلينا بضَرْبين من الناس، ودعواهما كبيرة، أحدهما يبلغ من حبه للغرائب أن يجعل سمْعه هدَفاً لتوليد الكذابين، وقلبه قراراً لغرائب الزُّور. ولكَلَفه بالغريب، وشَغَفه بالطُّرَف، لا يقفُ على التَّصحيح والتمييز، فهو يدخل الغثَّ فيَ السمين، والممكَنَ في المَمتنع، ويَتَعلَّقُ بأدنى سببٍ ثمَّ يدفع عنه كلّ الدَّفعِ.

والصِّنف الآخر، وهو أنَّ بعضهم يرى أنَّ ذلك لايكون منه عنْدَ من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقزُّز من الكذب.

فزعم ناسٌ أنّ الدَّليلَ على أنّ الأفاعي صُمٌّ، قولُ الشاعر: [من الرجز]

أنعَتُ نضناضاً من الحيَّاتِ أصمَّ لا يَسْمَعُ للرُّقَاة[6]

---

(١) مدامن جوعات: مدمن جوع.

(٢) الزيادة من ثمار القلوب (٦٣٠) ٣٤٠.

(٣) البيتان لكثير عزة في ديوانه ٣٠٨، والمعاني الكبير ٦٧٣، وللراعي النميري في ديوانه ٣٠٨.

(٤) الهزلى: الحيات. (القاموس: هزل).

(٥) الشطر بلا نسبة في اللسان والتاج (سبأ).

(٦) النضناض: حية لا تستقر في مكان، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها، أو التي أخرجت لسانها تحركه. (القاموس: نضض). الرقاة: جمع راق.

قد ذكروا بالصَّمِم أجناساً من خبيثات الحيَّات، وذهبوا إلى امتناعها من الخروج عند رُقيةِ الرَّاقي عند رأس الجُحْر، فقال بعضهم: [من الرجز]

وذاتِ قَرْنَيْنِ من الأفاعي صَمَّاء لا تَسْمَعُ صَوْتَ الدَّاعي

ويزعمونَ أنّ كلّ نَضْناضٍ أفعى. وقال آخر(١): [من المتقارب]

ومِنْ حَنَشٍ لا يُجِيبُ الرُّقا ةَ أَرْقَشَ ذي حُمَةٍ كالرِّشا(٢)

أصمَّ سَمِيعٍ طويلِ السُّبَا تِ مُنْهَرِتِ الشدقِ عاري النسَا(٣)

فزعم أنّه أصمٌّ سميعٌ، فجاز له أن يجعله أصمّ بقوله: «ومِنْ حَنَشٍ لا يُجِيبُ الرُّقاة» وقال الآخر(٤): [من السريع]

أصمَّ أَعْمى لا يُجيبُ الرُّقى يَفْتَرُّ عَنْ عُصْلٍ حَدِيداتِ(٥)

والأفعى ليس بأعمى، وعينه لا تنطبق، وإنْ قُلِعَتْ عينهُ عادت. وهو قائمُ العَيْنِ كَعَيْنِ الجرادة، كأنها مِسمارٌ مضروب. ولها بالليلِ شُعاع خفيٌّ. قال الرَّاعي يصفُ الأفعى: [من الطويل]

ويُدني ذِرَاعَيهِ إذا ما تبادَرَا إلى رأسِ صِلٍّ قائمِ العَيْنِ أسفعِ

وهذه صفةُ سَليمِ الأفعى، فيجوز أن يكون الشاعرُ وصفها بالتمنع من الخروج بالصَّممَ، كما وصفها بالعمى، لمكان السُّباتِ وطُولِ الإطراق.

قال الشاعرُ(٦): [من المتقارب]

أصمَّ سميع طَويل السُّباتِ مُنهرت الشِّدْقِ عَارِي القَرَا

وقال آخر: [من السريع]

منهرتِ الشِّدقِ رَقُودِ الضُّحى سارٍ طَمُورٍ بالدُّجُنَّاتِ(٧)

---

(١) البيتان لأبي صفوان الأسدي في الحماسة البصرية ٢/٣٤٤، وأمالي القالي ٢/٢٣٨، وحماسة الخالديين ٣٥٩.

(٢) في الأمالي: (الحمة: سمه وضره، والرشاء: الحبل).

(٣) في الأمالي: (المنهرت: واسع مشق الشدق).

(٤) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (سبت) والتهذيب ١٢/٣٨٨.

(٥) الأعصل: الأعوج.

(٦) تقدم شرح البيت في الحاشية قبل السابقة.

(٧) الطمور: الوثوب. (القاموس: طمر).

وتـارَةً تَحْسَبُهُ مَيِّتـا من طُول إطْرَاقٍ وإخبات[1]
يُسْبِتُهُ الصُّبْحُ وَطَوْرًا لَهُ نَفخٌ ونفْثٌ في المغارات

وَيُعْلَمُ أنَّهُ وصَفَ أفعى بقوله: [من السريع]

أصمَّ أعمى لا يُجيبُ الرُّقى يَفْتَرُّ عن عُصْلٍ حَدِيدات
مُنْهرِتِ الشِّدْقِ رَقُودِ الضُّحى «الخ»

ثم ذكر أنيابَهُ، فقال:

قُدِّمْن عَنْ ضِرْسَيْهِ واسْتَأْخَرا إلى صماخَيْنِ وَلهَوَاتِ

فجعله أعصل الأنياب، منهرتَ الأشْداق، ثمَّ وصفها بالسُّباتِ وطولِ الإطراق، وبِسُرْعَةِ النَّشْطة[2]، وخفّة الحركة، إذا هَّمت بذلك وكانت تعظم.

١٠٩١ - [شعر في صفَة الحية]

وقد وصفتها امرأة جاهليَّةٌ بجميع هذه الصِّفة، إلاَّ أنها زادت شيئاً. والشِّعرُ صحيح. وليس في أيدي أصحابنا مِنْ صِفَةِ الأفاعي مثلها

وقد رأيتُ عند داودَ بن محمَّدٍ الهاشميِّ كتابًا في الحيَّات، أكثرَ من عشرة أجلادٍ، ما يصحُّ منها مقدارُ جلدٍ ونصف.

ولقد ولَّدُوا على لسانِ خلفٍ الأحْمَرِ،والأصمعيِّ، أرجازًا كثيرة. فما ظَنُّكَ بتوليدهم على ألسِنَةِ القُدماء!

ولقدْولَّدُوا على لسانِ جَحْشَوَيْهِ في الحلاق أشعاراً ما قالها جَحْشَوَيه قط. فلو تقَذَّرُوا من شيءٍ تقذَّرُوا من هذا الباب.

والشِّعر الذي في الأفعى[3]: [من الكامل]

قَدْ كاد يقتُلني أصمُّ مُرَقَّشٌ من حُبِّكُمْ، والخطبُ غيرُ كبيرِ
خُلِقَتْ لَهَازِمُهُ عِزِينَ ورأسُهُ كالقُرْص فُلْطِحَ مِنْ دقيقِ شَعيرِ
وَيديرُ عَيناً لِلْوقاع كأنَّها سَمْراءُ طاحَتْ مِنْ نَفيضِ بَرِيرِ

---

(١) الإخبات: الإطراق والسكون. (القاموس: طرق).
(٢) نشطت الحية: عضت بنابها. (القاموس: نشط).
(٣) انظر الأبيات مع تخريجها في الأصمعيات رقم ٣٥.

وكأنَّ ملقاه بكلِّ تَنوفَةٍ مَلْقاكَ كفَّةَ مُنْخُل مأطورِ[١]
وكأنَّ شِدْقَيْهِ إذا اسْتَعْرَضْتَهُ شِدْقَا عَجوز مضْمَضَتْ لِطهُورِ

فقد زعمت[٢] كما ترى أنها تدير عيناً، وزعم الأوَّلُ أنها قائمة العين[٣]. إلاَّ أنْ تزعُمَ أنها لم تُرِدْ بالإدارة أن مقلتها تزولُ عن موضعها، ولكنّها أرادتْ أنّها جَوّالةٌ في إدراك الأشخاص، البعيدةِ والقريبة، والمتيامنَة والمتياسرَة

وقد يجوزُ أنْ يكونُ إنَّما جَعَلَها سميعةً لدقّة الحسِّ، وكثرة الاكتراث وجودة الشمِّ،لا جَوْدَةِ السَّمْعِ؛ فإنّ الذين زعموا أنّ النّعامة صمَّاء زَعمُوا أنَّها تُدْرِكُ من جهة الشمِّ والعَيْنِ، جميع الأمورِ التي كانت تعرفها من قِبلَ السَّمْعِ لو كانَتْ سَمِيعَة. وقد قال الشاعرُ في صفة الحيّة[٤] : [من البسيط]

تَهْوِي إلى الصَّوْت والظلماءُ عاكِفَةٌ تَعرُّدَ السَّيْلِ لاقَى الحَيْدَ فَاطّلَعَا[٥]

هذا بعد أن قال:

إني وما تَبْتغي منّي كملتمس صيداً وما نالَ منْهُ الرِّيَّ والشِّبَعا
أهْوى إلى بابِ جُحر في مقدّمه مثْلُ العسيبِ تَرى في رَأسه نزَعَا
اللَّوْنُ أربَدُ والأنيابُ شابكةٌ عُصْلٌ تَرى السمَّ يجري بينْها قطَعَا[٦]
أصم ما شمَّ منْ خَضراءَ أيبَسها أو شمّ من حَجَر أوْهاهُ فانْصدعَا

فقد جَعَلَ لها أنياباً عُصْلاً، ووصفها بغاية الخُبْثِ، وزعم أنها تسمع. فهؤلاء ثلاثة شعراء.

١٠٩٢ - [الثقة بالعلماء]

فإن قلت: إنّ المولَّدَ لا يؤمن عليه الخطأ، إذْ كان دخيلاً في ذلك الأمر، وليس كالأعرابيِّ الذي إنما يحكي الموجودَ الظاهر له، الذي عليه نَشأ، وبِمَعْرِفَتِه غُذي.

---

(١) التنوفة: الأرض المتباعدة الأطراف. (القاموس: تنف). كفة النخل: إطاره. (القاموس: كفف).
(٢) يقصد الشاعرة قائلة الأبيات.
(٣) أي الراعي النميري في البيت الذي تقدم قبل قليل.
(٤) الأبيات للزماني في يحيى بن أبي حفصة وهي في الوحشيات ٨٦، وسيذكرها الجاحظ مرة أخرى. انظر الفقرة (١١٥٠). ص: ٣٩٨.
(٥) عرد فلان: ترك الطريق. (القاموس: عرد). الحيد: ما شخص من الجبل. (القاموس: حيد).
(٦) عصل: جمع أعصل، وهو الأعوج. (القاموس: عصل).

فالعلماء الذين اتَّسَعوا في علم العرب، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبرٍ كانوا الثِّقات فيما بيننا وبينهم، هم الذين نقلُوا إلينا. وسواءٌ علينا جعلوهُ كلاماً وحديثاً منثوراً، أو جعلوه رجزاً وقصيداً موزوناً.

وَمَتَى أخبرني بعضُ هؤلاء بخبر لم أسْتَظْهِرْ عليه بمسألة الأعراب. ولكنهُ إنْ تَكلم وتحدَّث، فأنكرتُ في كلامه بعضَ الإعراب، لم أجْعَلْ ذلك قُدوَةً حتى أُوقفه عليه، لأنّه ممَّنْ لا يُؤْمنُ عَلَيْهِ اللَّحْنُ الخفيّ قبلَ التفكر. فهذا وما أشبههُ حكَمهُ خلافُ الأوَّل.

١٠٩٣ - [ضروب من الرُّقْية]

والرُّقْيَةُ تكونُ على ضروب: فمنها الذي يدّعيه الحَوَّاءُ والرَّقَّاء؛ وذلك يُشْبِه بالذي يدَّعي ناسٌ من العزائم على الشياطين والجن، وذلك أنهم يزعمون أن في تلك الرّقْيَة عزيمةً لا يمتنع منها الشيطانُ، فكيفَ العامر[1] ؟! وأن العامرَ إذا سُئِل بها أجابَ، فيكونُ هو الذي يتولى إخراجَ الحيات من الصّخْر. فإنْ كان الأمرُ على ما قالوا فما ينبغي أن يكون بين خروج الأفاعي الصمّ وغيرها فرقٌ، إذا كانت العزائم والرّقى والنَّفْثُ ليس شيئاً يعمل في نفس الحيّة، وإنَّما هو شيءٌ يَعْملُ في الذي يُخْرِجُ الحَيَّة. وإذا كان ذلك كذلك فالسَّميعُ والأصمُّ فيه سواءٌ.

وكذلك يقولون في التَّحبيب والتَّبغيض، وفي النُّشرة وحلِّ العُقْدة، وفي التَّعقيد والتحليل.

ويزعمون أنَّ الجن لا تجيبُ صاحب العزيمة حتى يتَوَحَّشَ ويأتي الخرابات والبراريَّ، ولا يأنسَ بالناس، ويَتَشَبَّه بالجنِّ، ويغسل بالماء القراح[2]، ويتبخَّر باللِّبانَ الذَّكر، ويراعي المشتري فإذا دقَّ ولطُفَ، وتوحّش وعزم، أجابتْهُ الجنُّ، وذلك بعد أن يكونَ بدنهُ يصلُح هيكلاً لها، وحتَّى يَلَذَّ دُخولَه واديَ منازلها، وألاَّ يكرهَ ملابسته والكَوْنَ فيه. فإنْ هو ألَحَّ عليها بالعزائم، ولم يأخُذ لذلك أهْبته خبَلتْه، وربَّما قتلتْه، لأنها تَظنُّ أنّهُ متى توحَّش لها، واحتمى، وتَنَظف فقد فرغ. وهي لا تُجيب بذلك فَقَطْ، حتى يكونَ المعزِّمُ مشاكلاً لها في الطِّباع.

فيزعمون أنّ الحيَّاتِ إنما تُخْرَجُ إخراجًا، وأنَّ الذي يخرجُها هو الذي يخرِج سمومها مِنْ أجساد النّاس، إذا عَزَم عليها.

---

(١) يزعمون أن العامر هم من الجن الذين يسكنون بيوت الناس.

(٢) القراح: الخالص. (القاموس: قرح).

والرُّقْيةَ الأخرى بما يُعْرفُ من التعويذ. قال أبو عُبَيْدَةَ: سَمِعْتُ أَعْرَابيًّا يقول: قد جاءكم أحدُكُمْ يسترْقيكُمْ فارْقوه. قال: فَعَوِّذُوهُ ببعض العوائذ.

والوجه الآخر مشتقٌ من هذا ومحمولٌ عَلَيْه، كالرّجُلِ يقول: ما زال فلانٌ يرقي فُلاناً حتّى لانَ وأجابَ.

١٠٩٤ - [قول الشعراء والمتكلمين في رقى الحيات]

وقد قالت الشعراء في الجاهليَّة والإسلامِ في رُقى الحيات، وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به، وسنخبر بأقاويلِ المتكلمين في ذلك، وبالله التوفيق.

ومنهم مَنْ زعم أنَّ إخراجَ الحيّة من جُحْرها إلى الرَّاقي، إنما كان للعزيمة والإقْسام عليها، ولأنَّها إذا فهمتْ ذلك أجابَتْ ولم تمتنع.

وكان أميَّةُ بنُ أبي الصَّلت، لا يعرف قولهم في أنَّ العُمَّارَ هم الذين يُجيبون العزائم بإخراج الحيّات من بيُوتها، وفي ذلك يقول[1]: [من البسيط]

والحيّة الذّكر الرَّقشاءُ أخْرَجَها ... مِنْ جُحْرِها أَمَنَاتُ اللّهِ والقَسَمُ
إذا دعا باسمها الإنسانُ أوْ سمعَتْ ... ذات الإله بدا في مشيها رَزَمُ[2]
مِنْ خَلْفها حُمَّةٌ لولا الذي سَمِعَتْ ... قد كان ثبتها في جُحرها الحمَمُ[3]
نَابٌ حديدٌ وكفٌّ غيرُ وَادعة ... والخلق مختلفٌ في القَوْلِ والشِّيم[4]
إذا دُعينَ بأسماءٍ أَجَبْنَ لها ... لنافثٍ يعتديه اللّهُ والكَلمُ[5]
لولا مخافةُ رَبٍّ كان عذّبها ... عرجاءَ تظْلَعُ، في أنْيابها عَسَمُ[6]
وقد بَلَتْهُ فذاقتْ بعضَ مَصْدَقه ... فليسَ في سَمْعها، من رَهْبةٍ صَمَمُ[7]
فكيف يأمنها أمْ كيف تألفهُ ... وليس بينهما قُربَى، ولاَ رَحِمُ!

---

(١) ديوان أمية ٤٦١ - ٤٦٢.

(٢) في ديوانه: (الرزم: عدم القدرة على النهوض هزالاً أو إعياءً، وهذا إشارة إلى زحف الحية في سيرها).

(٣) في ديوانه: (الحمة، بكسر الحاء: الموت. والجمع: حمم).

(٤) في ديوانه: (الحديد: القاطع. كف: أراد كف الحية على التشبيه، وأراد به ما لديها من استعداد للشر دائم).

(٥) في ديوانه: (النافث: أراد به الحاوي).

(٦) في ديوانه: (تظلع: تعرج، أي تزحف وتتلوى، العشم: اليبس).

(٧) في ديوانه: (بلاه: اختبره. المصدق: الجدُّ والصلابة).

يقول: لو أنَّها أخرجت حين اسْتُحْلِفَتْ بالله لما خرجت، إذ ليس بينهما قُربى ولا رَحِم. ثمَّ ذكر الحُمَّةَ والنّاب.

وقال آخرون: إنما الحيَّة مثل الضبّ والضّبع، إذا سمع بالله والهدْم والصَّوت خرج ينظر. والحوَّاء[1] إذا دنا من الجُحْر رفع صوتَه وصفَّقَ بيديه، وأكثر من ذلك، حتى يخرج الحيّة، كما يُخرجُ الضب والضَّبع.

وقال كثيِّر[2]: [من الطويل]

وسَوداءَ مِطراق إليَّ مِن الصَّفا ... أنيٍّ إذا الحاوي دنا فَصَدا لها[3]

والتَّصدية. التَّصفيق، قال اللّه تعالى: ﴿وما كان صلاتُهُمْ عنْدَ البَيْتِ إلاَّ مُكاءً وتصْدِيةً﴾[4] الآية. فالمُكاء: صوتٌ بين النَّفخ والصَّفير، والتَّصْدِيَةُ: تصفيق اليد باليد.

فكان الحوّاء يحتالُ بذلك للحيَّة، ويُوهم مَنْ حضَرَ أنَّهُ بالرُّقية أخرجها، وهو في ذلك يتكلم ويعرِّض، إلاّ أنَّ ذلك صوتٌ رفيع. وهو لو رفَعَ صوته ببيتِ شعرٍ أو بخُرافة، لكان ذلك والذي يظهر من العزيمة عند الحيَّة سَواءً. وإنَّما ينْكر الصَّوتَ، كما ينكره الضّبُّ وغيرُ ذلك من الوحش.

ثم قال[5]: [من الطويل]

كفَفْتُ يَداً عنها وأرضَيْتُ سَمْعها ... من القَوْل حتَّى صدَّقَتْ ما وعى لها
وأشْعرتها نفْثاً بليغاً، فلو ترى ... وقد جعلت أن ترعني النَّفْثَ بالها
تسلَّلْتُها من حيث أدركها الرّقى ... إلى الكفّ لما سالمت، وانسلالها

فقال كما ترى:

* كففت يداً عنها وأرضيتُ سمْعَها * (البيت)

ثم قال:

* وأشعرتها نَفْثاً بليغاً فلو ترى *

---

(١) الحواء: الذي يجمع الأفاعي. (القاموس: حوي).
(٢) ديوان كثير ٨٥، والمعاني الكبير ٦٧٠.
(٣) الصفا: جمع صفاة، وهي الصخرة الملساء.
(٤) ٣٥ /الأنفال: ٨.
(٥) ديوان كثير ٨٦.

وقال الأعشى[1]: [من الطويل]

أبا مِسْمَعٍ إني امرؤ من قبيلةٍ بَنَى لِيَ عِزًّا مَوْتُها وحياتُها

فلا تُلْمِسِ الأفعى يديك تريدها إذا ما سعت يوماً إليها سَفاتُها

وقال آخر: [من الرجز]

يَدْعُو بِهِ الحيَّةَ في أقطارِهِ فإنْ أبى شَمَّ سَفا وِجَارِهِ

والسَّفا: التراب اليابس بين التربين. يقال سَفاً وسفاة.

١٠٩٥ - [من حيل الحواء والراقي]

والحوَّاء وَ الرَّاقي يُرِي النَّاس أنَّهُ إذا رأى جحراً لم يخْفَ عليه: أجحر حيَّةٍ هو أمْ جُحْر شيء غيره، فإن كان جُحر حيّةٍ لم يَخْفَ عليه أهي فيه أم لا، ثمَّ إذا رَقى وعزَّم فامتنعت من الخُرُوجِ، وخاف أنْ تكون أفْعى صَمَّاءَ لا تسمَعُ، وإذا أَرَاغَها[2] ليأخُذَها فأخطأ، لم يأمن من أن تنقره نَقْرَةً؛ لا يُفْلحُ بعدها أبداً، فهو عند ذلك يستبري بأن يشمَّ من تراب الجُحر، فلا يخفى عَلَيْهِ: أهي أفْعى أم حَيّةٌ من سائر الحيات. فلذلك قال:

* يدعو به الحَية في أقطاره * (البيت)

والوجار: الجُحر.

١٠٩٦ - [ريح الأفعى]

وزعم لي بَعْضُ الحوَّائين أنَّ للحيَّات نَتْناً وسهَكاً[3]، وأن ريحَ الأفعَى معروفَةٌ. وليس شيءٌ أغلقَ، ولا أَعْنَقَ[4]، ولا أسرعَ أخذاً لرائحة من طينٍ أو تراب، وَأَنَّهُ إذا شمّ من طينة الجُحْر لم يخْفَ عليه. وقال: اعتبرْ ذلك بهذا الطين السداني والرَّاهطي إذا أُلقي في الزَّعفران والكافور، أو غيره ذلك من الطِّيب، فإنّه متى وُضع إلى جنب رَوْثَةٍ أو عَذِرَة، قَبِلَ ذلك الجسم.

---

(١) البيتان للأعشى في ديوانه ١٣٥، ولخالد بن زهير الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٢٢١، ومعجم الشعراء ٢٧٦، ولأبي ذؤيب الهذلي في المخصص ١٥/١٢٥، وبلا نسبة في اللسان (سفا)، والجمهرة ٨٥٠، ١٠٧٣، والاشتقاق ٧٣، والمخصص ١٠/٦٣، والتهذيب ١٣/٩٤.

(٢) أراغ: طلب. (القاموس: طلب).

(٣) السَّهَك: ريح كريهة ممن عرق. (القاموس: سهك).

(٤) أعنق: أي أسرع.

والرَّقاء يوهم النَّاسَ إذا دخَل دُورهم لاستخراج الحيَّاتِ أنَّهُ يعرف أماكنها برائحتها، فلذلك يأخُذُ قصبةً ويَشْعَب رأسها، ثم يطْعُن بها في سقف البيت والزَّوايا، ثمّ يشمها ويقول مرة: فيها حيّات؛ ويقول مَرَّةً: بلى فيها حيّات، على قدْر الطمع في القوم، وفي عقولهم.

١٠٩٧ - [تأثير الأصوات في المخلوقات]

وَأَمْرُ الصَّوتِ عجيبٌ، وتصرُّفه في الوجوه عجب. فمن ذلك أنّ منه ما يقتل، كصوت الصاعقة. ومنها ما يسرُّ النفوس حتى يُفْرِط عليها السُّرُورُ؛ فتقلَقَ حتى ترقُص، وحَتَّى رُبما رمى الرَّجُل بنفْسه مِن حالق[1]. وذلك مثلُ هذه الأغاني المطرِبة. ومن ذلك ما يُكْمد. ومن ذلك ما يزيل العقْل حتى يُغْشَى على صاحبه، كنحو هذه الأصواتِ الشجية، والقراءَات الملحَّنة. وليس يعتريهم ذلك مِنْ قِبَلِ المعاني؛ لأنهم في كثيرٍ من ذلك لا يفهمون معاني كَلاَمهم. وقد بَكَى ماسرجويه من قراءَة أبي الخوخ، فقيل له: كيفَ بكيتَ من كتاب اللّه ولا تصدِّقُ به؟ قال: إنما أبكاني الشجا!

وبالأصوات ينوِّمون الصِّبيانَ والأطفالَ.

والدَّوابُّ تَصُرُّ[2] آذانها إذا غنَّى المُكارِي. والإبل تصرُّ آذانَها إذا حدا في آثارها الحادي، وتزداد نشاطاً، وتزيد في مشيها. ويَجمع بها الصَّيَّادُونَ السَّمك في حظائرهم التي يتَّخذونها له. وذلك أنّهم يضربون بعصيٍّ معهم، وَيُعَطْعِطُونَ[3]، فتُقبل أجناسُ السَّمك شاخصةَ الأبصار مصغيةً إلى تلك الأصوات، حَتَّى تدخُلَ في الحظيرة ويُضْرَب بالطِّسَاس للطَّير، وتُصاد بها. ويضرَبُ بالطِّساس للأُسْدِ وقد أقبلَتْ، فتروعُها تلك الأصوات.

وقال صاحب المنطق: الأيائلُ تُصَادُ بالصَّفيرِ والغناء. وهي لا تنامُ مادامت تسمَعُ ذلك من حاذق الصوت. فيشغلونها بذلك ويأتُون من خَلفها فإنْ رأوْها مسترخيةَ الآذانِ وثَبُوا علَيها، وإن كانت قائمة الأذنين فليس إليها سَبيل.

والصَّفير تُسْقى به الدوابُّ الماءَ، وتنفَّرُ به الطير عن البذور.

---

(١) الحالق: الجبل المرتفع. (القاموس: حلق).

(٢) صرت الدابة أذنها: نصبتها للاستماع. (القاموس: صرر).

(٣) العطعطة: تتابع الأصوات واختلاطها في الحرب وغيرها، وحكاية صوت المجان (القاموس: عطط).

وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الرَّعدَ الشَّديدَ إذا وافق سِبَاحَةَ السَّمك في أعلى الماء رَمَتْ ببيضها قبلَ انتهاء الأجَل. وربّما تمّ الأجل فتَسمع الرَّعدَ الشَّدِيدَ، فيتعطّل عليها أيّاماً بعدَ الوقت.

وقال أبو الوجيه العُكْلِيُّ: أحِبُّ السَّحابةَ الخَرْسَاءَ وَلاَ أُحبها! فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنها لا تخرَسُ حتى تمتلئَ ماءً وتصبُّ صَبّاً كثيراً، ويكونَ غيثاً طَبَقاً[١]. وفي ذلك الحَيَا[٢]. إلاّ أنّ الكماةَ لا تكون على قدْرِ الغيث. ذهب إلى أنّ للرَّعدِ في الكمأة عملاً.

وقال جعفر بن سعيد: سأل كسرى عن الكَمْأة فقيل له: لا تكونُ بالمطر دونَ الرَّعد، ولا بالرّعْد دونَ المطر. قال: فقال كسرى: رشُّوا بالماء واضربوا بالطبول! وكان من جعفر على التمليح. وقد علم جعفرٌ أنّ كسرَى لا يجهل هذا المقدار.

فالحيَّة واحدةٌ من جميع أجناس الحيوان الذي للصَّوتِ في طبعه عمل. فإذا دنا الحوَّاء وصفق بيديه، وتكلم رافعاً صوتَه حتى يزَيِّد، خرج إليه كلُّ شيء كان في الجُحْر، فلا يشكُّ من لا علم له أنَّ من لا علم له أنَّ الحيّةَ خرجت من جهة الطاعة وخوْف المعصيَة، وأنّ العامرَ[٣] أخرجها تعظيماً للعزيمة، ولأنّ المعتزم مُطاعٌ في العُمَّار. والعامّة أسرعُ شيءٍ إلى التَّصديق.

١٠٩٨ - [شعر في الروح وهيكلها]

وفي الرُّوح، وفي أنّ البدنَ هيكلٌ لها، يقول سليمانُ الأعمى؛ وكان أخا مسلم ابن الوليد الأنصاريِّ. وكانوا لا يشكون بأنَّ سليمانَ هذا الأعمى، كان من مُسْتَجِيبي بشارٍ الأعمَى، وأنَّه كان يختلف إليه وهو غلاَم فقبل عنه ذلك الدِّين. وهو الذي يقول[٤]: [من المديد]

إنّ في ذَا الجِسمِ مُعْتَبَراً — لِطَلُوبِ الْعِلمِ مُقْتَبِسهْ
هَيْكَلٌ للرُّوح ينطقه — عِرْقُهُ والصّوْتُ من نَفَسِهْ

---

(١) الطبق: المطر العامُّ. (القاموس: طبق).

(٢) الحيا: الخصب. (القاموس: حيي).

(٣) العامر: زعموا أنه من الجن الذين يسكنون بيوت الناس. (القاموس: عمر).

(٤) الأبيات في نكت الهميان ١٦٠، والبيتان الأخيران في البيان ٣ / ٢٠٢، وعيون الأخبار ٣ / ٦١، والكامل ٢ / ٣٧٠ (طبعة المعارف).

لا تَعظْ إلاّ اللَّبيبَ فما يُعْدَلُ الضِّلعُ عَلَى قَوسِهْ
رُبَّ مغْرُوسٍ يُعَاشُ به فَقَدَتْهُ كَفُّ مُغْتَرِسِهْ
وكذَاكَ الدَّهْرُ مأتَمُهُ أقربُ الأشياءِ مِنْ عُرُسِهْ

١٠٩٩ - [قول في شعر لأمية بن أبي الصلت]:

وكانت العربُ تقول: كان ذلك إذ كان كلُّ شيء ينطق، وكان ذلك والحجارةُ رَطبةٌ.

قال أُمَيّةُ[١]: [من الوافر]

وإذْ هم لا لَبُوسَ لهم تَقِيهم وإذْ صمُّ السِّلامِ لهم رِطابُ[٢]
بآية قامَ ينطقُ كلُّ شيءٍ وخانَ أمانَةَ الدِّيك الغُرابُ
وأُرْسِلَت الحمامَةُ بَعْدَ سَبْعٍ تدلُّ على المهالك لا تَهَابُ
تَلَمّسُ هَلْ ترى في الأرض عيناً وعاينة بها الماء العبابُ
فجاءَتْ بَعْدَ مَا رَكَضَتْ بقطفٍ عليها الثَّأْطُ والطِّينُ الكُبابُ[٣]
فَلما فرَّسوا الآيات صَاغُوا لها طَوْقاً كما عُقِدَ السِّخابُ[٤]
إذا ماتَتْ تُوَرِّثُه بنيها وإنْ تُقْتَلْ فليسَ له انْسِلابُ

فذكر رُطوبة الحجارة، وأنّ كلّ شيء قد كان ينطق. ثمّ خَبّرَ عن منادمة الدِّيك الغرابَ، واشتراط الحمامة على نوح، وغيرِ ذلك ممّا يدلُّ على ما قُلْنا. ثم ذكرَ الحيَّةَ، وشأنَ إبليسَ وشأنَها، فقال: [من الوافر]

كذي الأفْعَى تربَّبَها لَدَيْه وذي الجنِّيِّ أرسَلَهَا تُسَابُ[٥]
فلا رَبُّ البريّة يأمَنَنْهَا ولا الجنيُّ أَصبح يُسْتَتَابُ

---

(١) ديوان أمية ٣٣٧ - ٣٤٠. وشرح الأبيات التالية من ديوانه.

(٢) «اللبوس: الثياب. السلام: الحجارة، الواحدة سلمة، وكانت العرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة في قديم الزمان».

(٣) «القطف: ما قطف من ثمار وسواها. والثأط: الطين الأسود المنتن. الكباب: الطين اللازب. الكثاب: المجتمع».

(٤) «فرسوا الآيات: تثبتوا منها، والآيات مفردها آية، وهي العلامة، السخاب: القلادة، وأراد به ما يرى في عنق الحمامة شبه الطوق».

(٥) «ذو الأفعى: لعله يريد به آدم عليه السلام. تربيها: رباها، ذو الجني: إبليس. سابت الحية وانسابت: جرت».

فإن قُلْتَ: إنَّ أمية كانَ أعرابيّاً، وكان بَدَوِيّاً، وهذا من خرافات أَعْرَاب الجاهليَّة، وزعمت أَنّ أُمَيّةَ لم يأخذ ذلك عن أهْل الكتاب فإني سأنْشدُك لعديّ بن زيد، وكان نصرانيّاً ديّاناً، وتَرْجُمَاناً، وصاحبَ كتب، وكان من دُهاة أهل ذلك الدَّهر.

١١٠٠ - [آدم عليه السلام والحية]

قال عديٌّ بن زيد، يذكرُ شأن آدم ومعصيته، وكيف أغواه، وكيف دخل في الحية، وأنَّ الحَية كانت في صورة جَمَلٍ فمسخها اللّهُ عقوبة لها، حين طاوعت عَدُوَّه على وليِّه. فقال[1]: [من البسيط]

قضَى لستَّة أيَّامٍ خَليقَتَهُ ... وكان آخرَها أَنْ صَوّرَ الرَّجُلا
دعاهُ آدمَ صَوْتاً فاستَجَاب له ... بِنَفْخَة الروحِ في الجسم الذي جَبَلاَ
ثُمّتَ أَوْرَثَهُ الفِرْدَوْسَ يَعْمُرُهَا ... وزوجه صنعةً مِنْ ضِلْعه جعَلاَ
لم يَنْهَهُ رَبُّهُ عن غير واحدةٍ ... من شَجَرٍ طَيِّب: أَنْ شَمَّ أَوْ أَكَلاَ
فكانت الحَيَّةُ الرَّقْشَاء إذْ خُلقت ... كما ترى نَاقَة في الخَلْق أَوْ جَمَلا
فعَمَدَا للتي عن أكلهَا نُهيا ... بأمْرِ حَوَّاءَ لم تأخُذْ لَهُ الدّغَلاَ
كلاهما خاط إذ بُزّا لَبُوسَهما ... مِنْ ورَق التِّينِ ثوباً لم يكن غُزلا
فلاطَهَا اللّه إذْ أَغْوَتْ خَليفَتَهُ ... طُولَ اللّيالي ولم يجعَل لها أجلاَ[2]
تمشي على بطنها في الدّهر ما عَمَرَتْ ... والتّرب تأكُلُهُ حزناً وإن سهُلاَ
فأُتعبا أبوانا في حياتهما ... وأوْجَدا الجُوعَ والأوصابَ والعلَلاَ
وأوتيا الملك والإنجيلَ نقرؤه ... نَشْفي بحكمته أحْلاَمَنَا علَلاَ
مِنْ غيرِ ما حاجةٍ إلاّ لِيَجْعَلَنَا ... فوقَ البريَّةِ أرْبَاباً كما فَعَلاَ

١١٠١ - [عقاب حواء وآدم والحية]

فرَوَوْا أنَّ كعبَ الأحبارِ قال: مكتوبٌ في التوارة أنَّ حَوَّاءَ عنْدَ ذلك عُوقبتْ بعشر خصالٍ، وأنّ آدم لمَّا أطاعَ حَوَّاء وعصى رَبَّه عُوقب بعشر خصالَ، وأنَّ الحيَّة التي دخل فيها إبليس عُوقبت أيضاً بعشْر خِصال.

---

(١) ديوان عدي بن زيد ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) ينسب هذا البيت أيضاً لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ٤٦٠، واللسان (ليط). وفي ديوانه: «لاطها: لعنها، أو ألصقها بالتراب. لم يجعل لها أجلاً: أراد أنها لا تموت بأجلها حتى تقتل قتلاً».

وأوّلُ خِصال حَوّاء التي عُوقبت بها وجَع الافتضاض، ثم الطلق، ثمَّ النَّزْع، ثمّ بقناع الرَّأس، وما يصيبُ الوحَمى والنفساء من المكروه، والقَصْرُ في البيوت، والحيض، وأنَّ الرِّجال هم القوَّامون عليهنَّ، أن تكونَ عِنْدَ الجماع هي الأسفل.

وأمّا خصال آدم ﷺ : فالذي انتقص من طوله، وبما جعله اللّه يخافُ من الهوامِّ والسِّباع، ونكَد العَيش، وبتوقع الموت، وبسكنى الأرض، وبالعُرْي من ثياب الجنَّة، وبأوجاع أهل الدنيا، وبمقاساة التحفظ من إبليس، وبالمحاسبة بالطّرف، وبما شاع عليه من اسم العصاة.

وأمَّا الحيَّة فإنها عوقبت بنقص جَناحها، وقطعْ أرجلها، والمشي على بطنها، وبإعراء جلدها - حتى يقال: «أعْرَى مِنْ حَيَّة» وبشقٍّ لسانها - لذلك كلما خافَتْ من القتل أخرجَتْ لسانها لتريَهم العُقوبة - وبما ألقي عليها من عَداوة النَّاس، وبمخافة الناس، وبجعله لها أَوَّلَ ملعونٍ من اللّحم والدَّم، وبالذي يُنسب إليها من الكذب والظلم(١).

فأمّا الظلم فقولهم: «أظلم من حَيّة»(٢) وأما الكذب فإنها تنطوي في الرَّمل على الطَّريق وتُدْخلُ بَعض جسدها في الرَّمل، فتظهر كأنها طَبقُ خيزُران. ومنها حَيَّاتٌ بيضٌ قِصَارٌ تجمعُ بين أطرافها على طُرُق الناس، وتستديرُ كأنها طَوْقٌ أوْ خلخالٌ، أو سوارُ ذهب أو فضة - ولما تلقي على نفسها من السُّبات، ولما تُظهر من الهَرَب من الناس. وكلّ ذلك إنّما تغرُّهُمْ وتصطادُهُمْ بتلك الحيلة، فذلك هو كذِبُها.

١١٠٢ - [عقاب الأرض]

قال: وعُوقبت الأرضُ حين شَرِبَتْ دم ابن آدم بعشر خصال: أنَبتَ فيها الشّوك، وصيَّر فيها الفيافيَ، وخرق فيها البحار، وملَّح أكثرَ مائها، وخَلقَ فيها الهوامَّ والسِّباع، وجَعَلَها قَراراً لإبْليسَ والعاصين، وجعل جهنَّم فيها، وجعلَها لا تُرْبي ثمرتها. إلاَّ في الحرِّ، وهي تعذَّب بهم إلَى يوم القيامة، وجعلها تُوطأ بالأخْفافِ، والحوافِر، والأظلافِ، والأقدام، وجَعَلها مالحةَ الطَّعم.

ثم لم تشرب بعد دمِ ابنِ آدمَ دَمَ أحدٍ من ولده، ولا من غير ولده. قَالَ: وَلِذلِكَ

---

(١) انظر الفقرة ١٠٧٦.

(٢) مجمع الأمثال ١/٤٤٥، وجمهرة الأمثال ٢/٢٩، والمستقصى ١/٢٣٢، والدرة الفاخرة ١/٢٩٣، وفصل المقال ٤٩٢.

قال عمر بنُ الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لأبي مريم الحنفيِّ: «لأنَا أَشَدُّ لك بُغْضاً مِنَ الأَرْضِ للدم»(١).

وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الأرض لا تشرب الدَّم، إلاَّ يسيراً من دماء الإبل خاصَّة.

١١٠٣ - [اختبار العسل]

وإذا أرادُوا أن يمتحنُوا جَوْدَة العسل من رداءته، قَطَرُوا على الأرض منه قَطْرَةً. فإذا استدارت كأنها قطعَة زِئبقٍ، ولم تأْخُذْ مِنَ الأرْضِ ولم تُعْطِهَا فهو الماذيُّ الخالصُ الذَّهبيُّ. فإن كان فيه غُشوشةٌ نفشت القَطْرة على قدر ما فيها، وأخَذَتْ من الأرض وأعطتها. وإن لم يقدِرُوا على اللّحم الغَريض دَفَنُوهُ وغرّقوه في العسل، فإنهم متى رجعوا فغسلوه عنه وجَدُوهُ غضّاً طريّاً، لأنَّهُ ذهبيُّ الطِّباع، ليس بينه وبين سائِر الأجرام شيء. فهو لا يعطيه شيئاً ولا يأخذ منه. وكذلك الذَّهَبُ إذا كان مدفوناً.

١١٠٤ - [زمن الفطحل]

وهذه الأحاديثُ، وهذه الأشعارُ، تدلُّ على أنَّهُمْ قد كانوا يقولون: إنَّ الصُّخورَ كانت رَطْبَةً ليِّنة، وإنَّ كلَّ شيءٍ قد كانَ يعرِف وينطق وإنّ الأشْجَارَ والنَّخل لم يكن عليها شوكٌ. وقد قال العجَّاج، أو رُؤبة(٢): [من الرجز]

أَوْ عُمْرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطَحْلِ وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِينِ الوَحْلِ

١١٠٥ - [مرويات كعب الأحبار]

وأنا أظنُّ أنَّ كثيراً مِمَّا يُحكى عن كعبٍ أنَّهُ قال: «مكتوبٌ في التوراة» أنَّهُ إنَّمَا قال: «نجدُ في الكتب»، وهو إنَّما يعني كتب الأنبياء، والذي يتوارثونه من كتب سليمان؛ وما في كتبهم من مثل كتب إشَعْياء وغيره. والذين يروون عنه في صفة عُمَرَ بن الخطاب رضي اللّه عنه، وأشباهِ ذلك، فإن كانوا صَدَقوا عليه وكان الشيخ لا يضعُ الأخبارَ فما كان وجهُ كلامه عندنا إلاّ على ما قلتُ لك.

---

(١) انظر عيون الأخبار ٣/١٣، والكامل ١/٣٥٥، (طبعة المعارف)، والبيان ١/٣٧٦، ٢/٨٩، ٣/٦٠.

(٢) الرجز لرؤبة في ديوانه ١٢٨.

١١٠٦ - [نطق الحية]

وفي أنّ الحيّة قد كانت تسمَعُ وتنطق، يقول النّابغَةُ في المثَل الذي ضَرَبَهُ، وهو قوله[١]: [من الطويل]

أليس لنا مولًى يحبُّ سَرَاحَنا ... فيعذرَنا من مُرَّةَ المتناصره

ليَهْنكُمُ أنْ قَدْ نَفَيْتُمْ بيُوتَنا ... مَحَلَّ عُبَيْدَانَ المحلِّئ باقره[٢]

وإني للاقٍ من ذَوي الضِّغْنِ نَكْبَةً ... بلا عثْرَةٍ والنفس لا بدّ عاثرَه

كما لَقيَتْ ذاتُ الصّفَا منْ حَليفها ... وما انفكّت الأمْثَالُ في الناسِ سَائرَه

فقالت له: أدْعُوك للعَقْلِ وافراً ... ولا تَغْشَيَنِّي منك للظّلم بادرَهْ[٣]

فواثَقَهَا باللّه حتَّى تَرَاضَيَا ... فكَانتْ تديه الجزْعِ خَفْياً وظَاهره

فما توَفَّى العَقْلَ إلاّ أقَلَّه ... وجارَتْ به نَفْسٌ عن الخيرِ جائره

تفكّرَ أنّى يَجْمَعُ اللّهُ شَمْلَهُ ... فيصبحَ ذا مالٍ ويقْتُلَ واتِرَه

فَظَلَّ على فأسٍ يُحدُّ غُرابها ... ليقتُلَها، والنَّفْسُ للقَتْلِ حَاذرَهْ[٤]

فلما وقاها اللّهُ ضربَة فأسه ... وللَّه عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ ساهره

فقَالَ: تعالَيْ نجعل اللّهَ بينَنا ... على العَقْلِ حَتَّى تُنْجزي لِيَ آخرَه

فقالت: يمينُ اللّه، أفعَلُ؛ إنَّني ... رأيتُك خَتَّاراً يَمينُك فاجره

أبَى لَكَ قبرٌ لا يزال مُواجهاً ... وضربةُ فأسٍ فوق رَأسِيَ فاقرَه[٥]

فذهَب النّابغَةُ في الحيَّاتِ مذهَبَ أميّة بن أبي الصّلْتِ، وعديّ بن زيدٍ، وغيرهما من الشعراء.

١١٠٧ - [حال الصخور والأشجار في ماضي الزمان]

وأنشدني عبدُ الرحمن بن كَيسان: [من الطويل]

فكانَ رَطِيباً يومَ ذلك صخْرُها ... وكان خَضِيداً طَلْحُها وَسَيالُها[٦]

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٢٠٢ - ٢٠٣. وشرح الأبيات التالية منه.

(٢) في ديوانه «المحلئ: الذي يمنع الإبل أن ترد الماء، والباقر: جماعة البقر».

(٣) «العقل: عزم الدية».

(٤) «يحد غرابها: يعني طرفها وحدّها».

(٥) «فاقرة: مؤثرة».

(٦) خضد الشوك: قطعه. (القاموس: خضد).

فزعم كما ترى أنّ الصُّخورَ كانت لَيِّنَةً، وأنَّ الأشجارَ: الطلْحَ والسَّيالَ كانت خَضِيداً لا شوكَ عليها.

وزعم بعضُ المفسِّرين وأصحابُ الأخبار، أنّ الشّوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعَمتِ النّصارَى فيه أنّ المسيح ابنُ اللّه.

وكان مقاتلٌ يقولُ - حَدّثَنَا بذلك عنه أبو عقيل السّواق، وكما أحدَ رواته والحاملين عنه - إنَّ الصُّخورَ كانَتْ لَيِّنَةً، وإنّ قدمَ إبراهيم عليه السلام أثرت في تلك الصخرة، كتأثير أقدامِ الناس في ذلك الزّمان. إلاّ أنَّ اللّه تعالى توفّى تلك الآثارَ، وعفَّى عليها، ومسَحَها ومحاها، وترَكَ أثرَ مقامِ إبراهيمَ ﷺ. والحجَّةُ إنما هي في إفراده بذلك ومَحْوِ ما سواهُ من آثار أقدام الناس. ليس أنّ إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم كان وطئ على صخرة خلقاءَ يابسةٍ فأثَّرَ فيها.

١١٠٨ - [فضل المتكلمين والمعتزلة]

وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة. ونعوذُ باللّه من الهَذْر والتكلف وانتحال ما لا أقوم به. أقول: إنّهُ لولا مكانَ المتكلمين لهلكت العوامّ من جميع الأمم، ولولا مكانُ المعتزلة لهلكت العَوَامُّ من جميع النِّحل. فإن لم أقل، ولولا أصحابُ إبراهيمَ وإبراهيمُ لهلكت العوامُّ من المعتزلة، فإني أقول: إنهُ قد أنهج لَهُمْ سُبُلاً، وفَتقَ لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً ظهرتْ فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة.

١١٠٩ - [ما يحتاج إليه الناس]

وأنا أزعُمُ أن الناس يحتاجون بَدِيّاً إلى طبيعةٍ ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف. وأوَّل ما ينبغي أنْ يبتدئ به صاحبُ الإنصاف أمرَه ألاّ يعطَى نفسَه فوقَ حقها، وألاّ يضعها دونَ مكانها، وأن يتحفظَ من شيئين؛ فإن نجاتَه لا تتمّ إلاّ بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تُهمة السَّابِقِ إلى القلب - واللّه الموفق.

١١١٠ - [معاناة الجاحظ في تأليف هذا الكتاب]

وما أكثرَ ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطنابي في القول، بيتُ ابن هَرْمة، حيث يقول[1]: [من البسيط]

إنَّ الحديثَ تغر القَوْمَ خَلوتُه ... حَتى يلجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

---

(١) ديوان ابن هرمة ١٢٤.

وقولهم في المثل: «كل مُجْرٍ في الخَلاَءِ يُسَرُّ»[1].

وأنَا أعوذُ باللّه أنْ أُغرَّ من نفسي، عند غَيبةِ خَصمي، وتصفحِ العلماءِ لكلامي، فإني أعلم أن فِتنةَ اللسانِ والقلم، أشدّ من فِتنة النساء، والحرص على المال.

وقد صادف هذا الكتابُ مني حالاتٍ تمنعُ من بلوغِ الإرادة فيه، أوّلُ ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طولُ الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتاباً في طوله، وعدَدِ ألْفاظه ومعانيه، ثمَّ كان من كُتب العَرَض والجوهر، والطَّفرة، والتولد، والمداخَلة، والغرائز، والتماس - لكان أسهَلَ وأقصرَ أياماً، وأسْرَعَ فراغاً؛ لأني كنت لا أفزَعُ فيه إلى تلقُّط الأشعار، وتتبُّعِ الأمثال، واستخراج الآيِ من القرآن، والحجَجِ من الرِّواية، مع تفرُّقِ هذه الأمورِ في الكتب، وتباعُدِ ما بين الأشكال. فإنْ وجَدْتَ فيه خللاً من اضطرابِ لفظ، ومن سوءِ تأليف، أو من تقطيعِ نظامٍ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه - فلا تنكرْ، بعدَ أنْ صوَّرتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها كتابي.

ولولا ما أرجو من عَوْنِ اللّه على إتمامه؛ إذْ كنتُ لم ألتمسْ به إلاّ إفهامَك مواقعَ الحُجَج للّه، وتصاريفَ تدبيره، والذي أوْدَعَ أصنافَ خلْقه من أصناف حكمته - لَمَا تعرَّضْتُ لهذا المكروه.

فإنْ نَظَرْتَ في هذا الكتاب فانظُرْ فيه نظَرَ مَنْ يلتمس لصاحبه المخارجَ، ولا يَذْهَبُ مذهبَ التعنُّتِ، ومَذْهَبَ مَنْ إذا رأى خيراً كتَمَهُ، وإذا رأى شرّاً أذاعه.

وليعْلم مَنْ فَعَلَ ذلك أنَّه قد تعرَّض لباب إنٍ أُخذَ بمثله، وتُعَرِّض له في قوله وكتبه، أنْ ليس ذلك إلاّ من سبيل العُقوبة، والأخْذ منه بالظلامة. فلينظرْ فيه على مثال ما أدَّب اللّه به، وعرَّف كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم؛ فإنَّ اللّه عزَّ وجلّ يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[2].

١١١١ - [الحكمة في الأشياء الصغيرة]

فينبغي أنْ تكون إذا مررْتَ بذكر الآية والأعجوبة، في الفراشة والجرجسَة، ألاّ تحقرَ تلك الآية، وتصغِّر تلك الأعجوبة؛ لصغر قدرهما عندك، ولقلَّة معرفتهما عنْدَ

---

(١) مجمع الأمثال ٢/١٣٥، ١٤٥، وفصل المقال ٢٠٣، وأمثال ابن سلام ١٣٦، والمستقصى ٢/٢٢٩.

(٢) ٦٣، ٩٣/ البقرة: ٢.

معرفتك، لصغَر أجسامهما عند جسمك. ولكن كنْ عند الذي يظهَر لك من تلك الحكم، ومن ذلك التَّدبير، كما قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وكَتَبْنَا لَهُ في الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] ثم قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[1] ثمّ قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[2]. وقد قال عامرُ بن عبد قيس: «الكلمة إِذا خرجتْ من القَلْبِ وقعَتْ في القَلب، وإذا خَرجَتْ من اللسانِ لم تجاوز الآذان»[3].

١١١٢ - [حث على التنبُّه عند النظر]

وأنا أعيذ نفسي باللّه أنْ أقول إلاّ لَهُ، وأعيذك باللّه أن تسمع إلاّ لَهُ. وقد قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَهْتَدُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[4] فَاحْذَرْ من أنْ تكونَ منهم، وممَّن يَنْظُرُ إلى حكمة اللّه وهو لا يبصرها، وَممَّنْ يبصرها بفَتْح العَيْنِ واستماعِ الآذان؛ ولكن بالتوقف من القلْب، والتثبت من العَقْل، وبتحفيظه وتمكينه من اليقين، والحجَّة الظاهرة. ولا يراها من يُعرِضُ عنها.

وقد قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[5] وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[6] ولو كانوا صمّاً بُكماً وكانوا هم لا يعقلون، لَمَا عيَّرهم بذلك، كما لم يعيِّر مَنْ خَلقَهُ معتوهاً كيف لم يعقل، وَمَنْ خَلَقَه أعمى كيف لم يبصر، وكما لم يَلُمِ الدوابَّ، ولم يعاقب السِّباع. ولكنَّهُ سمّى البصير المتعامي أعمى، والسميعَ المتصامِمَ أصمَّ، والعاقلَ المتجاهلَ جَاهلاً.

وقد قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللّه كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنّ ذلكَ لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾[7] فَانْظُرْ كما أمرك اللّه، وانظرْ من الجهة التي دلّك منْهَا، وخذْ ذلك بقوَة. قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[8].

---

(١) ١٤٥ / الأعراف: ٧.
(٢) ١٧١ / الأعراف: ٧.
(٣) البيان ١/٨٣ - ٨٤.
(٤) ٥٧ / الكهف: ١٨.
(٥) ٢١ /الأنفال: ٨.
(٦) ٢٢ /الأنفال: ٨.
(٧) ٥٠ /الروم: ٣٠.
(٨) ١٦٣ /البقرة: ٢، ١٧١/ الأعراف: ٧.

١١١٣ - [عود إلى القول في الحيات]

ثمَّ رَجَعَ بنا القولُ إلى ما في الحيَّات من العلم والعبرة، والفائدة والحكمة؛ ولذلك قال أبو ذَرٍّ الغفاريُّ: «لقد تركَنا رَسولُ اللّه، ﷺ، وما يمرُّ بنا طائرٌ إلا وعندَنا من شأنه عِلْمٌ». وهذا القولُ صحيح عن أبي ذر، ولم يخصَّ أبو ذرٍّ خَشاش الطَّير من بُغاثها وأحرارها، ولا ما يدخل في بابة الهمَج. وقد أريْناك من تحقيق قوله طَرَفاً. ولعلك إن جمعْتَ نظرك إلى نظرنا، أنْ تستتمَّ هذا الباب، فقد قال الشاعر[1]: [من الطويل]

خليليَّ ليس الرأيُ في رأي واحدٍ ... أشيرَا علَيَّ اليَوْمَ ما تريَانِ

وقال الأحنَف: «ما مِنْ الناس أحدٌ إلاَّ وقد تعلَّمْتُ منه شيئاً، حتَّى من الأمَة الوَرْهاءِ والعبْدِ الأوْرَه».

والحيَّات مختلفاتُ الجهات جداً، وهي من الأمم التي يكثُر اختلافُ أجناسها في الضَّررِ والسمِّ، وفي الصِّغرِ والعظَم، وفي التعرُّضِ للنَّاس، وفي الهرب منهم. فمنها ما لا يؤذي إلاَّ أنْ يكونَ الناس قد آذوْهَا مرَّة. وأمَّا الأسوَدُ فإنَّهُ يحقدُ ويُطالب، ويكمُن في المتاع حتى يُدْرِك بطائلته. وله زمانٌ يقتلُ فيه كلَّ شيءٍ نهشَه.

وأمَّا الأفعى فليس ذلك عندَها، ولكنها تَظهر في الصَّيفِ مع أوَّل الليل، إذا سكَنَ وهَجُ الرَّمْلِ وظاهرُ الأرض؛ فتأتي قارعَةَ الطَّريق حتى تستديرَ وتَطْحَنَ كأنَّها رَحًى، ثمَّ تُلصقُ بَدَنَهَا بالأرض وتُشْخِصُ رأسها؛ لئلاَّ يدركَها السُّبات، معترضة؛ لئلاَّ يطأها إنسانٌ أو دابَّةٌ فتنهشَه. كأنَّهَا تريد ألاَّ تنهَشَ إلاَّ بأن يُتَعَرَّضَ لها، وهي قدْ تعرَّضت لنَهْشه باعتراضها في الطَّريقِ وتناوُمها عليه! وهي من الحيَّات التي ترصد وتوصف بذلك. قال مَعْقِل بن خُويلد[2]: [من الطويل]

أبا مَعْقِلٍ لا تُوطِئَنْكُمْ بَغَاضَتي ... رُؤوسَ الأفاعِي في مَرَاصِدِهَا الْعُرْمِ

يريد: الأفاعي في مراصدها. وكلُّ منقَّطَة فهي عَرْماء، مِنْ شاةٍ أو غير ذلك.

وقال آخر: [من الرجز]

وكم طَوَتْ من حَنَشٍ وراصِدِ ... للسَّفْرِ في أعلى البيات قاصد

---

(١) البيت لعطارد بن قران الحنظلي في الحماسة البصرية ١/١٠٧، ولطهمان بن عمرو الدارمي في معجم البلدان ٢/٤٦٣ (دمخ)، وبلا نسبة في محاضرات الراغب ١/١٢ (١/٢٩).

(٢) البيت لمعقل الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٨٣، واللسان (رصد، بغض، عرم)، والتاج (بغض، عرم)، وبلا نسبة في التهذيب ٢/٣٩١، والمقاييس ٤/٢٩٣، والمخصص ٧/١٩٤، ٨/١١١.

والأفعى تقتُلُ في كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمان. والشّجاع يواثِبُ ويقوم على ذَنَبه، وربَّما بَلَغَ رأسُه رأسَ الفارس.

وليس يقتلها - إذا تطوّقت على الطَّريق وفي المناهج، أو اعتَرضتْها لتقطعها عابرةً إلى الجانب الآخر - شيءٌ كأقاطيع الشِّياه إذا مرَّت بها، وكذلك الإبلُ الكثيرةُ إذا مرَّت، فإنَّ الحيَّةَ إذا وَقَعَتْ بين أرجلها كان همتُها نفسَها، ولم يكن لها همةٌ إلاّ التَّخَلصَ بنفسها؛ لئلاّ تعجلها بالوطء. فإن نجَتْ من وطء أيديها، لم تنجُ من وطء أرجلها. وإنْ سلمَتْ مِن واحدةٍ لم تسلم من التي تليها، إلى آخرها.

وقال عمر بن لَجَأ، وهو يصف إبله[1]: [من الرجز]

* تَعَرَّضُ الحيَّاتُ في غِشَاشِها *

وقال ذو الأهدام: [من الرجز]

* تُعْجِلها عن نهشها والنَّكْزِ *

ومن ذلك أنّ العقربَ تَقَعُ في يد السِّنّور، فيلعب بها ساعة من اللَّيل وهي في ذلك مسترخيةٌ مستخذيةٌ لا تضربه. والسَّنانير من الخلْق الذي لا تسرع السُّموم فيه.

١١١٤ - [مسالمة الأفعى للقانص والراعي]

وربَّما باتت الأفعى عندَ رأسِ الرَّجُل وعلى فراشه فلا تنهشُه. وأكثَرُ ما يُوجَدُ ذلك من القانِص والرَّاعي. قال الشاعر[2]: [من الوافر]

تبيتُ الحيَّةُ النَّضْنَاضُ مِنْهُ مكانَ الحِبِّ مستَمِعَ السِّرارِ

قال: الحِبُّ: الحبيب. والنضناض من الحيَّات: الذي يحرِّك لسانَهُ. وعن عيسى بن عمر قال: قلتُ لذي الرُّمّة: ما النضناض؟ فأخرَجَ لسانَه يحرِّكه.

وإنما يصف القانص وأنّه يبيت بالقفر. ومثلهُ قولُ أبي النجم[3]: [من الرجز]

تَحكي لنَا الْقَرْنَاءُ في عِرْزالها جَرْيَ الرَّحَى تَجْري على ثِفالها

---

(١) ديوان عمر بن لجأ ١٥١، والأغاني ٨/ ٧٠ وحلقات الشعراء ١/ ٢٢٤، واللسان (عفر).

(٢) صواب الرواية «يستمع السرارا» والبيت للراعي النميري في ديوانه ١٤٩، وأمالي القالي ٢/ ٢٣، واللسان والتاج (حبب، نضض) والتنبيه والإيضاح ١/ ٥٦، والتهذيب ١١/ ٤٧٠، والجمهرة ٦٤، وكتاب الجيم ١/ ١٦٢، وبلا نسبة في المخصص ٤/ ٤٣، ٨/ ١١٠، وأساس البلاغة (نضض)، والمجمل ٢/ ٣٠.

(٣) الرجز لأبي النجم في ديوانه ١٦١، وللأعشى في اللسان والتاج (عرزل، قرن)، وبلا نسبة في الجمهرة ٧٩٤، ١١٥٠.

العِرْزال: المكان

وفي ذلك يقول أبو وَجْزَة[1]: [من البسيط]

تبيت جارتَه الأفعَى وسامرَه ... ربدٌ به عاذرٌ منهنّ كالجَرَب

وقوله: رُبْد، يريد البعوض. وعاذر: أثر.

١١١٥ - [مسالمة الأفعى]

قال: وبات يحيى بن منقاش مع دارم الدارميّ، فلما أصبح يحيى رأى بينهما أفعى مستويةً، فوثب يحيى ليقتلها، فقال له دارم. قد أعتقتُها وحرَّرتها! ولمَ تقتُلُها وهي ضجيعتي من أوَّل الليل؟ فقال يحيى: [من الطويل]

أعوذُ بربِّي أن تُرَى لي صحبْتَي ... يُطِيفُ بنا ليلاً مُحَرَّرُ دارمِ

من الخُرْسِ لا ينجو صحيحاً سَليمُها ... وإن كان معقوداً بحلْي التمائم

١١١٦ - [القول في العقرب]

والعقاربُ في ذلك دونَ الحيَّات، إلاّ الجرَّارات، فإنها ربَّما باتت في لحاف الرَّجُلِ اللَّيلَةَ بأسرها، وتكونُ في قميصه عامّة يومها، فلا تلسعه. فهي بالأفعى أشبَه.

فأمَّا سائرُ العقاربِ فإنها تقصِدُ إلى الصَّوت، فإذا ضربَتْ إنساناً فرَّتْ كما يصنع المسيء الخائف لِلعقَاب.

والعقرب لا تضرب الميتَ ولا المغشيّ عليه، ولا النائم إلاَّ أن يحرك شيئاً من جَسَدِه، فإنها عند ذلك تضربُه.

ويقال إنها تأوي مع الخنافس وتسالمُها، ولا تصادق من الحيّات إلا كلّ أسودَ سالخٍ.

وحدَّثَ أبو إسحاق المكي قال: كان في دار نَصْر بن الحجاج السُّلمي عقاربُ إذا لسعَتْ قَتَلَتْ، فدبّ ضيفٌ لهم على بعضِ أهْلِ الدَّار فضربَتْه عقربٌ على مذاكيره، فقال نصرٌ يعرِّض به[2]: [من المتقارب]

وَدَارِي إذا نَام سكَّانُها ... أقَامَ الحُدُودَ بِهَا الْعَقْرَبُ

---

(١) البيت لأبي وجزة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (رمد)، والمقاييس ٢/٤٣٨، والمجمل ٢/٤٢٠، والتهذيب ١٤، ١٢١.

(٢) البيتان في حياة الحيوان ٢/٥٢ (العقرب).

إذا غَفَلَ الناسُ عن دينهم فإن عقاربها تضرب

قال: فأدخَلَ النَّاسُ بها حوّاءَ، وَحَكَوْا لَهُ شأنَ تلك العقارب، فقال: إن هذه العقاربَ تستقي مِنْ أسوَدَ سالخٍ. ونظر إلى موضعٍ في الدار فقال: احفُرُوا هاهنا. فحفَرُوا عن أسودَيْنِ: ذكرٍ وأنثى، وللذَّكر خُصيتان وَرأَوْا حولَ الذَّكر عقاربَ كثيرةً فقتلوها.

قال: وقال الفضلُ بن عبَّاس حين راهنه عقرب بالشِّعر، وقيل لكلٍّ واحدٍ منهما: لسْتَ في شيءٍ حَتَّى تغلِبَ صاحبك، فقال الفضل[1]: [من السريع]

قَدْ تَجَرَ العقربُ في سوقنا لا مَرْحَباً بالعقْرَبِ التَّاجِرَه
كل عَدُوٍّ يُتَّقى مُقْبِلاً وَعَقْرَب تُخشَى من الدّابِرَه
كلُّ عدوٍّ كيدُه في استِه فَغَيْرُ ذي أيْدٍ ولا ضائرَه
قَدْ ضاقت العقْرَبُ واستيقَنت بأنَّ لا دُنْيا ولا آخرَه
إنْ عادت العقْرَبُ عُدْنا لها وكانتِ النَّعْلُ لها حاضِرَه

واسم أم حارثة بن بدر، عقرب. وآل أبي موسى يكتنُون بأبي العقارب. ومن هؤلاء الذين يكتنون بالعقرب: ابن أبي العقرب الليثيُّ الخطيب الفصيح، الراوية.

وَرَوَوْا أنّ عقرباً لسعت النبيَّ ﷺ فقال: «لَعَنَهَا اللّهُ، فإنَّها لا تُبالي مَنْ ضربت!»

وقال الضّبيّ: أنا عقربٌ، أضرُّ ولا أنفع[2].

وكان الرَّجُلُ تلسعه الجَرَّارة بعسكر مُكْرَم، أو بجند يسابور، فتقتله؛ وربّما تناثر لحمه، وربَّما تعفّنَ وأنتن، حتى لا يدنُوَ منه أحدٌ إلاَّ وهو مُخَمِّرٌ أنفه، مخافَةَ إعْدائه، ولا سيما إن كان قد نال من اللحم وهو لا يعلم أنَّ الوخْزَة التي وُخِزها كانت من جرَّارة.

وكانوا إذا شَعرُوا بها دَعوا حجاماً، يحجُم ذلك الموضعَ ويمصُّه، قبلَ أن يتفشى فيه السمُّ ويدخلَ تلك المداخل. فكان الحجَّام لا يجيئهم حتى يقبضَ دنانيرَ كثيرةً. وإنَما كانوا يجودون له بذلك؛ لمَا كانَ لصاحبهم في ذلك من الفَرَج، وما على الحجام في ذلك من ضرر. وذلك أن وَجهَه ربّما اسمارَّ واربَدّ، وربَّما عطّلت مقاديم

---

(١) الأبيات في عيون الأخبار ١/٢٥٦، وحياة الحيوان ٢/٦١ (العقرب).

(٢) ورد الخبر في عيون الأخبار ٢/١٠٣، وربيع الأبرار ٥/٤٧٦.

أسنانه وتوجّعت عليه، فيلقى من ذلك الجهد، وذلك لما كان يتّصل إلى فيه من بُخار الدَّم، ومن ذلك السمّ المخالط لذلك الدّم. ثمَّ إنَّهم بعدَ ذلك حشَوْا أذناب المحاجم بالقُطْن، فصار القُطْنُ لا يمنع قُوَّةَ المصِّ والجذْب، ولم يدَعْه يصلُ إلى فم الحجام. ثمّ إنَّهم بَعْدَ مدّة سُنَيّاتٍ[1] أصابوا نَبتةً في بعض الشِّعب[2]، فإذا عالجوا الملسوعَ بها حَسُنت حالُه.

والجرَّارات تألف الأخْواء[3] التي تكون بحضرة الأتاتين[4]، وتألف الحشوش[5] والمواضع الناريّة. وسمُّها نار.

وقيل لماسرجويه: قد نجدُ العقربَ تلسَعُ رَجُلَيْنِ فتقتلُ أحدَهما ويقتلها الآخرُ، وربّما نَجَتْ ولم تمُتْ، كما أنَّهُ ربَّما عُقِرت ولم تَفُتْ، ونجدُها تضربُ رجُلَين في ساعةٍ واحدة، فيختلفان في سوءِ الحال. ونجدُها تختلف مواضعُ ضَرَرِها على قدْر الأغذية، وعلى قدر الأزمان، وعلى قدْر مواضعِ الجسَد. ونجدُ واحداً يتعالج بالمَسُوس[6] فيحمَدُهُ، ونجد آخرَ يُدخِلُ يده في مدخلٍ حارٍّ من غير أنْ يكونَ فيه ماءٌ فيحمده، ونجدُ آخر يعالجه بالنّخالة الحارَّة فيحمدها، ونجد آخرَ يحجم ذلك الموضعَ فيحمَده، ونجد كلّ واحدٍ من هؤلاءِ يشكو خلافَ ما يوافقه، ثم إنَّا نجدُه يعاود ذلك العلاجَ عند لسعةٍ أخرى فلا يحمده!

قال ماسرجويه: لما اختلفت السُّمومُ في أنفسها بالجنْس والقدر، وفي الزَّمان، باختلاف مَا لاقاهُ اختلَفَ الذي وافقه على حسب اختلافه.

وكان يقول: إنَّ قولَ القائل في العقرب: شرُّ ما تكون حين تخرج من جُحرها، ليس يعنُون من ليلتها – إذْ كان لا بدَّ من أن يكون لها نصيبٌ من الشدّة – ولكنَّهُمْ إنما يَعْنُونَ: في أوَّل ما تخرج من جُحرها عند استقبالِ الصَّيف، بَعْدَ طولِ مُكْثِها في غير عالَمِنَا وغذائِنا وأنفاسنا ومعايشنَا.

---

(١) سنيات: جمع سُنية، تصغير سنة.
(٢) الشعب: جمع شعبة، وهي المسيل في الرمل، أو التلعة الصغيرة. (القاموس: شعب).
(٣) الأخواء: جمع خوى، وهو اللين من الأرض. (القاموس: خوى).
(٤) الأتاتين: جمع أتون، وهو موقد النار. (القاموس: أتن).
(٥) الحشوش: جمع حُش، وهو المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين. (القاموس: حشش).
(٦) المسوس: كل ما شفى الغليل. (القاموس: مسس). وهو دواء يعالج به الملسوع والملدوغ.

والعامّة تزعم أنها شرُّ ما تكون إذا ضربت الإنسانَ وقد خرج من الحمام؛ لتفتح المسامِّ، وسَعة المجاري، وسخونة البدن. ولذلك صار سمها في الصيف أشدَّ. هذا قولُ أبي إِسحاق. كأَنَّهُ كان يَرَى أنَّ الهواءَ كلما كان أحرَّ، وكان البدنُ أسخَنَ كان شَرّاً.

ونحن نجدهم يصرُخُون مِنْ لسعتها اللَّيْلَ كلَّه، وإذا طلعت الشمسُ سكن ما بهم. فإذا بقيت فضْلَةٌ من تلك الجارحة في الشمس فما أكثر ما يسكن. وسمومها باللَّيل أشدُّ، إلاّ أن يزعم أنَّ أجوافَ الناس في برد الليل أسخن وفي حرِّ النهار أفتر.

١١١٧ - [الحية الدّساس]

وزعم لي بعضُ العلماء ممّن قدْ روَى الكتُب، وهو في إرثٍ منها، أنّ الحية التي يقال لها: الدسّاس، تلد ولا تبيض؛ وأنَّ أنثى النمور لم تضَعْ نمراً قط إلاّ ومعه أفعى.

١١١٨ - [استحالة الكمأة إلى أفاع]

والأعرابُ تزعم أنّ الكمْأة تبقَى في الأرض فتُمْطر مَطْرةً صَيفيّة، فيستحيل بعضُها أفاعي. فسمعَ هذا الحديثَ منِّي بعضُ الرُّؤساء الطَّائيِّين، فزعم لِي أنّه عايَنَ كمأةً ضخْمة فتأمَّلها، فإذا هي تتحرَّك، فنهض إليها فقلَعها، فإذا هي أفعى. هذا ما حدّثته عن الأعراب، حتّى برئت إلى اللّه من عيب الحديث.

١١١٩ - [زعم صاحب المنطق في الحيات]

وزعم صاحبُ المنطق أنّ الوزَغة والحيَّات تأكُلُ اللَّحمَ وَ العُشب. وزعَمَ أنَّ الحَيَّات أظهَرُ كلَباً من جميع الحيوان، مع قلّة شرْب الماء. وأنَّ الأسدَ مع نَهمه قليلُ شرب الماء. قال: ولا تضبطُ الحيَّاتُ أنفسَها إذا شمَّت ريحَ السَّذاب، وربَّما اصطِيدَتْ به وإذا أصابوها كذلك وجدُوها وقد سكِرَتْ.

قال: والحيات تبتلع البيض، والفراخَ، والعُشب.

١١٢٠ - [سلخ الحيوان]

وزعم أنَّ الحياتِ تسلَخُ جلودَها في أوَّل الرَّبيع، عند خروجها من أعشّتها وفي أوّل الخريف.

وزعم أن السَّلْخ يبتدئَ من ناحية عيونها أوّلاً. قال: ولذلك يظنُّ بعض من يُعانيها أنها عمياء.

وهي تسلَخُ من جلودها في يومٍ وليلةٍ من الرَّأس إلى الذَّنَب، ويصيرُ داخل الجلْد هو الخارج، كما يُسلخ الجَنينُ من المَشيمَة، وكذلك جميع الحيوان المحزَّز الجسد، وكلُّ طائر لجناحه غلافٌ مثل الجُعَل والدّبْر وكذلك السَّرطان، يسلخ أيضاً، فيضعف عند ذلك من المشي.

وتسلخ جلودها مراراً.

والسَّلخ يصيب عَامّة الحيوان[1]: أمَّا الطير فسلخُها تحسيرها[2]، وأمّا ذوات الحوافر فسلخُها عقائقها[3]، وسلخ الإبل طرحُ أوْبارها، وسلخُ الجراد انسلاخ جلودها، وسلخ الأيائل إلقاء[4] قرونها، وسلخ الأشجار إسقاط ورقها.[5]

والأسروع: دويبَّةٌ تنسلخُ فتصيرُ فَرَاشَةً. وقال الطِّرمَّاح شعراً[6]: [من الكامل]

وتجرّدَ الأسْرُوعُ واطَّرَدَ السَّفَا ... وجرت بجالَيْها الحدَابُ القَرْدَدُ[7]

وانسابَ حيَّاتُ الكَثِيبِ وأقْبَلَتْ ... وُرْقُ الْفَرَاشِ لما يَشُبُّ المُوقِدُ[8]

يصف الزَّمان.

والدُّعْمُوص ينسلخُ، فيصير إمَّا بعوضةً وإما فراشةً.

وزعم ثمامةُ عن يحيى بن برمك أنّ البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة، وأنّهَ البعوضةَ التي من سَلْخ دعموص ربَّمَا انسلخت برغوثاً.

والنمل تحدث لها أجنحةٌ ويتغيَّر خَلْقهَا، وذلك هو سلخُها. وهُلْكُها يحين عند طيرانها.

والجراد ينسلخ على غير هذا النوع. قال الرَّاجز[9]: [من الرجز]

* مَلْعُونَةٍ تسلَخُ لَوْناً لَوْنَيْنِ *

---

(١) ثمار القلوب (٦٣١).

(٢) التحسير: سقوط ريش الطائر. (القاموس: حسر).

(٣) العقائق: جمع عقيقة، وهي شعر المولود. (القاموس: عقق).

(٤) في ثمار القلوب (نصول قرونها).

(٥) بعده في ثمار القلوب «والسراطين تسلخ فتضعف عند ذلك».

(٦) ديوان الطرماح ١٣٤، (١١١) ومنه شرح المفردات.

(٧) «السفا: التراب الذي تسفيه الرياح، ويكون ذلك في الصيف حين تجف الأرض. واطراده: حمل الريح السفا دفعة بعد دفعة. والجائل: ما سفرته الريح من حطام النبت وسواقط ورق الشجر فجالت به. الحداب: جمع حَدَب، وهو ما أشرف من الأرض وغلظ. والقردد: الأرض المرتفعة إلى جانب وهدة، والبيت كناية عن إقبال الصيف».

(٨) «ورق الفراش: جمع أورق، أي الذي لونه لون الرماد».

(٩) الرجز لعوف بن ذروة في نوادر أبي زيد ٤٨، وقبله (من كل سفعاء القفا والخدين).

١١٢١ - [اختلاف ضرر الأفاعي ونحوها باختلاف البلدان]

قال: وعضُّ السِّباع ذوات الأربع، ولدغُ الهوامّ، يختلفُ بقدر اختلاف البُلدان؛ كالذي يبلغُنا عن أفاعي الرَّمْلَ، وعن جرَّارات قرى الأهواز، وعقارب نَصِيبين[١]، وثعابين مصر، وهِنْدِيّات[٢] الخرابات.

وفي الشِّبثان[٣]، والزَّنابير، والرُّتَيْلاَت[٤] ما يقتل. فأمَّا الطَّبُّوع[٥] فإنَّهُ شديدُ الأذى. وللضَّمْج[٦] أذًى لا يبلغ ذلك.

١١٢٢ - [أقوال لصاحب المنطق]

وقال صاحب المنطق: ويكون بالبلدة التي تسمَّى باليونانية: «طبقون» حيَّةٌ صغيرة شديدة اللَّدْغ، إلا أن تُعالج بحجرٍ، يُخرَج من بعض قبور قدماء الملوك.

ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك.

وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسَد بعضها، كانت أردأ ما تكون سماً، مثل العقارب والأفاعي.

قال: والأيِّلُ إذا ألقى قُرونَه علم أنَّهُ قد ألقَى سلاحَه فهو لا يظهر. وكذلك إن سمن علم أنَّهُ يُطْلَبُ، فلا يظهر. وكذلك أوَّلَ ما ينبت قَرْنُهُ يعرِّضُه للشمس؛ ليصلُب ويجفّ. وإن لدغت الأيِّلَ حيَّةٌ أكلَ السَّراطينَ؛ فلذلك نَظُنُّ أنَّ السَّراطِينَ صالحةٌ لِلَّديغ من الناس.

قال: وإذا وضعت أنثى الأيّل ولداً أكلت مشيمتها. فَيُظَنُّ أنّ المشيمَةَ شيءٌ يتداوَى به من علّة النفاس.

قال: وَالدُّبَّةُ إذا هربت دفعت جِراءَها بين يديها، وإن خافت على أولادها غيَّبتها، وإذا لحقت صعِدَتْ في الشجر وحملَتْ معَها جِراءَهَا.

قال: والفهْدُ إذا عراه الدّاءُ الذي يقالُ له: «خانِق الفهود» أكل العَذِرَةَ فبرئ منه.

---

(١) انظر القول في عقارب نصيبين في معجم البلدان ٥ /٢٨٨ (نصيبين).

(٢) الهنديات: ضرب من الأفاعي.

(٣) الشبثان: دويبة تكون في الرمل، سميت بذلك لتشبثها بما دبت عليه. حياة الحيوان ١ /٥٩٥.

(٤) الرتيلى: جنس من العناكب، وتسمى عقرب الحيات، لأنها تقتل الحيات. حياة الحيوان ١ /٥٢٣.

(٥) الطبوع: دويبة ذات سم، أو من جنس القردان؛ لعضته ألم شديد. (القاموس: طبع).

(٦) الضمج: دويبة منتنة تلسع. (القاموس: ضمج).

قال: والسِّباع تشتهي رائحةَ الفهود، والفهدُ يتغيّب عنها، وربّما فرَّ بعضها منه فَيُطْمِعُ في نفسه، فإذا أراده السَّبعُ وثَبَ عليه الفهد فأكله.

قال: والتمساح يفتح فاه إذا غمّهُ ما قد تعلق بأسنانه، حتى يأتيَ طائرٌ فيأْكلَ ذلك، فيكونَ طعاماً له وراحَةً للتِّمساح.

قال: وأمّا السُّلحفاة فإنَّها إذا أكلت الأفعى أكلت صَعْتَراً جبليّاً، وقد فَعَلت ذلك مراراً، فربما عادت فأكلت منها ثمّ أكلت من الصَّعتر مراراً كثيرة، فإذا أكثرت من ذلك هلكت.

قال: وأمّا ابنُ عِرس، فإنَّه إذا قَاتَلَ الحيَّةَ بدأَ بأَكْلِ السَّذَاب، لأنّ رائحَةَ السَّذَاب مخالفَةٌ للحيَّة، كما أن سامَّ أبرصَ لا يدخلُ بيتاً فيه زعفران.

قال: والكلاب إذا كان في أجوافها دُودٌ أكلت سُنبل القمح.

قال: ونَظُنُّ أنّ ابنَ عرس يحتالُ للطيرِ بحيلة الذئب للغنم؛ فإنهُ يذبحها كما يفعل الذئب بالشاة.

قال: وتتقاتل الحيّات المشترِكة في الطُّعم.

وزعَمَ أنَّ القنافذَ لا يخفى عليها شيءٌ من جهة الرِّيح وتحوُّلها وهُبُوبها، وأنّهُ كان بِقُسْطَنْطِينيَّةَ رجلٌ يُقَدّمُ ويُعَظَّمُ؛ لأنه كان يَعْرِفُ هُبُوبَ الرِّيح ويخبرهم بذلك وإنما كان يَعرف الحالَ فيها بما يَرَى مِنْ هيئةِ القنافذ.

١١٢٣ - [القول في العيون]

والعيُونُ الحمرُ لِلعَرَض المفارق، كعين الغضبان، وعينِ السّكران، وَعَيْنِ الْكَلْبِ، وَعَيْنِ الرَّمِد.

والعيُونُ الذهبيَّةُ، عيونُ أصناف البزاة من بين العُقاب إلى الزُّرَّق.

والعيُون التي تُسْرِج بالليل، عيون الأسْد، وعيون النمور، وعيون السّنانير، وعيون الأفاعي.

قال أبو حيَّة[١]: [من الطويل]

غِضابٌ يُثيرُونَ الذُّحُولَ، عُيُونُهمْ كَجَمْر الغَضا ذَكَّيتهُ فتوقّدَا

(١) ديوان أبي حية ١٣٦ «الذحول: جمع ذحل، وهو الثأر».

وقال آخر[1]: [من الكامل]

وَمدَجَّجٍ يَسْعَى بشكَّته   محمرّةٍ عيناهُ كالكلب

رجع بالكلب إلى صفة المدجَّج.

وقَالَ معاويةُ لصُحارٍ العبديّ: يا أحمر! قال: والذهب أحمر! قال يا أزرق! قال: والبازي أزرق!

وأنشدوا[2]: [من الطويل]

ولا عيبَ فيها غيرُ شُكْلَة عينها   كذاك عِتاقُ الطيرِ شُكْلٌ عُيُونُها

وقال آخر: [من الطويل]

وشُكْلة عينٍ لَوْ حُبيت ببَعْضِهَا   لكنت مكانَ العَيْنِ مَرْأًى وَمَسْمَعا

ومن العيون المغْرَب[3]، والأزرق، والأشكل، والأسجَر[4]، والأشهل[5]، والأخْيَف[6]. وذلك إذا اختلفا.

وعين الفأرة كَحْلاء، وهي أبصَرُ بالليل من الفَرَسِ والعقاب.

وفي حمرة العينين وضيائهما يقولُ محمَّدُ بنُ ذؤيبٍ العُمانيُّ، في صفة الأسد: [من الرجز]

أجرأُ منْ ذي لِبْدَةٍ هَمَّاسِ   غَضَنْفَرٍ مضَبَّر رهَّاس[7]

مَنَّاعِ أخْيَاس إلى أخْيَاس   كأنَّمَا عيناهُ في مِراس[8]

شعاعُ مِقْبَاسٍ إلى مِقباس

وقال المرَّار: [من المنسرح]

* كَأَنَّمَا وَقْدُ عَيْنَيْهِ النَّمِر *

---

(1) البيت للحارث بن الطفيل في الأغاني ١٣/٢٢٤، وبلا نسبة في اللسان والتاج (دجج)، والمقاييس ٢/٢٦٥، والمجمل ٢/٢٥٨، والعين ٦/١١، والمخصص ٨/٩٥، والتهذيب ١٠/٤٦٧، والكامل ١٢١١ (طبعة الدالي).

(2) البيت بلا نسبة في اللسان (غير، شكل، شهل)، والتاج (شكل).

(3) المغرب: الأبيض. (اللسان: غرب).

(4) الشكلة في العين: حمرة في بياض العين، ومثلها الأسجر.

(5) الأشهل: حمرة في سواد العين. (القاموس: شهل).

(6) الأخيف: زرقة إحدى العينين، وسواد الأخرى. (القاموس: خيف).

(7) الهماس: الشديد الغمز بضرسه. (القاموس: همس). الرهاس: الذي يطأ الأرض بشدة. (القاموس: رهس).

(8) الأخياس: جمع خِيس، وهو الأجمة يكون فيها الأسد. (القاموس: خيس).

نحو الضبّ، والورل، والحيَّة، والقنفذ، وما أشبه ذلك .

يقال للضبّ والحيَّة والورَل: فَحَّ يفِحُّ فحيحاً. وقال رؤبة[١]: [من الرجز]

فحّي فلا أفْرَقُ أنْ تَفحِّي ... وأنْ تُرَحِّي كَرَحَى المرحِّي[٢]

أصْبَحَ مِنْ نحنحةٍ وأَحٍّ ... يحكِي سُعالَ النَّشَرِ الأبحِّ[٣]

قال: الفحيح: صوتُ الحيَّة مِنْ فيها. والكشيش والنشيش: صوتُ جلدها إذا حكّت بعضَه ببعض. قال الرَّاجز في صفة الشَّخْب والحـ ـب[٤]: [من الرجز]

حَلَبْتُ لِلأَبْرَشِ وهو مُغْضِ ... حمراءَ منها شخْبَةٌ بالمخض

ليستْ بذات وَبَرٍ مبيضٍّ ... كأنَّ صَـ ـتَ شخْبها المرْفَضِّ

كشيشُ أفعَى أجْمعت لعَضِّ

ويقال للضّبّ والورل: كش يكِش كشيشاً. وأنشد أبو الجرّاح[٥]: [من الطويل]

تَرَى الضَّبَّ إن لم يرهب الضبُّ غيرَه ... يكِشُّ له مستنكراً ويُطاوِلُه[٦]

---

(١) ديوان رؤبة ٣٦-٣٧.

(٢) الفَرَق: الخوف. (القاموس: فرق).

(٣) أن ترحي: أن تستديري. (القاموس: رحى).

(٤) الرجز لمعتمر بن قطبة في التاج (كشش)، وبلا نسبة في اللسان وأساس البلاغة (كشش) والمخصص ٨/١١٥، والتهذيب ٩/٤٢٤، والخزانة ٤/٥٧١ (بولاق).

(٥) البيت لابن ميادة في ديوانه ١٩٣، والمعاني الكبير ٦٤٩.

(٦) يطاوله: يبارزه ويغالبه.

بـــاب

من ضرب المثل للرَّجُلِ الداهية وللحيِّ الممتنع بالحيّة

قال ذو الإصبع العَدْوانيُّ[1]: [من الهزج]

عَذِيرَ الحيِّ مِنْ عَدْوا ... نَ كانوا حَيَّةَ الأرض

بَغَى بعضُهُمُ ظلماً ... فلم يُرْعَ على بَعْضِ

وفيهم كانَتِ السَّادا ... تُ والموفُون بالقَرْضِ

١١٢٤ - [أمثال أشعار في الحية]

يقال: «فلانٌ حَيَّةُ الوادي»[2]، و: «ما هو إلاَّ صِلُّ أصلال»[3]. والصِّلُّ: الداهية والحيَّة. قال النَّابغةُ[4]: [من البسيط]

ماذَا رُزِئْنَا بِهِ من حَيَّةٍ ذَكَرٍ ... نَضْنَاضَةٍ بالرَّزايا، صِلِّ أصلالِ

وقال آخر: [من المنسرح]

صِلٌّ صفاً تَنْطِفُ أنيابُهُ ... سِمامَ ذيفانٍ مجيرات

وقال آخر[5]: [من المديد]

مُطْرِقٌ يرشَح سمًّا، كما ... أطْرَقَ أفْعَى يَنْفُثُ السمَّ صِلُّ

ومن أمثالهم: «صَمِّي صَمَامِ»[6]، وَ: «صَمِّي ابْنَةَ الجبل»،[6] وهي الحيَّة.

---

(١) ديوان ذي الإصبع العدواني ٤٦، والأصمعيات ٧٢، والحماسة البصرية ١/٢٦٩، والمعمرون والوصايا ٥٨، والخزانة ٥/٢٨٦.

(٢) في جمهرة الأمثال ٢/٢٧، والدرة الفاخرة ١/٢٩٣ (أظلم من حية الوادي)

(٣) جمهرة الأمثال ٢/٣٥٧، والمستقصى ١/٤٢٢، وفصل المقال ١٤٠، وأمثال ابن سلام ٩٩.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ١٦٥، واللسان والتاج (صلل)، والمستقصى ١/٤٢٢، وبلا نسبة في ثمار القلوب (٦٢٤)، وأساس البلاغة (صلل).

(٥) البيت من قصيدة تنسب للشنفرى، ولخلف الأحمر، ولتأبط شراً، انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٨٣٣، والتبريزي ٢/١٦٢.

(٦) مجمع الأمثال ١/٣٢٠، وجمهرة الأمثال ١/٥٧٨، والدرة الفاخرة ٢/٤٩٩، والمستقصى ٢/١٤٣، وفصل المقال ١٨٩، ٤٧٤، ٤٧٨، وأمثال ابن سلام ٣٤٨.

قال الكميت[1]: [من الوافر]

إِذَا لَقِيَ السَّفِيرَ لها وَنَادَى ... بها: صَمِّي ابْنَةَ الجَبَلِ، السَّفِيرُ

ومن أمثالهم: «جاءَ بأمِّ الرُّبَيق على أُرَيق»[2]، أمُّ الرُّبيق: إحدى الحيات. وأُرَيق: أمُّ الطِّبق. ضربوا به مثلاً في الدواهي. وأصلها من الحيَّات قال[3]: [من البسيط]

إِذَا وجدْتَ بوادٍ حَيَّةً ذَكَراً ... فاذْهَبْ وَدَعْني أُمارِسْ حَيةَ الوادي

وفي المثل: «أدرك القُوَيِّمة لا تأكلها الهوَيِّمة»[4] يعني الصبي الذي يدرُج ويتناول كلَّ شيءٍ سنَح له، ويَهوي به إلى فيه. كأنه قال لأمِّه: أدركيه لا تأكلْه الهامَّة! وهي الحيّةُ. وهو قوله في التعويذ: «ومن كلِّ شيطانٍ وهَامَّة، ونَفْسٍ وعينٍ لامَّة».

وقال الأخطل، في جعلهم الرَّجلَ الشُّجاعَ وذا الرّأي الدَّاهية حية – وكذلك يجعلون إذا أرادوا تعظيمَ شأنها. وإذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحَيّةَ ذكراً. قال الأَخطل[5]: [من الطويل]

أنبئت كلباً تمنَّى أنْ يسافهنا ... وطالما سافهُونَا ثمَّ ما ظَفرُوا

كلفتمونَا رجالاً قاطعي قَرَنٍ ... مُسْتَلْحَقينَ كما يُسْتَلْحَقُ اليَسَرُ[6]

ليست عليهم إذا عُدَّتْ خصالهم ... خَصْلٌ وليس لهم إيجابُ ما قمرُوا

قد أنْذَرُوا حَيَّةً في رأس هضبته ... وقد أتتهم به الأَنباء والنذُرُ

بَاتُوا رُقُوداً عَلَى الأمْهَاد لَيْلَهُمُ ... وَلَيْلُهُمْ ساهرٌ فيها، وما شعَرُوا

ثَمَّتَ قَالُوا أَمَاتَ الماءُ حَيَّتَهُ ... وما يكادُ يَنامُ الحيةُ الذَّكَرُ

١١٢٥ – [حيَّة الماء]

وما أكثرَ ما يذكرون حيّة المَاء؛ لأنّ حَيَّات المَاء فيها تفاوت. إمّا أن تكونَ لا تضُرُّ كبيرَ ضررٍ، وإمَّا أن تكونَ أقتَلَ من الحيَّاتِ والأفاعي.

---

(١) ديوان الكميت ١/١٦٧، واللسان (صمم).

(٢) مجمع الأمثال ١/١٦٩، وجمهرة الأمثال ١/٤٧، والمستقصى ٢/٤١، وأمثال ابن سلام ٣٤٨، وفصل المقال ٤٧٧.

(٣) البيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه ٤٨، وله أو للحارث بن بدر في شرح شواهد الإيضاح ٤٢٨، وبلا نسبة في ثمار القلوب ٣٣٥ (٦٢٣)، والمخصص ١٦/١٠١، والجمهرة ٥٧٦.

(٤) المستقصى ١/١١٦، ومجمع الأمثال ١/٢٦٤.

(٥) ديوان الأخطل ٥١٥ – ٥١٦؛ وشرح المفردات التالية منه.

(٦) اليسر: صاحب القِداح في القوم.

١١٢٦ - [سبب وجود الحيات في بعض البيوت]

ويقال إنّ الهنديّات إنَّما تصير في البيوت والدُّور، والإصطبلات، والخرابات؛ لأنّها تُحمَلُ في القُضُب وفي أشباه ذلك.

والحيّاتُ تأكل الجرادَ أكلاً شديداً، فربّما فتحَ رأس كُرْزِه وجرابه وجوالقه، الذي يأتي الجراد، وقد ضَرَبَه برْدُ السَّحَر، وقد تراكم بعضُه على بعض؛ لأنَّها موصوفةٌ بالصَّرَد.

والحيّاتُ توصَفُ بالصَّرَد، كذلك الحمير، والماعزُ من الغنم. ولذلك قال الشاعرُ[١]: [من الطويل]

بليت كما يبلى الوِكاءُ ولا أرى جنَاباً ولا أكنافَ ذروة تخلُقُ[٢]

أُلوِّي حَيازيمي بهنَّ صَبابةً كما تَتلَوَّى الحيّة المتشرِّقُ

وإنما تَشَرَّقُ إذا أدركها بَرْدُ السَّحَر ولم تصر بعدُ إلى صلاحها، وإذا خرجت بالليل تكتسب الطعم كما يفعل ذلك سائر السِّباع. فربما اجترف صَاحبُ الكرز الجراد، فأدخله كُرْزَه، وفيه الأفعَى وأسودُ سالخٌ، حتى يُنقلَ ذلك إلى الدُّور، فربّما لقى النّاسُ منها جهداً.

وقال بشر بن المعتَمر، في شعره المزاوَج[٣]: [من الرجز]

يا عجباً والدَّهرُ ذو عجائب مِنْ شاهدٍ وَقَلْبُهُ كالغائب

وحاطب يَحْطِبُ في بجادهِ في ظلمة الليلِ وفي سَوَاده[٤]

يحْطب في بجاده الأيْمَ الذكرَ والأَسودَ السَّالخ مكروهَ النَّظَرْ

١١٢٧ - [شعر في حية الماء]

فممن ذكر حَيَّةَ الماء، عبد اللّه بن هَمّام السلوليُّ فقال: [من البسيط]

كَحَيَّةِ الماء لا تنحاش مِنْ أحَدٍ صُلْبُ المراس إذا ما حُلَّتُ النُّطقُ

---

(١) البيتان لصخر بن الجعدي الخضري في الأغاني ٢٢/٣٥، والبيت الأول في معجم البلدان ٣/٥ (ذروة)، والثاني في العمدة ٢/٥٨.

(٢) الوكاء: السقاء، ورباط القربة وغيرها. (القاموس: وكي). الجناب: موضع بالقرب من خيبر والمدينة. معجم البلدان.

(٣) الرجز في ثمار القلوب (٩١٠).

(٤) البجاد: الكساء. (القاموس: بجد).

وقال الشّمّاخ بنُ ضِرار[1]: [من البسيط]

خُوصُ العيونِ تَبارَى في أزمَّتها | إذا تفصَّدْنَ من حَرِّ الصَّياخيد[2]
وكلُّهن تُبَارِي ثِنْيَ مُطَّرِدٍ | كحيةِ الماءِ وَلَّى غَيْرَ مَطْرودِ[3]

وقال الأخطل[4]: [من الطويل]

ضفادعُ في ظَلْماءِ ليلٍ تجاوبَت | فدل عليها صوتُها حَيَّةَ البَحْر

وقال أيضاً[5]: [من الطويل]

هَلُمَّ ابنَ صَفّارٍ فإنَّ قتالَنا | جهاراً وما منّا مُلاوَذَةُ العُذْرِ
فإنَّكَ في قيسٍ لَتَالٍ مُذَبْذَبٌ | وغيرُك منهم ذُو الثَّنَاءِ وذو الفخرِ
ونحن منعْنَا ماءَ دجلةَ منْكمُ | ونمنَعُ مَا بينَ العرَاقِ إلى البِشْرِ
ألا يا ابنَ صَفّارٍ فلا تَرُمِ العُلَى | ولا تذْكُرَنْ حَيَّاتِ قَوْمِكَ في الشِّعْرِ
فما تركَتْ حَيَّاتُنا لَكَ حيَّةً | تَحَرَّكُ في أرضٍ بَرَاحٍ ولا بَحرِ

وقال نُفَيع يعيِّره بالكُحَيل[6]: [من الطويل]

فإن تك قَتْلاكُم بدجلةَ غُرِّقَت | فما أَشْبَهَتْ قَتْلَى حُنينٍ ولا بَدْرِ
ثَوَوا إذ لَقُونا بالكُحَيلِ كما ثوى | شَمَامِ إلى يوم القيامة والحشر[7]
بدجلَة حالتْ حربُنَا دُونَ قومنا | وأوطاننا ما بين دجْلَةَ فالحضْرِ
ولو كنتُم حَيّاتِ بحرٍ لكنتُمُ | غَدَاةَ الكُحَيْل إذ تقوُمُون في الغَمْرِ

١١٢٨ - [ما يشبّه بالأيم]

فَالأيْم الحيَّةُ الذكر يشبهون به الزِّمام، وربَّما شبَّهُوا الجاريَةَ المجدولة الخميصةَ

---

(١) ديوان الشماخ ١١٤، والأول في أساس البلاغة (صخد)، والثاني في المعاني الكبير ٦٦٨.
(٢) في ديوانه: «أخذت هذه الإبل الغائرات العيون تتسابق سائلة العرق من حر الهواجر».
(٣) في ديوانه: «يباري: يعارض. ثني مطرد: يعني زماماً طويلاً، وشبهه بحية الطود، وهو الجبل، لأنه في خشونة، فهو يتلوى إذا مشى، وجعله غير مطرود، لأنه أراد أنه لم يطرد فيستعجل، ويمر مراً مستقيماً».
(٤) ديوان الأخطل ١٨١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ٢/٩٧، والبيان ١/٢٧٠. وتقدم في ٣/١٣٠.
(٥) ديوان الأخطل ١٨٨.
(٦) المؤتلف والمختلف ١٩٥.
(٧) الكحيل: موضع بالجزيرة، كان فيه يوم للعرب. (معجم البلدان ٤/٤٣٩)، شمام: اسم جبل لباهلة. (معجم البلدان ٣/٣٦١).

الخواصرِ، في مشيها، بالأيم؛ لأنَّ الحيَّةَ الذّكرَ ليس له غَبَبٌ، وموضعُ بطنِه مجدولٌ غيرُ متراخٍ. وقال ابنُ ميَّادة[١]: [من الطويل]

قعدت على السِّعلاة تنفض مسحَهَا ... وتجذب مِثْلَ الأَيْمِ في بلدٍ قَفْرِ[٢]

تيمِّمُ خَيْرَ النَّاسِ مِنْ آل حاضر ... وتحمِلُ حاجاتٍ تضمَّنَها صَدْرِي[٣]

١١٢٩ - [شعر في حمرة العين]

وقال الآخر في حمرة عين الأفعى[٤]: [من البسيط]

لولا الهراوةُ والكِفّاتُ أوْرَدَني ... حَوْضَ المنيَّة قَتَّالٌ لِمَنْ عَلِقَا[٥]

أصمُّ منهرتُ الشِّدْقين ملتبدٌ ... لم يُغْذَ إلاّ المنايا مِنْ لَدُنْ خُلِقَا[٦]

كأَنَّ عينيه مِسْمارَانِ مِنْ ذَهبٍ ... جلاهُما مِدْوسُ التَّألاقِ فائتَلَقَا[٧]

وقال في حمرة عُيون النَّاس في الحرْب وفي الغضب، ابنُ ميَّادة[٨]: [من الطويل]

وعند الفَزَاري العراقي عارض ... كأَنَّ عيونَ القَوْم في نبضة الجمرِ

وفي حمرة العين من جهة الخِلْقةِ، يقول أبو قُرْدُودة، في ابن عمارٍ حينَ قتله النُّعمان[٩]: [من البسيط]

إنِّي نهيتُ ابنَ عَمّارٍ وقلتُ له: ... لا تأمَنَنْ أحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ وَ الشعَرَهْ

إنَّ الملوك متى تنزل بساحتِهمْ ... تَطِرْ بنارك مِنْ نيرانهم شَرَرَهْ

ياجفنَةً كإزاء الحَوْض قد هُدِمَتْ ... وَمَنْطِقاً مِثْلَ وَشْيِ الْيَمْنَةِ الحِبَرَهْ

---

(١) ديوان ابن ميادة ١٥٢، ومنه شرح المفردات التالية.

(٢) «السعلاة: اسم ناقة لابن ميادة. المسح: الكساء من الشعر. الأيم: الحية».

(٣) «الحاضر: الحي العظيم أو القوم».

(٤) الأبيات بلا نسبة في البيان ٣/ ٦٠.

(٥) الكفات: جمع كفة، وهي إحدى آلات الصيد.

(٦) منهرت: واسع. (القاموس: هرت).

(٧) المدوس: خشبة يشد عليها مسن، يدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه. (اللسان: دوس).

(٨) ديوان ابن ميادة ١٥٤.

(٩) الأبيات في معجم الشعراء ٥٩، ونوادر المخطوطات ٢/ ٢٢٢، والوحشيات ١٤٦، وقصائد جاهلية نادرة ١٦٧، والبيان ١/ ٢٢٣، ٣٤٩.

١١٣٠ - [أسماء الحية]

وأكثرُ ما يذكرون منَ الحيات بأسمائها دون صفاتها: الأفعى، والأسود، والشجاع، والأَرقم. قال عمر بن لجأ[١]: [من الرجز]

* يلزق بالصّخْرِ لُزُوقَ الأرقَمِ *

وقال آخر[٢]: [من الطويل]

ورفّع أولى القوم وقعُ خرادلٍ ووقعُ نبال مثل وقْع الأساوِدِ

١١٣١ - [أولاد الأفاعي]

وفي بعض كتب الأنبياء، أنّ الله تبارك وتعالى قال لبني إسرائيل: «يا أولادَ الأفاعي».

١١٣٢ - [مثل وشعر في الحية]

ويقال: «رَماهُ الله بأفْعى حَارية»[٣] وهي التي تحري، وكلما كبرت في السن صغُرت في الجسم. وأنشد الأصمعيُّ في شدَّة اسوداد أسود سالخ: [من الرجز]

مُهَرَّت الأشداق عَوْدٍ قد كمل كأنَما قَيِّظَ من لِيط جَعَل

وقال جريرٌ في صفة عُرُوق بَطْنِ الشَّبْعَان[٤]: [من الطويل]

وأعور من نَبْهَانَ أمَّا نهارُه فأعمَى، وأمَّا ليله فبصيرُ
رَفَعْتُ له مشبوبةً يلتوي بها يكادُ سناها في السماء يَطيرُ
فلما استوَى جنباه لاعَبَ ظلَّهُ عريضُ أفاعي الحالبَين ضريرُ

قال: ويقال: «أبْصَرُ من حيّة»[٥]، كما يقال: «أسمعُ مِنْ فرس»[٦]، و«أسمَعُ مِنْ عُقاب»[٧]. وقال الراجز: [من الرجز]

* أسمَعُ مِنْ فَرْخِ العُقابِ الأشْجَعِ *

---

(١) ديوان عمر بن لجأ ١٦٢.

(٢) البيت لعروة بن مرة الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٦٦٣، واللسان والتاج (وكع).

(٣) مجمع الأمثال ١ / ٣٩٠.

(٤) ديوان جرير ٨٧٧، والأول في معجم الشعراء ٨٨، والثالث في أساس البلاغة (فعي).

(٥) المستقصى ٢ / ٢٠.

(٦) الدرة الفاخرة ١ / ٢١٨، ومجمع الأمثال ٢ / ٣٤٩، وأمثال ابن سلام ٣٦٠، وبرواية (أسمع من فرس بيهماء في غلس) في فصل المقال ٤٩٢، والمستقصى ١ / ١٧٣، ومجمع الأمثال ١ / ٣٤٩.

(٧) المستقصى ١ / ١٧٣، وهو برواية (أسمع من فرخ العقاب) في مجمع الأمثال ١ / ٣٥٥.

وقال آخر[1]: [من الطويل]

أسودُ شَرًى لاقَتْ أُسودَ خفيَّةٍ ... تساقَوْا عَلَى حَرْدٍ دماءَ الأساودِ[2]

ضَرَبَ المثَلَ بجنسين من الأسُود، إذْ كانا عندَه الغايةَ في الشدَّة والهوْل، فلم يقنع بذلك حتى ردَّ ذلك كُلَّهُ إلى سموم الحيّات.

١١٣٣ - [ما يشبَّه بالأسوَد]

وفي هَوْل منظر الأسْوَد يقول الشاعرُ[3]: [من الكامل]

مِنْ دُون سَيْبكَ لونُ ليلٍ مُظلمٍ ... وَحَفيف، نافجةٍ وكَلْبٌ مُوسَدُ

والضَّيفُ عِنْدَكَ مِثْلُ أسوَد سالخٍ ... لا بَلْ أحَبُّهما إليكَ الأسْوَدُ

ويصِفُون ذوائبَ الناس، فإذا بلغوا الغايةَ شبهوه بالأساود. قال جِرانُ العَوْدِ[4]: [من الطويل]

ألا لا تَغُرَّنَّ امرأً نَوْفَليَّةٌ ... على الرَّأس منها، والترائبُ وُضَّحُ[5]

ولا فاحِمٌ يُسْقَى الدِّهانَ كأنَّهُ ... أساوِدُ يزهاها لعينك أبْطَحُ[6]

قال: والخرشاء: القشرة الغليظة بعد أن تنقب فيخرج ما فيها، وجماعهُ الخراشيّ، غير مهموز. قال: وخرشاء الحيّة: سلخها حين تَسْلخ. وقال: هذا أسود سالخ، وهذان أسودان سالخان، وأساود سالخة. وقال مرَقِّش[7]: [من السريع]

إن يَغْضَبُوا يغضب لِذَاكُمْ كما ... يَنْسلُّ عَنْ خِرْشَائِهِ الأرْقَمْ

---

(١) البيت للأشهب بن رميلة في ديوانه ٢٣٢، والبيان ٤/٥٥، والحماسة البصرية ١/٢٦٩، وأمالي القالي ١/٨، والسمط ٣٥، والخزانة ٦/٢٧، وشرح شواهد المغني ٢/٥١٧، واللسان (حرد، خفا)، ومعجم ما استعجم ٢/٥٠٦، والمقاصد النحوية ١/٤٨٣، والمنصف ١/٦٧، والأضداد ٢٢٩، وصدر البيت في معجم البلدان ٣/٣٣٠ (شرى).

(٢) شرى: جبل بنجد أو تهامة موصوف بكثرة السباع. (معجم البلدان ٣/٣٠). خفية: أجمة في سواد الكوفة، ينسب إليها الأسود. (معجم البلدان ٢/٣٨٠).

(٣) تقدم البيتان في الفقرة ٢٦٨.

(٤) ديوان جران العود ٣٧، واللسان والتاج (نفل)، والتهذيب ١٥/٣٥٨، والخزانة ١٠/١٩، والخصائص ٢/٤١٤.

(٥) النوفلية: شيء يتخذه نساء الأعراب من صوف يكون في غلظ أقل من الساعد، ثم يحشى ويعطف، فتضعه المرأة على رأسها. انظر التهذيب ١٥/٣٥٨.

(٦) الأبطح: بطن وادٍ فيه رمل وحجارة.

(٧) المفضليات ٢٤٠.

١١٣٤ - [علة تعليق الحلي والخلاخيل على السليم]

وكانوا يَرَوْنَ أنَّ تعليقَ الحَلْيِ، وخَشخشَةَ الخلاخيل على السَّليم، ممَّا لا يفيق ولا يَبْرأ إلاّ به. وقال زَيْدُ الخيل[١]: [من الطويل]

أيم يكون النعل منه ضَجِيعَةً كما عُلِّقت فوقَ السليم الخَلاَخِلُ

وخبَّرني خالد بن عقبة، من بني سلمة بن الأكوع، وهو من بني المسبع، أنّ رجُلاً من حَزْن، من بني عذرة، يسمَّى أسْباط، قال في تعليقهم الحَلْيَ على السَّليم[٢]: [من الطويل]

أرِقْتُ فلم تَطعَمْ لي الْعَيْنُ مَهْجَعَا وَبتُّ كما بَاتَ السليمُ مُقَرَّعَا
كأني سليمٌ نَالهُ كَلْمُ حيَّةٍ تَرَى حَوْلَهُ حَلْيَ النِّساءِ مُرَصَّعَا

وقال الذُّبيانيّ[٣]: [من الطويل]

فبتُّ كأنِّي ساورتْني ضَئيلةٌ من الرُّقْشِ في أنيابها السّمُّ ناقعُ[٤]
يُسَهَّدُ من ليل التّمام سليمُها لحلْيِ النِّسَاءِ في يديه قَعاقِعُ[٥]

١١٣٥ - [استطراد فيه لغة وشعر]

قال: ويقال لسان طلْق ذَلقٌ[٦]. يقال للسليم إذا لُدِغ: قد طلِّق، وذلك حين تَرْجع إليه نفسُه. وهو قول النابغة[٧]: [من الطويل]

تناذَرها الرَّاقُون من سُوءِ سمِّها تطلِّقُه طوراً وطوراً تُراجعُ

---

(١) ديوان زيد الخيل ١٩١، وأمالي الزجاجي ١٠٧.

(٢) البيت الثاني في عيار الشعر ٥٣.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ٣٣، والخزانة ٢/٤٥٧، والسمط ٤٨٩، وشرح شواهد المغني ٢/٩٠٢، والمقاصد النحوية ٤/٧٣، واللسان والتاج (طور، نذر، نقع). والثاني في اللسان والتاج (سهد، قعع)، والعين ١/٦٤، والتهذيب ٦/١١٥، وبلا نسبة في المخصص ٢/٤١.

(٤) في ديوانه «ساورتني: واثبتني. ضئيلة: حية دقيقة قد أتت عليها سنون كثيرة، فقلّ لحمها؛ واشتدّ سمُّها. الرقش: التي فيها نقط؛ سواد وبياض. ناقع: ثابت».

(٥) في ديوانه «ليل التمام: أطول ليالي الشتاء، والسليم: الملدوغ».

(٦) في الإتباع والمزاوجة ١٠٩ «طلق ذلق: من ذلقت الشيء: حددته» والطلق: الفصيح.

(٧) ديوان النابغة ٣٤، والخزانة ٢/٤٥٩، ٤/٤٦، ٤٨، وشرح شواهد الإيضاح ١٢٦، ١٥٢، والمعاني الكبير ٦٦٣، واللسان (عدد، طور، نذر، طلق، حين)، والتاج (عدد، طور، نذر)، والجمهرة ٩٢٢، وأساس البلاغة (نذر، طلق)، والتهذيب ١/٨٩، ٢/١٦، ٥/٢٥٥، ٩/٢٩٣، ١٤/٤٢١، ١٦/٢٦١، وبلا نسبة في المخصص ٨/١١٣، ٩/٦٥، والمقاييس ٣/٤٢١.

وقال العبدي [1]- إن كان قاله -: [من الطويل]

تَبِيتُ الهُمُومُ الطَّارِقاتُ يَعُدْنَنِي كَمَا تَعْتَرِي الأَهْوَالُ رَأْسَ المطلَّقِ

وأنشد[2]: [من الوافر]

تُلاقِي مِنْ تَذَكُّرِ آلِ ليلى كما يَلْقَى السَّلِيمُ مِنَ العِدَادِ

والعِداد: الوقت. يقال: إنّ تلك اللَّسعة لتعَادّه: إذا عاده الوجَع في الوقت الذي لُسِع فيه.

١١٣٦ - [الحمل المصْليّ]

وذكر النبيُّ ﷺ السّمَّ الذي كان في الحَمَلِ المَصْلِيّ، الذي كانت اليهوديَّةُ قدّمته إليه فنَالَ منه، فقال: «إنّ تلكِ الأكْلَة لتُعادُّني»[3].

١١٣٧ - [نفع الحية]

وفي الحيّة قشْرُها، وهو أحسنُ من كلِّ ورقةٍ وثوبٍ، وجَناحٍ، وطائرٍ؛ وأعجبُ من سِتْرِ العنكبوت، وغِرْقِئِ البيض.

ويقال في مثلٍ، إذا مدحوا الخُفَّ اللَّطيف، والقدَمَ اللَّطِيفة قالوا: كأنّه لِسَانُ حَيَّة.

وبالحيّة يُتداوَى من سمّ الحيّة. ولِلدغ الأفاعي يُؤْخَذ التِّرياقُ الذي لا يُوجَدُ إلاّ بمتون الأفاعي. قال كثَيِّر[4]: [من الوافر]

وما زالَتْ رُقَاكَ تَسُلُّ ضِغْني وتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابِي

وَتَرْقِينيَ لك الحاوُون حَتَّى أجَابَكَ حيَّةٌ تحْتَ الحِجاب

---

(١) البيت للممزق العبدي في الأصمعيات ١٦٤، وبلا نسبة في اللسان (طلق)، والتهذيب ١٦ / ٢٦١، وديوان الأدب ٢ / ٣٦٩، والجمهرة ٩٢٢، والمقاييس ٣ / ٤٢١.

(٢) البيت بلا نسبة في اللسان (عدد)، والتاج (عدد، أول)، والعين ١ / ٨٠، والجمهرة ٣٣٢، والمخصص ٥ / ٨٨، والتهذيب ١ / ٨٩.

(٣) انظر السيرة ٢ / ٣٣٧-٣٣٨، والتنبيه والإشراف ٢٥٧، وأسماء المغتالين في نوادر المخطوطات ٢ / ١٤٧، وتاريخ الطبري ٣ / ١٥، وثمار القلوب (٨٧٤)، والنهاية ٣ / ١٨٩، والبخاري في المغازي، ومسند أحمد ٦ / ١٨.

(٤) ديوان كثير ٢٨٠؛ والأغاني ٢١ / ٣٨٣، والسمط ٦٢، والأول في أساس البلاغة (رقي)، والجمهرة ٧٢، والمعاني الكبير ٦٤٤، وبلا نسبة في اللسان والتاج (ضبب).

١١٣٨ - [قصة امرأة لدغتها حية]

جويبر بن إسماعيل، عن عمّه، قال: حججْتُ فإنّا لفي وَقْعَةٍ مَعَ قوم نزلوا منزلنا، ومعنا امرأة، فنامت فانتبهتْ وحيّةٌ منْطوية عليها، قد جمعَتْ رأسَها مع ذنبها بين ثدييها، فهالها ذلك وأزعَجَنا، فلم تزَلْ مُنطويةً عليها لا تضرُّها بشيء، حتّى دخلْنا أنصاب الحرم[1]، فانسابت فدخلَتْ مكّة، فقضَينا نسكَنا وانصرفْنَا، حتَّى إذ كنَّا بالمكان الذي انطوت عليها فيه الحيَّة، وهو المنزل الذي نزلناه، نزلَتْ فنامت واستيقظت، فإذا الحيَّةُ منطويَةٌ عليها، ثمّ صَفَرت الحيَّةُ فإذا الوادي يسيلُ حيَّاتٍ عليها، فنهشتْها حتّى نَقَتْ عظامَها، فقلت لجاريةٍ كانت لها: وَيْحَكِ: أخبرينا عن هذه المرأة. قالت: بغَتْ ثلاثَ مرّاتٍ، كلَّ مرّة تأتي بولدٍ، فإذا وضعَتْه سَجَرت التّنّور، ثمّ ألقته فيه.

١١٣٩ - [قول امرأة في عليٍّ والزّبير وطلحة]

قال ونظرت امرأةٌ إلى عليٍّ، والزُّبير، وطلحة، رضي اللّه تعالى عنهم، وقد اختلفَتْ أعناقُ دوابِّهم حين التقَوا، فقالت: من هذا الذي كأنه أرقَمْ يتلمَّظ؟ قيل لها: الزُّبير. قالت: فمن هذا الذي كأنّه كُسِر ثمّ جُبِر؟ قيل لها: عليٌّ. قالت: فمن هذا الذي كأنّ وجهه دينارٌ هِرَقْليّ؟ قيل لها: طلحة.

١١٤٠ - [استطراد لغوي]

وقال أبو زيد: نهشت أنْهَشُ نهشاً. والنَّهش: هو تناولك الشَّيءَ بفيك، فتمضَغُه فتؤثِّر فيه ولا تجْرحه. وكذلك نهْش الحيَّة. وأمَّا نهْش السَّبعِ فتناوله من الدَّابَّة بفيه، ثمَّ يقطع ما أخذَ منه فوه. ويقال نهشت اللحم أنهَشُه نهشاً، وهو انتزاع اللّحم بالثَّنايا؛ للأكل. ويقال نَشَطت العقْد نَشْطاً: إذا عقدته بأنْشوطة. ونَشَطت الإبلُ تنشط نَشْطاً: إذا ذهبتْ على هدًى أو غيرِ هدى، نزعاً أو غير نزْع. ونشطَتْهُ الحيَّةُ فهي تنشُطه نَشْطاً، وهو أن تَعَضَّه عضّاً. ونكزَتْهُ الحيَّةُ تنكُزُه نكْزاً، وهو طعنُها الإنسانَ بأنفها. فالنَّكْز من كلِّ دابَّةٍ سوى الحيّة العضّ. ويقال: نَشَطَتْهُ شَعُوبُ نشْطاً وهي المنيَّة.

قال: وتقول العرب. نشطته الشَّعوب، فتدخل عليها التعريف.

---

(١) أنصاب الحرم: حدوده. (القاموس: نصب)

ويسمون النهيش سليماً على الطيرَة. قال ابنُ ميَّادة:[١] [من الطويل]

كأنِّي بها لما عَرَفْتُ رُسومَها ... قتيلٌ لدَى أيدي الرُّقاةِ سَليمُ

وممَّا يضربون به المثَلَ بالحيَّاتِ في دواهي الأمر، كقول الأقَيْبِل القينيّ[٢]: [من البسيط]

لَقَدْ علمْتُ وخَيرُ القَوْلِ أنْفَعُهُ ... أنَّ انطلاقي إلى الحَجَّاجِ تَغريرُ

لَئنْ ذَهَبْتُ إلى الحَجَّاجِ يَقْتُلُني ... إنِّي لأحْمَقُ مَنْ تُحْدَى به الْعيرُ

مستحقباً صُحُفاً تَدْمَى طَوَابِعها ... وفي الصَّحائفِ حَيّاتٌ مَنَاكِيرُ

وقال الأصمعيّ: يقال للحيَّة الذَّكر أيِّم وأيم، مثقَّل ومخفف، نحو ليِّن ولين، وهيِّن وهَين. قال الشاعر[٣]: [من البسيط]

هَيْنُونَ لَيْنُون أيْسارٌ ذَوُو يسرٍ ... سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أبْناءُ أيْسار

وأنشد في تخفيف الأيم وتشديده[٤]: [من الكامل]

ولقد وَرَدْتَ الماء لم تَشْرَبْ به ... زَمَنَ الرَّبيع إلى شُهور الصَّيِّفِ

إلاّ عَوَاسِرُ كالمِراط مُعِيدَةٌ ... باللَّيل مَوْرِدَ أيِّم متغضِّف

الصَّيِّف، يعني مَطَرَ الصَّيف. والعواسر: يعني ذئاباً رافعة أذنابها.

والمِراط: السهام التي قد تمرَّط ريشها. ومُعيدة: يعني معاودة للورْد. يقول هو مكانٌ لخَلائه يكون فيه الحيَّاتُ، وتَردُه الذِّئاب. ومتغضِّف يريد بعضُهُ على بعض، يريد تثني الحيَّة.

وأنشد لابن هند: [من البسيط]

أودَى بأمِّ سُليمَى لاطِئٌ لَبِدٌ ... كحيَّةٍ مُنْطَوٍ من بينِ أحجارِ

---

(١) ديوان ابن ميادة ٢٥١.

(٢) المؤتلف والمختلف ٢٤، والبيت الثالث في اللسان والتاج (نكر)، والتهذيب ١٠/١٩٢، وبلا نسبة في العين ٥/٣٥٥.

(٣) تقدم تخريج البيت في (ج٢ ص٣٠٠).

(٤) البيتان لأبي كبير الهذلي في شرح أشعار الهذليين ١٠٨٥، واللسان (عود، عبس، مرط، صيف، غضف، أيم)، والتاج (عبس، عود، مرط، غضف، أمل، عسل)، والتهذيب ٢/٨٢، ٣/١٣٠، ٨/١٦، ١٥/٥٥١، وللهذلي في الجمهرة ٢٤٨، وبلا نسبة في اللسان والتاج (عسر)، والمقاييس ١/١٦٦.

وقال محمد بن سَعيد : [من البسيط]

قريحة لم تُدنِّيها السِّياط ولم ... تُورَدْ عِراكاً ولم تعصر على كَدَرِ
كمنْطَوَى الحيَّةِ النَّضناضِ مكمنها ... في الصَّدر ما لم يهيِّجْها على زَوَرِ
الليث للَّيثِ منسوبٌ أظافرُهُ ... والحيَّةُ الصِّلُّ نجْل الحَيَّةِ الذَّكَرِ

وقال ذو الرّمّة[1] : [من الطويل]

وأحْوَى كأيم الضَّالِ أطْرَقَ بَعْدَمَا ... حَبَا تحتَ فينانٍ من الظِّلِّ وارفِ

قال : ويقال انبسَّت الحيَّات : إذا تفرَّقت وكثُرت . وذلك عند إقبال الصَّيف . قال أبو النَّجم[2] : [من الرجز]

* وانبسَ حيَّاتُ الكثيبِ الأهْيَلِ *

وقال الطِّرمَّاح[3] : [من الكامل]

وَتَجَرَّدَ الأسروعُ وَاطَّرَدَ السَّفَا ... وَجَرَتْ بجالَيْهَا الحدَابُ القَرْدَدُ
وانسابَ حَيّاتُ الكثيبِ وأقبلَتْ ... وُرْق الفَرَاشِ لما يَشُبُّ المُوقدُ

قال : ويقال جبأ عليه الأسودُ من حجره : إذا فاجأه . وهو يجبأ جبأً وجَبْواً .

وقال رجلٌ من بني شيبان[4] : [من الطويل]

وَما أَنَا مِنْ رَيْبِ المَنُونِ بجُبَّإٍ ... وَمَا أَنَا مِنْ سَيْبِ الإلهِ بيَائِس[5]

١١٤١ - [شرع الحيّة في اللبَن]

قال : ويقال : اللّبن مُحْتَضَرٌ فغطِّ إناءك . كأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أنّ الجنَّ تَشْرَع فيه، على

---

(١) ديوان ذي الرمة ١٦٣٦ ، والمخصص ١٠ / ١٩٥ ، وبلا نسبة في اللسان (ورف، فين، حبا)، والتاج (ورف)، والتهذيب ١٥ / ٢٣٩ .

(٢) ديوان أبي النجم ١٨٨ ، والطرائف الأدبية ٦٢ ، والجمهرة ٦٩ ، والمقاييس ١ / ١٨١ ، والمجمل ١ / ٢٢٩ ، واللسان (عدل) ، والتاج (عدل، هيل)، وبلا نسبة في المخصص ٧ / ٧ ، واللسان (بسس)، والتهذيب ١٢ / ٣١٦ .

(٣) ديوان الطرماح ١٣٤ (١١١) .

(٤) البيت لمفروق بن عمرو الشيباني في اللسان والتاج (جبأ)، وكتاب الجيم ١ / ١١٧ ، والتنبيه والإيضاح ١ / ٨ ، وبلا نسبة في العين ٦ / ١٩١ ، والمخصص ٣ / ٢٦ ، ١٥ / ١٤٨ ، والمقاييس ١ / ٥٠٤ ، والمجمل ١ / ٤٨١ ، وديوان الأدب ٤ / ١٧٤ ، واللسان والتاج (سيب)، والتهذيب ١١ / ٢١٥ ، ٢١٦ ، ١٣ / ٩٩ .

(٥) الجبأ : الهيوب الجبان .

تصديقِ الحديث في قَول المفقود لعمر، حينَ سأله وقد استَهْوَتْهُ الجانّ: ما كان طعامهم؟ قال الرِّمَّة. يريد العظم البالي. قال: فما شرابهم؟ قال: الجَدَف. قال: وهو كلُّ شراب لا يُخمَّر.

وتقول الأعراب: ليس ذلك إلاّ في اللّبَن. وأمّا النَّاس فيذهبون إلى أَنَّ الحَيَّاتِ تشرع في اللَّبَنِ، وكذلك سامُّ أبرص، كذلك الحيّات تشرع في كثير من المرق.

١١٤٢ - [حديث في المعصفر]

وجاء في الحديث: «لا تَبيتُوا في المعَصْفر؛ فإنها مُحْتَضَرَةٌ» أي يحضرها الجنُّ والعُمَّار.

١١٤٣ - [شعر فيه مجون]

وقال الشاعر فيما يمجُنُونَ به، من ذكر الأفعى[١]: [من الوافر]

رَمَاكَ اللّهُ مِنْ أيرٍ بِأَفْعًى ... ولا عافاكَ من جَهد البَلاَء

أجُبْناً في الكريهة حِينَ تَلْقَى ... ونَعْظاً ما تفتّرُ في الخَلاء!!

فلولا اللّه ما أمْسى رَفيقي ... ولولا البولُ عُوجِلَ بالخِصاء

وقال أبو النّجم[٢]: [من الكامل]

نظَرَتْ فأَعَجبها الذي في دِرْعِهَا ... من حُسْنها ونظرتُ في سِرباليا

فرأتْ لها كفلاً ينوء بخَصْرِها ... وعثا روادفُهُ وأخْثَمَ ناتيا[٣]

ورأيتُ منتشرَ العجَانِ مُقَبَّضَا ... رِخْواً حمائلُهُ وَجِلْداً باليا

أُدْنِي له الرَّكَبَ الحَلِيقَ كأَنَّمَا ... أُدني إليه عقارباً وأفاعيا[٤]

وقال آخر[٥]: [من الطويل]

مريضةُ أثْناءِ التَّهادي كأنّمَا ... تخافُ على أحشائها أنْ تَقَطَّعا

تسيب انسيابَ الأيْم أخْصَرَه النَّدَى ... يرفِّع من أطرافه ما ترفَّعَا

---

(١) الأبيات في المحاسن والمساوئ ٧٥.

(٢) ديوان أبي النجم ٢٣٥- ٢٣٦، والأغاني ١٠/ ١٥٨، وطبقات الشعراء ٧٤٧.

(٣) الوعث: المكان السهل الدهس؛ تغيب فيه الأقدام. الأخثم: المرتفع الغليظ. ناتيا: ناتئاً، بارزاً.

(١) الركب: الفرج.

(٥) البيتان لمسلم بن الوليد «صريع الغواني» في الحماسة البصرية ٢/ ٢٢٠-٢٢١، وفيه المزيد من المصادر، ولم يرد البيتان في ديوانه.

١١٤٤ - [شعر في العقربان]

وقال إياسُ بن الأرَتّ(١) : [من السريع]

كَأَنَّ مَرْعَى أمِّكُمْ سوءَة ... عقْرَبَةٌ يَكُومُها عُقْرُبانْ

إكليلُها زَوْلٌ وفي شَوْلِها ... وَخْزٌ حَديدٌ مِثْلُ وخْزِ السنانْ

كلُّ امرئٍ قَدْ يُتَّقَى مُقْبِلاً ... وأُمُّكُمْ قد تُتّقَى بالعِجَانْ

وقال آخَرُ(٢) لمُضيفه: [من الوافر]

تَبيتُ تُدَهْدِهُ القِذَّانَ حَوْلي ... كأنَّكَ عِنْدَ رأسي عُقْرُبانُ(٣)

فلو أطعمتني حَمَلاً سَميناً ... شَكَرْتُكَ؛ وَالطّعامُ له مكانُ

١١٤٥ - [شعر في الأفاعي]

وقال النّابغة(٤) : [من المتقارب]

فلو يستطيعون دبَّتْ لنا ... مَذَاكِي الأفاعي وأطفالُها(٥)

وقال رجلٌ من قريش: [من البسيط]

ما زالَ أَمْرُ وُلاةِ السُّوءِ مُنْتشِراً ... حتَّى أظلّ عليهم حَيّةٌ ذكَرُ

ذو مِرّةٍ تَفْرَقُ الحيَّاتُ صَوْلَتَهُ ... عَفُّ الشَّمائِلِ قَدْ شُدَّت له المِرَرُ

لم يأتِهِم خَبَرٌ عَنْهُ يلينُ له ... حَتّى أَتاهُمْ به عن نَفْسِهِ الخبرُ

وقال بشار(٦) : [من الطويل]

تزِلُّ القَوَافي عَنْ لِسَانِي كأنَّها ... حُمَاتُ الأفاعي ريقهُنّ قَضَاءُ

وقال: [من الطويل]

فكم من أخٍ قد كان يأمُلُ نفعَكُمْ ... شجاعٍ له نابٌ حديدٌ ومِخْلَبُ

أخ لو شَكَرْتُمْ فِعْلَهُ لَو عَضَضْتُم ... رُؤوسَ الأفاعي عَضّ لا يتهيَّبُ

---

(١) تقدمت الأبيات في الفقرة [٤٦٢].

(٢) البيتان لهيزدان بن اللعين المنقري في ذيل الأمالي ١٧، والأول له في معجم الشعراء ٤٦٩ مع بيت آخر، وهما بلا نسبة في عيون الأخبار ٣ / ٢٣٠.

(٣) تدهده: تدحرج. القذان: جمع قذة، وهي البراغيث.

(٤) لم يرد البيت في ديوان النابغة الذبياني.

(٥) المذاكي: جمع المذكّي، وهو المسن من كل شيء.

(٦) ديوان بشار بن برد ١ / ١٢٩، والمختار من شعر بشار ١٠.

وقال الحارث دعيُّ الوليد، في ذكر الأسْوَد بالسمّ من بين الحيّات: [من الطويل]

فإنْ أنتَ أقررْتَ الغَدَاةَ بنِسْبتي عُرِفتُ وإلاّ كنتُ فَقْعاً بقَرْدَدِ[1]

ويَشْمَتُ أعداءٌ ويجذَلُ كاشحٌ عَمَرْتُ لهم سُمّاً على رأس أسْوَدِ

وقال آخر: [من البسيط]

ومَعْشَرٍ مُنْقَعٍ لي في صُدُورِهِمُ سمُّ الأساوِدِ يغلي في المواعيدِ

وَسَمْتهُم بالقوافي فَوْقَ أعينهم وَسْمَ المعيديِّ أعناقَ المقاحيدِ[2]

وقال أبو الأسود[3] : [من المنسرح]

ليتَكَ آذنتني بواحدةٍ جَعَلتَها منْكَ آخرِ الأبَدِ

تحْلِفُ ألاّ تَبَرَّني أبداً فإنّ فيها بَرْداً على كَبِدي

إن كان رزقي إليك فارْمِ به في نَاظِرَيْ حَيّةٍ على رَصَدِ

وقال أبو السَّفّاح يرثي أخاه يحيى بن عميرة ويسمِّيه بالشجاع: [من السريع]

يَعْدُو فلا تكذبُ شَدَّاتُهُ كما عدا اللّيْثُ بوادي السِّباعْ[4]

يجمَعُ عَزْماً وأَنَاةً مَعاً ثُمَّتَ يَنْبَاعُ انبِيَاعَ الشجاعْ[5]

وقال المتلمِّس[6]: [من الطويل]

فأطْرَقَ إطرَاقَ الشجَاعِ، ولو يَرَى مَسَاغاً لنَابَيْهِ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

وقال معمر بن لقيط أو ابن ذي القروح: [من الطويل]

شموسٌ يظلُّ القوم معتصماً به وإن كان ذا حَزمٍ من القَوْم عادَيا

---

(١) الفقع: كمأة رخوة، ويقال في الأمثال «أذل من فقَع بقرقرة» ويضرب المثل للذليل، وذاك أن الفقع يوطأ بالأرجل، ولا يمتنع على من جناه، والمثل في مجمع الأمثال ١ /٢٨٤، والدرة الفاخرة ١ /٣٠٤، وجمهرة الأمثال ١ /٤٦٩، والمستقصى ١ /١٣٤. وأمثال ابن سلام ٣٦٧.

(٢) المقاحيد: جمع مقحاد، وهو ما عظم سنامه من الإبل. (القاموس: قحد).

(٣) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ٢٣٩، وعيون الأخبار ٣ /١٨٩، والأبيات لأبي زبيد في ديوانه ٦٠٥، والعقد الفريد ٥ /٢٩٨.

(٤) البيتان للسفاح بن بكير اليربوعي في شرح اختيارات المفضل ١٣٦٣، والثاني في التاج (بوع)، وهو بلا نسبة في اللسان (بوع، نبع، ثمم)، والتهذيب ١٥ /٧١، والمقاييس ١ /٣١٩.

(٥) ينباع: يثب ويسطو.

(٦) ديوان المتلمس ٣٤، والأصمعيات ٢٤٦، والخزانة ٧ /٤٨٧، والمؤتلف والمختلف ٧١، وبلا نسبة في الجمهرة ٧٥٧، وشرح المفصل ٣ /١٢٨.

أبيت كما بات الشجاع إلى الذُّرَى | وأغدُو على همِّي وإن بتُّ طَاوِيَا
وإنِّي أهُضُّ الضَّيم منِّي بصارمٍ | رهيفٍ وشيخٍ ماجدٍ قَدْ بَنَى ليا

وهكذا صفة الأفعَى؛ لأَنها أبداً نابتةٌ مستوية، فإنْ أنكَرَتْ شيئاً فَنَشْطتها كالبَرْقِ الخاطِف.

ووصف آخرُ أفعى، فقال[1]: [من الرجز]

وَقَدْ أُراني بطويٍّ الحسِّ | وذاتِ قرْنَيْنِ طَحُونِ الضِّرْس
نضناضةٍ مثلِ انثناء المَرْسِ | تدير عَيْناً كشهاب القَبْسِ
لمّا التَقَيْنَا بمَضِيقٍ شَكْسِ | حتى قنَصْتُ قَرْنَهَا بِخَمْسِ[2]

وهم يتهاجَوْنَ بأَكل الأَفاعي والحيّات. قال الشاعر: [من الطويل]

فإياكُمُ والرِّيفَ لا تَقرُبنَّهُ | فإن لديه الموتَ والحتمَ قاضيا
همُ طردوكم عن بلادِ أبيكُمُ | وأنتمْ حُلولٌ تشتَوون الأفاعيَا

وقال عمر بن أبي ربيعة[3]: [من الطويل]

ولمَّا فَقَدْتُ الصَّوتَ منهم وأُطْفِئَتْ | مصابيحُ شُبَّت بالعشَاء وأنؤُرُ
وغاب قُميرٌ كنت أرجُو مَغيبَه | وروَّح رُعيانٌ وهَوَّمَ سُمَّرُ
ونفَّضت عنِّي اللَّيلَ أقبلتُ مِشْيَةَ الـ | حُبَابِ، وركني خِيفَةَ القومِ أزْوَرُ

١١٤٦ - [ضرب المثل بسمّ الأساود]

وضَرَبَ كلثومُ بن عمروٍ، المثلَ بسمِّ الأساود، فقال[4]: [من الطويل]

تلوم على تَرْكِ الغنى بَاهليَّة | طوى الدَّهْرُ عنها كلَّ طِرْفٍ وتالدِ
رأتْ حولها النِّسوانَ يرفُلْنَ في الكُسَا | مقلَّدةً أجيادُها بالقلائد[5]
يسرُّكِ أنِّي نلتُ ما نالَ جعفرٌ | من الملكِ، أو ما نال يحيى بنُ خالد

---

(١) ورد البيت الثاني مع بيتين آخرين في اللسان والتاج (نهس).

(٢) الشكس: الضيق. (اللسان: شكس).

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٩٦، والخزانة ٥/٣١٨، وشرح المفصل ١٠/١١، وشرح شواهد الإيضاح ٥١٢.

(٤) ديوان كلثوم بن عمرو العتابي ٦٥، والبيان ٣/٣٥٣، وعيون الأخبار ١/٢٣١، ومحاضرات الراغب ١/٩٢، والحماسة الشجرية ١٤٠، ونهاية الأرب ٦/١٥١، وغرر الخصائص ٤٠٨.

(٥) يرفلن: يتبخترن. الكُسا: جمع كسوة.

وَأنّ أميرَ المؤمنين أعَضَّني مَعَضَّهما بالمرْهَفَاتِ البَوَاردِ![1]
ذريني تجئني ميتتي مُطْمئنَّةً ولم أتَقَحَّمْ هَوْلَ تلكَ الموارِدِ
فإن كريماتِ المعالي مَشُوبَةٌ بمستَوْدَعاتٍ في بطونِ الأساوِدِ

١١٤٧ - [القول في الحيّات]

وفي التشنيع لحيَّات الجبل، يقول اللَّعِينُ المِنْقَرِيُّ[2]، لرؤبة بن العجّاج: [من البسيط]

إنِّي أنا ابن جلا إن كنت تعرفني يا رُؤبَ، والحيَّةُ الصَّماء في الجَبَلِ
أبا الأراجيزِ يا ابنَ اللؤمِ تُوعدني وفي الأراجيز جَلْبُ اللؤمِ والكَسَلِ

الأصمعيُّ، قال: حدَّثني ابن أبي طرفة. قال[3] مرَّ قومٌ حُجَّاجٌ من أهل اليمن مع المساء، برجلٍ من هُذيل، يقال له أبو خِراش، فسألوه القِرَى، فقال لهم: هذه قدرٌ، وهذه مِسْقَاةٌ، وبذلك الشِّعب ماء! فقالوا: ما وفّيتنا حقّ قِرانا! فأخذ القِربَة فتقلّدَها يسقيهم، فنهشته حيَّة.

قال أبو إسحاق: بلغني وأنا حدث، أن النبي ﷺ «نَهَى عن اخْتِنَاث فمِ القِرْبة، والشرب منه»[4]. قال: فكنت أقولُ إنّ لهذا الحديث لشأناً، وما في الشرب من فم قِرْبَةٍ حتّى يجيء فيها هذا النهي؟! حتّى قيل: إنّ رجلاً شربَ من فمِ قربةٍ، فوكعته حيَّةٌ فمات، وإنَّ الحيَّاتِ تدخُل في أفواه القِرَب، فعَلِمْتُ أنّ كُلّ شيء لا أعرفُ تأويلَه من الحديث، أنّ له مذهباً وإن جَهِلْتُه.

وقال الشاعرُ في سَلْخِ الحيَّة: [من الرجز]

حَتَّى إذَا تَابَعَ بَيْنَ سَلْخَيْنْ وعادَ كالميسَم أحمَاهُ الْقَيْنْ[5]
أقبَلَ وهو واثقٌ بثِنْتَيْنْ: بسَمِّه الرَّأسَ ونَهْشِ الرِّجْلَيْنْ

قال: كأنهُ ذهب إلى أنّ سمَّه لا يكونُ قَاتِلاً مُجْهِزاً حتَّى تأتيَ عليه سنتان.

---

(١) المرهفات: السيوف المرققات. البوارد: التي تثبت في الضريبة ولا تنثني.
(٢) البيتان للّعين المنقري في الوحشيات ٦٣، والتاج (رجز)، وللمكعبر الضبي في حماسة البحتري ١٣.
(٣) الخبر في الأغاني ٢١/٢٢٧، والإصابة ٢٣٤١.
(٤) مسند أحمد ٣/٦، وسنن أبي داود في الأشربة ٣/٣٣٠، ومسلم صفحة ١٦٠٠، والنهاية ٢/٨٢.
(٥) الميسم: أداة الوسم. (القاموس: وسم). القين: الحداد. (القاموس: قين).

وزعم بعضهم أنّ السّلخَ للحيّة مثلُ البزُولِ والقروح للخف والحافر. قال: وليس ينسلخ إلاّ بعد سِنينَ كثيرةٍ، ولم يقفُوا من السِّنين على حَدٍّ.

وزعم بعضهم أنّ الحَيّةَ تَسْلخُ في كُلِّ عامٍ مرَّتين، والسلخ في الحيات كالتَّحسير من الطير، وأنّ الطير لا تجتمع قويّةً إلاّ بعد التحسيرِ وتمامِ نباتِ الرِّيش. وكذلك الحيَّة، تضعُف في أيامِ السَّلخ ثمَّ تشتدُّ بعد.

قال الأصمعيّ: أخبرني أبو رفاعة، شيخٌ من أهل البادية، قال: رأيتُ في المنام كأني أتخطّى حَيّات. فمطرت السماء، فجعلت أتخطى سُيولاً.

وحكى الأصمعيُّ أنَّ رجلاً رأى في المنام في بيوته حَيَّاتٍ، فسأل عن ذلك ابن سِيرِينَ أو غيره، فقال: هذا رجلٌ يدخل منزلَه أعداءُ المسلمين. وكانت الخوارجُ تجتمعُ في بيته.

قال العرْجِيُّ[١]، في دبيب السمِّ في المنهوش: [من الطويل]

وأُشْرِبَ جِلْدِي حُبَّها وَمَشى بِهِ ... كمشي حُمَيَّا الكَأسِ في جِلد شاربِ
يَدِبُّ هَوَاهَا في عظامي وحبها، ... كما دَبَّ في الملسوع سمُّ العَقاربِ

وقال العرجيُّ في العرماءِ من الأفاعي، وكونها في صُدوعِ الصَّخْر، فقال[٢]: [من الطويل]

تأتي بليلٍ ذُو سعاة فسَلّها ... بها حافظ هاد ولم أرق سلما
كمثل شِهاب النَّارِ في كفِّ قابسٍ ... إذا الرِّيحُ هبت من مكانٍ تَضرَّمَا
أبرَّ على الحُوَّاءِ حتى تَنَاذَرُوا ... حِمَاهُ محاماة من الناس، فاحتمى
يظلّ مُشيحاً سامعاً، ثمَّ إنها ... إذا بُعِثت لَمْ تَألُ إلاّ تَقَدُّما

قال: ويقال: تطوَّت الحيَّة. وأنشد العرجِيُّ[٣]: [من الخفيف]

ذكَرَتْني إذْ حَيَّةٌ قد تطوّتْ ... فرقا عند عرسه في الثياب[٤]

---

(١) ديوان العرجي ١٤٦، والبصائر والذخائر ٢/٤٤٧، وهما للعرجي أو عامر بن مالك الفزاري في الحماسة البصرية ٢/٢٢٩، وبلا نسبة في حماسة القرشي ٢٦٠.

(٢) ديوان العرجي ٣٧.

(٣) ديوان العرجي ١١٥، ورواية صدره فيه: (وركوبٌ إذا الجبان تطوّى).

(٤) تطوت: انقبضت والتفت، فرقاً: خوفاً.

وقال الشَّماخ، أو البَعيث[1]: [من الطويل]

وأطرَقَ إطراقَ الشجاعِ وقَدْ جَرَى ... على حَدِّ نَابَيْهِ الذُّعافُ المسمِّمُ

١١٤٨ - [ما ينبح من الحيوان]

والأجناس التي تُذْكَرُ بالنُّباحِ: الكلب، والحيَّةُ[2]، والظَّبْيُ إذا أسنَّ، والهُدهدُ. وقد كتبنا ذلك مرة ثَمَّ.

قال أبو النَّجم[3]: [من الرجز]

والأسد قد تَسْمَعُ مِنْ زئيرِها ... وباتت الأفعى على مَحْفُورِها

تأسيرُها يحتَكُّ في تأسيرِها ... مرّ الرَّحَى تجري على شَعيرِها[4]

كرَعْدَةَ الجرَاء أو هديرِها ... تضرُّمَ القَصْباء في تَنُّورِها

توقّر النَّفس على توقيرها ... تعلّم الأشياء في تنقيرها

في عاجل النفْسِ وفي تأخيرها

١١٤٩ - [أقسام الحيوان من حيث تحركه]

وسنذكر مسألة وجوابها. وذلك أنَّ ناساً زعموا أنّ جميع الحيوان على أربعة أقسام. شيء يطير، وشيءٍ يمشي، وشيء يعوم، وشيءٍ ينساح.

وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِه، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾[5].

وقد وَضَعَ الكلامَ على قسمة أجناس الحيوان، وعلى تصنيف ضروب الخلْق، ثمَّ قَصَّرَ عن الشيء الذي وضعَ عليه كلامَهُ، فلم يذكر ما يطير وما يعومُ، ثمَّ جعل ما ينساحُ، مثلُ الحيَّاتِ والدِّيدان، ممَّا يمشي؛ والمشي لا يكون إلاّ برجل، كما أنَّ العضّ لا يكون إلا بفمٍ، والرَّمْح لا يكون إلاّ بحافر؛ وذكر ما يمشي على أربعٍ، وها هنا

---

(١) ملحق ديوان الشماخ ٤٦١.

(٢) في المخصص ٨/ ١١٥ (الأفاعي تكش خلا الأسود، فإنه يصفر وينبح ويضبح).

(٣) ديوان أبي النجم ١١٣- ١١٤.

(٤) التأسير: السير يؤسر به السرج، وجعله هنا لجلد الحية.

(٥) ٤٥/ النور: ٢٤.

دوابُّ كثيرةٌ تمشي على ثمانِ قوائمَ، وعلى ستٍّ، وعلى أكثرَ من ثمانٍ. ومَن تفقَّدَ قوائمَ السَّرطانِ وبناتِ وَرْدَانَ، وأصنافَ العناكب - عرفَ ذلك.

قلنا: قد أخطأتم في جميع هذا التَّأويل وَحدَه. فما الدَّليلُ على أنَّهُ وضع كلامَهُ في استقصاء أصناف القوائم؟ وبأيِّ حُجة جزَمْتم على ذلك؟ وقد قال اللّه عزَّ وجلّ: ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[1] وترَكَ ذكْرَ الشَّيَاطِينِ وَالنَّارُ لهُمْ آكلُ، وعذابُهم بها أشدُّ. فَتَرَكَ ذكرَهم من غير نسيان، وعلى أنَّ ذلك معلومٌ عند المخاطب. وقد قال اللّه عزَّ وجلّ: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾[2] أخرج من هذا العموم عيسى ابنَ مريم، وقد قَصَدَ في مخرَجِ هذا الكلام إلى جَميع ولد آدمَ. وقال: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾[3] أدخَلَ فيها آدمَ وحوَّاءَ. ثمَّ قال على صلة الكلام: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيه ﴾[4] أخرج منها آدمَ وحوَّاءَ وعيسى ابنَ مريمَ.

وحَسنُ ذلك إذ كان الكلامُ لم يُوضَع على جمِيع ما تعرفه النُّفوسُ من جهة استقصاء اللَّفظ. فقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمشِي عَلَى بَطْنِه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾[5] كان على هذا المثال الذي ذكرنا. وعلى أنّ كُلَّ شيءٍ يمشي على أربع فهو مما يمشي على رجلين، والذي يمشي على ثمانٍ هو مما يمشي على أربعٍ، وعلى رجلين وإذا قلت: لي على فلان عشرة آلاف درهم، فقد خبَّرت أنّ لك عليه ما بين درهمٍ إلى عشرة آلاف.

وأمَّا قولكم: إنَّ المشي لا يكون إلاَّ بالأرجل، فينبغي أيضاً أنْ تقولوا ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾[6]: إنّ ذلك خَطأ؛ لأنَّ السَّعي لا يكون إلاّ بالأرجل.

وفي هذا الذي جهِلتموه ضروبٌ من الجواب:

- أمّا وجهٌ منه: فهو قولُ القائل وقول الشَّاعر: «ما هُوَ إلاَّ كأَنهُ حيّة» و: «كأنّ مِشيته مِشْيةُ حيّة» يَصِفُونَ ذلك، ويذكرون عِنْدَهُ مِشيةَ الأيم والحُبَابِ، وذكورِ

(١) ٢٤/ البقرة: ٢.
(٢) ١١/فاطر:٣٥.
(٣) ١/ الإنسان: ٧٦.
(٤) ٢/ الإنسان: ٧٦.
(٥) ٤٥/ النور: ٢٤.
(٦) ٢٠/ طه: ٢٠.

الحيَّات. ومَنْ جعَلَ للحيّات مَشياً من الشعراء، أكثرُ من أن نقف عليهم. ولو كانوا لا يسمُّون انسيابَها وانسياحَها مشياً وسَعْياً، لكان ذلك مما يجوزُ على التشبيه والبدل، وأَنْ قَامَ الشيءُ مقامَ الشيء أو مقام صاحبه؛ فمن عادة العرب أن تشبِّه به في حالات كثيرة. وقال اللّه تعالى: ﴿هذاَ نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[1] والعذاب لا يكون نزُلاً، ولكنّهُ أجراه مُجْرَى كلامهم، كقول حاتمٍ حينَ أمرُوهُ بِفَصْدِ بعيرٍ، وَطَعَنه في سَنامه، وقال: «هذا فَصْدُهُ!»[2].

وقال الآخر[3]: [من الرجز]

فقلتُ يا عمرُو اطْعِمَنِّي تَمْرَا ... فكان تمْري كَهْرَةً وَزَبْرَا[4]

وذمَّ بعضهم الفأرَ، وذكرَ سوءَ أثرِها في بيته، فقال[5]: [من الرجز]

يا عَجّلَ الرَّحْمنُ بالعقابِ ... لِعامراتِ البيتِ بالخرابِ

يقول: هذا هو عمارتُها. كما يقول الرّجُل، «ما نَرَى مِنْ خيرك وَرِفْدِك إلاّ ما يبلُغُنا منْ حَطبك علينا، وفتِّكَ في أعضادِنا!»[6].

وقال النَّابغة في شبيهٍ بهذا، وليس به[7]: [من الطويل]

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم ... بِهِنّ فلولٌ من قِراعِ الكتائب

– ووجهٌ آخر: أنَّ الأعرابَ تزعُمُ – وكذلك قال ناسٌ من الحوَّائين والرَّقائين – إنّ للحيَّة حزوزاً في بطنه، فإذا مَشَى قامت حُزُوزُه، وإذا تَرَكَ المشْيَ تراجَعتْ إلى مكانها، وعادتْ تلك المواضعُ مُلْساً. ولم تُوجَدْ بِعَيْنٍ ولا لَمْس، ولا يبْلغها إلاّ كلُّ حَوَّاءٍ دقيقِ الحِسِّ.

وليس ذلك بأعجَبَ من شقْشقَة الجمل العربيِّ؛ فإنّه يظهرُها كالدَّلْو، فإذا هو أعادها إلى لَهَاتِهِ تراجَعَ ذلك الجلدُ إلَى موضعه، فلا يقدرُ أحدٌ عليه بلمْسٍ ولا عَين.

---

(١) ٥٦/الواقعة: ٥٦.

(٢) في مجمع الأمثال ٢/٣٩٤ (هكذا فَصْدي) والفصد: شق العرق لاستخراج دمه.

(٣) الرجز بلا نسبة في المخصص ٢/١٣٤، والبيان ١/١٥٣، والأضداد ١٧٨.

(٤) الكهرة: الانتهار. الزبر: الزجر.

(٥) الرجز بلا نسبة في ديوان المعاني ٢/١٥١، والبيان ١/١٥٢، وربيع الأبرار ٥/٤٧٠.

(٦) البيان ١/١٥٢-١٥٣.

(٧) ديوان النابغة الذبياني ٤٤، والخزانة ٣/٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٤، وشرح شواهد المغني ٣٤٩، ومعاهد التنصيص ٣/١٠٧، واللسان (قرع، فلل).

وكذلك عروق الكُلَى إلى المثانة التي يَجْرِي فيها الحَصَى المتولِّد في الكُلية إذَا قَذَفَتْهُ تلك العروقُ إلى المثانة، فإذا بال الإنسانُ انضمّت العروقُ واتَّصلت بأماكنها، والتحمتْ حتى كان موضعُها كسائرِ ما جاوز تلك الأماكن.

– ووجهٌ آخر: وهو أنَّ هذا الكلام عربيٌّ فصيح؛ إذ كانَ الذي جاءَ به عربيّاً فصيحاً، ولو لم يكنْ قرآناً من عند اللّه تبارك وتعالى، ثمَّ كان كلامَ الذي جاء به، وكان ممّن يجهل اللَّحنَ ولا يعرفُ مواضعَ الأسماء في لُغته، لكان هذا – خاصَّةً – ممَّا لا يجهلُه.

فلو أنَّنا لم نجعل لمحمَّدﷺ، فضيلة في نُبُوَّةٍ، ولا مزيَّةً في البيان والفصاحة، لكُنَّا لا نجد بُدّاً من أن نعلم أنَّهُ كواحدٍ من الفصحاء. فهل يجوزُ عندكم أن يخطئَ أحدٌ منهم في مثلِ هذا في حديثٍ، أو وصفٍ أو خُطبةٍ، أو رسالة، فيزعُمَ أن كذا وكذا يمشي أو يسعى أو يطير، وذلك الذي قال ليس من لُغته ولا من لغة أهله؟! فمعلومٌ عندَ هذا الجواب، وعند ما قبله، أنَّ تأويلَكُمْ هذا خطأ.

وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[1] وأصحابُ الجنّة لا يوصفون بالشُّغُل، وإنَما ذلك جوابٌ لقول القائل: خبِّرني عن أهل الجنَّة، بأيِّ شيءٍ يتشاغلون؟ أم لهم فراغٌ أبداً؟ فيقول المجيب: لا، ما شُغُلهم إلاَّ في افتضاضِ الأبكار، وأكْلِ فواكه الجنَّة، وزيارةِ الإخوانِ على نجائب الياقوت!

وهذا على مثالِ جَوابِ عامر بنِ عبد قيس، حين قيل له وقد أقبل مِنْ جهة الحلبة، وهو بالشام: مَنْ سَبَقَ؟ قال: رسول اللّه ﷺ! قيل: فَمَنْ صَلَّى؟ قال: أبو بكر! قال: إنَّمَا أسألك عن الخيل! قال: وأنا أجيبك عن الخير![2]

وهو كقول المفسِّر حين سُئل عن قوله: ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وعَشِيّاً﴾[3] فقال: ليس فيها بُكرةٌ وعشيٌّ. وقد صدَقَ القرآنُ، وصَدَق المفسِّر، ولم يتَناكرا، ولم يتنافيا؛ لأنَّ القرآن ذهبَ إلى المقادير، والمفسِّرَ ذهبَ إلى الموجودِ، مِن دوَران ذلك مع غروب الشَّمس وطلوعِها.

---

(١) ٥٥/يس: ٣٦.

(٢) البيان ٢/٢٨٢.

(٣) ٦٢/ مريم: ١٩.

وعلى ذلك المعنى رُوي عن عمر أنَّهُ قال: «مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، أنا أنْهَى عنهما وأضربُ عليهما»[١].

قد كان المسلمون يتكلمون في الصَّلاة ويطَبِّقون[٢] إذا ركعوا، فنَهَى عن ذلك إمامٌ من الأئمَّة، وضَرَبَ عليه، بعد أن أظهَرَ النَّسخ، وعرَّفهم أن ذلك من المنسوخ، فكأَنَّ قائلاً قالَ: أتنهانا عن شيءٍ، وقد كان على عهد النبيِّ ﷺ؟ فيقول: نعم. وقد قدَّم الاحتجاجَ في النَّاسخ والمنسوخ.

ومن العجَب أنَّ ناساً جعلُوا هذا القولَ على المنبر من عيوبه. فإن لم يكن المعنى فيه على ما وصفنا، فما في الأرضِ أجهلُ من عُمَرَ حين يُظهرُ الكُفْرَ في الإسلام على منبر الجماعة، وهو إنَّما علاه بالإسلام. ثمَّ في شيءٍ ليس له حُجَّةٌ فيه ولا علة. وأعجَبُ منه تلك الأمّة، وتلك الجماعة التي لم تُنْكِرْ تلك الكلمةَ في حياته، ولا بَعْدَ موته؛ ثمّ تَركَ ذلك جميعُ التَّابعين وأتباعِ التَّابعين، حتَّى أفضَى الأمرُ إلى أهْلِ دهرنَا هذا.

وتلك الجماعة هم الذين قتلوا عُثمان على أن سيَّرَ رجلاً، وهذا لا يقوله إلاّ جاهلٌ أو معاند.

وعلى تأويل قوله: ﴿هذَا نُزُلُهمْ يَوْمَ الدِّين﴾[٣] قال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المهَادُ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٥] فجعل للنَّار خزائن، وجعل لها خزنة، كما جعل في الجنَّةِ خزائن وجعل لها خَزَنَة.

---

(١) البيان ٢ / ٢٨٢، المتعتان هما متعة النساء ومتعة الحج، والأول يسمى نكاح المتعة، وقد نهى عنه الرسول ﷺ، أما متعة الحج: فهي محرمة على مكان مكة في الحديث «ليس لأهل مكة تمتع ولا قران»، وانظر القول في هاتين المتعتين في النهاية ٤ / ٢٩٢، وهاتان المتعتان حرمتا من قبل النبي ﷺ، ومعنى قول عمر بن الخطاب: «أنا أنهي عنهما كما نهى عنهما الرسول» وليس المراد أن الرسول أحلهما، وعمر حرمهما.

(٢) في النهاية ٣ / ١١٤، «كان يطبق في صلاته: هو أن يجمع بين أصابع يديه ويجعلهما بين ركبتيه في الركوع والتشهد» وانظر البيان ٢ / ٢٨٢.

(٣) ٢٠ / طه: ٢٠.

(٤) ٥٦ / ص: ٣٨.

(٥) ٧١ / الزمر: ٣٩.

ولو أنَّ جهنَّمَ فُتحتْ أبوابُها، ونُحّي عنها الخَزَنَة، ثمّ قيل لكلِّ لصٍّ في الأرض، ولكلِّ خائن في الأرض: دونَكَ؛ فقد أُبيحَتْ لك! لَمَا دنا منها، وقد جُعِل لها خزائنٌ وخزَنة. وإنَّما هذا على مثالِ ما ذكرنا. وهذا كثيرٌ في كَلاَمِ العَرَب.

والآيُ التي ذكرنا في صِدْقِ هذا الجواب، كلها حُجَجٌ على الخوارج في إنكارهم المنْزِلة بين المنزلتين.

١١٥٠ - [شعر في الحيات]

وقال خَلفٌ الأحمرُ في ذكر الحيّات: [من الوافر]

يَرَوْنَ المَوْتَ دوني إن رأَوْني وَصِلٌّ صَفاً لِنَابَيْه ذُبَابُ[١]
مِنَ المُتَحَرِّمات بِكَهف طَودٍ حَرَامٍ ما يُرَامُ له جَنَابُ[٢]
أبى الحاوُونَ أن يطَؤوا حِمَاهُ ولا تَسْري بعَقوته الذِّئابُ[٣]
كأَنَّ دَماً أُمِيرَ على قَرَاهُ وَقَطْرَاناً أُمِيرَ به كُبابُ[٤]
إذا ما استجرس الأصواتَ أبدى لساناً دونه الموتُ الضباب
إذا ما الليلُ ألبَسَهُ دُجَاهُ سَرَى أصمى تَصِيحُ له الشِّعاب[٥]

فقلت لحيّان بن عتبي: لِمَ قال موسى بنُ جابر الحنفيُّ: [من الرمل]

طَرَدَ الأَرْوَى فما تقرَبُهُ وَنَفَى الحيّاتِ عَنْ بَيْض الحجلْه

قال: لأنَّ الذِّئاب تأكُلُ الحيّات. قلت: فلم قال خلفٌ الأحمر:

* ولا تسري بعَقوته الذئاب؟ *

قال: لأنَّ الذِّئاب تأكُل الحيّات. فَظننت أنَّه حَدَسَ ولم يقُل بعلم.

وقال الزِّياديُّ في يحيى بن أبي حفصة[٦]: [من البسيط]

إنِّي ويحيى وما يبغي كملتَمِسٍ صَيْداً وما نال منه الرِّيَّ والشِّبَعا

---

(١) ذباب الناب: طرفه الحاد. (القاموس: ذبب).
(٢) طود حرام: جبل لا يستطاع القرب منه.
(٣) العقوة: الساحة. (القاموس: عقو).
(٤) أمارَ الدم: أساله. (القاموس: أمر). القرا: الظهر. (القاموس: قرا). الكباب: التراب. (القاموس: كبب).
(٥) الأصمى: الشديد الوثاب.
(٦) تقدمت الأبيات في الفقرة (١٠٩١).

أَهْوَى إلى باب جُحْرٍ في مقدَّمه ... مثْلُ الْعَسيب تَرَى في رأسه قَزَعا
اللَّوْنُ أَرْبَدُ والأنيابُ شابكَةٌ ... عُصْلٌ تَرَى السُّمَّ يجري بينها قطَعَا
يَهْوي إلى الصَّوْتِ والظلماءُ عاكفةٌ ... تَعَرُّدَ السّيْلِ لاقى الحَيْدَ فاطَّلَعَا
لو نَالَ كفَّكَ آبَتْ منه مخضبة ... بَيْضَاءَ قد جللت أنيابها قزعا
بيعَتْ بوكْسٍ قليلٍ فاستقلّ بها ... من الهُزَالِ أبوها بعد ما ركعا

فردَّ عليه يحيى فقال[1]: [من البسيط]

كم حيّةٍ ترهَبُ الحيَّاتُ صَوْلَتَهُ ... يَحْمَى لرَيْدَيْه قد غادرتُه قطَعا[2]
يلقَيْنَ حَيَّةَ قفٍّ ذا مُسَاوَرَةٍ ... يُسْقَى به القرْنُ من كأس الرَّدى جُرَعا[3]
تكاد تسقُطُ منهنَّ الجلودُ؛ لمَا ... يَعلَمْنَ منه إذا عايَنَّهُ، قَزَعَا[4]
أصمَّ ما شمَّ من خَضْرَاءَ أيبسها ... أو مسّ من حجر أوْهاه فانْصَدَعَا[5]

وقال آخر: [من السريع]

وكم طَوْتَ من حَنَشٍ راصدٍ ... للسَّفْرِ في أعلى الثّنيَّات
أصمَّ أعمَى لا يُجيبُ الرُّقى ... يفترُّ عن عُصْلٍ حديدات[6]
منهرت الشدق رَقُود الضحى ... سارٍ طَمُورٍ في الدُّجُنَّات[7]
ذي هامَة رَقْطَاءَ مَفطوحة ... من الدَّواهي الجبليَّات
صلٍّ صَفاً، تنطفُ أنيابُهُ ... سمامَ ذَيْفانٍ مجيرات[8]
مُطَلنَ في اللَّحْيَيْنَ مَطْلاً إلى ... رأسٍ وأشداقٍ رَحيبات
قَدَّمْنَ عن ضرْسَين واستأخَرَا ... إلى سَمَاخَينِ ولَهوات[9]
يُسْبِتُهُ الصُّبْحُ وطوراً له ... نفَخٌ ونفثٌ في المغارات[10]

---

(١) الوحشيات ٨٦–٨٧.
(٢) الرَّيْد: الحرف الناتئ من الجبل. (القاموس: ريد).
(٣) القف: مرتفع حجري. (القاموس: قفف).
(٤) القزع: القطع من السحاب، ويعني هنا القطع المتفرقة. (القاموس: قزع).
(٥) تقدم هذا البيت مع أبيات الزماني «الزيادي» في الفقرة (١٠٩١).
(٦) عصل، جمع أعصل، وهو الملتوي والمعوج. (القاموس: عصل).
(٧) منهرت: واسع. (القاموس: هرت). الطمور: الوثاب. (القاموس: طمر).
(٨) تنطف: تقطر. (القاموس: نطف). الذيفان: السم القاتل. (القاموس: ذيف).
(٩) لهوات: جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق.
(١٠) سبته: أنامه. (القاموس: سبت).

وتارةً تحسبُه ميِّتاً من طول إِطراق وإِخباتِ [١]

وقال آخر، وهو جاهليٌّ[٢]: [من الرجز]

لا هُمَّ إِنْ كان أبو عمرٍو ظلَمْ وخانني في علمه وقد عَلِمْ
فابعث له في بعض أعراض اللَّمَمْ لميمةً مِنْ حَنَشٍ أعَمى أصمْ
أسْمَرَ زَحَّافاً من الرُّقْط العُرُمْ قد عاش حتى هو لا يمشي بدَمْ[٣]
فكُلَّمَا أقصد منه الجوعُ شمْ حتى إذا أمسى أبو عمرٍو ولم
يمسّ منه مَضَضٌ ولا سَقَمْ قامَ وودَّ بعدَها أنْ لم يَقُمْ
ولم يَقُمْ لإِبْلٍ ولا غنَمْ ولا لخوفٍ راعَهُ ولا لهَمْ
حتَّى دَنا من رأسِ نضناضٍ أصمْ فخاضه بين الشِّراك والقَدَمْ[٤]
بمِذْرَبٍ أخرجَهُ من جَوْف كِمْ كأنّ وخْزَ نابه إذا انتظَمْ[٥]

وَخزَةُ إِشفَى في عطوف من أدَمْ [٦]

ومخالب الأسد وأشباه الأسد من السِّباع، تكون في غُلُف، إذا وطئت على بُطونِ أكُفها ترفّعت المخالبُ ودخلَتْ في أكمام لها، وهو قولُ أبي زُبَيْد[٧]: [من الوافر]

بحُجْنٍ كالمحاجنِ في فتوخ يَقيها قضَّةَ الأرْض الدَّخيسُ[٨]

وكذلك أنياب الأفاعي، هي ما لم تعضَّ فَمصُونَةٌ في أكمام، ألا تراه يقول[٩]: [من الرجز]

فَخَاضَهُ بَينَ الشِّرَاكِ والقَدَمْ بِمِذْرَبٍ أخرجَهُ من جَوْفِ كِمْ

---

(١) الإطراق: النظر إلى الأرض والسكوت. (القاموس: طرق). الإخبات: الخشوع. (القاموس: خبت).
(٢) الرجز لخلف الأحمر في مجمع الذاكرة ١/١٦٢، وبلا نسبة في البرصان ٢٣٣-٢٣٤، وسمط اللآلي ٤٩٠.
(٣) العرم: جمع أعرم، وهو المنقط بسواد وبياض. (القاموس: عرم).
(٤) نضنض الشيء: حركه. (القاموس: نضض).
(٥) المذرب: عنى به ناب الحية.
(٦) الإشفى: المخرز. الأدم: الجلد المدبوغ. (القاموس: أدم).
(٧) ديوان أبي زبيد الطائي ٦٣٢. والبرصان ٢٣٣، والمعاني الكبير ١٠٣٦.
(٨) الحجن: المخالب، والمحجن: العصا المعوجة، والفتوخ: الاسترخاء واللين، القضة: الحصى الصغار، الدخيس: لحم الكفين.
(٩) تقدم الرجز قبل ستة أسطر.

وقال آخر[1]: [من الرجز]

أنعتَ نضناضاً كثيرَ الصَّقْرِ مولده كمولد ابن الدّهْر[2]

كانا جميعاً وُلِدَا في شَهْرِ يظلُّ في مَرْأًى بَعيدِ القَعْرِ

بَيْنَ حوافِي سَدِرٍ وصَخْرِ[3]

وقال: [من الطويل]

وكيفَ وقد أَسْهَرْتَ عَيْنَك تبتغي عِنَاداً لِنَابَيْ حَيّةٍ قد تَربَّدا[4]

من الصُّمِّ يكفي مرَّةٌ من لُعَابِهِ وما عَاد إلاّ كانَ في الْعَوْدِ أَحْمَدَا[5]

وقال خلفٌ الأحمر - وهي مخلوطةٌ فيها شيء، وله شيء، من الغبرة وما علمتُ أنّ وصف عَيْنَ الأفعى على معرفةٍ واختبار غيرِه - وهو قولُه[6]: [من الرجز]

١ - أفعَى رَخُوف العين مِطْرَاق البُكرْ داهية قد صغرت من الكبرْ[7]

٣ - صِلّ صَفاً ما ينطوي من القِصَرْ طويلة الإطراق من غير حسرْ[8]

٥ - كأَنَّما قَدْ ذهبَتْ بهِ الفِكَرْ شُقَّتْ له العَيْنان طُولاً في شَتَرْ

٧ - مهروتة الشدقَينِ حولاء النظرْ جاءَ بها الطُّوفان أيامَ زَخَرْ

٩ - كأَنّ صوتَ جلدِها إذا استدرّ نشيشُ جمر عندَ طاهٍ مقتَدِرْ

١١٥١ - [أحاديث في الوزغ]

هشام بن عروة قال: أخبرني أبي أنَّ عائشة أمَّ المؤمنين رضي اللّه عنها كانَتْ تَقْتُلُ الأَوْزَاغ.

---

(١) الرجز بلا نسبة في المخصص ١٣/٢٠٨.

(٢) الصقر: أراد به لعابه وسمه.

(٣) السدر: البحر.

(٤) تربد: صار أربد، والربدة؛ بالضم؛ لون إلى الغبرة. (القاموس: ربد).

(٥) من الأمثال قولهم: (العود أحمد)، والمثل في مجمع الأمثال ٢/٣٤، ٢٣٣، والمستقصى ٣٣٥، وجمهرة الأمثال ٢/٤١، وفصل المقال ٢٥٢، وأمثال ابن سلام ١٦٩.

(٦) الأبيات (٣، ٤، ٧، ٢) للنابغة في ديوان المعاني، وربيع الأبرار ٥/٤٧٥، وحماسة ابن الشجري ٢٧٣-٢٧٤، ولخلف الأحمر في مجمع الذاكرة ١/١٤٣- ١٤٤.

(٧) رخوف: مسترخية.

(٨) الصل: من أخبث الحيات، الإطراق: النظر إلى الأرض مع السكون. (القاموس: طرق).

يحيى بن أبي أُنَيسة ، عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة قالت[1]:« سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول للوزغ: فويسِق».

قالت[1]:« ولم أسمَعْ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمَرَ بقتله».

قال: قالت عائشة رضي اللّه عنها[1]: «سمعت سعداً يقول: أمرَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقتله».

عبد الرحمن بن زياد قال: أخبرني هشامٌ عن عروة عن عائشة « أنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال للوزَغ: الفُويسق».

أبو بكر الهذليُّ، عن مُعاذ عن عائشة قالت:« دخلَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليَّ وفي يدي عُكَّازٌ فيه زُجٌّ، فقال: يا عائشة مَا تَصنعين بهذا؟ قلت: أقتُلُ به الوزَغَ في بيتي. قال: إن تفعلي فإنّ الدَّوَابَّ كلها، حين ألقيَ إبراهيمُ صلى اللّه عليه وسلم في النَّار، كانت تُطفئ عنه، وإنّ هذا كانَ ينفخُ عليه، فَصَمّ وبَرِص»[2].

وهذه الأحاديثُ كلها يحتجُّ بها أصحابُ الجهالات، وَمَنْ زَعَمَ أنّ الأشياءَ كلها كانتْ ناطقةً، وأنها أممٌ مجراها مجرى الناس.

١١٥٢ - [تأوُّل آيات من الكتاب]

وتأوّلوا قوله تعالى: ﴿وَمَا منْ دَابَّةٍ في الأرْض ولاَ طَائرٍ يَطير بجنَاحَيْه إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَا فَرَّطْنَا في الْكتاب منْ شَيء﴾[3]، وقالوا: قال اللّه عزّ وجلَّ: ﴿إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمواَت وَالأرْضِ وَالجبَال فَأبَيْنَ أنْ يَحْملْنَها وأشْفَقْنَ منْها وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[4] وقال تعالى: ﴿يَا جبَالُ أوّبي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[5] وقال: ﴿وَإنَّ منَ الحجَارَة لَما يَتَفجرُ منْهُ الأنْهَارُ وَإنَّ منها لَما يشَّقّقُ فَيَخْرُجُ منْهُ المَاءُ وَإنَّ منْها لَما يَهْبطُ منْ خَشية اللّه﴾[6].

---

(١) أخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٣٠ «عن ابن شهاب، عن عروة: يحدث عن عائشة رضي اللّه عنها: أن النبي ﷺ قال للوزغ: فويسق. ولم أسمعه أمر بقتله، وزعم سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ أمر بقتله». وأخرجه مسلم في باب استحباب قتل الوزغ برقم ٢٢٣٩.

(٢) في النهاية ٥/ ١٨١ «ومنه حديث عائشة: لما أحرق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه»، وانظر أحاديث قتل الوزغ في جامع الأصول ١٠/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) ٣٨/ الأنعام: ٦.

(٤) ٧٢/ الأحزاب: ٣٣.

(٥) ١٠/ سبأ: ٣٤.

(٦) ٧٤/ البقرة: ٢.

فذهبت الجهمية وَمَنْ أَنْكَرَ إيجاد الطّبائع مذهباً، وذهب ابنُ حائط ومن لَفَّ لَفَّهُ من أصحابِ الجهالاتِ مذهباً، وذهب ناسٌ من غير المتكلمين، واتّبعوا ظاهرَ الحديثِ وظاهرِ الأشعَار، وزعموا أنّ الحجارة كانت تعْقِلُ وتَنْطِق، وإنَما سُلبت المنْطِق فقط. فأمَّا الطير والسِّباع فعلى ما كانَتْ عليه.

قالوا: والوَطواط، والصُّرد، والضفدعُ، مطيعاتٌ ومُثابات والعقرب، والحيَّةُ والحِدأة، والغراب، والوَزَغ، والكلب، و أشباهُ ذلك، عاصياتٌ معاقَبات.

ولم أقف على واحدٍ منهم فأقول له: إنَّ الوزَغةَ التي تقتلها على أنَّها كانت تُضْرِم النَّار على إبراهيم أهي هذه أم هي من أولادِها فمأخوذة هيَ بذَنب غيرها؟ أم تزعم أنَّهُ في المعلوم أنْ تكون تلك الوزَغُ لا تلد ولا تَبِيضُ ولا تُفْرِخُ إلاَّ من يدين بدينها، ويذهبُ مذهبها؟!

وليس هؤلاء مِمَّنْ يَفهَمُ تأويلَ الأحاديث، وأيَّ ضرب منها، يكون مردوداً، وأيَّ ضربٍ منها يكون متأوَّلاً، وأيَّ ضربٍ منها يقال إنَّ ذلك إنَّما هو حكايةٌ عن بَعْضِ القبائل.

ولذلك أقولُ: لولاَ مكانُ المتكلمين لهلكت العوامُّ، واختُطِفَتْ واستُرِقتْ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون.

١١٥٣ - [أحاديث في الوزغ]

شريكٌ عن التَّخَمِيٍّ، عن ليثٍ، عن نافع، أنّ ابن عمرَ كان يقتُلُ الوزَغ في بيته ويقول هو شيطان!

هشام بنُ حسَّان، عن خالد الرَّبعيِّ، قال: لم يكن شيءٌ من خَشاشِ الأرض إلاَّ كان يُطفئُ النّار عن إبراهيم، إلاّ الوزَغ، فإنَّهُ كان ينفخ عليه.

حنظلة بن أبي سفيان، قال: سمعت القاسمَ بنَ محمَّد يقول إنَّ الأوازغَ كانت يومَ حُرِق بيت المَقْدِس تنفُخُه والوطاوطَ بأجنِحَتها.

شريكٌ عن النَّخَعيّ، عن جابرٍ، عن ابن عباسٍ، قال: الوَزَغ شَرِيكُ الشيطان.

أبو داودِ الواسطيّ قال: أخبرنا أبو هاشم، قال[1]: مَنْ قَتَلَ وزغةً حطَّ الله عنه سَبعين خَطيئةً، ومن قتل سبعاً كان كَعِتْقِ رقَبة.

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي رقم ٨٩١٥. وانظر جامع الأصول ١٠/٢٣٦-٢٣٧.

هشامُ بن حسّان، عن واصلٍ مولى أبي عيينة، عن عقيل، عن يحيى بن يعمر، قال: لأَنْ أقتُلَ مائَةً من الوَزغ أحبُّ إليَّ من أنْ أعتقَ مائَةَ رقبة.

وهذا الحديثُ ليس من شكل الأوّل، لأنّ يحيى بنَ يعمر لم يزعمْ أنّهُ يقتله لكفره أو لكفر أبيه، ولكنها دابّةٌ تُطاعمُ الحيّات رتُزَاقُّها وتقاربُها، وربّما قتلَتْ بعَضَّتها، وتكرَع في المرَق واللّبن ثُمَّ تمجُّه في الأناء فينالُ النَّاسَ بذلك مكروهٌ كبيرٌ، من حيث لا يعلمون. وقتْلُه في سبيل قَتْلِ الحَيّاتِ والعقارب.

١١٥٤ - [صنع السم من الأوزاغ]

وأهلُ السِّجْنِ يعملون منها سموماً أنفَذَ من سم البيش(١)، ومن ريق الأفاعي، وذلك أنَّهم يُدخلون الوزَغَ قارورةً، ثمَّ يصبُّون فيها من الزَّيت ما يغمرُها، ويضعونها في الشَّمسِ أربعين يوماً، حتَّى تختلط بالزَّيت وتصيرَ شيئاً واحداً، فإنْ مسَحَ السَّجين منه على رغيف مَسْحةً يسيرةً فأكَلَ منه عشرةُ أنفسٍ ماتُوا. ولا أدري لِمَ توَخَّوْا من مواضع الدَّفْنِ عَتَبَ الأبواب.

١١٥٥ - [أوامر النبي ﷺ ونواهيه]

يحيى بن أبي أُنَيسة، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبد اللّه، قال: «أَمَرَنَا رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأرْبَعٍ ونَهانا عن أربع، أمَرَنا أن نُجيفَ أبوابنا، وأنْ نخمِّر آنيتنا، وأنْ نوكي أسقيَتَنا، وأنْ نُطفئَ سُرُجَنا. فإنَّ الشَّيطانَ إذا وجد باباً مُجَافاً لم يفتحْه، وإناءً مخمَّراً لم يكشفْه، وسقاءً مُوكًى لم يحلّه. وإنَّ الفُويسقَة تأتي المصباحَ فَتُضْرِمُه على أهل البيت(٢). ونهانا عن أربع: نهانا عن اشتمال الصَّمَّاء، وأنْ يمشيَ أحدُنَا في النَّعْلِ الواحدة أو الخُفِّ الواحد، وأنْ يَحْتَبِيَ الرَّجُلُ منَّا في الثَّوبِ الواحد ليس عليه غيره، وأنْ يستلقي أحدُنا على ظهره ويرفَعَ إحدى رجليه على الأخرى»(٣).

وهذا الحديث ليس هذا موضعَه، وهو يقع في باب جملة القول في النّار، وهويقع بعد هذا الذي يلي القول في النعام.

---

(١) البيش: نبت ببلاد الهند، وهو سم. (اللسان: بيش).

(٢) أخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٣٨ (عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنهما رفعه قال: «خمروا الآنية، وأوكوا الأسقية، وأجيفوا الأبواب، واكفتوا صبيانكم عند العشاء، فإن للجن انتشاراً وخطفة، وأطفئوا المصابيح عند الرقاد، فإن الفويسقة ربما اجترت الفتيلة فأحرقت أهل البيت» وانظر الحديث رقم ٣١٠٦، والحديث الذي أخرجه مسلم في الأشربة برقم ٢٠١٢.

(٣) أخرج البخاري في الصلاة برقم ٣٦٠ (عن أبي سعيد الخدري أنه قال: نهى رسول اللّه ﷺ عن اشتمال الصماء، وأن يحتبي الرجل في ثوب واحد، ليس على فرجه منه شيء)، وانظر أيضاً الأحاديث التي أرقامها ١٨٩٠، ٢٠٣٧، ٢٠٤٠، ٥٤٨٢، ٥٤٨٤، ٥٩٢٧.

١١٥٦ - [أحاديث في قتل الحيات]

شعبة أبو بسطام، قال أخبرني أبو قيس، قال: جلست إلى علقمة بن قَيْس ، وربيع بن خثيم فقال ربيع: قولوا وافعلُوا خيْراً تُجزَوْا خيراً، وقال علقمة: مَن اسْتَطَاعَ منْكُمْ ألاَّ يَرَى الحيَّة، إلاَّ قَتَلَهَا إلاَّ التي مثل الميل؛ فإنَّها جانٌّ. وإنَّهُ لا يضرُّه قتل حَيَّةٍ أو كافر.

إسماعيل المكيِ، عن أبي إسحاق، عن علقمة قال: قال عبد الله بن مسعود: من قتل حيَّةً فقتل كافراً.

ثم سمعت عبد الرحمن بن زَيد يقول: من قتل حَيَّةً أو عقرباً قَتَلَ كافراً.

وهذا ممَّا يتعلق به أصحابُ ابن حائِطٍ ، وتأويله في الحديث الآخَر.

عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي قال: سمعت القاسم بن عبد الرحمن، يقول: قال عبد الله : من قَتَلَ حَيَّةً أو عقرباً فكأنَّما قَتَلَ كافراً. فعلى هذا المعنى يكونُ تأليف الحديث.

سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة أن رسول الله صلى الله عَلَيْهِ وسلم قال: «مَا سَالَمْنَاهُنّ مُذْ حَارَبْنَاهُنّ».

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قالت عائشة: «مَنْ تَرَكَ قَتْلَ حَيَّةٍ مخافَةَ أثْآرِهَا فعليه لَعْنَةُ الله والملائكة».

الرَّبيعُ بن صبيحٍ عن عَطاء الخُراسانيّ قال: كان فيما أُخذَ على الحيّات ألاَّ يَظْهرْن. فَمَنْ ظهَرَ منهنَّ حلَّ قتلُه. وقتالُهنَّ كقتال الكفَّار، ولا يَتْرَكُ قتلَهُنّ إلا شَاكٌّ.

وهذا ممَّا يتعلَّق به أصحابُ ابنِ حائِط.

محمد بن عَجْلانَ قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : «ما سالَمْنَاهُنَّ مُذْ حَارَبْنَاهُنَّ».

ابن جُريج قال: أخبرني عبد الله بن عُبيد بنِ عميْر قال: أخبرَني أبو الطفيل أنَّه سمع علي بنَ أبي طالب رضي الله عنه يقول: «اقتلوا من الحيَّات ذا الطفيتين، والكلب الأسودَ البهيم ذا الغُرّتَينِ»(١).

قال: والغُرّة: حُوّة تكون بعينيه.

---

(١) النهاية ٣ / ١٣٠، ٣٥٤، وأخرج البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٢٣ (عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع النبي ﷺ يخطب على المنبر يقول: «اقتلوا الحيات، واقتلوا ذا الطفيتين والأبتر، فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحبل)، وأخرجه مسلم في السلام، باب قتل الحيات، رقم ٢٢٣٣.

١١٥٧ - [قول صاحب المنطق في طعام الحيوان ومسكنه]

قال صاحب المنطق: الطير عَلَى ضربين: أوابدُ وقواطعُ، ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيْرَه وإن لم يكن ذا سلاح. فأمَّا ذو السِّلاح فَوَاجبٌ أن يكون طعامُهُ اللَّحم. ومن الطَّير ما يأكُلُ الحُبُوبَ لا يَعْدُوها، ومنه المشترك الطِّباع، كالعصْفور والدَّجاج والغُراب. فإنها تأكلُ النوعين جميعاً، وكطير الماء، يأكُلُ السَّمَكَ ويلقط الحبّ. ومنه ما يأكل شيئاً خاصّاً، مثل جنس النّحل المعَسِّل الذي غذاؤه شيء واحد، وجنس العنكبوت، فإن طُعْمَ النحل المعسِّل العسل، والعنكبوت يعيشُ من صيد الذباب.

ومن الحيوان ما له مسكنٌ ومأوًى، كالخُلْد، والفأر، والنَّمل، والنَّحل، والضّبّ. ومنه ما لا يتَّخذُ شيئاً يرجع إليه كالحيَّات لأنَّ ذُكورةَ الحيَّات سَيَّارةٌ، وإناثُها إنَّما تُقيم في المكان إلى تمامِ خُروجِ الفِرَاخ من البَيض، واستغناء الفِرَاخِ بأنفُسِها. ومنها ما يكونُ يأوي إلى شُقوقِ الصُّخورِ والحِيطانِ، والمداخِلِ الضَّيِّقة، مثل سامّ أبرص.

قال: والحيّات تألفها كما تألف العقاربُ الخنافس. والعَظايا تألف المزابِلَ والخرابات. والوزَغُ قريبةٌ من النَّاس.

١١٥٨ - [زعم زرادشت في العظايا وسوامّ أبرص]

وزعم زَرَادَشْت أنَّ العظايا ليستْ من ذوات السُّموم، وأنَّ سامَّ أبرصَ من ذوات السُّموم، وأنّ أهرمن[١] لما قعد ليقسمَ السُّمومَ كان الحظ الأوْفرُ لكلِّ شيء سبقَ إلى طلبه، كالأفاعي، والثَّعابين والجرّارات، وأنّ نصيبَ الوزَغ نصيبٌ وسَطٌ قصْد، لا يكمل أن يقتُل، ولكنّه يزاقُّ[٢] الحيَّة، فَتُميرُهُ[٣] ممّا عندها. ومتى دَبَرَ[٤] الوزَغُ جاءَ منه السمُّ القاتل، أسرعَ من سمّ البيش، ومن لُعاب الأفاعي، فأمَّا العَظاية فإنّها احتبسَتْ عن الطَّلبِ حتى نَفَذَ السمُّ، وأخذ كلُّ شيء قسْطَهُ، على قَدْرِ السَّبق والبكور، فلما جاءتَ العظاية وقد فَني السمُّ، دخلها من الحسرة، وممّا علاها من الكرْب، حتى جعلت وجهها إلى الخرابات والمزابل، فإذا رأيْتَ العظايةَ تمشي مشْياً

---

(١) يرى زرادشت أن «أهرمن» هو رمز لقوة الشر، وأن «أرموزد» رمز لقوة الخير، وأنهما يظلان في نزاع إلى أن تتغلب قوة الخير على قوة الشر.

(٢) زق الطائر فرخه: أطعمه. (القاموس: زقق).

(٣) الميرة: الطعام. (القاموس: مير).

(٤) دبر: أدركه الهرم. (القاموس: دبر).

سريعاً ثمّ تقِفُ، فإنَّ تلك الوقْفة إنَّمَا هي لما يعرضُ لها من التذكُّر والحسْرة على ما فاتها مِنْ نصيبها من السمّ.

١١٥٩ - [الرد على ما زعم زرادشت]

ولا أعلم العَظايةَ في هذا القياس إلاَّ أكثر شُروراً من الوزَغ؛ لأنها لولا إفراط طباعها في الشَّرارة، لم يدخلها من قوَّة الهمِّ مثلُ الذي دخلَها ولم يستَبن للنَّاس من اغتباط الوزَغ بنصيبه من السمِّ، بقدْرِ ما استبان من ثُكل العظايةِ، وتسلُّلها وإحضارها وبكائها وحُزْنها، وأسَفِها على ما فاتها من السُّمِّ.

١١٦٠ - [زعم زرادشت في خلق الفأرة والسِّنّور]

ويزعم زَرَادشْت، وهو مذهبُ المجوسِ، أنَّ الفأرةَ مِنْ خلق اللّه، وأنّ السِّنّورَ من خَلْق الشَّيطان،وهو إبليس، وهو أَهْرمَن[١]. فإذا قيل له: كيف تقول ذلك والفأرةُ مُفسدةٌ، تجذب فَتيلة المِصباحِ فتحرق بذلك البيتَ والقبائلَ الكثيرةَ، والمدنَ العِظام، والأرباضَ الواسعة، بما فيها من النَّاسِ والحيوانِ والأموال، وتقرضُ دفاتر العِلْم، وكتبَ اللّه ، ودقائق الحساب، والصِّكاكَ[٢]، والشُّروطَ؛ وتقرضُ الثِّيابَ، وربَّما طلبت القُطنَ لتأكُلَ بزْرهَ فتدَعُ اللِّحاف غِرْبالاً، وتقرِض الجُرُب، وأَوْكية الأسقيَة والأزْقاقِ والقربِ فتخرجُ جميعَ ما فيها؛ وتقع في الآنية وفي البئر، فتموت فيه وتُحْوِج النَّاسَ إلى مُؤَنٍ عظام؛ وربَّما عضّت رِجْلَ النَّائم، وربَّما قتلت الإنسان بعضّتها. والفَأر بخُراسانَ ربَّما قَطَعتْ أذن الرَّجُل. وجرْذَانُ أنْطاكيةَ تَعْجزُ عنها السَّنانير، وقد جلا عنها قومٌ وكرهَها آخرون لمكانِ جرْذانها،وهي التي فجرت المسنَّاة[٣]، حتى كان ذلك سببَ الحَسْر[٤] بأرض سبأ؛ وهي المضروب بها المثَلَ، وسَيْل العَرِم ممَّا تؤرِّخُ بزمانه العَرب. والعَرِم: المسنَّاة. وإنما كان جُرَذاً.

وتقتل النَّخْل والفَسِيل، وتخرِّب الضَّيعة، وتأتي على أَزِمَّةِ الركاب والخُطُمِ، وغير ذلك من الأموال.

---

(١) أهرمن: رمز لقوة الشر، وانظر الفقرة (١١٥٨).

(٢) الصكاك: جمع صك، وهو الكتاب. (القاموس: صكك).

(٣) المسناة: السد الذي يعترض به الوادي.

(٤) حسر الماء عن الأرض: نضب.

والنّاسُ ربما اجتلبوا السَّنانير ليدفعوا بها بوائق الفأر - فكيفَ صار خَلقُ الضَّارِّ المفسدِ من اللّه، وخَلقُ النّافعِ من الضَّرَرِ منْ خَلق الشيطان؟!

والسِّنَّور يُعدى به على كلِّ شيء خَلقَهُ الشَّيطانُ من الحيَّاتِ، والعقارب، والجِعلان، وبناتِ ورْدان، والفأرةُ لا نَفْعَ لها، ومُؤنها عظيمة.

قال: لأنَّ السِّنَّورَ لو بَالَ في البحر لَقَتَلَ عشْرَةَ آلافِ سمكة!

فهَلْ سمعت بحُجّة قطُّ، أو بحيلة، أو بأضحوكة، أو بكلام ظهر على تلقيح هرة، يبلغ مُؤَن هذا الاعتلال؟! فالحمد للّه الذي كان هذا مقدارَ عقولهم واختيارهم.

وأنشد أبو زَيْد[1]: [من الرجز]

واللّه لو كنْتُ لهذا خالِصَا لكنْتُ عبداً آكلُ الأبارصا

يعني جماعَ سامٍّ أبْرص: أبارص.

١١٦١ - [تأثير أكل سامّ أبرص والسماني]

وسامُّ أبرص ربَّما قتَلَ أكله، وليس يُؤكل إلاَّ من الجوع الشَّديد. وربما قتَلَ السَّنانيرَ وبناتِ عِرْس، والشَّاهْمُرْكَ[2]، وجميع اللَّقاطَات.

وقال آخر[3]: [من الوافر]

كَأنَّ الْقَوْمَ عُشُّوا لَحْمَ ضَأنٍ فهُمْ نَعِجُونَ قد مالَتْ طُلاَهمْ

وهو شيءٌ يعرض عن أكْلِ دَسَم الضَّأن، وهو أيضاً يلقى على دسمه النّعاس. وقد يفعل ذلك الحبق. والخشخاش.

والخشخاشُ يسمَّى بالفارسيّة « أنارْ كِبُو » وتأويله رمَّان الخسّ. وإنما اشتقَّ له ذلك إذ كان يورثُ النُّعاس، كما يورثه الخس.

وأكلُ الطّعام الذي فيه سمَان يُورِثُ الدُّوَار. وزعموا أنَّ صبيّاً من الأعراب فيما

---

(١) لم يرد الرجز في نوادر أبي زيد، وهو بلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (برص)، وشرح المفصل ٩/٢٣، ٣٦، والمخصص ٨/١٠١، والمقاييس ١/٢١٩، ورصف المباني ١٩٥، والمنصف ٢/٢٣٢، والجمهرة ٣١٢، والبرصان ٩٢.

(٢) الشاهمرك: الفتي من الدجاج. حياة الحيوان « شامرك ».

(٣) ديوان ذي الرمة ١٠٩٧، واللسان والتاج (نعج)، والمعاني الكبير ٦٩٤، والجمهرة ٤٨٦، والتنبيه والإيضاح ١/٢٢٠، وخلق الإنسان ٢٧٥، وبلا نسبة في المخصص ٥/٨٠، وديوان الأدب ٢/٢٢٨، والمقاييس ٥/٤٤٨، والتهذيب ١/٣٨١.

مضى من الدَّهر، صادَ هامةً عَلَى قبر، فظنها سُمانَ، فأكلها فغثَتْ نفسه، فقال[1]: [من الرجز]

* نفسي تَمَقَّسُ مِنْ سُمَانى الأقبرِ *

ويقال: غَثَت نفسه غَثَياناً وغَثْياً ، ولَقِسَتْ تَلْقسُ لَقَساً، وتَمَقَّست تَتَمقَّسُ تمقساً: إذا غَثِيت.

١١٦٢ - [أكل الحيات]

وأخبرني صباح بن خَاقان، قال: كنتُ بالبادية، فرأيت ناساً حَولَ نَارٍ فسألتُ عنهم، فقالوا: قد صادوا حياتٍ فهم يشوُونها ويأكلونها؛ إذْ نَظَرْتُ إلى رجلٍ منهم ينهش حَيةً قد أخرَجَها من الجمر، فَرأيته إذا امتنعتْ عليه يمدُّها كما يُمدُّ عصَبٌ لم ينضَجْ. فما صرفْتُ بصري عنه حتّى لُبطَ به[2]، فما لبثَ أن مات، فسألتُ عنْ شأنه،فقيلَ لي: عجَّلَ عليها قبلَ أن تنضَج وتَعملَ النّار في مَتْنها.

وقد كان قد بَغدادَ وفي البَصْرةِ جماعةٌ من الحوّائين، يأكلُ أحدُهم أيَّ حيّةٍ أشرتَ إليها في جوْنَته، غير مشويَّة. وربَّما أخَذَ المرارَةَ وسْط راحته، فلَطَعها بلسانه، ويأكلُ عشرين عقربانةَ نِيَّةً بدرهم. وأما المشويُّ فإنَّ ذلك عنده عُرْسٌ.

١١٦٣ - [شعر في الحيات]

وقال كُثَيِّر[3]: [من الوافر]

وما زَالَتْ رُقَاكَ تَسُلُّ ضِغْني   فتُخْرِجُ من مكامنِها ضِبابي
وتَرْقيني لك الحاوُونَ حتّى   أجابَتْ حَيَّةٌ خَلفَ الحِجَاب

وقال أبو عَدنان، وذكر ابنَ ثَرْوانَ الخارجيَّ، حين كان صار إلى ظَهْر البصرة، وخرج إليه مَنْ خرج مِنْ بني نُمير: [من الطويل]

حَسِبْتَ نُميراً يا ابن ثَرْوَان كالأُلَى   لَقِيتَهُمُ بالأمْس: ذُهلاً ويَشْكُرَا
كما ظَنَّ صَيَّادُ العَصَافِيرِ أنَّ في   جَمِيعِ الكُوَى ، جَهْلاً، فِراخاً وأطيُرَا

---

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (مقس، سمن)، والجمهرة ٤٢٩، ٨٥٢، والمقاييس ٥/٤٣٢، والتهذيب ٨/٤٢٥، والمجمل ٤/٣٤١.

(٢) لبط به: صرع.

(٣) ديوان كثير ٢٨٠، وتقدم البيتان في الفقرة (١١٣٧).

فأدْخَل يوماً كفَّهُ جُحْرَ أسوَدٍ فشَرْشَرَهُ بالنَّهش حتى تشَرْشَرَا[1]

أراد قول رؤبة[2]: [من الرجز]

كنتُمْ كمن أدْخَلَ في حُجْرٍ يَدَا فأخْطأ ا فْعَى وَلاَقَى الأسْوَدَا

لو مسّ حَرْفَيْ حجَرٍ تَقَصَّدَا بالشَّمِّ لا بالسمِّ منه قصدا[3]

فَقَدَّمَ الأسوَدَ على الأفعَى، وهذا لا يقوله مَن يعرف مقدار سمِّ الحيات،

وقال عنترة[4]: [من الطويل]

حلَفْنا لَهُمْ والخيلُ تَرْدي بنا معاً نزايلُكُمْ حتّى تَهِرُّوا العَواليا

عَوَالِيَ سُمْرٍ مِنْ رماحِ رُدَينةٍ هَريرَ الكلابِ يَتَّقِينَ الأفاعيا

وقال النبي ﷺ: «اتقُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ والأبتَر»[5].

شبّه الخيطينِ على ظهره بخُوص المقْل. وأنْشدْتُ لأبي ذُؤيب[6]: [من الطويل]

عَفَتْ غَيْرَ نُؤْيِ الدَّارِ لأياً أُبِينُهُ وأقْطاعِ طُفْيٍ قد عَفَتْ في المعاقل[7]

وَالطُّفْي: خُوص المقْل.

وهم يَصفونَ بَطْن المرأةِ الهيفاء الخميصةِ البطْن، ببطن الحيَّةِ. وهي الأيْم.

وقال العجَّاج[8]: [من الرجز]

* وبَطْنَ أيمٍ وقَواماً عُسلُجَا *[9]

---

(١) شرشره: قطعه.

(٢) ديوان رؤبة ١٧٣، والوساطة ١٣.

(٣) تقصد: تكسر.

(٤) ديوان عنترة ٨٠-٨١ (دار صادر)، والأول في اللسان والتاج (هرر)، والجمهرة ١٢٧، وديوان الأدب ٣/١٤٠، والتنبيه والإيضاح ٢/٢٢٧، وهما بلا نسبة في أساس البلاغة (هرر).

(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق برقم ٣١٢٣، ومسلم في السلام برقم ٢٢٣٣

(٦) شرح أشعار الهذليين ١٤٠، واللسان والتاج (قطع، طفا)، والتهذيب ١٤/٣٢، وللهذلي في المقاييس ٣/٤١٤.

(٧) النؤي: الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل. المعاقل: جمع معقل، وهو المكان تعقل فيه الإبل.

(٨) ديوان العجاج ٢/٣٦، واللسان والتاج (عسلج، أيم)، والتهذيب ٣/٣١٢، ١٥/٥٥١، والجمهرة ٧٢٢، والمخصص ١٠/٢١٤، والعين ٢/٣١٥، ونسب إلى رؤبة في المقاييس ١/١٦٦، وليس في ديوانه.

(٩) قوام عسلج: ناعم ينثني ويميل.

وقال أدْهَمُ بنُ أبي الزَّعْراء، وشبَّه نفسَه بحيَّة: [من الطويل]

وما أسودٌ بالبأس ترتاحُ نفسُهُ إذا حَلْبَةٌ جاءتْ ويُطْرِقُ للحسِّ
به نُقَطٌ حمرٌ وسودٌ كأنما تنضَّحَ نَضْحاً بالكُحَيل وبالوَرْسِ[1]
أصمُّ قُطاريٌّ يكون خروجُه قُبيلَ غُروبِ الشَّمسِ مُخْتَلطَ الدَّمْس[2]
له منزلٌ، أنفُ ابن قِتْرَةَ يغتذي به السمّ، لم يظهر نهاراً إلى الشَّمس[3]
يَقيلُ إذا ما قَالَ بين شواهقٍ تزِلُّ العُقَابُ عن نَفَانفها الملسْ[4]
بأجْرَأَ منِّي يا ابْنَةَ القَوْمِ مُقْدَماً إذا الحربُ دبَّتْ أو لَبِسْتُ لها لِبْسي[5]

فأجابه عَنْتَرَةُ الطائي، فقال[6]: [من الطويل]

عَسَاكَ تمنى مِنْ أراقمِ أرْضِنَا بأرْقَمَ يُسْقَى السمَّ مِنْ كلِّ مَنْطَفِ[7]

وقال عنترة[8]: [من الطويل]

أترجُو حياةً يا ابن بشْرِ بن مُسهرٍ وقد علِقَتْ رجلاك في ناب أسودا
أصمَّ جِبالِيٍّ إذا عضَّ عضَّةً تزايَلَ عنه جلدُهُ فتبدَّدا
بِسَلْعِ صَفاً لم يبدُ للشَّمس قبلها إذا ما رآه صاحب اليَمِّ أُرْعِدَا[9]
له رِبْقَةٌ في عنقه مِنْ قميصه وسائرُه عن مَتنه قد تَقَدَّدا[10]
رَقُود ضُحَيّات، كأَن لسَانَهُ إذا سمع الأجراس مِكْحَالُ أرْمَدَا[11]
يُفِيتُ النُّفوسَ قبل أن يقع الرُّقى وإن أبرق الحاوِي عليه وأرْعَدا[12]

---

(١) الكحيل: قطران أسواد اللون يطلى به الإبل، والورس: نبت يصبغ به.
(٢) القطاري: الضخم.
(٣) ابن قترة: حية خبيثة، تنطوي ثم تنقز ذراعاً أو نحوها.
(٤) النفانف: جمع نفنف، وهو صقع الجبل الذي كانه جدار مبني مستوٍ.
(٥) لبسي: أي لباس الحرب.
(٦) البيت في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١ / ١١٨، ومحاضرات الراغب ٢ / ٣٠٥.
(٧) المنطف: الموضع ينطف منه السم، أي يقطر.
(٨) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب، الأول والثاني في (قطر)، والثالث في (سلع)، والخامس في (ضحا).
(٩) السلع: الشق. اليم: الحية. أرعد: أصابته رعدة.
(١٠) الربقة: الحبل. قميصه: جلده المنسلخ.
(١١) المكحال الأرمد: ما يكتحل به، وهو أشد سواداً من غيره.
(١٢) يفيت النفوس: يميتها.

وقال آخر[1]: [من البسيط]

لاَ يَنْبُتُ العُشْبُ في وادٍ تكون به ... ولا يجاوِرها وَحْشٌ ولا شجرُ
رَبْداء شابكة الأنيابِ ذابلة ... ينبو، من اليُبْسِ، عن يافوخها الحجَرُ
لو سُرِّحَتْ بالنَّدَى ما مسَّها بلَلٌ ... ولو تكنَّفها الحاوون ما قدَرُوا[2]
قد حاوَرُوها فما قام الرُّقاةُ لها ... وخاتلوها فما نالوا ولا ظفرُوا
تقصر الورلَ العادِي بضَرْبَتها ... نكزاً، ويهرُب عنها الحيَّةُ الذَّكرُ[3]

جملة القول في الظليم

١١٦٤ - [أعاجيب في الظليم]

فممّا فيه من الأعاجيب أنّه يغتذي الصّخرَ، ويبتلع الحجارةَ، ويعمد إلى المرْوِ، والمرْوُ من الحجارة التي توصف بالملاسة، ويبتلع الحصى، والحصى أصلب من الصَّخْر، ثم يُميعه ويذيبه في قانصته، حتَّى يجعله كالماء الجاري، ويقصدُ إليه وهو واثقٌ باستمرائه وهضْمه، وأنّه له غذاءٌ وقوامٌ.

وفي ذلك أعجوبتان: إحداهما التَّغذّي بما لا يُتَغذَّى به. والأخرى استمراؤه وهضْمُه للشيء الذي لو أُلقِيَ في شيء ثم طبخ أبداً ما انحلّ ولا لان، والحجارة هو المثل المضروبُ في الشدَّة. قال الشاعر: [من البسيط]

* حتى يَلِينَ لِضرْسِ الماضغِ الحَجرُ *

وقال آخر[4]: [من البسيط]

مَاأطْيَبَ العَيْشَ لو أنَّ الْفتَى حَجَرٌ ... تنبو الحوادثُ عنهُ وهو ملمومُ[5]

ووصف اللّه قلوب قومٍ بالشدَّة والقسوة، فقال: ﴿فَهِي كالحجَارة أوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[6]، وقال في التشديد: ﴿ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾[7]. لأنه حين حذر

---

(١) الأبيات لعمرو بن شأس في ديوانه ٨٠، والحماسة البصرية ٢ / ٣٤٣.

(٢) في ديوانه «أي ينزلق عنها الندى لملاستها».

(٣) في ديوانه «النكز: طعن الحية الحيوان بأنفها».

(٤) البيت لابن مقبل في ديوانه ٢٧٣ (١٩٨)، وشرح شواهد المغني ٢ / ٦٦١، وبلا نسبة في اللسان (أمت، نعم)، والتاج (نعم) والخزانة ١١ / ٣٠٤، والخصائص ١ / ٣١٨ وشرح الأشموني ٣ / ٦٠٢، وشرح المفصل ١ / ٨٧، ومغني اللبيب ١ / ٢٧٠.

(٥) في ديوانه «الحجر الملموم: المجموع بعضه إلى بعض، وهو الصلب المستدير».

(٦) ٧٤ / البقرة: ٢.

(٧) ٦ / التحريم: ٦٦.

النَّـاسَ أعلمهـم أنّـه يُلقـي العُصـاة فـي نـار تـأكـلُ الـحجـارة .

ومن الحجارة ما يتّخذه الصفّارونَ[١] عَلاةً[٢] دونَ الحديد؛ لأنّه أصبرُ على دقِّ عِظام المطارق والفِطِّيسات[٣].

فجوفُ النعامةَ يُذِيب هذا الجوهرَ الذي هذه صفته.

١١٦٥ - [أكل النعام الحصى والحجارة]

وقال ذو الرُّمّة[٤]: [من البسيط]

أذَاكَ أمْ خاضبٌ بِالسِّيِّ مرتعُهُ أبو ثَلاثينَ أمْسى وهو منْقَلبُ[٥]

شخت الجزارة مثلُ البيتِ سائرُه من المُسوحِ خدَبٌ شوقَب خَشَبُ[٦]

كأنَّ رجليه مِسْماكانِ من عُشَرٍ صَقْبانِ لَمْ يَتَقَشَّرْ عنهما النّجَبُ[٧]

الهَاهُ آءٌ وَتَنُّوم، وعُقْبَتُـهُ مِنْ لائحِ المروِ، والمَرْعَى له عُقَب[٨]

وقال أبو النَّجْم[٩]: [من الرجز]

والْمَروُ يُلْقِيه إلى أمعائه في سَرْطمٍ مَادَ على التوائه[١٠]

يَمُورُ في الحلقِ على عِلْبَائهِ تَمَعُّجَ الحيَّةِ في غِشَائِهِ[١١]

* هادٍ ولو حَارَ بحَوصَلائه *[١٢]

ومَنْ زَعَمَ أنَّ جَوفَ الظَّليمِ إنما يُذيبِ الحجارة بقَيظ الحرارة فقد أخطأ. ولكنْ

---

(١) الصفارون: جمع صفّار، وهو الذي يعمل الصفر أي النحاس الأصفر.

(٢) العلاة: السندان، وهو ما يطرق عليه الحديد.

(٣) الفطيسات: جمع فطيس، وهي المطرقة العظيمة.

(٤) ديوان ذي الرمة ١١٤-١١٧، ومنه شرح المفردات.

(٥) في ديوانه «يريد: أذاك الثور شبه ناقتي في سرعتها أم ظليم، والخاضب: الظليم الذي أكل الربيع فاحمرت ساقاه. وأبو ثلاثين: الظليم، لأنه أبو ثلاثين فرخاً. والسي: ما استوى من الأرض».

(٦) «شخت الجزارة: دقيق القوائم والرأس. المسوح: الشعر. خدب: ضخم. شوقب: طويل. خشب: غليظ جاف».

(٧) «المسماكان: عودان يُسْمَك بهما البيت، العشر: شجر. صقبان: طويلان. النجب: لحاء الشجر.

(٨) «آءٌ: نبت، وكذلك التنوم، لاح من المرو: ظهر من الحجارة البيض».

(٩) ديوان أبي النجم ٥٥ - ٥٦، وعيون الأخبار ٢/ ٨٦.

(١٠) المرو: الحجارة البيض، السرطم: البلعوم. ماد: مال واضطرب.

(١١) مار يمور: اضطرب وتردد، العلباء: عصب العنق. التمعج: التلوي.

(١٢) هاد: مهتد.

لا بدَّ من مقدار للحرارة و نحو غرائز أخر، وخاصّيّات أخر، ألا ترَى أنَّ القُدورَ التي يُوقد تحتها الأيَّامَ واللَّياليَ، لا تذوب.

١١٦٦ - [القول في الخاصِّيَّات والمقابلات والغرائز]

وسأدلك على أنّ القولَ في الخاصّيّات والمقابلات والغرائز حقٌّ. ألا ترى أنَّ جوفَ الكلْب والذِّيب يذيبان العظام ولا يذيبان نَوَى التمر، ونَوَى التمر أرخَى وألين وأضعفُ من العظام المَصْمَتة. وما أكثر ما يَهضم العظم. وقد يهضم العظمَ جوفُ الأسد وجوفُ الحيَّة. إذا ازدردت بضع اللحْم بالشَّرَه والنَّهَم، وفيها بعضُ العِظام.

والبراذين التي يُحيلُ أجوافُها القَتَّ والتِّبن رَوْثاً، لا تستمري الشعير.

والإبلُ تقبضُ بأسنانها على أغصانِ أمِّ غَيْلان، وله شوكٌ كصَياصي[١] البقر، والقُضبانُ علكة[٢] يابسةٌ جرد، وصلاب متينة، فتستمرئُها وتجعَلُها ثَلْطاً[٣]، ولا تقْوَى على هضْم الشَّعير المنْقَع، وليس ذلك إلاّ بالخصائص والمقَابلات.

وقد قُدِّر كلُّ شيء لشيء. ولولا ذلك لما نفذ خرطومُ البعوضة والجرجسة في جلد الفيلِ والجاموسِ، ولَمَا رأيت الجاموسَ يهربُ إلى الانغماس في الماء مرّةً، ومرّةً يتلطَّخ بالطِّين، ومرّةً يجعله أهله على ربيث الدكان . ولو دفعوا إليك مسَلّةً شديدةَ المتْن، لَمَا أدخلْتَها في جلد الجاموس إلاّ بَعدَ التكلُّف، وإلاّ ببَعْضِ الاعتماد.

والذي سخَّر جلدَ الجاموسِ حَتّى انفرَى وانصدع لطَعْنة البعوضة، وسخَّر جلد الحمار لطْعنة الذُّباب، وسخَّر الحجارة لجوف الظليم، والعَظْمَ لجوف الكلب - هو الذي سخَّر الصَّخْر الصُّلبَ لأذناب الجراد، إذا أرادتْ أن تُلقي بيضها؛ فإنَّها في تلك الحال مَتَى عقدَتْ ذنبها في ضاحي صخْرةٍ انصدعَتْ لها. ولو كان انصداعُها من جهة الأسْر[٤]، ومن قوَّة الآلة، ومن الصَّدم وقوَّة الغمز، لانصدعت لما هُو في الحسِّ أشدُّ وأقوى،ولكنَّه على جهة التَّسخير، والمقابلات، والخصائص.

وكذلك عُود الحَلْفاء، مع دقّته ورخَاوته ولِين انعطافه، إذا نَبتَ في عُمق الأرضِ، وتلَقَّاه الآجُرُّ والخزَفُ الغليظ، ثَقَبَ ذلك، عند نباته وشبابه، وهو في ذلك عبقرٌ نضير.

وزعم لي ناسٌ من أهل الأردُنِّ، أنّهم وجَدوا الحلْفاء قد خَرَقَ جوف القار[٥].

---

(١) صياصي البقر: قرونها.

(٢) علكة: شديدة.

(٣) الثلط: الروث.

(٤) من جهة الأسر: من جهة القوة.

(٥) القار: الزفت.

وزعم لي أبو عتّاب الجرّار، أنّه سمع الأكَرَة يُخبِرونَ أنَّهم وجدوه قد خَرَقَ فَلْساً بَصْريّاً[1].

وليس ذلك لشدَّةِ الغمزِ وحِدّة الرأس، ولكنه يكون على قدْر ملاقاة الطباع.

ويزعمون أنَّ الصَّاعقة تسقُطُ في حانوت الصَّيقل[2] فتُذيب السُّيوفَ بطبعها، وتدع الأغمادَ عَلَى شبيهٍ بحالها، وتسقُطُ عَلَى الرَّجلِ ومعه الدراهمُ فتُسبك الدَّراهم، ولا يصيبُ الرجُلَ أكثَرُ من الموت.

والبحريُّونَ عندنا بالبصرة والأُبُلَّة التي تكون فيها الصَّواعق. لا يدعون في صحُون دُورهم وأعالي سُطوحهم، شيئاً من الصُّفر إلاَّ رَفعوه؛ لأنّها عندهم تنقضُّ من أصل مخارجها، على مقدارٍ من محاذاة الأرض، ومقابلة المكان. فإذا كان الصُّفر لها ضاحياً، عَدَلَتْ إليه عن سَنَنها[3].

وما أنكر ما قالوا. وقد رأيتُهم يستعملون ذلك.

وقد يَسْقط النَّوى في تُرابِ المتوضَّإ، فَإذا صهرجَ[4] نَبتَ، فإذا انتهى إلى الصَّاروج أمسك. وإن كان الصَّاروج رقيقاً فإنْ قُيِّرَ، وجُعل غِلظُهُ بقدر طول الإبهام، نبت ذلك النَّوى حتَّى يخرِق ذلك القار.

ولو رام رَجُلٌ خرْقَه بمسمار أو سكّة، لما بلغ إرادته حتى يشقَّ على نفْسه.

والذي سخّر هذه الأمورَ القويَّة في مذْهب الرَّأي وإحساسِ النَّاس، هو الذي سخَّر القُمقُم، والطَّيجن[5]، والمِرْجل، والطَّستَ[6]، لإبرة العقرب. فما أُحصي عددَ مَنْ أخبرني من الحوّائين، من أهلِ التَّجارب، أنّها ربَّما خرجتْ من جُحرها في اللَّيلِ لطلَب الطُّعم. ولها نشاط وعُرَام، فتضرِب كلّ ما لقِيتْ ولقِيها: من حيوانٍ، أو نبات، أو جماد.

وزعم لي خاقانُ بن صبيح ـ واستشهد المثنَّى بنَ بشْر، وما كان يحتاجُ خبَرُه إلى شاهدٍ؛ لصدقه ـ أنّه سمعَ في داره نَقْرَةً وقعتْ على قُمقُم ـ وقد كان سمع بهذا

---

(١) الفلس: من أجزاء الدرهم.

(٢) الصيقل: من يصقل السيوف، أي يشحذها ويجلوها.

(٣) السنن: الطريق.

(٤) صهرج المتوضأ: عمل بالصاروج، وهو النورة أو أخلاطها.

(٥) الطيجن: المقلى الذي يقلى فيه.

(٦) الطست: الطَشت.

الحديث ـ فنهض نحوَ الصَّوت، فإذا هو بعقرب فتعاورها هو والمثني بنعالهما حتى قتلاها، ثمَّ دعَوَا بماء فصبَّاه في القُمقُم في عشيَّتهما، وهو صحيحٌ لا يسيلُ منه شيء.

فمن تعجَّبَ من ذلك فليصرفُ بَديّاً تعجُّبَه إلى الشيء الذي تقذفه بذنبها العقربُ في بدَن الإنسان والحمير والبغال، فليفكِّرْ في مقدار ذلك من القلة و الكثرة. فقد زعم لي ناسٌ من أهل العَسْكر أنّهم وزنوا جَرَّارَةً[1] بعد أنْ ألْسَعُوها فوجدوا وزنَها على تحقيق الوزن على مقدارٍ واحد، فإن كان الشيء المقذوفُ من شكل الشيء الحارّ، فلم قصَّرت النَّارُ عن مبلغ عمله؟! وإن كان من شكل الشيء البارد فلم قصَّر الثلج عن مَبْلغ عمله؟! فقد وَجَبَ الآنَ أنَّ السمَّ ليس يقتل بالحرارة، ولا بالبرودة إذا كان بارداً. ولو وجَدْنا فيما أردنا شيئاً بلغ مبلَغَ الثَّلجِ والنار لذكرْناه.

فقد دلَّ ما ذكرنا على أنّ جوفَ النَّعامة ليس يذُيبُ الصَّخرَ الأملسَ بالحرارة، ولكنَّه لا بدّ على كلِّ حالٍ من مقدارٍ من الحرارة، مع خاصيَّات أُخَرَ، ليستْ بذاتِ أسماء، ولا تعرفُ إلاّ بالوهم في الجملة.

١١٦٧ - [علة قتل السم]

والسمّ يقتل بالكمّ والكَيف والجنِس، والكَمُّ المقدار، والكيف: الحدّ. والجنس: عَيْنُ الجوهرِ وذاتُه.

وتزعمُ الهنْدُ أنّ السمّ إنما يقتُل بالغَرابة، وأنّ كلّ شيء غريب خالَطَ جَوْفَ حيَوَانٍ قَتَلهُ. وقد أبى ذلك ناسٌ فقالوا: وما بالُه يكون غريباً إذا لاقى العصَبَ واللَّحم، وربَّما كان عاملاً فيهما جميعاً. بل ليس يقتل إلاّ بالجنس، وليس تُحسُّ النّفسُ إلاّ بالجنس، ولوكان الذي يميت حسَّهُما إنَّما يميتهُ لأنّهُ غريبٌ. جَازَ أيضاً أنْ يكون الحَسَّاس إنما حَسّ لأنه غريب، ولَو كان هذا جائزاً لقيل في كلِّ شيء.

وقال ابن الجهم: لولا أنّ الذهب المائعَ، والفضّة المائعة، يجمدان إذا صارا في جوف الإنسان. وإذا جَمَدَا لم يجاوزَا مكانهَما ـ لكَانَا من القواتل بالغرابة.

وهذا القول دعْوَى في النَّفس، والنّفْسُ تضيق جداًّ. وما قرأت للقدماء في النفْس الأجلادَ الكثيرة. وإنما يستدلُّ ببقاءِ تلك الكتبِ على وَجْه الدَّهر إلى يومنا هذا، وَنَسْخِ الرِّجَال لها أمَّةً بعدَ أمَّة، وعمراً بعدَ عمر، على جهل أكثرِ النّاسِ بالكلام. والمتكلمون يريدون أن يَعْلمُوا كلّ شيء، ويأبى الله ذلك. فهذا بابٌ من أعاجيب الظليم.

---

(١) الجرارة: العقارب صغيرة تجر أذنابها

بــاب آخــر
وهو عندي أعجب من الأول

وهو ابتلاعُهُ الجمرَ حتى ينفُذَ إلى جوفه، فيكونَ جوفُه هو العامل في إطفائه، ولا يكون الجمرُ هو العامل في إحراقه.

وأخبرني إبو إسحاقَ إبراهيمُ بن سَيّارٍ النّظّام ـ وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماعٍ أو عِيان ـ أنّهُ شَهدَ محمد بنَ عبد اللّه ـ يلقي الحجَر في النّار، فإذا عاد كالجمر قَذَف به قُدّامَهُ، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجَمْرَ. كنتُ قلت له: إنَّ الجَمْرَ سخيفٌ سريعُ الانطفاء إذا لقي الرُّطوبات، ومتى أطبقَ عيه شيء يحُولُ بَيْنَهُ وبين النّسيم خَمَدَ، والحَجَرَ أشدُّ إمساكاً لما يتداخله من الحرارة، وأثقَلُ ثِقَلاً، وألزق لزُوقاً وأبطأ انْطفاءً، فلو أحميْتَ الحجارة! فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتَبت به، فلما ثنى وثلّثَ اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميت أواقيَّ الحديد، ما كان منها رُبْعَ رطلٍ ونصف رطل! ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجبُ من الأوّلِ والثّاني، وقد بقِيَتْ علينا واحدةٌ، وهو أن ننظر: أيَسْتَمْري الحديد كما يستمْري الحجارة؟ ولم يتركنا بعضُ السفهاء وأصحاب الخُرْق[1] أن نَتعرَّفَ ذلك على الأيّام. وكنتُ عَزْمتُ على ذبْحه وتفتيش جَوْفه وقانصته، فلعلّ الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمَد بعضُ نُدمائه إلى سِكّينٍ فأُحْمِيَ، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرفُ السّكين من موضع مَذْبحه، ثمَّ خرّ مَيّتاً. فمنَعَنَا بخُرقِه من استقصاء ما أردْنا.

١١٦٨ - [شبه النعامة بالبعير وبالطائر]

وفي النَّعامة أنّها لا طائرٌ ولا بعير، وفيها من جهة المنْسِم والوظيف[2] والخَرَمَة[3]، والشقّ الذي في أنفه، ما للبعير. وفيها من الرِّيش والجَناحَين والذّنبِ والمنقارَ، ما للطائر. وما كان فيها من شكل الطّائر أخرَجَها ونقَلها إلى البيض، وما كانَ فيها من شكل البعير لم يخرجها ولم ينقلها إلى الوُلدِ. وسماها أهل

---

(١) الخرق: العمق.

(٢) الوظيف: مستدق الذراع والرجل من الإبل.

(٣) الخرمة: موضع الخرم من الأنف.

فارس: «أشْتُرْمُرْغ»، كأنّهم قالوا: هو طائر وبعير.

وقال يحيى بن نوفل[1]: [من الوافر]

فأنتَ كساقطٍ بين الحشَايا ... تَصير إلى الخَبيثِ من المصِير

ومثلُ نَعامةٍ تُدْعَى بعيراً ... تعاظُمِها إذا ما قيل طِيري

فإن قيل احْملي قالت فإنِّي ... مِنَ الطَّيرِ المُربَّةِ بالوُكورِ[2]

ثمَّ هجا خالداً فقال:

وكنتَ لَدَى المُغيرة عَيرَ سَوْءٍ ... تَصُول، من المَخافة، للزَّئيرِ

لأعلاجٍ ثمانيةٍ وعِلْجٍ ... كَبيرِ السِّنِّ ذي بصَرٍ ضَريرِ

هَتَفْتَ بكلِّ صَوْتِكَ: أطْعِمُوني ... شراباً، ثمَّ بُلْتَ عَلى السَّرِيرِ

وإنما قيل ذلك في النَّعامة؛ لأنّ النَّاسَ يضربون بها المثلَ للرّجل إذا كان ممَّنْ يعتلُّ في كُلِّ شيء يكلفونه بعلة، وإن اخْتَلَفَ ذلك التكليف، وهو قولهم: «إنما أنتَ نعامةٌ، إذا قيل لها احملي قالت: أنا طائر، وإذا قيل لها طيري قالتْ: أنا بعير»،

١١٦٩ - [قصة أذني النعامة]

وتزعمُ الأعرابُ أنَّ النّعامة ذهبَتْ تطلُبُ قرنَين، فرجعت مقطوعةَ الأذنين؛ فلذلك يسمُّونه الظليم، ويصفونه بذلك[3].

وقد ذكر أبو العِيالِ الهُذليّ ذلك، فقال[4]: [من الكامل]

وإخال أنَّ أخاكم وعِتَابَهُ ... إذ جاءكم بتعطُّفٍ وسكون

يُمْسِي إذا يُمسي ببطن جائع ... صِفْرٍ ووجهِ ساهمٍ مَدْهُونِ[5]

فَغَدَا يمُثُّ ولا يُرى في بَطْنِهِ ... مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدلٍ موزُونِ[6]

---

(١) الأبيات ليحيى بن نوفل في البيان ٢/٢٦٦-٢٦٧، ومحاضرات الراغب ٢/٢٩٨، وعيون الأخبار ٢/٨٦، وبلا نسبة في اللسان والتاج (نعم)، والتهذيب ٣/١٥.

(٢) أرَبَّ الطائر بوكره: لزمه.

(٣) في فصل المقال ٣٦١، ومجمع الأمثال ١/٤٠٦، ٢/١٣٩ «ذهبت النعامة تطلب قرنين، فرجعت مصلمة الأذنين». وانظر الفقرة (١٢٠٦).

(٤) شرح أشعار الهذليين ٤٢٢.

(٥) الصفر: الخالي. الساهم: الضامر.

(٦) يمث: يُرى على جلده مثل الدهن.

أو كالنّعامةِ إذْ غدت من بيتها ليُصَاغ قَرْنَاهَا بغَيْرِ أذين
فاجْتَثَّتِ الأذْنان منها فانْثَنَتْ صَلماءَ ليسَتْ مِنْ ذَواتِ قُرُون[1]

١١٧٠ - [تقليد الغراب للعصفور]

ويقولون: ذهَبَ الغُراب يَتَعَلمُ مشيةَ العُصفور، فلم يتعلّمْها، ونسِيَ مِشيتَهُ، فلذلك صارَ يحجِلُ ولا يَقفزُ قَفزان العُصْفور.

١١٧١ - [مشي طوائف من الحيوان]

والبرغوث والجرادةُ ذات قَفز، ولا تمشي مِشْيةَ لديكِ والصّقرِ والبازي، ولكن تمشي مِشية المقيّد أو المُحَجَّل خِلْقَه.

قال أبو عِمران الأعمى، في تحوُّل قُضاعة إلى قحطانَ عَنْ نزار[2]: [من الطويل]

كما اسْتَوحَشَ الحيُّ المقيمُ ففارقُوا الْ خَليطَ فلا عزَّ الّذين تَحَمَّلوا
كتاركِ يوماً مِشْيَةٍ مِنْ سَجِيَّةٍ لأخرى ففاتَتْهُ فأصبَحَ يَحْجِل

١١٧٢ - [عظام النعامة]

ومن أعاجيبها أنّها مع عظَمِ عظامها، وشدّة عدْوها، لا مخَّ فيها.

وفي ذلك يقول الأعلم الهذلي[3]: [من الوافر]

عَلَى حتٍّ البُرَايةِ زَمْخَريِّ السَّـ ـواعدِ ظَلَّ في شَرْيٍ طُوالِ

يعني ظليماً شبّه به عدْوَ فرسه. والحَتُّ: السريع. والشّري: الحنظل. وبُرايته: قوّته على ما يَبْريه من السَّير. والسَّواعد: مجاري مخّه في العظم وكذلك مجاري عُروق الضّرع، يقال لها السَّواعد.

قال: ونظنّ إنّما قيل لها ذلك لأنّ بعضَها يُسْعِدُ بعضاً، كأنّه من التّعاون أو من المواساة.

---

(١) الصلماء: المقطوعة الأذنين.
(٢) البيتان لأبي عمران الأعجم في البرصان ١٤٠.
(٣) البيت للأعلم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٢٠، واللسان (حتت، سعد، زمخر) والتاج (سعد، زمخر، بري، شرا)، والتنبيه والإيضاح ١/ ١٦١، والمقاييس ١/ ٢٣٣، ٢/ ٢٨، وللهذلي في جمهرة اللغة ١١٤٥، ٢١٠٩، وبلا نسبة في الجمهرة ٧٧، والتهذيب ٢/ ٧٣، ٧/ ٣٨، ٦٦٩.

قال: والزَّمْخَريّ: الأجوف. ويقال: إنَّ قصَبَ عظْمِ الظَّليمِ لا مخَّ له. وقال أبو النَّجْم[1]: [من الرجز]

* هاوٍ يظلُّ المخُّ في هَوائِه *

وواحد السَّواعد: ساعد.

وقال صاحب المنطق: ليس المخُّ إلاّ في المجوّفة، مثل عَظْمِ الأَسَدِ.

وفي بعض عظامه مخٌّ يسير. وكذلك المخُّ قليلٌ في عِظام الخنازير، وليس في بعضها منه شيءٌ البتَّة.

١١٧٣ - [بيض النعام]

ومِنْ أعاجيبها[2] أنّها مع عِظَم بيضها تكثِّرُ عددَ البيضِ، ثمَّ تضَع بيضَها طولاً، حتى لو مددْت عليها خيطاً لما وجدتَ لها منْهُ خُروجاً عن الأخرى، تُعطي كلَّ بيضة من ذلك قسْطَه، ثمَّ هي مع ذلك ربَّما تركت بيضها وذهبَتْ تلتمسُ الطَّعام، فتجدُ بيضَ أُخرَى فتحضنُه، وربَّما حضنت هذه بيضَ تلك،وربّما ضاع البيضُ بينهما.

وأمّا عَددُ بيضها ورئالها فقد قال ذُو الرُّمّة[3]: [من البسيط]

أذاك أم خاضِبٌ بالسِّيِّ مرتَعُهُ ... أبو ثَلاَثين أمْسَى وهو مُنْقَلِب

وفي وضعها له طولاً وعرضاً على خطٍّ وسَطْرٍ، يقول[4]: [من الوافر]

وَمَا بَيْضَاتُ ذي لِبَدٍ هِجَفٍّ ... سُقِينَ بزَاجَلٍ حَتَّى رَوِينَا[5]

وُضِعْنَ فكلُّهُنَّ على غِرارٍ ... هِجانُ اللَّون لم تقرع جَنينا

يَبِيتُ يَحفهُنّ بِمرْفَقَيْهِ ... وَيَلْحَفهُنّ هَفهَافاً ثخينا[6]

---

(١) ديوان أبي النجم ٥٧.

(٢) ربيع الأبرار ٥/٤٥١.

(٣) ديوان ذي الرمة ١١٤، وتقدم البيت في الفقرة (١١٦٥).

(٤) الأبيات لعمرو بن أحمر في ديوانه ١٥٨، والأول في اللسان والتاج (هجف، زجل)، والجمهرة ١٢٢، وديوان الأدب ١/٣٥٩، ٣/٥٢، وبلا نسبة في الجمهرة ٤٧١، والثاني في اللسان والتاج (قنف، هفف).

(٥) هجف: طويل ضخم، الزاجل: ما يسيل من مؤخر الظليم على البيض حين يحضنه.

(٦) لحفه: غطاه باللحاف. الهفهاف: أراد به جناحه.

وقال الآخر[1]: [من البسيط]

تهوي بها مُكْرَبَاتٌ في مَرافقها ... فُتْلٌ صِلابٌ مَياسيرٌ مَعَاجيلُ[2]
يَدًا مَهاة، ورِجْلا خَاضِب سَنِقٍ ... كأنَّهُ منْ جَنَاهُ الشَّرْيَ مخلولُ[3]
هَيْقٍ هِجَفٌ وزِفَّانِيَّةٍ مَرِطي ... زَعْراء، ريشُ جناحيها هَرَاميلُ[4]
كأنما مُنثنى أقماعِ ما هَصَرَت ... منَ العفاءِ بليتَيْهَا ثآليلُ[5]
تَرَوَّحا منْ سنامِ العرق فالتَبَطَا ... إلى القنان التي فيها المداحيلُ[6]
إذا استهَلاَّ بشُؤبوب فقد فُعِلَتْ ... بما أصَابَا منَ الأرْضِ الأفاعيلُ[7]
فصادَفَا البيْضَ قد أبدَتْ مناكِبَهَا ... منها الرِّئالُ، لها منها سرَابيلُ[8]
فنَكَّبَا ينقُفَانِ البَيْضَ عن بَشَرٍ ... كأنها ورقُ البَسْباسِ مغْسُولُ[9]

١١٧٤ - [تشبيه القدر الضخمة بالنعامة]

والشُّعراء يشبِّهون القِدْرَ الضَّخْمَةَ التي تكون بمنزِلِ العَظِيم وأشباهِهِ من

---

(١) الأبيات للشماخ في ديوانه ٢٧٧-٢٨٠ ومنه شرح المفردات.

(٢) «تهوي: تسرع. مكربات: مشدودات. يعني أن أذرعها مشدودة في مرافقها شداً محكماً. فتل: جمع أفتل، أي مندمجة شديدة. صياب: لا تحيد عن القصد، مياسير: خفاف تلاين في مشيها. معاجيل: تعجل بالسير.

(٣) المهاة: بقر الوحش. الخاضب: الظليم. السنق: الشبعان كالمتخم. من جناه الشري: من تناوله الحنظل. مخلول: في فمه خلال، وأصله أن يلهج الفصيل الذي برضاع أمه، فيجعل عود في لسانه لئلا يرضع.

(٤) «الهيق: الطويل. الهجف: الظليم المسن، أو هو الجافي الثقيل الضخم. الزفانية: الخفيف السريع. مرطى: سريعة. زعراء: قليلة الريش. هراميل: جمع هرمول، وهي قطعة من الشعر تبقى في نواحي الرأس؛ وكذلك من الريش والوبر».

(٥) الاهتصار والانهصار: سقوط الغصن على الأرض؛ وأصله في الشجر. أقماع: جمع قمع، وأصله الذي على رأس الثمرة، شبّه آثار ما سقط من ريشها بأقماع الثمرة. العفاء: الريش الذي يكون على الزف الصغار، بليتيها: بصفحتي عنقها. الثآليل: البثرات تكون في الجسد.

(٦) تروحا: سارا في الرواح. سنام العرق: أعلاه. والعرق: موضع على فراسخ من هيت، وجبل بين البصرة واليمامة. التبطا: من اللبط، وهو عدو مع وثب. مداحيل: مداخل تحت الجرف».

(٧) «استهلا بشؤبوب: اشتد عدوهما. والمراد هنا: الدفعة من العدو».

(٨) «المعنى أنهما وجدا البيض قد انفلق عن أعلى الرئال، وبقي أسفلها فيه فكان لها كالسرابيل».

(٩) «نكبا: مالا. ينقفان: ينقبان ويقشران. البشر: جمع بشرة. البسباس: نبت طيب الرائحة».

الأجواد، بالنَّعامة. قال الرّمّاحُ، ابنُ مَيّادة[1]: [من الطويل]

وقلت لها لا تعجلي .... كذلك تقري الشوك ما لم تردد
إلى جامعٍ مثل النَّعامة يلتقي عوازبــه نوق ....

جامع: يعني القدر. وجعلها مثل النَّعامة.

وقال ابن ميادة[2] يمدح الوليدَ بنَ يزيد: [من الطويل]

نتاج العِشَار المنْقِيات إذا شتَتْ روابدُها مثلُ النّعامِ العواطِفِ[3]

وقال الفرزدق[4]: [من الطويل]

وقدرٍ كحيزُوم النّعامة أُحْمِشَتْ بأجْذالِ خُشْبٍ زالَ عَنْهَا هشيمها[5]

١١٧٥ - [لعب الذئب بالنعام]

وضحك أبو كَلْدَةَ حين أُنشِد شعرَ ابن النَّطّاح، وهو قوله[6]: [من الكامل]

* والذِّئب يلعب بالنّعام الشَّارد *

قال: وكيف يلعب بالنّعام، والذِّئبُ لا يَعْرِضُ لبيض النَّعام وفراخه حين لا يكونان حاضرَين، أو يكونُ أحدهما، لأنَّهُمَا متى ناهضاه ركَضَهُ الذَّكرُ فرماه إلى الأنثى، وأعجلَتْهُ الأنثى فَركَضَتْهُ ركضةً تُلقيه إلى الذَّكر فلا يزالان كذلك حتى يقتُلاه أو يعجزَهُما هَرَباً، وإذا حاولَ ذلك منه أحَدُهُمَا لم يقْوَ عليه. قال: فكيف يقول: [من الكامل]

* والذِّئب يلعبُ بالنَّعام الشَّارد *

وهذه حالُه مع النَّعام ؟!

---

(١) البيتان فيهما نقص وتحريف، وهما في ديوانه ١٢٠ نقلاً عن الحيوان.

(٢) ديوان ابن ميادة ١٧٢.

(٣) في ديوانه «العشار: جمع، والعُشَراء من الإبل: الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر، والعرب يسمونها عشاراً بعدما تضع ما في بطونها، وقيل: العُشَراء من الإبل كالنفساء من النساء» المنقيات: جمع منقية؛ وهي السمينة. الروابد: عنى بها القدور المقيمة على النار. والعواطف: الحانيات على أولادها.

(٤) البيت للفرزدق في البخلاء ٢٢٥، وأساس البلاغة (حمش)، وأمالي المرتضى ٤ / ٢٩، وليس في ديوانه.

(٥) الحيزوم: الصدر، أو ما استدار بالظهر والبطن. أحمشت: أُشبع وقودها.

(٦) ديوان بكر بن النطاح ٢٤١، نقلاً عن الحيوان.

وزعم أنَّ نعامتين اعتورَتا ذئباً فهزَمتاه، وصعد شجرةً ، فجالدهما، فنقره أحدُهما، فتناوَلَ الذِّئبُ رأسَه فقطَعه، ثمَّ نزل إلى الآخَرَ فساوَرَه فهزَمَه.

١١٧٦ - [جُبن الظليم]

والظَّليم يُوصَف بالجُبْن، ويوصف بالنِّفار والتَّوحُّش

وقال سَهم بن حنظلة(١)، في هجائه بني عامر: [من المتقارب]

إذا ما رأيتَ بني عامرٍ ... رأيتَ جَفاءً ونُوكاً كثيرا
نعامٌ تَجُرُّ بأعْنَاقها ... ويمنَعها نُوْكها أن تَطيرا

١١٧٧ - [شدة ضرر النعامة]

والنّعامة تتخذها النّاسُ في الدُّور، وضررُها شديدٌ، لأنّها ربَّما رأتْ في أذن الجارية أو الصبيَّة قُرطاً فيه حجرٌ، أو حبّةٌ لؤلؤٍ، فَتَخْطَفُهُ لتأكله. فكم أذنٍ قد خرَقتها! وربّما رأتْ ذلك في لَبَّةِ (٢) الصبيِّ أو الصبيّة، فتضربه بمنقارها، فربَّما خرقت ذلك المكانَ.

١١٧٨ - [تشبيه الفرس بالظليم]

وممَّا يشبَّه به الفَرَسُ ممَّا في الظليم، قولُ امرئ القيس بن حُجْر(٣): [من الطويل]

وخدٌّ أسيلٌ كالمِسنِّ وبِرْكةٌ ... كَجؤجؤ هَيْقٍ دفُّه قد تموّرا(٤)

وقال عُقْبَةُ بن سَابق: [من الخفيف]

وله بِركة كَجُؤجُؤِ هَيْقٍ ... ولَبانٌ مضرَّجٌ بالخِضَاب(٥)

وقال أبو دُاوُد الإيادي(٦): [من مجزوء الكامل]

يَمْشِي كمشي نَعامَتَـ ... ـينِ يُتابِعانِ أشقَّ شاخصْ(٧)

---

(١) البيتان في عيون الأخبار ٢ / ٨٧، والحماسة البصرية ٢ / ٢٨٧.
(٢) اللبّة: موضع القلادة من الصدر.
(٣) ديوان امرئ القيس ٢٦٧.
(٤) البركة والجؤجؤ: الصدر. الهيق: ذكر النعام. الدف: صفحة الجنب. تمور: سقط منه النسيل؛ وهو الريش.
(٥) البركة والجؤجو: الصدر. الهيق: ذكر النعام. اللبان: وسط الصدر. مضرج بالخضاب: ملطخ بالدم.
(٦) ديوان أبي دؤاد ٣٢٢، واللسان والتاج (مصص)، والمعاني الكبير ٣، ٤٠، والجمهرة ١٣٣١.
(٧) في ديوانه: «إذا مشى اضطرب فارتفعت عجزه مرة؛ وعنقه مرة أخرى، وكذلك مشي النعامتين إذا تتابعتا تقاصر واحدة وتطاول واحدة، فإذا مشت المتقدمة ارتفع الصدر، وإذا مشت المتأخرة ارتفع العجز. الأشق: الطويل.

وقال آخر: [من الوافر]

كأنَّ حَماتَه كُردُوسُ فَحْلٍ   مقلَّصة على سَاقَيْ ظَلِيمِ[١]

وقال أبو داؤدٍ الإياديُّ[٢]: [من الكامل]

كالسِّيد ما استقبلته وإذا   وَلّى تَقُولُ مُلَمْلَمٌ ضَرِبُ[٣]

لأمٌ إذَا استقبلته وَمَشَى   متتابعاً ما خانَهُ عَقْبُ[٤]

يَمْشِي كمَشْيِ نَعامَةٍ تَبِعَتْ   أُخْرَى إذا مَا رَاعَهَا خَطْبُ

القولُ فيما اشتُقَّ له من البَيْض اسم

قال العَدَبَّس الكنانيّ: باضت البُهْمَى[٥]: أي سقطت نِصالُها[٦] وباضَ الصَّيف، وباضَ القَيظُ: اشتدَّ الحرُّ وخرج كلُّ ما فيه – من ذلك.

وقال الأسَديّ: [من الطويل]

فجئنا وقد باضَ الكَرَى في عُيونِنا   فَتًى مِنْ عُيُوبِ المُقْرِفِينَ مُسَلَّمَا[٧]

وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت[٨]: [من الخفيف]

رَكِبَتْ بيضةُ البَيَاتِ عليهم   لم يُحِسُّوا منها سِواهَا نذيرا[٩]

وقال الرَّاعي[١٠]، يهجو ابنَ الرِّقاع: [من البسيط]

لو كُنْتَ مِنْ أَحدٍ يُهجَى هجَوْتُكُمْ   يا ابنَ الرِّقاع، ولكنْ لسْتَ مِنْ أحَدِ

تأبَى قُضاعةُ لمْ تقبَلْ لكمْ نسباً   وابنَا نِزارٍ فأنتم بَيضةُ البَلَدِ

---

(١) الحماة: عضلة الساق. الكردوس: واحد الكراديس؛ وتعني رؤوس العظام.

(٢) ديوان أبي دؤاد ٢٨٤؛ ومنه شرح المفردات التالية.

(٣) في ديوانه «ململم: مجتمع الخلق. ضرب: خفيف اللحم»..

(٤) «اللأم: الشديد من الخيل وغيرها. عقب: جريٌ بعد جري».

(٥) البهمى: نبت تجد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هَرَّ شوكه وامتنع، والبهمى: ترتفع نحو الشبر ونباتها ألطف من نبات البر. انظر اللسان (بهم).

(٦) النصال: سنابل البهمى.

(٧) المقرف: الهجين الذي أمه عربية وأبوه غير عربي.

(٨) ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٠٤.

(٩) في ديوانه «البيضة، هنا: الشدة. والبيات الاسم من قولهم: بيَّت القوم، إذا أوقع بهم ليلاً وأخذهم بغتة».

(١٠) ديوان الراعي ٢٠٣، وثمار القلوب ٣٩٢ (٧٢٠)، واللسان والتاج (بيض)، والعمدة ٢/١٨٩، والأول في اللسان والتاج (رقع)، والثاني في التهذيب ٣/١٢٤، ١٢/٨٥، واللسان والتاج (بلد)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (دعا).

وفي المديح قولُ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنا بَيْضَةُ البَلَد»،[1] ومنه «بيضة الإسلام»[2]. وبيضة القبّة: أعلاها، وكذلك الصَّوْمَعَةُ، والبَيْضُ: قلانس الحديد.

وقال أبو حيَّة النُّميريّ[3]: [من الوافر]

وصَدَّ الغانياتُ البيضُ عَنِّي ... وما إنْ كان ذلك عن تَقَالي[4]

رأيْنَ الشَّيبَ بَاضَ على لِدَاتي ... وأفْسَدَ ما عَلَيَّ من الجَمَالِ[5]

وبَيضُ الجُرْح والخُرَاجِ والحِبْنِ[6]: الوعاء الذي يُجْمَعُ فيه الصَّديد، إذا خَرَجَ برئَ وصلُح.

وقد يُسمُّون ما في بطونِ إناث السَّمك بَيْضاً، وما في بطونِ الجَرادِ بيضاً، وإن كَانُوا لا يَرَوْنَ قِشْراً يشتمِلُ عليه، ولا قَيْضاً[7] يكونُ لما فيه حِضْناً.

والخِرشَاءُ: قِشرةُ البَيْض إذا خَرَجَ ما فيه. وسَلْخ الحيَّةِ يقال له الخِرشاء.

١١٧٩ - [شعر في التشبيه بالبيض]

وقال الأعشى[8] في تشبيه اللّفاءِ الحسناء[9] بالبيضة: [من السريع]

أو بيضةٍ في الدِّعصِ مكنونةٍ ... أو دُرَّةٍ سِيقَتْ إلى تَاجِرِ[10]

وقال في بيض الحديد[11]: [من الطويل]

كأنَّ نَعامَ الدَّوِّ بَاضَ عليهِمُ ... إذا شامَ يوماً للصَّريخِ المُنَدَّدِ[12]

---

(١) ثمار القلوب ٣٩٢ (٧٢٠)، والعمدة ٢/١٨٩، وهو من الأمثال في مجمع الأمثال ١/٩٧، وجمهرة الأمثال ١/٢٣١، وفصل المقال ٤١٧، ٤٣٨، ٤٨٧.

(٢) في ثمار القلوب (٧٢٢): بيضة الإسلام: هي مجتمعه وحوزته.

(٣) ديوان أبي حية النميري ١٦٨.

(٤) التقالي: المباغضة.

(٥) لداتي: جمع لدة، وهو من يولد معك.

(٦) الحِبْن. الدمل.

(٧) القيض: القشرة العليا اليابسة على البيضة.

(٨) ديوان الأعشى ١٨٩، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حرب)، والتهذيب ٥/٢٣، والجمهرة ١٢٥٦.

(٩) اللفاء: الضخمة الفخذين في اكتناز.

(١٠) مكنونة: مخبأة. الدعص: الرمل المستدير.

(١١) ديوان الأعشى ٢٨٩.

(١٢) الدو: الفلاة: شام: نظر، أو: سلَّ سيفه. الصريخ: المستغيث.

وقال الأعشى[1]: [من الطويل]

أَتَتْنَا مِنَ البَطْحاءِ يَبْرُقُ بَيضُهَا ... وقد رُفِعَتْ نيرانُها فاستقلَّتِ

وقال زيد الخيل[2]: [من الطويل]

كأنَّ نَعَامَ الدَّوِّ باضَ عليهمُ ... فَأَحْدَاقُهُمْ تَحْتَ الحَديدِ خوازِرُ[3]

قال: ويقال تقيَّضَت البيضةُ، والإناءُ، والقارورة، تقيُّضاً: إذا انكسرت فلَقاً. فإذا هي لم تَتَفلَّقْ فلَقاً وهي متلازقةٌ، فهي منْقَاضَةٌ انقياضاً. وقَيض البيضة: قشرتها اليابسة. وغِرْقِئها: القشرة الرَّقيقة التي بين اللَّحم وبين الصَّميم. قال: والصَّميم: الجلدة.

قال: ويقال غرقَأَت البيضةُ: إذا خرجَتْ وليس لها قشرٌ ظاهر غير الغِرقِئة.

قال الرَّدَّاد: غرقأَت الدَّجاجَةُ بيضها، فالبيضة مُغَرْقَأة. والخرشاء: القشرة الغليظة من البيضة، بعد أن تثقَب فيخرجَ ما فيها من البلل؛ وجماعُها الخَراشيّ، غير مهموز.

قال: وقال ردَّاد: خِرْشاءُ الحيّة: سَلْخَها حين تنسَلخ.

قال: وتغدّى أعرابيٌّ عندَ بعضِ الملوك، فدبَّت على حلْقه قملةٌ، فتناولها فقصَعَها بإبهامه وسَبَّابته، ثمَّ قتلها، فقالوا له: ويلك! ما صنعت؟! فقال: بأبي أنتُمْ وأمي: ما بقي إلا خرشاؤها!

وقَالَ المُرَقّشُ[4]: [من السريع]

إن تَغْضَبُوا نَغْضَبْ لذاكم كما ... يَنْسَلُّ من خِرْشائه الأرقمْ[5]

وقال دُريد بن الصِّمَّةِ في بَيض الحديد[6]:

قال: ويقال في الحافر نزَا ينزو. وأمَّا الظّليمُ فيقال: قَعَا يقعُو، مثل البعير.

---

(١) ديوان الأعشى ٣٠٩، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٥، وحماسة ابن الشجري ٤١.

(٢) البيت لزيد الخيل في ديوانه ٢١١، ولمعقر بن أوس بن حمار في الأغاني ١١/ ١٦١، ولمعقر بن حمار في قصائد جاهلية نادرة ١١١، وصدر البيت بلا نسبة في المقاييس ٣/ ١١٢.

(٣) الخازر: من ينظر بلحاظ عينيه.

(٤) المفضليات ٢٤٠.

(٥) الأرقم من الحيات: الذي فيه سواد وبياض.

(٦) سقط البيت من الأصل، ولم يرد في ديوان دريد بن الصمة شعر قاله في بيضة الحديد.

يقال: قاع يقوعُ قَوْعاً وقِيَاعاً، وقعَا يقعُو قَعْواً. فهذا ما يسوُّون فيه بينه وبين البعير. ويقال: خفّ البعير، والجمع أخفاف. ومنسِمُ البعير، والجمع مناسم؛ وكذلك يقال للنّعامة.

وقال الرّاعي[1]: [من الطويل]

ورِجْل كرجْل الأخْدَريّ يُشيلُها ... وَظِيفٌ على خُفِّ النّعامةِ أرْوحُ[2]

وقال جران العود[3]: [من الطويل]

لَهَا مثل أظفَار العُقَاب ومَنْسِمٌ ... أزجُّ كَظُنْبُوب النَّعَامةِ أروحُ[4]

قال: والزَّاجَل: ماء الظَّليم؛ وهو كالكِرَاضِ من ماءِ الفحْل. وأنْشد لابْنِ أحمر[5]: [من الوافر]

وما بيضاتُ ذي لِبَدٍ هِجَفٌ ... سُقِينَ بزَاجَلٍ حَتَّى رَوِينَا

وقال الطِّرِمَّاح[6]: [من الخفيف]

سَوْفَ تُدْنِيك مِنْ لَمِيسَ سَبَنْدَا ... ةٌ أَمَارَتْ بالبَوْلِ مَاءَ الكِرَاض[7]

وربَّما استعاروا المناسم. قال الشاعر: [من الرجز]

توعدني بالسِّجن والآدات ... إذا عَدَت تأظبت أدات

تربطُ بالحبل أُكَيْرِعَات

قال: ويقال لولد النَّعام: الرَّأل، والجمع رِئال ورئلان؛ وَحَفَّانٌ. وَحَفّانة

---

(١) ديوان الراعي ٤٤.

(٢) الأخدري: الحمار الوحشي. يشيل: يرفع.

(٣) ديوان جران العود ٦.

(٤) في ديوانه «يقول: أظفارها كمخالب العقاب. والمنسم طرف خف النعامة. والأزج: المقوس. الظنبوب: أنف عظم السوق».

(٥) ديوان عمرو بن أحمر ١٥٨، وتقدم في الفقرة (١١٧٣).

(٦) ديوان الطرماح ٢٦٦ (١٧٢)، واللسان (نضج، مور، يعر، كرض)، والتاج (مور، يعر، كرض)، والتهذيب ٣/١٨٢، ١٠/٣٦، ٥٥٧، ١٥/٢٩٨، والجمهرة ٧٥١، والعين ٥/٣٠١، والمقاييس ٥/١٧٠، وبلا نسبة في المجمل ٤/٢٢٢، ٥٦٤.

(٧) في ديوانه «سبنداة: الناقة الجريئة. أمارت: أسالت وأجالت. والكراض: ماء الفحل. وأمارته: أي أسالته مع البول، فلم تعقد عليه، ولم تحمل فتضعف، وعدم الحمل أقوى للناقة».

للواحدة، والجمع حَفَّان؛ وحِسْكل. ويقال: هذا خَيطُ نعامٍ وخِيطان. وقال الأسودُ بن يُعْفُر: [من الكامل]

وكأنّ مرجعهم مَنَاقفُ حَنْظَلٍ   لعِبَ الرِّئالُ بها وخَيطُ نَعامِ

ويقال: قَطيعٌ من نَعام، ورَعْلَةٌ من نعام.

وقال الأصمعيُّ: الرَّعلة: القِطعة من النَّعام. والسِّرب من الظِّباءِ والقَطَا. والإِجْل من الظِّلف.

وقال طُفَيلٌ الغَنَويُّ[1] في بيضة الْحَيِّ وما أشبه ذلك: [من الطويل]

ضَوَابعُ تَنْوي بَيْضَةَ الْحَيِّ بعدما   أذاعَتْ برَيْعَانِ السَّوَام المعزَّبِ[2]

قال: ويقال: للظليم إذا رَعى في هذا النَّبات ساعةً وفي هذا ساعةً قد عَقَّبَ يُعَقِّبُ تعقيباً. وأنشدني لذي الرُّمَّة[3]: [من البسيط]

ألهاه آءٌ وتَنُّومٌ وَعُقْبَتُه   مِنْ لائحِ المروِ والمَرْعَى لَهُ عُقَبُ

قال: ويقال للرجل، إذا كان صغير الأذنين لاصقَتين بالرَّأس: أصمع؛ وامرأةٌ صَمْعاء. ويقال: خَرَجَ السهمُ متصَمِّعاً: إذا ابتلَّتْ قُذَذُه من الدَّم وانضمّت. وقال أبو ذُؤيب[4]: [من الكامل]

* سهماً فَخَرَّ وَريشُهُ متصمِّعُ *

ويقال: أتانا بثريدةٍ مُصَمَّعَة: إذا دَقَّقَهَا وَحَدَّدَ رأسَها. وصومعة الرّاهب منه؛ لأنها دقيقة الرأس. وفلانٌ أصمع القلْبِ: إذا كان ذكياً حديداً ماضياً. وقال طرفة[5]: [من الطويل]

لَعَمْرِي لقد مَرَّتْ عواطِسُ جَمَّةٌ   وَمَرَّ قُبَيْلَ الصُّبح ظبيٌ مصمِّعُ[6]

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ٢٩، والعين ٢/ ٢٥.

(٢) في ديوانه «الضبع: أن تهوي بأيديها إلى أعضادها، بيضة الحي: معظمهم. أذاعت: فرّقت. ريعان كل شيء: أوله. السوام: ما يسرح من إبل أو بقر أو غنم. المعزب: الذي بعد عن أهله لا يروح عليهم».

(٣) ديوان ذي الرمة ١١٤.

(٤) صدر البيت (فرمى فأنْفَذَ منْ نحوصٍ عائطٍ)، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٢٢، واللسان والتاج (نجد، صمع)، والعين ١/ ٣١٧، والمجمل ٣/ ٢٤٢، والتهذيب ٢/ ٦٠، ١٠/ ٦٦٥، وللهذلي في الجمهرة ٨٨٧، وبلا نسبة في المقاييس ٣/ ٣١١، والمخصص ٦/ ٩٤.

(٥) البيت في ملحق ديوان طرفة ١٥٦ «طبعة مكس سلغسون»، واللسان والتاج (عطس، سمع) والتهذيب ٢/ ٦٥، وبلا نسبة في المخصص ٨/ ٢٦.

(٦) العواطس: جمع عاطس، وهو ما استقبلك من الظباء.

أراد: ماضياً.

وقال الشاعر في بيضة البَلد: [من البسيط]

أقْبَلْتَ تُوضِعُ بِكْراً لا خِطامَ لها   حَسِبْتَ رَهْطك عِنْدي بَيْضَةَ البَلَدِ

ويُشبَّه عظامُ جماجمِ الرؤوس ببَيض النّعامِ. وقال الأعرج القَيْنِيّ: [من الوافر]

بكَينا بالرِّماح غداةَ طَرْقٍ   على قَتْلَى بناصفةٍ كِرامِ[1]

جَماجمَ غُودِرَتْ بحمامِ عِرْقٍ   كأنَّ فَرَاشَها بَيضُ النّعامِ[2]

وقال مقاتل بن طَلَبَةَ[3]: [من الطويل]

رأيتُ سحيماً فاقَدَ اللّهُ بَيْنَهَا   تَنِيكُ بأيديها وتَأبَى أُيُورُهَا

وقال السُّحيمي يردّ عليه: [من الطويل]

مُقَاتِلُ، بشِّرْها ببَيضِ نَعامةٍ   وإن لم تبشِّرها فأنتَ أميرُها

وقال أبو الشِّيص الخُزاعي في بيضة الخِدْر: [من البسيط]

وأبرزَ الخِدْرُ من ثِنْيَيْه بَيْضَتَهُ   وأعجَلَ الرَّوْعُ نصلَ السَّيفِ يُخْتَرَط[4]

فثَمَّ تَفديك مِنّا كلُّ غانيةٍ   والشَّيخُ يفديك والوِلدانُ والشُّمُط[5]

وقال جحشُ بنُ نصيب: [من الطويل]

كأنَّ فُلاقَ الهام تحتَ سُيوفِنا   خَذَارِيفُ بَيْضٍ عَجَّلَ النَّقْفُ طائرُه[6]

وقال مهلهلٌ[7] في بيضة الخِدر: [من الكامل]

وتجولُ بيضاتُ الخُدورِ حواسراً   يمسَحْنَ فَضْلَ ذَوائِبِ الأيتامِ[8]

---

(١) ناصفة: موضع في العقيق بالمدينة، ويوم ناصفة من أيام العرب. معجم البلدان ٥/٢٥٢.

(٢) الفراش: كل عظم رقيق.

(٣) البيت في عيون الأخبار ٤/٩٦.

(٤) الثنيان: مثنى ثني، والجمع أثناء، وهي المحاني، والمعاطف. يخترط: يستل من غمده.

(٥) الشمط: جمع أشمط، وشمطاء، وهو الذي اختلط بياض رأسه بسواده.

(٦) الفلاق: جمع فلاقة، وهي القطعة، والخذاريف: جمع خُذروف: وهي كل شيء مبعثر من شيء. نقف الطائر البيضة: ثقبها.

(٧) البيت في الأصمعيات ١٥٦.

(٨) حواسر: كاشفات رؤوسهن.

وهو وما قبله يدلان على أنهم لا يُشَبِّهون بِبَيْضِ النّعام إلاّ الأبكار.

قال الشاعِرُ[1]: [ممن الطويل]

وَبِيض أفقْنَا بالضُّحَى من مُتونها سَماوةَ بيضٍ كالخباء المقوَّضِ[2]

هجومٌ عَليهَا نَفْسَهُ، غَيْرَ أنَّهُ مَتَى يُرْمَ في عَيْنَيْهِ بِالشَّخْصِ يَنْهَضِ[3]

يعني بالبِيضِ بَيْضَ النَّعام. وَسماوة الشيء: شخصه. لأنّ الظَّليم لما رآهم فَزِع ونهضَ. وهذا البيت أيضاً يدلّ على أنَّهُ فَرُوقَةٌ[4].

وقال ذو الرُّمَّة[5] في بيض النَّعام: [من الطويل]

تراه إِذا هبّ الصَّبا دَرَجَتْ به غرابيبُ من بِيضٍ هَجَائِنَ دَرْدَقُ[6]

قال: والصَّبَا والجنوبُ تهبَّان في أيام يُبس البقْل، وهو الوقتُ الذي يثقُبُ النَّعام فيه البيض. يقول: درجت به رِئلانٌ سودٌ غرابيب، وهي من بِيضٍ هجائن: أي بَيْض. والدَّردَق: الصِّغار، وهو من صُغَرِ الرِّئْلاَن.

قال طُفيل بن عوفٍ الغنَويّ[7]، وذكر كيف يأخذون بيضَ النّعام: [من الطويل]

عَوازبُ لم تسمَعْ نُبُوحَ مَقَامَةٍ ولم تَرَ ناراً تِمَّ حَوْلٍ مجرَّمِ[8]

---

(١) ديوان ذي الرمة ١٨٣١-١٨٣٢، والخزانة ٨ /١٥٧، والثاني بلا نسبة في اللسان والتاج (هجم)، والكتاب ١ / ١١٠.

(٢) في ديوانه «سماوة جون»، وفيه: «السماوة: شخصه، أي: فزعناه فقام عن بيضه. والخباء: البيت. المقوض: الذي هُلكَ وقُلعت أوتاده».

(٣) في ديوانه: «بالشبح ينهض»، وفيه: «هجوم عليها: يعني الظليم، يرمي نفسه على بيضه، الشبح: الشخص، ينهض: إذا رأى شخصاً فرّ وهربَ».

(٤) فروقة: كثير الفزع.

(٥) ديوان ذي الرمة ٤٨٠، والمعاني الكبير ٣٥٤، والأزمنة والأمكنة ٢ / ٨١.

(٦) في ديوانه «إنما اختار الصبا لأنها تهب في الشتاء، والنعام لا يبيض إلا في الشتاء. فلذلك درجت في هذا الوقت. غرابيب: سود، الواحد: غربيب، يعني الفراخ. من بيض: يقول: هذه الفراخ خرجت من بَيْضٍ بيضٍ. والهجائن: البيض. دردق: صغار، لا واحد لها».

(٧) ديوان طفيل الغنوي ٧٧-٧٨، وأمالي القالي ٢ /٨٣، والأول في أساس البلاغة (تمم، نبح)، وهما لابن مقبل في ديوانه ٢٧٦.

(٨) في ديوانه «عوازب: لا تروح إلى أهلها بالقفر. النبوح: أصوات كلاب المقيمين. تم حول: يقال: مضى له حول مجرم، إذا كان تماماً».

سوى نارِ بَيض أو غَزالٍ مُعْفَّرٍ   أغَنَّ من الخُنْسِ المناخِرِ تَوْءَمِ[1]

هذه إِبلُ راعٍ معزِبٍ صاحب بوادٍ وبدوةٍ لا يأتي المحاضرَ والمِياهَ حيثُ تكون النّيران. وهو صاحب لبنٍ وليس صاحبَ بقْلٍ، فإبله لا ترى ناراً سوى نارِ بَيض أو غزالٍ.

١١٨٠ - [نار الصَّيد]

وهذه النّارُ هي النّارُ التي يُصطاد بها الظِّباءُ والرِّئلانُ وبَيْضُ النَّعام[2] لأنَّ هذه كلَّها تعشى إذا رأتْ ناراً، ويحدُثُ لها فكرةٌ فيها ونظر. والصبيُّ الصغير كذلك. وأوّلُ ما يعابثُ الرَّضيعُ، أوّلَ ما يناغي، المصباحُ.

وقد يعتري مثلُ ذلك الأسدَ، ويعتري الضِّفدعَ؛ لأنَّ الضِّفدعَ ينقّ، فإذا رأى ناراً سكَت. وهذه الأجناس قد تُغترُّ بالنَّار، ويُحْتَالُ لها بها.

١١٨١ - [تشبيه الغيوم بالنّعام]

وتوصف الغيومُ المتراكمة بأنَّ عليها نعاماً. قال الشّاعر[3]: [من المتقارب]

كأنَّ الرَّبَابَ دُوَينَ السَّحا   بِ نَعامٌ تَعَلَّقَ بالأرْجُلِ[4]

وقال آخر[5]: [من الطويل]

خَليلَيّ لا تَسْتَسْلِمَا وَادْعُوا الّذي   له كلُّ أَمْرٍ أنْ يَصُوبَ ربيعُ

حَياً لبلاَد أبْعَدَ المَحْلُ أهلَها   وفي العَظْم شيءٌ في شَظَاهُ صُدُوعُ[6]

بمُسْتَنْضِد غرٍّ النَّشَاص كأنها   جِبالٌ عليهنَّ النُّسورُ وُقُوعُ[7]

١١٨٢ - [استطراد لغوي]

وقال آخر[8]: [من الكامل]

وَضَعَ النَّعَامَاتِ الرِّجالُ بَرِيْدِهَا   من بين مَخْفُوضٍ وبينِ مظَلَّلِ[9]

---

(١) في ديوانه «يقول: سوى نار بيض نعام أو غزال يصيدونه. والأخنس: القصير الأنف. توءم: اثنان في بطن.

(٢) في ثمار القلوب ٤٦٢ (٨٣٠): نار الصيد... ويطلب بها أيضاً بيض النعام في أفاحيصها ومكامنها.

(٣) البيت لعبد الرحمن بن حسان أو لعروة بن جلهمة المازني في اللسان والتاج (ربب)، والتنبيه والإيضاح ١/٨٠، ولحسان بن ثابت في زهر الآداب ٢٤٠.

(٤) الرباب: السحاب المتعلق.

(٥) الأبيات بلا نسبة في ربيع الأبرار ١/١٣٩.

(٦) الحيا: الخصب. المحل: الجدب. الشظي: عُظَيْم لاصق بالركبة.

(٧) المستنضد: السحاب المتراكم، والنشاص: السحاب المرتفع بعضه فوق بعض.

(٨) البيت لأبي كبير الهذلي في ديوان الهذليين ٢/٩٧، وبلا نسبة في المخصص ٥/١٣٥.

(٩) الرَّيْد: حرف الجبل الناتئ.

والنعائم في السماء[1]، والنعائم والنّعامتان من آلات البئر. والنعامة: بيت الصائد.

وقال في مثل ذلك عروةُ بن مُرَّة الهذليّ[2]: [من الطويل]

وذاتِ رَيْدٍ كزَنْقِ الفَأسِ مُشْرِفَةٍ   طريقها سَرِبٌ بالنّاسِ مجبُوبُ[3]

لم يَبْقَ من عَرْشها إلاّ نعامتُها   حالانِ منهزمٌ منها ومَنصوبُ[4]

١١٨٣ - [مسكن الأروى و النعام]

وفي المثل: «ما يُجمَعُ بين الأرْوَى والنّعام»[5] لأنَّ الأرْوَى تسكن الجبال ولا تُسهِل[6]، والنّعامَ تسكن السهل ولا تَرْقى في الجبال. ولذلك قال الشاعِرُ[7]: [من المتقارب]

وَخَيْلٍ تُكَرْدِسُ بالدّارِعينَ   كمشْيِ الوُعول على الظّاهِرَهْ[8]

وقال كثيِّر[9]: [من الكامل]

يَهدي مَطَايَا كالحَنِيّ ضَوَامِراً   بنيَاط أَغْبَرَ شَاخِص الأمْيَالِ[10]

---

(١) هي منزلة من منازل القمر بها ثمانية كواكب نيِّرة، أربعة منها في المجرة تسمى الواردة وأربعة خارجة منها تسمى الصادرة، وشبهت بالخشبات التي تكون على البئر يعلق بها البكرة والدلاء. انظر العمدة ٢/٥٥، وصبح الأعشى ٢/١٧٩.

(٢) البيتان لأبي خراش الهذلي في ديوان الهذليين ٢/١٥٩-١٦٠، والبيت الأول في اللسان (سرب)، والتاج (دعب، سرب).

(٣) في ديوان الهذليين: «الريد: حرف ناتئ من الجبل. كذلق الفأس: كحدّ الفأس، طريقها سرب: شائع».

(٤) في ديوان الهذليين «قوله: من عرشها: هو أن يوضع فوق هذه الدعامة ثُمامٌ أو شيء يستظل تحته، فيقول: لم يبق من عرش هذه إلا جِذْلان: عودان، واحد قائم، والآخر ساقط».

(٥) مجمع الأمثال ٢/٢٧١، والمستقصى ٢/٣٣٥، وأمثال ابن سلام ٢٧٩، وجمهرة الأمثال ٢/١٦٩.

(٦) تسهل: تنزل في السهل من الأرض.

(٧) البيت للمهلهل في التهذيب ٦/٢٥٠، ١٠/٤٦، واللسان والتاج (ظهر)، وله أو لعبيد في اللسان والتاج (كدس)، وبلا نسبة في المقاييس ٥/١٦٥، والمخصص ١٠/٦٩، والبرصان ١٤٣.

(٨) الدارع: لابس الدرع الحديدي. الظاهر: أعلى الجبل.

(٩) ديوان كثير ٢٨٧.

(١٠) الحَنيُّ: جمع حنية، وهي القوس، الأغبر: الطريق ذو الغبرة. شاخص: قائم.

فَكأَنَّه ُ إذْ يَغْتَدي مُتَسَنِّماً وَهْداً فَوَهْداً نَاعِقٌ برِئالِ[1]

١١٨٤ - [تشبيه النعام بالسحاب]

وقال الأعشى[2]، في تشبيه النَّعام بما يتدلَّى من السَّحاب من قطع الرَّباب: [من مجزوء الكامل]

يا هَلْ تَرى بَرْقاً على الـ ـجَبَلَيْنِ يُعْجِبُني انجيابُه[3]

مِنْ ساقط الأكناف ذي زَجَلٍ أَرَبَّ به سَحابُه[4]

مثلِ النَّعامِ مُعَلَّقاً لمَّا زَقَا ودنا رَبابُه[5]

وقال وشبَّهَ ناقَتهُ بالظَّليم[6]: [من الكامل]

وإذا أطافَ لبابه بسَديسه ومسافراً ولجا به وتَزَيَّدَا

شَبَّهْتهُ هِقْلاً يُبارِي هِقْلَةً رَبْداءَ في خَيْطٍ نَقَانِقَ أربدا[7]

وذكر زهيرٌ[8] الظَّليمَ وأولاده، حتّى شبَّه ناقتَه بالظَّليم: [من الطويل]

كأنِّي ورِدْفِي وَ الْقِرَابَ وَ نُمرُقِي على خاضِبِ السَّاقين أزْعَر نقْنق[9]

تراخى به حُبُّ الضَّحاء وقد رأى سَماوةَ قَشْرَاءِ الوظيفَين عَوْهَقِ[10]

تَحِنُّ إلى مِيلِ الحَبابير جُثَّمٍ لَدَى سَكَنٍ مِنْ بَيْضها المتفلِّق[11]

تحطَّمَ عنها عَنْ خراطم أسيح وعن حَدَقٍ كالسَّبَج لم يتفلَّقِ

---

(١) الوهد: الأرض المنخفضة. ناعق: من نعق الراعي بالغنم: دعاها وصاح بها.

(٢) ديوان الأعشى ٣٣٩.

(٣) انجيابه: انكشافه.

(٤) الزجل: الصوت. أرب به: أقام.

(٥) زقا: صاح.

(٦) ديوان الأعشى ٢٧٩.

(٧) الهقل: الفتي من النعام. الصعل: الطويل من النعام. الربداء، الرمادية اللون. الخيط: جماعة النعام. النقانق: الخفيف من النعام.

(٨) ديوان زهير ١٧٧-١٧٨، والشرح التالي منه.

(٩) «ردفه: عيبه أو حقيبة، النمرق: الوسادة. خاضب: قد خضب البقل ساقيه. أزعر: قليل الريش. نقنق: ينقنق في صوته، ويقال هو اسم الظليم».

(١٠) تراخى: تطاول. تباعد به حُبُّه لأن يتضحّى، والضحاء للإبل: مثل الغداء للناس. وسماوة الشيء: أعلى شخصه. وقشراء: نعامة متقشرة الساق لا ريش عليها. والوظيف: عظم الساق. وعوهق: طويلة العنق.

(١١) «تحن هذه النعامة. الحبابير: فراخها. ويقال: هي جمع حبارى. جثم: جاثمة أقامت في موضعها. سكن: حيث تسكن إليه، وهو الموضع الذي باضت فيه».

السَّبج: الخَرزُ

١١٨٥ - [النعامة فرس خالد بن نضلة]

وكان اسمُ فرسِ خالدِ بن نَضْلة: «النَّعامة». قال: [من الطويل]

تَدارَكَ إرخَاءُ النَّعامةِ حَنْتَراً ... وَدُودَانَ أدَّتْهُ إليَّ مُكبَّلا

١١٨٦ - [تشبيه مشي الشيخ بهدجان الرئال]

وقال عُروة بن الوَرد[١]: [من الطويل]

أليسَ ورائي أن أدِبَّ على العَصَا ... فيأمَنَ أعدائي ويَسْأَمَنِي أهْلِي

رَهِينَةَ قَعْرِ البيتِ كلّ عَشِيّةٍ ... يُطيفُ بيَ الوِلْدَانُ أَهْدِجُ كالرَّألِ

شَبَّه هَدَجَانَ الشَّيخ الضَّعيفِ في مشيته بهدَجَان الرَّأل.

وقال أبو الزَّحْف[٢]: [من الرجز]

أشكو إليك وَجَعاً بركبتي ... وَهَدَجَاناً لم يكنْ في مِشْيتي

كَهَدَجَانِ الرَّألِ حَوْلَ الهَيْقَتِ[٣]

وقال آخر، ولست أدري أيُّهما حَمَل على صاحبه: [من الرجز]

أشكُو إليكَ وَجَعاً بمرفَقِي ... وَهَدَجَاناً لم يكنْ في خُلقي

كَهَدَجَانِ الرَّألِ حَوْلَ النِّقْنِقِ

ولم يفضحْه إلاَّ قوله:

أشكو إليك وجعاً بمرفقي

لأنَّ الأوَّلَ حكى أنَّ وجعَه في المكان الذي يُصيبُ الشُّيوخَ، ووجعُ المرفقِ مثلُ وجَعِ الأذنِ، وضربانِ الضّرس ليس من أوجاع الكِبَر في شيء.

---

(١) ديوان عروة بن الورد ٥٤.

(٢) الرجز لأبي الزحف في الشعر والشعراء ٤٣٣ (ليدن)، ولأبي علقمة التيمي في نوادر أبي زيد ٢٥٥، وبلا نسبة في اللسان وأساس البلاغة والتاج (هدج)، والجمهرة ٢٢٧، ٤٥٢، وأمالي القالي ١/ ١٨٩.

(٣) الهيقة: النعامة الطويلة.

١١٨٧ - [شعر فيه ذكر النعامة]

وقال ابن ميَّادة[١]، وذكر بني نَعامةَ من بني أسد - وقد كان قَطَرِيُّ بن الفجاءة يكنى أبا نعامة -: [من الطويل]

فهل يمنَعَنِّي أنْ أسِيرَ ببَلْدَةٍ   نَعامةُ، مِفْتاحُ المخازِي وبابُها

١١٨٨ - [جعل البيضة الفاسدة مثلاً]

وهجا دُريدُ بن الصِّمّة رَجُلاً فجعل البيضةَ الفاسدةَ مثلاً له، ثمَّ ألحقَ النَّسرَ بأحرار الطَّيرِ وكرامها - وما رأيتُهُمْ يعرِفون ذلك لنسرٍ - فقال[٢]: [من الطويل]

فإنِّي على رغْم العَذولِ لَنَازلٌ   بحيث التَقَى عيطٌ وبِيضُ بني بدْر

أيا حَكَمَ السَّوْءَاتِ لا تَهْجُ وَاضْطَجِعْ   فهل أنْتَ إن هاجَيْت إلاَّ من الخُضْرِ

وهل أنْتَ إلاَّ بَيْضَةٌ مات فَرْخُها   ثَوَتْ في سُلوخِ الطيرِ في بلدٍ قفْرِ

حَوَاهَا بغاثٌ: شرُّ طير علمتَها   وَسُلاَّءُ ليستْ من عُقابٍ ولا نسْرِ

١١٨٩ - [استطراد لغوي]

ويقال للأنثى من ولد النَّعامة: قلوص؛ على التشبيه بالنَّعام من الإبل. وهذا الجمع إلى ما جعلوه له من اسم البعير، وإلى ما جعلوا له من الخفِّ والمنسمِ، والخَرَمَةِ، وغير ذلك.

قال عنترة[٣]: [من الكامل]

تأوِي له قُلُصُ النَّعامِ كما أوَتْ   حِزَقٌ يَمَانِيَةٌ لأعجَمَ طِمْطِمِ[٤]

---

(١) ديوان ابن ميادة ٧٩.

(٢) الأبيات لدريد بن الصمة في ديوانه ٧١، ولابن ميادة في ديوانه ٢٨١، ورأى محقق ديوان ابن ميادة أن الأبيات لابن ميادة وليست لدريد بن الصمة وعلل ذلك اعتماداً على ما جاء في البيت الثاني حيث ورد اسم «الحكم الخضري» الذي كان معاصراً لابن ميادة وكانت بينهما علاقة عدائية مشهورة.

(٣) البيت لعنترة من معلقته في ديوانه ٢٠، واللسان والتاج (قلص، حزق، طمم)، والتهذيب ١٣/٢٠٧، والمجمل ٢/٥٧، والجمهرة ٢١٣، ٨٩٤، والمقاييس ٢/٥٣، وبلا نسبة في المخصص ٢/١٢٠، ١٢٢، وشرح المفصل ٨/١٥٣.

(٤) في ديوانه «الحزق: الجماعات. الطمطم: الذي لا يفصح».

وقال شماخ بن ضِرار[1]: [من الطويل]

قلوص نَعامٍ زِفّها قد تَمورّا[2]

١١٩٠ - [وصف الرئال]

ووصف لبيدٌ الرِّئالَ فقال[3]: [من الوافر]

فأضْحَتْ قد خَلَتْ إلاَّ عِراراً   وَعَزْفاً، بعد أحياءٍ حِلاَلِ[4]

وخَيطاً من خَوَاضِبَ مزلفات   كأَنَّ رِئالها وُرْقُ الإفالِ[5]

وقال حسانُ بن ثابتٍ، رضي اللّه عنه[6]: [من الوافر]

لعمرُك إنّ إِلَّكَ في قُريشٍ   كإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأَلِ النّعامِ[7]

وقد عاب عَلَيْهِ هذا البيتَ ناسٌ، وَظَنّوا أَنَّهُ أراد التبعيد، فذكر شيئين قد يتشابهان من وجوهٍ. وحسانُ لم يردْ هذا، وإنما أراد ضعْفَ نَسَبه في قُريش، وأنَّه حِينَ وَجَدَ أدنى نَسب انتحل ذلك النَّسب.

١١٩١ - [النعامة، فرس الحارث بن عباد]

وقال الفرزدقُ – وذكَرَ الفرَسَ الذي يقال له: «النّعامة» وهو فرسُ الحارث بن

---

(١) صدر البيت: (وقد أنعلتها الشمس نعلاً كأنه)، وهو في ديوان الشماخ ١٣٨، واللسان والتاج (قلص)، والمخصص ٨/٥٦، ١٥٨، وبلا نسبة في الجمهرة ٨٩٤.

(٢) في ديوانه: «القلوص: الأنثى الشابة من الرئال، الزف: صغير الريش. تمور: سقط».

(٣) ديوان لبيد ٧٢-٧٣، والأول في اللسان والتاج (خيط)، والتهذيب ٧/٥٠٣، والعين ٤/٢٣٩، والثاني في اللسان والتاج (عرر)، والعين ١/٨٦، وبلا نسبة في المقاييس ٤/٣٥، والمخصص ١٧/١٢٤.

(٤) العرار: صوت الظليم. والعزف: صوت الرياح أو الجن. أحياء حلال: أقوام مقيمون.

(٥) الخيط: جماعة النعام. الخواضب: الظلمان المحمرة سوقها. رئال: فراخ. إفال: جمع أَفيل، وهو الفصيل من الإبل.

(٦) ديوان حسان ٤٦٥، واللسان والتاج (ألل)، وديوان الأدب ٤/١٥٥، وكتاب الجيم ٣/٢٢٦، وبلا نسبة في المقاييس ١/٢١، والعين ٨/٣٦١، والمخصص ٣/١٥١. والبيت قاله حسان لأبي سفيان بن الحارث.

(٧) في ديوانه: «الآل: الرحم. السقب: ولد الناقة ساعة يولد. الرأل: ولد النعام. يقول: إن قرابتك من قريش كقرابة ولد الناقة لرأل النعام، أي لست منهم في نسب».

عُبَاد، التي يقول فيها[1]: [من الخفيف]

قرِّبا مَرْبطَ النّعامةِ منِّي لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عن حِيَالِ

وقولُ الفرزدق[2]: [من الطويل]

تُرِيكَ نُجومَ اللَّيلِ والشَّمْسُ حَيّةٌ كرامُ بناتِ الحارثِ بْنِ عُبادِ

نساءٌ أبوهنّ الأغرّ، ولم تَكُنْ من الحُتِّ في أجْبالها وَهَدَادِ[3]

أبوها الذي آوى النَّعامةَ بعدما أبَتْ وَائِلٌ في الحَرْبِ غَيْرَ تَمادِ

وقد مَدحوا بناتِ الحارث بن عباد هذا، فمن ذلك قوله[4]: [من الكامل]

جاؤُوا بحارِشَةِ الضِّبابِ كأنَّهُمْ جَاؤُوا ببنتِ الحارثِ بنِ عُبادِ[5]

ويلحق هذا البيت بموضعه، من قولهم. باضَ الصَّيف، وباضَ القَيظ.

وقال مضرِّس[6]: [من الطويل]

بلمّاعةٍ قد بَاكَرَ الصَّيفُ ماءَها وباضت عليها شمسه وحرائِرُه

١١٩٢ - [ابن النعامة، فرس خزز بن لوذان]

وابن النّعامة: فرس خُزَز بن لَوْذَان. وهو الذي يقول لامرأته حين أنكرتْ عليه إيثاره فرسَه باللبَن[7]: [من الكامل]

كَذَبَ العَتيقُ ومَاءُ شَنٍّ بارِدٌ إنْ كنْتِ سائلتي غَبوقاً فاذْهَبِي[8]

---

(١) البيت للحارث بن عباد في الأصمعيات ٧١، والحماسة البصرية ١/١٦، والسمط ٧٥٧، والخزانة ١/٤٧٢، ٤٧٣، واللسان (قلص، نعم، عنن)، والتاج (نعم، عنن)، وأساس البلاغة (حول، لقح)، والأغاني ٥/٤٧، وديوان المعاني ٢/٦٣، وذيل الأمالي ٢٧، والأزهية ٢٨٠، وتقدم البيت الأول في الفقرة (٨) ١/٢١.

(٢) ديوان الفرزدق ١٥٩ (طبعة الصاوي)، والأغاني ٢١/٢٨٩-٢٩٠.

(٣) في الأغاني: «من الأزد في جاراتها وَهَداد». الحت وهداد: قبيلتان من الأزد.

(٤) البيت لامرأة من بني مرة بن عباد في ثمار القلوب ٢٤٠ (٤٦٥).

(٥) في ثمار القلوب: «بنت الحارث بن عباد: ممن يُتَمَثَّل بها من النساء في الشرف والجمال».

(٦) البيت في اللسان والتاج (حرر).

(٧) الأبيات لخزز بن لوذان في البرصان ١٧٥، والبيان ٣/٣١٧، وله أو لعنترة في اللسان (نعم)، والخزانة ٦/١٨٣، والأغاني ١٠/١٨٠، ولعنترة في ديوانه ٣٣، وانظر الحماسة البصرية ١/١٦، وأمالي الشجري ١/٢٦٠، وحماسة الشجري ٨.

(٨) في ديوان عنترة «كذب، هنا: بمعنى وجب. العتيق: التمر. الشن: القربة البالية».

إنِّي لأَخْشَى أن تقولَ خليلتي هـذا غبارٌ سـاطعٌ فتَلَبَّـبِ[1]

إنَّ العدوَّ لهم إليكِ وسيلةٌ إنْ يأخُذوكِ تَكَحَّلي وتخضبي

ويكون مَرْكَبُكِ القَعودَ وحِدْجَه وابنُ النَّعامة يوم ذَلكِ مَرْكَبي[2]

١١٩٣ - [شعر في النعامة]

وقال أبو بكر الهذليُّ[3]: [من الكامل]

وَضَعَ النَّعاماتِ الرِّجالُ بِرَيْدِها يُرْفَعْنَ بَينَ مُشَعشَعٍ[4] وَمُهَلَّل

وقال ذُو الإصبع العَدْوانيّ[5] : [من البسيط]

ولي ابنُ عَمّ على ما كان مِنْ خُلُقٍ مخالفٌ لي أقْليه ويقليني[6]

أزْرَى بنا أنَّنا شالَتْ نعامتُنا فَخَالني دُونَهُ بل خِلْتُهُ دُوني[7]

وقال أبو داؤدٍ الإياديُّ في ذكر الصَّيد، وذكر فرَسه[8]: [من الخفيف]

وأخذنا به الصِّرارَ وقلنا لحقير بنانه أضمارُ[9]

وأتى يبتغي تَفَرُّسَ أمٍّ البَيْـ ـضِ شَدّاً وقد تَعَالَى النهارُ

غَيْرَ جُعْفٍ أوابدٍ ونعامٍ ونعـامٍ خِلالَهـا أثْـوارُ

في حوال العقارب العمر فيها حين يَنْهَضْنَ بالصَّباحِ عِذارُ

ثم قال:

يتكشَّفْن عَنْ صَرائعَ ستٍّ قُسِّمَتْ بينهنَّ كأسٌ عُقَارُ

بينَ ربْداءَ كالمِظَلَّةِ أفْقٍ وظليمٍ مَعَ الظَّليمِ حمارُ

---

(١) تلبب: تشمر للحرب.

(٢) في ديوان عنترة «القعود: ما اتخذه الراعي من الإبل للركوب، ابن النعامة: صدر القدم».

(٣) ديوان الهذليين ٢/٩٧، والمخصص ٥/١٣٥.

(٤) الريد: الحرف الناتئ في عرض الجبل.

(٥) ديوان ذي الإصبع ٨٩، والمفضليات ١٦٠، واللسان (نعم)..

(٦) أقليه ويقليني: أبغضه ويبغضني.

(٧) شالت نعامتهم: تفرقت كلمتهم وذهب عزهم.

(٨) ديوان أبي دؤاد ٣١٩-٣٢٠، والشرح التالي من الديوان.

(٩) «الصرار: الأماكن المرتفعة، أي انحاز بحصانه إليها. لحقير: أي للخادم الذي يخدمه أو للصائد. بنانه أضمار: لعلها: ثيابه أطمار».

ومهاتين حرسٌ ورئال وشَبوبٌ كأنّه أوْثَارُ[1]

ووصف علْقمة بن عبدة[2] ناقَته، وشبّهها بأشياءَ منها، ثُمّ أطنب في تشبيهه إيّاها بالظَّليم: [من البسيط]

تلاحظ السَّوْطَ شَزْراً وهي ضامزة كما توجسَ طاوِي الكَشح مَوْشُومُ[3]
كأنَّها خاضب زُعْرٌ قوائمُه أجْني له باللِّوَى شَرْيٌ وَتَنُّوم[4]
يظلُّ في الحَنْظَلِ الخطبان ينقُفه وما استَطَفَّ من التَّنُّوم مَخْذوم[5]
فُوه كشَقِّ العصَا لأياً تَبَيَّنُهُ أسَكُّ ما يسمَعُ الأصواتَ مَصْلُومُ[6]
يكاد مَنْسِمُهُ يَختَلُّ مُقْلَتَهُ كأنَّهُ حاذِرٌ للنَّخْس مَشهومُ[7]
حتى تذكَّرَ بَيْضَاتٍ وَهَيَّجَهُ يومُ رذَاذٍ، عليه الرِّيحُ مَغْيُومُ
فلا تزيُّدُه في مَشْيِه نَفقٌ ولا الزَّفيفُ دُوين الشَّدِّ مَسؤومُ[8]
يَأوي إلى حِسْكَلٍ زُعْرٍ حَواصلُها كأنَّهنّ إذا بَرّكْنَ جُرثُومُ[9]
وضَّاعةٌ كَعِصِيِّ الشِّرْعِ جُؤْجُؤُهُ كأنَّهُ بتناهي الرَّوْضِ عُلْجُوم[10]

---

(١) «الأوثار: الثوب الأبيض المحشو، وقيل البرذعة، وذلك أنه سمين، أما حرس ورئال فلم أهتد للصواب فيهما».

(٢) ديوان علقمة ٥٧ – ٦٢، والمفضليات ٣٩٩ – ٤٠٠، والشرح التالي من ديوانه.

(٣) الشزر: النظر بمؤخر العين. ضامزة: ضامّة لحييها لا تجتر، وذلك أسرع لها. توجس: تسمع حسّاً. الطاوي: الضامر الكشح، الموشوم: المنقط القوائم بسواد.

(٤) الخاضب: الظليم الذي أكل الربيع. الزعر: القليلة الريش. اللوى: ما التوى من الرمل، وهو هاهنا موضع بعينه. الشري: شجر الحنظل. التنوم: نبت.

(٥) الخطبان من الحنظل: الذي صارت فيه خطوط صفر وحمر. ينقفه: يكسره، ويستخرج حبه، ويأكله. والمخذوم: المقطوع. استطف: ارتفع، أي: يقطع ما ارتفع من أغصانه ويرعاه.

(٦) فوه كشق العصا: أي ما تكاد تستبين ما بين منقاريه لشدة التصاقهما. وقوله «أسك ما يسمع»، أراد: أسكُّ الشيء الذي يسمع الأصوات، والسكك: صغر الأذن وضيقها. والمصلوم: المقطوع الأذن من الأصل.

(٧) «يكاد منسمه» يريد: ظفره. وقوله «يختل مقلته» يريد: أنه يزج برجليه زجّاً شديداً ويخفض عنقه، ويمدها في عدوه، فيكاد ظفره يصيب مقلته فيشقها، والمشهوم: الفزع، والشهم: الذكي القلب.

(٨) «التزيد» فوق المشي. و«النفق» الذاهب المنقطع، و«الزفيف» دون العدو و«الشد» العَدْو الشديد. و«المسؤوم» المملول. يقول: لشدة عدو هذا الظليم وحرصه على إدراك البيض أو الأفراخ لا يسأم الزفاف.

(٩) يأوي هذا الظليم إلى فراخ، «زعر» أي أن ريش القوادم لم ينبت بعد لصغرها و«الجرثومة» أصل الشجرة.

(١٠) الوضع: ضرب من العدو، «كعصي الشرع» شبه عنق الظليم بالبَرْبط، وهو العود، و«الشرع» أوتاره. و«الجؤجؤ» الصدر، و«تناهي الروض» حيث ينتهي السيل ويستقر. و«العلجوم» الليل، شبه الظليم به لسواده، و«العلجوم» أيضاً، الجمل الضخم، ويحتمل أن يشبه الظليم به في عظم خلقه.

حَتى تَلاَفَى وقرنُ الشَّمسِ مرتفعٌ أُدْحِيَّ عِرْسَيْنِ فيه البَيْضُ مَرْكُومُ[1]
يُوحِي إِليها بإنقاضٍ وَنَقْنَقَةٍ كما تَرَاطَنَ في أفْدَانِهَا الرُّومُ[2]
صَعْلٌ، كأنَّ جَنَاحَيْه وَجُؤْجُؤَهُ بيتٌ أطافَتْ به خَرْقَاءُ مَهْجُومُ[3]
تحفُّهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءَ خَاضِبَةٌ تجيبُهُ بزِمارٍ فيه تَرْنِيمُ[4]

١١٩٤ – [النعامة التي تطحن]

الأصمعيّ قال: أخبرني رجلٌ من أهل البَصرة قال: أرسلَ شيخٌ من ثَقيفٍ ابنَه فلاناً – ولم يحفظ اسمه – إلى ابن سيرين، فكلمه بكلامٍ، وأمُّ ابنه هذا قاعدةٌ، ولا يظنُّ أنّها تفطِنُ، فقال له: يا بنيَّ اذهبْ إلى ابن سِيرِينَ، فقل له: رجلٌ رأى أنَّ له نعامةً تطحَن. قال: فقلت له؛ فقال: هذا رجلٌ اشترى جاريةً فَخَبَّأَهَا في بني حنيفة. قال: فجئت أبي فأخبرتُه، فنافرَتْهُ أمِّي، وما زالت به حتى اعترف أنّ له جارية في بني حنيفة.

وما أعرفُ هذا التأويل. ولولا أنّه من حديث الأصمعي مشهورٌ ما ذكرته في كتابي.

١١٩٥ – [مسيلمة الكذاب]

وأمَّا قول الشاعِرِ الهذليِّ في مسيلمة الكذاب، في احتياله وتمويهه وتشبيهِ ما يحتال به من أعلام الأنبياء، بقوله [من الطويل]

بِبَيْضَةِ قَارُورٍ وَرَايَةِ شَادنٍ وتوصيل مَقصوصٍ من الطيرِ جادفِ

(١) «تلافى» تدارك، و«الأدحي» مبيض النعام، لأنها تدحوه بأرجلها، أي تبسطه وتسهله، وأراد «بالعرسين» الظليم والنعامة، لأن كل واحد منهما عرسٌ لصاحبه، و«المركوم» الذي ركب بعضه بعضاً لكثرته.

(٢) «الإنقاض والنقنقة» صوته، و«تراطن الروم» ما لا يفهم من كلامهم، وإنما أراد أن الظليم يكلم النعامة بما لا يفهمه غيرهما، كما تتكلم العجم بما لا تفهم عنها العرب. و«الأفدان» جمع فَدَن، وهو القَصْر. وإنما ذكر الأفدان لأن الروم أهل أبنية وقصور.

(٣) «الصَّعْل» الرقيق العنق، الصغير الرأس من الظّلمان، وقوله «بيت» يعني: بيتاً من شعر أو وبر، «الخرقاء» المرأة التي لا تحسن عملاً، «المهجوم» الساقط المهدوم.

(٤) «الهقلة: النعامة. و«السطعاء»: الطويلة العنق، و«الخاضعة» التي أمالت رأسها ووضعته للرعي. و«الزمار» صوت النعامة، والعرار: صوت الظليم.

(٥) الخبر مع البيت التالي في ربيع الأبرار ٤/٣٤٣/٣٤٥.

قال: هذا شعرٌ أنشدَنَاهُ أبو الزَّرقاء سَهْمٌ الخثعمي، هذا منذُ أكثَرَ من أربعينَ سنة. والبيتُ من قصيدةٍ قد كان أنشدنيها فلم أحفَظْ منها إلاّ هذا البيت.

فذكر أنَّ مسيلمة طاف قبلَ التنبِّي، في الأسواق التي كانت بين دُور العجم والعرَب، يلتقُون فيها للتسوُّق والبياعات، كنحو سُوق الأُبُلّة، وسوق لقه، وسوق الأنبار، وسوق الحيرة.

قال: وكان يلتمس تعلُّم الحيَل والنِّيرَجَات[١]، واختيارات النُّجوم والمتنبئين. وقد كان أحكَمَ حيَل السّدَنَة[٢] والحُوَّاء[٣] وأصحاب الزَّجْر[٤] والخطّ[٥] ومذهبَ الكاهنِ والعَيَّاف والسَّاحر، وصاحبِ الجنّ الذي يزعم أنّ معه تَابعَهُ.

قال: فَخَرَجَ وقد أحكم من ذلك أموراً. فمن ذلك أنّهُ صبّ على بيضَةٍ من خَلٍّ قاطع - والبيضُ إذا أطيل إنقاعُه في الخلّ لان قشرُه الأعلى، حَتَّى إذا مددته استطال واستدقّ وامتدّ كما يمتدُّ العلْكُ، أو على قريبٍ من ذلك - قال: فلمَّا تمَّ له فيها ما طاوَل وأمّل، طَوّلها ثمَّ أدخلَهَا قارورةً ضيِّقةَ الرَّأسِ، وتركها حتّى جفَّت ويبست. فلمّا جفّت انضمّت، وكلما انضمَّت استدارتْ، حتى عادت كهيئتها الأولى. فأخرجها إلى مُجَّاعَة، وأهل بيته، وهم أعراب، وادَّعى بها أعجوبةً، وأنّها جُعلت له آية. فآمَنَ به في ذلك المجلس مُجّاعَة. وكان قد حمل معه ريشاً في لون ريش أزواجِ حمامٍ، وقد كان يَرَاهُنَّ في منزل مُجّاعةَ مَقاصيصَ. فالتفت، بعد أن أراهم الآيةَ في البيض، إلى الحمام فقال لمُجَّاعَةَ: إلى كم تعذِّب خَلْقَ اللّه بالقصِّ؟! ولو أراد اللّه للطَّير خلافَ الطَّيرَانِ لَمَا خَلَقَ لها أجنحةً، وقد حَرّمْتُ عليكم قصّ أجنحة الحمام! فقال لَهُ مُجَّاعة كالمتعنت: فَسَلِ الذي أعطاك في البيضِ هذه الآيةَ أنْ يُنبِت لك جَنَاح هذا الطائر الذَّكَرِ السَّاعةَ!

فقلت لسهم: أمَا كان أجوَدَ من هذا وأشبَهَ أنْ يقول: فَسل الذي أدْخَلَ لك هذه البيضة فَمَ هذه القارُورة أنْ يخرجها كما أدخَلها. قال. فقال: كأنَّ القَومَ كانُوا

---

(١) النيرنجات: علم الحيل، وهو فرع من فروع علم السحر، وهو علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع. انظر: كشف الظنون ١ / ٦٩٤، وانظر اللسان والتاج (نرج).

(٢) السدنة: جمع سادن، وهو خادم بيت الصنم، وخادم الكعبة.

(٣) الحواء: جمع حاوٍ، وهو الذي يجمع الحيات.

(٤) الزجر: العيافة، وهو ضرب من التكهن.

(٥) الخط: خط الزاجر، وهو ان يخط بإصبعه في الرمل ويزجر.

أعراباً، ومثلُ هذا الامتحانِ من مُجّاعة كثير، ولَعَمْري إنَّ المتنبئ لَيخدع ألفاً مثلَ قيس ابن زهير، قبل أن يخْدَع واحداً من آخرِ المتكلمين، وإن كان ذلك المتكلم لا يشقُّ غبارَ قيس فيما قيسٌ بسبيله.

قال مسيلمة: فإنْ أنا سألتُ اللّه ذلك، فانتبهْ له حتى يطيرَ وأنتم ترونَهُ، أتعلمون أني رسول اللّه إليكم؟ قالوا: نعم. قال: فإني أريد أنْ أناجيَ ربِّي، وللمناجاة خَلوةٌ، فانهضوا عنِّي، وإن شئتم فادخلوه هذا البيت وأدخلوني معه، حتى أخرجه إليكم السَّاعةَ في الجناحَينِ يطير، وأنتم ترونَهُ. ولم يكن القوم سَمعُوا بتغريز الحمام، ولا كان عندهم بابُ الاحتياط في أمْر المحتالين. وذلك أن عُبَيداً الكيِّس، فإنّه المقدَّم في هذه الصناعة، لو منعوه السِّتر والاختفاء، لَمَا وصل إلى شيءٍ من عمله جلّ ولا دَقَّ؛ ولكان واحداً من النَّاس.

فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيَّأه، فأدخل طرَف كلِّ ريشةٍ ممَّا كانَ معه، في جَوف ريش الحمام المقصوص، من عند المقطع والقَصِّ. وقَصَبُ الرِّيش أجوَفُ، وأكثَرُ الأصولِ حِدَادٌ وصلاب. فلما وفَّى الطَّائرَ ريشَهُ صارَ في العَين كأنَّهُ برْذَوْنٌ موصول الذَّنب، لا يعرِف ذلك إلاَّ من ارتاب به. والحمام بنفسه قد كان له أصولُ ريشٍ، فلما غُرِّزَتْ تمت فلما أرسله من يده طار. وينبغي ألاَّ يكونَ فَعَلَ ذلك بطائرٍ قد كانوا قطوه بعد أن ثبت عندهم. فلما فعل ذلك ازداد مَنْ كان آمَنَ به بصيرةً، وآمَنَ به آخرون لم يكونوا آمنوا به، ونزع منهم في أمْره كلُّ من كان مستبصِراً في تكذيبه.

قال: ثمّ إنَّه قال لهم – وذلك في مثْل ليلةٍ مُنكَرَة الرِّيَاحِ مُظلمةٍ، في بعض زمان البوارح[١] – إنَّ المَلكَ عَلَى أن ينزل إليّ، والملائكة تطير، وهي ذوات أجنحة، ولمجيء المَلك زَجَلٌ وخشخشة وقعقعة، فمن كان منكُمْ ظاهراً فَلْيَدْخُلْ منزلَه؛ فإنَّ من تأمّل اختُطِفَ بصرُه!

ثمّ صنَعَ رايةً من رايات الصِّبيان التي تعمل من الورق الصِّينيّ، ومن الكَاغَد[٢]، وتُجْعَلُ لها الأذنابُ والأجنحة، وتعلّق في صدورها الجلاجل[٣]، وترسَل يوم الرِّيح بالخيوط الطِّوال الصِّلاب.

---

(١) البوارح: جمع بارحة، وهي الريح الشديدة التي تحمل التراب.

(٢) الكاغد: القرطاس الذي يكتب فيه.

(٣) الجلاجل: الأجراس الصغيرة.

قال: فبات القومُ يتوقَّعون نزولَ المَلَك، ويلاحظون السَّماءَ، وأبطأ عنهم حتَّى قام جلُّ أهلِ اليمامة؛ وأطْنبت الرِّيح [١] وقويت، فأرسلها، وهم لا يَرَوْنَ الخيوطَ، واللَّيلُ لا يُبينُ عن صورة الرَّقِّ، وعن دقَّة الكاغد. وقد توهَّموا قبل ذلك الملائكة. فلمّا سَمِعُوا ذلك ورأوه تصارَخُوا وصاح: من صَرَفَ بَصَره ودخلَ بيتَه فهو آمن! فأصبح القومُ وقد أطبَقُوا على نصرتِه والدَّفعِ عنه. فهو قوله[٢]: [من الطويل]

ببيضَة قَارُورٍ ورَايَةِ شَادنٍ وتوصيل مَقصوص من الطيرِ جادفِ

فقلت لسهمٍ: يكون مثلُ هذا الأمْرِ العجيب، فَلاَ يقولُ فيه شَاعرٌ، ولا يَشِيعُ به خبر؟! قال: أوكلما كان في الأرض عجبٌ، أو شيء غريبٌ، فقد وجَبَ أن يشيع ذكرُه، ويقالَ فيه الشِّعرُ، ويجعلَ زمانُهُ تاريخاً!أَلَسْنَا معشَرَ العربِ نزعُمُ أنَّ كسرى أبرويز، وهو من أحرار فارسَ، من الملوكِ الأعاظمِ، وسليلُ ملوكٍ، وأبو مُلوك، مع حَزْمه ورأيه وكماله، خطبَ إلى النُّعمان بن المنذر، وإلى رجلٍ يرضى أن تكونَ امرأتُه ظئراً لبعض ولدِ كسرى، وهو عامله، ويسمِّيه كسرى عبداً، وهو مع ذلك أُحَيْمِرُ أُقَيْشِرُ، إمَّا من أشلاء قصيّ بن معد، وإما من عُرْض لخم. وهو الذي قالوا: تَزَوَّجَ مومسةً – وهي الفاجرةُ؛ ولا يقال لها مومسةٌ إلاَّ وهي بذلك مشهورة – وعرفها بذلك، وأقام عليها، وهُجِيَ بها ولم يَحفِلْ بهجائهم. وممّا زاد في شهرتها قصّة المرقش. وناكها قُرَّة بن هُبيرة حين سباها. فعلم بذلك وأقامَ عليها، ثمّ لم يرضَ حتَّى قال لها: هل مَسّك؟ قالت: وأنت واللّه لو قَدَر عليك لَمَسَّك!فلم يَرْضَ بها حتى قال لها: صفيه لي. فوصَفَتْهُ حتَّى قالتْ: كأنَّ شعر خَدّيْه حَلَقُ الدِّرْع! وبال على رأسه خلف ابن نوالة الكناني عامَ حَجّ، ونَصّرَه عديُّ بنُ زيد بأَحْمَقِ سَبَب[٣]. وَخَطَبَ أخُوهُ المنذرُ إلى عبيدة بن همام، فردّه أَقْبَحَ الرّد، وقال[٤]: [من المتقارب]

---

(١) أطنبت الريح: اشتدت.

(٢) تقدم البيت في بداية هذه الفقرة.

(٣) نصّره: أدخله في النصرانية، وكان سبب تنصّر النعمان – وكان يعبد الأوثان قبل ذلك – أنه مر على المقابر ومعه عدي بن زيد الذي قال له إن هذه المقابر تقول:

كنا كما كنتم فغيّرنا دهرٌ فسوق كما صرنا تصيرونا

فدخلته رقة، وخرجا مرة أخرى، ومرَّا على المقابر فانشده عدي أبياتاً أخرى فرجع النعمان وتنصر، انظر تفصيل الخبر في الأغاني ٢ / ١٣٤ – ١٣٥.

(٤) البيتان للأسود بن يعفر في ديوانه ٦٧، واللسان والتاج (نكر)، والأول في التنبيه والإيضاح ٢ / ٢١٨، والبيتان بلا نسبة في الكامل ٩٢٠، ١٠٧٧ (الدالي)، والأول في المخصص ١٧ / ١٢، وديوان الأدب ١ / ٢٦١، ٣ / ٤٣٥، والعين ٨ / ١٣٧.

أَتَوْني ولم أرْضَ ما بَيَّتُوا وقد طَرَقُوني بأمْرٍ نُكرْ

لأُنْكِحَ أيِّمَهُمْ مُنْذِراً وهل يُنْكِحِ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرْ

ثمّ مع ذلك خطب إليه كسرى بعضَ بناته فرغب بها عنه، حتّى كان ذلك سببَ هربه وعِلَّةً لقتله – فهل رأيت شاعراً في ذلك الزّمان مع كثرة الشعراء فيه، ومع افتخارهم بالذي كان منهم في يوم جَلولى[1] ويومِ ذي قار، وفي وقائع المثنّى بن حارثة وسعد بن أبي وقّاص – فهل سَمِعْتَ في ذلك بشعرٍ صحيحٍ طَريف المخرج، كما سمعته في جميع مفاخرهم ممّا لا يداني هذا المَفْخَر؟!

ولقد خَطَبَ بَعْضُ إخوَتِهِ إلى رجالٍ من نِزار، من غَير أهل البيوتات، فرغبوا عنهم.

وأمّ النعمان سَلْمَى بنت الصَّائغ[2]: يهوديّ من أنباط الشام، ثمَّ كان نَجْلُهُ لِفعلٍ غيرِ محمود.

وقد قال جَبَلةُ بن الأيْهم، لحسّان بن ثابت: قد دَخَلْتَ عليَّ ورأيتَني، فأينَ أنا من النّعمان؟ قال: واللّه[3] ....

فالنّعمان مع هذه المثالب كلِّها قد رَغِبَ بنفسه عن مصاهرة كسْرَى، وهو من أنْبَه الأكاسرة. وكما كان أَبْرَوَيزُ أعْظَمَ خطَراً، كانَتْ أَنَفَتُهُ أَفْخَرَ للعَرَب، وأدلَّ على ما يدَّعون من العلوّ في النسب وكان الأمر مشهوداً ظاهراً، وَمُرَدَّداً على الأسماع مستفيضاً. فإذْ قد تهيَّأ أن يكون مثلُ هذا الأمر الجليل، والمفْخَر العظيم، والعربُ أَفْخَرُ الأمم، ومع ذلك قد أغفلوه – فشَأنُ مسيلمَةَ أحقُّ بأن يجوزَ ذلك عليه.

---

(١) جلولاء: طُسوجٌ من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وبها كانت الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة ١٦. «معجم البلدان ٢/١٥٦». وانظر أيام العرب ٢٩٠ – ٢٩١.

(٢) في البيان ٣/٢٤٦: «سلمى بنت عقاب»، وفي الأغاني ١١/١٣: «سلمى بنت عطية».

(٣) ثمة نقص يمكن استدراكه من الأغاني ١٥/١٦١ «لقفاك خير من وجهه، ولشمالك خير من يمينه، ولأخمصك خير من رأسه، ولخطؤك خير من صوابه، ولصمتك خير من كلامه، ولأمك خير من أبيه، ولخدمك خير من قومه»، وفي الأغاني ورد أن صاحب الحديث هو عمرو بن الحارث الأعرج، وليس جبلة، وأن القول الذي استدركته ينسب إلى حسان وإلى النابغة.

وأنشدني يوسفُ لبعضِ شعراء بني حنيفة، وكان يُسَمَّى مُسَيلَمَةَ ويُكْنَى أبا ثُمامة [1]: [من مجزوء الكامل]

لهفي عَلَيْكَ أبا ثُمامَهْ لهفي على رُكْنَيْ شمامَهْ
كم آيةٍ لأبيهمُ كالشَّمْسِ تَطْلُعُ مِنْ غمَامَهْ

وقد كتبنا قصَّتَهُ وَقِصَّةَ ابن النَّوَّاحَةِ (في كتابنا الذي ذكرنا فيه فَصْلَ ما بين النبيِّ والمتنبي) وَذَكَرْنا جميعَ المتنبئين، وشأنَ كلِّ واحدٍ منهم على حدَته، وبأيِّ ضربٍ كان يَحتالُ، وَذَكَرْنَا جملةَ احتيالاتهمْ، والأبوابَ التي تدور عليها مَخاريقهم. فإنْ أردتَ أنْ تعرفَ هذا البابَ فاطلبْ هذا الكتاب؛ فإنّهُ موجود.

١١٩٦ - [هجاء عبد القيس للنعمان]

وقد هجا عبدُ القيس بنُ خُفافٍ البُرْجُمِيُّ، النُّعْمَانَ بن المنذر، في الجاهليَّةِ، وذكر ولادة الصَّائِغِ له فقال[2]: [من الخفيف]

لَعَنَ اللّهُ ثمَّ ثنّى بلَعنٍ ابنَ ذَا الصَّائغِ، الظلومَ الجهولا
يجمعُ الجيشَ ذا الألوفِ ويغزُو ثمَّ لا يرزأُ العدُوّ فَتِيلا[3]

١١٩٧ - [سَهْمٌ الحنفي]

وكان سَهْمٌ الحنفيُّ يلي طبَرِسْتان، لمعن بن زائِدة، مع حداثة سنه يومئذ، وكان له مروءةٌ وَقَدْرٌ في نفسه.

١١٩٨ - [حظ القبائل من الشعر]

وبنو حنيفة مع كثرة عددهم، وشدّةِ بأسهم، وكثرة وقائعهم، وَحَسَدِ العربِ لهم على دارهم وتخُومهم وَسْطَ أعدائهم، حتى كأنهم وَحْدَهُمْ يعدلون بَكْراً كلها - ومع ذلك لم نَرَ قبيلةً قَطُّ أقَلَّ شعراً منهم. وفي إخوتهم عجْلٌ قَصيدٌ وَرَجَزٌ، وَشُعَراء ورَجَّازُون. وليس ذلك لمكان الخصْب وأنّهم أهلُ مَدَر، وأكّالو تمرٍ؛ لأنَّ الأوْسَ والخزرج كذلك، وهم في الشعر كما قد علمت. وكذلك عبدُ

---

(١) البيتان في المعارف ٤٠٥.

(٢) البيتان لعبد القيس بن خفاف في الأغاني ١١/١٣، وللنابغة الذبياني في ديوانه ١٧٠، والشعر والشعراء ٧٦ (ليدن)، ٧١ (شاكر)، والأول في اللسان (ربذ)، والثاني بلا نسبة في المقاييس ٤/٤٧٢، والمخصص ١٣/٢٥٤.

(٣) الفتيل: الهنة التي في شق النواة.

القيس النَّازلة قرى البحْرين، فقد تعرفُ أنَّ طعامَهم أَطْيبُ من طعام أهل اليمامة.

وثقيفٌ أهلُ دارٍ ناهيك بها خِصْباً وطِيباً، وهم وإن كان شعرُهم أقلَّ، فإنَّ ذلك القليلَ يدلُّ على طبْعٍ في الشعر عجيب. وليس ذلك منْ قِبَلِ رداءة الغِذاء، ولا من قِلَّة الخِصب الشَّاغل والغِنَى عن النَّاس؛ وإنَّمَا ذلك عن قَدْر ما قَسَمَ اللّه لهم من الحظوظ والغرائزِ، والبلاد والأعراقِ مكانها.

وبنو الحارث بن كعب قبيلٌ شريفٌ، يجزون مَجاري ملوك اليمن، ومجاريَ ساداتِ أعراب أهْلِ نَجْدٍ ولم يكن لهم في الجاهليَّة كبيرُ حَظٍّ في الشعر. ولهم في الإسلام شعراءُ مفْلِقُونَ.

وبنو بَدْرٍ كانوا مفْحَمين، وكان ما أطلق اللّه به ألسنةَ العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم.

وقد يَحْظَى بالشعر نَاسٌ ويخرُج آخَرون، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم. ولم تُمْدَح قبيلةٌ في الجاهليَّة، من قريش، كما مُدحت مخزوم. ولم يتهيَّأ من الشَّاهد والمثلِ لمادحٍ في أحدٍ من العرب، ما تهيَّأ لبني بدر.

وقد كان في ولد زُرارة لصُلبه، شعر كثير، كشعر لقيط وحاجبٍ وغيرهما من ولده. ولم يكن لحذَيفة ولا حِصْن، ولا عيينَةَ بن حِصن، ولا لحَمِلِ بنِ بدْر، شِعْرٌ مذكور.

وقد كان عبدُ العزيز بن مَرْوَانَ أَحْظَى في الشعر من كثير من خلفائهم. ولم يكنْ أحَدٌ من أصحابنا، من خُلفائنا وأئمتنا، أحظَى في الشعر من الرَّشيد. وقد كان يزيد ابن مَزْيَد وَعمُّهُ، ممَّنْ أحظَاهُ الشِّعْرُ.

وما أعلمُ في الأرض نعمة بَعْدَ وِلاَيَةِ اللّهِ، أعْظَمَ من أنْ يكونَ الرَّجُلُ ممدوحاً.

١١٩٩ - [الصُّمُّ من الحيوان]

تقول العرب: ضربانِ من الحيوان لا يَسمعان الأصوات. وذلك عامٌّ في الأفاعي والنّعام.

واعتدّ من ادّعى للنّعام الصّمَمَ بقول عَلْقَمة(١): [من البسيط]

فُوهُ كَشَـقِّ العَصَا لأْياً تَبَيَّنه أسَكُّ ما يَسْمَعُ الأَصْوَاتَ مَصْلومُ

(١) تقديم تخريج البيت والأبيات التالية في الفقرة (١١٩٣).

قال: ولا يصلح أن تكون «ما» في الموضع الذي ذَكَرَ؛ لأنَّ ذلك يصير كقول القائل: التمر حلو، والثَّلج بارد، والنّار حارَّة. ولا يحتاج إلى أن يُخبر أنّ الذي يُسْمَعُ هذا الصَّوتُ؛ لأنهُ لا مسموعَ إلاّ الصَّوت.

قال خصمه: فقد قال عَلْقَمَةُ بن عَبَدَة: [من البسيط]

حَتَّى تلافَى وقرنُ الشَّمْسِ مرتفعٌ ... أُدْحيَّ عِرْسَيْنِ فيه البَيضُ مَرْكومُ

يوحِي إليها بإنقاض ونَقْنَقَةٍ ... كما تَرَاطَنُ في أفْدانها الرُّومُ

ثم قال:

تحفُّهُ هِقْلَةٌ سفعاءُ خاذلةٌ ... تجيبُهُ بزمارٍ فيه تَرنيمُ

واحتجّ من زعم أنها تسمع، بقوله[1]: [من الطويل]

وَصُحْمٍ صِيَامٍ بين صَمْدٍ وَرِجْلَةٍ ... وَبَيْضٍ تُؤَامٍ بينَ مَيْثٍ وَمذْنبِ[2]

مَتَى مَا تَشأ تَسْمَعْ عِراراً بِقَفْرَةٍ ... يُجيبُ زِمَاراً كاليَرَاعِ المُثَقبِ[3]

وقال الطِّرِمَّاح[4]: [من الكامل]

يدعو العِرارُ بها الزِّمَارَ كأنّهُ ... أَلِمٌ تجاوبُه النِّساءُ العُوَّدُ[5]

قال: وَصَوْتُ النعامة الذّكر: العِرارُ. وصوت الأنثى: الزِّمَار.

وأنشدَ الذي زَعَمَ أنَّهَا لا تسمع، قولَ أسامةَ بنِ الحارثِ الهذَليّ[6]: [من الطويل]

تذكَّرْتُ إخْواني فَبِتُّ مُسَهَّداً ... كما ذكرت بَوّاً من اللَّيل فَاقِدُ[7]

---

(١) البيتان للبيد، والأول في ديوانه ١٢، وصدره في اللسان (صحم)، وهو بلا نسبة في التهذيب ٤/ ٢٧٣، والثاني في ديوانه ١٨.

(٢) في ديوانه «الصحم: الحمير، وأصحم: أسود اللون من كل لون. صيام: قيام. الصمد: الغلظ. والرجلة: رجلة الوادي، مسيله وجمعه رجل. وبيض: يريد بيض النعام. تؤام: اثنان اثنان. الميث: الأرض السهلة. المذنب: مجرى الماء».

(٣) في ديوانه «العرار: صوت النعام الذكر، والزمار صوت الأنثى. واليراع: القصب يتخذ منها زمارات».

(٤) ديوان الطرماح ١٤٣ (١١٥)، والجمهرة ١٢٣، والمعاني الكبير ٣٤٣.

(٥) في ديوانه «يدعو: بمعنى يجيب هاهنا. والعُوَّد: اللواتي يَعُدْنَ المريض الأَلِم، أي يزرنه».

(٦) ديوان الهذليين ٢/ ٢٠١ - ٢٠٢، وشرح أشعار الهذليين ١٢٩٦.

(٧) في ديوان الهذليين «البَوُّ: جلْدٌ يُحشى للفاقد ولدها، يُذبح أو يموت فترأمه وتدرُّ عليه، فإذا ذكرته حنّت».

لعمري لقد أَمْهَلتُ في نَهْيِ خالدٍ عَنِ الشَّام إمّا يَعْصِيَنَّكَ خالدُ [1]
وَأَمْهَلْتَ في إخوانه فكأنَّما تَسَمَّع بالنَّهْيِ النَّعامُ المُشَرَّدُ

وقال الذي زعم أنّها تسمع: فقد قال اللّه عزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولئكَ الَّذينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [2] ولو عنى أنَّ عَماهم كعمى العُمْيان، وصممهم كصمَم الصُّمَّان، لما قال: ﴿أفلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُهَا﴾ [3] وإنّما ذلك كقوله: ﴿إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [4] وكيف تُسمعُ المدبرَ عنك! ولذلك يقال: «إنَّ الحُبَّ يُعمِي ويُصِمُّ» [5]. وقد قال الهذليُّ: [من الطويل]

تَسَمَّعَ بِالنَّهْيِ النَّعَامُ المُشَرَّدُ

والشارد النافر عنك لا يوصف بالفهم. ولو قال: تسمع بالنَّهْي، وسكت – كان أبلغَ فيما يريد. وهو كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلاَ تَسْمِعُ الصمَّ الدُّعَاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [4]. قال الرَّاجز [6]: [من الرجز]

رِدِي رِدِي وِرْدَ قَطَاةٍ صَمّا كُدْرِيَّةٍ أعْجَبَهَا بَرْدُ الْمَا [7]

أي لأنها لا تسمع صوتاً يَثنيها ويَرُدُّها.

وأنشد قول الشاعر [8]: [من الطويل]

دَعَوْتُ خُلَيْداً دَعْوَةً فَكأنما دَعَوْتُ به ابنَ الطَّوْدِ أَوْ هُوَ أسْرَعُ

والطَّود: الجبل. وابنُهُ: الحجر الذي يَتَدَهْدَهُ [9] منه، كقوله [10]: [من الطويل]

كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

---

(١) في ديوان الهذليين «أمهلت: أي نهيته في مهلة قبل أن يأزف أمره، أي جعلت له مهلة ولم أجُدْ بنفسه، وكان نهاه أن يهاجر، وقوله: إما يعصينك خالد، أي: عصاك خالد».
(٢) ٢٣/محمد: ٤٧.
(٣) ٢٤/محمد: ٤٧.
(٤) ٨٠/ النمل: ٢٧.
(٥) هذا القول من الأمثال في مجمع الأمثال ١/٧٨، ١٩٦، وجمهرة الأمثال ١/٣٥٦ والمستقصى ٢/٥٦، وفصل المقال ٣٢٠، وأمثال ابن سلام ٢٢٤، والأمثال لمجهول ٥٧.
(٦) الرجز بلا نسبة في اللسان والتاج (صمم)، والوساطة ٤٠٢.
(٧) الكدرية: ضرب من القطا قصار الأذناب، والقطا: ثلاثة أضرب، كدري وجوني وغَطاط. انظر اللسان (كدر).
(٨) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (طود)، وأساس البلاغة (بني، طود) والتهذيب ١٤/٤، والمخصص ١٣/٢٠٢.
(٩) يتدهده: يتدحرج.
(١٠) صدر البيت (مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً) وهو لامرئ القيس من معلقته في ديوانه ١٩، واللسان =

وقال الرَّاجز[1]: [من الرجز]

وَمَنُهَلٍ أَعْوَرِ إِحْدَى الْعَيْنَيْنْ بَصِيرِ أخْرَى وَأصَمِّ الأذْنَيْنْ

كأنَّهُ كانَ في ذلك المنهَلِ بِيرَانِ، والآبارُ أعينٌ، فغُوِّرَتْ إحدى البِيرَين وتُرِكت الأخْرى

وقوله: «أصَمِّ الأُذْنَيْنِ» لمَا أنْ كان عنده في الأرض فَضَاءٌ وَخَلاَءٌ، حيثُ لا يسمع فيه صوت. جعله أنْ كانَ لا يسمَعُ صوتاً أصمَّ؛ وإنْ كان ذلك لِفَقْدِ الأصوات.

قال: وقد قال الحارثُ بن حِلِّزَةَ قولاً يدلُّ على أنَّهَا تسمع، حيث قال[2]: [من الخفيف]

ولقد أَسْتَعِينُ يوماً على الهـ ـمِّ إذا خفَّ بالثَّوِيِّ الثَّوَاءُ

بِزَفُوفٍ كأنها هِقْلَةٌ أُ مُّ رِئالٍ دَوِّيَّةٌ سفعاءُ[3]

ثم قال:

آنسَتْ نَبْأَةً وأَفْزَعَهَا الْقُنَّـ ـاص عَصْراً وقد دنا الإمْسَاءُ

فترى خَلْفَهُنَّ مِنْ سُرْعَة المَشْـ ـيِ مَنِيناً كأنَّهُ أهباءُ[4]

ولو قال: «أفْزَعَها القُنَّاصُ» ولم يقل: «آنسَتْ نبأة» – والنَّبْأة الصَّوت – لكان لَكُمْ في ذلك مَقَال.

وقال امرؤ القيس[5]: [من الطويل]

وصمٌّ صِلاَبٌ ما يَقِين من الوَجَى كأنَّ مكانَ الرِّدْفِ منه على رَالِ[6]

وإنما يعني أنها مُصْمَتَةٌ غير جَوفاء. وقال الآخَر[7]: [من البسيط]

قُلْ ما بدا لك مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ حِلْمِي أصمُّ وَأُذْنِي غَيْرُ صَمَّاءِ

= (علا)، والتاج (فرر)، والجمهرة ١٢٦، والعين ٧/١٧٤، والخزانة ٢/٣٩٧، ٣/٢٤٢، ٢٤٣، والمقاصد النحوية ٣/٤٤٩، وبلا نسبة في اللسان والتاج (حطط).

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (عور، صمم).

(٢) الأبيات من معلقته في شرح القصائد السبع ٤٤٠، وشرح القصائد العشر ٣٧٣.

(٣) الزفوف: الناقة السريعة. الهقلة: النعامة. الرئال: فراخ النعامة. السفعاء: السوداء.

(٤) المنين: الغبار الدقيق. الإهباء: إثارة التراب، والأهباء: الغبار المرتفع في الجو.

(٥) ديوان امرئ القيس ٣٦، واللسان والتاج (رأل، قطا، وقي)، وبلا نسبة في المخصص ٨/٥٦.

(٦) في ديوانه «أراد بالصم: حوافره. وقوله: «ما يقين من الوجى»، أي لا يَهَبْن المشيَ من حفاً، لصلابتهن. والرأل: فرخ النعامة، وهو مشرف المؤخر، فشبّه قطاة الفرس لإشرافها بمؤخر الرأل».

(٧) البيت لبشار بن برد في ديوانه ١/١٢٥، وجمهرة الأمثال ١/١٤٠، وبلا نسبة في اللسان والتاج (صمم).

يريد أنَّ حلمَهُ ليس بسخيف متخلخِل، وليس بخفيف سَارٍ، ولكنّه مصمَت.

قال الشاعرُ[١]: [من الطويل]

وأسأل من صمَّاء ذات صَليل

وإنَّمَا يريد أرضاً يابسة، ورملةً نَشَّافَةً، تسأل الماء: أي تريده وتبتلعه؛ وهي في ذلك صمّاء.

١٢٠٠ - [ذكر الصُّمِّ في القرآن الكريم]

وقد قال اللّه لناسٍ يسمعون: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[٢] ذلك على المثل. وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[٣]. وذلك كلّه على ما فسّرنا. وقال: ﴿وَالّذينَ إذَا ذُكِّرُوا بآيَات رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾[٤] وقال أيضاً: ﴿إنّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[٥].

١٢٠١ - [شعر في الصمم]

وقال عَنترة[٦]: [من الطويل]

ظَلِلْنَا نكرُّ المشْرَفيَّةَ فيهمُ ... وخُرْصَانَ صُمِّ السَّمْهريِّ المثقفِ[٧]

وقال العُجَيرُ السَّلوليّ[٨]: [من الطويل]

وقد جَذَبَ القومُ العصائبَ مؤخراً ... ففيهنَّ عنْ صُلْعِ الرِّجالُ حُسُورُ

فظلَّ رِدَاءُ العَصْبِ مُلقًى كأنّه ... سَلَى فَرَسٍ تحْتَ الرِّجال عقورُ[٩]

---

(١) صدر البيت (أجَلْ، لا، ولكنْ انت أشأم من مشى)، والبيت بلا نسبة في اللسان والتاج (صمم)، ورصف المباني ٥٩، والجنى الداني ٣٦٠.

(٢) ١٨/البقرة: ٢.

(٣) ١٧١/البقرة: ٢.

(٤) ٧٣/ الفرقان: ٢٥.

(٥) ٤٥/الأنبياء: ٢١.

(٦) ديوان عنترة ٥٢.

(٧) في ديوانه «المشرفية: سيوف منسوبة إلى مشارف الشام. الخرصان: الرماح، الواحد خرص. لدن: لينة».

(٨) الأبيات في البيان ١/١٢٣، ومجالس ثعلب ٥٢٣، والأغاني ١٣/٦٨-٦٩.

(٩) العصب: ضرب من البرود. السلى: الجلدة التي يكون فيها الولد.

لو ان الصُّخُور الصُّمَّ يَسْمَعْنَ صَلْقَنا لَرُحْنَ وفي أعْرَاضِهِنَّ فُطورُ[1]

وقال زهير[2]: [من المديد]

ليتَني خُلِقْتُ للأَبَدِ صَخْرَةً صمَّاءَ في كَبِدِ

لا تشكَّي شرَّ جارتِها خُلِقَتْ غَليظَةَ الكبِدِ

وقالت جُمْل بنتُ جَعْفَر: [من الطويل]

بني جَعْفَرٍ لا سِلْمَ حَتَّى نَزُوركمْ بكلِّ رُدينيٍّ وأبيضَ ذي أثْرِ[3]

وَحتَّى تَروْا وَسْطَ الْبيُوتِ مُغيرةً تُصمكُّمُ بِالضَّرْبِ حَاشِيَةَ الذُّعْرِ[4]

تبينُ لِذي الشَّكِّ الذي لم يكن دَرَى وَيُبْصِرُها الأعْمَى وَ يَسْمَعُ ذو الْوَقْرِ[5]

وقال دريد[6]: [من الوافر]

متى كان الملوك قَطِيناً عَلَيَّ ولايةٌ صَمَّاءُ مِنِّي

١٢٠٢ - [مثل وحديث في الصمم]

ومن الأمثال قولهم: «صمَّتْ حَصَاةٌ بدَم»[7] قال: فأصله أنْ يكثُرَ القتْلُ وسفْكُ الدِّماءِ، حتَّى لو وقَعَتْ حَصَاةٌ على الأرضِ لم يُسْمَعْ لها صوتٌ؛ لأنَّها لا تلقى صلابةَ الأرض.

وقد جاء في بعض الحديث: «إذا كانت تلك الملاحِمْ بلغَت الدِّماءُ الثُّنَنَ»[8] يعني ثُنَنَ الخيل، وهو الشَّعر الذي خلف الحافر.

---

(١) الصلق: الصياح والوَلْوَلَةُ والصوت الشديد. الأعراض: الجوانب والنواحي. فطور: تشقق.

(٢) لم يرد البيتان في ديوان زهير.

(٣) الرديني: رمح ينسب إلى امرأة تسمى ردينة. الأبيض: السيف. الأثر: فرند السيف.

(٤) مغيرة: عنى بها خيلاً مغيرة.

(٥) الوقر: ذهاب السمع، أو ثقل في الأذن.

(٦) ديوان دريد بن الصمة ١١٣، ونقله محقق الديوان عن كتاب الحيوان، وذكر في الحاشية أن رواية عجز البيت في المستقصى ١/١٤٣: (عليَّ ولايةٌ صمّي صمامِ)، و«صمي صمام» من الأمثال في جمهرة الأمثال ١/٥٧٨، ومجمع الأمثال ١/٣٢٠، والدرة الفاخرة ٢/٤٩٦، وأمثال ابن سلام ٣٤٨، وفصل المقال ١٨٩، ٤٧٤، ٤٧٨.

(٧) مجمع الأمثال ١/٣٩٣، والمستقصى ٢/١٤٣، وفصل المقال ٤٧٤، وجمهرة الأمثال ١/٥٧٨، وأمثال ابن سلام ٣٤٦.

(٨) الحديث في النهاية ١/٢٢٤، وهو من حديث فتح نهاوند، وانظر المثل «بلغت الدماء الثنن» في مجمع الأمثال ١/٩٣، وأمثال ابن سلام ٣٤٦، والمستقصى ٢/١٣.

وقال الزُّبير بن عبد المطَّلب[1]: [من الوافر]

وَيُنْبِي نَخْوَةَ المختَالِ عنِّي ... جُرَازُ الحَدِّ ضَرْبَتُهُ صَمُوتُ[2]

لأنَّ السَّيفَ إذا مرَّ في العظْم مَرًّا سريعاً فلم يكن له صوت - كان في معنى الصامت.

١٢٠٣ - [شعر في الصمم]

وقال ابن ميَّادة[3]: [من الطويل]

متى أدعُ في قيْسِ بن عَيْلاَنَ خائفاً ... إلى فَزَعٍ تُركَبْ إلَيَّ خُيُولُهَا

بملمومة كالطَّودِ شهْباء فَيْلَقٍ ... رَدَاحٍ يصمُّ السَّامعين صليلُها[4]

لأنَّ الصَّوت إذا اشتدَّ جداً لم يُفْهَمْ معناه، إنْ كان صاحبه أراد أن يخبر عن شيءٍ. ومتى كثُرت الأصواتُ صارت وَغًى[5]، ومنع بعضُها بعضاً من الفهم. فإذا لم يفهمها صار في معنى الأصمّ، فجاز أن يسمّى باسم الأصمِّ.

وعلى ذلك قال الأضْبَط بن قُريع، حين آذوه بنو سعدٍ فتحوَّل من جوارهم في آخرين فآذوه، فقال: «بكُلِّ وادٍ بَنُو سَعْدٍ»[6].

وقال جرانُ العَود[7]: [من الطويل]

وقَالَتْ لنا وَالْعِيسُ صُعْرٌ من البُرَى ... وأخفافُها بالجَنْدَلِ الصُّمِّ تقذِفُ[8]

---

(١) البيت في اللسان والتاج (صمت)، وحماسة القرشي ٩٢.

(٢) ينبي: يبعد. سيف جراز: ماضٍ نافذ.

(٣) ديوان ابن ميادة ١٩٦ - ١٩٧.

(٤) في ديوانه «ملمومة: أي كتيبة عظيمة مجتمعة. الطود: الجبل العظيم. الشهباء: البيضاء، لما فيها من بياض السلاح. الفيلق: الكثيرة السلاح. الرداح: الكثيرة الفرسان، الثقيلة السير لكثرتها».

(٥) الوغى: الأصوات في الحرب، وغمغمة الأبطال في حومة الحرب.

(٦) مجمع الأمثال ١/١٠٥، وجمهرة الأمثال ١/٦١.

(٧) ديوان جران العود ١٦.

(٨) العيس: الإبل الخالصة البياض. البرى: جمع بُرَة، وهي الحلقة التي توضع في أنف البعير. صعر من البرى: موائل من جذبها. الجندل: الحجارة.

١٢٠٤ - [قول منكر صمم النعام]

وقال الذي ينكر صَمَم شيءٍ من الخلق: اعتللتم في صَمَم النّعام بقول زهير: [من الوافر]

[أصَكَّ مُصَلَّمِ الأُذُنَيْنِ أَجْنَى لَهُ بِالسِّيِّ تَنُّومٌ وآءُ][1]

وبقول أوس بن حجر[2]: [من الطويل]

وَيَنْهَى ذَوي الأحْلامَ عنّي حُلومُهم وأَرْفَعُ صَوْتِي للنّعامِ المخزّمِ

يريد خَرْقَ أنفه، وهو في موضعِ الخَرَمَةِ من البعير.

وأمّا قوله: «وأَرْفَعُ صَوْتِي للنّعام» فإنما خصَّ بذلكَ النّعامَ لأنّهَا تَجْمَعُ الشّرُودَ والنِّفَار، إلى المُوقِ وسوءِ الفهْم. ولو قال: «وأرفع صَوتي للحَمير والدّوَابِّ» لكان كذلك. والمصلَّمة: السُّكّ التي ليس لآذانها حَجم.

١٢٠٥ - [رد على منكر الصمم]

قال: قَوْلُ الذي زعم أنها ليست بصماءَ لا يجوز؛ لأنَّ الدواب تسمعُ وتَفهم الزَّجْر، وتجيب الدُّعاء. بل لو قال: وأرفع صوتي للصخور والحجارة، كان صواباً، وكان لرَفْع صوته معنًى؛ إذْ كان الرّفْعُ والوضْعُ عند الصُّخور سَوَاءً. وليس كذلك الدوابُّ. ولو كان إنما جعله مصلَّماً، وجعلَ آذانَ النّعام مصلومةً، لأنه ليس لآذانها حَجْم فالطير كله كذلك إلاّ الخفّاش. وكلُّ شيءٍ يبيض من الحيوان فليس لها حَجْم آذَان. ففي قَصْدهم بهذه الكلمة إلى النّعامِ، بين جميعِ ما ليس لأذنَيه حجْم، دليلٌ على أنَّ تأويلَكم خطأ. قال عَلْقمة بن عَبَدَة[3]: [من البسيط]

فُوه كشَقِّ العَصَا لأياً تبيَّنُهُ أَسكُّ ما يَسْمَعُ الأصواتَ مصلومُ

---

(١) لم يرد البيت في الأصل، ورأيت أن أثبته اعتماداً على ما سيأتي في نهاية الفقرة التالية، والبيت في ديوان زهير ٥٨.

(٢) ديوان أوس بن حجر ١٢٢، وفيه «المصلم»، مكان «المخزم»، والمعاني الكبير ٣٤٠، وديوان الأدب ١/١٩٣، وبلا نسبة في اللسان والتاج وأساس البلاغة (خزم)، والتهذيب ٧/٢١٩، والمجمل ٢/١٨٣، والجمهرة ٥٩٥، والمقاييس ٢/١٧٨، والمعاني الكبير ٣٤٤.

(٣) تقدم تخريج البيت وشرحه في الفقرة (١١٩٣).

وقالت كَبْشة بنت مَعْد يكَرب[1]: [من الطويل]

وَأَرسَلَ عَبْدُ اللّه إذ حَانَ يومُهُ ... إلى قومه ألاَّ تَغُلُّوا لهُمْ دَمي[2]

ولا تأخُذُوا منهم إفالاً وَأَبْكُراً ... وَأُتْرَكَ في بيت بصَعْدَةَ مُظْلِمِ[3]

جَدَعْتُمْ بعبد اللّه آنُفَ قَوْمكُمْ ... بني مَازنٍ أَنْ سُبَّ راعي المَخزَّمِ

فإن أنتمُ لم تثْأرُوا لأخيكُمُ ... فَمَشُّوا بآذَانِ النّعام المصلَّمِ

فلو كانت إنَّما تريد أنّه ليس لمسامعِها حجمٌ، كانت الدُّنيا لها مُعرضة. وقال عنترة[4]: [من الكامل]

وكأنَّما أَقصُ الإكَامَ عَشيَّةً ... بقَريب بَيْنَ المَنْسمَيْنِ مُصَلَّمِ[5]

تأوي له حِزَقُ النَّعامِ كما أَوَتْ ... حِزَقٌ يَمَانيَةٌ لأعْجَمَ طِمطِمِ[6]

ولو كان عنترة إنَّمَا أراد عدَم الحجم، لقد كانت الدُّنيا له مُعرضة.

وقال زُهير[7]: [من الوافر]

بآرزة الفَقَارةِ لم يَخُنْها ... قطاف في الرِّكاب ولا خِلاَءُ[8]

---

(١) الأبيات لكبشة بنت معدي كرب في الحماسة البصرية ١/٧٣ - ٧٤، والأغاني ١٥/٢٣٠، والأمالي ٢/٢٢٦، وذيل الأمالي ١٩٠، ومعجم البلدان ٣/٤٠٦ (صعدة)، والخزانة ٣/٧٧ (بولاق)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٧، والتبريزي ١/١١٧، ومعجم الأديبات الشواعر ٤١٢، وحماسة البحتري ٣٠.

(٢) تغلوا: تخونوا.

(٣) الإفال: جمع أفيل، زنة أمير، وهو من أولاد الإبل ما أتى عليها سبعة أشهر أو ثمانية. والأبكر: جمع بَكر، وهو ولد الناقة. صعدة: مخلاف من مخاليف اليمن. وفي قولها: «بيت بصعدة مظلم» إشارة إلى زعم العرب من أن القتيل إذا ثأروا به أضاء قبره، أما إذا قبلت ديته أو هدر دمه فإن قبره يبقى مظلماً.

(٤) ديوان عنترة ٢٠.

(٥) أَقص: أكسر. الإكام: جمع أكمة، وهي الرابية. المنسمان: الظفران المقدمان في الخف.

(٦) تقدم شرح البيت مع تخريج واف له في الفقرة (١١٨٩).

(٧) ديوان زهير ٥٧ - ٥٨، والبيت الأول في اللسان والتاج (خلأ، أرز، قطف)، والمقاييس ١/٧٩، والعين ٧/٣٨٣، والجمهرة ١٠٥٦، والتهذيب ٧/٥٧٧، ١٣/٢٤٩، والمجمل ١/١٧٩، وبلا نسبة في الجمهرة ٦٤، ١٠٦٩، والمخصص ٧/١٦٢، والبيت الثاني في اللسان والتاج (أوأ، هوى)، والمقاييس ٦/١٥، والمخصص ٣/٦٤، ١٥/١٢٠، والمجمل ٤/٤٥٥، والبيت الثالث في اللسان (أوأ، جنأ، سكك، صلم، خنا، سيا) والتاج (أوأ، سكك، تنم، صلم) وكتاب الجيم ١/٢٧٩، والتهذيب ٩/٣٤٠، ١١/١٩٧، ١٤/٣٠٧، والتنبيه والإيضاح ١/٥، وبلا نسبة في المقاييس ١/٣٣، والجمهرة ٢٥٠، والمجمل ١/١٥٥.

(٨) في ديوانه: «الآرزة: الدانية بعضها إلى بعض. الفقارة: فقَر الظهر. القطاف: مقاربة الخطو وضيق الشحوة وألا يكون وَساعاً. الركاب: الإبل. الخلاء: أن تبرك فلا تبرح.

كأنَّ الرحْلَ منها فَوْقَ صَعْلٍ ... من الظلمان جُؤجُؤه هَواءُ[1]
أصَكَّ مُصَلَّمِ الأُذُنَيْنِ، أَجْنَى ... لـه بِالسِّيِّ تَنَّومٌ وآءُ[2]

١٢٠٦ - [رد منكر صمم النعام]

قال القوم: فإنَّا لا نقول ذلك، ولكنّ العربَ في أمثالها تقول: إنَّ النَّعامةَ ذهبَتْ تطلبُ قرنَين فقطعوا أذنيها[3]. ليجعلوها مثلاً في المُوق وسوء التدبير. فإذا ذكر الشَّاعرُ الظَّليمَ، وذكَرَ أنَّهُ مصلَّم الأذنين، فإنما يريد هذا المعنى. فكثُرَ ذلك حتى صار قولهم: مصلم الأذنين، مثلَ قولهم صَكَّاء. وسواءٌ قال صَكَّاء، أو قال نعامة، كما أنَّهُ سواء قال خنْساء أو قال مهاة ونَعْجَة وبقرة وظبية؛ لأنَّ الظِّباء والبقرَ كلها قُطْس خُنْسٌ وإذا سَمَّوا امْرَأَةً خنْساءَ فليسَ الخَنَسَ والفَطَسَ يُريدون، بل كأنهم قالوا: مَهَاةٌ وَظَبية. ولذلك قال المسيَّبُ بنُ علَسٍ[4]، في صفة النَّاقة: [من الكامل]

صَكّاءَ ذِعْلِبَةٍ إذا استَقْبَلْتَها ... حَرَجٍ إذا استَدْبَرْتَهَا هِلوَاعِ[5]

فتفهَّمْ هذا البيت، فإنهُ قد أحْسَن فيه جداً.

وَ الصَّكَكُ في الناس، والاصطكاك في رجلي الناقة عيب. فهو لم يكنْ ليصفَها بما فيه عيب، ولكنَّه لا يفرق بين قوله صَكّاء، وبين قَوْله نعامة، وكذلك لا يفرّقون بين قولهم أعلم، وبين قولهم: بَعيرٌ. قال الراجز: [من الرجز]

إني لِمن أنكَرَ أو تَوَسَّما ... أخو خَنَاثِيرَ يَقُودُ الأعْلَمَا[6]

---

(١) في ديوانه «الصعل: الظليم الدقيق العنق، الصغير الرأس. جؤجؤه: صدره. هواء: لا مُخَّ فيه. وقال الأصمعي: جؤجؤه هواء: أراد لا عقل له».

(٢) في ديوانه «الصكك: اصطكاك العرقوبين، ويقال: إنما يكون ذلك إذا مشى. مصلم الأذنين: لا أذنَيْ له. أجنى: أي أدرك أن يُجنى. السي: أرض. تنوم: الواحدة تنومة، شجيرة غبراء تنبت حباً دسماً. آء: الواحدة: آءة، وهي ثمر السَّرْح».

(٣) انظر الفقرة (١١٦٩).

(٤) ديوان المسيب بن علس ٦١٦، وذيل الأمالي ١٣٢، والمفضليات ٦١، واللسان والتاج (هلع)، والتهذيب ١/١٤٤.

(٥) ذعلبة: سريعة، جسيمة طويلة على وجه الأرض. هلواع: مستخفة كأنها تفزع من النشاط، والهلع: الخفة.

(٦) الخناثير: الدواهي.

كأنه يقول: يقودُ بعيراً. وهو كقول عنترة[1]: [من الكامل]

وحَليلِ غانيةٍ تَركْتُ مجدّلاً   تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الأعْلَمِ

١٢٠٧ - [ردّ مدّعي الصَّمم]

فقال مَن ادّعى للنَّعام الصَّمَم: أمَّا قولكم: من الدَّليل على أن النَّعامة تسمعُ قولُ الشاعِرِ[2]: [من الكامل]

* تدعُو النّعام به العِرار *

وقوله[3]: [من الطويل]

متى ما تَشَأ تسمع عِرَاراً بقَفْرَةٍ   يجيب زِمَاراً كاليَرَاعِ المثقَّبِ

وقوله[4]: [من الخفيف]

آنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعها الْقَنَّاصُ عَصْراً وَقَدْ دَنَا الإمْسَاءُ

فليس ذلك أراد. وقد يراك الأخرسُ من النّاس - والأخرس أصمُّ - فيعرف ما تقول، بما يرى مِنْ صُورة حَركَتكَ، كما يعرف معانيكَ من إشارتك، ويدعُوك ويطلُبُ إليك بصوت؛ وهو لم يسمَعْ صوتَكَ قط فيقصدَ إليه، ولكنه يريد تلك الحركَةَ، وتلك الحركةُ تولد الصّوت، أراده هو أو لم يرده. ويُضْرَبَ فيصيح، وهو لم يقصدْ إلى الصِّياح، ولكنّه متى أدار لسانَهُ في جَوْبَة الفم بالهواء الذي فيه، والنَّفس الذي يُحضره جُمّاع[5] الفم، حدَثَ الصَّوت. وهذا إنما غايَتُه الحركة فيعرف صورة تلك الحركة.

والأخرس يرى النَّاس يصفِّقون بأيديهم، عند دعاءِ إنسان، أو عند الغضب والحَدِّ، فيعرف صورة تلك الحركة؛ لطول تَرْدادها على عينيه، كما يعرف سائر الإشارات. وإذا تعجَّبَ ضربَ بيدَيه كما يضربون.

فالنّعامة تعرفُ صورةَ إشارة الرِّئلان وإرادتها، فتعقل ذلك، وتجاوبها بما تعقل عنها من الإشارة والحركة، وغدت لحركتها أصواتٌ. ولو كانا يسمعان لم تزد حالهما في التّفاهُم على ذلك.

---

(١) ديوان عنترة ٢٤، وتقدم البيت في ٣/١٤٨

(٢) البيت للطرماح في ديوانه ١٤٣ (١١٥).

(٣) البيت للبيد في ديوانه ١٨.

(٤) البيت للحارث بن حلزة من معلقته، وقد تقدم في ص ٤٤٨.

(٥) الجُمّاع: مجتمع الأصل.

١٢٠٨ - [الشَّمُّ عند الحيوان]

والعرب تقول: «أَشَمُّ مِنْ نَعامةٍ»[١] و: «أَشَمُّ مِنْ ذَرّةٍ»[١]. قال الرَّاجز[٢]: [من الرجز]

* أشمُّ مِنْ هَيْقٍ وَأَهْدَى مِنْ جَمَلْ *

وقال الحِرْمازيُّ، في أرجُوزته[٢]: [من الرجز]

* وهو يَشْتَمُّ اشتِمامَ الهَيْقِ *

قال: وأخبرنا ابنُ الأعرابيِّ أنَّ أعرابيّاً كلم صَاحِبَهُ، فرآه لا يفهَمُ عنه ولا يسمعُ فقال: «أَصَلَخٌ كَصلَخِ النَّعَامَةِ!»[٣].

وقد يكون الفرَسُ في الموكِب وخلفه، على قاب غلوتين، حِجْرٌ أو رَمكة[٤]، فَيَتَحَصَّنُ[٥] تحتَ راكبِه، من غير أن تكونَ صهلَتْ.

والذِّئب يشتَمُّ ويستروحِ منْ ميلٍ، والذَّرَّة تَشْتَمُّ ما ليس لَهُ ريحٌ، ممّا لو وضعْتَهُ على أنفكَ ما وجَدْتَ لَهُ رائحة وإن أجَدْتَ التشمُّمَ، كرِجْل الجرادة تَنْبذُهَا من يدك في موضعٍ لم تر فيه ذرَّة قطّ، فلا تلبث أن ترى الذّرّ إليها كالخيط الأسودِ الممدود.

وقال الشَّاعر[٦]، وهو يصف استرواح الناس: [من الطويل]

وجاءَ كمِثْلِ الرَّأْلِ يَتْبَعُ أَنْفَهُ ... لِعَقْبَيْهِ مِنْ وَقْعِ الصُّخورِ قعاقعُ[٧]

فإنَّ الرَّألَ يشتم رائحة أبيه وأمِّه والسَّبعُ والإنْسَانِ من مكانٍ بعيد. وشبَّهَ به رَجُلاً جاءَ يتّبع الرِّيح فيَشتمُّ.

---

(١) المثل في الدرة الفاخرة ١/٢٥٣، وجمهرة الأمثال ١/٥٣٨، ٥٦٠، ومجمع الأمثال ١/٣٨٥، ٣٩١، والمستقصى ١/١٩٧.

(٢) تقدم الرجز في ٣٢٤.

(٣) في مجمع الأمثال ١/٤٠٦ «صلخاً كصلخ النعامة».

(٤) الحجر: أنثى الخيل. والرمكة: البرذونة.

(٥) يتحصن: تبدو منه أمارات الذكورة.

(٦) البيت بلا نسبة في البرصان ٣٠٤، وأساس البلاغة (أنف).

(٧) الرأل: فرخ النعام.

١٢٠٩ - [استطراد لغوي]

وقال الآخر[١]: [من الكامل]

والمرء لم يغضَبْ لمطْلَبِ أَنْفِهِ ... أو عِرْسِه لكَريهةٍ لم يَغْضَبِ

ومطْلَب أنفه: فَرْجُ أمِّه؛ لأنَّ الولد إذا تمَّتْ أيَّامهُ في الرّحم، قَلا[٢] مَكانَهُ وكرهَه، وضاق به موضعُهُ، فطلبَ بأنفه مَوضع المخرَج ممَّا هو فيه من الكرب، حتَّى يَصير أَنفه ورأسُهُ على فم الرَّحم، تِلقاءَ فم المخرج. فالأَناء[٣] والمكانُ يرفعانه في تلك الجهة، والولد يلتمسُ تلك الجهةَ بأنْفه، ولولا أنَّه يطلبُ الهواءَ من ذاته، ويكرهُ مكانَه من ذاته، ثمَّ خرج إلى عالَمٍ آخَرَ خلاف عالمه الذي رُبِّي فيه، لَمَاتَ؛ كما يموت السَّمَكُ إذا فارقه الماء. ولكنَّ الماءَ لمّا كانَ قابلاً لطباع السمك غاذياً لها، والسَّمكُ مريداً له، كان في مفارقته له عطبُه. وكان في مفارقة الولد لجَوْف البطن واغتذائه فضلاتِ الدَّم، مَا لا يَنْقُصُ شيئاً من طباعه وطباع المكان الذي كان له مَرَّةً مَسْكناً. فلذلك قال الشَّاعر الجاهلي[٤]: [من الكامل]

والمرءُ لم يغضب لمطْلَبِ أنفه ... أو عِرسه لكريهةٍ لَمْ يغضَبِ

يقول: متى لم يَحْمِ فرجَ أمِّه وامرأته، فليس مِمّن يغضب من شيءٍ يؤُول إليه.

١٢١٠ - [قول المتكلِّمين في صمم الأخرس]

وزعم المتكلِّمون أنَّ الأخرسَ أصمُّ، وأنّه لم يُوتَ من العجْز عن المنطق لشيءٍ في لسانه، ولكنّه إنّما أُتي في ذلك؛ لأنّه حين لم يسمع صوتاً قطُّ، مؤلَّفاً أو غير مؤلَّف، لم يعرف كيفيَّته فيقصدَ إليه. وأنّ جميعَ الصُّمِّ ليس فيهم مُصْمَت[٥]، وإنما يتفاوَتُون في الشِّدَّة واللِّين؛ فبعضهم يسمع الهدّة والصَّاعقة، ونَهيق الحمار إذا كان قريباً منه، والرَّعد الشّديدَ، لا يسمَعُ غير ذلك. ومنهم من يَسمع السِّرار، وإذا رفَعْت له الصَّوتَ لم يسمَعْ. ومتى كلَّمته وقرَّت الشِّكاية في أذنه، فهِمَ عنك كلَّ الفهم. وإن

---

(١) البيت بلا نسبة في اللسان والتاج (أنف)، والتهذيب ١/٦٨.

(٢) قلا: كره وابغض.

(٣) الأناء: آن الشيء: حان.

(٤) تقدم البيت في بداية هذه الفقرة.

(٥) مصمت: تام الصمم.

تكلَّمْت على ذلك المقدار في الهواءِ، ولم يكن ينفذُ في قناةٍ تحصُره وتجمعُه، حتّى تُؤَدِّيه إلى دماغه – لم يفهمه.

فالأصمُّ في الحقيقة إنَّما هو الأخرس، والأخرس إنَّما سمِّي بذلك على التشبيه والقرابة. ومتى ضَرَب الأصمُّ من النَّاس إنساناً أو شيئاً غيرَه، ظنَّ أنَّه لم يبالِغْ، حتّى يسمعَ صوتَ الضربة. قال الشّاعر[1]: [من الطويل]

أشَارَ بهمْ لَمْعَ الأصمِّ فأقْبَلُوا عَرَانِينَ، لايأتيه للنَّصرِ مُحْلِبُ[2]

وقال الأسَديّ[3]: [من المتقارب]

وَأُوصِيكُمُ بطِعَانِ الكُمَاةِ فقَدْ تعلمُونَ بأنْ لا خُلُودَا

وَضَرْبِ الجماجمِ ضَرْبَ الأصَمِّ حَنْظَلَ شَابَةَ يَجنى الهبيدا[4]

وقال الهذلي[5]: [من البسيط]

فالطعْنُ شَغْشَغَةٌ وَالضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ ضَرْبَ المُعَوِّل تَحْتَ الدِّيمة العَضَدا[6]

وإنَما جعله تحتَ الدِّيمة؛ لأنّ الأغصانَ والأشجارَ تصير ألْدَنَ وأعْلَك، فيحتاج

(١) البيت لبشر بن أبي خازم في ديوانه ١٠ (٦١)، واللسان والتاج (حلب، صمم)، وأساس البلاغة (صمم)، والتهذيب ٥/٨٥، ١٢/١٢٧، والتنبيه والإيضاح ١/٦٨، وبلا نسبة في المجمل ٢/٩٩، والمقاييس ٢/٩٦.

(٢) في ديوانه «لمع الرجل بيده: أشار بها، ولمع الأصم: أي كما تشير للأصم بإصبعك. والضمير يعود على مقدم الجيش. والعرانين: الرؤساء. والمحلب: المعين من غير قومه، يقول: أشار إليهم فأقبلوا مسرعين. ولا يأتيه سوى قومه وبني عمه يكفونه».

(٣) البيتان بلا نسبة في اللسان (صمم)، والتهذيب ١٢/١٢٧، والثاني في اللسان والتاج (شوب)، والتهذيب ٦/٢١٩.

(٤) الأصم: عنى به الظليم من النعام. شابة: موضع بنجد. الهبيد: حب الحنظل.

(٥) البيت لعبد مناف بن ربع الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٦٧٤، واللسان والتاج (عضد، هقع، شغغ، عول)، والتنبيه والإيضاح ٢/٣٩، والجمهرة ٩٤٥، ١١٧٢، والمجمل ٣/١٤٧، وديوان الأدب ٣/٤٣٤، وكتاب الجيم ٢/٢٧٢، وللهذلي في التهذيب ١/١٢٧، ٣/١٩٨، ١٦/٣٢، وبلا نسبة في الجمهرة ٢٠٦، والمقاييس ٣/١٦٩، ٤/٣٥٠، والمخصص ٥/١٣٥، ٦/٩٠.

(٦) في ديوان الهذليين ٢/٤٠ «شغشغة: حكاية لصوت الطعن حين يدخل. هيقعة: حكاية لصوت الضرب والوقع. وقوله: ضرب المعول، المعوِّل: الذي يبني عالة، والعالة: شجر يقطعه الراعي فيستظل به من المطر يكون الرجل يحتاج إلى الكن فيقطع شجرة فيضعها على شجرتين فيستظل تحتها. والعضد: ما قطع من الشجر، وجعل تحت الديمة لأنه أسمع لصوته إذا ابتلّ».

الذي يضربُ تلك الأُصولَ قبل المطر، إلى عشْر ضَرَبات ٍ حتَّى يقطع ذلك المضروب؛ فإذا أصابه المطَرُ احتاج إلى أكثرَ من ذلك.

١٢١١- [تفسير بيت من الشعر]

وأنشدني يحيى الأغر: [من المتقارب]

كَضَرْبِ القُيونِ سَبيكَ الحديـــــــدِ يومَ الجنائب ضرباً وَكيدا[1]

فلم أعرفه؛ فسألتُ بعضَ الصَّياقلة فقال: نعم، هذا بَيِّنٌ معروف. إذا أَخْرَجْنا الحديدةَ من الكير في يومِ شَمَال[2]، واحتاجت في القطْع إلى مائة ضربة، احتاجَت في قطْعها يومَ الجَنُوب إلى أكثر من ذلك، وإلى أشدّ من ذلك الضَّرب؛ لأَنَّ الشمالَ يُيَبِّسُ ويقصِف، والجنوب يرطِّب ويلدِّن.

١٢١٢ - [الأخرس]

والإنسان أبداً أَخْرسُ، إذا كان لا يسمع ولا يتبيَّن الأصوات التي تخرج من فيه، على معناه[3]. ويقال في غير الإنسان، على غير ذلك. قال كثيِّر[4]: [من الطويل]

ألـم تَسْألي يـا أمّ عَمْرٍو فَتُخْبَري سَلِمْتِ وأسقَاكِ السّحَابُ البوارقُ

بكياً لِصَوْتِ الرَّعـدِ خرس روائـح ونعق ولـم يُسْمَـعْ لهـن صواعـقُ

١٢١٣ - [السحابة الخرساء]

وتقول العرَب: «مازلت تحت عينٍ خرساء». والعين: السحابة تبقى أيّاماً تمطر. وإذا كثر ماؤها وكثُف، ولم يكن فيها مخارق تُمدحْ ببرق[5].

---

(١) القيون: جمع قين، وهو الحداد. الجنائب: جمع جنوب، وهي الريح. الوكيد: الشديد.

(٢) أي في يوم رياحه شمالية.

(٣) معناه: أي المعنى الحقيقي للخرس.

(٤) ديوان كثير ٤١٧.

(٥) «قال أبو حنيفة: عين خرساء وسحابة خرساء: لا رعد فيها ولا برق، ولا يسمع لها صوت رعد. قال وأكثر ما يكون ذلك في الشتاء، لأن شدة البَرْد تخرس البَرَد، وتطفئ البرق». (اللسان: خرس).

ومتى رأيتَ البرقَ سَمِعتَ الرَّعْدَ بعدُ. والرَّعدُ يكون في الأصلِ قبلَه، ولكنَّ الصَّوتَ لا يصل إليك في سرعة البرق؛ لأنَّ البارقَ والبصر أشدُّ تقارباً من الصَّوت والسَّمْع. وقد ترى الإنسانَ، وبينك وبينه رحْلهُ فيضرب بعصاً إمَّا حجراً، وإمّا دابَّةً، وإمَّا ثوباً، فترى الضَّرْب، ثمّ تمكثُ وقتاً إلى أن يأتيَك الصَّوت.

فإذا لم تصوِّت السَّحابةُ لم تبشِّر بشيءٍ، وإذا لَمْ يكن لها رِزٌّ[1] سمِّيت خَرْساءَ.

١٢١٤ - [الصخرة الصماء]

وإذا كانت الصَّخرةُ في هذه الصِّفة سمِّيت صماءَ. قال الأعشى[2]: [من الكامل]

وإذا تجيءُ كتيبةٌ ملمومَةٌ   مَكْرُوهَةٌ يخشى الكُمَاةُ نِزَالَهَا

وعلى غير هذا المعنى قال كثيِّر[3]: [من الطويل]

كأني أنادي صَخْرَةً، حين أعْرَضَتْ   من الصُّمِّ لو تمشي بها العصْمُ زَلَّتِ

ومن هذا الشّكل قولُ زُهير[4]: [من الكامل]

وَتَنُوفَةٍ عَمْياءَ لا يَجْتازُها   إلا المشيَّعُ ذُو الفُؤَاد الهادي[5]

قَفْرٍ هَجَعْتُ بها، ولستُ بنائمٍ،   وذِراعُ مُلْقِيَةِ الجِرَانِ وِسادِي[6]

---

(١) الرز: الصوت.

(٢) ديوان الأعشى ٨٣، واللسان والتاج (حصف)، والتهذيب ٤/٢٥٢، والمقاييس ٢/٦٧، والمجمل ٢/٧١، والعين ٣/١٢١.

(٣) ديوان كثير ٩٧، والموشح ٢٥٢، والمقاصد النحوية ٢/٤٠٨ - ٤٠٩.

(٤) ديوان زهير ٢٤٤، والبيت الثاني في اللسان والتاج (هجع)، وبلا نسبة في المخصص ٥/١٠٤، والبيت الثالث في أساس البلاغة (لحظ)، والإنصاف ٧٧٨.

(٥) في ديوانه: «التنوفة: القفر. يجتازها: يجاوزها. عمياء: لا طريق بها. المشيع: الجريء الشجاع الذي كأنّ معه من يشيِّعه، أي لجرأته».

(٦) في ديوانه: «هجعت: نمت. ولست بنائم: أي لم أنم على تحقيق نوم. كقولك نمت ولم أنم. والجران: باطن الحَلْق ما أصاب الأرض، وإنما تضعه من الإعياء. يقول: توسدت ذراع هذه الناقة من الكلال والتعب. توسَّدَ ذراع ناقته، حين نزل، وقد ألقت جِرانها بالأرض، وهو باطن الحلقوم، من التعب والكلال».

وَوَقَعْتُ بَيْنَ قُتُودِ عنْس ضَامِرٍ   لَحَّاظةٍ طَفَلَ العشيِّ سِنَادِ[1]

فجعل التَّنُوفَةَ عَمْياءَ، حين لَمْ تكن بها أمارات.

١٢١٥ - [الحيوان الأعمى]

ودابَّة يقال لها الزَّبابَة، عمياء صَمَّاء، تشبه الفأرة؛ وليست بالخُلْد؛ لأنَّ الخُلْدَ أعمى وليس بأصمّ. والزبَاب يكون في الرَّمل. وقال الشاعر[2]: [من مجزوء الكامل]

وَهُمُ زَبَابٌ حائِرٌ   لا تَسْمَعُ الآذَانُ رَعْدَا

وكلُّ مولودٍ في الأرض يُولد أعمَى، إن كان تأويل العمى أنَّهُ لا يُبصر إلاّ بعد أيام. فمنه ما يفتح عينيه بعد أيَّامٍ كالجِرْوِ؛ إلاّ أولادَ الدّجاج؛ فإنَّ فراريجها تخرُج كاسِيَةً كاسِبة.

١٢١٦ - [شعر فيه مجون]

وقال أبو الشمقمق - وجعل الأيْر أعمى أصمَّ على التشبيه - فقال[3]: [من الطويل]

فسلِّمْ عليه فاترَ الطرْف ضاحكاً   وصوِّت له بالحارث بن عُبادِ
بأصْلَعَ مثْلِ الجِرْوِ جَهْمٍ غَضَنْفَرٍ   مُعَاوِدِ طَعْنٍ جائفٍ وسنادِ
أصمّ وأعْمَى يُنْغِضُ الدَّهْرَ رَأسَهُ   يسيرُ على مَيْلٍ بغير قيادِ[4]

١٢١٧ - [قول لمن زعم أن النعامة تسمع]

وقال مَنْ زعَم أنَّ النَّعامة تسمع: يدلُّ على ذلك قول طَرَفَةَ[5]: [من المنسرح]

هَلْ بِالدِّيارِ الغَدَاةَ من خَرَسِ   أمْ هَلْ بِرَبْعِ الجميعِ مِنْ أَنَسِ

---

(١) في ديوانه: «القُتود: أَحْناءُ الرحل، عيدانُ الرحل. الواحد قتْدٌ. عنس: ناقة. لحّاظة: تنظر وتتلفَّت حين اصفرّت الشمس للمغيب في الوقت الذي تَكِلُّ فيه الإبل. لحاظة: تلحظ يميناً وشمالاً. طَفَلَ العشي: قُبَيْل العشي. سنادٌ، مشرفة».

(٢) البيت للحارث بن حلزة في عيون الأخبار ٢/٩٦، والمعاني الكبير ٦٥٦، وأدب الكاتب ١٩٦، والسمط ٥٠٤، والخزانة ٥/١١٣، وشعراء النصرانية ٤١٧، واللسان والتاج (زبب)، والتهذيب ١٣/١٧١، والجمهرة ١٠٠٠، ١١٢٠، ومعجم البلدان ٣/١٢٩ (الزباء).

(٣) ديوان أبي الشمقمق ١٣٣.

(٤) أنغض رأسه: حركه إلى أسفل وأعلى.

(٥) ديوان طرفة ١٥٥ (طبعة مكس سلغسون).

سِـوَى مَهـاة تَقْـرو أَسِرَّتَـه وَجُـؤذُرٍ يَرْتَعِـي علـى كَنَـسِ[١]
أو خضـابٍ يرتعـي بهِقْلَتِـهِ متى تَرُعْهُ الأَصْوَاتُ يهتَجِسِ[٢]

فقد قال طَرَفة كما ترى:

* متى ترُعْهُ الأصوات يهتجس *

وقال الآخر: جوابُنا في هذا هو جوابنا فيما قبله.

١٢١٨ - [فكاهة]

وروى الهيثم بنُ عديٍّ، وسمعه بعضُ أصحابنا من أبي عبيدة، قال: تضارَط أعرابيَّان عند خالد بن عبد الله، أحدُهما تميميٌّ والآخر أزْديٌّ فضَرَط الأزْديُّ ضَرْطَةً ضئيلة، فقال التميميّ: [من الطويل]

حَبَقْـتَ عَجِيفاً مُحْثَلاً ولَـوَ انَّنِـي حَبقْتُ لأَسْمَعْتُ النّعَامَ المشَرَّدَا[٣]
فمـرَّ كمـرِّ المنْجَنِيـق وصَوْتُـهُ يبـذُّ هَزِيمَ الرَّعْدِ، بـدءَا عَمـرّدَا[٤]

١٢١٩ - [سبب إطلاق لقب نعامة على بعض الناس]

وزعم أبو عمرو الشَّيبانيُّ عن بعض العرب، أنَّ كلّ عربيّ وأعرابيّ كان يلقَّب نَعامة، فإنما يلقَّب بذلك لشدّة صَمَمِه. وأنّهُ سأله عن الظليم: هل يسمع؟ فقال: يَعرِفُ بأنفه وعينه، ولا يحتاج معهما إلى سمْع. وَأَنْشَدَني: [من الطويل]

فجئتُكَ مِثْلَ الهِقْلِ يشتمُّ رَأْلَهُ ولا عَرْفَ إلاّ سَوْفُهَا وَشَمِيمُها[٥]

وزعم أنَّ لَقَبَ بيهس نَعامةٌ، وأنه لقِّب بذلك لأنّه كان في خُلُق نعامة، وكان

---

(١) المهاة: البقرة الوحشية. تقرو: تقصد. الأسرة: جمع سِر. وهو أفضل موضع في الوادي. الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. الكنس: جمع كناس، وهو بيت الوحش.
(٢) الخاضب: الظليم. الهقلة: النعامة. يهتجس: هجسه: رده عن الأمر فانهجس.
(٣) العجيف: المهزول. المحثل: الهزيل.
(٤) المنجنيق: آلة ترمى بها الحجارة، فارسيتها: من چه نيك، أي: أنا ما أجودني. يبذ: يغلب. الهزيم: صوت الرعد. البدء: السيد والشاب العاقل. العمرّد: الطويل.
(٥) الهقل: ذكر النعام. الرأل: فرخ النعام. العرف: الريح طيبة أو غير طيبة. السوف: الشم.

شديدَ الصَّمَم مائقًا. فأنْشَدَ لعديٍّ بن زَيد[1]: [من الطويل]

وَمِنْ حَذَرِ الأَيَّامِ مَا حَزَّ أَنْفَهُ قَصيرٌ وَخاضَ المَوْتَ بالسَّيْفِ بَيْهَسُ[2]

نعامَةٌ لَمَّا صرّعَ القومُ رَهْطَهُ تَبَيَّنَ في أَثْوابِهِ كيفَ يَلْبَسُ

وقال المتنخِّل الهذَليُّ[3] وذكر سَيْفاً: [من السريع]

مُنْتَخَبُ اللّبِّ لهُ ضَرْبَةٌ خَدْباءُ كالعَطِّ من الخِذْعِلِ[4]

يقول: هذا السَّيف أهوجُ لا عَقْل له. والخَدَب في هذا الموضوع: الهوَجُ. وتهاوِي الشيءِ لا يَتَمَالك. ويقال للسِّيف لا يُبالِي ما لَقِيَ.

١٢٢٠ - [شعر في التشبيه بالنعام]

وقال الأعشى[5] في غير هذا الباب: [من المتقارب]

كَحَوْصَلَةِ الرَّالِ في جَرْيِهَا إذا جُلِيَتْ بَعْدَ إقْعَادِهَا[6]

«كحوصلة الرَّأل» يصف الخَمْرَ بالحمرة. جليت: أخرجت؛ وهو مأخوذ من جَلوة العروس القاعدة، إذا قَعَدَت عن الطَّلَب. ومثله في غَير الخمر قولُ علقمة[7]: [من البسيط]

تأوي إلى حِسْكِلٍ حُمْرٍ حواصِلُه كأَنَّهُنَّ إذا بَرَّكْنَ جُرثومُ

---

(١) البيتان في ملحق ديوان عدي بن زيد ٢٠٠، وللمتلمس في ديوانه ١١٣، ١١٦، والخزانة ٧/ ٢٩٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٦٥٩، وحماسة البحتري ٢٠، والفاخر ٦٤، وبلا نسبة في البيان ٤/ ١٧.

(٢) قصير: هو قصير بن سعد اللخمي، وقصته مشهورة مع الزباء ملكة تدمر، وبه ضربَ المثل «لأمر ما جدع قصير أنفه»، وهذا المثل في المستقصى ٢/ ٣٨٣، ومجمع الأمثال ١/ ٢٩٠، والأمثال لمجهول ١١٦.

(٣) شرح أشعار الهذليين ١٢٦٠، واللسان (خذعل)، وديوان الهذليين ٢/ ١٢.

(٤) في ديوان الهذليين: «منتخب، أي منخوب اللب. يقول: ذهب عقله. يقول: كأنه ليس له عقل منْ مَرِّه لا يتماسك. والخَدَب: الاسترخاء، وركوبٌ من الرجل لرأسه، وهو مثل الهوج. والعط: الشَّقُّ. والخِذْعِل: المرأة الحمقاء. ويقال: هذه الحمقاء لا تداوي الشق، تدعه كما هو».

(٥) ديوان الأعشى ١٢١.

(٦) في جريها: أي عند سيلانها وتدفقها من فم الدن. الرأل: فرخ النعام، وحوصلته حمراء لتجردها من الريش.

(٧) تقدم تخريج البيت وشرحه في الفقرة ١١٩٣، ص ٤٣٨.

وقال الأخنس بن شهاب[1]: [من الطويل]

تظلُّ بها رُبْدُ النَّعامِ كأنَّها إِمَاءٌ تُزَجِّي بالمسَاءِ حَواطبُ[2]

تُزجِّي: تَدْفَعُ؛ وذلك أنَّهُ يثقل حِملها فتمشي مِشْيَةَ النَّعامةِ. وقال الرَّاجز[3]: [من الكامل]

وإذا الرِّياحُ تَروَّحَتْ بعَشِيَّةٍ رَتَكَ النَّعامُ إلى كَثِيفِ العَرْفَجِ[4]

والرَّتَكُ: مشْيٌ سريع. يقول تبادرُ إلى الكثيف تستتر به من البَرْد. وقال[5]: [من الكامل]

* رَتْكَ النّعامةِ في طريقٍ حامِ[6] *

١٢٢١ - [زعم في استقبال الظليم للريح]

وليسَ لقولِ مَنْ زعَم أنَّ الظليم إذا عدا استقْبَل الرِّيح[7]، وإنّمَا ذلك مخافَةَ أن تكونَ الرِّيحُ من خلفه فتَكبتَه - معنى؛ لأنَّا نجدُهم يصفون جميع ما يستدعونه باستقبال الرِّيحِ. قال عَبْدة بن الطَّبيب[8]، يصف الثَّور: [من البسيط]

مستقبل الرِّيح يهفُو وَهوَ مُبْتَرِكٌ لسانُه عَنْ شِمالِ الشِّدْقِ مَعْدُولُ[9]

---

(١) البيت في المفضليات ٢٠٤، والموشح ٤٤، والشعر والشعراء ٧٩ (ليدن)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٧٢٤.

(٢) في المفضليات: «الربد: جمع أربد وربداء، والربدة سواد في بياض. الحواطب: اللاتي يحملن الحطب. وإنما خصّ العشيَّ لأن الإماء المحتطبات يرجعن فيه إلى أهاليهن».

(٣) كذا، والصواب «الشاعر». وهو للحارث بن حلزة في شرح اختيارات المفضل ١١٤٢، والمفضليات ٢٥٦، والتاج (رتك).

(٤) الكثيف: الملتف. العرفج: شجر سريع الالتهاب.

(٥) صدر البيت: (ومُجِدَّةٍ نَسَّأتُها فَتَكَمَّشَتْ)، وهو لامرئ القيس في ديوانه ١١٥، وأساس البلاغة (كمش).

(٦) في ديوانه: (قوله: «ومجدة»، أي رُبَّ ناقة لها جدٌّ في السير وسرعة. ومعنى «تكمشت»، أسرعت وجَدَّتْ لا تَفْتُرُ. وشبَّه سرعة سيرها برتْك النعامة، وهو تَقارُبُ خطوها في سرعة. والحامي: الحار المتوهِّج. وصف أنه صار في الهاجرة).

(٧) ربيع الأبرار ٥/ ٤٥٢.

(٨) ديوان عبدة بن الطبيب ٦١، والمفضليات ١٤٠.

(٩) في المفضليات: «مستقبل الريح: يستروح بها من حرارة التعب وجهد العدو. المبترك: المعتمد في سيره لا يترك جهداً، معدول: ممال. يريد أنه قد دلع لسانه يلهث من الإعياء».

ووصف الذِّيبَ طُفيلٌ الغَنويُّ، فقال[1]: [من الطويل]

كسيدِ الغَضَا العادي أضَلَّ جِراءَهُ عَلَى شَرَفٍ مُسْتَقْبلَ الرِّيح يلحَبُ

١٢٢٢ - [استطراد]

ويُلحَقُ بموضع ذِكْر الضَّربِ الشديد، قولهم في المثَل: «ضَرَبْنَاهُمْ ضَرْبَ غَرَائبِ الإبلِ»[2]. قال أبو حيّة[3]: [من الطويل]

جَديرُونَ يَوْمَ الرَّوْعِ أَنْ يخْضِبُوا القَنَا وَأَنْ يترُكُوا الكَبْشَ المدجَّجَ ثاويا[4]

ضَرَبْنَاهُمُ ضرب الجنابَى على جبًى غرائب تغشاهُ حِراراً ضواريا[5]

وإذا جاءت عطاشاً قَدْ بَلَغ منها العطشُ واليُبْسُ، قيل: جاءَتْ تَصِلُّ أجوافُها صَليلاً. قال الرَّاعي[6]: [من الكامل]

فَسَقَوا صَوَادِيَ يَسْمَعُون عِشيَّةً للماءِ في أجوافِهِنَّ صَليلاَ

قال: وأنشدنا أبو مَهديَّة، لمزاحمٍ العُقَيليّ[7]: [من الطويل]

غَدَتْ مِنْ عَليه بعدَ مَا تمّ ظِمْؤُهَا تَصِلُّ، وَعَنْ قَيْضٍ بِزَيزاء مَجْهَلِ[8]

---

(١) ديوان طفيل الغنوي ٤٥، والمعاني الكبير ١/١٦٢، ٣١٩، وتقدم البيت في الصفحة ٣٢٣.

(٢) المثل برواية «ضربه ضرب غرائب الإبل»، ويروى «اضربه ضرب غريبة الإبل»، والمثل في مجمع الأمثال ١/٤١٩، وجمهرة الأمثال ٢/٨، والمستقصى ١/٢١٥، وأمثال ابن سلام ٢٧٠، ومثله حديث الحجاج في النهاية ٣/٣٤٩ «لأضْرِبَنَّكم ضرب غريبة الإبل»، وذلك أن الإبل إذا وردت الماء فدخل فيها غريبة من غيرها ضُرِبتْ وطُردت، حتى تخرج منها.

(٣) ديوان أبي حية النميري ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) القنا: الرماح. الكبش: القائد. المدجج: ذو السلاح. ثاوياً: مقتولاً.

(٥) رواية البيت في الأصل:

(ضربناهم ضربَ الحساما غرائب وإذا جاءك عطاشاً لعساً حراراً ضواريا)

(٦) ديوان الراعي النميري ٢٢٣، واللسان والتاج (صلل)، والجمهرة ١٤٣، ١٣٢١، وراجع المزيد من مصادر البيت في ديوانه ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٧) ديوان مزاحم العقيلي ١١، والخزانة ١٠/١٤٧، ١٥٠، ونوادر أبي زيد ١٦٣، واللسان والتاج (صلل، علا)، وشرح شواهد المغني ١/٤٢٥، وشرح المفصل ٨/٣٨، وشرح شواهد الإيضاح ٢٣٠، والأزهية ١٩٤، والدرر ٤/١٨٧، وبلا نسبة في مغني اللبيب ١/١٤٦، ٢/٥٣٢، والخزانة ٦/٥٣٥، ومجالس ثعلب ٣٠٤، وأوضح المسالك ٣/٥٨، وأسرار العربية ١٠٣، وهمع الهوامع ٢/٣٦. والمخصص ١٤/٥٧، والكتاب ٤/٢٣١.

(٨) في الكتاب «يصف قطاة غدت عن فرخها طالبة للورد بعد تمام الخمس، وهو أن ترد الماء يوماً =

قال الزِّيزاءُ: المكان الغليظ.

وقال آخر[1]: [من الطويل]

أَلمْ تَعلمي يا أمَّ حَسَّانَ أَنَّني ... إِذا عَبْرَةٌ نَهنَهتُها فَتَجلَّتِ[2]

رجَعت إِلى صَدْرٍ كجرَّةِ حَنْتَمٍ ... إِذا قُرِعَتْ صِفْراً مِنَ الماءِ صلَّتِ[3]

١٢٢٣ - [اختبار لأحد الحوَّاء]

وزعَمَ ابن أبي العجوز الحوَّاءُ، أنَّ الأفاعيَ صُمٌّ، فلذلك لا تُجيب الرُّقَى، ثُمَّ زعم لي في ذلك المجلس أنَّ أميرَ المؤمنينَ المنصورَ، أراد امتحان رُقَى حَيَّة وأنْ يتعرَّف صحَّتها من سُقْمها، وأنَّهُ أَمَرَ فصاغوا له أَفْعًى من رَصاص، فجاءَت ولا يشكُّ النَّاظر فيها؛ وأنَّهُ أمر بإلزاقها في موضعٍ من السَّقف؛ وأَنَّهُ أحضرهُ وقال له: إنَّ هذه الأفعى قد صارَتْ في هذه الدَّار، وقد كرهْتُهَا لمكانهَا؛ فإن احْتَلْتَ لي برُقْيَة، أو بما أحببْتَ أحسنتُ إليك. قال: إن أَرَدْتُ أَنْ آخذها هَرَبَتْ، ولكنْ أرقيها حتى تنزل! فرقاها فلما رآها لا تتحرَّكُ زادَ في رفْع صوته وألقى قنَاعَهُ، فلما رآها لا تتحرَّكُ نزعَ عمامَتَهُ وزاد في رفعِ صوته. فلما رآها لا تتحرَّكَ نزَعَ قلنسُوتَهُ وزادَ في رفْعِ صوته. فلما رآها لا تتحرَّك نَزَعَ ثيابَهُ، وزادَ في رَفْعِ صَوْته، حَتَّى أزبد، وتمرّغَ في الأرض، فلما فعل ذلك سال ذلك الرّصاصُ وذابَ، حتى صار بينَ أيديهم، فأقرّ عند ذلكَ المنصورُ بجودَةِ رُقيته.

فقلت له: ويلك! زعمتَ قُبَيْلُ أَنَّ الأَفَاعِيَ لا تُجيب الرُّقَى؛ لأنها لا تسمع، وهي حيوان، ثمَّ زعمتَ أَنَّها أجابت، وهي جماد!!

١٢٢٤ - [نفار النعامة وغيرها]

وقال الشَّاعِرُ: [من الطويل]

= ثم تتركه ثلاثاً وتعود إليه في الخامس. والظمء: ما بين الورْدين، والقيض: قشور البيض. يريد أنها أفرخت بيضها لتوِّها، فهي تسرع في طيرانها في ذهابها وإيابها إشفاقاً وحرصاً. المجهل: الذي لا يهتدى فيه».

(١) البيتان لعمرو بن شأس في ديوانه ٧٩، والأغاني ١١/١٩٩، والبيت الثاني في اللسان (حنتم) وكتاب الجيم ١/٢٠٥، والمذكر والمؤنث للأنباري ٣١٧، وبلا نسبة في الجمهرة ١٤٣، والمخصص ١٧/١٦، والتهذيب ١٢/١١٢، والتاج (حنتم).

(٢) في ديوانه «أم حسان: زوجة الشاعر، واسمها: حية بنت الحارث بن سعد. نهنهتها: كففتها».

(٣) في ديوانه «الحنتم: جرارٌ خُضْرٌ تضرب إلى الحمرة. صلت: صوتت». صفراً: خالية.

وربــداء يَكفيهــا الشَّميــمُ وما لَهــا سِوَى الرُّبْدِ من أنْسٍ بتلك المجاهِلِ

يخبر أنَّ النّعامة لا تستأنسُ بشيءٍ من الوحْش، وأَنَّ الشَّمّ يغنيها في فهم ما تحتاج إليه.

وهي مع ذلك إذا صارتْ إلى دور النّاس، فليس معها من الوحْشة منهم، على قدر ما يذكرون.

وفي الوحش ما يأنس، وفيها ما لا يأنس. وقال كثيِّر[1]: [من الطويل]

فأقْسَمْتُ لاَ أَنْسَاكِ ما عِشْتُ لَيْلَةً وَإِنْ شَحَطَتْ دارٌ وَشَطّ مَزَارُها

وما استَنّ رَقراقُ السّرَابِ وما جَرَتْ ببيض الرُّبا أنسيُّها وَنَوَارُهَا[2]

ووصف بلاداً قفاراً غيرَ مأنوسة فقال[3]: [من الخفيف]

ما تَرَى الْعَيْنُ حولَها مِنْ أنيسٍ قُرْبَهَا غيرَ رابداتِ الرِّئَالِ[4]

خصّها بالذِّكْر؛ لأنها أَنْفَرُ وأشرَد، وَأَقَلُّ أنْساً من جميع الوحش.

وقال الأحيمر[5]: كنتُ آتي الظَّبْيَ حتى آخُذَ بذراعيه؛ وما كان شيءٌ من بهائِم الوحْش ينكرُني إلاّ النّعام. وَأَنْشَدَ قَوْلَ ذي الرُّمّة[6]: [من الطويل]

وكلّ أَحَمِّ المقْلتيـن كأنّـهُ أخو الإنْسِ من طُول الخَلاءِ المغفّلِ[7]

---

(١) ديوان كثير ٤٣٠ - ٤٣١.

(٢) استن: اضطرب. النوار: النافر الذي لا يستأنس من الحيوان.

(٣) ديوان كثير ٣٩٨.

(٤) رابدات: مقيمات. الرئال: فراخ النعام.

(٥) هو الأحيمر السعدي، وتمام الخبر في عيون الأخبار ٢/٨٨: «كنت حين خلعني قومي وأَطَلَّ السلطان دمي، وهربتُ وترددتُ في البوادي، ظننتُ أني قد جُزْتُ نخل وَبار أو قريب منها، وذلك أني كنت أرى النوى في رَجْع الذئاب، وكنت أغشى الظباءَ وغيرَها من بهائم الوحش، فلا تنفر مني، لأنها لم تر أحداً قبلي، وكنت أمشي إلى الظبي السمين فآخذه، وعلى ذلك رأيت جميعَ تلك الوحوش إلا النعامَ، فإنه لم أره إلا نافراً فَزِعاً».

(٦) ديوان ذي الرمة ١٤٦٢، وعيون الأخبار ٢/٨٨، والمعاني الكبير ٧٥٤، وجمهرة الأمثال ٢/٣١٧، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/٣٤٣.

(٧) في ديوانه «يريد: وكل ثور أسود العينين كأنه أخو الإنس لا ينحاش من الناس، لا يفزع منهم لأنه لا يعرفهم» والمغفل: الذي لا علامة فيه ولا أثر.

يدلّ على ذلك في قَدْرِ ما شاهدنا أنّهم يخرجون إلى الصّحارى الأغفال، التي لم يُذْعَر صيدُها، ولا يطَؤُها النّاس، فيأتون الوحْشَ فوضَى هَمَلاً، ومعهم كلابُهم وفهودُهم تتلوى بأيديهم، فيتقدّمون إلى المواضع التي لو كانوا ابتدؤوا الصّيْدَ مِنْ جهتها لأخَذُوا ما أخذوا فإذا نفرَتْ وحوش هذه الأرْضِ، ومرَّت بالأرْضِ المجاوِرَة لها، نفرت سُكّانُ تلك الأرضِ مع هذه النّوافر، ولا تعودُ تلك الصحارى إلى مثل ما كانت عليه، مِنْ كثْرَة الوَحْشِ حيناً.

ومتى لم تنفِّرها الأعرابُ بالكلابِ والقِسيِّ، ونصْب الحبائل، رتَعتْ بقُربهم، ثمَّ دنتْ منهُمْ أوَّلاً فأوَّلاً، حتى تطأ أكنافَ بيوتهم. وهي اليوم في حَيْرِ[1] المعتصم باللّه والواثق باللّه على هذه الصِّفة.

١٢٢٥ - [إقبال الظِّباءِ على الناس]

وخبّرني إبراهيم بْنُ السِّنديّ قال خبرني عبدُ الملك بنُ صالح، وإسحاق بن عيسى، وصالحٌ صاحب الموصِل، أنّ خالدَ بنَ بَرْمَكَ، بينا هو على سطحٍ من سُطوح القُرى مع قَحْطَبَةَ، وهم يتغدّون، وذلك في بَعض منازلهم، حين فصلوا من خُراسَانَ إلى الجبل. قال: وبين قَحْطَبَةَ وبين الأعداء مَسيرَةُ أيّام وليالٍ. قال: فبينا خالدٌ يتغدّى معه وذلك حين نزلوا وبهم كَلاَلُ السَّير، وحينَ عَلّقُوا[2] على دوابِّهم، ونصبوا قُدُورَهُمْ، وَقَرَّبُوا سُفَرَهُمْ[3].

قال فَنَظَرَ خالدٌ إلى الصَّحراءِ، فرأى أقَاطيع الظِّباءِ قد أقبَلتْ من جهة الصَّحَارَى، حتى كادت تخالطُ العَسْكَر، فقال لقَحْطَبَةَ: أيُّهَا الأمير! نَادِ في النَّاس: «يا خَيلَ اللّه ارْكَبي»[4]؛ فإنّ العدوّ قد حثّ إليكَ السَّير، وغاية أصحابك أنْ يسرجوا ويُلجموا قبل أن يروا سَرَعان الخيل[5]. فقام قحطبة مذْعوراً، فلما لم ير شيئاً يَرُوعه، ولَمْ يَرَ غُباراً قال لخالد: ما هذا الرّأيُ! قال: أيُّها الأمير! لا تتشاغل بي وبكلامي، وَنَادِ في النَّاس. أما تَرَى أقاطيعَ الوحْش قد أقبلت، فارقت مواضعَها حتَّى خالطت الناس؟! إنّ وَرَاءَهَا

(١) الحير: البستان.

(٢) في اللسان «العليق: القضيم يعلق على الدابة» والقضيم: الشعير.

(٣) السُّفَر: جمع سُفْرة، وهي طعام المسافر.

(٤) الحديث أورده الجاحظ في البيان ٢ / ١٥، وتقدم في الفقرة (٢٤٣)، ١ / ٢٢٢.

(٥) سَرَعان الخيل: أوائلها.

جَمْعاً عظيماً! . قال: فواللّه ما ألجموا وَأَسْرَجُوا حتى رَأَوْا ساطِعَ الغُبَار، ولا تلبَّسوا[1] وتسلَّحوا حَتَّى رأوا الطليعة[2]. فما التأموا حَتى استوى أصحابُ قحطبة على ظُهورِ خيولهم. ولولا نَظْرَةُ خالد بنِ برمَكَ وفِراستُهُ، لقد كان ذلك الجيش اصطُلِم[3].

١٢٢٦ - [قصة في قوة الشمّ]

وكان إبراهيم بنُ السِّنديّ يُحَدِّثُنا منْ صدق حسِّ أبيه في الشَّمِّ، بشيءٍ ما يُحكى مثلُهُ إلاَّ عن السِّباع والذَّرّ والنَّعام. وزعم أنَّ أباه قال ذات يوم: أجدُ ريحَ بولِ فأرة! ثمَّ تَشَمَّمَ وأجَالَ أَنْفَهُ في المجلس، فقال: هو في تلك الزَّاوية! فنظروا فإذا على طرف البِساط من البلَلِ بقدْر الدِّرْهم، أو أَوْسَعُ شيئاً، فقضَوْا أنَّهُ بولُ فأرة.

قال: وَشَهِدْتُهُ مَرَّةً وَأَشْرَاطُهُ[4] قيامٌ على رأسه في السِّمَاطين[5]، فقال: أجدُ ريحَ جَوْرَبٍ عَفِنٍ مُنْتِن! فتشمَّمْنا بأجمعنا، فلم نَجِدْ شَيْئاً، ثمَّ تشمَّمَ وقال: انزعُوا خُفَّ ذاك. فنزعوا خُفّه، فكلَّما مدَّ النازعُ له شيئاً بداً من لفافته. فما زَال النَّتْنُ يَكْثُفُ ويزدادُ، حتى خَلَعَ خُفَّهُ ونزَعَهُ منْ رجْله، فَظَهَرَ من نَتْنِ لفَافَته ما عُرِفَ به صِدْقُ حسِّه. ثمَّ قال: انزعُوا الآنَ أَخْفَافَكُمْ بأجمعكم، فلا بُدَّ من ألاَّ يكونَ في جميع اللَّفائفِ مُنْتِنٌ غيرُ لِفافته، أو تكونَ لِفافتُه أنتَنها؛ فَنَزَعُوا، فلم يَجِدُوا في جميعها لِفافةً منتنةً غيرها.

وَأَنْشَدُوا[6]: [من الطويل]

غزا ابْنُ عُميرٍ غَزوةً تركت لنا ... ثَناءً كنَتْنِ الجوربِ المتخرِّقِ

١٢٢٧ - [أقوى درجات التشمم]

وليس الذي يُحكَى من صِدق الحسِّ في الشَّم - عن بعض النَّاس، وعن النَّعام والسِّباع، والفأر والذَّرّ، وضروبٍ من الحشرات - من شكل ما نطق به القرآنُ العظيمُ،

---

(١) تلبسوا: لبسوا ثياب الحرب.
(٢) طليعة الجيش: أولهم.
(٣) اصطُلم الجيش: استُؤْصل وأُبيد.
(٤) الأشراط: الحرس.
(٥) السماطين: مثنى سماط، وهو الصف من الناس.
(٦) البيت بلا نسبة في ثمار القلوب ٤٨٦ (٨٦٧)، والمستقصى ١/ ٣٨٢، والوساطة ٤٠٠، وتقدم في ١/ ١٥٧.

من شأن يعقوبَ ويوسفَ عليهما الصلاة والسَّلام حين يقول تعالى: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ، قَالُوا تَاللّه إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾[1]. وكان هذا من يعقوبَ بعد أنْ قال يوسف ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]. ولذلك قال: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[1] ثمَّ قال: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾[3].

وإنَّمَا هذا علامةٌ ظهرَتْ له خاصة؛ إذ كان النَّاسُ لا يشتمُّون أرواحَ[4] أولادهم إذا تباعَدُوا عن أنوفهم، وما في طاقة الحصان الذي يجدُ ريحَ الحجْر[5] ممَّا يجوزُ الغَلوتين والثَّلاث[6]. فكيف يجدُ الإنسانُ وهو بالشَّام ريحَ ابنه في قميصه، ساعةَ فَصَلَ من أرض مصر؟! ولذلك قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[7].

١٢٢٨ - [بعض المجاعات]

وقد غَبَرَ[8] موسى وهو يَسيرُ أَرْبَعِينَ عَاماً، لا يذوق ذَوَاقاً[9]. وجاع أهل المدينة في تلك الحُطْمَة[10]، حتى كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يشدُّون الحَجَرَ على بُطُونِهِمْ، من الجُوعِ والجَهْد[11]. وكان النبيُّ ﷺ، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين

---

(١) ٩٤/يوسف: ١٢.

(٢) ٩٣/يوسف: ١٢.

(٣) ٩٦/يوسف: ١٢.

(٤) الأرواح: جمع ريح: وهي الرائحة.

(٥) الحجر: أنثى الخيل.

(٦) الغلوة: قدر رمية بسهم، وانظر الفقرة (١٢٠٨)، ص ٤٥٥.

(٧) ٩٦/ يوسف: ١٢.

(٨) غبر: مكث.

(٩) الذواق: المأكول والمشروب، فَعَال بمعنى مفعول، وفي الحديث «لم يكن يذم ذواقاً» انظر النهاية ١٧٢/٢.

(١٠) الحطمة: هي السنة الشديدة الجدب، ومنه حديث جعفر «كنا نخرج سنة الحطمة».

(١١) كان النبي ﷺ قد دعا على مضر بقوله: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف» فكان القحط سبع سنين متتالية، حتى أكلوا القد والعظام. فنال ذلك الجدب النبي وأصحابه. حتى شد المسلمون على بطونهم الحجارة من الجوع. انظر صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، حديث ٩٦١، وكتاب صفة الصلاة، حديث ٧٧١، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، حديث ٦٧٥، ومسند أحمد ٢/٢٣٩، ٢٥٥، وثمار القلوب ٣٧ (١١٣).

يقول: «إِنِّي لَسْتُ كأَحَدِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي، يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»[1].

١٢٢٩ - [جدال في ذبح الحيوان وقتله]

ورجَالٌ ممَّنْ ينتحل الإسلام، يُظهِرُونَ التقذُّرَ من الصَّيد، وَيَرَوْنَ أنَّ ذلكَ من القَسوة، وأنَّ أصحابَ الصَّيد لَتُؤَدِّيهم الضَّراوةُ التي اعترتهم منْ طرُوقِ الطَّيرِ في الأوكار، ونَصْبِ الحبائل للظِّباء، التي تنقطع عن الخشْفَان[2] حتى تموتَ هُزْلاً وجُوعاً، وإشلاء السِّباعِ على بهائمِ الوحش وَستُسْلِمُ أهلَها إلى القَسْوة، وإلى التهاوُن بدماء النَّاس.

والرَّحْمةُ شكلٌ واحد. وَمَنْ لم يَرْحَمِ الْكَلْبَ لم يَرْحَمِ الظَّبيَ، وَمَنْ لَمْ يرْحَم الظَّبيَ لَمْ يَرْحَمِ الجَدْيَ، وَمَنْ لَمْ يَرْحَمِ الْعُصْفُورَ لَمْ يَرْحَمِ الصَّبيَّ. وصِغارُ الأمور تؤدِّي إلى كبارها.

وليسَ ينبغي لأحدٍ أن يتهاونَ بشيءٍ ممَّا يؤدي إلى القَسْوة يَوماً مَا. وأكثَرُ ما سمعت هذا البابَ، منْ نَاسٍ من الصُّوفيّة، ومن النَّصارَى؛ لمضَاهاة النَّصارى سبيلَ الزَّنَادِقَة، في رفضِ الذبائح، وَالْبُغْضِ لإراقة الدِّماءِ، وَالزُّهدِ في أكل اللُّحْمَانِ.

وقد - كان يرحَمُكَ اللّه - على الزِّنديق ألاَّ يأتي ذلك في سبَاع الطَّيرِ، وذوات الأربع من السّباع. فأما قتْلُ الحيَّة والعقرب، فما كان ينبغي لهم الْبَتَّةَ أَنْ يَقِفُوا في قتلهما طَرْفَةَ عَينٍ؛ لأنَّ هذه الأمورَ لا تخلو منْ أن تكونَ شرًّا صرْفاً، أو يكون ما فيها من الخير مغْموراً بما فيها من الشرِّ. والشَّرُّ شيطانٌ، والظُّلمة عدُوُّ النُّور. فاستحْياءُ الظلمة وأنتَ قادرٌ على إماتتها، لا يكونُ من عمل النُّور. بل قد ينبغي أن تكونَ رحمة النُّورِ لجميعِ الخلائقِ والنَّاس، إلى استنقاذهما من شُرور الظّلمة.

وكما ينبغي أن يكون حَسَناً في العقْل استحْياءُ النُّور والعمَلُ في تخليصه والدَّفْعُ عنه - فكذلك ينبغي أنْ يكونَ قتْلُ الظُّلْمة وإماتتُها، وَالعَوْنُ على إهلاكها، وتوهينِ أمرها - حسناً.

---

(١) أخرج البخاري في الصوم برقم ١٨٦٠، ومسلم في الصيام برقم ١١٠٤ (عن أنس رضي اللّه عنه، عن النبي ﷺ قال: لا تواصلوا. قالوا: إنك تواصل، قال: لست كأحدٍ منكم، إني أُطعم وأُسقى، أو: إني أبيت أُطعم وأُسقى) وأعاده البخاري في التمني برقم ٦٨١٤.

(٢) الخشفان: جمع خشف، وهو ولد الظبية عندما يتحرك للمشي.

والبهيمة التي يَرَوْنَ أن يدفعُوا عنها أيضاً ممزُوجة[1]، إلاَّ أنَّ شرّهَا أقلُّ. فهم إذا استَبْقَوْها فقد استبْقَوا الشُّرورَ المخالطَة لها.

فإنْ زَعموا أنَّ ذلك إنَّما جاز لهم؛ لأنَّ الأغلب على طِباعها النُّور فلْيغتفروا في هذا الموضعِ إدخالَ الأذى على قليل ما فيها من أجزاء الشَّرِّ كما اغتفروا ما في إدخال الروح والسُّرور على ما في البهيمة من أجزاء الظُّلْمة لدفعهم عن البهيمة؛ إذْ كان أكثر أجزائها من النُّور.

وإنَّما ذكرتُ ما ذكرت؛ لأنَّهم قالوا: الدَّليلُ على أنَّ الذي أنتم فيه، مِنْ أكل الحيوان كلَّ يومٍ من الذبائِح، مكروهٌ عنْدَ الله، أنَّكُمْ لَمْ تَرَوْا قطُّ ذبّاحي الحيوان ولا قَتَّالي الإنسان، ولا الذين لا يقْتاتون إلاَّ اللّحْمَان يفلحون أبداً. ويستغنون؛ كنحو صيَّادي السّمك وصيَّادي الوحْش وأصناف الجزَّارين والقَصَّابين، والشَّوّائين والطهَّائين والفهَّادين والبيَازِرة[2] والصَّقَّارينَ والكلابين؛ لا ترى أَحَداً منهم صار إلى غِنًى وَيُسْرٍ، ولا تراهُ أبداً إلا فقيراً مُحَارَفاً[3]، وعلى حالٍ مشبهَةٍ بحاله الأولى.

وكذلك الجلادون، ومن يضرِبُ الأعناقَ بين يَدَي المُلوك. وكذلك أصحابُ الاستخراج والعذَابِ، وإن أصابوا الإصابات، وجميع أهلِ هذه الأصناف.

نَعَمْ؛ وَحَتَّى ترى بعضَهم وإن خَرَجَ نَادراً خارجيّاً، ونال منهم ثَروةً وَجَاهاً وسُلطاناً، فإمَّا أن يقْتَلَ، وإمّا يُغْتَصَبَ نَفْسَهُ بميتَة عاجلة، عندَ سروره بالثَّروة، أو يبعث الله عليه المحق[4] فلا يَنْمُو له شيء، وإما ألاَّ يجعل مِنْ نسلهم عَقِباً مذكوراً، ولا ذِكْراً نبيهاً وَذُرِّيَّةً طَيبةً، مثل الحجّاج بن يوسف، وأبي مسلم، ويزيد بن أبي مسلم ومثل أبي الوعد، ومثل رجَالٍ ذكروهم لا نحبُّ أن نسميهم.

قال: فإنَّ هؤلاء، مع كثرة الطَّرُوقَة[5] وظُهُورِ القدْرة، ومع كثرة الإنسال، قد قَبَحَ الله أمرَهم، وأخْمَلَ أولادَهم. فهم بين مَنْ لم يُعقِبْ، أو بَيْنَ مَنْ هُوَ في معنى مَن لم يُعقب.

---

(١) ممزوجة: أي ممزوج فيها الخير بالشر.

(٢) البيازرة: جمع بيزار، وهو القائم بأمر البازي.

(٣) المحارَف: المحروم.

(٤) المحق: النقصان.

(٥) الطروقة: الزوجة، والمرأة.

فقلت للنّصارَى بديّاً: كيف كان النّاسُ أيَّامَ الحُكم بما في التَّوْراة أيَّامَ موسى وَدَاودَ، وهما صاحبا حُروبٍ وَقَتْلٍ، وَسِبَاءٍ وذبائحَ؟! نعم حتى كان القُربان كُله أو عَامَّتُهُ حيواناً مذبوحاً، لذلك سَمَّيتم بيت المَذْبح.

وَلَسْنَا نسألكم عن سِيرَة النَّصارَى اليومَ، ولكنَّا نسألُكُمْ عَنْ دينِ مُوسى وَحُكْمِ التَّوْراة، وَحُكْمِ صاحب الزَّبور. وما زالوا عندكم إلى أن أنكروا رُبُوبيّةَ المسيح، على أكثَرَ من حالنا اليومَ في الذبَائح. وأنتم في كثيرٍ من حالاتكم تُغْلُونَ علينا السَّمَكَ، حتى نتوخَّى أيّاماً بأعيانها، فلا نشتري السَّمَكَ إلا فيها؛ طلباً للإمكان والاسْترْخَاصِ، وهي يومُ الخَميسِ، ويوم السّبْت، ويومُ الثُّلاثاء؛ لأنَّ شراءكم في ذلك اليومِ يَقِلُّ. على أنَّكم تُكْثِرُونَ مِنَ الذَّبائِح في أيَّام الفِصْح، وهلْ تَدعُونَ أكْلَ الحيوانِ إلاّ أيّاماً معدودةً، وساعاتٍ مَعْلومةً؟!.

فإذا كانت الحِرْفةُ والمحن إنَّما لزمَا القصَّابين والجزَّارين والشَّوَّائين، وأَصنافَ الصَّيَّادين، من جهة العقوبة - فأنتمْ شركاءُ صيَّادي السَّمَك خَاصّةً؛ لأنَّكم آكلُ الخلْقِ له، وأنتم أيضاً شُرَكَاءُ القصَّابين في عامَّة الدّهْرِ. فلا أنتم تَدينُونَ للإسلام فتعرفوا ما عليكم ولكم، وفصْل ما بين الرّحمة والقَسوة، وما الرَّحمة، وفي أيِّ موضعٍ يكونُ ذلك القتلُ رحمَةً؟ فقد أجمعوا على أنّ قَتْلَ الْبَعْضِ إحياءٌ للجميع، وأنّ إصلاح النَّاس. في إقامة جزاء الحسنة والسيئة. ﴿وَلَكُمْ في الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1].

وَالْقَوَدُ حَيَاةٌ. وهذا شيءٌ تَعْمَلُ به الأممُ كلها، غَيْرَ الزَّنادقَة. وَالزَّنادقَةُ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أُمَّةً، ولا كان لها مُلْكٌ وَمَمْلَكَةٌ، وَلَمْ تزَلْ بَيْنَ مَقْتُولٍ وهاربٍ ومنافق. فلا أنتم زَنادِقَةٌ. ولا ينكر لمن كان ذلك مَذْهَبَهُ أن يقول هذا القَوْلَ.

فأنتم لا دهْرِيَّة، ولا زَنادِقَة، ولا مُسلمون؛ ولا أنتم رَاضُونَ بِحُكْمِ اللّهِ أيّامَ التّوراة.

فإن كانَ هذا الحكْمُ قد أمرَ اللّه به - وهو عَدْلٌ - فليس بين الزَّمَانَيْنِ فرق.

وَبَعْدُ فإنَّا نَجدُكم تَأكُلونَ السَّمك أكْلاً ذَريعاً، وتتقذرون من اللُّحمان! أفلأنَّ السّمكَ لا يألَمُ الْقَتْلَ، أم لأنَّ السَّمكَ لَمَّا قتلتُمُوه بلاسَكِّين لم يُحسَّ قَتلَهُ؟! فالجميع حيوانٌ، وكلُّ مقتول يألَمُ، وكلٌّ يُحسّ. فكيف صار أكْلُ اللَّحْمِ قَسْوَةً، وَأكْلُ السَّمَكِ لَيْسَ بقَسوة؟!. وكيف صار ذبْح البهائمِ قسوة ولا تكون تفرِقَةُ ما بين

(١) ١٧٩/ البقرة: ٢

السَّمَكِ والماءِ حَتَّى تَموت قسوة! وكيف صار ذبح الشَّاةِ قَسوَةً وصيدُ السمكِ بالسَّنَانير المذَرَّبة المعقّفة[1] ليس لها شعائِر تخالف العقاف المنصوص في جهاتها. وكيف وهي وإِنْ لم تنشَبْ في أجوافها، وتَقْبِضْ على مجامع أرواحِها، لم تقدِرْ على أخْذِها؟!.

وكيف صار وَجْءِ اللَّبَّة[2] من الجزور أقسى من ضَرْب النبائل؟! أم كيف صار طَعْن العَير بالرُّمح، ونصْبُ الحبائل للظِّباء، وإرسالُ الكلابِ عليها أشَدَّ مِنْ وقع النَّبائل في ظَهْرِ السَّمَك؟!

ولأنَّكُمْ تكْثِرونَ قَولَكُمْ: لا نأكل شيئاً فيه دمٌ أيَّامَ صومِنا، فللسَّمك دمٌ، ولا بدَّ لجميع الحيوان من دمٍ أو شيءٍ يُشاكِلُ الدَّم، فما وجْهُ اعتلالِكم بالدَّم؟! ألأَنَّ كلَّ شيءٍ فيه دمٌ فهو أشدُّ ألماً؟ فكيف نعلم ذلك؟ وما الدَّليلُ عليه؟

فإن زعمتم أنَّ ذلك داخلٌ في باب التعبُّد والمصْلَحة، لا في باب القياسِ والرَّحمَةِ والقَسْوة، فهذا باب آخر. إلاَّ أنْ تَدَّعُوا أنَّ ذَوات الدِّماء أقوى للأبدان، وآشَرُ[3] للنُّفوس، فأردتم بذلك قلَّة الأشَرِ وضَعْفَ البدن. فإنْ كان ذلك كذلك فقد ينبغي أن يكونَ هذا المعنى مُستبيناً في آكلي السَّمَكِ من البحريين.

وأمّا ما ذكَرْتُم مِنْ مُلازَمة الحِرْفَة لهؤلاء الأصْناف، فإنَّ كلَّ مَنْ نزلَتْ صِناعَتُه، ودَقّ خَطَرُ تِجَارته، كذلك سَبِيلُه.

وأحلُّ الكَسْب كُلِّه وأطْيَبُهُ عِنْدَ جَميعِ النّاس سَقْيُ الماء، إمَّا على الظَّهر، وإمَّا على دَابَّة. ولم أرَ سَقَّاءً قَطُّ بَلَغَ حالَ اليَسارِ والثّروة وكذلك ضَرَّابُ اللّبِنِ، والطَّيّانُ، والحَرَّاثُ. وكذلك ما صَغُرَ من التِّجاراتِ والصِّناعات.

ألا ترون أنَّ الأمْوالَ كثيراً ما تكونُ عند الكُتَّاب، وعندَ أصْحَابِ الجَوهرِ، وعندَ أصحابِ الوَشْيِ والأنماط[4]، وعند الصَّيارِفَةِ والحنَّاطين[5]، وعند البحْرِيِّين

---

(١) المذربة: المحددة: المعقفة: الملوية.

(٢) الوجء: الطعن. اللبة: موضع النحر.

(٣) الأَشْر: المرح والنشاط.

(٤) الأنماط: ضرب من البسط.

(٥) الحناطين: بائعو الحِنْطة، أي البر.

والبصريين. والجُلاَّبُ[1] أبداً، والبيازِرَةُ[2] أيسر ممّنْ يَبْتَاع منهم.

وجُمَلُ الأموالِ حَقٌّ بأنْ تُربحَ الجُمَلَ مِنْ تفاريق الأموال. وكذلك سبيل القصّاب والجزّار، والشَّوّاءِ، والبازيار[2]، والفَهَّاد.

وأمّا ما ذكرتم من انقطاعِ نَسْلِ القُساةِ، وخمولِ أولادِهم، كانقطاع نَسْل فِرعَونَ، وهامان، ونُمرُود، وبُخْت نَصّر، وأشباههم، فإنّ اللّه يقول: ﴿وَلاَ تزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[3].

وإن شئتم أن تعدّوا من المذكورين بالصَّلاحِ أكثَرَ من هؤلاء ممّن كان عقيماً أو كان ميناثاً[4]، أو يكونُ ممّنْ نَبَتَ لهم أَوْلاَدُ سَوءٍ عقّوهُمْ في حياتهم، وعرّضوهُمْ للسَّبِّ بعد موتهم - لوجَدْتمُوهُمْ.

وعلى أني لم أَنْصِبْ نَفسي حَرْباً لِلْحَجّاجِ بن يوسف، ويزيد بن أبي مسلم، أتحرى بهما، وهما عِندي من أهل النَّارِ. ولكنّي عرَفْتُ مَغْزاكم.

وعلى أنّكُمْ ليسَ الْقَصّابينَ أَرَدْتُمْ، وَلكنَّكُمْ أَرَدْتُمْ دِينَ المسلِمين.

وَقَدْ خَرَجَ الحَجَّاجُ من الدُّنْيَا سَلِيماً في بَدَنِه، وظَاهِرِ نعمته، وعليٍّ مرتَبَتِهِ من المِلْك، وَمَكانِهِ من جَوازِ الأمْرِ وَالنَّهْي.

فإنْ كان اللّه عِنْدَكُمْ سَلَّمَهُ وَعاقَبَ أولاده، وكان ذلك دينَكم فإنّ هذا قولٌ إن خاطبتم به الجبْريّةَ[5] فعسى أن تتعلّقُوا منهمْ بسبب فأمّا مَنْ صَحَّحَ القَوْلَ بالْعَدْل فإنّ هذا القولَ عِنْدَه من الخطإِ الفاحش الذي لاَ شُبهَةَ فيه.

١٢٣٠ - (شعر في فقر القانص)

وكان ممَّا أنشدُوا من الدَّلِيل على أنّ القانِصَ لا يزالُ فقيراً - قَوْلُ ذي الرِّمةِ[6]:

[من البسيط]

---

(١) الجلاّب: الذين يجلبون العبيد للتجارة.

(٢) البيازرة: جمع بيزار، وهو القائم بأمر البازي، وبيزار: معرب بازيار.

(٣) ١٦٤/ الأنعام: ٦، ١٥/ الإسراء: ١٧، ١٨/ فاطر: ٣٥، ٧/ الزمر: ٣٩.

(٤) المئناث: الذي لا يولد له إلا الإناث.

(٥) الجبرية: فرقة يقوم مذهبها على نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإسناده إلى اللّه تعالى.

(٦) ديوان ذي الرمة ٩٥ - ١٠١. وشرح المفردات التالية منه.

حَتَّى إِذَا مَا لَهَا فِي الجَدْرِ وَاتَّخَذَتْ شَمْسُ النَّهَار شُعَاعاً بينها طِبَبُ[1]

وَلاحَ أَزْهَرُ مَشْهُورٌ بِنُقْبَتِهِ كَأَنَّهُ حِينَ يَعْلُو عَاقِراً لَهَبُ[2]

هَاجَتْ بِهِ جُوَّعٌ طُلْسٌ مُخَصَّرَةٌ شَوَازِبٌ لاَحَهَا التَّغْرِيث وَالجَنَبُ[3]

جُرْدٌ مُهَرَّتَةُ الأَشْدَاقِ ضَارِيَةٌ مثلُ السَّرَاحِينِ في أعناقِهَا الْعَذَبُ[4]

وَمُطعَمُ الصَّيْدِ هَبّالٌ لِبُغْيَتِهِ ألفَى أَبَاهُ بِذَاكَ الْكَسْبِ يكتَسِبُ[5]

مقزَّعٌ أَطْلسُ الأطمَارِ لَيْسَ له إلاَّ الضِّرَاءَ وَإِلاَّ صَيْدَهَا نَشَبُ[6]

فانصاعَ جَانِبَهُ الوَحْشِيَّ وَانْكَدَرَتْ يلحبن لا يأتلي المطلوبُ والطَّلَبُ[7]

قال: فجعله كما ترى مقزَّعاً أطلسَ الأطمار، وخَبَّرَ أنّ كِلاَبَه نشَبُه، وأنَّه ألفَى أباه كذلك.

---

(١) «حتى إذا ما لَها» الثور: من اللهو. «فيِ الجَدْر»: وهو نبت، أي: يلهو في هذا النبت ويرعى فيه، وقوله: «واتخذت شمس النهار شعاعاً»، أي: حين طلعت. «بينه طِبَبُ»، يريد بين الشعاع، «طبب» أي طرائق الشمس.

(٢) «لاح»: ظهر. «أزهر»، يعني الثور في بياضه. «نقبته» يعني لونه. «لهب» شعلة نار. وشبهه بالنار في بياضه وإضاءته حين يعلو عاقراً. و«العاقر» من الرمل: المشرف الذي لا ينبت أعلاه. و«لاح أزهر مشهوراً» يعني: الفجر.

(٣) «شوازبٌ»: يُبَّس. «لاحها»: أضمرها الجوع. و«الجنب»: يقاد للصيد، و«الجنب»: الذي لصقت رئته بجنبه. و«الغرثان»: الجائع.

(٤) جرد: جمع أجرد، وهو القليل الشعر، ورواية ديوانه «غضف»، وتعني الكلاب التي تنقلب آذانها على مؤخرها. و«مهرتة الأشداق»، يريد: واسعة الأشداق. وأصل «الهرت»: الشق. و«ضارية»: قد ضريت. يريد: الكلاب. «مثل السراحين»، يريد: مثل الذئاب. «العذب، يريد: القلائد التي في أعناقها من السيور».

(٥) «ومطعم الصيد». يريد: الصائد، يرزق الصيد. و«هبّال»: محتال. «لبغيته» لطلبه.

(٦) «مقزع»، يريد: الصائد، مخفَّف الشعر، في رأسه بقايا شعر، و«أطلس الأطمار» «أطماره»: أخلاقه، و«أطلس»، يقول: أطماره فيها غُبْسة، أي: هي وسخة ليست بواضحة تضرب إلى السواد. وقوله: «ليس له نشب»، أي: متاع. «إلا الضراء»، يريد: الكلاب وصَيْدَها. وواحد الضراء: ضِروٌ، وضِرْوَة.

(٧) «فانصاع» الثور: مضى على أحد شِقَّيه. و«جانبه الوحشي». جانبه الأيمن. و«انكدرت الكلاب»: انتقضت «يلحبْن»: يمررن مستقيمات. وقوله: «لا يأتلي المطلوب والطلب»، أي: لا يألو «المطلوب»: وهو الثور. و«الطلب»: وهو الكلاب، الو حد: طالب.

وأنشَدُوا في ذلك قول الآخر: [من الطويل]

وأعْصَمَ أنْسَتْهُ المنيّةُ نَفْسَهُ … رَعَى النَبْعَ والظَّيَّانَ في شاهقٍ وَعْرِ[1]

مَوارِدُهُ قَلْتٌ تصفِّقُه الصَّبَا … بنيقٍ مُزِلٍّ، غيرُ كدْرٍ ولا نَزْرِ[2]

قَرَتْهُ السَّحابُ ماءَها، وتَهدَّلَتْ … عليه غُصونٌ دانياتٌ من السَّمْرِ[3]

أُتِيحَ له طِلْحٌ إزاءُ بكفِّه: … هَتُوفٌ وأَشْبَاهٌ تُخُيِّرْنَ مِنْ حَجْرِ[4]

أبو صِبْيةٍ لا يَسْتدرٌّ إذا شَتَا … لَقُوحاً، ولا عنزاً، وليس بذي وَفْرِ[5]

لَهُ زَوْجَةٌ شَمْطَاءُ يَدْرُجُ حَوْلَهَا … فَطِيمٌ تُنَاجيه، وآخَرُ في الحجْرِ[6]

مُشوَّهةٌ لم تَعْبَ طيباً ولم تَبِتْ … تقتِّرُ هِنْديّاً بلَيْلٍ على جَمْرِ[7]

مُحَدَّدَةُ الْعُرقُوب ثُلِّمَ نَابُهَا … تَعَرَّقُهَا الأوْذَارَ مِنْ فقَرِ الحُمْرِ[8]

مُسَفَّعَةُ الخَدَّيْنِ، سوَّدَ درعَهَا … تقدُّرها باللَّيلِ، والأَخْذُ بالقدْرِ[9]

كغُول الفَلاة لم تخضِّبَ بَنَانَها … ولم تَدْرِ مَا زيُّ الخرائد بالمِصْرِ[10]

فَأَرْسَلَ سهْماً أرهَفَ القَيْنُ حَدَّهُ … فَأَنْفَذَ حِضْنَيْهِ فَخَرَّ على النَّحْرِ[11]

---

(١) الأعصم: الوعل بإحدى يديه بياض. النبع والظيان: من شجر الجبال.

(٢) قَلْتٌ: النقرة في الجبل، يستنقع فيها الماء إذا انصب السيل. تصفقه: تضربه. الصبا: الريح الشرقية. النيق: أعلى موضع في الجبل. مزل: تزلق عليه الأقدام ولا تثبت. الكدر: نقيض الصَّفْو. نزر: قليل.

(٣) تهدلت: تدلت. السمر: بضم الميم «وسُكِّنت للشعر»: جمع سَمُرَة، وهي شجر الطلح، والسمر أيضاً: ضرب من العضاه.

(٤) الطِّلْح: المُتعب والمعيى. إزاء: هي بكسر الهمزة والمد: أي سبب عيشه. الهتوف: القوس المصوتة. أشباه: يريد أنها سهام متشابهة. حجر: موضع باليمامة تنسب إليه السهام والنصال.

(٥) اللقوح: الناقة الحلوب. الوفر: الغنى.

(٦) الشمطاء: التي شعرها أسود يخالطه بياض، وهو يصور في هذا البيت كثرة عياله.

(٧) عبأ الطيب: صنعه وخلطه. التقتير: تهييج القُتار، وهو ريح البخور. الهندي: أراد: العود الهندي الذي يُتبخر به.

(٨) العرقوب: عصب غليظ فوق عقب الرِّجل. ثلِّم نابَها: كسر حرفه. التعرق: أكل العظم الذي على اللحم. الأوذار: قطع لحم صغيرة. الفقَر: جمع فقرة، وهي الواحدة من عظام الصلب. الحمر: أراد بها ما يصطاده من حمر الوحش.

(٩) مسفعة: مسودة. الدرع: القميص.

(١٠) الخرائد: جمع خريدة، وهي البكر لم تمسس، أو الخفرة الطويلة السكوت، الخافضة الصوت، المتسترة.

(١١) القين: الحداد. أرهف السهم: رقّقه. أنفذ حصنيه: خرق جنبيه. النحر: أعلى الصدر، أو موضع القلادة.

١٢٣١ - [مُساءَلة أبي إسحاق للمنانية]

كان أبو إسحاق يسأل المنانِيَّة[١]، عن مسألةٍ قريبة المأخَذِ قاطعةٍ، وكان يزعُمُ أنّهَا ليست له.

وذلك أنَّ المنانيَّةَ تزعُمُ أنَّ العَالَمَ بما فيه، من عشرةِ أجناس: خمسةٌ منها خيرٌ ونورٌ، وخمسةٌ منها شرٌّ وظُلْمَة. وكلُّها حاسَّةٌ وَحارَّة.

وأنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جميعها على قدْر ما يكونُ في كلِّ إنسانٍ من رُجْحانِ أجناس الخير على أجناس الشَّرِّ، ورُجْحانِ أجْنَاسِ الشَّرِّ على أجناسِ الخير.

وأنَّ الإنسانَ وإن كان ذا حَواسَّ خمسةٍ، فإنَّ في كُلِّ حاسَّةٍ متوناً من ضدِّه من الأجْناس الخمسة. فمتى نَظَرَ الإنسانُ نظْرَةَ رحمةٍ فتلك النَّظْرَةُ من النُّور، ومن الخير. ومتى نَظَرَ نَظْرَةَ وعيدٍ، فتلك النَّظْرَةُ من الظلمة. وكذلك جميع الحواسِّ.

وأنَّ حاسَّة السَّمعِ جنسٌ على حِدَةٍ، وأنَّ الذي في حاسَّة البصر من الخير والنُّور، لا يعين الذي في حاسَّة السَّمع من الخيرِ ولكنه لا يضادُّهُ، ولا يُفاسدُهُ، ولا يمنعه. فهو لا يعينه لمكان الخِلاف والجنس، ولا يعين عليه؛ لأنَّهُ ليس ضِدّاً.

وأنَّ أجناسَ الشَّرِّ خلافٌ لأجناس الشَّرِّ، ضِدٌّ لأجناس الخير. وأجناسَ الخيرِ يخالفُ بعضُها بَعْضاً ولا يضادُّ. وأنَّ التَّعاونَ والتآدِي[٢] لا يقعُ بين مختلِفها، ولا بين متضادِّها، وإنما يقع بين متفقها.

قال: فيقال للمنانيِّ: ما تقول في رَجُلٍ قال لرجُلٍ: يا فلان، هل رأيت فلاناً؟ فقال المسؤول: نعم قد رأيتُه. أليسَ السَّامعُ قد أدَّى إلى النَّاظِرِ، والنَّاظرُ قد أدّى إلى الذَّائِق؟! وإلاَّ فلِمَ قال اللِّسَانُ: نَعَمْ! إلاَّ وقد سَمِعَ الصَّوْتَ صاحبُ اللِّسَانِ؟!

وهذه المسألة قصيرةٌ كما ترى، ولا حِيلةَ له بأنْ يَدْفَعَ قَوْلَهُ.

١٢٣٢ - [مُساءَلَة المأمون لزنديق]

ومسألةٌ أخرى، سأل عنها أميرُ المؤمنين الزِّنديقَ الذي كان يكنى بأبي عليٍّ،

---

(١) المنانية: أتباع ماني. انظر الفهرست ٤٥٦ - ٤٧٢.

(٢) التآدي: التعاون.

وذلك عند ما رأى من تطويلِ مُحَمَّدِ بن الجهم وعجزِ العُتبي وسوءِ فهم القاسم بن سَيَّار، فقال له المأمون: أَسأَلُكَ عن حَرفين فقط. خبِّرني: هل ندم مُسيءٌ قَطّ على إساءته، أو نكون نحنُ لم نندَمْ على شيءٍ كان منّا قط؟! قال: بل ندم كثيرٌ من المسيئينَ على إساءتهم. قال: فَخَبِّرْني عن النَّدَم على الإساءَة، إساءَةٌ أو إحسان؟ قال: إحسان. قال: فالذي ندم هو الذي أساءَ أو غَيْرُهُ؟ قال: الذي نَدم هو الذي أساءَ. قال: فأُري صاحبَ الخير هو صاحب الشَّرّ، وقد بطل قولكم: إنّ الذي ينظر نَظَرَ الوعيد غيرُ الذي ينظر نَظَرَ الرحمة. قال: فإني أزعم أنّ الذي أساءَ غَيرُ الذي ندم. قال: فندم على شيءٍ كان منه أو على شيءٍ كان من غيره؟ فقطعه بمسألته[1]، ولم يتُبْ ولم يرجعْ، حتى مات، وأصْلاَه اللّه نارَ جَهنَّمَ.

١٢٣٣ - [شعر في هجو الزنادقة]

وقد ذكر حمَّادُ عجردٍ ناساً في هجائه لبشار[2]، فقال: [من الكامل]

لو كنْتُ زِنْديقاً، عُمَارُ، حبوتَني	أو كنْتُ أعبُد غَيْرَ رَبٍّ محمَّدِ
أو كنتُ عِندك أو تراك عرفْتَني	كالنَّضْرِ أو أُلْفيتُ كابن المُقْعَدِ
أو كابن حمَّادٍ ربيئة دينكُمْ	جبل وما جبل الغَويّ بمرْشَدِ[3]
لكنَّني وحّدْتُ ربِّي مُخلصاً	فجفَوْتَني بُغْضاً لكلّ موحِّدِ
وحَبَوْتَ مَنْ زَعَمَ السَّمَاءَ تَكَوَّنَتْ،	والأرضَ خالقها لها لم يَمهَدِ
وَالنَّسْمَ مثلَ الزَّرْعِ آنَ حَصَادُهُ	منه الحَصيدُ ومنه مَا لَمْ يُحْصَدِ[4]

وحمّادٌ هذا أشهر بالزّنْدَقَةِ من عُمارَة بن حربية، الذي هجاه بهذه الأبيات.

وأمَّا قوله:

وَحَبَـوْتَ مَنْ زَعَمَ السَّمَاءَ تَـكَوَّنَتْ

فليس يقول أحدٌ: إنّ الفلكَ بما فيه من التّدْبير، تكوَّنَ بنفسه ومِنْ نفسه!

---

(١) قطعه بمسألته: غلبه بالحجة.

(٢) كذا؟ ونص الشعر يوضح أن المهجو اسمه عمارة، وليس بشاراً.

(٣) الربيئة: الطليعة وعين القوم.

(٤) النَّسَم: جمع نسمة، وتعني الإنسان. وقد سكنت السين للضرورة.

فَجَهْلُ حمّاد بهذا المقدار من مقالة القَوْم، كأَنّهُ عندي ممّا يعرفه من براءَته الساحة. فإن كان قد أجابَهُمْ فإنما هو من مقلِّديهم.

وهجا حمّادُ بن الزِّبرقان، حماداً الراوية فقال[١]: [من الكامل]

نعْمَ الفَتَى لَوْ كَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ... ويقيمُ وقْتَ صَلاَته حَمَّادُ

هَدَلَتْ مَشَافِرَهُ الدِّنَانُ فأَنْفُهُ ... مثْلُ الْقَدُومِ يَسُنّهَا الحدّادُ[٢]

وَابْيَضّ منْ شُرْبِ المُدَامَةِ وَجْهُهُ ... فَبيَاضُه يوم الحسابِ سَوَادُ

فقد كان كما ترى:

هدلَتْ مَشَافِرَهُ الدنَانُ فأنفهُ ... مثلُ القدوم ..... (البيت)

فقد رأيتُ جماعةً ممَّنْ يُعاقِرُون الشَّراب، قد عظمت آنُفهُمْ. وصارتْ لهم خراطيمُ، منهُمْ رَوْحٌ الصّائغ، وعبدُ الواحد صاحب اللؤلويّ وجماعة من نَدْمان[٣] حمّاد بن الصّباح، وعبد الله أخو نهر ابن عسكر وناس كثيرٌ.

ويدلُّ على ذلك من المنافرَةِ قولُ جَرِيرٍ[٤] للأخطل: [من الكامل]

وشَرِبتَ بعد أبي ظهير وابنه ... سكْرَ الدِّنَانِ كأَنَّ أَنْفكَ دُمّلُ

وكان منهم يُونس بن فروة. وفي يونس يقول حمّادُ عجرد[٥]: [من الكامل]

أما ابنُ فَرْوَةَ يُونسٌ فكأنَّهُ ... منْ كبْره أيرُ الحمارِ القائمُ

ما النَّاسُ عنْدَكَ غيرُ نفسكَ وحْدَها ... والخَلْقُ عَندكَ ما خَلاَكَ بهائمُ

إنّ الذي أصبحْتَ مفتوناً به ... سيزُول عنك وأنفُ جارِكَ راغمُ

فتعضٌّ من نَدَمٍ يَدَيْكَ على الذى ... فرَّطت فيه، كمَا يَعَضُّ النّادمُ

فلقد رَضيتَ بعُصْبَةٍ آخَيتهمْ ... وَإِخَاهُمُ لك بالمعَرَّة لازمُ

فعلمْتَ حينَ جعلتهم لك دخلة ... أني لعرضك في إخائك ظالمُ[٦]

---

(١) الأبيات في البرصان ٣٠٠، والأغاني ٦/٨٦، وطبقات ابن المعتز ٦٩، وبهجة المجالس ١/٥٢٦، والعقد الفريد ٤/٣٢١، والشعر والشعراء ١٨١، وديوان المعاني ١/٣١٤، والمخصص ١٧/٦، وأمالي المرتضى ١/٩١، والخزانة ٤/١٣٢ (بولاق).

(٢) الدنان: جمع دَنّ، وهو من الأوعية التي يحفظ فيها الخمر. القدوم، قدوم النَّجّار.

(٣) ندمان: النديم على الشراب، وتستخدم «ندمان» في الإفراد والجمع.

(٤) ديوان جرير ٤٧٧، والبرصان ٣٠١.

(٥) الأبيات في جمع الجواهر ٢٠٩، والبيتان الأول والثاني في العمدة ٢/٢٣٩، وهما بلا نسبة في عيون الأخبار ١/٢٧٢.

(٦) دخلة الرجل: بطانته.

١٢٣٤ - [ذكر بعض الزنادقة][1]

وكان حمّادُ عجرد، وَحَمَّاد الرّاوية، وحمّادُ بن الزّبرقان، ويونس بن هارون، وعلي بن الخليل، ويزيد بن الفيض، وعُبادة وجميل بن محفوظ، وقاسم، ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبانُ بن عبد الحميد، وعمارة بن حربية، يتواصلون، وكأنهم نفس واحدة وكان بشّارٌ ينكر عليهم.

ويونس الذي زعم حمادُ عجْردٍ أنّهُ قد غَرَّ نفسه بهؤلاءِ، كانَ أشهَرَ بهذا الرّأي منهم، وقد كان كتبَ كتاباً لملك الرُّومِ في مثالب العرب، وعيوب الإسلام، بزعمه.

١٢٣٥ - [هجاء أبي نواس لأبان اللاحقي والزنادقة]

وذكر أبو نواسٍ أبانَ بْنَ عبد الحميد اللاّحقي، وبعضَ هؤلاء، ذِكْرَ إنسانٍ يَرَى لهم قَدْراً وخطراً، في هجائيّةٍ لأبان، وهو قوله[2]: [من المجتث]

جالسْتُ يوماً أباناً ... لاَ دَرَّ دَرُّ أبـــان

ونحنُ حضْرَ رواق الـ ... أمـير بالنهْرَوَان

حَتَّى إذا ما صَلاة الأ ... أولى أَتَتْ لأذَان

فقامَ ثَمَّ بها ذُو ... فصَاحـةٍ وبيـان

فكلّ ما قال قُلْنَا ... إلى انقضاء الأذان

فقال: كيف شهدتم ... بـذَا، بغير عيان؟!

لا أشهَدُ الدّهْرَ حَتَّى ... تُعَايـنَ العَينـان!

فقلت: سبحانَ ربِّي! ... فقال: سُبحانَ ماني[3]!

فقلت: عيسى رسولٌ ... فقال: منْ شَيطان!

فقلت: موسى كَليمُ الْـ ... ـمهيمن المنَّان

فقال: ربُّكَ ذو مُقْـ ... لَةٍ إذاً ولِسان!

---

(١) هذه الفقرة بتمامها نقلها الصولي في أخبار الشعراء المحدثين، ص١٠، ولم يصرح بالنقل، وهي أيضاً في الأغاني ١٨/ ١٠١.

(٢) الأبيات لأبي نواس في ديوانه ٥٤٣، والأغاني ٢٣/ ١٥٦، وأخبار الشعراء المحدثين ١١.

(٣) ماني: رجل فارسي له مذهب يقول بالنور والظلمة، وهما العنصران المسيطران على الوجود. والنور مبعث الخير، كما أن الظلمة مبعث الشر.

فنفســه خلقَتْــه | أَمْ مَنْ؟! فَقُمْتُ مكاني
عــن كــافــرٍ يَتَمَـرَّى | بالكُفـر بالرَّحمنِ[١]
يـريــد أن يتسـوّى | بالـعُصْبــة المُجّــان
بعَجْــرَدٍ وعُبــادٍ | والـوالــبيِّ الـهجَــان
وقــاســمٍ ومُطيــعٍ | رَيْحــانــة الـنَّدْمــان

وتَعَجُّبي من أبي نواس، وقد كان جالسَ المتكلمين أشدُّ من تعجُّبي من حَمَّادٍ، حين يَحكي عن قومٍ من هؤلاء قَولاً لا يقولهُ أحد. وهذه قُرَّة عَينِ المهجُوّ. والذي يقول: سبحانَ ماني يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول: إنَّه من قِبَلِ شيطان؟!

وأما قوله: «فنفسه خلقَتْه أم من» فإنَّ هذه مسألةٌ نجدُها ظاهرةً على ألْسُنِ العوامّ. والمتكلمون لا يحكُون هذا عن أحد.

وفي قوله: «والوالبيِّ الهِجان» دليلٌ على أنَّه من شكلهم.

والعجب أنَّه[٢] يقول في أبان: إنَّه ممَّن يتشبه بعَجْرد ومُطيعٍ، ووالبةَ بن الحباب، وعليٍّ بن الخليل[٣]، وأصبغ[٤] - وأبان فَوقَ ملء الأرض مِنْ هؤلاء، ولقد كان أبان، وهو سكرانُ، أصحَّ عَقلاً من هؤلاء وهم صحاةٌ. فأمَّا اعتقادُه فَلاَ أدري ما أقول لك فيه: لأنَّ النَّاس لم يُؤْتَوْا في اعتقادهم الخطأَ المكشوفَ، من جهة النظر. ولكنْ للنَّاس تأسٍّ وعاداتٌ، وتقليدٌ للآباء والكُبراء، ويعملون على الهوى، وعلى ما يسبق إلى القلوب، ويستثقلون التَّحصيلَ، ويُهملون النَّظَرَ، حتى يصيروا في حالٍ متى عاودوه وأرادوه، نظروا بأبصار كليلة، وأذهانٍ مدخُولة، ومع سوء عادَة. والنّفسُ لا تجيبُ وهي مُسْتَكرَهةٌ. وكان يقال: «العقلُ إذا أكره عَمِي». ومتى عَمِي الطِّباعُ وجَسَا وغلط وأهمل، حتَّى يألف الجهل، لم يكد يفهم ما عليه وله. فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف، والسَّابق إلى القلب.

---

(١) يتمرى: يتزين.
(٢) أي أبا نواس، وهذا التعليق نقله الصولي في أخبار الشعراء المحدثين ١٢.
(٣) لم يرد اسمه في الأبيات التي رواها الجاحظ، وفي ديوان أبي نواس:
«وابن الخليع عليٍّ | ريحـانـة النـدمان».
(٤) لم يرد اسمه في سائر أبيات القصيدة.

١٢٣٦ - [شعر لحماد عجرد]

وقال حمَّادُ عجْرَد: [من مجزوء الرمل]

اعلَمُوا أَنَّ لِوُدِّي ثمناً عندي ثَمينَا

لَيْتَ شِعْرِي أَيَّ حُكْمٍ قَدْ أراكُمْ تَحْكُمُونَا

أَنْ تكونوا غَيْرَ مُعْطِيـنَ وأنتمْ تأخذونَا

ابْنِ لُقْمَانَ بنَ عادٍ في استِ هذا الدِّينِ دينا[١]

وما رأيت أحداً وضع لقمانَ بنَ عاد في هذا الموضع، غيرَه!

وقال حَمَّادُ عجردٍ في بشار: [من مجزوء الكامل]

يا ابنَ الخبيثة إنّ أمَّـكَ لم تكُنْ ذاتَ اكتتامِ

وتبدّلَتْ ثَوْبَانَ ذَا الأيْرِ المضبّرِ والعُرَامِ[٢]

ثَوْبَان دَقَّاقَ الأرزِ بأرواث حسامِ

عَرْد كقائمة السَّريرِ يُبيلهَا عند الرِّطامِ[٤]

وأَتَتْ سُمَيعةُ بَعْدَهَا بالمصمئلاَّت العظامِ[٤]

أخت لهم كانت تكابر أن تُسَافِحَ منْ قيامِ

وقال حَمَّاد يذكر بشاراً: [من السريع]

غزالة الرجسة أو بنتها سُمَيعة الناعية الفهرا

وقال وذكر أمّه: [من الكامل]

أَبَني غَزَالة يا بنِي جُشَمٍ استْها لِيَحققكُمْ أنْ تفرَحوا لا تَجزعُوا[٥]

---

(١) ابنِ: فعل أمر من بنى يبني. ولقمان: منادى، حُذفت أداة ندائه.

(٢) المضبَّر: المكتنز لحماً والشديد. عرام الجيش: حدتهم وشدتهم وكثرتهم. والشاعر استعار هذه الصفة.

(٣) العرد: الصلب الشديد. يبليها: يجعلها تبول. الرطام: أن يخالطها مستوعباً.

(٤) المصمئلات: الدواهي.

(٥) الجشم: الجوف.

وما كان ينبغي لبشَّارٍ أنْ يناظرَ حماداً من جهة الشعرِ وما يتعلَّقُ بالشِّعر، لأنَّ حمَّاداً في الحَضيض، وَبشَّاراً مع العَيُّوق. وليس في الأرض مولّد قَرَوِيٌّ يُعَدُّ شعرُه في المحدث إلاّ وبَشَّارٌ أشعرُ منه.

١٢٣٧ - [شعر في هجو بعض الزنادقة]

وقال أبو الشمقمق[١] في جميل بن محفوظ: [من المتقارب]

وهذا جميلٌ على بغله ... وَقَدْ كانَ يعدُو عَلَى رِجْلِهِ

يَرُوحُ ويغدو كأَيْرِ الحمارِ ... وَيرْجعُ صِفْراً إِلى أهلِهِ[٢]

وقدْ زَعموا أنَّه كافرٌ ... وأنَّ التَّزَنْدُقَ من شَكْلِهِ

كأني به قد دعاهُ الإمامُ ... وآذن ربُّكَ في قَتْلِهِ

١٢٣٨ - [عيوب المعنى في شعر أبي نواس]

وأمّا أبو نُواسٍ فقد كان يتعرّضُ لِلْقَتْلِ بجهْدِهِ. وقد كانوا يعجَبون من قوله[٣]: [من المديد]

كيف لا يُدْنيك مِنْ أمَلٍ ... مَنْ رسُولُ اللّهِ مِنْ نَفَرِه

فلما قال[٤]: [من المنسرح]

فاحْبِبْ قُرَيشاً لحبّ أحَمدِهَا ... واشكُرْ لها الجَزْلَ مِنْ مواهبها

جاء بشيء غطّى على الأوَّلِ.

وأنكروا عليه قولَه: [من الرجز]

* لو أكثر التَّسْبيح ما نجّاه *

---

(١) ديوان أبي الشمقمق ١٤٨.

(٢) صفراً: خالي اليدين.

(٣) ديوان أبي نواس ٤٣٠، والكامل للمبرد ١/٢٤٣ (المعارف)، والموشح ٢٧٩، وعلق المبرد على البيت بقوله: «وهو لعمري كلام مستهجنٌ موضوع في غير موضعه، لأن حق رسول اللّه ﷺ أن يضاف إليه ولا يضاف إلى غيره...».

(٤) ديوان أبي نواس ٥٠٨

فلما قال[1]: [من البسيط]

يا أحْمَدَ الْمرْتَجَى في كُلِّ نائبةٍ   قُمْ سَيِّدي نَعْصِ جَبَّارَ السَّمواتِ[2]

غَطَّى هذا على الأوَّل. وهذا البيت مع كفره مَقِيتٌ جداً. وكان يُكثِرُ في هذا الباب .

وأما سوى هذا الفنِّ فلم يعرِفُوا له من الخطإِ إلاَّ قولَه[3]: [من السريع]

أَمستخبرَ الدّارِ هلْ تنطِقُ   أنا مكان الدار لا أنطقُ

كأنها إِذْ خَرِسَتْ جَارِمٌ   بينَ ذَوي تَفْنيدِهِ مُطْرِقُ[4]

فعابوه بذلك، وقالوا: لا يقول أحد: لقد سكت هذا الحَجَرُ، كَأَنَّهُ إنسانٌ ساكت، وإنما يُوصَفُ خَرَسُ الإنسانِ بخَرَسِ الدَّارِ، ويشبَّهُ صممه بصمَمِ الصَّخر.

وعابوه بقوله، حين وصف عَينَ الأسد بالجُحوظ، فقال[5]: [من السريع]

كأَنَّ عَيْنَهُ إذا التهبَتْ   بارزَةَ الجفْنِ عينُ مخنوقِ

وَهُمْ يَصِفُونَ عينَ الأسد بالغؤورِ. قال الرَّاجز[6]: [من الرجز]

* كأنما يَنْظُرُ من جَوْفِ حَجَرْ *

وقال أبو زُبَيد[7]: [من البسيط]

كأَنَّ عَينيه في وَقْبَين من حَجَرٍ   قِيضَا اقتياضاً بأطراف المناقيرِ[8]

ومع هذا فإِنَّا لا نعرف بَعْدَ بَشَّارٍ أشعرَ منه .

---

(١) ديوان أبي نواس ١٧٤.

(٢) أحمد: هو أحمد بن أبي صالح، وقد كان أبو نواس يتعشقه.

(٣) لم يرد البيتان في ديوان أبي نواس، وورد البيت الثاني في الصناعتين ٨٦.

(٤) الجارم: الجاني. التفنيد: التكذيب، والمراد هنا: اللوم والعذل.

(٥) ديوان أبي نواس ٤٥٢، والصناعتين ١٣٤.

(٦) الرجز لحميد الأرقط في أراجيز العرب ٢٢، وبلا نسبة في الصناعتين ١٣٤.

(٧) ديوان أبي زبيد ٦٢٣، والصناعتين ١٣٤.

(٨) الوقب في الحجر: نقرة يجتمع فيها الماء. قيضا: حفرا. اقتياضاً: استئصالاً. المناقير: جمع منقار، وهو حديدة كالفأس ينقر بها.

وقال أبو زُبَيد[1]: [من الطويل]

وَعَينانِ كالوقْبين في ملء صَخْرَةٍ ترى فيهما كالجَمْرَتَينِ تَسَعَّرُ

١٢٣٩ - [قصة راهبين من الزَّنادقة]

وحدَّثني أبو شُعيب القَلاَّلُ، وهو صُفْريٌّ[2]، قال: رُهبان ُالزَّنادقَة سَيّاحون؛ كأنهم جعلوا السِّياحَةَ بدلَ تعلقِ النَّسطوري[3] في المطامير[4].

ومُقامُ المُلكانيِّ[5] في الصَّوامع، ومُقامُ النَّسطوريِّ في المطامير[4].

قال: ولا يَسيحون إلا أَزواجاً. ومتى رأيتَ منهم واحداً فالتفتَّ رأيتَ صاحبَه، والسِّياحة عندهم ألاَّ يبيت أَحَدُهم في منزل ليلتَين. قال: ويسيحون على أربع خصال: على القُدْس، والطّهر، والصِّدق، والمسكنَة. فأمَّا المسكنَة، فأَنْ يأكلَ من المسألة، وممَّا طابت به أنفسُ النَّاس له حَتَّى لا يأكلُ إلاَّ من كسْبِ غيره الذي عليه غُرْمُهُ ومأثمه، وأمَّا الطهر فترك الجِمَاعِ، وأمّا الصِّدق فعلى ألاّ يكذِبَ. وأما القُدْس فعلى أن يكتُمَ ذنبَه، وإن سئل عنه.

قال: فدخل الأهوازَ منهم رجلان، فمضى أحَدُهما نحو المقابرِ للغائط، وجلس الآخَرُ بقربِ حانوتِ صائغٍ، وخرجت امرأةٌ من بعض تلك القُصُور ومعها حُقٌّ[6] فيه أحْجارٌ نَفيسة، فلما صَعدَت من الطَّريق إلى دكان الصَّائغ زلقت فسقَطَ الحقُّ من يدها، وظَليمٌ لبعضِ أهلِ تلك الدُّور يتردَّدُ فلما سقَطَ الحُقُّ وبايَنَهُ الطّبَق[7]، تبدّدَ ما

---

(١) ديوان أبي زبيد ٦٠٨، والصناعتين ١٣٤.

(٢) جاء في اللسان« صفر»: «الصفرية: جنس من الخوارج، وقيل قوم من الحرورية سموا صفرية لأنهم نسبوا إلى صفرة ألوانهم، وقيل: إلى عبد الله بن صفّار؛ فهو على هذا القول الأخير من النسب النادر، وفي الصحاح: صنف من الخوارج نسبوا إلى زياد بن الأصفر رئيسهم، وزعم قوم أن الذي نسبوا إليه هو عبد الله بن الصفار...).

(٣) في اللسان «نسطر»: (النسطورية: أمة من النصارى يخالفون بقيتهم).

(٤) المطامير: حُفَرٌ تحفر في الأرض تُوَسَّع أسافلها تخبأ فيها الحبوب.

(٥) الملكاني، ويقال: الملكائي: واحد جماعة الملكانية أو الملكائية، وهم منسوبون إلى «ملكا» ويعني بالسريانية «الملك»، والمقصود بهم: أتباع مذهب قياصرة الروم. انظر مفاتيح العلوم ٢٣، والملل والنحل ٢/٦٢.

(٦) الحُقّ: وعاء من خشب أو العاج.

(٧) الطبق: غطاء كل شيء.

فيه منَ الأحْجار، فالتَقَمَ ذلك الظَّليمُ أعظَمَ حَجرٍ فيه وأَنْفَسهُ، وذلك بِعَيْنِ السّائح؛ ووثب الصّائغُ وغلمانهُ فجمَعُوا تلك الأحْجَارَ، ونَحّوا النَّاسَ وصاحُوا بهم فلم يَدْنُ منهم أحَدٌ، وفقدوا ذلك الحجَر، فصرخت المرأةُ، فكشفَ القَوْمُ وتناحَوْا[1]، فلم يصيبوا الحَجَرَ، فقال بعضهم: واللّهِ ما كان بقربنا إلاّ هذا الرّاهبُ الجالسُ، وما ينبغي أن يكون إلاّ معه! فسألوه عن الحجر؛ فكره أنْ يخبرَهم أنه في جوف الظليم فَيُذْبَحَ الظليمُ، فيكونَ قد شاركَ في دَم بعضِ الحيوان، فقال ما أخذْتُ شيئاً! وبحثُوه وفَتّشُوا كلّ شيء معه وألحُّوا عليه بالضّرب، وأقبل صاحِبُهُ وقال: اتَّقُوا اللّهَ! فأخذُوهُ وقالوا: دفعتَه إلى هذا حَتَّى غَيَّبَهُ! فقال: ما دفعتُ إليه شيئاً! فضرَبوهما ليموتَا. فبينما هما كذلك إذْ مَرَّ رَجُلٌ يَعْقِلُ، ففهم عنهُمُ القصَّة، ورأى ظَليماً يتردّدُ فقال لهم: أكان هذا الظليمُ يتردَّد في الطريق حينَ سقَطَ الحجر؟ قالوا: نعمْ. قال: فهو صاحبكم. فعوَّضُوا أصحابَ الظليم، وذبحوه وشقُّوا عن قانصته، فوجدوا الحجَر وقد نَقَصَ في ذلك المقدارِ من الزّمانِ شَبيهاً بشَطْره، إلاّ أنها أعطتْهُ لَوْناً صارَ الذي استفادُوه من جهةِ اللَّوْنِ أربحَ لهم من وزْنِ ذلك الشَّطر أنْ لَوْ كانَ لم يَذْهَبْ.

ونارُ القانصةِ غيرُ نارِ الحجَر.

---

(١) تناحَوْا: تباعدوا.

القول في النِّيران وأقسامها[1]

ونحنُ ذاكرون جُمَلاً من القَول في النِّيرانِ وأجناسها، ومواضعها، وأيَّ شيء منها يضافُ إلى العجَم، وأيِّ شيء منها يضاف إلى العرَب، ونُخبرُ عن نيران الدِّيانات، وغير الدِّيانات، وعمَّن عظَّمها وعمَّن استهانَ بها، وعمَّنْ أفرَطَ في تعظيمها حتَّى عَبَدَها. ونُخبرُ عن المواضعِ التي عُظِّمَ فيها مِنْ شأن النَّار.

١٢٤٠ - [نار القربان][2]

فمن مواضعها التي عُظِّمَتْ بها أنَّ اللّه عزَّ وجلّ جعلها لبني إسرائيلَ في موضع امتحان إخلاصهم، وتَعرُّفِ صدق نياتهم، فكانوا يتقرَّبون بالقرْبان. فَمَنْ كانَ منهم مُخلصاً نزلتْ نارٌ من قِبَلِ السّماء حَتَّى تُحيطَ به فتأكُلَهُ، فإذا فَعَلَتْ ذلك كان صاحبُ القُرْبَان مُخْلصاً في تَقَرُّبه. ومَتَى لَمْ يَرَوْهَا وبَقِيَ القُرْبَانُ على حَاله، قَضَوْا بأنَّه كانَ مدخولَ القلْب فاسدَ النِّية. ولذلك قال اللّه تعالى في كتابه: ﴿الَّذينَ قَالوا إنَّ اللّه عَهدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمنَ لرَسُولٍ حَتَّى يَأْتيَنَا بقُرْبَان تأْكُلُه النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مَنْ قَبْلِي بالْبَيِّنَاتِ وَبالّذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كُنْتُمْ صادقينَ﴾[3].

والدَّليل على أنّ ذلك قَدْ كَانَ معلوماً، قولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ من قَبْلِي بالْبَيِّنَاتِ وَبالذي قُلْتمْ﴾ ثمَّ إنّ اللّه سَتَرَ على عبادِه، وجعَلَ بيانَ ذلك في الآخرة. وكان ذلك التّدبيرَ مصلحةَ ذلك الزّمان[4]، ووفق طبائعهم وعللهم، وقد كانَ القوم من المعاندةِ والغَباوة على مقدارٍ لم يكنْ لينجع فيهم وَيَكمُلَ لمصلحتهم إلا ما كان في هذا الوزْنِ، فهذا بَابٌ من عِظَم شأنِ النَّار في صُدور النَّاس.

---

(١) انظر ثمار القلوب (٨١٩ - ٨٤١)، الباب التاسع والأربعين، في النيران.

(٢) ثمار القلوب ٤٥٥، (٨٢١).

(٣) ١٨٣ / آل عمران: ٣.

(٤) في ثمار القلوب: «وكان ذلك التدبير مصلحةً في ذلك الأمر».

١٢٤١ - [نار موسى][١]

وممَّا زاد في تعظيم شأن النَّار في صدور النَّاس قولُ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَديثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِه امْكُثوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتيكُمْ منْها بقَبَسٍ أَوْ أجدُ عَلَى النَّار هُدًى. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودي يَا مُوسَى، إِنِّي أنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالْوَادي المُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْله إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتيكُمْ منْهَا بخَبَرٍ أَوْ آتيكُمْ بشهَاب قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَها نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللّه رَبِّ الْعالَمينَ﴾[٣].

وكان ذلك مما زاد في قَدْرِ النّار في صدور النَّاس.

١٢٤٢ - [نار إبراهيم][٤]

ومن ذلك نار إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم، وقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا سَمعْنَا فتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبرَاهيمُ. قَالوا فَأْتُوا به عَلَى أَعْيُنِ النَّاس لَعَلَّهمْ يَشْهَدُونَ﴾[٥] ثم قالَ: ﴿قَالوا حَرِّقُوهُ وَانْصرُوا آلهَتكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعلينَ﴾[٦] فلما قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٧] كانَ ذلك ممَّا زاد في نباهة النَّار وَقَدْرِهَا في صُدور النّاس.

---

(١) نار موسى: تضرب مثلاً للشيء الهين اليسير يُطلب فيتوصل بسببه إلى الشيء الخطير، والغنيمة الباردة. انظر ثمار القلوب (١١٦، ٨٢٠)، حيث نقل الثعالبي عن الجاحظ.

(٢) ٩ - ١٢/ طه: ٢٠

(٣) ٧ - ٨/ النمل: ٢٧.

(٤) نار إبراهيم: يضرب بها المثل في البرد والسلامة. انظر ثمار القلوب (١٠٣، ٨٢٠)، حيث نقل الثعالبي عن الجاحظ.

(٥) ٦٠ - ٦١/ الأنبياء: ٢١.

(٦) ٦٨/ الأنبياء: ٢١.

(٧) ٦٩/ الأنبياء: ٢١.

باب آخر

١٢٤٣ - [نار الشجر][١]

وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشجرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾[٢].

والنَّار مِنْ أكْبَر الماعون، وأعظَم [المنافع][٣] المرافق [في هذه الدنيا على عباده][٣]. ولو لم يكنْ فيها إلاّ أنَّ اللّه عزّ وجلّ قد جَعَلَهَا الزاجرة عن المعاصي، لكان ذلك ممّا يزيدُ في قَدْرِها، وفي نَباهة ذكْرِها.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النّار الَّتي تُورُونَ ءَأنتم أَنْشأتمْ شَجَرَتَهَا أمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ﴾[٤]، ثم قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾[٥]. فقف عند قوله[٦]: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتاعاً﴾ فإنْ كنت بهذا القول مؤمناً فتذكَّرْ ما فيها من النعمة أولاً ثم آخراً، ثم توهَّمْ مقادير النعم وتصاريفها[٧].

١٢٤٤ - [نار اللّه][٨]

وقد علمنا أَنَّ اللّه عذَّب الأممَ بالغَرقَ، والرِّياحِ، وبالحاصِب، والرُّجُمِ، وبالصَّواعق، وبالخسْف، والمسخِ، وبالجُوع، وبالنقص من الثمرات، ولم يبعث عليهم نَاراً، كما بعث عليهم ماءً وَريحاً وحجارة. [وإنما][٩] جعلها من عقاب الآخرة [وعذاب العُقبَى][٩]، ونهى أن يُحرق بها شيء من الهوامّ[١٠]، وقال [رسول اللّه ﷺ][٩]: «لاتُعذِّبوا بِعذَاب اللّه»[١١]. فَقدْ عَظَّمَهَا كما ترى.

---

(١) ثمار القلوب ٨٢٣ .
(٢) ٨٠/يس: ٣٦.
(٣) الزيادة من ثمار القلوب.
(٤) ٧١ - ٧٢/ الواقعة: ٥٦.
(٥) ٧٣/ الواقعة: ٥٦.
(٦) في ثمار القلوب: «فكم تحت قوله».
(٧) في ثمار القلوب: «من تبصرة، بما فيها من مقادير النعم وتصاريف النقم».
(٨) ثمار القلوب (٨٠ - ٨١٩)، وقد نقل الثعالبي هذه الفقرة عن الجاحظ.
(٩) الزيادة من ثمار القلوب.
(١٠) في ثمار القلوب «من الحيوان».
(١١) أخرجه البخاري في الجهاد برقم ٢٨٥٤ (حدثنا سفيان، عن أيوب، عن عكرمة: أن علياً رضي اللّه عنه حرَّق قوماً، فبلغ ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرِّقهم، لأن النبي ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب اللّه». ولقتلتهم، كما قال النبي ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه»، وأعاده البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين برقم ٦٥٢٤، وانظر جامع الأصول ٣/٤٨١، والجامع الصغير ٩٨٣٠، وفيه: رواه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك.

فتفهَّمْ ـ رَحِمَكَ الله ـ فقد أرادَ اللّهُ إفهامك.

وقال اللّه تعالى للثَّقَلَيْنِ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ، فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]، فجعل الشُّواظ والنُّحاسَ، وهما النّارُ والدُّخانُ، من الآية. ولذلك قال على نَسَق الكلام: ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] ولم يَعْنِ أن التَّعْذيبَ بالنّار نعمةٌ يومَ القيامة، ولكِنه أرادَ التَّحذيرَ بالخوفِ والوَعيدِ بها، غيرَ إدخالِ النَّاس فيها، وإحراقهم بها.

١٢٤٥ - [نار الشجر]

وقال المرَّار بن منقذ[2]: [من الكامل]

وكأنَّ أرحُلنا بجـوٍّ مُحْصِـبٍ ... بِلِوَى عُنَيزةَ مِنْ مَقِيلِ التُّرمُسِ

في حيثُ خالطت الخزامى عَرْفَجاً ... يأتيك قابسُ أهْلِهَا لـم يُقْبَسِ

أراد خِصْبَ الوادي ورطوبَتَهُ. وإذا كان كذلك لم تَقْدَح عيدانُهُ، فإنْ دَخَلها مستقبسٌ لم يُورِ ناراً.

وقال كُثَيِّر[3]: [من الطويل]

له حسبٌ في الحيِّ، وارِ زِنَادُهُ ... عَفَارُ وَمَرْخٌ حَثَّهُ الوَرْيُ عاجِلُ[4]

والعَفار والمَرْخ، من بين جميع العِيدان التي تُقْدَحُ، أكثَرُها في ذلك وأسرعُها.

قال: ومن أمثالهم: «في كُلِّ الشَّجَرِ نارٌ، واستمجَدَ المَرْخُ والعَفار»[5].

١٢٤٦ - [نار الاستمطار][6]

ونارٌ أخرى، وهي النّار التي كانوا يَسْتَمْطِرُونَ بها في الجاهليَّة الأولى؛ فإنهم

---

(١) ٣٥/ الرحمن: ٥٥.

(٢) البيتان للمرار بن سعيد في ديوانه ٤٦١، وأشعار اللصوص ٣٦٣، وللأسدي في البيان ٣/٣٤، والبيت الثاني للأسدي في المخصص ١٠/١٧٦، ١١/٣٢، وتقدم البيتان في ٣/٦٢، فقرة (٦١٣) مع نسبتهما للأسدي.

(٣) ديوان كثير ٢٧٧، والمخصص ١١/٢٧.

(٤) وار: متقد.

(٥) المستقصى ٢/١٨٣، وفصل المقال ٢٠٢، وجمهرة الأمثال ١/١٧٣، ٢/٩٢، ومجمع الأمثال ٢/٧٤، وثمار القلوب (٨٢٣)، وقيل إن معناه: أنهما أخذا الفضل وذهبا بالمجد.

(٦) ثمار القلوب (٨٢٩)، وانظر الخزانة ٧/١٤٧، والأوائل ٣٥، ونهاية الأرب ٣/١٢٠، ومحاضرات الراغب ١/١٥٢.

كانوا إذا تتابعت عليهم الأزَمَات وركَدَ عليهم البلاءُ، واشتدّ الجَدْب، واحتاجوا إلى الاستمْطار، استجمعوا وَجَمعُوا ما قَدَرُوا عليه من البَقَر، ثمَّ عقَدُوا في أذنَابها وبينَ عَراقيبها، السَّلَعَ والعُشَرَ[١]، ثمَّ صعدوا بها في جبلٍ وعْرٍ، وأشعَلُوا فيها النِّيرانَ، وضَجُّوا بالدُّعاء والتضرُّع. فكانوا يَرَوْن أنّ ذلك من أسبابِ السُّقيا. ولذلك قال أُمَيَّةُ[٢]: [من الخفيف]

سَـنَـةٌ أَزْمَـةٌ تخيّـلُ بالنَّـا ... سِ تَرَى للعضَـاه فيهـا صريـرا[٣]

إذْ يَسَفُّونَ بالدَّقيقِ وكانـوا ... قَبْلُ لا يأكُلونَ شيئاً فَطيـرا[٤]

ويَسُوقون باقـراً يطـرُدُ السَّهـ ... ـلَ مهازيلَ خَشْيَةً أن يَبُـورا[٥]

عاقدين النِّيران في شُكُرِ الأذْ ... نَاب عَمْداً كيما تَهيجَ البُحورا[٦]

فاشـتَوَتْ كـلها فهـاجَ عليهم ... ثمّ هاجَتْ إلى صَبيرٍ صَبيرا[٧]

فـرآهـا الإلـه تُرْشَـمُ بالْقَـطْـ ... ـرِ وأمسى جَنَابُهم ممطورا[٨]

فسقاها نَشاصُه واكفَ الغيْـ ... ـثِ منَهٍّ إذْ رادعُوه الكبيرا[٩]

سَلَعٌ مـا ومِثْلـه عُشَـرٌ مـا ... عائلٌ ما وعالت البنقورا[١٠]

---

(١) السلع والعشر: ضربان من الشجر.

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٩٦ - ٣٩٩، وعيار الشعر ٦٠، ٢/٣٩٥، والحماسة البصرية ٢/٣٩٥.

(٣) في ديوانه: «سنة جدبة: شديدة القحط، وهي من الأزم، وهو العض بالفم أو بالأنياب. تخيل بالناس: تشتبه عليهم فيتوهمون الخير ولا خير فيها. العضاه: كل شجر له شوك».

(٤) في ديوانه: «سَفِفْتُ الدقيقَ: أخذته غير معجون. الفطير: العجين الذي لم يختمر.

(٥) في ديوانه: «الباقر: جماعة البقر. يبور: يهلك».

(٦) في ديوانه: «الشكر: مفردها شكير، وهو من الشعر». والريش والنبت ما نبت صغاره بين كباره. تهيج البحور: أراد تبعث المطر الغزير الذي يشبه البحور بغزارته».

(٧) في ديوانه: «وهاجت السماء: غيمت وكثرت ريحها، وهاجت الإبل: عطشت. والصبير: السحاب يثبت يوماً وليلة لا يبرح، كأنه يُصبر، أي يُحبس».

(٨) في ديوانه: «الرشم: الأثر والعلامة».

(٩) في ديوانه: «النشاص: السحاب المرتفع. والواكف: الهاطل. مُنَهٍّ: فاعل من نهّى الشيءُ وانتهى وتناهى، إذا بلغ نهايته. وردعه عن الأمر: كفَّهُ، ورادعوه: للمشاركة؛ فهم كفّوا عما بهم من إثم، وهو كفّ عن الانحباس والتشديد عليهم. والكبيرا صفة قامت مقام الموصوف بعد حذفه، والتقدير: رادعوه الشر الكبيرا. مُنَهٍّ: حال «نشاصه»، أي سقاها نشاصه بالغاً نهايته، وكان حقها أن تكون «مُنَهِّياً» ولكنه حذف الياء ضرورة كحذفها في الرفع والجر.

(١٠) في ديوانه: «السلع والعشر: ضربان من الشجر. وعال الشيءُ فلاناً: ثَقُل عليه، يريد أن السنة أثقلت البقر بما حملتها من السلع والعشر».

هكذا كان الأصمعيُّ ينشدُ هذه الكلمة، فقال له علماءُ بَغدادَ: صحفْتَ، إنما هي البيقور، مأخوذة من البقر.

وأنشد القحذمي للوَرَلِ الطائيّ[1]: [من البسيط]

لا دَرّ درُّ رِجَالٍ خاب سَعْيُهُمُ ... يَسْتَمْطِرونَ لَدَى الأَزْمَاتِ بالعُشَرِ

أجاعِلٌ أنتَ بَيْقُوراً مُسَلَّعَةً ... ذَريعةً لك بين اللّهِ والمَطَرِ[2]

قال: ويقال بقر، وبَقير، وبَيقور، وباقر. ويقال للجماعة منها قطيع ، وإجْل، وكَوْر، وأنشد[3]: [من الطويل]

فسكَّنتهم بالقَولِ حتى كأنّهم ... بواقِرُ جُلْحٌ أسكنَتها المراتِعُ[4]

وأنشد[5]: [من البسيط]

ولا شَبُوبٌ مِنَ الثيران أفْرَدَهُ ... عَنْ كَورِهِ كَثْرَةُ الإغْراء والطَّرَدُ[6]

١٢٤٧ - [نار الحلف][7]

ونار أخرى ، هي التي توقَدُ عند التَّحالُف؛ فلا يعقِدُونَ حِلفهُمْ إلاّ عندَها. فيذكرون عند ذلك منافعها، ويَدْعُونَ إلى اللّه عزَّ وجلَّ، بالحرمان والمنع من منافعها، على الذي يَنْقُضُ عَهْدَ الحِلف، ويَخيس بالعهد.

---

(١) البيتان للورل الطائي في الحماسة البصرية ٢ /٣٩٦، واللسان والتاج (بقر، سلع)، ورسالة النيروز لابن فارس ٢ /١٩ (ضمن نوادر المخطوطات)، وهما للودك الطائي في ثمار القلوب ٥٨٠ (٨٣٠)، وللوديك الطائي في نهاية الأرب ١ /١١٠، والبيت الثاني في التنبيه والإيضاح ٢ /٨٧، وبلا نسبة في التهذيب ٢ /٩٩، والمجمل ١ /٢٨٢، وديوان الأدب ٢ /٦١.

(٢) في الحماسة البصرية ٢ /٣٩٥ - ٣٩٦: (تزعم العرب أنه إذا أمسكت السماء قطرها وأرادوا أن يستمطروا، عمدوا إلى شجرتين يقال لهما: السلع والعثير «العشر»، فعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النار وأصعدوهما في جبل وعر، واتبعوا آثارهما؛ يدعون اللّه تعالى ويستسقون، ويفعلون ذلك تفاؤلاً للبرق).

(٣) البيت لقيس بن عيزارة في شرح أشعار الهذليين ٩٥٠، وديوان الهذليين ٣ /٧٦، واللسان والتاج (جلح)، وبلا نسبة في اللسان والتاج (بقر).

(٤) في ديوان الهذليين: «جُلْح: بقر لا قرون لها. والمراتع: مواضع تَرْتَع».

(٥) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٦٠، وديوان الهذليين ١ /١٢٦، واللسان والتاج (كور)، والتنبيه والإيضاح ٢ /٢٠١، وبلا نسبة في المخصص ٨ /٣٣، ٤٢.

(٦) في ديوان الهذليين: «يقال للمُسِنّ من الثيران: شبوبٌ ومِشَبٌّ وشَبَبٌ. والكور: القطيع».

(٧) ثمار القلوب (٨٢٦).

ويقولون في الحلف: الدَّمُ الدَّمُ، والهدَمُ الهدَمُ[1]، يحرِّكون الدّالَ في هذا الموضع؛ لا يزيده طلوعُ الشمس إلا شَدًّا، وطولُ اللَّيالي إلاَّ مَدّاً، ما بلَّ البحر صوفة[2]، وما أقام رضوى في مكانه، (إن كان جبلهم رَضْوَى[3]).

وكلُّ قومٍ يذكرون جبلهم، والمشهورَ من جبالهم.

وَربّما دَنَوْا منها حتى تكاد تحرقهم.

ويهوِّلون على من يُخافُ عليه الغَدْرُ، بحقوقها ومنافعها، والتَّخويفِ مِنْ حِرْمانِ منفعتها. وقال الكُمَيت[4]: [من المتقارب]

كهُولـةِ مـا أوقد المحلفُـو ... ن للحـالِفيـنِ ومـا هَـوّلـوا

وأصلُ الحِلْف والتَّحالف، إنما هو من الحَلف والأيمان. ولقد تحالفت قبائلُ من قبائل مُرَّةَ بنِ عَوف، فتحالفوا عندَ نارٍ فَدَنَوْا منها، وعشُوا[5] بها، حَتَّى مَحَشَتهم. فَسُمُّوا: المحاشَ[6].

وكان سيدَهم والمطاعَ فيهم، أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة. ولذلك يقول النَّابغة[7]: [من الكامل]

جَمِّعْ محَاشَكَ يا يزيدُ فإنَّني ... جَمَّعْتُ يربُوعاً لكم وتميما[8]

---

(١) مجمع الأمثال ١/٢٦٥، وهو من حديث بيعة العقبة في النهاية ٥/٢٥١ وفيه: «الهَدَم؛ بالتحريك: القبر. يعني إني أُقبر حيث تُقْبَرون. وقيل: هو المنزل، أي منزلكم منزلي. والهَدْم بالسكون وبالفتح أيضاً: هو إهدار دم القتيل: يقال: دماؤهم بينهم هَدْم: أي مهدرة. والمعنى: إن طلب دمكم فقد طُلب دمي، وإن أُهدر دمكم فقد أهدر دمي؛ لاستحكام الألفة بيننا».

(٢) مجمع الأمثال ٢/٢٣٠، والمستقصى ٢/٢٤٦، الصوفة: واحدة الصوف، وصوف البحر: شيء على شكل هذا الصوف الحيواني.

(٣) رَضْوَى: جبل بالمدينة.

(٤) ديوان الكميت ٢/١٤، واللسان والتاج وأساس البلاغة (هول)، والتهذيب ٦/٤١٥، والبيان ٣/٨، والخزانة ٣/١٤ (بولاق).

(٥) عشي بالنار، كرضي ودعا، ساء بصره.

(٦) محشته النار: أحرقته. وانظر الحاشية بعد التالية.

(٧) ديوان النابغة الذبياني ١٠٢، والرواية فيه «أعددت يربوعاً»، والبيت الأول في اللسان والتاج (حوش، محش، حشا)، والتهذيب ٤/١٩٦، ٥/١٤١، والعين ٣/٢٦١، والمقاييس ٢/٦٥، ٥/٢٩٩، والمجمل ٢/٦٨، ٤/٣١١، وبلا نسبة في الجمهرة ٥٣٩.

(٨) في ديوانه: «كان يزيد بن سنان بن أبي حارثة يمحش المحاش، وهم بنو خُصَيْلة بن مرة، وبنو نشبة بن غيظ بن مرة على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة، فتحالفوا على بني يربوع على النار، فسموا المحاش، لتحالفهم على النار. قال الأصمعي: المحاش أربعة أحياء من فزارة =

ولحِقتُ بالنَّسَبِ الذي عَيّرتَني وتركْتَ أصلاً يا يزيدُ ذَميما[1]

وقوله: «تميم» يريد: تميمة[2]. فحذف الهاء.

١٢٤٨ - [التحالف والتعاقد على الملح]

وربّما تحالفوا وتعاقدوا على الملح. والملحُ شيئان: أحدهما المرَقة، والأخرى اللَّبَن. وأنشدوا لشُتيم بن خُويلدٍ الفَزاريّ[3]: [من المتقارب]

لا يبعد اللّهُ رَبُّ العباد والمِلْحُ ما وَلَدَت خَالِدَهْ

وأنشدوا فيه قول أبي الطَّمَحَان[4]: [من الطويل]

وإنـي لأَرْجُـو مِلْحَهَا في بطونِكـم وما بَسَطتْ مِنْ جِلْدِ أشْعَثَ أَغْبَرَا

وذلك أنَّهُ كان جاورهم، فكان يَسقيهم اللَّبن؛فقال: أرجو أن تشكروا لي رَدَّ إبلي، عَلَى ما شَربتم من ألبانها، وما بَسَطَتْ من جلْد أَشْعَثَ أغبر. كأنَّهُ يقول: كنتم مهازيل ـ والمهزولَ يتقشَّف جِلْدُهُ وينقبض ـ فَبَسَطَ ذلك من جُلودِكم.

١٢٤٩ - [نار المسافر][5]

ونار أخرى، وهي النّار التي كانوا ربَّما أوقدوها خَلْفَ المسافر، وَخَلفَ الزَّائرِ

= ومرة، وقال ابن الأعرابي: المحاش: الذين لا خير فيهم ولا غناء عندهم، يقال: محشته النار، إذا أحرقته وأفسدته. وقوله: «أعددت يربوعاً» يريد: يربوع بن غيظ بن مرة، و«تميما» أراد: تميم بن ضبة من عذرة بن سعد بن ذبيان».

(١) في ديوانه: «وقوله: ولحقت بالنسب الذي عيرتني، يريد النسب الذي نفاه إليه، وعيّره به، وذلك أن ابنة النابغة كانت تحت يزيد فطلقها، فقيل له: لم طلقتها؟ فقال: لأنه رجل من عذرة، فنفى النابغة انتسابه إليهم، وزعم أنه نَسَبُ يزيد، إلا أنه تركه، وانتفى منه، وهو معنى قوله: وتركت أصلك يا يزيد ذميما»، أي «مذموماً».

(٢) أي حذف الهاء للترخيم في غير موضع النداء، وأراد: تميمة بن ضبة، وانظر الحاشية قبل السابقة.

(٣) البيت لشتيم بن خويلد الفزاري في اللسان (لوم)، وأساس البلاغة (ملح)، ولعبد اللّه بن الزبعري في ديوانه ٣٥، ولنهيكة بن الحارث المازني في الخزانة ٤/ ١٦٤ (بولاق)، وبلا نسبة في الكامل ١/ ٢٩٥ (المعارف)، والفاخر ٩، واللسان (ملح) والمخصص ١/ ٢٦، والتهذيب ٥/ ١٠٠، ١٠٢.

(٤) البيت في الشعر والشعراء ٢٢٩ (ليدن)، والكامل ١/ ٢٩٥، (المعارف)، والاشتقاق ٤٥١، واللسان والتاج، وأساس البلاغة وعمدة الحفاظ (ملح)، وبلا نسبة في الجمهرة ٥٦٩، والمخصص ١/ ٢٦،

(٥) ثمار القلوب ٤٥٩ (٨٢٦)، وسماها في الأوائل ٣٧ «نار الطرد». وانظر المعاني الكبير ٤٣٣، والخزانة ٧/ ١٤٨، ومحاضرات الراغب ١/ ١٥٤.

الذي لا يحبُّونَ رُجُوعَه. وكانوا يقولون في الدُّعاء: أبعده اللّه وأسحقه، وَأَوْقَدَ نَاراً خلفَه، وفي إثره! وهو معنى قولِ بشار[١] - وضرَبَهُ مثلاً: [من المتقارب]

صَحوتَ وأوقَدْتَ للجهل نَارَا ... وردَّ عليك الصِّبَا ما اسْتَعارا

وأنشدوا[٢]: [من الطويل]

وجَمَّةِ أقوامٍ حَمَلْتَ ولم تكنْ ... لتوقِدَ نَاراً إثرهم للتندُّمِ

والجَمَّة: الجَمَاعة يمشون في الصلح. وقال الراجز[٣] في إبله: [من الرجز]

* تقسَمُ في الحقِّ وَتُعْطَى في الجُمَمْ *

يقول: لا تندم على ما أعطيت في الحمالة، عند كلام الجَماعة فتوقد خلفهم ناراً كي لا يعودوا.

١٢٥٠ - [نار الإنذار][٤]

ونار أخرى وهي النَّار التي كانوا إذا أرادوا حرْباً، وتوقَّعُوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم نَاراً؛ ليبلغ الخبرُ أصحابَهم.

وقد قال عمرُو بنُ كلثومٍ[٥]: [من الوافر]

ونحنُ غَدَاةَ أُوقِدَ في خَزَازٍ ... رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافدينَا

وإذا جَدُّوا في جَمْعِ عشائرهم إليهم أوْقَدْوا نارَيْنِ. وهو قول الفرزدق[٦]: [من الكامل]

لولا فوارِسُ تَغْلِبَ ابنَةِ وائِلٍ ... سَدَّ العدوُّ عليكَ كلَّ مكانِ

---

(١) البيت لبشار بن برد في ديوانه ٤ / ٦٥، والمختار من شعر بشار ٣٤٠، وثمار القلوب (٨٢٧) وبلا نسبة في اللسان والتاج (وقد)، والتهذيب ٩ / ٢٥٠.

(٢) البيت بلا نسبة في اللسان (نور)، والتهذيب ١٥ / ٢٣٢، وعيار الشعر ٥٤، والمعاني الكبير ١ / ٤٣٣، وثمار القلوب (٨٢٧).

(٣) الرجز بلا نسبة في جمهرة اللغة ٤٩٦، وروايته: (أضرب في النقع وأعطي في الجمم).

(٤) ثمار القلوب ٤٦١ (٨٢٩)، وسماها في الأوائل ٣٧ «نار الأهبة»، وانظر الخزانة ٧ / ١٥٢، ومطلع الفوائد ٤٢.

(٥) البيت برقم ٦٨ من معلقته في شرح القصائد السبع ٤٠٩، وشرح القصائد العشر ٣٥٢، واللسان والتاج (خزر، خزز)، والبيان ٣ / ٢٢، والمعاني الكبير ٤٣٤، ومعجم البلدان ٢ / ٤١٩ (خزاز)، ومعجم ما استعجم ٢ / ٤٩٦.

(٦) ديوان الفرزدق ٢ / ٣٤٥ (صادر)، ٨٨٢ - ٨٨٣ (الصاوي)، والبيت الأول في اللسان (مضح)، وبلا نسبة في المقتضب ٣ / ٣٦٠.

ضربُوا الصَّنائعِ والملوكَ وَأوقَدوا ... نارَيـنَ أشرفَتَـا علـى النِّيـرانِ

١٢٥١ - [نار الحرَّتين][١]

ونار أخرى، وهي «نار الحرّتين»، وهي نار خالد بن سنان، أحد بني مخزوم، من بني قُطَيْعَةَ بْنِ عَبْس. ولم يكن في بني إسماعيل نبيٌّ قبلَهُ. وهو الذي أطفأ اللّه به نار الحَرَّتَين. وكانت ببلاد بني عبس، فإذا كان اللَّيلُ فهي نارٌ تسطَعُ في السَّماء، وكانت طيِّءٌ تُنْفشُ[٢] بها إبلها من مسيرةِ ثلاث، وربّما ندَرَتْ منها العُنُق[٣] فتأتي على كلِّ شيء فتحرقُه . وإذا كان النهارُ فإنما هي دخانٌ يفور. فبعث اللّه خالدَ بنَ سنانٍ فاحتفَرَ لها بئراً، ثمّ أدخلها فيها، والنَّاس ينظرون؛ ثمّ اقتحم فيها حتى غيَّبها. وسمعَ بعض القوم وهو يقول: [هَلَكَ الرَّجُلُ! فقال خالدُ بن سنان][٤]: كذب ابنُ راعية المعز، لأخرجنَّ منها وجبيني يَنْدَى! فلمَّا حضَرَتْهُ الوفاة، قال لقومه: إذا أنا متُّ ثمَّ دفنتموني، فاحضُروني بعدَ ثلاثٍ؛ فإنَّكم تَرَوْنَ عَيراً أبتَرَ يطوفُ بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني؛ فإني أخبرُكم بما هو كائن إلى يوم القيامة. فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العَيْرَ[٥] وذهبوا ينبشونه، اختلفوا، فصاروا فرقتين، وابنُه عبد اللّه في الفِرقة التي أَبَتْ أن تنبشه، وهو يقول: لا أفْعَلُ! إني إذاً أُدْعَى ابنَ المنبوش! فتركوه.

وقد قدِمَتْ ابنَتُهُ على النبيّ ﷺ، فَبَسطَ لها رداءهُ وقال: هذه ابنةُ نَبيٍّ ضيَّعهُ قومُهُ.

قال: وسَمِعتْ سورَةَ: ﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ﴾ فقالت: قدكان أبي يتلو هذه السورة.

والمتكلّمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أنَّ خالداً هذا كان أعرابيّاً وبَريًّا، من أهل شَرْجٍ ونَاظِرَة[٦]، ولم يبعث اللّه نبيًّا قطُّ من الأعرابِ ولا من الفدَّادِينَ[٧] أهلِ

---

(١) ثمار القلوب ٤٥٦ (٨٢١)، وانظر الإصابة ٢٣٥١.

(٢) تنفش: ترعى.

(٣) ندرت: ظهرت وبدت. العنق: القطعة أو الطائفة.

(٤) ما بين المعكوفتين مستدرك من الإصابة ٢٣٥١، وهو ضروري لإتمام المعنى، ولم يرد في ثمار القلوب.

(٥) العير: الحمار الوحشي.

(٦) شرج وناظرة: ماءان لعبس. معجم البلدان (ناظرة).

(٧) الفدادون: أهل البادية الذين يعيشون في بيوت من وبر الإبل.

الوَبَرِ، وإنما بعثهم من أهل القرَى، وسُكَّانِ المُدُنِ[1].

وقال خُلَيْدُ عَيْنَيْن[2]: [من الطويل]

وأي نبيٍّ كانَ في غير قَوْمِـهِ ... وَهَلْ كانَ حُكْمُ اللّهِ إلاّ مَع النَّخْلِ

وأنشدُوا[3]: [من الوافر]

كَنَارِ الحرَّتَيـنِ لهـا زفيـرٌ ... يُصِمُّ مَسَامِـعَ الرَّجُـلَ السَّمِيـعِ

١٢٥٢ - [تعظيم النار وعبادتها]

وما زالَ النَّاسُ كافَّةً، والأممُ قاطبةً - حتى جَاءَ اللّه بالحقّ - مُولَعين بتعظيم النَّار؛ حتى ضلَّ كثيرٌ من النَّاس لإفراطهم فيها، أنهم يعبدونها[4].

فأما النار العُلويَّة، كالشمس والكواكب، فقد عُبدت البتَّة. قال اللّه تعالى: ﴿وَجَدتُّها وقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّه﴾[5].

وقد يجيء في الأثرِ وفي سُنَّة بعض الأنبياء، تعظيمها على جهة التعبُّد والمحنة، وعلى إيجاب الشكر على النِّعمة بها وفيها. فيغلط لذلك كثيرٌ من النَّاس، فيجوزُون الحدَّ،

ويزعم أهلُ الكتاب أنَّ اللّه تعالى أوصاهُمْ بها، وقال: «لا تُطفئوا النِّيران مِنْ بُيوتي». فلذلك لا تجد الكنائس والبِيَع[6]، وبيوت العبادات، إلاَّ وهي لا تخلو من نارٍ أبداً، ليلاً ولا نهاراً؛ حتَّى اتَّخذت للنِّيرانِ البُيُوتَ وَالسَّدَنَةَ. ووقَفُوا عليها الغَلاَّتِ الكثيرة.

١٢٥٣ - [نار المجوس]

أبو الحسن عن مسلمة وقحدم، أنَّ زياداً بعث عَبد اللّه بنَ أبي بَكرة، وأمرهُ أن

---

(١) بعد ذلك في ثمار القلوب: «واللّه أعلم حيث يجعل رسالاته».

(٢) تقدم البيت في ١/٢٦٦.

(٣) البيت لخُلَيْد عنين في الأوائل ٣٩، وشرح شواهد المغني ١/٣١٠، وبلا نسبة في ثمار القلوب (٨٢١).

(٤) في ثمار القلوب: «حتى ظنّ كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها».

(٥) ٢٤/ النمل: ٢٧

(٦) البيع: جمع بيعة، وهي كنيسة اليهود أو النصارى.

يطفئ النيران، فأراد عبد اللّه أنْ يَبْدَأَ بنارِ جُور فيطفئَها[1]، فقيل له: ليست للمجوس نَارٌ أعْظَمُ من نار الكاريان[2] من دار الحارث. فإن أطفأتها لم يمتنع عَلَيْكَ أحدٌ، وإنْ أطفأت سافلَتَهَا استعدُّوا للحَرْب وامتَنَعُوا. فابْدَأ بها. فخرجَ إلى الكاريان فتحصَّنَ أهلُها في القَلعة. وكان رَجُلٌ من الفرس من أهل تلك البلاد معروف بالشدّة. لا يقدرُ عليه أحد، وكان يمرُّ كلّ عشيَّةٍ بباب منزله استخفافاً وإذلالاً بنفسه، فغمَّ ذلك عبدَ اللّه، فقال: أما لهذا أحدٌ؟! وكان معَ عبد اللّه بن أبي بكْرة رجلٌ من عبد القيس، منْ أشدِّ النَّاس بطشاً، وكان جباناً، فقالوا له: هذا العبدي، هو شديدٌ جَبان. وإن أَمَرْتَهُ به خافَ القتالَ فلم يَعْرِضْ له. فاحتل له حيلةً. فقال: نعم.

قال: فبينا هو في مجلسه إذْ مرَّ الفارسِيُّ، فقال عبد اللّه: مارأيتُ مِثلَ خلْقِ هذا، وما في الأرض ـ كما زعموا ـ أشدُّ منه بطشاً! ما يقوى عليه أحد! فقال العبدي: ما تجعلون لي إن احتملتُه حتَّى أدْخلَه الدَّارَ وأكْتفَهُ؟ فقال له عبد اللّه: لك أربعةُ آلاف درهم. فقال: تَفُونَ لي بألف؟ قال: نَعَمْ! فلمَّا كان الغُد مرَّ الفارسيُّ، فقام إليه العبديُّ فاحتمله فيما امتَنَع ولا قَدَرَ أن يتحرّك، حتَّى أدخَله الدَّار وَضربَ به الأرض ووثَبَ عليه النَّاسُ فقتلوه، وغُشِيَ على العبدي حين قتلوه. فلما قُتلَ أعْطَى أهلُ القلعةَ بأيديهم[3]. فقتل ابنُ أبي بَكْرةَ الهرابذةَ، وأطفأ النَّارَ، ومضى يُطفئُ النِّيرانَ حتَّى بَلَغَ سِجِسْتَان.

والمجوسُ تقدّم النّارَ في التَّعظيم على الماء، وتقدِّم الماءَ في التَّعظيم على الأرض. ولا تكاد تذكر الهواء.

١٢٥٤ - [نار السعالي والجن والغيلان]

ونار أخرى، التي يحكونها من نيران السَّعالِي[4] والجنِّ وهي غَيرُ نار الغِيلان. وأنشد أبو زيد لسَهم بن الحارث[5]: [من الطويل]

---

(١) ورد مثل هذا الكلام في معجم البلدان (جور).

(٢) الكاريان: مدينة بفارس صغيرة، ورستاقها عامر، وبها بيت نار معظم عند المجوس. معجم البلدان (الكاريان).

(٣) أعطوا بأيديهم: استسلموا.

(٤) السعالي: جمع سعلاة، وهي أخبث الغيلان، ويزعمون أنها أنثى الجن. حياة الحيوان ١ / ٥٥٥.

(٥) الأبيات لشمر بن الحارث الضبي في الحماسة البصرية ٢ / ٢٤٦، ولشمير بن الحارث في نوادر أبي زيد ١٢٣، ولتأبط شراً في ديوانه ٢٥٥ - ٢٥٧.

وَنَارٍ قد حضأتُ بُعيْدَ هُدءٍ بدارٍ لا أريدُ بها مُقامَا[1]
سوَى تحليلِ رَاحلةٍ وعَيْنٍ أكالئُها مخافَةَ أنْ تَنامَا
أتَوْا نارِي، فقلْتُ مَنُونَ أنتمْ فقالوا: الجنُّ! قلت: عمُوا ظَلاَمَا[2]
فقلت: إلى الطّعامِ، فقال منهم زَعيمٌ: نحسُدُ الإنْسَ الطعامَا

وهذا غلط وليس من هذا الباب، وسنضعه في موضعه إن شاء اللّه تعالى. بل الذي يقع ههنا قول أبي المطراب عُبيدِ بن أيُّوبَ[3]: [من الطويل]

فَللّه درُّ الغُول أيُّ رَفيقةٍ لصاحب قفرٍ خائفٍ متقفِّرِ[4]
أرَنّتْ بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحنٍ وأوقَدَتْ حَوَالَيَّ نِيرَاناً تبوخُ وَتَزْهَرُ[5]

١٢٥٥ - [نار الاحتيال][6]

وما زالت السَّدَنَة تحتالُ للنَّاس جهةَ النِّيران بأنواع الحيل، كاحتيال رُهبانِ كَنيسةِ القُمامةَ ببيت المقدس بمصابيحها، وأنَّ زَيْتَ قناديلها يَسْتَوْقِدُ لهم من غير نَارٍ، في بعض ليالي أعيادِهم

قال[7]: وبمثل احتيال السَّادنِ لخالد بن الوليد، حين رماه بالشَّرَر؛ ليوهمه أنَّ ذلك من الأوثان،أو عقوبةٌ على تركِ عبادتها وإنكارها، والتعرُّض لها؛ حتى قال[8]: [من الرجز]

يا عُزُّ كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَكِ إنِّي وَجَدْتُ اللّهَ قد أهَانَكِ

حتى كشف اللّه ذلك الغطاءَ، من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

١٢٥٦ - [نار الصيد][9]

ونار أخرى، وهي النَّار التي تُوقدُ للظباء وصيدها، لتعشى إذا أدامت النَّظر،

---

(١) حضأت: أشعلت
(٢) منون أنتم: أي من أنتم.
(٣) البيتان في أشعار اللصوص ٢١٨.
(٤) المتقفر: الذي يتبع آثار الصيد، وفي أشعار اللصوص «يتستر» مكان «المتقفر».
(٥) تبوخ: تسكن وتفتر. تزهر: تضيء.
(٦) ثمار القلوب (٧٤)، حيث نقل عن الجاحظ.
(٧) ربيع الأبرار ١/١٨١.
(٨) الرجز بلا نسبة في ثمار القلوب (٧٥).
(٩) ثمار القلوب (٨٣٠).

وتُخْتَل من ورائها، ويطلب بها بيض النعام في أفاحيصها ومكناتها.

ولذلك قال طُفيلٌ الغنوي[1]: [من الطويل]

عوازب لم تسمع نُبُوحَ مَقامَةٍ ... وَلَمْ تَرَ ناراً تِمَّ حَوْلٍ مُجَرَّمِ
سِوى نَار بَيْض أو غزَالٍ بقفرَة ... أغنَّ مِنَ الخُنْسِ المَناخِرِ تَوْءَمِ

١٢٥٧ - [نار التهويل][2]

وقد يُوقدون النِّيران يُهَوِّلون بها على الأُسْد إذا خافوها، والأَسَدُ إذا عايَنَ النَّار حدقَ إليها وتأمَّلها، فما أكْثَرَ ما تَشْغلهُ عن السَابلة،

وَمرَّ أَبُو ثعلب الأعرج. على وادي السّباع، فَعَرَض له سبع، فقال لَهُ المُكاري: لو أمرت غِلمانَكَ فأوْقدوا ناراً، وضربوا على الطَّساس [الذي معهم][3] ففعلوا فأحْجَمَ عنها[4]، فأنشدني لهُ ابن أبي كريمة، في حُبّه بعد ذلك للنّار،وَمَدْحِهِ لها وللصوت الشَّديد، بَعد بُغْضِه لهمَا وهو قوله[5]: [من الطويل]

فأحْبَبْتها حُبًّا هويتُ خِلاَطَهَا ... ولو في صَميمِ النَّار نَار جَهنَّم
وصِرْتُ أَلَذُّ الصَّوتَ لو كان صاعِقاً ... وأطْربُ من صَوْت الحمار المرقَّم[6]

١٢٥٨ - [نار الاصطلاء][7]

وروي أنَّ أعرابيًّا اشتدَّ عليه البردُ، فأصاب ناراً، فدنا منها ليصطلي بها، وهو يقول: اللّهم لا تَحْرمنيها في الدُّنيا ولا في الآخرة!.

١٢٥٩ - [سُكوت الضفدع عند رؤية النار]

وممّا إذا أبصر النّار اعترَتْهُ الحيرةُ، الضّفدعُ،؛ فإنَّهُ لا يزالُ يَنِقُّ فإذا أبْصَرَ النّار سَكَتَ.

---

(١) البيتان في ديوان طفيل الغنوي ٧٧، وثمار القلوب (٧٥)، وتقدم البيتان مع شرحهما في الفقرة ١١٧٩.
(٢) ثمار القلوب ٤٦١ (٨٢٨).
(٣) الزيادة من ثمار القلوب (٨٢٩).
(٤) في ثمار القلوب: «فأحجم عنهم الأسد».
(٥) البيتان بلا نسبة في ثمار القلوب (٨٢٩).
(٦) الحمار المرقم: المخطط القوائم.
(٧) ثمار القلوب ٨٢٨.

١٢٦٠ - [نار الحباحب][1]

ومن النِّيران «نار الحُباحِب» وهي أيضاً «نارُ أبي الحباحب». وقال أبو حَيّة[2]: [من الطويل]

يُعَشِّرُ في تقريبه فإذا انحنى عليهنّ في قفٍّ أَرَنَّتْ جنادلُهْ[3]
وَأَوْقَدْنَ نيرانَ الحباحب والتقى غَضاً تتراقى بينهنَّ ولاوِلُهْ[4]

وقال القُطاميُّ[5] في نار أبي الحُباحب: [من الطويل]

تُخَوِّدُ تخويدَ النّعامة بَعْدَما تَصَوَّبَت الجَوْزَاءُ قَصْدَ المغَارِبِ[6]
ألا إنما نيرَانُ قَيْسٍ إذا اشْتَوت لطارقِ لَيْلٍ مثلُ نارِ الحباحِبِ

ويصفون ناراً أخرى، وهي قريبةٌ من نار أبي الحباحب، وكلُّ نار تراها العينُ ولا حقيقة لها عند التماسها[7]، فهي نار أبي الحباحب. ولم أسمعْ في أبي حباحب نفسه شيئاً.

١٢٦١ - [نار البرق]

وقال الأعرابيُّ، وذَكَرَ البرْقَ[8]: [من الطويل]

نَارٌ تعُود به للعُودِ جِدّتُه والنَّارُ تُشْعِلُ نيرَاناً فتحترِقُ

يقول: كلُّ نار في الدُّنيا فهي تحرِقِ العِيدانَ وتُبْطلها وتُهلكها، إلاّ «نار البرق»،

---

(١) ثمار القلوب (٨٣٢)، والخزانة ٧/١٥٠، والأوائل ٤٢، ومجمع الأمثال ٢/١٤٩، وشروح سقط الزند ٢/٥٠٦ - ٥٠٧.

(٢) ديوان أبي حية النميري ٧٠ - ٧١.

(٣) في ديوانه: «القف: الأرض ذات حجارة عظام. أرنّت: صوتت. الجنادل: الحجارة الكبيرة. أي تصوت الحجارة لضرب بعضها بعضاً».

(٤) في ديوانه «الولاول: الأصوات، جمع ولولة».

(٥) ديوان القطامي ٥٠، والبيت الثاني له في ثمار القلوب (٨٣٣)، وهو للنابغة الذبياني في ملحق ديوانه ٢٢٨، واللسان والتاج (حبحب)، وبلا نسبة في المخصص ١١/٢٦.

(٦) خوّد البعير والظليم: أسرع واهتز في مشيه. تصوبت: انحدرت. الجوزاء: نجم.

(٧) نقل الثعالبي هذا القول عن الجاحظ، وبعده: «كقدح الخيل من حوافرها النارَ إذا وطئت المرْوَ والصفا والجلاميدَ الكبار». ثمار القلوب (٨٣٢).

(٨) البيت لابن ميادة في ديوانه ٢٧٦، والسمط ١/٤٤٥، والحماسة البصرية ٢/٣٤٩، ولعدي بن الرقاع في الوحشيات ٢٧٩، والحماسة الشجرية ٢/٧٨٣، ومحاضرات الراغب ٢/٣٢٧، وبلا نسبة في المخصص ٩/١٠٢، والأمالي ١/١٨٠، وزهر الآداب ١/١٧٨، ونهاية الأرب ١/١١٤.

فإنَّها تجيء بالغيث. وإذا غِيثَتِ الأرضُ ومُطِرَتْ أحدَثَ اللَّه لِلعيدَانِ جِدَّةً. وللأَشْجارِ أغصاناً لم تكن.

١٢٦٢ - [نار اليراعة]

ونارٌ أخرى، وهي شبيهةٌ بنار البرق، ونار أبي حباحب، وهي «نار اليراعة»، واليراعة: طائر صغير، إنْ طار بالنَّهار كان كبعض الطَّير، وإن طار باللَّيل كان كأنَّهُ شهابٌ قُذِفَ أو مصباحٌ يطير.

١٢٦٣ - [الدفء برؤية النار]

وفي الأحاديث السَّائرة المذكورة في الكتب، أنَّ رَجُلاً أُلقيَ في ماء راكدٍ في شتاء بارد، في ليلةٍ من الحنادِس[١]، لا قمر ولا ساهور[٢] - وإنما ذكر ذلك ،لأنَّ ليلة العَشْر والبدر والطَّوق الذي يستدير حول القمر، يكون كاسِراً[٣] من بَرْد تلك الليلة - قالوا: فما زال الرجُل حيًّا وهو في ذلك تَارِزٌ[٤] جامد، ما دام ينظر إلى نَارٍ، كانت تُجاهَ وجهه في القرية، أو مصباحٍ، فلما طَفِئتْ انْتَفَضَ.

١٢٦٤ - [نار الخلعاء والهُرَّاب]

وقال الشَّاعر[٥]: [من الطويل]

ونارٍ قُبيلَ الصُّبحِ بادَرْتُ قَدْحَها ... حَيَا النَّارِ قد أوْقَدْتُهَا للمُسَافِرِ[٦]

يقول: بادرت اللَّيل، لأنَّ النَّارَ لا تُرى بالنهار، كأنه كان خليعاً أو مطلوباً.

وقال آخر: [من الطويل]

وَدَوِّيَّةٍ لا يثقب النَّار سَفْرُهَا ... وَتُضْحِي بها الوَجْناءَ وَهْيَ لَهيدُ[٧]

---

(١) الحنادس: ثلاث ليال من الشهر مظلمات.

(٢) الساهور: التسع البواقي من الشهر.

(٣) كاسراً: مخففاً.

(٤) التارز: الصلب الشديد.

(٥) البيت لكعب بن زهير في ديوانه ١٨٥، وأساس البلاغة (قهر)، وبلا نسبة في اللسان (حيا).

(٦) حيا النار: أراد: حياة النار فحذف الهاء. «اللسان: حيا».

(٧) يثقب النار: يشعلها. السفر: المسافرون. الوجناء: الناقة الشديدة. اللهيد: المجهدة المتعبة.

كأنَّهم كانوا هُرّاباً، فمِنْ حثهم السّيرَ لا يُوقدون لبُرْمَةٍ ولا مَلَّة؛ لأنّ ذلك لا يكون إلاّ بالنزول والتمكثِ، وإنما يجتازون بالبَسيسَةِ[1]، أو بأدنى عُلقة. وقال بعض اللُّصوص[2]: [من الرجز]

ملساً بـذَوْدِ الحدَسـيّ مَلْسَـا   نبَّهْتُ عنهـن غلامـاً غُسَّـا[3]
لمَّـا تَغَشَّـى فَـرْوَةً وَحِلْسـا   مِنْ غُدْوَةٍ حتَّى كأنّ الشّمسَا[4]
بالأفُق الغربيِّ تكْسَى وَرْسَـا   لاَ تخبـزا خَبْـزاً وَبُسّـا بَسّـا[5]
ولا تُطيـلا بمُنـاخٍ حَبْسَـا   وَجَنِّباهـا أسَـداً وَعَبْسـا

قال: والبَسيسة: أن يبلّ الدَّقيق بشيء حتى يجتمع ويؤكل.

١٢٦٥ - [نار الوشْم]

ونار أخرى، وهي «نار الوشمِ والمِيسَمِ» يقال للرجل: ما نار إبِلِك؟ فيقول: عِلاط[6]، أو خِبَاط[7]، أو حَلْقة[8] أو كذا وكذا.

١٢٦٦ - [رجز لبعض اللصوص]

وقرّب بعضُ اللُّصوص إبلاً من الهُواشة[9]، وقد أغار عليها من كلِّ جانب،

---

(١) البسيسة: سيفسرها الجاحظ بعد روايته الأبيات.

(٢) الرجز للهفوان العقيلي، أحد بني المنتفق؛ في معجم الشعراء ٤٧٥ - ٤٧٦، وأشعار اللصوص ٦٣١، ونوادر أبي زيد ١٢، ٧٠، وبلا نسبة في المخصص ١٠٤، ١٢٧، والأبيات (١، ٦، ٧) بلا نسبة في اللسان والتاج (خبز، بسس، حدس، ملس)، والتهذيب ٧/٢١٥، ٢١٦، ١٢/٣١٦، ٤٥٨، وديوان الأدب ٢/١٦٠، والجمهرة ٦٩، والمقاييس ١/١٨١، ٢/٢٤٠، والمجمل ١/٢٢٨.

(٣) ملس الإبل: ساقها في خفية. الذود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر. الحدسي: منسوب إلى بني حدس بن أراش اللخمي، وهو الذي سرقوا إبله. الغُسّ: الضعيف اللئيم.

(٤) الحلس: الكساء الذي على ظهر البعير تحت القتب.

(٥) الورس: نبت له نور يشبه الزعفران. البس: الحلب.

(٦) العلاط: سمة في عرض عنق البعير والناقة، والعلاط: يكون في العنق عرضاً.

(٧) الخباط: سمة تكون في الفخذ؛ طويلة عرضاً، وهي لبني سعد، وقيل هي التي تكون على الوجه، أو هي فوق الخد.

(٨) الحلقة: سمة على شكل الحلقة، في الفخذ أو أصل الأذن، وانظر المخصص ٧/١٥٤ - ١٥٦ حيث أفرد باباً في سمات الإبل.

(٩) هاشت الإبل: نفرت في الغارة فتبددت وتفرقت

وجَمعها من قبائلَ شتى، فقرّبها إلى بعض الأسواق، فقال له بعض التّجار: ما نارك؟ وإنما يسأله عن ذلك؛ لأنهم يعرفون بميسم كلّ قومٍ كرَمَ إبلهِمْ من لؤمها. فقال[1]: [من الرجز]

تَسْأَلُني البَاعَةُ ما نِجَارُها إذْ زعزعُوها فَسَمَتْ أبصارُها[2]

فكلُّ دارٍ لأناسٍ دَارُها وكلُّ نَارِ العَالمينَ نارها

وقال الكردوس المرادي[3]: [من الطويل]

تسائلني عن نارها ونِتَاجها وذلك عِلْمٌ لا يُحيط به الطّمْشُ

والطّمْشُ: الخلقُ. وَالوَرَى: النَّاس خاصّة

تمَّ المصحفُ الرابعُ من كتاب الحيوان، ويليه إن شاء اللّه تعالى المصحَف الخامسُ.
وأوله: نبدأ في هذا الجزء بتمام القَوْل في نيران العجَم والعرب،
ونيران الدِّيانة، ومبلغ أقدارها.

---

(١) الرجز بلا نسبة في اللسان (نجر، نور)، والتهذيب ١١/ ٤١، ١٥/ ٢٣١، والتاج (نجر، نور، بيع)، والخزانة ٣/ ٢١٣ (بولاق)، ومحاضرات الراغب ٢/ ٢٩٠، وحلية المحاضرة ٢/ ١٣٧، وأشعار اللصوص ٦٤٨.

(٢) زعزعوها: ساقوها سوقاً شديداً.

(٣) البيت للكردوس المرادي في حلية المحاضرة ٢/ ١٣٧، وأشعار اللصوص ٦٤٩.

فهرس

الجزءين الثالث والرابع

من

كتاب الحيوان

فهرس أبواب المصحف الثالث

فهرس أبواب المصحف الرابع